أحمد أوميت

AHMET ÜMIT




Beyoğlu Rapsodisi

رواية

THAQAFA ثقافة
Publishing & Distribution L.L.C.




# Beyoğlu Rapsodisi

رواية

أحمد أوميت
AHMET ÜMIT

ترجمة

مهتاب محمد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة


THAQAFA
ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution LLC



الطبعة الأولى: 1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2362-2

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية

Rapsodisi Beyoğlu

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية

ضمن مشروع

TEDA by sponsered is Translation

Bakanligi Turizm ve Kultur .T.C

Mudurlugu Genel Yayimlar ve Kutuphaneler

SayıŞtay Eski) No:4 Bulvarı Cumhuriyet Mahallesi PaŞa Fevzi (Binası

Ulus/ANKARA/TURKEY 06030

www.tedaproject.com :Web - teda@kulturturizm.gov.tr :e-mail





أبوظبي هاتف: (+971-2) 6345404 فاكس: (+971-2) 6345407
دبي هاتف: (+971-4) 2651623 فاكس: (+971-4) 2653661
بيروت هاتف: (+961-1) 786233 فاكس: (+961-1) 786230



تصميم الغلاف: سامح خلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

# الإهداء

إلى صديقي العزيز لافند يلماز

# تمهيد

أنا أقدم من الأمطار والرياح والطلبة في أزقة بيه أوغلو ...
أنا من عمر السكون الأزلي وأول أيام الخليقة ...
أنا من بيه أوغلو ...
(إيلهان بيرك)

# (1)

على الرغم من عدم اعتقادي بالتسيير، لكن تسلسل الأحداث التي تعرّضنا لها وتطوراتها بدأ يقلقني ويثبت لي المرة تلو الأخرى خطأ اعتقادي، وبدأت أفكّر بوجود من يحرّك الأمور خلف الكواليس، وبدأت أشك بما كنت أعتقد به.

فخلال الخريف المنصرم، اجتمعت أحداث لا تمتّ إلى بعضها بعضاً بأي صلة منطقية وتداخلت بشكل يثير الريبة والدهشة في آن معاً، وجعلتنا نواجه نحن الثلاثة ظروفاً غير متوقعة. ففي أحد أيام الخريف الكئيبة، وبينما كنا قد تواعدنا على اللقاء في موعد عادي - كأي موعد يجمع ثلاثة أصدقاء - في أحد المشارب الواقعة في أزقة بيه أوغلو، تطورت الأمور وتشابكت بطريقة بت أخشى الآن أن أُسمّيها محض صدفة.

بدايةً، أود أن أعرّفكم على الأصدقاء الثلاثة، سليم (أنا)، وصديقاي كنعان ونهاد. ولكنني أود أن ألفت انتباهكم إلى أمر هام، فوجود ثلاثة أصدقاء في ظروف غامضة ومصادفات غريبة، وخوضهم هذه المغامرة معاً، لا يعنيان مطلقاً أنّ هؤلاء الأشخاص شباب في مقتبل العمر كما هو متوقّع في مثل هذه الحالات، فلقد تجاوزتنا رياح الشباب العاصفة منذ زمن وتركتنا عند إحدى محطات العمر، ولكنها ليست آخر المحطات، فنحن لسنا كهولاً أيضاً؛ فلنقل إننا ثلاثة رجال عاديون في أواسط العمر، لا شيء يميّزنا كثيراً عن أبناء جيلنا، وقد بلغنا هذه المحطة منذ سنين عدة، وكنّا نراوح مكاننا على أرصفتها بهدوء وقناعة.

إلى أن عصف فضول كنعان اللامتناهي بهذا الهدوء، وأدخلنا متاهة كابوسية لم تخطر على بالنا مطلقاً.

سأخبركم لاحقاً وبشكل مفصّل كيف خضنا غمار هذه الأحداث، ولكن دعوني أحدّثكم الآن عن صديقيّ كنعان ونهاد.

تعود معرفتي بهذين الصديقين إلى أيام الدراسة الباكرة، وظلت مستمرة إلى الآن. تعرفت عليهما في الحديقة الواسعة لمدرسة غلطة سراي ذات البناء الأثري، ولم نكن حينها قد بلغنا مرتبة الشباب بعد، ولا نعرف بالضبط ما الذي دفعنا حينها لنصبح أصدقاء. قد يكون الأمر نتيجة طبيعية لأنّنا كنا ندرس في الصف ذاته، ولكنني أستطيع دحض هذا التبرير ببساطة، وذلك بسؤال بديهي: لماذا اجتمعنا نحن الثلاثة تحديداً مع وجود عشرات الطلاب وعشرات الاحتمالات الأخرى؟ ربما يعود الفضل إلى فرقة الكشافة؛

فقد انضممنا إلى الفرقة التي اشتهرت بها مدرستنا حينها، وكانت تضم العشرات غيرنا. أجسادنا النحيلة والمتشابهة ببذلات الكشّافة، والخيم التي كنا نرفعها يداً بيد، والنيران التي كنا نشعلها لتضيء ليالينا في تلك البراري الرائعة، والمسيرات الصاخبة التي كنا نشارك فيها بحماسة في المناسبات والتي كانت تتحوّل بعد ساعات قليلة إلى ذريعة للتسكع في الأزقة والحارات حتى المساء... مما لا شك فيه أن كل تلك الأمور المشتركة قد شكّلت سبباً لتوطيد علاقتنا، ولكني أظن أن هناك سبباً أهم وأقوى. لا، لا، أنا لا أتحدث عن كوننا نحن الثلاثة أطفالاً وحيدين لأسرنا، بل أنا أتحدث عن طبيعة شخصياتنا. لكن المفارقة تكمن في أنّ شخصية كل منا كانت تختلف عن شخصية الآخر؛ تماماً كاختلاف المظهر الخارجي لكل واحد منّا.

لقد كان كنعان بشعره المتموّج الأسود، وعينيه اللتين تومضان فرحاً بشكل دائم، ونشاطه المستمر والمفرط أحياناً، أكثرنا جنوناً وتميّزاً.

أما نهاد برأسه الكبير البيضاوي الشكل، وعينيه السوداوتين اللتين تذيّلان جبينه الواسع بنظراتهما الحزينة والعميقة في معظم الأحيان، فلم يكن يشبهنا في شيء مطلقاً.

ولكن، في الوقت نفسه كان هناك شبه خفيّ يجمعنا. قد لا يكون الأمر شبهاً بقدر ما هو محاولة من نهاد لتقليد تصرفاتنا نحن الاثنين، وهذا ما كان يولِّد انطباعاً بوجود شبه ما.

أما بالنسبة إليّ، فلا أظن أن هناك شيئاً مميّزاً في جسدي المائل إلى الضخامة والطول، ولون عينيّ الذي يتراوح بين الأزرق والرمادي، والذي لا يلفت الانتباه نظراً إلى كونه لوناً باهتاً نوعاً ما - بصراحة، إنني أعجز عن تحديد لونهما في معظم الأحيان - وشعري الكستنائي اللون والذي خفّت كثافته بشكل واضح مع تقدّمي في العمر، وثيابي التي أحرص دائماً على أن تكون نظيفة ومكوية بشكل متقن، ورغبتي الدائمة في التقيّد بالقوانين بشكل حرفي. أعتقد أن اجتماع هذه الصفات معاً جعلني شخصاً عادياً لا ألفت انتباه أو رغبة أحد في استجداء صداقتي.

لقد رافق حرصي على مظهري الخارجي ميلي إلى الرصانة؛ هذا الميل الذي يعود إلى أيام الطفولة، والذي ترك انطباعاً لدى الآخرين على الدوام بأنّني أكبر من عمري الحقيقي.

ومع ذلك، إنّ هذه الصفات والاختلافات بيننا كانت الرابط الخفي الذي جمعنا منذ أيام الدراسة، والسبب في استمرار صداقتنا كل تلك السنين؛ فنحن نكمّل بعضنا بعضاً، ونشكّل توليفة إنسانية مميّزة حين

نجتمع. بعبارة أخرى، نحن مثلّث روحي تختلف أضلاعه، ولكنها تصنع بتواصلها مثلّثنا الخاص.

مثلّث روحي... حسناً، إذا قرأ كنعان هذه العبارة فسيصاب بالدهشة في البداية، ثم سيحاول البحث عن معناها الخفي وفك رموزها اللامرئية؛ وذلك لأنه بات مؤخراً مهتماً بالماورائيات وبالروحانيات، وبدأ يولي هذه الأمور اهتماماً خاصاً.

أمّا أنا فقد كنت شغوفاً بالقصص البوليسية؛ كمغامرات شارلوك هولمز، وسرقات أرسين لوبين، والجرائم المعقدة التي يحلها هيركول بوارو بسهولة تامة... ولا تزال هذه القصص مصدر اهتمامي، وهي تحتل عدة رفوف في مكتبتي المنزلية.

منذ أيام الدراسة، كان كنعان يختار من مكتبة مدرستنا القديمة تلك القصص التي تدور حول المشعوذين، وقصص الرعب والأشباح، ولم يكن يكتفي بمطالعتها فقط، بل كان يغوص في عوالم من الإثارة والرعب والمغامرة، ويقص علينا ما تجود به مخيلته من حكايا ينسجها حول أبنية بيه أوغلو الموغلة في القِدم.

في ليالي الشتاء الطويلة، وبعد أن يحيط الظلام كضباب كثيف بكل زوايا بناء مدرستنا القائم منذ خمسمائة عام والذي ظل يقاوم عوامل الزمن بشجاعة، وبعد أن تغوص ممرات الطابق السفلي في العتمة، ويأوي الجميع إلى النوم، كان مصاصو الدماء والمشعوذون الذين يهجعون طيلة النهار في ثنايا مخيلة كنعان يبدأون بالخروج والتجول في تلك الممرات واحتلالها، وكذلك الأصوات التي تأتي إلينا والتي كنا نعرف أنها أصوات مجادلات الرياح الغاضبة وأمواج البحر الهائجة. كانت تلك الأصوات على حد زعم كنعان مجادلات من نوع آخر بين هذه المخلوقات الليلية الغاضبة والمخيفة والتي تحتل كل ما حولنا ما إن يحلّ الظلام. بمرور الوقت، تخلّص صديقي من تلك المخيّلة الغريبة، ولكنه في المقابل استسلم لشغفٍ من نوعٍ آخر.

برأيي، يعود السبب الخفي الكامن وراء اهتمام كنعان بهذه المواضيع إلى عدم انشغاله بمشاكل الحياة الجدّية؛ فهو لم يجابه الفقر أو المرض أو التعاسة أو الفشل مثلاً في أي مرحلة من مراحل عمره.

كان والده السيد موجدات - رحمه الله - رجلاً طيّب القلب وحسن الخلق ودمث الأخلاق؛ على الرغم من أنّ لقبه الشائع كان الرجل العابس، وذلك يعود لشكل حاجبيه الكثيفين بلونهما الأسود الفاحم، وتجاورهما

بصورة توحي بالعبوس.

كان السيد موجدات يعاملنا على الدوام بمحبةٍ ولطفٍ، كما كان يدخل السرور إلى قلبي في كل لقاء. ومن الأسباب التي جعلتني أحبه أنه كان يعاملنا كأشخاص بالغين، ويعاملني ونهاد وكأنّنا ابناه.

ولكن أكثر ما يجعل كنعان محظوظاً برأيي هو والدته السيدة نيّرة. وكانت كلما احتضنته أمامنا شعر صديقي بالانزعاج والخجل من هذا الدفق من الحنان، فيما أشعر في المقابل بأني سأدفع أي شيء لأكون مكانه ولو للحظة. لقد منحها شعرها الأحمر المتموج الذي تجمعه على شكل طوق يحيط برأسها - بالإضافة إلى عينيها الواسعتين ووجهها البيضاوي بملامحه الهادئة، وأصابعها البيضاء القصيرة والمدببة - مزيجاً فريداً ورائعاً من الحنان الأمومي.

كانت لمسة واحدة من تلك الأصابع كفيلة بتحويل أي شيء إلى كتلة من الغبطة والسعادة؛ ابتداء بشعر كنعان الأجعد، ومروراً بفنجان القهوة الذي كانت تشربه صباحاً، وتلك الأغطية المشغولة يدوياً والتي كانت ترتّبها بشغف رائع على طاولاتها الموزعة في أرجاء المنزل، وليس انتهاء بكفيّ الكبيرتين ككفيّ دبٍ بريّ.

في تلك اللحظات بالذات، كنت أُجري مقارنة خاسرة بين السيدة نيّرة بسعادتها المعدية لكل من حولها، وأمي التي أنهك داء السكر جسدها وحوّلها إلى مجرد ظلٍ نحيل، وأفقدها كل رغبةٍ في الحياة. أمي التي ورثت عنها لون عينيّ، والتي كانت حتى في أسعد لحظاتنا لا تستطيع أن تشاركنا بابتسامة صغيرة تخفي شحوب شفتيها. تلك المقارنات كانت دائماً تفسد لقاءاتي مع السيدة نيّرة.

لنعد الآن إلى صديقي كنعان. لقد كان تلميذاً مجتهداً على الدوام. وعلى الرغم من أنه لم يكن يقضي الكثير من وقته في الدراسة، إلا أن ذكاءه الحاد مكّنه من اجتياز سنواته الدراسية بنجاح كبير، ومكنّه في ما بعد من دخول كلية الحقوق بكل سهولة.

ولكنه وبعد أن تخرّج من الجامعة وأنهى مدة تدريبه التي تخوّله ممارسة مهنة المحاماة، لم يتجه إلى ممارستها مطلقاً، وهذا ما فعلته أيضاً. فما إن حوّل والده ملكية شركة التأمين التي أسسها بجهد استمر لسنوات طويلة إليه، حتى استغل صديقي هذه الفرصة بسرعة فائقة ليدخل عالم الأعمال ويترك أحلام مكتب المحاماة خلفه إلى غير رجعة، ولكن هذا لا يعني مطلقاً أنّ كنعان شخص متهوّر، بدّد الثروة التي آلت إليه من والده،

بل هو نقيض هذا تماماً، فقد تميّز منذ البداية بقدرته على استغلال الفرص بشكل صحيح، وبحدسه في اكتشاف بواطن الأمور واستشفاف مصيرها، وبهذا طوّر الشركة التي ورثها، وقام بتوسيعها بشكل لافت وخلال فترة زمنية قصيرة كما أعتقد. كان كنعان ولا يزال بارعاً في حل أي قضية تدخل ضمن نطاق اهتمامه. فهو يركّز كل طاقته وجهده لفهم أي أمر وحلّه بأفضل صورة ممكنة. وبعد أن يتم له ما يريده يفقد اهتمامه بهذا الأمر لينتقل إلى شيء جديد. كما أنه كان يحب النساء، وعلى عكس باقي الرجال، إنه لا يعتقد أنّ المرأة كائن معقّدٌ مطلقاً، بل يعتبرها كائناً بسيطاً ولطيفاً. وبمناسبة الحديث عن النساء لم يجد صديقي حتى الآن المرأة التي تستحق أن تأسر قلبه، وتستحوذ على اهتمامه حسب زعمه. ولكنّ هذا المبرر يخفي خلفه أسباباً أعمق بكثير، أسباباً تعود إلى سنوات الشباب؛ بطيشه وانكساراته وانتصاراته العاطفية في آن. فقد تعرّف كنعان في آخر سنة دراسية لنا على بهية التي كانت طالبة في ثانوية البنات الفرنسية في منطقة حربيّة، ولم يستطع حتى الآن أن يتجاوز الجرح الذي سببته له بهية حين تركته وفضّلت عليه بهجت الذي كان قائد فريق كرة السلة في مدرستنا حينها. لقد كانت تلك أول هزيمة له. لا أظن أنّه كان يحبها بدرجة كبيرة، ولكنها عندما تركته بدأت تستأثر باهتمامه ومشاعره. لا ألوم صديقي على موقفه إزاء هذه التجربة، فلو كنت مكانه فلربما تصرّفت بالطريقة نفسها، فجميعنا نخضع لقانون القلب السرمدي: كل ممنوعٍ مرغوبٌ حتماً.

وقد ظل صديقي يعاني من آثار هذه الصدمة لفترة طويلة، فذلك الشاب الذي كان يضجّ حيوية وبهجة تحوّل إلى عاشق كلاسيكي كئيب، يجترّ آثار صدمته في صمت وعبوس. وقد أثّر هذا التحول الدراماتيكي لدى صديقنا فينا نحن الاثنين؛ أنا ونهاد. وعلى الرغم من كوني شخصاً أبعد ما يكون عن العواطف الجيّاشة وتجلياتها المفرطة، وعلى الرغم من حرصي الدائم على تجنّب المشاكل والأزمات التي من هذا النوع، فقد تأثّرت لمصاب صديقي، ووافقت على خطة نهاد، حيث قمنا معاً بملاحقة بهجت بعد انتهاء دوام المدرسة، وما أن سنحت لنا الفرصة حتى هاجمناه وهددناه، واعتقد أن ما جعله يسكت حينها ويبتلع الإهانة، هو ضخامة جسمي الذي أدخل الرعب في نفسه. ولكنه، في اليوم التالي جمع كل رفاقه من فريق كرة السلة، وأحاطوا بنا أنا ونهاد كجبال من الأجساد الضخمة، وقد شارك كنعان في هذه المعركة ودافع عنا من دون أن يعرف

سببها الحقيقي، وقد طالته الضربات والركلات التي كنا نتلقّاها من كل الجهات. وبالطبع لم نستطع أن نشتكي أمام مدير المدرسة. لأنّنا من تسبب بالشجار، لذلك عندما كان المعلمون يسألوننا عن مصدر هذه الكدمات والجروح الموزعة على جغرافية وجوهنا وأجسادنا نحن الثلاثة، كنّا ندّعي بأنّنا تعرضنا لهجوم من فتيان خارج المدرسة، ولا نعلم من هم، ومن أين أتوا. ولكن هذه الضربات لم تذهب سدى وكان لها مفعول إيجابيٌ على صداقتنا التي أصابها الركود إثر العواصف العاطفية التي أحدثتها بهية في قلب صديقنا. فبعد المشكلة تخلّص كنعان من حالة الكآبة تلك، ونفض غبار الوحدة عن ثنايا روحه، وعدنا كما كنّا في السابق، بل توثّقت عرى الصداقة بيننا أكثر من ذي قبل.

على الرغم من أن صديقنا خرج من هذه الأزمة وعادت إليه روحه المرحة، إلا أنّ أي ذكر عابر لبهية، كان يجعل نظراته تغوص إلى أعماق لا نستطيع بلوغ كنهها، ويجعل ابتسامته الجميلة تتلاشى ببطء وحزن. ولا أزال مصّراً على أن السبب الذي دفعه إلى رفض فكرة الزواج حتى الآن، هو هذه التجربة الفاشلة. وكما ذكرت سابقاً، لم يكن الأمر حباً؛ بقدر ما كان شعوراً موجعاً بخسارة لم يجد حتى الآن طريقة لتعويضها. بالطبع هذه وجهة نظري لتفسير عزوفه عن فكرة الزواج. كما أنّ نهاد أيضاً يشاركني الرأي ذاته، ولكن إذا سألتم كنعان عن الموضوع فستسمعون قصة أخرى تختلف تماماً عن تلك التي أوردتها، فلا أحد يدوّن هزائمه بحيادية ونزاهة.

أياً يكن الأمر، لم يعد لهذا الموضوع أهمية الآن، فصديقي سعيد جداً في حياته، ويستمتع بحريته إلى أقصى درجة ممكنة، وهذا ما يجعلني أحياناً - وعلى الرغم من حبي الكبير لزوجتي كولريز - أغار منه، وأتمنى في سري أن أعيش مثله ولو لأيام معدودة. لقد كان رجلاً غنياً، يعرف كيف يستمتع بكل لحظة، والميزة الأهم أنّه لم يكن مطالَباً بتقديم مبررات لتصرفاته أمام أي شخص.

أن تطلب من الحياة أكثر من ذلك فهذا يعني أنك شخص جاحد، ولم يكن صديقي جاحداً بطبيعة الحال، بل كان يشكر الحياة على النعم التي أغدقتها عليه، وكان يعتصر لحظات المتعة حتى آخر قطرة. كانت حياته مثالية لو استمرت على هذه النحو، لكن دوام الحال من المحال، فحادثة الطائرة تلك جعلت كل شيءٍ ينقلب رأساً على عقب.

ولكن، قبل أن ننتقل إلى هذه الحادثة دعوني أكمل ما بدأته، وأعرّفكم على نفسي وعلى صديقي الآخر نهاد، فلا يمكن فهم أحداث هذه

القصة من دون التعرف علينا نحن الاثنين.

على عكس كنعان وبعيداً عن جموحه، فقد كنت شاباً هادئاً منطقي التفكير، ولا أزال حتى الآن أتمتع بالمزايا نفسها والشخصية عينها. ومع ذلك فقد كان ما يجمعني بكنعان أكثر بكثير مما يجمعني بصديقنا الآخر نهاد. فنحن ننحدر من أسرتين غنيتين، وكل واحد منا فضّل أن يتابع مسيرة والده العملية، وترك الشهادة الجامعية التي حصل عليها معلّقة على أحد الجدران. ولكن الفرق الوحيد بيننا في هذه الناحية هو أن كنعان تخرّج من كلية الحقوق في جامعة اسطنبول، بينما أنا درست هندسة العمارة.

في الحقيقة، أنا أحب هندسة العمارة وقد درستها بناءً على رغبتي الشخصية، ولكنني لم أستطع أن أرفض طلب والدي في استلام مكانه في العمل. والبناء الوحيد الذي استثمرت معرفتي الهندسية في بنائه كان مبنى شركتنا في بيه أوغلو. لقد التهم الحريق الذي شب عام 1870 الكثير من المباني الخشبية لتلك المنطقة، فأُعيد بناء معظم هذه القصور والعمارات بأسلوب النيو كلاسيك الأنيق جداً، والذي أعاد للمنطقة رونقها السابق. لذا، كان البناء الذي صممته أشبه بمشروع بدائي يفتقر إلى أدنى مقومات الجمال والعراقة مقارنة مع الأبنية الكلاسيكية التي كانت تحيط به، ولكن والدي لم يشأ أن يحبط محاولتي الأولى والأخيرة - على ما أظن - في مجال تخصّصي وبذل كل جهوده لكي يكون البناء مشابهاً للمخطط الذي وضعته.

ولأكون منصفاً، لم أحزن قط لأنني لم أقم بمزاولة العمل في مجال الهندسة، بل على العكس تماماً، فقد شعرت براحة كبيرة عند استلام العمل الروتيني في إدارة المعمل المتواضع الذي كان والدي يديره من قبل، وقد سرت على خطى صديقي كنعان، وقمت بتوسيع المعمل الذي كان مختصاً في نسج بعض أنواع الأقمشة، وحوّلته إلى أحد أهم العلامات التجارية في عالم الأزياء وصناعة الملابس، ولكني لن أتبجح بالقول إنني أنجزت هذا العمل في مدة قصيرة كما فعل هو، بل لقد استغرق الأمر مني وقتاً يعادل عشرة أضعاف الوقت الذي أنجز فيه كنعان هذه المهمة. لم يتغير الوضع منذ أيام الدراسة، فعلى الرغم من كوننا طالبَيْن متفوقين، إلا أنّني كنت أدرس طيلة الوقت للمحافظة على هذا التفوق، في حين أن تفوّق صديقي كان ميّزة فطرية لا يجتهد كثيراً للمحافظة عليها. بطبيعة الحال، لم أكن شخصاً غبياً. ولكن المسألة التي يتطلب مني فهمها وحلّها بضع دقائق، يستطيع كنعان حلها في ثوانٍ معدودة، لذا حين أقارن نفسي بكنعان، أدرك أن هناك مسافة لا يستهان بها تفصلنا على مستوى الذكاء. لكن على

الصعيد الواقعي، كنت أتفوق عليه في نقطة هامة، فلاتخاذ أي قرار كنت أفكر ملياً في الأمر، وأقلّبه على كافة وجوهه، وأحاول اختيار القرار الذي يجنبني الخسائر قدر المستطاع، في الوقت الذي كانت ثقة كنعان اللامحدودة بنفسه، تدفعه إلى التسرع في اتخاذ الكثير من القرارات التي كانت نتيجتها تصبح كارثية لاحقاً. هنا كانت تظهر أهمية التفكير المنطقي الذي أتحلى به على الدوام، والتي كانت تدفع الجميع إلى الاعتقاد بأنني الأكثر ذكاءً عندما يقارنونني برفيقي، وقد سمعت هذا الاعتراف الذي أدخل السرور إلى قلبي، في أكثر من مناسبة من كنعان نفسه، على الرغم من معرفتي في قرارة نفسي، بأنه لا مجال لمقارنة ذكائي المتواضع مع سرعة بديهيته وذكائه الحاد، وهذا ما خوّله على الدوام استلام قيادة هذه المجموعة الصغيرة المكونة منّا نحن الثلاثة، فهو جدير حقاً بهذا المنصب، ومع أنّني في الكثير من المواقف كنت أعارض أفكاره، إلا أنّ القرار النهائي في معظم الأحيان كان بيده.

أمّا نهاد فقد تقبّل الأمر، ووافق على استلام كنعان لزمام المبادرة والقيادة منذ اليوم الأول لتعارفنا. ولا يزال يسير في ظله منسجماً مع الأمر، وكأنه أكثر الأشياء طبيعية في العالم. ولكنّه في بعض الحالات التي كان يقع فيها ضحية لقرارات كنعان المتسرّعة ومغامراته الكثيرة، كان يقف إلى جانبي في مواجهة القائد.

هذه المحاولات التي كنت أبذلها منذ أيام الدراسة لكسب نهاد إلى جانبي ظلت مستمرة، فقد كان صديقي ينحدر من أسرة ذات دخل محدود. لذا، كنت أنصحه على الدوام بعدم الانصياع لكنعان، في الهرب ليلاً من المدرسة، والسهر حتى وقت متأخر في إحدى دور السينما أو المقاهي أو لعب البليياردو، كنت أحثّه على الاهتمام بدراسته بدل ذلك، وكان يقتنع بكلامي، ويقطع الوعود بأنه لن ينصاع له مرة أخرى، ولكنه ما أن يرى كنعان حتى ينسى كل نصائحي، ويركنها في طرف قصي من ذهنه، وتتبخر وعوده بلمح البصر، ليبدأ جولة جديدة مع كنعان الذي لم تكن مغامراته لتنتهي قط. في الحقيقة، لا أستطيع لوم نهاد على تصرفاته، ففي الكثير من المرات كنت أجد نفسي أنا أيضاً وسط إحدى هذه المغامرات. ومع ذلك أستطيع أن أؤكد بأنني أكثرهم عقلانية، وفي لحظات الخطر كنت أستطيع كبح جماح كنعان وإقناعه بالتوقف والعودة إلى طريق المنطق الذي بفضله نجونا في كثير من المرات من العقوبات، أو حتى من الطرد من المدرسة.

أمّا بالنسبة إلى نهاد، فقد ظل على الدوام يشعر بلهفة لا تقاوم

تجاه روح المغامرة التي يتحلى بها كنعان، فهو لم يكن يتحلى بالشجاعة الكافية والثقة بالنفس كما كنعان اللتان تخوّلاه القيام بإحدى هذه المغامرات بمفرده، لكنني لا أستطيع لومه، فالحظ لم يقف إلى جانبه منذ يوم ولادته وحتى الآن، وأخشى أن يستمر هذا الوضع حتى آخر أيام حياته. ففي كل مرة، كنا نحاول فيها الهرب من المدرسة نحن الثلاثة، كان نهاد أول من يمسك به نائب المدير البدين لتلقّي العقوبات، وكان على الدوام أول ضحايا أستاذ الرياضيات المخيف؛ فما أن يدخل الصف حتى يطلب من نهاد قبل الجميع القيام من أجل حل التمارين على اللوح. وكان من أوائل التلاميذ الذين تصيبهم العدوى في أي مرض يبدأ بالانتشار، فما إن تظهر آثار الزكام عليه، كنّا نعرف أنّ العدوى منتشرة، وأنه أول المصابين، ونحتاط للأمر. وعندما بدأنا الهرب من المدرسة في الصف الحادي عشر، والذهاب إلى منازل النساء الرخيصات المنتشرة في شارع أبانوز، كان نهاد أول من أصيب بالتهاب المجاري البولية بالطبع. لقد كان صديقي حقاً شخصاً غير محظوظ.

توفيت والدة نهاد وهو طفل صغير، أمّا والده العم نجيب فكان يعمل في إحدى المطابع المنتشرة في شارع كاليونجو كللوك مشرفاً على عمال الورشة، أما السبب الحقيقي لإرساله ابنه إلى ثانوية غلطة سراي فهو حبه وتعلقه الكبير بفريق كرة القدم الذي يحمل الاسم نفسه، أكثر من رغبته في حصول ابنه على تعليم مميّز، ومستقبل جيد. لم يستطع العم نجيب أن يمنح ابنه مصروفاً كافياً، وذلك بسبب محدودية موارده المالية، ولولا مساعدتي وكنعان له بشكل مستمر، لساءت أموره بشكل كبير، وبالطبع فعندما علم أهلنا بالأمر لم يمانعوا مطلقاً، بل على العكس من ذلك فقد ساعدونا قدر المستطاع. كان والدي دقيقاً جداً تجاه مسألة تعاملي مع النقود، وكان يرسل لي مبلغاً محدداً يغطّي احتياجاتي، وعندما اكتشف بأن مصروفي بدأ يتبخر بسرعة، وينتهي قبل المدة المخطط لها، استدعاني وأخضعني لاستجواب دقيق، تمهيداً لما سيليه من عقوبات اقتصادية ومعنوية، ولكنه عندما علم بأنني أساعد صديقي، لم يكتفِ فقط بالتراجع عن خطة العقوبات، بل قدّم لي تشجيعاً كبيراً عندما زاد من مصروفي.

في البداية، كانت هذه المساعدات تُشعر نهاد بالخجل فيحجم عن قبولها، لكن مع استمرار صداقتنا وعمق علاقتنا ومتانتها، اعتاد على الأمر، وبدأ يتقبّلها بصورة طبيعية تقريباً. ولكن لا أريد أن تفهموا من هذا الحديث أن صديقي كان شخصاً انتهازياً، أو يتّكل على مساعدتنا له

ويستغلّ صداقتنا، على العكس تماماً. ربما لم يستطع أن يردّ لنا النقود التي أعطيناها إياه، ولكنّه عوضنا بصورة أجمل وأعمق، ففي كل مرة كنا نبحث عن صديق حقيقي كان نهاد أول من يقف إلى جانبنا ليساعدنا بكل ما يستطيع.

فهو أول شخص يزورنا حين نمرض، ويبقى معنا حتى نتماثل للشفاء، وعندما توفي والدانا أنا وكنعان، كان نهاد حاضراً معنا، وقد شعر بحزن شديد وكأنه فقد أحد أفراد أسرته.

وهو يحترم زوجتي كولريز ويعتبرها أخته، كما أنه متعلق جداً بابني بورج، ولكون ابني طفلاً معاقاً - قد يكون هذا هو السبب الوحيد في الحقيقة - أصبح ونهاد صديقين حميمين. أما كنعان فلم يكن يعرف كيف يتعامل مع ابني بالأريحية التي يعامله بها نهاد. يعاني ابني من متلازمة داون، ومنذ لحظة ولادته وحتى الآن لا أظن أن كنعان استطاع أن ينظر إلى عينيه ولو لمرة واحدة بشكل مباشر، حاول كثيراً أن يعامله بصورة طبيعية، ولكنه فشل، واستسلم في النهاية، وكفّ عن محاولات التقرّب منه بشكل نهائي. بالطبع لم يشعرني هذا الأمر بأي ضيق، فأنا أدرك مقدار حبه لي، لذا فهو لم يتقبّل أن يكون ابني معاقاً، لم يستطع أن ينسجم مع هذه الفكرة. على عكس نهاد الذي كان دعمه لي في هذا الأمر كبيراً جداً، فمنذ اليوم الأول لولادة ابني ساعدني على تقبّل الوضع، واستطاع مع مرور الوقت أن يقيم علاقة مميزة مع بورج.

ولكن للأسف الشديد لم يستطع نهاد أن ينجح في عمله، فبعد نيل شهادة الثانوية من مدرسة غلطة سراي، لم يستطع الالتحاق بالجامعة، وكان العمل الوحيد الذي استطاع أن يبرع فيه هو التصوير، ولكن هذا لا يعني مطلقاً أنه تعلّم هذه المهنة نتيجة شغف باكر، فقد تعلّم هذه المهنة من خاله الذي كان يعمل مصوّراً صحفياً في جريدة الجمهورية، واستطاع أن يستقي أسرار المهنة منه، ولم يكن التصوير في نظره فناً بقدر ما هو مهنة يستطيع من خلالها الحصول على النقود. كان يصوّر الحفلات والمناسبات والمعارض التي تقام في المدرسة، ويصوّر التلاميذ في المناسبات المختلفة، وبذلك يحصل على مدخول إضافي. وما أن يحصل على مبلغ جيد كان يقوم بدعوتنا إلى السينما، وبعد انتهاء الفيلم كان يدعونا لتناول الطعام في أحد أشهر المطاعم التي كان يرتادها الشباب في تلك الأيام وهو المائدة الكريستالية في ساحة تقسيم، بالطبع لم يكن الماكدونالدز وبقية مطاعم الوجبات السريعة الغربية قد غزت بلادنا وسيطرت على ثقافتنا الغذائية في

تلك الفترة، ولكن هذا المطعم اشتهر بوجبات البرغر التي يقدّمها، والتي كانت تلقى رواجاً كبيراً لدى فئة الشباب حينها. لذا، كان وجهتنا التالية على الدوام بعد انتهاء الفيلم. وفي كثير من الأحيان كان المبلغ الذي يبقى معه لا يكفي لسداد فاتورة الحساب، فكنت أنا أو كنعان نقوم بدفعها.

كانت نظرة كنعان إلى التصوير مختلفة تماماً، فهو يعتبره فناً راقياً، ومنذ اللحظة الأولى التي دخل فيها مع نهاد إلى الغرفة الحمراء لتحميض الصور، أحبّ الأمر وطلب من نهاد أن يعلمه كل ما يعرفه عن التصوير، ولم يكتفِ بالمعرفة التي اكتسبها من نهاد، فقد تعلّم كل ما يمكن تعلّمه عن الكاميرات وآليات التصوير، وخلال فترة قصيرة نسبياً أصبح مصوراً بارعاً، وكانت الصورة التي يقوم بالتقاطها أفضل وأجمل بكثير من الصور التي يلتقطها نهاد. ولكنه لم يستخدم الكاميرا قط للحصول على المال، فالتصوير لم يكن بالنسبة إليه مصدراً لكسب النقود، لقد كان شغفاً وحباً حقيقيين.

إنه يمتلك مجموعة كاملة ورائعة من الكاميرات، التقط بواسطتها آلاف الصور، أجل الآلاف منها، وشارك في الكثير من معارض التصوير الضوئي، لقد كان التصوير الشيء الوحيد الذي تعلّق به كنعان وأحبه باستمرارية وديمومة، إنه هوايته وشغفه الأوحد الذي لا يملّ منه قط. وكل ما جرى لنا فيما بعد كان نتيجة هوايته هذه.

فلنعد إلى صديقي نهاد مرة أخرى، فبالاعتماد على خاله استطاع أن يعمل هو أيضاً مصوراً صحفياً في جريدة الجمهورية، واستمر لعدة سنوات في هذا العمل، حيث كان يعمل في تصوير الحوادث فكان يداوم في أروقة قصر العدل ملاحقاً آخر أخبار الجرائم التي يصوّر ضحاياها، ولكنه قرر فجأة أن يترك هذا العمل الذي وبحسب رأيه لم يعد يناسب ميوله، وقرر الالتحاق بخدمة العلم.

بعد أن أنهى خدمته بفترة وجيزة اجتمعنا نحن الثلاثة، وقد أخبرنا حينها بأنه ينوي أن يفتح حانوتاً صغيراً، اعتقدنا في البداية أن ينوي أن يفتح استديو للتصوير، ولكنه فاجأنا بقوله إنه ينوي افتتاح مكتبة لبيع الكتب المستعملة والقديمة.

وقد برّر الأمر لنا بقوله - تعلمون أنني لم أحب مهنة التصوير، ولكني كنت أعتبر الأمر مجرد مهنة لا أكثر، أما الكتب فقد تعلّقت بها منذ أيام الدراسة والسبب في ذلك يعود إليكما، أتذكران تلك القصص والروايات التي كنتما تقومان باستعارتها من مكتبة المدرسة والتي كانت تدور حول الأشباح والجرائم، لقد حاولت مجاراتكما في الأمر، والمثير في

الأمر أنّ رائحة هذه الكتب العتيقة وملامستي لصفحاتها القديمة الصفراء كانت تولّد في نفسي بهجة خاصة.

تدخّلت قائلاً:

- حسناً، أنا أيضاً متعلّق بالقصص والروايات البوليسية وأحبها كثيراً، ولكن ذلك لا يعني أن أقوم بفتح مكتبة لبيع هذا النوع من الكتب.

اخفض رأسه وقال وكأن يكلّم نفسه:

- أنت لديك شيء تحبه، أمّا أنا فلا.

وعندما نظر إلينا مجدداً أدرك أننا لم نفهم قصده، ومع ذلك لم يحاول توضيح الأمر لنا أكثر من ذلك، ولكنه أكّد مرة أخرى تعلّقه بهذا الأمر وجدّيته في طرح المشروع.

- أنا أحب الكتب القديمة، بالإضافة إلى ذلك فبيع الكتب عمل مريح ونظيف مقارنة مع التصوير، فلا حاجة بي إلى دخول تلك الغرفة المعتمة لتحميض الصور، ولا إلى الانتظار لساعات، من أجل مشاهدة نتيجة عمل قد تضيّعه أي غلطة بسيطة.

في الحقيقة، لقد كان واثقاً من قراره، ولكنه قدّم لنا كل هذه التوضيحات والمبررات لإدراكه بأنه كما في كل مرة، سيحتاج إلى مساعدتنا من أجل البدء في هذا العمل وتنفيذه. ولأن كنعان كان يعاني في تلك الفترة من ضائقة مالية نوعاً ما، فقد قمت بتأمين المبلغ الذي يحتاج إليه. كانت الخطوة التالية هي إيجاد موقع مناسب ليفتتح فيه المكتبة. كان نهاد يفكر في الجادة الطويلة التي تشغلها محلات بيع الكتب المستعملة في منطقة بيازيد، حتى إنه كان قد وجد أحد المحلات المناسبة وبدأ بالتفاوض مع صاحبه من أجل أن يستأجره، ولكنني وكنعان كنا مصرّين على أن تكون المكتبة في منطقة بيه أوغلو، فشركة التأمين التي يملكها كنعان كانت تقع في شارع الإمام عدنان في منطقة بيه أوغلو، أما أنا فقد كان مكتبي الجديد الذي أتواجد فيه معظم الوقت يقع فوق متجر الثياب الكائن في شارع الاستقلال، بدلاً من المكتب القديم في معمل الثياب الواقع في منطقة بوسنة الجديدة. لذا أردنا أن يفتتح مكتبته في منطقة بيه أوغلو، ومما زاد من إصرارنا على الأمر هو أن كنعان كان يملك محلاً يقع قبالة السفارة البريطانية على مدخل شارع سوق السمك، وهذا المحل شاغر منذ عدة أشهر، وبالطبع لم يتطلب الأمر جهداً كبيراً من أجل إقناع نهاد، فقد ارتاح من مشقة البحث وإيجاد المكان المناسب وبقية الأمور المتعلقة باستئجار المحل.

في الواقع لم يدفع نهاد لكنعان أي مبلغ لقاء استئجار المحل طيلة مدة مكوثه فيه؛ وبذلك فقد خطا أولى الخطوات على طريق تحقيق حلمه في امتلاك مكتبة لبيع الكتب القديمة.

وبهذا فقد عدنا للّقاء في منطقة بيه أوغلو مرة أخرى، والتي أمضينا معظم سنوات طفولتنا وشبابنا متجوّلين في أزقتها وحاراتها الجميلة، وكان بمقدورنا تمضية المزيد من الوقت سويةً، وهذا ما زاد من متانة صداقتنا، ووثّق عراها بشكل أكبر.

لكن ترافق هذا التطور مع أمر آخر لا أستطيع حتى هذه اللحظة أن أحدد فيما إذا كان أمراً جيداً أم لا. فقد تعرّف صديقنا في هذه الفترة على زوجته ملك، والتي بدأت بالتردد على المكتبة، كونها شاعرة ومعلّمة لمادة اللغة. كانت ملك أكبر منه ببضع سنوات، ولم تكن امرأة جميلة حسب رأيي، ولكنّ عينيها السوداوين تمتلكان بريقاً يأسر الناظر إليهما، وأظن أن هذا ما أوقع صديقي في شِراك الهوى، حيث قرر الزواج منها خلال فترة قصيرة جداً. كنت اعتبرها امرأة عادية جداً، وقد شاركني كنعان في هذا الرأي وحاولنا إقناع صديقنا بالتمهل قليلاً قبل اتخاذ خطوة مصيرية كخطوة الزواج، حيث طلبت منه أن يتمهل ويتعرف عليها بصورة أكثر، ولكنه كان مولعاً بها لدرجة كبيرة، فلم تنقض ثلاثة أشهر على تعارفهما حتى عرض عليها الزواج.

كانت ملك إحدى النساء التي ما أن تسنح لها فرصة الحديث حتى تبادر إلى الدفاع بشراسة عن المرأة، وذكر سلبيات المجتمع الذكوري والقيود التي تفرضها العادات والتقاليد على حريتها، وأن التقدم والتطور لن يتمّا ما لم تحصل المرأة على كافة حقوقها اسوة بالرجال، وتكفّ عن التصرف بصورة تقليدية، ولكن ما أن عرض عليها نهاد الزواج حتى وافقت على الفور، وتناست كل حديثها عن المساواة والثورة النسوية...

كما في كل مرة فقد قمنا بمساعدة صديقنا لإتمام هذا الزواج، وقد تكفّل كنعان بدفع جميع النفقات ابتداء من أصغر التفاصيل المتعلقة بتجهيز العروس وليس انتهاء بالسيارة التي ستوصل العروسين إلى صالة العرس، بينما قمت بدفع تكاليف العرس واستئجار الصالة وبقية التفاصيل الأخرى.

ولأن ملك تحب المطالعة، وتهتم بالأدب كثيراً فقد حجزت للعروسين غرفة في الفندق نفسه الذي أقامت فيه أجاتا كريستي، بل إنني حجزت لهما الغرفة نفسها.

ولكن للأسف، فإن المفاجأة لم تنل رضاها مطلقاً، وقد قالت لنهاد:

- أنا لا أحب الروايات البوليسية كما أن روايات أجاتا كريستي بالذات لا تستهويني أبداً، كنت أفضّل أن يحجز لنا الغرفة التي أقام فيها الروائي إرنست هيمنغواي، صحيح أنني لا أحبه كثيراً، ولكنه بالطبع يظل أفضل من أجاتا كريستي.

لقد كانت هذه أولى الإشارات على حقيقة شخصيتها، ولكنّنا آثرنا الصمت احتراماً لمشاعر صديقنا، وحاولنا أن نتغاضى عن الأمر حتى لا نزعجه. كانا يبدوان سعيدين في السنوات الأولى من زواجهما، وبعد سنتين رزقا بفتاة وقد سمياها ديزى، ولكن المشاكل بدأت بالظهور بعد ولادة ديزى، فقد تغيّرت ملك فجأة وبدأت بافتعال المشاكل في كل فرصة، وذلك بحجة أن زواجها ومجيء ابنتها قد حرماها من مواصلة كتابة الشعر. ولكن صديقنا الذي كان يحب زوجته ومتعلّقاً بها إلى درجة كبيرة قام بتضحية هامة، فقد استقدم مربية للاهتمام بالفتاة الصغيرة، وذلك على الرغم من أنّ ظروفه المالية لم تكن تسمح بهذه الخطوة. وقد تقّبل جميع نزواتها ونفّذ كل رغباتها، كان خاضعاً لها بصورة غريبة، وهذا ما أثار استهجاننا كثيراً أنا وكنعان. لا أدري ما السحر الذي تمارسه عليه هذه الشاعرة المدّعية إلا أنه كان ناجحاً، ومكّنها من الحصول على كل ما تريده. وبالطبع كلما انصاع نهاد لطلباتها ونزواتها كلما ازدادت جموحاً وبالغت في جنونها أكثر، وبعد مدة قررت التفرغ التام لكتابة الشعر وترك مهنة التدريس بحجة أن عملها لا يمكّنها من التفرّغ لموهبتها، وقد أذعن نهاد للأمر كما في كل مرة. بقينا لسنوات على ثقة بأن الكيل سيطفح، وسيصل نهاد إلى درجة لن يستطيع معها تحمّل المزيد، وبالتالي سيطردها من منزله وحياته، ولكن هذا اليوم لم يأتِ حتى الآن، ففي كل مشكلة كنا نقول لبعضنا لا بد من الطلاق، فلم يعد أمامهما من حل آخر، ولكنهما بطريقة ما يستطيعا تجاوز هذه المحن والاستمرار في هذه العلاقة الزوجية، الأصح أنّ صديقي استطاع الصمود والنجاح طوال هذه السنوات. ولا أعتقد أنهما سينفصلان عن بعضهما بعد كل هذه السنوات، فقد كبرت ديزى، وهي الآن ترتاد الجامعة، وأظن أن أكبر تعويض حصل عليه صديقي هو الحب الكبير الذي يجمعه مع ابنته. صحيح أنه وتحت تأثير كنعان كان يقوم ببعض المغامرات التي لن أسميها خيانات بين الحين والآخر، إلا أنه وكمعظم الأزواج استسلم لقدره وحاول تقبّل الأمر. لكن متطلبات الحياة لا ترحم، وظروفها المستجدة تضعنا أحياناً أمام الكثير من المفاجآت.

فالمكتبة التي يديرها صديقنا لم تكن تدرّ الكثير من المال، وما زاد الطين بلة أن ديزى التي كانت تدرس في الجامعة من خلال حصولها على منحة دراسية، خسرت هذه المنحة عندما رسبت في السنة الثانية من دراستها وكان عليها أن تدفع أقساط الجامعة في هذه الحالة لإكمال دراستها.

وبالتالي كان علينا أن نتصرّف ونجد حلاً لإنقاذ صديقنا، لذا، وفي إحدى جلساتنا أنا وكنعان قال لي:

- ما رأيك أن نجد عملاً لنهاد لدى أحدنا فقد يساعده هذا الأمر على زيادة دخله، فالمكتبة لم تعد تدر عليه ما يكفي.

- معك حق، ولكني لا أعتقد أن نهاد سيوافق على الأمر.

وأردفت قائلاً:

- كما أن ملك لن ترضى، فهي قد حوّلت المكتبة إلى ملتقى لأصدقائها المستشعرين، ففي كل مرة أذهب فيها إلى المكتبة من أجل زيارة نهاد، أجد المكان يغصّ بأشخاص غريبي الأطوار، وأستطيع أن أؤكد لك أن معظمهم أشخاص مدّعون لا يملكون أدنى موهبة.

رمقني صديقي بنظرة لم أستشف ما وراءها تماماً، وأردفها بابتسامة فاترة كمن تقبّل هزيمته واعتبرها أمراً واقعاً، وقال:

- حسناً، ما باليد حيلة، لنتركه يتصرّف كما يشاء وننتظر ما قد تخبّئه لنا الأيام.

وبقينا نتّبع السياسة القديمة نفسها مع صديقنا بتقديم المساعدة بشتى الطرق بين الحين والآخر، وصراحة لم تؤثّر تلك المساعدات على وضعنا المادي، على الرغم من كونها ساعدته على تجاوز الكثير من المحن. وكنت أشعر براحة نفسية عندما أجد أن هذه المساعدات التي أقدّمها من وقت لآخر تجد موقعاً مناسباً لها. فعلى الرغم من كوني شخصاً غنياً، وعلى الرغم من الاعتبار السائد بأن الأغنياء قلّما يشعرون بمعاناة الآخرين، فأنا كنت مهتماً بمعاناة صديقي وحريصاً على متابعة تفاصيل حياته. وكنت في كثير من الأحيان أذكر الأمر أمام كنعان بنوع من الفخر لقدرتي على مساعدة شخص ما، وخاصة إذا كان هذا الشخص مقرّباً إلي مثل نهاد، وأيضاً لتذكيره بواجبه تجاه صديقه.

أما بالنسبة إلى كنعان، فكان على الدوام منشغلاً بأشياء جديدة، وكانت حياته صاخبة إلى درجة لا يمكن تخيّلها، وكان أبعد ما يكون عن الشعور بالفخر أو التباهي بأمر كهذا أو التفكير فيه لأكثر من ثوانٍ، على

الرغم من مساعدته لصديقنا في كل مناسبة. كانت تشغله الرحلات التي يقوم بها على سفينته مع أصدقائه على شواطئ المتوسط، وأسفاره إلى مختلف بقاع الأرض بغرض السياحة والاستمتاع، وتجوّله في أريزونا وغيرها من الأماكن القصية بأحدث السيارات. وكان ذهنه على الدوام منشغلاً بمشروع جديد ينطوي على الإثارة واللهو. حتى إنّه في فترة معينة قرّر أن يقوم بإخراج فيلم سينمائي، ولكنه تراجع عن قراره في آخر لحظة بعد أن نصحه الكثير من الأصدقاء الموثوقين في هذا المجال بأن الأمر صعب ويتطلب خبرة طويلة. وكانت آخر أفكاره الجنونية هذه، رغبته في تعلّم قيادة الطائرات.

على الرغم من كل هذه المغامرات والحياة الصاخبة، كانت حياته تسير على أحسن ما يرام، وكان شخصاً متصالحاً مع نفسه ومع نمط حياته، وقد تأقلمنا بمرور الوقت مع نزوات صديقنا اللامتناهية، ولكن كما ذكرت سابقاً، الحادث الذي تعرّض له بسبب هوسه بقيادة الطائرات والذي قاده نحو الاهتمام بعالم الماورائيات، قلب كل الموازين، ووضعنا جميعاً أمام مفترق طرق لم يخطر على بالنا قط.

## (2)

لم تبدأ المغامرة بعد حادثة الطائرة التي تعرّض لها كنعان مباشرةً، إنما بعد مرور فترة لا بأس بها، ولكنها كانت بداية دخولنا في هذه الدوامة التي قادتنا إلى مغامرة لم نتوقّعها مطلقاً. كنا جالسين معاً في أحد مشارب شارع نيفيزادى الشهير في منطقة بيه أوغلو، ونحن نشرب منقوع اليانسون البارد ونتبادل أطراف الحديث، كما نفعل بين الحين والآخر. والمفارقة أنّ نهاد الذي كان كعادته في جلساتنا هذه ينتقل في حديثه من موضوع لآخر، هو من أعطى كنعان إشارة البدء من دون أن يعلم. أجل من دون أن يعلم. فلو كان يعرف أن اقتراحاً بسيطاً سيودي بنا إلى هذه المتاهة لما تكلّم في الأمر مطلقاً، خاصة أن كنعان في تلك الفترة وبعد الحادث بدا مهووساً بفكرة الخلود والأبدية، ومصير الإنسان بعد الموت، وكان في كل مرة نجتمع فيها، يحدّثنا عن آرائه ومعتقداته الجديدة لساعات متواصلة من دون كلل. أشار نهاد بشكل عابر إلى موضوع معيّن له علاقة بالأمر، ولكن كنعان التقط رأس الخيط، واعتبره إحدى الإشارات - والتي كان يراها في كل ما يحيط بنا ولا يراها أحد سواه - التي قدّمتها له الحياة من أجل الخوض في هذه المغامرة.

لا بد وأن الأمر التبس عليكم وبدأتم تتساءلون عما أتحدّث عنه بالضبط. حسناً، فلنعد إلى البداية، لأسرد عليكم الأحداث بترتيب منطقي؛ طبعاً إن كان هناك منطق ما في كل ما حدث لاحقاً.

كما ذكرت سابقاً فقد استحوذ هوس تعلّم قيادة الطائرات على كنعان، وبدأ بالفعل محاولاته في هذا المجال. وكان يرغب في قيادة الطائرة بمفرده والوصول إلى أعلى وأبعد ما يمكن الوصول إليه، في الوقت الذي يصيبني مجرد التفكير في السفر بواسطة الطائرة - ومع وجود كابتن متمرس - بخوف شديد.

وقد حاولت أن أحذّره كثيراً ونبّهته أكثر من مرة قائلاً:

- حوادث الطائرات لا تشبه غيرها يا صديقي، فاحتمالات النجاة شبه معدومة، كما أنك لست مضطراً للقيام بهذه المخاطرة...

ولكن كل نصائحي لم تجد أذناً صاغية لدى صديقي المهووس بالمغامرات وحب المخاطرة. وقد اختار أفضل المدربين في هذا المجال، وبدأ بالفعل يتمرن على الأمر بشغف كما في كل مرةٍ يقبل فيها على أمر جديد. واشترى طائرة حديثة ذات محرك واحد من طراز جيسنا 172، بينما

كانت التدريبات في مراحلها الأولى. ولأنني أدركت أن اعتراضي على الأمر لن يجدي نفعاً في هذه المرحلة، آثرت الصمت ولم أتدخل. بالطبع فقد تعلّم قيادة الطائرة في فترة قياسية، وتمكّن منها بشكل جيد، ولكنه لم يكن يستطيع القيادة بمفرده، وذلك لأنه لم يخضع بعد إلى الامتحان الذي سيخوّله الحصول على شهادة القيادة بشكل رسمي. كما أنه كان بحاجة إلى خبرة أكثر في هذا المجال، على الرغم من أنه تعلّم آلية إقلاع الطائرة وهبوطها، وقيادتها لمسافات محدودة أثناء وجود مدرب محترف إلى جانبه. طبعاً، هذه كانت وجهة نظر المدرب، أما بالنسبة إلى كنعان فكان يعتبر نفسه أنه أصبح محترفاً في هذا المجال، وأنه تعلّم كل ما يجب تعلّمه، وبالتالي فهو قادر على القيادة بمفرده ومن دون وجود المدرب، وهذا ما فعله في الواقع، فبعد مدة قصيرة ذهب إلى المدرج الصغير في مطار هازارفن، وصعد إلى الطائرة، وبدأ بتشغيلها والتحليق بها بمفرده. ولكن للأسف هذه المحاولة الطائشة كانت سبباً في كل ما أصابه في ما بعد، وما أصابنا نحن أيضاً معه.

بعد ذلك شرح لنا الأمر على النحو التالي:

- كانت البداية موفّقة وجيدة على نحو لافت باستثناء بعض الأخطاء الصغيرة التي لا تشكّل أي خطر، وبعد لحظات استطعت الإقلاع بنجاح، ووجدت نفسي أحلّق بمفردي. كانت السماء صافية، ولم أشاهد ولو غيمة صغيرة في الأفق، الغيمة الوحيدة التي ظهرت على صفحة السماء في ذلك اليوم كانت طائرتي البيضاء التي يزيّنها شريط أزرق اللون. كما أن الرياح كانت هادئة ومؤاتية جداً من أجل القيادة، وعندما بدأت أرتفع بمفردي، انتابني شعور من الراحة والسعادة لا يمكن وصفه بالكلمات مطلقاً. كان كل شيء في الأسفل يبدو صغيراً وبعيداً، المنازل والطرقات والسيارات والبشر، كلها كانت تبدو كدمى صغيرة أمام عيني. أدركت حينها أن لذة الطيران تكمن في مشاهدة الحياة عن بعد. وتذكرت الحديث الذي تبادلناه أنا والسيدة المتديّنة سويدية الأصل على متن الطائرة أثناء عودتي من نيويورك قبل سنتين، فما إن ارتفعت الطائرة عن الأرض حتى بادرت إلى القول:

- البعد عن الأشياء هو الذي يجعلنا ندرك بشكل أفضل ما يميّزنا عنها، هو الذي يمكّننا من فهم الفروقات بين الجميع بصورة صحيحة.

وأذكر أنني في تلك الأثناء لم أفهم ما تعنيه بالضبط، ولكنني أكدّت على حديثها من باب المجاراة والمجاملة لا أكثر. إلا أنني تذكرت حديثها

بشكل مفاجئ حين أصبحت على متن الطائرة بمفردي، وفهمت ما كانت ترمي إليه من كلامها. الطيران هو الابتعاد عن كل الأمور التي تربطنا بالآخرين، هو إدراكنا لتميّزنا واختلافنا بصورة أفضل وأكثر عمقاً، لكن هذا الإدراك لا يقتصر على العقل فقط، بل هو مزيج غريب من المشاعر والأحاسيس التي لا علاقة لها بالمنطق غالباً. في تلك اللحظات بدأ هذا الشعور يطغى عليّ بصورة قوية أحسست معها بأنني قد أغيب عن الوعي. لا أتحدث بالطبع عن إحساس الزهو الذي قد ينتاب المرء لتمكّنه من التحليق بمفرده. لا، إنما أتحدث عن السعادة المطلقة التي تنتابك حين تجد نفسك بعيداً عن أي مخلوق آخر، في أحضان السماء المهيبة، واللامتناهية الاتساع.

إنه شعور من اللذة والبهجة يختلف تماماً عن النشوة التي قد تصيبك بعد تناول مشروب قوي، أو الإبحار بعيداً في عباب المياه الزرقاء. الطيران يولّد إحساساً مختلفاً وأجمل، بما لا يقاس من كل الملذات الأخرى.

مر الوقت بصورة خاطفة، وتجاوزت المدة التي خططت لتمضيتها محلّقاً، وحان موعد هبوطي إلى المدرج الصغير مرة أخرى. بدأت بالهبوط رويداً رويداً، وأنا لا أزال تحت تأثير النشوة التي أصابتني، ولاحظت أن الطائرة كانت تترنح بصورة خفيفة أثناء هبوطي، وعللت ذلك بتقلّب الرياح التي بدأت تهب بقوة ملحوظة، لذا تذكرت التعليمات التي تلقيتها من المدرب، فعند الهبوط علينا أن نواجه الاتجاه الذي تهب منه الرياح، كما أن التحذيرات بدأت تصلني من مبنى المراقبة في برج المطار في الحال وبصورة متتالية، وكانت تفيد بأن الرياح تهب من جهة اليمين، وفي حال لم أتخذ التدابير اللازمة، فإن الأمور قد تسوء وتصبح خطرة. شكرتهم على تحذيرهم لي، ولكنني وبصراحة لم آخذ هذه التعليمات على محمل الجد بالشكل الكافي.

بدأت بالهبوط، وبدأت الأشجار والأبنية والشوارع تكبر ويزداد حجمها كلما اقتربت من الأرض أكثر، ولاحظت بأن الطائرة بدأت تميل نحو اليسار كلما اقتربت من المدرج، ولكي أحافظ على توازن الطائرة ضغطت على المكابح اليمنى، وحاولت قدر الإمكان التحكم بمسار التحليق. للحظات بدا أن الأمور تسير على ما يرام، وبدأت الطائرة تتوازن، ولكن الوضع عاد إلى ما كان عليه، وبدأت تميل مجدداً نحو اليسار. بدأت أشعر بالتوتر والقلق، فمن جهة كنت أحاول أن أعيد توازن الطائرة وأنا ممسك بالمقود، ومن جهة أخرى كنت أنتظر أن تلامس العجلات أرض المدرج، وتحولت اللذة

والسعادة إلى قلق وخوف بالغين. كنت أمسك المقود بقوة شديدة عندما شعرت فجأة أن العجلات بدأت تلامس أرض المدرج. سحبت نفساً عميقاً، وأحسست بأن المشكلة قد خلت، لكنني كنت مخطئاً فبعد لحظات بدأت الطائرة تميل إلى جهة اليسار بشدة لدرجة أن جناحها بدأ يلامس الأرض، حاولت بكل قوة أن أعيد التوازن وضغطت على المكابح، نفّذت كل التعليمات التي تلقيتها أثناء فترة تدريبي لمواجهة هذا النوع من المشاكل، ولكن كل ذلك لم يجدِ نفعاً، بدأت الطائرة بالخروج عن مسارها المفترض على المدرج، وأخذت تتجه نحو الحقل المحيط بالمطار. لا أعلم تماماً كم استمرت الطائرة في توجّهها المخالف هذا، كل ما أتذكره أن الضوضاء كانت تحيط بي من كل جانب، ومن ثم اختفى المشهد تماماً عن ناظريّ.

استيقظت من شدة السعال الذي انتابني ووجدت نفسي محاطاً بالنيران، وشبه مختنق بالدخان، وعلى الفور خطر لي بأن خزان الوقود يمكن أن ينفجر في أية لحظة، ولو حدث ذلك فإن الطائرة ستتحول إلى كتلة هائلة من اللهب. أحسست براحة قصيرة لأن الأمر لم يبلغ هذا الحد بعد، ولكن الوقت كان يداهمني، وكنت أتوقع أن تصل النيران إلى الخزان بين لحظة وأخرى. كانت الطائرة تحترق والنيران تحيط بي من كل جهة، وكنت أفكر في الخروج منها بأسرع وقت ممكن، لذا حاولت فتح الباب والنزول، ولكن الباب لم يستجب لمحاولاتي المتكررة، وعندما نظرت من النافذة إلى الخارج أدركت السبب. فقد اصطدمت الطائرة بكومة قمح كبيرة كانت الحصادة قد شكلتها بعد الحصاد، وكان النصف السفلي من الباب غارقاً في كومة من حبوب القمح. لم أضيع الوقت واتجهت نحو الباب الآخر، ولكن الباب نتيجة قوة الصدمة أثناء الارتطام بالأرض، أُقفل ولم أتكمن من فتحه، كان هذا إثباتاً قوياً على أنني لست شخصاً محظوظاً على الدوام، كما تردِدان في كل مناسبة.

عندما أدركت أنني حوصرت في الداخل انهارت عزيمتي فجأة، وبدأت ألتفت حولي في ذعر شديد.

ولكن الدخان الناتج من الحريق بدأ يتحول إلى ضباب كثيف داخل الطائرة، وبدأت عيناي تدمعان، وعجزت عن رؤية أي شيء من حولي، وعلى الرغم من ذلك بدأت ألاحظ أن النيران أحاطت بمقدمة الطائرة أيضاً، ونتيجة لاندلاع النيران بدأت الحرارة داخل الطائرة ترتفع بشكل جنوني. كنت أشاهد النيران وهي تتقدم في كل ثانية، وتحيط بي من كل جهة، وأدركت حينها أن نهايتي المحتومة قد اقتربت، وأن لحظات قليلة تفصلني

عن الموت في هذا الأتون الذي أوقعت نفسي فيه.

قد يبدو الأمر غريباً، ولكنني في تلك اللحظات أيقنت بأنني سأموت فعلاً. مررت بالكثير من المواقف الخطرة من قبل، وكان الموت قريباً مني إلى درجة كبيرة، ومع ذلك لم أصدّق بأنني سأموت حينها، ولكن في تلك الطائرة، أدركت المعنى الحقيقي للموت، وأحسست به كواقع ملموس يحيط بي. عندما يعيش المرء حياة صاخبة كالتي كنت أعيشها، ويغوص في ملذاتها الكثيرة ينسى فكرة الموت، أو أنه لا يشغل ذهنه بالتفكير في الأمر بشكل جديّ، ولكن عظمة الحياة الحقيقية تكمن برأيي في قدرتها على مفاجأتنا على الدوام بما لم نكن نتوقعه، وفي الزمان والمكان اللذين لا نتوقع فيهما أمراً كهذا. أجل هنا تكمن عظمة الحياة. في تلك الطائرة وفي غمرة النيران أدركت هذه الحقيقة البسيطة والغريبة في آن.

انتابتني هذه المشاعر الغريبة والجديدة وأنا محاصر في غرفة القيادة، أواجه موتي المحتوم. بالطبع كنت خائفاً، لكن الأقوى من الخوف هو شعوري بأنني قد وقعت ضحية مفاجأة سيئة لم تخطر على بالي من قبل، وذلك في الوقت الذي كان عليّ فيه أن أحاول إيجاد طريقة للخروج من هذا المأزق. كنت ألوم نفسي على هذا الشعور الذي انتابني وسيطر عليّ، ولكن ما باليد حيلة. وقد تأكدت من الفكرة التي يرددها الكثيرون أثناء مواجهتهم لمواقف مشابهة. فالمرء في هذه اللحظات يشعر بأن حياته كلها، ومهما كانت طويلة، تمر أمام ناظريه كشريط سينمائي بأدق التفاصيل، شريط يتابعه من جهة، ويشارك في أحداثه من جهة أخرى.

كنت في الخمسين من عمري، في الخمسين تماماً. خمسون عاماً ليست بالمدة القليلة، وبخاصة لشخص مثلي خاض غمار الكثير من التجارب بمختلف أنواعها، ومع ذلك أحسست بأن هناك الكثير من الأمور التي لم أستطع إتمامها، هناك الكثير مما تركته خلفي من دون أن أنجزه كما يجب. ولكن الغريب في الأمر أنني لم أدرك طبيعة هذه الأمور بالضبط. كان إحساساً ضبابياً، ولكنني كنت أقول لنفسي ليتني عشت بطريقة مغايرة، كنت أردد هذه الكلمات من دون وعي مني، وكأن هناك من يلقّنني إياها، وأحس بأنني سأموت بعد لحظات قليلة، ستتم مراسم الجنازة بصورة ما، ولكن بعد فترة قصيرة سينساني الجميع، ويكفّون عن التفكير بي، سأغادر الحياة وكأنني لم أكن موجوداً، وكأنني لم أعشها، وسيكمل الكون دورته الأزلية، من دون أن يترك موتي أي أثر يذكر. في تلك اللحظات تذكّرتكما، أو على الأصح تذكّرت نصائحكما لي بأن أتزوج، وبدأت أقول

لنفسي يا ليتني عملت بنصيحة صديقيّ، ليتني تركت شخصاً من نسلي على هذه الأرض، ولكنني أدركت فيما بعد بأن هذا التفكير هو مجرد نوع من الأنانية ليس إلا. فلو مت وتركت طفلي يتيماً، أليس هذا مجرد رغبة أنانية بحتة وسخيفة. على كل حال، وبينما كنت تحت تأثير هذه الأفكار شعرت بأن شيئاً ما ارتطم بالزجاج الأمامي للطائرة، وظننت في البداية أن الزجاج سينفجر تحت تأثير الضغط والحرارة، أخفضت رأسي قدر الإمكان وغطيت وجهي بيديّ لتفادي الزجاج الذي سيتناثر، ولكن الضربات بدأت تتوالى، وعندما رفعت رأسي مرة أخرى رأيت طاقم الإطفاء الخاص بالمطار يحيط بالطائرة، حيث كان أفراده يحاولون إطفاء الحريق، وبدأت أُلوّح لهم من الداخل وأصرخ بكل ما أوتيت من قوة.. أنا هنا أنا..أنا في الداخل... غير مدرك بأنهم لاحظوا وجودي بكل تأكيد.

لقد روى لنا كنعان هذه الأحداث بعد أن نُقل إلى المستشفى، كانت الحروق التي تغطي يديه من الدرجة الأولى، أي أنها لم تكن حروقاً خطيرة. وكانت هناك كدمة زرقاء كبيرة على جبينه. لقد حالفه الحظ مرة أخرى، فلم يتسبب له الحادث بأي ضرر جديّ أو عاهة جسدية. لكن الضرر الأكبر كان هذه الأفكار التي بدأت تسيطر عليه، وهذا الهوس الجديد الذي وقع تحت تأثيره. قد تبدو هذه الأفكار للوهلة الأولى نتيجة عادية للحادث الذي تعرّض له، وللصدمة النفسية التي عاشها بسبب مواجهته للموت. هذا ما تبدو عليه ظاهرياً، ولكنها في الحقيقة كانت أحد أبواب الجحيم الذي انفتح وبدأ يسحبنا إلى داخله نحن الثلاثة من دون أن نعلم.

حسناً، فلنعد الآن إلى أحداث قصتنا. لم تستطع كل المغامرات والتجارب التي مر بها صديقي كنعان، على مدار خمسين عاماً أن تغيّره، أو أن تخفف من طيشه وجموحه. خمسون عاماً من العلاقات والغراميات، والأسفار والتجارب العملية وقفت عاجزة عن تغييره، في حين أن بضع دقائق أمضاها بمفرده في طائرة تحترق وكانت على وشك الانفجار، استطاعت أن تغيّره رأساً على عقب، وأن تجعله يتحول إلى شخص مختلف تماماً. وكما يقال عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم. وعلى الرغم من ذلك لم أستطع أن أثق بديمومة هذا التغيير الإيجابي، وذلك لأنني أعرف كنعان جيداً، وأعلم بأن معظم القرارات المنطقية التي يتخذها، قد يتخلى عنها بكل بساطة عندما يشاء. واعتبرت أن حديثه العقلاني، وما طرأ عليه من تطوّر ليس سوى نتيجة عابرة

للحادث الذي تعرّض له. وكنت متأكداً من أنه ما أن يخطو أولى خطواته خارج أبواب المستشفى فإنه سيبدأ بمغامرة جنونية جديدة، وسيعود إلى ما كان عليه من قبل. ولكن المظاهر كانت توحي بعكس ذلك، فبعد أن خرج من المستشفى وتماثل إلى الشفاء، بدأ يهتم بعمله بصورة أكبر، وأخذ يداوم في مكتبه بشكل مستمر تقريباً، وعاد إلى هواية التصوير، وبدأ من جديد يتجول حاملاً الكاميرا، حتى إنه عندما كان يأتي لزيارتنا، كانت الكاميرا لا تفارقه.

كنا نمازحه قائلين:

- يبدو أنك ستغلق شركة التأمين وتفتح عوضاً عنها استديو للتصوير.

لكنه كان يعقب بكل جدية:

- أفكر في افتتاح معرض تصوير ضوئي في الخريف القادم، وستكون فكرته الأساسية هي دور العبادة القديمة والمنتشرة في أرجاء اسطنبول.

لقد افتتح الكثير من معارض التصوير سابقاً، ولكن لم نلحظ عليه هذا الاهتمام بالأمر من قبل، لقد كان جدياً لدرجة جعلتنا نفكر في أنّ تغييراً جوهرياً بدأ يطرأ على شخصيته. ومما أثار شكوكنا بشكل أكبر، هو هذا الصمت الذي كان يخيّم عليه كلما تحدثنا عن التغيير الذي أصابه، على الرغم من أنّه في السابق وعندما يبدأ بأي مشروع جديد أو مغامرة مختلفة، كان يسهب في الحديث ولا يعرف التوقف. لم يعد إلى الحديث عن أفكاره الجديدة مرة أخرى، بعد أن أخبرنا عنها في المستشفى. لقد سررت ونهاد لهذا الهدوء الذي اتسم به صديقنا مؤخراً، ولم نشأ أن نلحّ عليه ليحدّثنا عن مكنونات نفسه، خوفاً من أن يتلاشى هذا الهدوء فجأة. صراحة كان موقف نهاد مختلفاً قليلاً، فهو كان يرغب بشدة في إشباع فضوله، ولو تُرك الأمر له لكان قد أخضع كنعان لاستجواب دقيق حول كل ما يلاحظه من تغييرات، ولكن نتيجة إصراري ورغبتي الكبيرة في عدم إزعاجه حالياً خضع لرغبتي، وبتنا ننتظر بفارغ الصبر أن يبادر صديقنا للبوح بمكنونات صدره، وأن يحدّثنا عما يجري في أعماق نفسه.

وبالفعل فقد افتتح كنعان معرضه الخاص بدور العبادة المسيحية المنتشرة في اسطنبول في أحد الأيام الباردة من شهر أيلول، وذلك في أحد المخازن القديمة التي كانت تستعمل لتخزين المشروبات، والذي كانت تعود ملكيته إلى شخص من جنوى الإيطالية من قبل، حيث تم تحويل هذا المخزن إلى صالة عرض لاحقاً. وقد دعا نخبة من الصحفيين والفنانين

لحضور حفل الافتتاح، وكانت كاميرات المحطات التلفزيونية تتجوّل بين حشود المدعوين، من رجال تبدو عليهم الأناقة وسيدات جميلات المظهر، وكانت أضواء كاميرات التصوير تومض بكثافة لتصوّر كل تفصيل. لقد قام صديقنا - الذي تميّز بخبرته الكبيرة في هدر النقود على هذا النوع من المظاهر - بإعداد حفل مبهر ومميّز على كافة الأصعدة. وكانت أهم فرقة لموسيقى الجاز ترافق الحفل وتعزف مقطوعاتها الجميلة، لتضفي على الأجواء بعداً آخاذاً، وكان هناك فريق كامل من النُدل يتوزعون بين المدعوين حاملين مختلف أنواع الأطعمة والمشروبات، في الحقيقة كان هذا التجمع يبدو كحفل فخم، وليس مجرد حفلة افتتاح صغيرة لمعرض فني.

ولأنني وزوجتي لا نستطيع ترك ابننا بورج في المنزل لوحده، فقد آثرت البقاء معه في البيت، ولم تحضر الحفلة. على عكس ملك زوجة نهاد التي اقتحمت صالة المعرض منذ بداية الحفل مصطحبة معها شخصين من الوسط الأدبي الذي تحيط نفسها به على الدوام. وقد اقتربت منّا أنا وزوجها في الوقت الذي كنا نقف فيه مع أحد ضيوف الحفل أمام صورة لباب دار العبادة المسماة آيفان سراي للروم الأورثوذكس.

ابتدرت قائلة:

- مرحباً.

ثم التفت إليّ تسألني:

- كيف الحال، وما أخبار كولريز؟

أجبتها:

- أهلاً ملك، أنا بخير وكولريز أيضاً بخير، وقد أوصتني أن أبلغك تحياتها، تبدين بحال جيدة.

- كلنا نحاول أن نبدو كذلك، ما أخبار بورج؟

وحاولت أن تسبغ على صوتها نبرة عاطفية حين أكملت:

- أصحته على ما يرام؟

لا بد أن نهاد قد أخبرها بالمشكلة التي حصلت مع ابني في المدرسة، فقد نشب شجار بين التلاميذ، ودخل بورج في الشجار وضرب أحدهم، ولكن المعلمة بدل أن تقدّر وضعه الصحي الخاص، قامت بوضع اللوم كله عليه، فيما لم تؤنب أي من الأطفال الآخرين. ونتيجة لذلك استدعاني مدير المدرسة، وأبلغني بصورة غير مباشرة، بوجوب نقل بورج من هذه المدرسة ليكمل دراسته في إحدى المدارس المخصصة للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، إلا أنني لم أكن أرغب في أمر كهذا، فبورج كان طفلاً

ذكياً على الرغم من إعاقته، بل كان يتفوق بذكائه على الكثير من أقرانه من الأطفال الأصحاء.

ولم يكن هذا رأيي وحدي بل كان رأي طبيبه الخاص أيضاً، لذا كنت أرغب أن يعيش ابني حياة طبيعية كأي طفل آخر، من دون أن يصبح مرضه عائقاً أمام مستقبله الدراسي، وكانت مثابرته على دروسه وتفوّقه في كثير من المواد الدافع الأكبر لتشجيعي وتمسكي بهذا الرأي، كما أنني كنت أقدّم له كل ما يلزم من أجل ألا تسوء حالته، من علاج فيزيائي وجلسات خاصة مع طبيبه، وكافة الإجراءات الأخرى التي تساعده على ممارسة حياته بصورة طبيعية كأي طفل آخر قدر الإمكان. لذلك فقد آثار كلام المدير غضبي الشديد وقمت بتهديده بشكل جدي بأنني سأتقدم بشكوى رسمية ضده، وسأبلغ الجميع بموقفه المخزي هذا، ويبدو أن التهديد جاء بالنتيجة المرجوة، وعاد ابني إلى مدرسته من دون أن يحاول أحد أن يزعجه مرة أخرى، أو أن يتقصد إيذائه.

وعلى الرغم من أننا - أنا وملك - لم نتمكن من أن نصبح صديقين، إلا أنها كانت مثل نهاد، لطيفة على الدوام مع بورج وكانت توليه عناية ومحبة خاصة، لذا لم يزعجني سؤالها عن ابني، بل على العكس تماماً، وقد جاوبتها بود:

- إنه بخير وقد حلت المشكلة، وعاد إلى المدرسة من جديد.
- سررت لسماع ذلك.

سألتها بدوري:

- كيف حال ديزى؟ آمل أن تكون دراستها على ما يرام.

أجابتني باختصار:

- بخير بخير.

واستدارت نحو صديقيها اللذين جاءا معها. كان أحدهما رجلاً في الأربعين من عمره، بديناً قصير القامة، ذا منظر كريه، وشعر متسخ بشكل واضح، وقد رفعه وجمعه على شكل ذيل الحصان في مؤخرة رأسه، وكانت السيجارة لا تفارق يده، أما المرأة فكانت جميلة جداً وأنيقة بشكل لافت، فقد ارتدت معطفاً أسود اللون، وتنورة من اللون والقماش نفسه، وكنزة رمادية اللون، وتحت حاجبيها الكستنائيين كانت عيناها المائلتان إلى الزرقة تبادلان الجميع نظرات عميقة ودافئة. أنفها كان صغيراً وشفتاها رقيقتين بلون وردي جميل، كان جمال هذه الملامح وتجاورها معاً يمنحاها جمالاً خاصاً، وكانت خصلات شعرها التي بلون العسل تحيط بوجهها الدائري،

وتنحدر على كتفيها.

كان لون كنزتها الرمادي يبرز جمال شعرها بصورة واضحة، بالإضافة إلى جمالها الآخاذ، فبدت مختلفة عن صديقيها كثيراً، وكأنها من عالم آخر، كانت تحيط بها هالة روحية من نوع مختلف، وقد خمّنت من طريقة لبسها، بأنها ربما تكون موظفة في أحد البنوك، ولكن السؤال الذي بات يلحّ عليّ، ما الذي تفعله امرأة بهذا الجمال، وموظفة في بنك مع شخص مثل ملك؟

كنت لا أزال أنظر إليها، وأحاول الوصول إلى إجابات عن أسئلتي، حين لاحظت ملك الأمر، فخاطبتني قائلة:

- سليم، أود أن أعرفك على صديقاي.

ولأنني لم أتوقع هذا التصرف اللبق من ملك، فقد تفاجأت بشكل كبير، إلا أنني استطعت تدارك الأمر بسرعة.

- صديقتي كاتيا.

قالت ذلك وهي تومئ برأسها نحو المرأة الجميلة.

- وهي روسية الأصل.

- روسية؟

تساءلت مستغرباً.

ظهرت ابتسامة على شفتيها عندما لاحظت استغرابي الشديد، ولا بد أنها فهمت الأمر على نحو خاطئ.

- أجل روسية.

قالت ذلك بنبرة تحدٍّ واستهجان واضحة، ثم أردفت قائلة:

- وهي مخرجة، وفي الوقت نفسه من أفضل المترجمين من اللغة الروسية، فقد ترجمت العديد من أعمال ليرمنتوف وبوشكين وغيرهما من الأدباء والشعراء الروس.

لم أعقب على كلامها بشيء، لذا أكملت حديثها وهي تشير إلى الرجل البدين قائلة:

- صديقي كورال، أحد أصدقائنا الشعراء.

وبينما كانت ملك تتابع حديثها، ابتسمت كاتيا بثقة وهي تنظر إلينا وترمقنا بعينيها الجميلتين.

- تعرفون زوجي.

تابعت ملك وهي تستدير نحو صديقيها

- سليم، صديق زوجي منذ أيام الطفولة.

رمقني صديقها الشاعر بنظرات عدائية واضحة، يبدو أن نفوري منه كان شعوراً متبادلاً، فيما مدت كاتيا يدها إليّ مصافحة وهي تقول:

- سررت بالتعرف إليك.

لقد كانت تتحدث التركية بلكنة غريبة ولكن بصورة جميلة حقاً.

- أنا أيضاً.

وصافحت يدها بقوة وسرور. لم يستطع الشاعر البدين أن يتغاضى عن المبادرة التي ابتدأتها كاتيا، وأصبح مضطراً لمصافحتي، فمد يده نحوي، وفيما كنت أمسك بيده مصافحاً، كانت كاتيا بدورها تسلّم على نهاد. اتجهت نحو كاتيا لأتجنب نظرات الاستياء الواضحة التي كان الرجل البدين يرمقني بها بعينيه البنّيتين.

كان نهاد يحدّث كاتيا قائلاً:

- لقد وجدت طبعة قديمة لديوان الغجر لبوشكين، الديوان قديم جداً، حتى إن غلافه مفقود، كما أن بعض الصفحات الأولى منه غير موجودة، وبالتالي لا أعرف على وجه التحديد من الذي قام بترجمته، إلا أن أحد الأصدقاء أخبرني بأن المترجم قد يكون ناظم حكمت أو حسن علي إديز، على كل حال لقد خبأته من أجلك، وباستطاعتك المرور وقت ما تشائين لكي تأخذيه.

- حقاً؟

تساءلت كاتيا وقد ومضت عيناها الجميلتان بفرح، ثم أكملت:

- أتلهّف للحصول على هكذا ترجمة، لكي أعرف كيف قمتم بترجمة أشعار بوشكين.

وعندما لاحظت نظراتي التي تتابعها طيلة الوقت بادرتني بابتسامة لطيفة، فكان يتحتم عليّ محادثتها بأي أمر من باب اللباقة.

- إذاً فأنت من روسيا؟

أعلم أنه كان سؤالاً غبياً ولكن ما باليد حيلة.

- أجل، هل تعرف أحداً غيري من روسيا؟

- في الحقيقة لا، لكن أبي ينحدر من عائلة مهاجرة تعود بأصولها إلى بلغاريا، وكان يعرف بعض الجمل باللغة الروسية، وعلى ما أذكر فقد كان أحد شركائه في العمل روسي الأصل.

- ما هو عملك؟

- أدير معملاً للنسيج.

- صديقي متواضع جداً، هل سمعت بشركة أزاي الرائدة في عالم

الأزياء والموضة، سليم هو صاحب هذه الشركة.

لكن كاتيا لم تجد الأمر ملفتاً للانتباه.

- هذا يعني بأنك مصمم.

أضافت قائلة من دون اهتمام، لكن نهاد اعتبر هذا الرد انتقاصاً من مكانتي الحقيقية، فبادر قائلاً:

- ليس مصمماً عادياً فقط، فهو يصدّر منتوجاته لكافة أرجاء العالم، وأظن أنك شاهدت متجر أزاي الفخم في منطقة بيه أوغلو.

- أجل لقد عرفته، أليس ذلك المتجر المواجه للبناء القديم؟

- خان روميلي.

ذكّرتها باسم البناء.

- ذلك البناء القديم اسمه خان روميلي؟

- أجل فهو من أقدم الأبنية الموجودة في منطقة بيه أوغلو وأجملها، وقد شيّده راغب باشا حاجب السلطان عبد الحميد الثاني، وذلك في بداية القرن المنصرم.

هنا نظرت إلي بإعجاب بالغ وقالت:

- لديك معلومات تاريخية قيّمة...

- سليم مطّلع على جغرافية منطقة بيه أوغلو بأكملها ويعرف كل بناء أثري موجود فيه، وتاريخ بنائه، وصاحب البناء، وكل التفاصيل الأخرى المتعلقة به.

هذا المديح الأخرق من قبل صديقي، أشعرني بالحرج.

فحاولت تدارك الأمر قائلاً:

- إنه يبالغ، ولكنني كنت مضطراً لمعرفة بعض المعلومات الأساسية عن الموضوع، بسبب دراستي هندسة العمارة.

لكن شهية نهاد المعتادة على الثرثرة لا يمكن إيقافها بسهولة.

- يا لتواضعه، سليم موسوعة تاريخية حقاً.

- إنه يقصد بأنني متثقّف في هذا المجال.

لم أكن أعلم أن كاتيا لن تفهم المصطلح الذي استعملته للتو.

- ماذا؟ ماذا؟

- المتثقّف هو الشخص الذي يدّعي المعرفة في كل مجال، ويجمع معلومات لا قيمة حقيقية لها، ليتبجّح بها أمام الآخرين.

حاولت بهذه العبارة أن أضع نهاية لهذا الموقف السخيف، لكن نهاد لم يكن ليسمح بذلك.

- ما يقوله ليس صحيحاً، فهو شديد التواضع على الرغم من أنه كان من أكثر الطلبة تفوّقاً منذ أيام الدراسة الثانوية.
- أجل، ولكن كنعان هو من كان يحصل على أعلى المعدلات باستمرار.
كان نهاد ينوي مواصلة محاولاته في إظهار بطولاتي، لكن ملك تدخّلت قائلة:
- حسناً، سنتابع حديثنا عن نجاحات صديقك الدراسية في وقت لاحق، كاتيا فلنقم بجولة صغيرة لمشاهدة الصور المعروضة.
في الحقيقة، لم أعرف على وجه التحديد إن كان علي أن أُسر أو أن انزعج من كلام ملك. كنت مُحرجاً من مبالغة نهاد ومدحه لي بهذه الطريقة، ولكنني في الوقت ذاته كنت سعيداً بتجاذب أطراف الحديث مع كاتيا.
- امرأة جميلة أليس كذلك؟
عقّب نهاد قائلا بعد أن غادروا، فيما كنا نتابع كاتيا بنظراتنا.
- أجل جميلة جداً.
دمدمت.
- لكنها في الواقع ليست محظوظة، فقبل خمس سنوات تعرفت على شاب تركي، وقد أحبّا بعضهما من النظرة الأولى، تركت بلادها وأتت معه إلى اسطنبول، وتزوجا هنا، كانا زوجين سعيدين جداً، لكن الزوج المسكين مات فيما كان يحاول تسلق جبال أغرى. لم تعد كاتيا إلى روسيا بعد الحادث، إنما قررت البقاء والاستمرار في العمل هنا، وقد عملت مع بعض شركات الدعاية والإعلان، ولكنها بسبب الأزمة المالية التي تعصف بالبلاد خسرت عملها. حالياً تقوم بترجمة بعض دواوين الشعر لصالح إحدى دور النشر، وأظن أنها ستقوم بترجمة بعض قصائد ملك إلى اللغة الروسية أيضاً.
وفيما كان نهاد يحدّثني عنها كنت أتابعها بنظراتي كيفما تحركت. كان الثلاثة ينتقلون بين الصور المعروضة، وبينما كانت كاتيا تتابع المشاهدة بجدية واضحة وتقترب من الصور، لملاحظة أدق التفاصيل، كان الآخران يجتازان الصور بلامبالاة ظاهرة. وكانت ضحكاتهما عندما ينظران إلى بعض الصور، وتعابير وجهيهما تدل بوضوح على السخرية، ومحاولة تقزيم الجمال الكامن في كل صورة.
لكن كاتيا لم تكن تشاركهما وجهة النظر هذه، وقد كان ذلك بادياً

من جديتها في ملاحظة الصور، ومن تعابيرها المستهجنة لهذه السخرية.

لم تعد قادرة على تحمّل سخرية صديقيها أكثر من ذلك على ما يبدو، فحاولت الابتعاد عنهما قليلاً بحجة التمعّن في صورة إحدى دور العبادة الرائعة، حيث إن الصورة كانت مأخوذة لخلفية هذا البناء الجميل. كما أن نهاد أيضاً قد نسي وجود كاتيا وانشغل بمشاهدة الصور.

بالمقابل لم يهتم كل من ملك وصديقها البدين بابتعاد كاتيا عنهما، وكانا قد أنهيا جولتهما، وبدأا جولة من نوع آخر، حيث كانا يراقبان ضيوف الحفل بنظرات مليئة بالسخرية، وكانت أصوات قهقهاتهما تدل على الاستهزاء بأحد ما.

وبينما كان نهاد يفرغ كؤوس منقوع اليانسون البارد الواحدة تلو الأخرى في جوفه، كنت لا أزال أراقب كاتيا الجميلة.

كانت قد ابتعدت عن ملك وصديقها تماماً، وبينما هي تتلفّت حولها تعلّقت نظراتها بشخص معيّن، حاولت تتبّع اتجاه نظراتها، فاكتشفت أنها تراقب كنعان الذي يحمل بيده كأساً، ويقف أمام صورة لإحدى أكبر دور العبادة والتي تدعى أوهان فوسكيبيران، كانت الصورة مأخوذة لصحن دار العبادة الداخلي، وكنعان يشرح بعض التفاصيل المتعلقة بها لرجل عجوز يقف بالقرب منه. كان من الصعب أن أعرف فيما إذا كانت نظرات كاتيا تدل على إعجابها بصديقي، أم أنها مجرد نظرات عادية واهتمام بالمعلومات التي يوردها لا أكثر. ولكن بعد التفكير في الأمر أدركت أن امرأة مثل كاتيا يمكن أن تُعجب بشخص مثل كنعان بسهولة كبيرة.

لقد كان نجم الحفلة بلا منازع، فهو راعي الحفل، وهو الفنان الذي قام بالتقاط هذه الصور. بالإضافة إلى ذلك فقد كان بخصلات شعره المتموجة والتي تحيط رأسه بفوضوية أخاذة، وقامته الممشوقة، ونظراته التي تمتاز بمسحة من اللامبالاة والثقة في الوقت ذاته، رجلاً جذّاباً بالتأكيد. كما أن أناقته كانت ملفتة للنظر، كان يرتدي معطفاً من المخمل البني الغامق، فوق قميص بني فاتح، وبنطال أسود اللون. كنت أظن أنه يتقصد أن يرتدي ثياباً ذات طراز شبابي لكي يبدو أصغر من سنّه الحقيقي، ولكنه في الحقيقة كان يبدو كذلك دون أن يبذل جهداً، كان أكثرنا أناقة، وأكثرنا وسامة وشباباً بلا شك.

عليّ الاعتراف بأن إحساساً بالغيرة قد انتابني وأنا أشاهد نظرات كاتيا إليه، ولكنني تخلّصت على الفور من هذا الإحساس، فكنعان صديقي، بل هو أعز أصدقائي، كما أنني رجل متزوج وأحب زوجتي ولا أفكر مطلقاً في

خيانتها مع أي امرأة أخرى مهما بلغ مستوى جمالها. فالخيانة الزوجية هي أبعد ما يكون عن طباعي وقناعاتي الشخصية. كما أنني لم أكن أعاني من أي مشكلة مع زوجتي، حتى أفكر بعلاقة أخرى لتعوّضني. قد يكون السبب الذي شدّني إلى كاتيا ليس جمالها، وإنما كونها امرأة روسية. لا أعلم على وجه التحديد ما هو السبب، ومع ذلك بقيت طوال الحفلة أراقب هذه المرأة الجميلة، واستمرت هي بدورها في مراقبة صديقي كنعان، ومتابعته بنظراتها. أجل، للأسف كلما نظرت إليها لاحظت أنها تراقب كنعان بإعجاب واضح.

ولكن كنعان لم يلحظ وجود كاتيا مطلقاً، لقد كان طوال الحفل مشغولاً في أحاديث متواصلة مع الصحفيين، والنقّاد الفنيين، وبقية المدعوين. كان يوزّع ابتسامته على الجميع، ويحاول أن يهتم بهم بكل لباقة. وقد أدركت بأنه يعلّق آمالاً كبيرة على نجاح هذا المعرض. وكما ذكرت سابقاً فقد افتتح صديقي الكثير من المعارض من قبل، ولكن لم أشاهده مهتماً ومتلهفاً إلى هذه الدرجة كما هو الآن.

لم تسنح لي الفرصة أثناء الحفل لكي أسأله عن سر اهتمامه البالغ بنجاح هذا المعرض، ولكن كما قلت لكم من قبل، فأثناء جلوسنا معاً في مشرب إيمروز الواقع في شارع نيفزادى، وبينما كنا نستمتع بدفء شمس الخريف اللطيفة، بدأ كنعان يسرد علينا ببطء وتمهّل ما سيغيّر الكثير في حياتنا نحن الثلاثة، وسيكون بداية مغامرتنا.

## (3)

اتصل بي كنعان على الهاتف وأبلغني بأنه يود أن نجتمع في مشرب إيمروز نحن الثلاثة. أدركت من نبرة صوته أن هناك مشكلة ما، فقد كان يتحدث بجدية على غير العادة. في الحقيقة لم أكن أود أن أشرب منقوع اليانسون البارد في ذلك اليوم. كانت كولريز ستأخذ بورج إلى جلسة العلاج الفيزيائي، وكنت أنوي العودة باكراً إلى المنزل، والبقاء بمفردي قليلاً، لأخلو إلى نفسي للتفكير في التطورات التي حدثت مؤخراً، كما أنني عندما أشرب، أشعر بصداع شديد في اليوم التالي، ولا أستطيع التركيز في عملي كما يجب، إلا أنني عندما لاحظت أن صوت صديقي يوحي بوجود مشكلة ما، وبأنه يرغب في لقائنا من أجل أن نشاركه الأمر وافقت على الفور، فقد كان كنعان على الدوام يقف معنا عندما نتعرض لأي مشكلة، ويبذل قصار جهده لمساعدتنا، وكان يتوجب عليّ أن أرد على إخلاصه بالمثل، وبطبيعة الحال فأنا متأكد من أن نهاد وافق على الأمر من دون أي تردد.

عندما وصلت إلى مشرب إيمروز في عصر ذلك اليوم الخريفي، وجدت نهاد جالساً إلى إحدى الطاولات المرصوفة أمام باب المشرب وقد أدار ظهره لأشعة الشمس. كانت تشكيلة واسعة من المأكولات البحرية تزيّن الطاولة، أسماك مشوية، أخطبوط طبخ وزيّن بطريقة جميلة، سلطة الطون الشهية، وسلطة الجبنة مع الزيتون، وأنواع أخرى من الجبنة وغيرها من المقبّلات البحرية... أدركت أن صديقي قد وصل منذ فترة لا بأس بها، وتأكدت من ذلك حين لاحظت المقدار الذي شربه من كأس منقوع اليانسون البارد الموضوع على الطاولة أمامه، كان نهاد يعصر نصف ليمونة على صحن السلطة لذا لم يلحظ مجيئي حتى مازحته قائلاً:

- يبدو أنك لم تستطع الانتظار، وبدأت تمارس طقوسك المعتادة قبل وصولنا؟

نظر إليّ وهو يقول:

- لقد خرجت باكراً من المنزل يا صديقي، متجنباً النظر في عينيّ بشكل مباشر وهو يمط شفتيه نحو الأسفل. هذه الحركة كانت دليلاً على أنّ أمراً ما يزعجه، ولا بد أنكم قد عرفتم ما الذي يزعج صديقي ويسبب له الضيق على هذا النحو؛ إنه المال كالعادة. لقد طلب مني مبلغاً من المال منذ شهرين، وذلك لتسديد أجرة المنزل الجديد الذي انتقل إليه مؤخراً، ولا بد أنّه يعاني من أزمة مالية جديدة الآن. لذا بدأت أشعر بأن

هذه الجلسة ستكون سيئة وبائسة من دون شك. فمن الواضح أن كنعان أيضاً لن يكون بحال أفضل، كان لدي ما يكفيني من الهموم والمشاكل الشخصية، ولم أكن في مزاج يسمح بسماع مشاكل الآخرين، ولكن بالمقابل كان عليّ أن أُبدي بعض الاهتمام بصديقي، فسألته من دون رغبة حقيقية مني في معرفة السبب.

- ما الأمر تبدو مهموماً؟

جلست على الكرسي المقابل له وأنا أتابع كلامي

- هل صادفتك مشاكل جديدة في العمل؟

وقد لاحظتُ أن طريقة سؤالي له اتصفت ببرود واضح، لقد كانت بداية غير موفقة لهذه الجلسة. ولكن ما الحل لم أستطع أن أخفي مشاعري، وقد لاحظ نهاد أيضاً الأمر على الفور، لذا حاول أن يبتعد عن ذكر مشكلته وأجابني.

- لا شيء يُذكر، ولكنني أصبت بالملل من الجلوس في المكتبة طوال النهار بمفردي.

أدركت حينها بأنّه لن يطلب مني أية نقود اليوم، وبالتالي سيجرب حظه مع كنعان حين يصل. في الواقع أعتقد أن هذا ما يجب أن يفعله، فليس من الإنصاف أن يقترض النقود باستمرار من الشخص نفسه، عليه أن يطلب المساعدة من كنعان. حاولت أن أتجنب التفكير في الموضوع كثيراً، لذا ملأت كأسي بمقدار كبير من منقوع اليانسون البارد.

لاحظ نهاد الأمر فعلّق قائلاً:

- انتبه لقد وضعت كمية كبيرة من منقوع اليانسون البارد في الكأس، لا نريد أن تفقد الوعي بهذه السرعة يا صديقي.

وعندما هممت بالإجابة لامس أحدهم كتفي برفق، رفعت رأسي لأجد كنعان واقفاً، وعلامات الضيق بادية على وجهه.

- آسف لأنني تأخرت عليكما، ولكنني كنت في اجتماع مع هؤلاء الموظفين الأغبياء.

سحب الكرسي الذي يقع إلى جواري للجلوس وتابع حديثه:

- كان مدير أعمالي ينقل إليّ رأي الصحافة في معرضي، وبحسب زعمهم فصوري لا تتميز بمسحة فنية، إنها عادية، بل يبدو الكثير منها مكرراً ومملاً، بالإضافة إلى ذلك فهم يدّعون بأنني أمارس التصوير من أجل تمضية الوقت، كأي نشاط عادي آخر أقوم به، كما أنّ النقاد يعتبرونني شخصاً مغروراً، لا أمتلك نظرة فنية... إلى ما هنالك من هذه الادعاءات

السخيفة.

أخذ أحد الكؤوس الفارغة من أجل أن يصبّ فيها الشراب، ولكن نهاد بادر إلى أخذ الكأس ليصبّه ويقدمه إلى كنعان بنفسه، هنا زالت آخر شكوكي، وتأكدت بأن نهاد سيطلب المال من كنعان هذه المرة. نظر صديقي إلى الكأس، ووجد أن الكمية مناسبة فلم يعلّق على الأمر، لقد كان كنعان يحب أن يكون الكأس مركّزاً.

رفع كأسه وهو يقول:

- بصحتكم.

وقد جاريناه في رفع كؤوسنا نحن أيضاً.

وما أن وضع الكأس على الطاولة مرة أخرى حتى عاد إلى سرد الحوار الذي دار بينه، وبين مدير أعماله:

- أجل أعلم أن ما قاله لي صحيح إلى حدٍّ ما، فمعظم هؤلاء الصحافيين والنقاد والفنانين الذين قمت بدعوتهم إلى حفل افتتاح المعرض، لا يحبونني مطلقاً. ولكن ما لا أستطيع أن أفهمه ما سر هذا الحقد، هل من قانون ما ينص على أن الفنان الحقيقي يجب أن يكون شخصاً يعاني من الفقر والبؤس، شخصاً أنهكه الجوع والعوز مثلاً؟ هل الناس الأغنياء بنظرهم لا يستحقون امتلاك هذا الميزة... هراء... محض هراء... ولكنني أستحق ما يحصل لي، ما كان عليّ أن أدعوهم إلى معرضي مطلقاً، ما كان عليّ أن أولي أدنى اهتمام بآرائهم السخيفة.

كان يتحدث من دون أن يعطينا الفرصة لكن نبدي رأينا في الموضوع، أو حتى أن نتفوّه بأي كلمة، وكلما واصل الحديث أكثر كان غضبه يزداد أكثر فأكثر، لكنني لم أعد أحتمل وبدأت بالضحك، وقد استمد نهاد الجرأة مني وأخذ يضحك هو الآخر. كانت ضحكات خفيفة في بداية الأمر ولكننا لم نعد قادرين على السيطرة على أنفسنا وتحوّل ضحكنا إلى قهقهات صاخبة.

- لما تضحكان؟

بادر معترضاً في البداية، ولكن كان من المستحيل كبح جماحنا، وإيقاف هذا الضحك الجنوني الذي سيطر علينا، وعندما أدرك أنّه لن يستطيع إيقافنا عن الضحك، قال موبّخاً:

- اضحكا كما تشأان، فلستما أفضل من أولئك النقاد السخفاء، أجل لستما أفضل منهم.

ولكنّه بدأ هو الآخر يبتسم رويداً رويداً، استمرت نوبة الضحك لفترة

لا بأس بها، حتى إن العَبرات ملأت عينيّ من شدة الضحك، أخذت منديلاً لأمسحها، وأنا أقول له:

- ما الأمر؟.. ما الذي جعلك تغضب إلى هذه الدرجة، اشرح لنا بالتفصيل لنتمكّن من فهم المشكلة.

- سأعيد سرد القصة، وستعيدون الضحك، أليس هذا ما تريدانه؟

قال ذلك بنبرة تأنيب خفيفة.

ولكنّنا كنا متأكدين من أنه سيعيد سرد القصة على مسامعنا مرة أخرى.

- حسناً، ما المشكلة في الضحك، لقد خفّ غضبك، وارتحت قليلاً، وبدأت بالابتسام، كما أنك أضحكت صديقيك أيضاً.

كانت محاولة من نهاد للتقرّب من كنعان ومداهنته وجعله يتجاوز غضبه، وذلك بالطبع لغاية في نفس يعقوب.

- ليتني ارتاح يا صديقي، ولكن ما الذي جعلني أتعلّق بأمر سخيف كالتصوير، وأعلّق عليه آمالي إلى هذه الدرجة؟

اختفت الابتسامة عن وجهه، وعاد إلى العبوس مرة أخرى.

وضعت قطعة من الجبنة في صحني وقلت له:

- سأخبرك بالأمر.

أشرت برأسي نحو نهاد، وأكملت ممازحاً:

- هذا هو سبب بلائك ومشكلتك الحالية، أليس هو من جعلك تتعلّق بالتصوير الضوئي، وقام بتعليمك منذ البداية؟

- لا تحاول توريطي في هذا الأمر أرجوك، ولا تنسى بأنني قمت بتعليمه بناءً على رغبته الشخصية.

- أجل، هذه هي الحقيقة، لا ذنب لنهاد يا صديقي.

عقّب كنعان على كلامي، وهذا ما اراح نهاد كثيراً، ومن ثم أكمل.

- لا ذنب لأحد في هذه المشكلة، أنا المذنب الوحيد، وكل ما حصل بسبب غبائي، لم ينجح الأمر هذه المرة أيضاً وللأسف لا يبدو بأنه سينجح في المستقبل.

حاولت التخفيف عنه قائلاً:

- لا تيأس بهذه السرعة، حاول مجدداً، التقط المزيد من الصور، وقم بافتتاح معارض جديدة.

- مزيد من المعارض؟.. هذا معرضي العاشر.. بقيت أعمل عليه لفترة طويلة جداً، وقد رأيتم ذلك بأنفسكم، لقد قمت بتصوير كل ما يمكن

تصويره، التقطت صوراً للبيوت القديمة، صوراً للعجائز، للأطفال، للطيور، للحارات والأزقة، للطبيعة بجبالها وأنهارها، وبمختلف حالتها وفصولها، صوّرت الأنهر والبحر والبحيرات، للآثار ودور العبادة هل بقي شيء لم أصوّره؟.. لا أعتقد. ولكنني مهما حاولت لن أنال رضاهم مطلقاً، لقد شاهدتم كمّ الصحفيين والنقاد الذين قمت بدعوتهم، وكمّ الصور التي قاموا بالتقاطها لكل تفصيل في صالة المعرض، ومع ذلك لم أجد ولو خبراً واحداً يتعلق بالمعرض على المحطات التلفزيونية في اليوم التالي. أما المجلات والجرائد فقد خصصت زوايا هامشية وصغيرة للتحدث عن الأمر بشكل عابر وسطحي، ولم يكن هناك من تقييم حقيقي وجاد حول المعرض. إنهم يتجاهلونني عن عمد، أنا متأكد من ذلك. وبحسب ما قاله لي مدير أعمالي فهم يعتبرونني شخصاً متبجّحاً وغير جادٍ في محاولاتي الفنية، ولا يروق لهم أسلوبي في العيش. ما الذي يتوجب عليّ فعله، هل عليّ أن أغيّر حياتي كلها من أجل إرضائهم، هل عليّ الاعتذار منهم لكوني رجلاً غنياً مثلاً.. حقاً ما الذي يجب أن أفعله حتى أصبح جديراً باهتمامهم؟

كان ينظر إلينا حائراً، ولكن نهاد بادر بالقول:

- ليس عليك الاعتذار من أحد يا صديقي، فأنت لم ترتكب أي خطأ لتعتذر عنه، بل على العكس هم المخطئون.

وعندما لاحظ أن كلامه لم يلق آذاناً صاغية لدى كنعان، اتجه نحوي ليكمل قائلاً:

- أليس ما أقول صحيحاً، كما أن هذا الوسط الفني، مجتمع منحلّ أخلاقياً، لا قيم حقيقية لديهم، ولا يتوانون عن فعل أي شيء قد يخطر لك، كل أنواع الغرائب والشذوذ تجدها لدى هؤلاء.

لم يعقب أي منا على كلام نهاد الذي لاذ بالصمت أخيراً.

بقينا صامتين لفترة وجيزة، ولكنني قمت بكسر هذا الصمت قائلاً:

- ألهذه الدرجة يهمك أمر التصوير الضوئي يا صديقي؟

أجابني بحزم لم أتوقعه:

- أجل يهمني كثيراً.

وإزاء نظراتي المتسائلة بدأ يوضح لي السر:

- في الحقيقة يهمني الأمر كثيراً، تذكرون الحادث الذي تعرضت له مؤخراً وكيف نجوت من الموت في آخر لحظة؟ كل ما حدث لي حدث إثر هذه التجربة... لقد كانت تجربة فظيعة، ولا أتمنى لأحد أن يقع في الموقف ذاته، وفيما كنت جالساً بانتظار الموت المحتوم في قمرة القيادة،

والنيران تحيط بي من كل جهةٍ بدت حياتي تمرّ أمام ناظريّ كشريط سينمائي.

تأثرت بالحزن البادي على وجهه وهو يستذكر هذه الأحداث، وحاولت التخفيف عنه:

- نعلم ما مررت به وقد رويت لنا ما حدث من قبل.

- لم أخبركم بكل التفاصيل، وأنا محبوس في تلك المحرقة، أدركت ولأول مرة بأنني مجرد نكرة، كل تلك النقود والثروة والأملاك، تجاربي، وذكرياتي... كلها لا تعني أي شيء، وعندما أموت لن أترك خلفي سوى العدم، أجل مجرد عدم لا أكثر، لا دليل يثبت على مروري، لا دليل أو أثر أو أدنى إشارة على أنني كنت أحيا في يوم من الأيام، تماماً مثل والدي، لا بل أسوأ من ذلك، ففي النهاية هو قد ترك ابناً يحمل اسمه بعد وفاته، على الرغم من أنني لا أمتلك أي ميزة أخرى على ما أظن، ولكنني لن أترك أي أثر بعد موتي، تماماً كنسمة عابرة لم تخلّف وراءها ما يشير إلى مرورها حقاً.

- لِمَ تشغل ذهنك بالتفكير في الموت، لا زلنا في مقتبل العمر يا صديقي.

عقب نهاد.

- لكنني سأموت في النهاية، وستموتان أيضاً، سيموت أبناؤكم، ولن يتذكّرنا أحد. فبعد مئة عام أو في أفضل الأحوال بعد مئة وخمسين عاماً من الآن لن يعرف أحد أننا مررنا في هذه الحياة، ولن يهتم أحد بمعرفة الأمر. كان هذا رد كنعان.

كان مجرد لغوٍ فارغ، لذا دمدمت بصبر نافد:

- والحل؟

- الحل أنني لا أريد أن يطويني النسيان بكل بساطة بعد موتي، أريد لهذا العالم أن يتذكرني، أن يعرف أن شخصاً اسمه كنعان سورغون قد عاش فعلاً.

- أي أنك تبحث عن طريقة للخلود.

- ردّ عليه نهاد بنبرة تشي باستخفاف، لكن كنعان كان متحمساً لفكرته ولم يلحظ الأمر بتاتاً.

- أجل بالضبط هذا ما أبحث عنه، الخلود.

أجاب بكل جدية على الفور وقد راقه التعبير.

عندما رأيته متحمساً وشغفاً إلى هذه الدرجة بالأمر، تذكرت حالة

الاستحواذ التي سيطرت عليه في الصف العاشر، واهتمامه المفاجئ بالمسرح، وبطبيعة الحال فقد طالنا الأمر كما في كل مرة وشاركناه في كل ما أقحم نفسه فيه آنذاك.

أصرّ وقتها على أن نقوم بتمثيل مسرحية الملك لير لشكسبير، وأخذ هو بالطبع دور البطولة، أي دور الملك لير الذي يصاب بصدمة كبيرة عندما يكتشف خيانة بناته، لقد كانت تعابير وجهه التراجيدية وهو يحدثنا عن الموت والخلود، وعن المعاناة التي تسببها له فكرة نسيان العالم له بعد موته، مطابقة لتعابيره على المسرح لحظة اكتشاف الخيانة قبل كل تلك السنوات، هذه المقارنة جعلت رغبتي في الضحك تتجدد مرة أخرى لكن نهاد لم يشاركني هذه المرة، كما أن تعابير وجه كنعان تغيّرت بشكل كبير وظهر الاستياء واضحاً عليه.

- لماذا تضحك الآن؟

سألني بتحدٍّ وغضب ظاهرين، ولكنني لم أبال بالأمر ولم أكن أنوي التراجع أو المداهنة.

- ولماذا لا أضحك يا صديقي؟

أجبته وأنا أنوي التحدث إليه بكل جدية وصراحة، فقد بلغ الخمسين مع عمره ولا يزال يتصرف بالطيش نفسه والعقلية نفسها منذ أيام المراهقة.

- كل كلامك عن الموت والخلود مجرد هراء لا أكثر، فبعد موتك ما الفارق في أن ينساك العالم أو يظل محافظاً على ذكراك، ستموت وتدفن تحت طبقات من التراب لن تمكّنك مطلقاً من معرفة خلود اسمك أو تلاشيه، لن تتمكن من معرفة شيء بعد موتك يا صديقي. حتى وإن عرفك العالم بأسره الآن فلن تتمكن بعد الموت من قراءة ما سيكتب عنك مهما كان جميلاً ومؤثراً، لن تسمعهم وهم يصفّقون كلما ذكر اسمك في مناسبة ما. لماذا تشغل نفسك بالتفكير بهذه الترهات بينما الحياة كلها أمامك الآن؟ فأنت رجل غني ووسيم، صحتك بخير، لديك عمل وأصدقاء وكل ما يصبو إليه المرء ليحيا بسعادة، تمتّع بهذه النعم وكفّ عن التفكير بهذه الطريقة السخيفة.

لكن ما فاجأني أن كنعان استمع إليّ حتى أنهيت كلامي. عادة وعندما يحتدم النقاش بيننا في أي موضوع فإن كنعان لا يعطي الطرف المقابل الفرصة لإنهاء كلامه، فهو يقاطعه أكثر من مرة ويصّر على رأيه ويتمسك به، لكنه في هذه المرة استمع إليّ حتى النهاية من دون أدنى

مقاطعة.

- لكنني استمتعت بما يكفي.

أجابني بثقة وهدوء لم أتوقعه. ثم أكمل بالنبرة الهادئة نفسها وهو يشدد على كل كلمة يقولها.

- حقاً استمتعت بحياتي وأنتما تعلمان ذلك جيداً، لقد شاهدت وجرّبت كل ما يخطر ببالي وكل ما يستهويني وأكثر، نساء جميلات، سيارات ويخوت فارهة، رحلات وأسفار، لم يبقَ مكان في العالم لم أزره، من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب، شاهدت كل ما يجب أن يُشاهد، ورأيت كل ما يجب أن يُرى. لا تفهمني بشكل خاطئ يا صديقي، لكن كل ما ذكرته للتو لا يحل مشكلتي، وإن اعتبرتني مجنوناً لن أخالفك الرأي، وسأذهب لرؤية طبيب نفسي لو اضطر الأمر، ولكن أرجوك لا تطلب مني أن أعيش بطريقة كلاسيكية روتينية مملة، ولا تقل لي كلاماً أعرفه، قد يرضيك هذا النوع من الحياة لكنه لا يرضيني، وليس باليد حيلة.

عندما رأيت كنعان يتكلم بهذا الإصرار ورأيت التعبير الجدي الذي ظهر على وجهه أدركت أن لا فائدة ترجى من محاولة إقناعه بالتعقل، ولكن ما كنت متأكداً منه في تلك اللحظة هو أنه بعد عدة أسابيع ليس أكثر سيجد أمراً آخر ليهتم به، قد يكون سخيفاً، ولكنه حتماً سيجعله ينسى كل ما قيل في هذه الجلسة، وهذا يعني أن هذه الجلسة ستكرر ولكن للتحدث عن سخافة أخرى أرجو أن تكون أقل جنوناً. بقيت صامتاً وأنهيت الكأس الأول لأبدأ بالثاني على الرغم من عدم رغبتي في الشرب بكثرة. لاذ نهاد بالصمت هو الآخر وبقي مطرقاً يتأمل الكأس الموضوعة أمامه، وعندما طال صمتنا لكزني كنعان بلطف وهو يقول:

- لستما غاضبين مني أليس كذلك؟

اكمل بلطف.

- لم أقصد أن أهينكما بكلامي، فأنتما تعلمان مقدار حبي لكن، أنتما أعز ما أملك، كل ما في الأمر أنني أحاول أن أشكو لكما.

نظرت إليه مبتسماً وأجبته موبّخاً:

- ليس من الضروري أن تحاول أهانتنا فيما تحدثنا عن مشاكلك.

- أرجوك لا تقل هذا الكلام، أنا لم أقصد مطلقاً الإهانة في كلامي، كل ما في الأمر أنني لا أشبهكما، ولأصارحك القول ففي كثير من الأحيان أحسدك ونهاد على طريقة عيشكما، وأتمنى من كل قلبي لو أنني كنت مثلكما، لأنني سأحيا بطريقة أبسط وأكثر انسجاماً، ولكنني لا أستطيع أن

أبعد هذه الأفكار عن ذهني، إنها تراودني طيلة الوقت، قد يكون أحدهم أحل عليّ لعنة ما، لا أدري بالتحديد ما السبب ولكنني لا أستطيع العودة كما كنت.

كان الأسف بادياً على وجهه بشكل حقيقي وهو يحدثني، ويحاول الاعتذار منا بصورة غير مباشرة.

- لا بأس.

وضعت يدي على يديه بلطف.

- لا تنزعج، لكل منا ما يميّزه عن الآخرين، وقد تكون طريقة تفكيرك هذه هي ما تميّزك وتجعلك مختلفاً، فلو كنا متماثلين في كل شيء لما كانت علاقتنا استمرت، كان الملل سيفرّقنا بكل تأكيد. كنت أتحدث وأنا أوزع نظراتي بينهما ثم أكملت بطريقة أقرب إلى التأكيد منا إلى السؤال. أليس كذلك؟

ودون أن أنتظر إجابة رفعت كأسي وأنا أقول:

- فلنشرب يا أصدقائي.

رفعنا كؤوسنا، كان نهاد يبدو شارداً ولم أتوقع أن يبادر إلى الحديث ولكنه قال فجأة:

- أتعلم ما الذي أفكّر فيه يا كنعان؟

كان كنعان في تلك اللحظة يضع بعض المقبّلات في صحنه، فهو لم يأكل شيئاً منذ أن حضر.

- ما الذي تفكر فيه؟

سألته بلا مبالاة.

- أنت تظلم مدير أعمالك حين تضع اللوم عليه. قد يكون شخصاً غبياً في بعض الأحيان، ولكنه محقّ في هذه النقطة، الصحفيون يلهثون وراء الأحداث الغريبة، ولم يكن من حدثٍ غريب في حفل الافتتاح لمعرضك، لذا لن يهتموا بكتابة أي شيء عنك.

لم يولِ كنعان حديث نهاد الأهمية الكافية، وقال وهو يدهن بعض الزبدة على قطعة من الخبز:

- ما الذي كان يتوجب عليّ فعله؟ أكان عليّ أن أفتعل شجاراً حتى ألفت انتباههم مثلاً، أو أن أضرب أحد المدعوين، أو أن أرتكب جريمة أمامهم؟

قال ذلك بنبرة سخرية وضيق في آن واحد.

- هذا ما كنت أقصده تماماً.

أجاب نهاد بحماس، نظرنا إليه متفاجئين في ما أومأ بسبابته نحو كنعان وأكمل بالحماس ذاته.

- أجل يا صديقي ما سيلفت نظر الصحفيين ويجذب اهتمام بحق نحوك هو جريمة قتل.

ما إن سمعت كلمة القتل حتى انتابتني القشعريرة، وقلت لنفسي هذا مجنون آخر يهذي أمامي، ولكن كنعان عبّر عما كنت أفكر فيه بصوت عالٍ.

- تبدو أكثر جنوناً مني أيها الأحمق.

وألحق كلامه بضحكة تنم عن عصبية، وهو يمسك قطعة خبز بإحدى يديه، وباليد الأخرى السكين التي كان يدهن بها، ولم يكن قد بدأ الأكل بعد.

- أمن الضروري ارتكاب جريمة من أجل لفت انتباه الصحفيين؟

نظر إليّ وهو يقول:

- هل سمعت ما قاله للتو؟ عليّ أن أصبح مجرماً من أجل أن ألفت أنظار الصحفيين إليّ.

- ومن قال إنني أطلب منك أن تصبح مجرماً؟ احتجّ نهاد، وهو غاضب لأننا لم نتمكن من فهم قصده الحقيقي.

- إذاً ما الذي تقصده بالتحديد؟ أجابه كنعان وقد وضع قطعة الخبز في الصحن أمامه، يبدو أنه لن يتمكن من الأكل إذا استمر الحديث على هذا النحو، وقد أردف:

- ألم تقل لنا منذ قليل بأن ما يجعل الصحفيين يهتمون بي هو جريمة قتال؟

- أجل، ولكن لم أقل بأننا من سيرتكب هذه الجريمة.

- حسناً، سنأتي بقاتل مأجور إذاً.

أجابه كنعان بسخرية واضحة.

- عن أي قاتل مأجور تتحدث، هلا سكتت قليلاً لكي أستطيع أن أكمل فكرتي.

التفت نحوي وقال:

- قل له أن يسكت قليلاً حتى أنهي حديثي كله، وألا يقاطعني بين كلمة وأخرى.

وكما في كل مرة، اضطلع بمهمة التوسط بينهما.

- حسناً كنعان، دعه ينهي كلامه وفي هذه الأثناء أكمل طعامك.

على الرغم من إدراكي أن ما سيقوله نهاد مجرد ترّهات جديدة ستضاف إلى قائمة الترهات التي سمعتها اليوم، إلا أنني أردته أن يكمل، وبدا بعض الفضول ينتابني.

استسلم كنعان للأمر رافعاً يديه إلى فوق، ومن ثم بدأ يتناول طعامه.

بدأ نهاد كلامه بالقول:

- تعلمون بأنني كنت أعمل مصوراً صحفياً في قسم الجرائم لعدة سنوات، وكما تعلمون فقد ألتقطت مئات الصور لجثث قتلت بمختلف الطرق، ولم يكن يِسمح لنا كصحفيين الدخول إلى موقع الجريمة وتصوير الجثة قبل أن يتم فحصها من قبل الطبيب الشرعي، ولكننا نتيجة تعرّفنا إلى معظم العاملين في مجال مكافحة الجرائم، أصبح بإمكاننا رؤية الجثة وتصويرها متى نشاء. بالطبع، لا يمكن تحريك الجثة ونقلها من مكانها قبل أن يقوم المحققون بتفتيش المكان وفحص كل الموجودات المحيطة بشكل دقيق جداً. حيث يتم جمع الأدلة، والتحقق من وضعية الجثة ورسم مخطط لها، والتقاط الصور لموقع الجريمة بالطبع. فمن الضروري معرفة حالة الموقع سواء أكانت الأشياء الموجودة فيه مبعثرة أم على حالها، وأرشفة الحالة، فهذه إحدى أهم الأشياء التي يطلبها المحققون من الشرطة من أجل البدء في التحقيق.

وعندما أحس كنعان بأن هذا الشرح طال أكثر مما يجب، لم يتمالك نفسه من مقاطعة نهاد مرة أخرى

وابتلع قطعة الخبز بسرعة وقال:

- ولكن ما علاقة كل ما ذكرته بحديثنا؟

- اصبر قليلاً، وستعرف ما أقصده بعد قليل، هذه الصور التي يتم التقاطها لموقع الجريمة توضع مع بقية الأدلة في الملف الخاص بالجريمة. وفي حال كشفت الصور ما يوصل إلى الحقيقة تبقى في قسم الشرطة، وفي حالة العكس ترسل الصور إلى أرشيف مديرية مكافحة الجرائم. والآن انتبهوا جيداً لما سأقوله لكما. هل تعلمون ما هو عدد الجرائم التي تُرتكب كل عام في منطقة بيه أوغلو؟

- وكيف لنا أن نعلم؟

بدأ نهاد يهز رأسه، وقد أحس بأنه قد شدّ انتباهنا هذه المرة فأكمل:

- عشرات الجرائم، كنعان بحسب ما أذكر فأنت على علاقة جيدة

مع بعض المحققين الذين يعملون في مديرية منطقة بيع أوغلو، وبخاصة المحقق جونييت أليس كذلك؟ وأعتقد أنك تعرفت إليه من نادي الرماية الذي انضممت إليه؟

- أجل هذا صحيح.

- إذا طلبت منه أن يعطيك هذه الصور الموجودة في ملفات الجرائم فهل سيوافق على إعطائك إياها؟

على الفور فهمت ما كان يرمي إليه نهاد من كل هذا الحديث، وأحسست بالضيق، فقد أدركت بأن هذا الأحمق يريد توريطنا جميعاً في أمر لا تحمد عقباه. الغريب في الأمر أن كنعان لم يدرك حتى الآن ما هو هدف نهاد، أو أنه أدرك الأمر ولكنه يحاول التـأكد.

- ولم سأطلب هذه الصور؟

- سأخبرك بذلك ولكن قل لي هل سيعطيك إياها إن طلبتها؟

تمهل للحظات ومن ثم أجاب:

- لا أعلم.

- أعتقد أنك تعلم، فقد قدّمت الكثير من المساعدة في ترميم بناء المديرية في كل مرة يصاب فيها بضرر ما، لذا أعتقد بأن المحقق سيلبي طلبك وسيعطيك الصور إن طلبتها منه بكل تأكيد.

- لنفترض أنه وافق وأعطاني إياها، ما الذي سيحدث حينها؟

- سأخبرك ما الذي سيحدث، ستتعاقد مع مخرج ذي خبرة، وستجد أحد مهندسي الديكور، كما ستتعاقد مع بعض عارضات الأزياء، وستعيد تجسيد الصور التي حصلت عليها، ستعيد بناء موقع الجريمة بكل تفاصيله الصغيرة، وستلتقط الصور بكل مهارة واحترافية.

اتسعت عينا كنعان دهشة، وأردف:

- طبعاً ستكون الصور بالأبيض والأسود.

- معك حق، لم يخطر لي الأمر. ولكن، بالطبع يجب أن تكون بالأبيض والأسود.

راقت الفكرة لكنعان، لكنها لم ترق لي على الإطلاق، وبدأت أستشعر الخطر الكامن وراءها، إلا أن نهاد ظل يواصل حديثه بحماس بعد أن استطاع لفت انتباه كنعان، من دون أن يلاحظ الضيق الذي بدا واضحاً على وجهي.

- وبعد أن تنتهي من عملية التصوير، ستفتتح المعرض في بيه أوغلو تحت عنوان (جرائم القتل في بيه أوغلو)، وسترى حينئذ كيف

ستلاحقك الصحافة، وكيف ستجد صورك منتشرة في كافة المجلات والصحف، وهذا السبق سيشعل غيرة بقية المصورين.

بعد صمت دام للحظات قال كنعان:

- أظنك محقاً.

غيّر وضعية جلوسه.

- وسأجعل صالة العرض على شكل مشرحة، ستكون فكرة مذهلة وستجذب اهتمام الجميع بكل تأكيد.

شرب بقية الكأس.

- أنا متأكد من أن الفكرة ستذهلهم، أجل ستذهلهم بالتأكيد. كان يتحدث بحماس بالغ ويعيد تأكيد كلامه كمن يحاول إقناع نفسه لا إقناع من حوله.

- أظن أن الأمر لن ينجح.

التفت الاثنان نحوي متفاجئين، فحاولت أن استغل هذه اللحظة وأكمل فكرتي محاولاً نزع الفكرة من رأس كنعان.

- هل جننتما؟ نحن نتحدث هنا عن جرائم القتل، أتعلمون من يكمن خلف جرائم القتل؟ مجرمون، قتلة وسفاحون، ومرضى نفسيون في معظم الأحوال. أتخيل لو أن أحد هؤلاء حاول إيذاءك، لو أن أحدهم عرف بالأمر وأزعجته الفكرة، وقام بمحاولة قتلك لا سمح الله... ولا تنسى عائلات الضحايا، إن علموا فقد يكلّفك الأمر دعاوى بملايين الليرات، والأهم من هذا كله، هل ما تقومون به أمر مقبول من الناحية الأخلاقية؟ استغلال صور القتلى من أجل الحصول على الخلود، هناك احتمال كبير أن يتم اتهامك باستغلال الضحايا بصورة سيئة.

مرت لحظات من الصمت من دون أن يستطيع الاثنان قول أي شيء، أو تبرير هذه الفكرة، إلا أن نهاد لم يكن ينوي الاستسلام.

- إنك تبالغ كثيراً، فنحن لن نتدخّل في تفاصيل الجرائم، كما أننا لن نكتب تحت كل صورة بأنها قد التقطت بعد ارتكاب الجريمة الفلانية، ولا أعتقد أن أحداً سيعرف أن الصور تمثّل جرائم حدثت بالفعل من خلال صورة مشابهة للضحايا، كما أن هؤلاء الضحايا لن تزعجهم هذه الفكرة بكل تأكيد، ألم تقل منذ قليل بأننا عندما نموت لا يعود مهمّاً ما سيحصل في هذا العالم. أعتقد أنك تبالغ في مخاوفك.

بدا كنعان متردداً، لذا حاولت استغلال الفرصة قدر الإمكان من أجل إقناعه بالعدول عن هذه الفكرة الجنونية، وعدم السماح لنهاد بجرّه إلى

هذه المجازفة.

- أنا لا أبالغ أبداً.

أجبته بحدة، وقد ارتفع صوتي، ولكني لم أكن أشعر بالندم.

- حسناً، لنفترض أن مخاوفي كلها مبالغٌ فيها، وأن لا شيء مما ذكرته سيحدث، وأن المعرض سينجح بالفعل وستهتم به الصحافة، هل تعتقد بأن الصحفيين سيكتفون بالأمر، ألن يحاولوا تتبع الموضوع والبحث عن مصدر هذه الصور؟

- بالطبع.

أجاب كنعان.

- لكنني لن أخبرهم بأن المحقق جونييت هو من أعطاني إياها، سأقول بكل بساطة بأنني استلهمت الفكرة من خلال الصور التي تنشرها الصحف والمجلات لضحايا جرائم القتل، وقد اعتمدت على هذه الصور من أجل إعادة تمثيل الجريمة.

بدأت أفقد كنعان، ولم تكن تفصلنا عن هذا النفق المخيف سوى خطوات معدودة.

- وهل تعتقد بأنهم سيصدّقون كلامك؟ أجبته محاولاً ثنيه عن المضي أكثر.

- ولما لا يصدّقون؟ هل كل مشاهد القتل التي نراها في الأفلام والمسلسلات مقتبسة من جرائم حقيقية؟ أليست مشاهد مستوحاة من مخيلة كاتب السيناريو في معظم الأحيان؟ أنا أيضاً سأقوم بالأمر نفسه من خلال هذه الصور. الموضوع بغاية البساطة.

كنت أقول لنفسي، يا إلهي هذا محض جنون، لذا حاولت إيجاد ذريعة أخرى علها تقنعه.

- حسناً، ماذا لو تكّلم أحد هؤلاء اللذين سيعملون معك كالمخرج مثلاً، ما إن ينشب بينكما أدنى خلاف بسيط، سيقوم باستغلال الأمر، وسيخبر الصحافة بكل ما يعرفه، وبأنك حصلت على هذه الصور عن طريق محقّق، وهكذا ستنكشف الحقيقة.

- لا تقلق فأنا لدي الحل.

أجابني نهاد بنبرة واثقة.

- هل تذكر المرأة التي تعرفت عليها أثناء حفل الافتتاح؟

- أية امرأة؟

- كاتيا، أنسيتها، تلك المرأة الروسية الجميلة، إنها مخرجة، لقد

درست الإخراج في موسكو، كما أنها بارعة جداً في مجال عملها، والأهم من كل هذا نستطيع الوثوق بها، فهي لن تشي بنا مهما كانت الظروف.

- كيف تطلب منا الوثوق بامرأة غريبة؟
- ولم لا أثق بها، فهي صديقة ملك المقرّبة.

وهل ملك امرأة يمكن الوثوق بها؟ خطرت لي الفكرة على الفور إلا أنني لم أبح بها.

- من هي كاتيا؟ سأل كنعان بفضول.
- لقد جاءت مع ملك لحضور الحفل، لكنك لن تتذكرها بالطبع فقد كنت منشغلاً جداً، ولكن سأعرّفك عليها متى شئت.
- وهل حقاً لديها الخبرة الكافية؟ أخشى أن تكون كمعظم أصدقاء ملك المتبجحين، والذين تستهويهم الثرثرة.
- لو كانت حقاً كما تقول فهل من المعقول أن أنصحك بالعمل معها؟
- حسناً، لا مانع لدي من التعرّف إليها، كما أنني سأقابل جونييت في الغد لأعرف إن كان سيوافق على مساعدتنا.

وعندما لاحظ كنعان مدى استيائي، والحنق الذي كان واضحاً على وجهي حاول التخفيف عني.

- لا تغضب يا صديقي، أعلم بأنك خائف عليّ. ولكن لا تقلق، فقد مررت بمخاطر مهولة لا مجال لمقارنتها بمعرض لصور بعض الضحايا، ومع ذلك اجتزتها كلها، وها أنا ذا جالس أمامك، لن يصيبني سوء، كما أن هؤلاء القتلة يا صديقي ليسوا بمستوى ذكائك وقوة ملاحظتك، ليدركوا أن هذه الصور التي أعدت تجسيدها تمثّل ما قاموا به في الحقيقة، إنه مجرد معرض للصور، صحيح أن فكرته غريبة بعض الشيء، ولكن لا خطر من ورائه.
- لست قلقاً عليك.

أجبته بامتعاض واضح.

- أنا أفكر في عملي، في المعمل الذي أنوي توسيعه في القريب العاجل، فالسوق العالمية اليوم لا ترحم الشركات والمعامل أحادية الإنتاج، وتبتلعها الشركات الضخمة المتعددة الاختصاصات، وأنا لن أسمح أن أُسحق بكل بساطة، لقد عرض عليّ بعض الفرنسيين الشراكة، سأقابلهم بعد فترة قصيرة، وإن لم نتفق سيتوجب عليّ حينها الاقتراض من البنك، إن تم الأمر عليّ حينها أن أرهن المبنى الذي في بيه أوغلو، ومن جهة أخرى أفكر في

بورج ومشاكله التي لا تنتهي، أي أنني خلال هذه الفترة منشغل إلى درجة لا يمكن تخيّلها، وبالتالي لن يكون لدي الوقت الكافي من أجل مساعدتكما وإخراجكما من الورطة التي تنويان الوقوع فيها...

لكن كنعان أجابني بكل ثقة.

- لا تقلق فلن نقع في ورطة، ولن نضيّع وقتك من أجل مساعدتنا، كما أنني متأكد من أنك ستصل إلى اتفاق مناسب مع الفرنسيين... وإن احتجت إلى النقود...

أجبته متقصّداً تقزيم مساعدته:

- شكراً، ولكنك لن تستطيع أن توفّر مبلغاً كهذا.

يبدو أنه لم يفهم ما كنت أرمي إليه.

- ومع ذلك إن احتجت إلى أي شيء أخبرني على الفور.

كنت أراقب نهاد في هذه الأثناء، لا بد وأنه يفكر في الطريقة التي سيطلب فيها المبلغ من كنعان، فقد بدأ يعضّ شفته السفلى، لا بد وأنه يقول لنفسه إنها اللحظة المناسبة لطلب النقود، ومع ذلك لم يجرؤ على مصارحة كنعان بهذه الرغبة حتى الآن. بدأت أحس بالندم للحظات البخل التي انتابتني في بداية جلستنا، ليتني أعطيته النقود حينها. ولكن، لا فائدة فقد انقضى الأمر، وأتمنى ألا يسوء أكثر من ذلك، كلما رأيت نهاد في هذا الموقف، وأرى هذه التعابير على وجهه لا أتمالك نفسي من الشفقة عليه، صحيح أنه أغضبني كثيراً بفكرته الجنونية التي طرحها، ومع ذلك لم أستطع تجاهل حاجته، وودت لو أستطيع مساعدته بطريقة ما وتعويض ما حصل.

- لست أنا من يحتاج النقود.

أومأت برأسي إلى نهاد وأنا أقول:

- إنه صديقنا، أعتقد بأنه أحوج إلى هذا العرض الذي قدمتَه للتو.

رفع نهاد رأسه كمن استفاق من نوم عميق.

- من؟.. لماذا؟

أصلح جلسته، وحاول التركيز في الحديث.

- هيا حدثنا.

قلت له بنبرة يمتزج فيها المزاح ببعض الغضب:

- ما هي مشكلتك؟

- ليس لدي أية مشكلة. دمدم متجنباً النظر إليّ.

- هيا أخبرنا.

ألح عليه كنعان هذه المرة.

- نحن أصدقاء، وليس لديك أحد آخر لتشكو إليه همك.

- تعلمون أن ديزى كانت تعتمد على منحة دراسية لإنهاء دراستها الجامعية، ولكنها خسرت المنحة عندما رسبت السنة الماضية، وأصبح لزاماً علينا أن ندفع أقساط الجامعة حتى تستطيع متابعة دراستها، وقد دفعت القسط الأول، ولكن الثاني...

- ولما لم تخبرنا بالأمر منذ البداية؟ سألته

- لأنكما على الدوام تقومان بمساعدتي، حاولت هذه المرة أن أعتمد على نفسي وأن أحل المشكلة، ولكن للأسف كما ترون...

إلا أن كنعان قاطعه قائلاً:

- ما المبلغ الذي يتوجب عليك دفعه؟

- حوالي الألفي دولار.

- حسناً، تعال غداً وسنحل الأمر.

- شكراً يا صديقي. كان صوته مرتجفاً، كما أن الدموع بدأت تترقرق في عينيه، وبعد أن تمالك نفسه قليلاً التفت نحوي قائلاً:

- شكراً لك أنت أيضاً.

بدا الجميع متأثراً لما حصل.

- متى سنطلب وجبة السمك؟ تساءل كنعان، وأنهى تلك اللحظات الحرجة.

لقد عاد إليه مرحه السابق، ونسي الغضب والاستياء الذي كانا يسيطران عليه في بداية جلستنا، لقد عاد إلى حالته الطبيعية. لكنني على العكس تماماً كنت متشائماً، وأحس بأننا نحن الثلاثة نقف على حافة هاوية لا أحد يستطيع سبر أغوارها، كنا نقف على حافة خطر مجهول، ولم يكن لديّ سوى أمل أخير لتجنّب وقوع هذه الكارثة، وهو أن يرفض المحقق جونييت طلب كنعان، وأن لا يعطيه هذه الصور المخيفة.

# (4)

للأسف لم يتحقق أملي الأخير، بل تحقّق ما توقّعه نهاد. فقد وافق المحقق جونييت على طلب كنعان، فلم يستطع رفض طلب صغير كهذا أمام الخدمات التي قدّمها كنعان للمديرية من قبل، وبهذا حصل على الصور التي التقطت للضحايا في مسرح الجريمة. وبسبب الحديث الذي دار بيننا في مشرب إيمروز، ورفضي للفكرة حينها، لم يحدّثني كنعان عن الأمر مرة أخرى، ولكن نهاد كعادته كان يأتي إلى مكتبي كل يوم تقريباً، ليثرثر ويخبرني عن آخر التطورات المتعلقة بالموضوع.

عندما جاء ليخبرني بأن جونييت وافق على الفكرة، كنت في مكتبي الذي يقع في الطابق الثالث من مبنى المتجر برفقة كولريز وابننا بورج، وما أن رآه بورج داخلاً حتى طار من الفرح، ونهاد أيضاً فرح لرؤيته كثيراً. حمله ومن ثم رفعه عالياً، وبدا بورج يضحك بصخب وفرح شديدين، وكانت أصوات ضحكاته تملأ أرجاء المكتب، حيث كنا أنا ووالدته نراقبهما بسرور بالغ.

لقد كانت كولريز تحب نهاد أكثر من كنعان، لا يعود السبب إلى معرفتها بعلاقات كنعان وغرامياته الكثيرة، وخوفها من أن يؤثر الموضوع عليّ، وأن يجرني كنعان معه إلى إحدى تلك المغامرات، ولكن لأننا ومنذ أن علمنا بأن ابننا يعاني من متلازمة داون، كان نهاد هو من يقف معنا في هذا الأمر ويساعدنا قدر استطاعته.

لقد كانت إعاقة ابني أكبر صدمة تلقيتها في حياتي، فعندما علمت بأنه سيكون معاقاً طيلة حياته أحسست بألم فظيع لا يمكن وصفه مطلقاً. انتابتني مشاعر مختلطة حين علمت بالأمر أول مرة، في البداية شعرت بصدمة فظيعة، وبأن أحدهم قد خلع قلبي من مكانه، ترافق ذلك مع عدم تصديقي لما يقوله الأطباء، كنت غير قادر على استيعاب أن أول طفل لي سيولد معاقاً ولن أستطيع أن أغيّر في هذه الحقيقة شيئاً، لا بد وأنها خدعة، لا بد أن هؤلاء الأطباء الحمقى لا يعرفون عما يتحدثون، لذا حاولت اللجوء إلى مختصين أكثر خبرة، بحثت عن كل من له صلة بهذا النوع من الأمراض واستشرته، ولكن عندما تأكدت أن لا فائدة، وأن الأمر واقع لا محالة، اجتاحتني موجة غضب عارمة، شعرت بغبن شديد، لما يكون ابني معاقاً؟ وأحسست بالخجل في الوقت ذاته، الخجل منه أو من نفسي لم أعد أذكر. يا إلهي لقد كانت من أصعب لحظات حياتي حقاً. فكّرت في

بادئ الأمر أن أهرب من البيت حتى لا أرى ذلك المسكين - على الرغم من إدراكي التام أن لا ذنب له لأنه أكثر المتضررين - ولا أضطر لمواجهة الألم كلما نظرت إلى عينيه، ولكن بعد ذلك بدأت أفكر في أنه على العكس تماماً، سأحبس نفسي في المنزل، لن أضطر إلى مقابلة أحد، كما أنني لن أرد على المكالمات الهاتفية، وبهذا سأتجنب نظرات الدهشة ومن ثم الشفقة التي تظهر بالتتابع في عيون الآخرين عندما يعلمون بالأمر، سأتجنب تلك الشروحات المؤلمة والمهينة عن وضعه أمامهم، سأتجنب تلك الأسئلة اللامتناهية والمكررة، سأبتعد ببساطة عن كل هذا العذاب، هذا هو الحل الوحيد الذي كنت أفكر فيه حينها. ولكنني بكل تأكيد لم أتمكن من التصرف على هذا النحو، فليس بمقدوري الهرب والاختباء طيلة حياتي، والأهم من ذلك أن الهرب لن يحل المشكلة بل قد يفاقمها أكثر. كان ذلك السؤال المؤلم ينهش روحي ليل نهار، لماذا يمتلك الجميع أطفالاً أصحاء، بينما ابني معاق؟ لماذا أنا بالتحديد من عليه عيش هذه المأساة من دون الآخرين؟ وعلى الرغم من أنني لم أُصارح زوجتي بشيء لكنني اعتبرتها المسؤولة الوحيدة عما حصل. ولكنني في كثير من الأحيان كنت أتساءل ألا يمكن أن أكون أنا سبب المشكلة، كنت أنتقل بين اتهام زوجتي واتهام نفسي واتهام...، وألقي اللوم على أحدنا في كل مرة، حتى أنهكني هذا الشعور، وأحسست بأنه سيقودني نحو نفق مظلم من اليأس والإحباط، فتمالكت نفسي مجدداً، وبدأت في محاولة تقبّل الأمر وأظن بأنني نجحت في ذلك بطريقة ما.

كان نهاد أكثر شخص ساعدني وزوجتي على تقبّل الأمر، لم يحاول التهرّب من الأمر كما فعل كنعان، على العكس تماماً، فهو لم يخفِ مشاعر الألم التي انتابته، ولكنه بالمقابل حاول قدر المستطاع أن يطلعنا على كافة المعلومات التي كان يحصل عليها من الكتب والمقالات والأطباء والمختصين في هذا المجال، وحتى من الأسر التي مرت بتجربة مماثلة، وشاركنا هذه المعلومات أنا وكولريز، وعلى الرغم من أننا لم نقرأ الكتب التي كان يزودنا بها حول هذا الموضوع إلا أنه كان أول شخص مد يده لنا، وجعلنا نشعر بأن الأمر ليس مخجلاً، بل إن احتمال حدوثه وارد لدى جميع الأسر. كان هذا الدعم الإنساني هو الخطوة الأولى لنا أنا وكولريز على طريق تجاوز الصدمة، والبدء في التعامل مع ابننا بطريقة أكثر تقبّلاً، وكان السبب في تمتين العلاقة بيننا وبين نهاد أكثر من ذي قبل، فبالإضافة إلى العلاقة التي تجمعنا نحن الثلاثة، تولدت بيننا صداقة عائلية من نوع خاص ومميز جداً.

حسناً، فلنعد إلى أحداث ذلك اليوم، كانت كولريز ستأخذ بورج إلى طبيب العيون، ولكنه كان مستمتعاً باللعب مع نهاد إلى درجة لا يمكن تخيّلها، وكان نهاد أيضاً يجاريه في هذه المتعة، ويحاول اسعاده قدر المستطاع، وكانت أصوات ضحكاتهما تعم الأرجاء، ولم يستجب لنداءات أمه في البداية بترك اللعب والذهاب لأن موعد الطبيب قد اقترب، إلا أنه عندما لاحظ نظرة التأنيب التي في عينيها والتي يعرفها جيداً، هدأ على الفور، وكف عن اللعب واتجه نحوها والحزن بادٍ في عينيه الجمليتين، حاول نهاد التخفيف عنه قائلاً:

- لا تحزن يا صديقي، أعدك بأنني سآتي لزيارتك في الأسبوع المقبل وسنكمل اللعب من جديد.

سرّ بورج لهذا الكلام كثيراً، وسأل نهاد بنبرة صوته الهادئة والناعمة

- حقاً ستأتي وسنلعب مجدداً؟

عندما رأيت كيف يستطيع بورج التحدث بطريقة شبه طبيعية، والتعبير عن مشاعره بطريقة صحيحة كأي طفل آخر، أدركت حينها أن كل الجهود التي بذلناها لم تذهب سدى. لقد حاولنا كثيراً تعليمه كيفية تحريك لسانه من أجل نطق الحروف، ومضغ الطعام بصورة صحيحة، وعدم إبقاء لسانه متدلياً نحو الخارج من خلال تمارين النظر في المرآة، والتحكّم بصوته وطريقة تعبيره عن الجمل المختلفة، التحكّم بحركات يديه وقدميه، وكل الأمور الأخرى التي تبدو الآن مجرد ذكريات جميلة، كلها كانت في الواقع لحظات من الأمل والألم، من اليأس والإحباط والإصرار في آن واحد، في كل مرة كنا نشعر فيها بالأسى كنا نبدأ من جديد، وقد أثمرت جهودنا بصورة رائعة. فقد كانت أهم نصيحة تلقيناها من الأطباء أن الاهتمام الخاص به في السنوات الأولى، سيجعل بورج يحيا بصورة شبه طبيعية، ولكن إن تخليتم عن محاولة مساعدته وتعليمه، فلن يتطور ذكائه، ولن يمتلك القدرات التي تخوّله العيش بشكل صحيح. طبّقنا نصائحهم، وكانت النتيجة أكثر من رائعة، ولكنه لا يزال يخضع لجلسات العلاج الفيزيائي، ولا يزال تحت إشراف طبيب خاص، وقد بدأنا مؤخراً بالفحص الدوري لدى طبيب العيون. وفيما كنت ما أزل أفكر بوضع بورج كان هو يحادث نهاد:

- لقد اشترى لي والدي لعبة بزل كبيرة هذه المرة، سأريك إياها عندما تأتي لزيارتنا في المرة المقبلة.

- بزل؟

تساءل نهاد بدهشة وسرور:

- ممتاز فأنا أحب لعبة البزل كثيراً.

أجابه بورج بجدية كبيرة وهو يضيق عينيه:

- لكنها صعبة قليلة، فهي مكونة من ثلاثمئة قطعة هذه المرة.

- حقاً؟ وهل تستطيع أن تركب القطع كلها في مكانها الصحيح لإكمال الصورة؟

نظر إلى والدته التي بادلته النظر بابتسامة مشجعة.

- بالطبع أستطيع، ولكن أمي تساعدني أحياناً.

- حسناً، لا مشكلة إذا، فإذا صادفتني أي صعوبة ستقوم أنت بمساعدتي.

- موافق.

واستعد للذهاب مع والدته، لكني لم أستطع أن أمنع نفسي من احتضانه وقلت:

- هل ستذهب من دون أن تقبّل والدك؟

فقام بتقبيلي على الفور، وهنا عدت إلى حمله بين ذراعي واحتضانه مجدداً، ويبدو أنني احتضنته بقوة هذه المرة مما دفعه للابتعاد معترضاً.

- اتركني يا أبي.

- حسناً، حسناً أيها الصغير.

وأنزلته.

وقبل أن تخرج كولريز صافحت نهاد بودّ وهي تقول:

- تعال في نهاية الأسبوع لزيارتنا، سنكون بانتظارك.

ولكنها لم تطلب منه إحضار ملك معه، فهي أيضاً لم تستطع أن تتقبّلها، وحتى إن قامت بدعوتها فهي لن تأتي. كانت تحب ديزى، ولكنها لا تستطيع أن تدعوها من دون دعوة أمها، لذا لم تأتِ على ذكرها. كان نهاد يعلم حقيقة مشاعرها تجاه زوجته، لذا تقبّل الأمر منذ البداية، ولم يحاول تغييره، وكما في كل مرة فقد أجاب بمنتهى اللطف وبصورة طبيعية جداً.

- بالطبع سآتي، أمن المعقول أن أفوّت على نفسي فرصة حل بزل من ثلاثمئة قطعة؟

وما أن خرج كولريز وبورج من المكتب حتى استدار نحوي:

- بورج طفل رائع حقاً.

أغلقت الباب وأجبت مؤكداً:

- أجل معك حق، إنه رائع.

كان هذا الكلام في البداية يبدو جارحاً بالنسبة إليّ، وأعتبره نوعاً من الشفقة، ولكن مع مرور الوقت، وتحسّن حالة بورج بدأت أتخلص من هذا الإحساس. لقد بدا ابني كأي طفل طبيعي، وسأحرص على العناية به ومساعدته حتى آخر لحظة، ولن أسمح لأي شخص أن ينتقص من قدراته، أو أن يعتبره شخصاً مختلفاً عن الآخرين.

- هل أنت جائع؟

بادرته.

- لا شكراً. فقد كنت عند كنعان منذ قليل، وقد أكلت عنده بعض السندويشات.

وبما أنه تطرّق إلى ذكر كنعان، فلا بد أن يبدأ بسرد آخر التطورات بعد قليل، في الحقيقة كنت متلهّفاً لمعرفة ما يحصل، وما قام به كنعان، إلا أنني كنت أحرص على إخفاء الأمر والتصرّف بلا مبالاة.

- ما رأيك في شرب القهوة إذاً؟
- حسناً، لن أرفض القهوة بكل تأكيد.

اتصلت بالسكرتيرة يشيم، وطلبت منها فنجانين من القهوة، ومن ثم جلست إلى طاولتي، ولم يكن من داعٍ لأطلب منه أن يروي لي ما حصل مؤخراً، فقد بدأ بالحديث من تلقاء نفسه.

- أتعلم بأن المحقق جونييت وافق على مساعدتنا.

حاولت التماسك قدر المستطاع وعدم إظهار خيبتي وأنا أسأله.

- حقاً؟ وكيف استطاع إقناعه؟
- لم أكن معهما حين فاتحه كنعان بالموضوع، ولكن بحسب ما رواه لي فقد دعاه إلى تناول الغداء في المطعم، وأخبره بكل شيء عن الموضوع، وبالطبع وافق المحقق بكل سهولة، وخاصة بعد أن ذكر ملمّحاً أمام كنعان، بأن الشتاء قادم، وأن سطح مبنى المديرية مهترئ وبحاجة إلى بعض الترميم، فما كان من كنعان إلا أن بادره قائلاً: «اعتبر الموضوع منتهياً، غداً صباحاً ستجد ورشة كاملة على باب المديرية لمعالجة المشكلة في أسرع وقت»، وبعد هذا العرض المغري لم يجد المحقق أي مبرر للرفض، بل على العكس أكّد له بأن الأمر سهل جداً، ولكنه أشار في النهاية بأنه لا يريد من كنعان أن يقحم اسمه في هذه القصة.
- ومتى سيقوم بتسلّم الصور؟
- في بداية الأسبوع القادم.
- ألا تخاف أن يغيّر رأيه فجأة؟

- ولما سيغيّر رأيه؟ لقد وعدنا وانتهى الأمر.
- لا أعلم، ولكن لا يمكن الوثوق بوعود الشرطة.
- لا تخف، فالصور ستكون جاهزة في بداية الأسبوع المقبل، كما أن كنعان قد استأجر الطابق العلوي في المبنى الذي يتواجد فيه مكتبه في جادة الإمام عدنان، وبدأ بإجراء التعديلات اللازمة، من أجل تحويله إلى استديو للتصوير. كما أنه ذهب اليوم وأوصى على بعض المعدات التي كانت تنقصه لتصله من سويسرا، إنه متحمس جداً ويعمل بكل جد، وأظن بأنه سينجح هذه المرة وسيثبت للجميع مدى براعته.
- وماذا بشأن المرأة الروسية؟
- ما الأمر، ولما تسأل عنها؟

قال ذلك بنبرة خاصة:

- ما بالك يا صديقي، أين ذهبت بكل الظنون، أنا أسأل عنها لأنك تنوي أن تدخلها هي أيضاً في هذا المشروع.

لم يبدُ أنه أقتنع ولكنه ردّ قائلاً:

- حسناً، سأقبل هذا المبرّر، ستعمل معنا كاتيا، وستكون هي مخرجة المشروع الفنية.
- هل أخبرتها بالأمر؟
- لقد هاتفتها وأخبرتها بالأمر وقد أعجبتها الفكرة، إلا أنها تقضي حالياً بضعة أيام في موسكو، وما أن تعود سنقوم بالتحدث بشكل مفصل عن المشروع، كما أنها شاهدت من قبل صور كنعان وهي معجبة بموهبته، ولا تنسى أنها تبحث عن عمل، لذا لا سبب يدفعها إلى رفض الفكرة.

فيما هو يتحدث بحماس كنت أراقب نظرة عينيه، والوميض الذي ظهر فيهما، لقد رأيت هذا الوميض المشؤوم من قبل عندما كان يحدّثني عن ملك في بداية علاقته بها، وإصراره على الزواج منها، والنتيجة الكارثية التي آل إليها الأمر، إنها النتيجة نفسها التي تنتظرنا في ختام هذه المغامرة المخيفة.

ولكنني لم أتمالك نفسي وبدأت بالضحك، فقد ولدت المقارنة وحماسة صديقي المكررة رغبة لا تقاوم في الضحك، عندما لاحظ أنني بدأت أضحك تشجع قائلاً:

- أعلم أنك لا ترحب بالفكرة، ولكن إذا حاولت أن تشاركنا...
- ألا تكفي مشاركتك؟

هذه الجدية المفاجئة مني جعلته يشعر بالإحباط.

- أنا أحاول مساعدة كنعان لا أكثر.

دمدم.

- لقد سمعت ما كان يقوله ذلك اليوم، إنه يعاني من آثار الصدمة، وعلينا أن نساعده ونقف إلى جانبه.

- لا تقلق علينا.

- لم؟ أليس صديقك كما هو صديقي، كما أننا لا نطلب منك شيئاً سوى بعض كلمات التشجيع، والمساعدة المعنوية لا أكثر، وأن تكف عن العبوس كلما ذكرت لك الأمر.

- أعتقد أن تشجيعي أو عبوسي لم يعد له أي أهمية، فالمشروع مستمر، وقد بدأتما بتنفيذ خطواته الأولى بالفعل.

تمهّل للحظات قبل أن يجيب:

- لا تغضب من صراحتي، ولكنني أظن أنك تغار من كنعان.

كنت على وشك الاعتراض على كلامه عندما بادر بالقول:

- تمهّل ودعني أنهي كلامي. أنا أيضاً أغار منه أحياناً، هذا الشعور شيء فطري، ولكن لا مبرر له. لأننا لا نستطيع أن نصبح مثله مهما حاولنا، لا تنظر إليّ بهذه الطريقة، فأنت تعلم بأن كلامي فيه من الصحة القدر الكبير، كثيراً ما أفكر في طبيعة علاقتنا مع كنعان وحقيقة مشاعرنا نحوه، في البداية كنت أعتبر أن هذه الثروة التي جناها هي التي تمكّنه من العيش بالطريقة التي يحب من دون أية قيود، وكنت أعتقد بأنني لو امتلكت هذه الثروة فسأحقق ما لن يستطيع كنعان تحقيقه، ولكن مع مرور الوقت أدركت بأن الأمر لا يتعلق بالنقود، إنه يتعلق بجوهر كل منا، فكنعان هو أكثرنا جرأة وشجاعة، أكثرنا حباً للمخاطرة، واستهتاراً بكل القيود والمعوقات، ولكنه بالطبع شخص طيب القلب.

توقّف عن الكلام وظهرت ابتسامة لطيفة على وجهه.

- أليست هذه هي الحقيقة، فنحن نحبه ونغار منه لهذه الأسباب مجتمعة؟

استغربت ولم أعرف ما أقول، فكيف استطاع أن يعرف مكنونات نفسي، والأكثر غرابة أنه قد اعترف بغيرته من كنعان بكل صراحة.

- أنت أيضاً كنت تغار منه؟ دمدمت.

- كنت أغار؟

ضحك وتابع:

- لا أزال أغار منه ولكنني في الوقت نفسه أحبه، وهذا ما تحس

به أنت أيضاً. أليس كذلك؟

لقد استطاع التعبير عن أمر صعب وبالغ التعقيد بأسلوب سلس وبسيط مما دفعني للاعتراف قائلاً وأنا أهز رأسي مذعناً.

- معك حق.

- لا أظن أن بمقدور أحد أن يعرف كنعان ولا يحبه.

وقد أرفق جملته بابتسامة من نوع خاص لم يغب عني مغزاها وأكمل:

- خاصة النساء.

- باستثناء زوجتينا.

ضحكت.

- أم أنني مخطئ، باعتقادي كولريز وملك كلتاهما لا تستلطفان كنعان كثيراً.

- إنك محق يا صديقي، أظن أن أكثر ما يخيفهما هو إمكانية تأثّرنا بكنعان، ومجاراته في تصرفاته، وأعتقد أحياناً أن ملك تعتبر هذه العلاقة التي استمرت كل هذه السنوات، منافساً غير شرعي لعلاقتي بها. قد تكون وجهة نظر كولريز مختلفة، ولكن ملك لم تستطع تقبّل علاقتي بكنعان كأمر طبيعي، وعلى الرغم من لا مبالاتها المزمنة تجاه أي أمر يخصني، إلا أنها ما إن تعلم أنني ذاهب لرؤيتكما وبخاصة كنعان، تبدأ بافتعال المشاكل والتذمر.

لم أتمالك نفسي من الضحك.

- هل تصدّق أنها وبالرغم من تجنّبها افتعال الشجار معي مؤخراً - على عكس ما كانت تفعله سابقاً - تنفعل بشدة لمجرد ذكر اسم كنعان، وتصبح كالقطة التي لمحت كلباً في الجوار، لتكون أدنى حركة بسيطة مبرّراً لشجار لا يتوقف.

- في الحقيقة كولريز لا تتصرف بهذه الطريقة، ولكن لا بد لي من الاعتراف بأنها لا تستلطف كنعان كثيراً، فهي لا تعتبره شخصاً ناضجاً، وأتذكّر بأنها في أحد المرات وفي معرض الحديث عنه اعتبرته يعاني من مشكلة نفسية وبحاجة إلى طبيب نفسي، وإنه وإن تقدّم في العمر إلا أن نضوجه العاطفي غير مكتمل فهو لا يزال في طور المراهقة.

- إنهما لا تعرفان حقيقة كنعان.

قال ذلك بطريقة توحي بثقته وحبه الكبير لكنعان؛ فهو شخص يصعب فهمه بالنسبة إليهما، كما إنه لا يتوافق مع الصورة النمطية التي

كوّنتاها عن الرجال عامةً.

لا بد لي من الإقرار بصحة رأيه، فكِلا الطرفان - نحن وزوجتانا - لم تكن نظرتنا إلى كنعان حيادية إطلاقاً، فلا شيء سوى سلبياته كانت تلفت انتباههما، على عكسنا نحن فقد كنا نرى إيجابياته طاغية على تصرفاته الشاذة، ومع ذلك فقد أحسَسْت بوجوب الدفاع عن وجهة نظرهما.

- ولكن علينا الاعتراف بأن صديقنا يمتلك ما يكفي من الجنون لدفع الآخرين لتكوين هذا الانطباع عنه.

- وما هي مقوّمات الشخصية السوية برأيك؟ أن يكون كالجميع مثلاً؟

وقبل أن أتمكن من الرد عليه طُرق الباب، فقلت بصوت مرتفع.

- تفضّل.

كانت السكرتيرة يشيم وقد أحضرت فنجاني القهوة، قامت بتقديمها لنهاد أولاً ومن ثم قدّمت لي فنجاني، وقبل أن تخرج سألتني:

- هل تريد شيئاً آخر سيدي؟

شكرتها طالباً منها الانصراف، لكن لم تكن لي رغبة بمتابعة الحديث من جديد، وعلى ما يبدو أن نهاد أيضاً فضّل الصمت، وشرب قهوته برشفات صغيرة بتمهّل، وفيما كنت أراقبه كنت أتذكر حديث كولريز عن كنعان، ووصفها له بأنه لا يزال في طور المراهقة نفسياً، أعتقد أن هذا الوصف ينطبق على نهاد أيضاً. أتذكّر أنني قرأت مقالاً يصف الرجال جميعاً بأنهم غير ناضجين كفاية، فهم بطريقة ما لا يزالون أطفالاً، وعلى عكس الاعتقاد الشائع، فالمرأة أكثر تحمّلاً للمسؤولية من الرجل، وتفكيرها أكثر منطقية أثناء الأزمات، كما أن نضوجها النفسي يتم بصورة أسرع. لكنني متأكد من أن هذه الاعتقادات لا تنطبق عليّ، فباستثناء سنوات الطفولة المبكرة - حتى في تلك الفترات كان سلوكي يتسم بالاتزان مقارنة مع أقراني - لم أشعر بهذا الطفل الغافي في أعماقي مطلقاً، ولن أخفي بأن والدي هو من يتحمل وزر الأمر.

لقد كانت أمي مريضة على الدوام، لذا فقد كان والدي هو من يهتم بتربيتي، ومنذ المرحلة الإعدادية بدأ يعاملني كشخص راشد، وأذكر أنه دعاني إلى المعمل في اليوم نفسه الذي حصلت فيه على الشهادة الثانوية، وأجرى معي محادثة قصيرة لكنها تركت أثراً بالغاً في نفسي، ولا أزال إلى اليوم أتذكر بعضاً مما قاله حينها:

- لا أزال بحاجة إلى الكثير من الوقت لفهم الحياة بصورة

منطقية، ولكني أعلم بأنك أكثر وعياً وحكمة من بقية أصدقائك وأقرانك، إلا أن هذا الوعي بحاجة إلى المزيد من التجارب والزمن. وهذا لا يعني مطلقاً أن مرحلة الشباب هي مجرد لهوٍ ومتعة، كما يزعم الكثير من كبار السن، حيث يعبّرون في كل مناسبة عن لهفتهم للعودة إلى تلك المرحلة. لا يا بنيّ، الحياة لا تسير على هذا النحو، إنها سلسلة تكمّل بعضها بعضاً، وتؤسس لما يليها، لذا أعتبر أنه من الحماقة التحسر للعودة إلى الخلف، فأنا عشت شبابي، ورؤيتك تحيا هذه المرحلة لن توقد في نفسي أية رغبة سخيفة كهذه. وكل كهولة متّزنة وصحية هي دليل على شباب متّزن. الحياة يا بنيّ نهر متقلّب الأمزجة، وما نحن سوى أغصان صغيرة تطفو لمدة من الزمن على سطحه، وهناك قاعدتان لا تتغيران مطلقاً في هذه الرحلة، الأولى أنك مهما صادفت ورافقت ستكمل رحلتك بمفردك، والثانية أن نهاية هذه الرحلة مهما طالت هي الموت المحتوم. أعلم أن هذا الحوار ليس ما كنت تتوقعه في يوم نجاحك، ولكن هذه هي حقيقة الحياة وعليك أن تعرفها باكراً، لتكون مستعداً للعواصف التي ستصادفك في رحلتك هذه، وأن تبقى متيقظاً حتى في فترات السكون الخادع التي ستمرّ بها، وبهذا ستوفر على نفسك الكثير من المشقة التي لا طائل من ورائها، ولن تستطيع خيبات الأمل أن تعرقل مسيرتك. عليك الاعتماد على نفسك، وعلى نفسك فقط، إنها الطريقة الوحيدة لتجنّب الصدمات التي يخلّفها الآخرون فيما لو اعتمدت عليهم، وبهذا ستكون شخصا قوياً يستطيع إكمال رحلته من دون أن يتعرض للكثير من المتاعب. وحين أنهى كلامه أعطاني ساعة سيركيسوف القديمة والتي كانت لجدي من قبله، وعندما لاحظ استغرابي أكمل حديث بجدية وحزن.

- لم يكن أبي رجلاً غنياً، كما أنه لم يكن قوياً أيضاً، وقد غادر بلده بلغاريا التي قضى فيه أكثر من نصف عمره، ليستقر هنا في اسطنبول. وعلى الرغم من أن بلغاريا كانت تابعة للسلطنة العثمانية في ذلك الوقت مثلها مثل اسطنبول، إلا أنه لم يستطع الاعتياد على العيش فيها. لقد بدأت روحه تتآكل بفعل الحنين، ولم يستطع التعافي والعودة إلى ما كان عليه مطلقاً. كان الجميع يقول إنه شخص طيب، ولكنه عندما توفي لم يترك لنا أنا ووالدتي شيئاً سوى الديون المتراكمة وهذه الساعة القديمة. وكلما نظرت إليها كنت أتذكر بأنني يجب ألا أكون مثل أبي، لعل هذا ما دفعني إلى تجاوز كل تلك المشاكل والفقر والوقوف على قدميّ وبناء ثروة كبيرة من لا شيء، لذا فهي ستكون لك الآن، وكلما نظرت إليها

تذكّر جدك وتذكّرني بالمقابل.

على الرغم من صغر سني حينها، إلا أن كلمات والدي حفرت اخدوداً عميقاً في روحي واستطاعت أن تبقى ماثلة في ذهني رغم مرور كل هذه السنوات. قد تكون هذه الطريقة التي اتّبعها والدي في التعامل معي دافعاً لجعلي أكثر اتزاناً وعقلانية، إلا أنني أعتقد بأن هذه الصفات كانت موجودة بالأساس لدي. لهذا فقد توافقت كلمات والدي مع ميولي ورغباتي الحقيقية، وتحوّلت مع مرور الوقت إلى دافع آخر لتعزيز أسلوبي في الحياة. ولقد مرت ثلاثون سنة على تلك المحادثة، ولا أزال أحسها من أكثر الكلمات التي سمعتها في حياتي حكمة. لقد كانت بوصلتي التي جعلتني أقف على قدمي بقوة أكبر، واعتمد على نفسي، وأواجه كل مشاكلي بواقعية بحتة. قد يتساءل الكثير ما الذي يجمعني بشخصين مثل كنعان ونهاد، يقفان على النقيض من هذه الصفات. الجواب بسيط وواضح، إنهما صديقا الطفولة، وأكثر شخصين أستمتع بتمضية الوقت معهما بعيداً عن أجواء العمل. ولكنني بالطبع لا أعتمد عليهما من أجل تحديد نمط حياتي وطريقي، ولا حتى على كولريز زوجتي، فالحقيقة التي لا تغيب عن ذهني مطلقاً هي أنني وحيد في هذا الدرب، وسأكمله وحيداً ومتوكّلاً على نفسي. كنت غارقاً في هذه الأفكار حين باغتني نهاد بالقول:

- كيف يسير عملك؟ هل استطعت الاتفاق مع الفرنسيين من أجل الشراكة في مشروعك الجديد؟

سرّني سؤاله البعيد كل البعد عما كنت أفكر فيه، وعما كنا نتحدث فيه من قبل.

- جيد جيد، وأعتقد أننا على وشك الاتفاق والبدء بالعمل سوية.
- إذا فلن ترهن المبنى الذي تملكه في بيه أوغلو؟
- أجل، هذا ما يبدو، هناك بعض النقاط التي يجب أن نتفاهم عليها خلال هذا الأسبوع، لنبدأ بعدها بالخطوات العملية.
- لقد سرّني الأمر، فقد كنت ترغب في تحقيق هذا المشروع منذ مدة طويلة.
- أجل، وقد تجاوزنا العقبات الأساسية كلها، وأظن بأن الأمور ستسير على خير ما يرام. وبعد رشفة صغيرة من قهوتي تابعت الحديث.
- وأنت ما أخبارك، ألا يعيقك مشروع كنعان هذا عن متابعة عملك في المكتبة؟

تغيّرت نظرته فجأة، وظهر التوتر على ملامحه، فقد كان خائفاً من

عودتي لتقريعه بسبب مساعدته لكنعان.

- حسناً لا داعي لكل هذا التجهم - حاولت أن أطمئن - لم أقصد تأنيبك مطلقاً، ولكنني حقاً بدأت أشعر بالفضول لمعرفة ما تفعلونه.

ظهر الارتياح على وجهه مجدداً، ولكنه حاول أن يدافع عن نفسه قدر المستطاع.

- أن لا أساعد كنعان طوال الوقت، وحتى عندما أتغيّب عن المكتبة فإن ملك تأخذ مكاني، خاصة وأنها قررت مع مجموعة من أصدقائها إصدار مجلة ما، وهذا ما يدفعهم إلى التواجد في المكتبة طيلة الوقت، فهم سيتخذون من المكتبة مقراً لإصدار المجلة.

- إذاً فلا مشكلة في الأمر، ولن يعيقك كنعان عن متابعة عملك.

- لا تقلق، كما أنكما أنت وكنعان كنتما على الدوام خير عون لي في أوقات الحاجة. ولا ضير من أن أساعده في أمر كهذا وأن أقف إلى جانبه، ألسنا أصدقاء؟

## (5)

أجل نحن أصدقاء ولكن... بدأت أحس بأنني بعيد جداً عن صديقيّ في هذه الفترة، وفي المقابل لا أريد إلقاء اللوم على أحد، والإدعاء بأنهما تقصّدا إبعادي عن هذا المشروع، فأنا أدرك تماماً أن السبب الرئيس لتجنبهم محاولة إشراكي هو إصراري على أن نهايته ستكون مفجعة. قد أكون بالغت في ردة فعلي إزاء الأمر، وتوقّعت ما لا يمكن وقوعه. قد تكون طريقتي في تحليل الأحداث مختلفة قليلاً، ومن الممكن أن ينتهي هذا المشروع من دون أن يتسبب في أي مشكلة.

وسأزيد جرعة التفاؤل أكثر، فربما ينجح كنعان في استقطاب اهتمام الصحافة والنقّاد ويصل إلى الشهرة التي يحلم بها، وبذلك يكفّ عن ترّهات الخلود والموت والحياة التي بات يزعجنا بها كلما التقينا مؤخراً. لقد استطعت إقناع نفسي بوجهة النظر هذه، وبدأت أميل للتفكير على غرار الآخرين، والتخلص من مخاوفي. أعتقد أن انتقالي من ضفة إلى أخرى لم يشكّل أي فرق لدى صديقيّ اللذين كانا منغمسين في التحضير للمعرض، وعلى الرغم من رغبتي العارمة في الانضمام إليهما، لكني لم أستطع الإفصاح عنها، ولم يكن من المتوقع أن أتلقى دعوة من قبلهما، فهما لم يكونا على علم بتغيير موقفي إزاء الفكرة. لذا فقد تركت الأمور تسير كما شاء لها القدر، وتفرغت لفكرة توسيع المعمل، فقد كانت هناك تفاصيل لا نهائية يجب الاهتمام بها والعمل عليها في تلك الفترة، ولم أعد إلى التفكير في موضوع المعرض ولا فيما يفعله صديقاي إلا حين التقيت صدفة بكاتيا أمام صيدلية رِبول في بيه أوغلو. يقال إن العالم صغير، لقد تأكدت من صدق هذه المقولة حين رأيت كاتيا، بل وتأكدت من أن بيه أوغلو أيضاً أصغر مما كنت أتوقع، بحيث كان من المستحيل أن نضيع في أزقتها من دون أن نلتقي بصدفة مماثلة. وما إن رأيت كاتيا حتى تذكرت معرض كنعان، ولكن لا بد لي من التطرق إلى حدث سبق رؤيتي لكاتيا بفترة وجيزة.

ذهبت إلى المعمل الواقع في بوسنة الجديدة لعقد اجتماع صغير مع مصممي الأزياء حول التصاميم الكتانية التي باتت جاهزة لفصل الصيف القادم. وعند عودتي إلى مكتبي في بيه أوغلو كان الوقت قد تجاوز الظهيرة بقليل، وقبل أن يركن السائق رمضان السيارة في الموقف المخصص، طلبت منه أن ينزلني في شارع ساكيز آجي الذي يشكل مدخل بيه أوغلو.

كل شارع، وكل زقاق وحارة في بيه أوغلو تشكل مدخلاً إلى عالم

مختلف مليء بالمفاجآت، لكنني أفضل هذا الشارع عن سواه، وأجده أكثر جذباً وغرائبية، فعلى اليمين تقع دار العبادة المسماة صورب أسدفادزادزين، وإلى الأمام قليلاً تقع بيوت النساء الرخيصات، وفي منتصف الشارع تقريباً تقع سينما سينيبوب، وفي نهاية الشارع يقع جامع حسين آغا التاريخي، والذي يتقاطر إليه المصلون يوم الجمعة. وعلى طرفي الشارع تتوزع مختلف المحلات المختصة ببيع وتصليح الساعات، وبيع الأحذية والألبسة الزهيدة الثمن، المقاهي، وقبالة سبيل الماء المشهور والذي يمد الجامع التاريخي بمياهه تجد إحدى المكتبات التي تجاور أشهر الفنادق القديمة في بيه أوغلو وهو فندق الحاج عبد الله، هكذا هي بيه أوغلو تجاور العراقة مع البساطة، وامتزاج القديم بالجديد في خصوصية تضفي طابعاً آخاذاً على شوارعها المتشابكة. كما يختلف رواد الليل عن رواد النهار فيه، ففي ساعات النهار تجد هذا الشارع مزدحماً بالحرفيين وأصحاب المحلات وزبائنهم، وما أن ينتصف الليل حتى تتغير هوية الشارع تماماً وتتغير هوية مرتاديه أيضاً. وقد تسمع غناء رواد الليل أو ضحكاتهم. وأحياناً، أخرى قد تسمع الصراخ الناجم عن شجار نشب فجأة، لتغطي عليه أصوات سيارات الإسعاف وسيارات الشرطة التي تداهم المكان. وفي الكثير من الأحيان تمتد أحداث الليالي الحمراء لتصبغ ساعات النهار أيضاً بلونها. والتي تشكل مادة لتسلية أصحاب المحلات الذين اعتادوا على هذا النوع من المشاكل، حيث يخرجون ما إن يسمعوا صوتاً ما وهم يتبادلون الابتسام والتندر حول ما يحدث وما سيؤول إليه الأمر، وفي ذلك اليوم كنت شاهداً على أحد هذه الحوادث أثناء تواجدي في ذلك الشارع.

كنت قد ترجلت من السيارة في بداية شارع ساكيز آجي، وقررت التوجه إلى مكتبي سيراً، وفجأة بدأت أصوات الصراخ والشتائم تعلو من مكان ما في الشارع، وعلى الفور خرج أصحاب المحلات وهم يتساءلون عن مصدر الصوت وأسبابه وبدأوا بالتوجه يساراً نحو شارع النعناع، لم أقاوم فضولي هذه المرة، وسرت معهم لأعرف. وما أن وصلنا إلى مدخل الشارع حتى رأيت فتى لم يبلغ الثامنة عشرة من العمر بعد ممزق الثياب، يحمل أحجاراً ويرميها على ورشة الأحذية الموجودة في الطابق الأرضي لأحد الأبنية في زاوية الشارع وهو يشتم ويصرخ غاضباً. في الحقيقة، لا تستهويني هذه المشاكل والحشود المجتمعة حولها، ولكن كما أسلفت كان فضولي اليوم أقوى من أن أقاومه، لذا فقد استسلمت له، ووجدت نفسي واقفاً في الصفوف الأولى من جماهير المتفرجين. لكن هذه الحشود لم تلفت انتباه

الفتى الغاضب والذي كان يرمي كل ما تطاله يده نحو ورشة الأحذية، لم يكن يصيب الهدف في كل مرة، ومع ذلك فقد نجح في تحطيم اثنين من أصل أربعة واجهات زجاجية تطل بها الورشة على الشارع. كانت قطع الزجاج المهشم متناثرة بشكل خطر في كل مكان، وبعض هذه القطع كان قد جرح بالفعل قدمي الفتى الحافي، وبدأت الدماء تغطيهما، لكن لا قدماه النازفتان، ولا جموع المحتشدين كانت قادرة على لفت انتباهه أو تهدئته.

- ... اخرج وواجهني يا جبان.. هيا أيها القذر...

كان يصرخ شاتماً وباحثاً في الوقت ذاته عما يمكن أن يرمي به المحل. علّق أحد الشبان ساخراً، والذي يبدو من ثيابه أنه يعمل نادلاً في المطعم المجاور.

- لما هو مصرّ على شتم الرجل وعائلته.

- المسكين تم الاعتداء عليه البارحة وليس لديه حل آخر سوى الشتم ليهدّئ من روعه قليلاً.

علّق شاب آخر من المحتشدين، وعلى الرغم من تعاطفه مع الفتى إلا أن نبرة السخرية لم تغب عن صوته أيضاً.

- لا بد وأن جهاد وراء الأمر أليس كذلك؟

علّق رجل بدين متأنق في ثيابه بأسف.

- ومن غيره.

أجاب النادل:

- القصة نفسها تتكرّر باستمرار، فمن الواضح أن الفتى المسكين لم يجد مكاناً لينام فيه البارحة، وقد عرض عليه جهاد أن ينام في الورشة، فوافق الفتى وهو لا يعلم غاية جهاد من وراء هذا العرض السخي.

- لا يعقل أنه لم يلاحظ الأمر منذ البداية.

ردّ عليه أحدهم.

- وكيف له أن يلاحظ وجهاد رجل خبيث، كما أن الفتى كان مشرّداً منذ عدة أيام بلا مأوى ويبدو أنه نام على الفور، ولا تستبعد أن يكون هذا الخبيث قد أغراه باحتساء شيء ما ليفقده وعيه بسرعة.

- لا حاجة به للشراب ورائحة الأحذية موجودة.

أجابه البدين.

- يبدو أن جهاد قد أقنعك من قبل بالدخول إلى ورشته ليلاً.

رد النادل ساخراً.

- لا، ولكن الكل يعلم بأنك زرت ورشته أكثر من مرة للسبب عينه.

رد البدين مبعداً التهمة عن نفسه.

- وإذا بقيت تواظب على نزهاتك الليلية هذه، فمن المرجح أن تترك عملك في المطعم، وتنتسب إلى قافلة ضحايا جهاد.

كاد البدين يهم بالرد حين تدخل رجل عجوز مؤنباً

- ألا تخجلان؟ انظرا إلى الفتى المسكين وما حل به، كيف تسخران منه وهو في هذا الوضع؟

- ولكننا لم نفعل شيئاً للفتى يا عم سيري.

ردّ عليه النادل.

- وبدل أن تتهجّم علينا وتوبّخنا حاول أن تمنع جهاد مما يفعله بهؤلاء المساكين.

- بالتأكيد سأعمل على طرد هذا الفاجر من الحي فوراً، ولكن أنتما أيضاً أظهرا بعض الاحترام لحالة المسكين وكفّا عن السخرية.

- لا داعي لأن تزعج نفسك من أجل هذا الفتى سيد سيري.

تدخّل رجل طويل.

- فهو لا يختلف عن جهاد بشيء صدّقني. وقد عرض على رمضان الشاب الذي يعمل عندي القيام بما يقوم به جهاد معه مقابل بعض المال، وقد طرده رمضان على الفور، كما أنني شهدت على الحادث بنفسي، ويبدو أنه بعد أن خرج من عندنا توجه إلى جهاد، وحدث ما حدث.

لكن العم سيري لم تقنعه هذه الرواية على ما يبدو فبادر مدافعاً عن الفتى.

- إذا كان بالفعل كما تدّعي، فلماذا يتهجم على جهاد بهذه الطريقة؟

- يبدو أن جهاد لم يدفع له شيئاً.

أجاب الطويل:

- هذا هو الأمر بكل بساطة.

تنهّد العم سيري بحزن:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أيعقل أننا وصلنا إلى هذا الدرك من الفساد والانحلال؟

هز رأسه بأسف.

- بجميع الأحوال لا بد لنا من طرد هذا الفاجر جهاد من الحي

بأسرع وقت ممكن.

- عليك إذا بإخلاء نصف الحي من قاطنيه، فجهاد ليس الفاجر الوحيد.

لكن صافرة سيارة الشرطة حالت دون إتمام الحوار، والتفت الجميع إلى متابعة المشهد، وكفوا عن الحديث. وما إن رأى الفتى سيارة الشرطة حتى زال عنه الغضب، واقترب من الشرطيين اللذين ترجلا من السيارة. وبدأ يسرد عليهما قصته وهو يبكي، استمعا إليه بكل برودة، ومن دون أي بادرة تعاطف ظاهرة، ومن ثم ترجل المحقق جونييت من السيارة. صحيحٌ أن علاقتي به ليست كعلاقته مع كنعان، ولكني أعرفه وقد التقينا في أكثر من مناسبة، فقد التقينا في العام الماضي مثلاً عندما اقتحم أحد اللصوص متجري.

استمع إليه جونييت وهو يروي قصته، بملامح هادئة ونظرة ثابتة لم تتغير مطلقاً مع انفعالات الفتى، وبعد أن أنهى قصته، أعطاه جونييت معطفاً خفيفاً كان يحمله بيده وأشار له أن يرتدي وهو يقول:

- حسناً حسناً، اصعد الآن إلى السيارة، وفي قسم الشرطة ستروي ما جرى لك.

أطاع الفتى تعليمات المحقق على الفور، وارتدى المعطف الذي كان واسعاً على جسمه النحيل، وصعد إلى المقعد الخلفي للسيارة، فيما التفت جونييت نحو الشرطيين وهو يشير بيده التي تمسك جهاز اللاسلكي والذي كان يواصل إصدار أصوات متداخلة، أشار نحو ورشة الأحذية.

- أحضرا ذلك الوغد.

أطاع الشرطيان الأوامر بسرعة فائقة وعلى الفور دخلا المبنى، وبعد لحظات خرجا ومعهما رجل متوسط القامة خفيف الشعر أبيض اللحية، وقد ارتسمت على وجهه نظرة في منتهى البراءة. لا بد وأنه جهاد الذي كانوا يتحدثون عنه، كان يحاول الدفاع عن نفسه فيما يسير متوسطاً الشرطيين وهو يقول:

- أقسم لكما إنه يكذب، لقد أتى إليّ باكياً وهو يقول إنه بحاجة إلى مكان ينام فيه، فأشفقت على حاله وعرضت عليه النوم في الورشة، فقد أخبرني أنه تعرض للاعتداء البارحة مساء، فيما كان نائماً في إحدى الحدائق العامة، وقد خاف أن يتعرض للموقف نفسه لذا فهو يبحث عن مكان آمن يمضي فيه ليلته، وقد وافقت بكل طيب خاطر، ولكن ها هي نتيجة الإحسان، أقسم إنه كاذب ومجنون لا تصدّقاه، ألا يكفي أنه شوّه

سمعتي أمام الجميع....

ولكنه ما أن رأى المحقق جونييت أمامه حتى توقف فجأة واختفت تلك النظرة البريئة من عينيه لتحلّ محلها نظرة خوف ورعب، واتجه نحوه بوجل.

- صدّقني حضرة المحقق أنا لم ألمسه، لقد وعدتك أن أكف عن هذا الأمر، أقسم لك إنني بريء هذه المرة، أقسم لك..

لكن المحقق كان يحدّق إلى وجهه بملامح جليدية، مما زاد من رعب جهاد ومن توسلاته فأشار نحو الفتى وهو يقترب من السيارة ولكن دون أن يرفع نظراته عن المحقق وهو يقول:

- أقسم لك يا سيدي إنه يكذب، لقد أراد الإيقاع بي، أتوسل إليك لا تصدق كلامه.

ظل المحقق على صمته، فحاول جهاد الاقتراب منه، وهمّ بأخذ يده لكي يقبّلها متوسلاً الرحمة، إلا أن المحقق الذي بدا أنه يبعد يده حتى لا يتمكن جهاد من تقبيلها، فاجأه بضربة صاعقة من جهاز اللاسلكي الذي يحمله على وجهه، لقد كانت ضربة قوية دفعت جهاد إلى الصراخ متألماً، وهو يغطي أنفه الذي بدأ ينزف على الفور. ولم يمهله الشرطيان وقتاً أكثر ليصرخ ويبكي أمام المحتشدين، وأجبراه على الصعود إلى السيارة، فيما قام الفتى الذي كان يصرخ هائجاً قبل قليل بإفساح مكان لغريمه، ليجلس إلى جانبه، وقد بدا من الواضح أنه هادئ تماماً. جلس جهاد وما أن رفع يده عن أنفه حتى رأيت لحيته البيضاء وقد غطتها الدماء. لعل من أكثر الأمور التي تثير حفيظتي هي رؤية رجل مسن يتعرض للضرب والإهانة مهما كان السبب، لذا لم أتحمل رؤية المزيد، وتركت الآخرين وهم يتابعون المشهد، وعدت أدراجي إلى شارع ساكيز آجي.

لقد تبدّل مزاجي، وغمرني الاستياء. لذا بدأت السير مسرعاً وأنا أتذكر ما كان يردده لي والدي على الدوام. فبغض النظر عن حقيقة ما جرى بين جهاد وذلك الفتى، إلا أن الإهانة والسخرية والتنكيل الذي تعرّضا له اليوم لهما سبب واحد فقط، وهو أنهما ضعيفان. فهناك الكثير من الأشخاص من أمثال جهاد والذين تختلف اختياراتهم عن اختيارات الأكثرية من حولهم، وهم يعيشون في بيه أوغلو وفي كل مكان، ومع ذلك لا أحد يجرؤ على التعرّض لهم بسوء. فهم يعيشون حياتهم كما ينبغي لها أن تكون، ويحترم الآخرون خصوصيتهم وحريتهم الشخصية، والسبب الوحيد وراء ذلك هو أنهم أشخاص أقوياء، يملكون ما يكفي من المال والسلطة والنفوذ

ما يمكنهم من فرض اختلافهم كأمر واقع غير قابل للنقد والتجريح. هذه القاعدة التي قام والدي باستيعابها منذ الصغر، وكانت السبب وراء نجاحه، كانت أيضاً من أهم الأسباب التي تدفعني دائماً لاحترامه، وغض النظر عن الكثير من هفواته الأخرى. وفيما كانت هذه الأفكار تشغلني، لاحظت فجأة أن يدي بدأت تتحسس الساعة القديمة التي أحتفظ بها على الدوام في جيبي، ولم تفارقني منذ اليوم الذي أهداها لي والدي، كنت أمرر يدي على غطائها الفضي، وأنا أفكر في ما علّمني إياه والدي، وعلى الرغم من أن طريقة التفكير التي أكسبني إياها سببت لي أحياناً - وخاصة مؤخراً - بعض المشاكل مع أصدقائي، إلا أنني لا أنكر حقيقة جلية، وهي أن هذه الطريقة بالذات تجعلني أشعر بالراحة، وتجعلني أشعر بالقوة دوماً. ليس إحساساً بالأمان بقدر ما هو شعور بأنني محقّ وأتصرّف بطريقة صحيحة، قد يكون هذا الإحساس هو مصدر الراحة الحقيقي بالنسبة إليّ. فمعرفتي بأنني سأظل محمياً على الدوام، وبأنني لن أقع فريسة سهلة أمام العقبات كما يقع الآخرون، هذه المعرفة كانت مصدر الأمان. أعتقد أن الحياة هي محاولتنا الحفاظ على هذا التوازن، أن نكون أقوياء مهما اشتدت الظروف حتى لا نسمح للآخرين أن يسحقونا، وكل النظريات التي يرددها كنعان عن حقيقة الحياة ما هي إلا مجرد ترهات لن تنفع وقت الحاجة.

بقيت غارقاً في هذه الأفكار، وقد اجتزت جامع الآغا دون أن انتبه، وكنت أسير بمحاذاة خان روميلي عندما سمعت صوت امرأة ينادي:

- سيد سليم.

بالطبع لم ألتفت، وقد قلت في نفسي لست الوحيد الذي يسمى سليم هنا، لكن الصوت كان مصراً هذه المرة، ويبدو أن صاحبته تقصدني دون سواي.

- سيد سليم..

وما أن استدرت حتى رأيت لون فيروز الشواطئ يحدق إليّ من عينين رائعتين. هذا الشعر العسلي والوجه الذي تتنافس ملامحه في الجمال، لقد رأيتها من قبل، ولكن أين؟

- ألم تتذكرني؟

- رافقت سؤالها بابتسامة فاتنة.

- التقينا من قبل في حفل افتتاح معرض السيد كنعان.

بالطبع، ولكن كيف استطعت نسيان امرأة بهذا الجمال، ربما ما حصل قبل قليل بالإضافة لعدم توقّعي الالتقاء بها في صدفة كهذه، هو ما جعل

ذاكرتي تغيّب صورتها الجميلة وراء غشاء الدهشة. ولكن يبدو أن كاتيا قد فسّرت ملامح الدهشة على وجهي بنحو مختلف فحاولت التوضيح أكثر.

- لقد عرفتني عليك ملك زوجة نهاد...

- أجل أجل لقد تذكرت.

أجبتها بابتسامة لطيفة:

- كم ذاكرتك ممتازة.

- في الحقيقة لم أكن أنا من تعرّف عليك.

أجابت بنوع من الخجل:

- السيد كنعان هو من رآك وأخبرني.

- كنعان؟

تلفّت حولي مستغرباً.

- أجل.

وأومأت برأسها نحو صيدلية رِبول.

- إنه في الداخل لشراء بعض الأدوية وقد طلب مني إخبارك أن تنتظره.

حينها نظرت بتمعن إلى داخل الصيدلية، ووجدت كنعان بالفعل واقفاً هناك يلوّح لي. لقد مر وقت طويل على آخر لقاء بيننا، ربما أكثر من عشرة أيامٍ، كما أنني وبسبب انشغالي في توسيع المعمل هذه الفترة، لم تتسنَّ لي الفرصة لرؤية نهاد أيضاً.

- أعتقد أنك تعملين مع كنعان أليس كذلك؟

انتقلت الدهشة إليها هذه المرة.

- كيف عرفت؟

- كنا نتحدث عن مشروع تصوير الجرائم الذي يعمل عليه كنعان مؤخراً، وقد جاء ذكرك في معرض الحديث..

- أجل إنه مشروع عن تصوير الجرائم.

غيمت على وجهها غمامة شفافة من الضيق، أيعقل إنها تشاركني وجهة النظر ذاتها، لا أعلم.

- إنه مشروع غريب.

كانت محاولة مني لسبر أغوارها والتأكد من وقوفنا على الجهة نفسها.

- أجل غريب.

قالت ذلك وهي تتهرب من النظر إليَّ مباشرة.

- برأيك هذا شيء سيئ؟

- ليس سيئاً، لكني أخشى أن تطغى غرائبية الموضوع على الصورة أو على صاحب الفكرة نفسه.

وعندما لاحظت أنني لم أفهم ما تعنيه بالضبط، حاولت أن تشرح أكثر.

- أعتقد أن الموضوع ليس هو المهم في مهنة التصوير الضوئي بقدر أهمية كيفية تقديم الموضوع، كما أن الناس تخشى على الدوام من المواضيع التي تلفت الانتباه إلى هذه الدرجة. فالمواضيع الغريبة تبرز الموضوع وتحد من موهبة المصور وتغيّبها.

بدأت أفهم ما ترمي إليه كاتيا وسبب خشيتها، وعلى الرغم من عدم معرفتي لدوافعها الأساسية إلا أنني سررت لمعرفة أن أحداً ما يشاركني الموقف ذاته من هذه الفكرة. أحسست ببارقة أمل، وقمت باستغلال الفرصة على الفور، فمن يعلم ربما تتمكن كاتيا من ثني كنعان عن تنفيذ هذه الفكرة الجنونية.

- أوافقك الرأي.

أكملت وقد تملكني الحماس:

- فالإبداع يكمن في تحويل المواضيع البسيطة إلى فن حقيقي من خلال طرحها بصورة جمالية مميزة.

- يبدو أن ثقافتك الفنية قد تطورت بشكل لافت يا صديقي.

قاطعني صديقي بصوته المبحوح بفعل الزكام، وهو يقف أمامي بشكل مفاجئ.

- أعتقد أننا سنضمك إلى فريق العمل.

قال ذلك باستهزاء مبطن.

- كيف حالك؟

اقتربت محاولاً ضمه.

- أرجوك ابق بعيداً، لقد أصبت بزكام شديد، ألا تسمع صوتي المبحوح، لا أريد أن تنتقل العدوى إليك أيضاً.

تابع وهو يحدّث كاتيا:

- أعتقد أنك تعرفت على سليم من قبل أليس كذلك؟ إنه من أهم مصممي الأزياء، وبعد أن تمكن من فرض اسمه في السوق المحلية، بدأ بالانطلاق نحو الأسواق العالمية أيضاً ليجعل من شركة أزاي أهم علامة للموضة والأناقة.

نظر إليّ للحظة عابرة، ثم التفت إلى كاتيا مرة أخرى وتابع حديثه، ولم أعرف بالضبط سبب ذلك الوميض الذي ظهر في عينيه الذابلتين، أهو المرض أم الشغف.

- ولكني أنصحك أن تكوني حذرة جداً، فصديقي زير نساء من الطراز الرفيع، ويستطيع إغواءك في غضون ثوانٍ من دون أن تلاحظي ذلك.

رمقتني كاتيا بنظرة متفحصة جعلتني أشعر بخجل شديد وكأنني أقف عارياً أمامها، لذا حاولت الانتقال من الدفاع إلى الهجوم علّي أبعد انتباهها عني.

- يبدو أنك لن تتغير وستبقى مصراً على مناكفتي حتى وأنت على فراش الموت.

- لا فائدة من الإنكار، لن تستطيع إخفاء حقيقة أنك زير نساء مشهور.

- كف عن ترديد هذه التهمة، ستجعل المسكينة تصدّق الأمر.

كانت المسكينة التي قصدتها لا تزال تحدق إليّ بالنظرة الفاحصة نفسها، لذا حاولت الدفاع عن نفسي قدر المستطاع.

- لا تصدّقي ما يقوله هذا المجنون، فأنا رجل متزوج ولدي عائلة.

ما إن أنهيت كلامي حتى شعرت بالندم على الفور، لما أصر على تبرئة نفسي أمامها إلى هذه الدرجة، لكنني محظوظ لأنها لم تلحظ ما يجول في خاطري، وحاولت أن تؤكد لي عدم اقتناعها بما يقوله كنعان.

- لا عليك سيد سليم، فأنا أعلم بأنه يمزح، وقد بت معتادة عليه.

- حسناً، لا تغضب فقد كنت أمزح.

ثم تابع بنشاط محاولاً أن ينفض آثار المرض عن نفسه.

- ما رأيكما أن نتناول الغداء سوية، هذه الفيتامينات التي أتناولها تجعلني أحس بجوع متواصل.

على الرغم من أنني لم أكن جائعاً، فقد راقت لي الفكرة، ذلك لأنني كنت متلهفاً لمعرفة آخر تطورات المعرض، ولكنني للأسف لم أكن قادراً على قبول عرضه، فلدي اجتماع مع شركائي الفرنسيين بعد نصف ساعة ولا أستطيع التخلف عنه.

- لدي اجتماع هام بعد قليل، ولن أتمكن من الذهاب معكم، ولكنني أستطيع مرافقتكم حتى نصل إلى المطعم.

- حسناً، فالمكان قريب جداً، سنذهب إلى مطعم كاكتوس.

قاطعته على الفور.

- المطعم الذي يرتاده مدّعو الفن والثقافة؟
- أظن بأننا لا نختلف عنهم كثيراً، كما أن المطعم يقدّم أطباقاً شهية جداً.

أحسست بأن الفرصة سانحة لكي أنال منه، لذا قلت:

- كنت أعتقد أنك لا تحبهم.
- لا زلت على موقفي.

رد بكل ثقة:

- ولكنني بت أدرك بأنه لا يمكن الاستغناء عنهم.

سار بينما حاولت وكاتيا اللحاق به، وتتبّع خطاه.

- أين نهاد؟

سألته.

- لقد ذهب لإحضار بعض معدات التصوير التي كنت قد طلبتها منه.

بعد صمت دام للحظات قليلة أكمل مجدداً:

- لم تخبرني ما الذي حدث معك في مشروعك الجديد، أما زلت بحاجة لسيولة مالية؟

هكذا هو صديقي كنعان على الدوام، فعلى الرغم من مزاحه السمج أحياناً، وعلى الرغم من كل جنونه، إلا أنه يعرف كيف يحافظ على محبته الراسخة في قلوبنا من خلال التفاتة بسيطة وصادقة تأتي في وقتها تماماً.

- لقد تمت تسوية الأمر، وبدأنا ببناء المعمل الجديد، وإذا حالفنا الحظ فقد نتمكن من طرح تصاميمنا الجديدة في الأسواق بعد عام من الآن.
- لقد سرّني سماع ذلك، ففي آخر مرة التقينا فيها كنت قلقاً.
- أجل فأنت تعلم أن هذه المشاريع يتخللها الكثير من العقبات...
- حسناً. المهم أن الأمور سارت وفق ما تريد.

كدنا نصل إلى مطعم كاكتوس الذي يقع في بداية شارع الإمام عدنان، ولكن قبل أن نفترق كان لا بدّ لي من إشباع فضولي.

- لم تخبرني ما آخر تطورات مشروعك الفني الجديد، في الحقيقة نهاد يبلغني بالمجريات بين الحين والآخر ولكنني مؤخراً...

أحسست بأن كنعان بدا مستاء من سؤالي.

- الأمور كانت جيدة وبدأنا باتخاذ خطوات فعلية، اعتقد بأن نهاد قد أخبرك بأننا حوّلنا سطح المبنى الذي يقع فيه مكتبي إلى استديو صغير

لبدء عمليات التصوير، ولكن لسوء الحظ فالعاصفة التي حدثت قبل عدة أيام تسببت في وقوع أحد المداخن الموجودة على السطح، والتي هشّمت السطح، وتسربت المياه إلى داخل الاستديو، ولكننا لم نتضرر كثيراً. إذ إن آلات التصوير لم تكن في الاستديو حينها. وسنبدأ بالعمل ما أن يتم إصلاح السطح، ولكنني مع ذلك أخشى من تكرار الأمر مرة أخرى، لذا كنت أتناقش وكاتيا في الأمر، ونحاول إيجاد مكان أكثر أماناً لبدء عمليات التصوير.

وهنا تذكرت البناء الذي أملكه في شارع أيهان إشك، حيث تم إخلاء الشقة الموجودة في الطابق الأرضي منه.

فقلت له على الفور.

- أتتذكر المنزل الذي أملكه في الشارع الخلفي؟
- نعم.

قالها بنبرة توحي انه استشف قصدي من السؤال، ولكنه يرغب بالمزيد ليتأكد.

- الشقة الموجودة في الطابق الأرضي خالية منذ أربعة أشهر، فقد سلّمني إياها المستأجر، ولا تزال على حالها، لكن الضوء لا يدخل...

لكنه بالطبع لم يمهلني الوقت لإتمام جملتي.

- حسناً إنها مناسبة جداً لنا، وسأدفع لك الإيجار الذي تطلبه..
- عن أي إيجار تتحدث، إذا كانت ستفي بالغرض خذها على الفور.

نظر إليّ بعينين دامعتين من شدة المرض، وقد أضفت عليهما الفرحة لدى سماعه الخبر بريقاً خاصاً، ثم التفت إلى كاتيا وهو يقول:

- ألم أقل لك إن سليم على الرغم من مظهره الذي يوحي بالحزم، إلا أنه خلف جدران الرزانة هذه يخفي أرق المشاعر.

يتكلم معها بأريحية مطلقة، أيعقل أنهما متحابان؟ بهذه السرعة؟ لكن من غير الممكن عدم ملاحظة الوله الذي يبدو على كاتيا كلما نظرت إليه أو بادلته الكلام، إنه واضح وضوح الشمس. كما أن صديقي لن يتعفف أمام امرأة بهذا الجمال، ومع ذلك أعتقد أن الوقت مبكر جداً لحدوث شيء ما بينهما. لكنني أعرف كم هو لجوج ومتسرع في اتخاذ القرارات، وقد تأكدت من هذه الفكرة حين التفت إليّ وهو يقول بإلحاح:

- متى يمكننا أن نرى الشقة؟
- متى شئت، ما إن أعود إلى المكتب سأرسل لك المفتاح على

الفور.

- لو لم أكن مريضاً لقمت بمعانقتك وتقبيلك، ولكنني أخاف عليك من العدوى، على كل حال شكراً جزيلاً، ولن أنسى موقفك هذا.

- لا داعي للشكر، فنحن أصدقاء وعلينا مساعدة بعضنا.

راقبتنا كاتيا التي ظلت صامتة كل هذه المدة، ورمقتني بنظرة امتنان وابتسامة جميلة، وقد بادرتني هي أيضاً بالشكر.

- شكرا جزيلاً سيد سليم، فقد أنقذتنا من مشكلة كبيرة، لأنني كنت قلقة جداً من العمل مجدداً في المكان نفسه، والسقف يهددنا بالسقوط في أي لحظة.

- يسرني تقديم العون لكما.

وهنا التفتّ نحو كنعان أرمقه بنظرة عتب ولوم.

- على الرغم من أن صديقيّ حاولا منذ البداية إبقائي بعيداً عن المشروع ولكن...

- ماذا؟ من الذي يبعدك عن المشروع؟

- أنتما بالطبع، أنت ونهاد، وقد رفعت جرعة اللوم أكثر.

كان مندهشاً حقاً من تغيير موقفي إلى هذه الدرجة لذا حاول الدفاع عن نفسه.

- ألم تقل لنا منذ البداية بأن هذه الفكرة ستجرّ علينا المصائب لذا لن أشارككما في الأمر؟

- أجل قلت لكما إنها ستجر علينا المصائب، ولكنني لم أقل لكما حينها أنني لن أشارك.

- حسناً، ولكنك لم تستسغ الفكرة حينها، فلا تنكر.

لكنني لم أحتمل نظرات الشعور بالذنب التي بدأت واضحة عليه، لذا قلت مخففاً:

- معك حق، فقد كنت أحاول ثنيكما عن تنفيذ هذه الفكرة الجنونية، ولكن بما أنكما بدأتما بخوض غمار هذه المجازفة، فلن أقف مكتوف اليدين، وسأشارك قدر استطاعتي.

- أعلم بأنك ستبذل قصارى جهدك، وأرجوك أبعد هذه الأفكار عن رأسك، فلا أحد منا يتقصّد إبعادك مطلقاً.

أجبته ضاحكاً:

- أعلم أعلم.

كانت كاتيا تتابع حوارنا والابتسامة التي تعلو وجهها تزيدها حُسناً،

وقد توجهت إليها بكلامي هذه المرة.

- لا تأخذي حديثي على محمل الجد، فقد أحببت أن أناكفه قليلاً، كما يفعل بنا هو على الدوام.

أخذت ابتسامتها تزداد اتساعاً وجمالاً، وقالت مؤيدة كلامي:

- بالطبع، من حقك أن ترد عليه بالأسلوب نفسه.

في تلك الأثناء لاحظت تفصيلاً صغيراً زاد من إعجابي بها أكثر، فحين تضحك كاتيا، تتمازج درجات الزرقة والخضرة في عينيها على نحو أخاذ، يا إلهي، يا لجمال هذه المرأة. لكنني وقبل أن يكتشف صديقي ما يجول في خاطري حاولت تغيير الحديث على الفور.

- لم تخبرني، هل استطعت الحصول على الصور؟

- أجل، إنها ست وستون صورة لجرائم قتل.

كان يتحدث بحماسة وكأنه حصل على صور ملكات الجمال، وليس صوراً تمثّل جرائم فظيعة. وقد ارتسم الاشمئزاز على وجهي وأنا أدمدم.

- إنه أمر فظيع.

- فظيع؟ على العكس، إنه أمر رائع، كاتيا ما رأيك أنت؟

اختفت ابتسامتها على الفور.

- بالطبع إنها صور مخيفة، ولكن ما إن تمعن النظر فيها ستجد أن الكآبة هي الملمح الخافي وراء فظاعتها، تلك النهاية الحزينة، الذكريات، والتفاصيل الحميمة التي تراها في الصورة أغلب الأحيان، والتي تشير إلى أن الضحية تركت كل ذلك وراءها إلى غير رجعة... لكن ما يثير دهشتي حقاً في هذه الصور هو الاختلاف الهائل بينها، فكل موقع للجريمة يختلف عن الآخر اختلافاً بيّناً، على الرغم من أنك في البداية لن تلاحظ هذه الفروقات، ولكن ما إن تغوص في عمق الصورة حتى تلاحظ غناها بتفاصيل لن تخطر لك على بال، وبالطبع فهذه التفاصيل تتطلب دقة أكبر في العمل.

كانت تشرح الأمر وكأنها تحدّث نفسها، وتفكّر بصوت عالٍ.

- وكيف ستكون ردة فعل الناس عندما يرون الصور؟

- لا أعرف.

لم ترق لكنعان هذه الإجابة، لذا تدخّل قائلاً:

- بالطبع ستعجبهم الفكرة، بل إنها ستدهشهم، وتستحوذ على اهتمام الجميع، فنحن ننفّذ فكرة لم تخطر على بالٍ أحد من قبل.

وهنا التفت إليّ في محاولة لسبر غوري، واستشفاف الدافع من وراء

سؤالي.

- أتعرف بأنك لا تزال غير مقتنع بالفكرة.
- لا، فأنا أحاول الاقتناع.
- صدّقني لا داعي لكل هذا القلق، وإن ألقيت نظرة على الصور ستكتشف حينها بأن الموضوع لا يثير الرعب كما تظن.
- حسناً أود رؤيتها.

استغربت كاتيا من موافقتي على العرض الذي قدّمه كنعان، وسألتني.

- حقاً تود رؤية هذه الصور والإطلاع عليها؟
- بالطبع، فعلى كل حال سأضطر لرؤيتها بعد أن تقوموا باستنساخها من جديد أليس كذلك؟ وبهذه الطريقة سأتمكن من إدراك الفرق بين الأصل والصورة الجديدة.
- جيد، الصور موجودة في مكتبي وتستطيع مشاهدتها حينما تشاء.
- ما إن تستقر الأمور في المعمل الجديد سآتي لزيارتك بالتأكيد.

## (6)

أعلم أن المساعدة التي قدّمتها لكنعان من خلال إعطائه الشقة التي أملكها في شارع أيهان إشك لم تكن متوقعة، ولكن لا داعي للاستغراب، فأنا أيضاً كنت راغباً بالاشتراك في هذا المشروع، كما أن الفضول كان يتملكني بشدة للوقوف على آخر التطورات. وعندما التقيت بهما صدفة أمام الصيدلية تأكدت من هذا الشعور بشكل قاطع واستسلمت للأمر. أعتقد أن هذه الصيرورة كانت تتكرر على الدوام في علاقتنا نحن الثلاثة، ففي كل مرة يختار فيها كنعان خوض إحدى مغامراته الجنونية، يوافق نهاد على الفور ويغوص بكليته في غمار الأمر، فيما أحاول التشدّق بمبررات منطقية لردعهما عن تنفيذ الفكرة، وأحاول الابتعاد عندما أدرك أن آذانهم لم تعد صاغية لصوت العقل والمنطق، لكنني مع مرور الوقت أشعر بالغبن لاستبعادي، وبالفضول لمعرفة ما يجري، وما إن تسنح لي بارقة أمل للاشتراك في الأمر أندفع فوراً وأنضم إليهما.

لقد نالت الشقة إعجابهما، فهي بحسب كاتيا مكان مناسب لتحويله إلى استديو للتصوير، فالسقف العالي، والغرف الواسعة، وموقعها الذي لا يسمح بدخول الكثير من الضوء، كانت مواصفات مثالية. وفي اليوم نفسه الذي ذهب فيه لرؤية الشقة، قاما باستدعاء ورشة كاملة من أجل تحويل المكان إلى ما يشبه مسرح الجرائم. أما أنا فكان عليّ الانتظار لثلاثة أيام أخرى حتى موعد مغادرة شركائي الفرنسيين، لأتمكن من مشاهدة صور الضحايا الموجودة في مكتب صديقي.

بعد ثلاثة أيام ذهبت إلى مكتب كنعان، لكنه هو من كان مشغولاً هذه المرة، فقد كان في اجتماع خاص مع مسؤولين من المركز الرئيس لشركة التأمين، لذا أخبرته بأنني سأعود لاحقاً، إلا أنه لم يسمح لي بالذهاب.

- أرجوك لا تذهب، فلم تسنح لنا الفرصة للجلوس والتحدث سوية منذ مدة طويلة، انتظرني في مكتبي، وسأحاول إنهاء الاجتماع والتخلص منهم بأقصى سرعة لكي أوافيك.

في الحقيقة، كان زخم العمل والاجتماعات المتواصلة منذ مدة قد أصابني بإرهاق شديد، وكنت متشوقاً لرؤية هذه الصور، لذا وافقت على البقاء. دخلت مكتبه الخاص، وقد كانت الجدران مغطاة بمختلف الصور التي التقطها على مدى هذه السنوات. جاءت السكرتيرة لترى ما أود شربه،

لكنني طمأنتها قائلاً:

- لا بأس، سأتدبر الأمر بنفسي.

وما أن خرجت السكرتيرة حتى توجهت نحو الخزانة الصغيرة التي تقع على يمين طاولة كنعان، كانت زجاجات المشروب تملأ صفاً بأكمله، واخترت زجاجة استهلك صديقي أكثر من نصفها، وأخذت كأساً ملأته حتى أقل من نصفه تقريباً، وفي الرف السفلي حيث علب الشوكولا السويسرية الفاخرة المرصوفة على مختلف أنواعها، اخترت بعض القطع من إحدى العلب أيضاً، وتمددت بكل أريحية على مقعد وثير لأستمتع بهذه الوليمة الفاخرة. احتسيت رشفتين من كأسي متلذذاً بالمذاق الذي يرافق كل رشفة جديدة من هذا المشروب القوي، وفجأة سمعت صوت طرقات على الباب، إنها كاتيا. لا أدري ما الذي جعلني أحس أنها أمسكت بي متلبساً، لذا حاولت إخفاء آثار جريمتي قدر الإمكان. لو كان كنعان هو الداخل ما كنت شعرت بالإحراج مطلقاً من فتح قنينة شرابه من دون إذن منه، ولكن هذه المرأة التي تقحمها الصدف كل مرة في طريقي تجعلني أحس دوماً بارتباك قلما أعانيه مع الآخرين، ما السر وراء ذلك، أحاول عدم معرفته وإبقائه سراً، فالجهل أحياناً يكون نعمة. لكنها بالطبع لم تعلم بما أشعر، أو لعلها تظاهرت بذلك، حيث اقتربت مني، وتلك الابتسامة الرائعة تعلو وجهها الجميل.

- مرحباً سيد سليم، كيف الحال؟

غمرتني رائحة عطرها الشذي.

- شكراً.

كان عليّ أن أسلّم عليها بالتأكيد، لذا نقلت كأس الشراب من يدي اليمين إلى اليسار، إلا أنني لفرط ارتباكي تصرفت تماماً كمراهق أخرق، واندلق الكأس على ثيابي. وعلى الرغم من ذلك لم أكن أنوي أن أضيّع هذه الفرصة في لمس يدها، لذا مددت يدي مصافحاً، كانت بشرة يدها بنعومة الحرير، وقد أحسست ببرودتها المنعشة، ومع ذلك فقد أحسست بلسعة حرقت لي يدي أم قلبي، لم أميّز بالضبط، فسحبت يدي على الفور.

- كيف حالك؟

- كانت هذه العبارة أول ما خطر لي قوله للخروج من هذا المأزق.

- شكراً، أنا بخير، وقد أوشكنا على الانتهاء من تجهيز الاستديو ونقلنا معظم المعدات إلى شقتك.

كنا نتحدث ونحن واقفين.

- لما لا تجلسين؟

وافقت على العرض فوراً، وجلست على المقعد المقابل لي من دون أن تخلع معطفها الجلدي الأسود. بدوري وضعت الكأس الفارغة على الطاولة وجلست.

- ألا يوجد بواب أو حارس ما؟
- عفواً؟
- لم أفهم ما الذي تعنيه بسؤالها.
- أقصد البناء الذي توجد فيه الشقة، أليس هناك من أحد لخدمة المبنى؟
- كان لدينا بواب يدعى العم شكري، ولكنه توفي العام الماضي، والآن يقوم بواب البناء المجاور بتنظيف الدرج مرة كل شهر، فالبناء يبقى نظيفاً بسبب قلة ساكنيه، فالشقتان فوقكما مباشرة أقوم باستعمالهما كمخزن من أجل الأقمشة والمعدات التي تفيض عن حاجتنا في بعض الأحيان. ولا داعي للقلق، فأبواب الشقق كلها باستثناء الباب الأساسي للبناء محكمة ولا يستطيع اللصوص فتحها بسهولة إن كان هذا ما تقصدينه.
- حتى لو حاول أحدهم الدخول، سيفاجئه المنظر الذي قد يراه في الداخل.

زال عني ذلك الارتباك الذي أصابني للوهلة الأولى، ولكنني مع ذلك بقيت أشعر بنوع من التوتر، ربما هذا ما دفعني إلى كسر لحظات الصمت التي سادت بيننا.

- أنا متشوق لرؤية الصور الحقيقية للجرائم، هل أستطيع رؤيتها إن كانت موجودة هنا؟
- بالطبع تستطيع.

ونهضت على الفور لتحضر الصور.

وما إن خرجت من المكتب حتى أخذت نفساً عميقاً، هناك شيء ما في هذه المرأة يفقدني توازني، ولكن عليّ الإمساك بزمام الأمور، وعدم السماح لمشاعري بأن تخرج عن نطاق السيطرة، كانت هذه الأفكار التي تجول في رأسي أثناء غيابها القصير، ولكنها لم تمهلني الكثير من الوقت لتثبيت هذه القرارات، فقد عادت ومعها ظرف أسود اللون. لذا حاولت العودة إلى رصانتي المعهودة، وقلت لها بجدية:

- أعتقد أن ما من ملف يلائم هذه الصور سوى هذا الملف

الأسود، أليس كذلك؟

اكتفت بابتسامة مجاملة.

- ما رأيك أن تجلس بالقرب من الطاولة لتتمكن من الإطلاع على الصور.

- حسناً.

أطعتها وقمت بتغيير موقعي، إلا أنها ظلت قريبة مني، وضعت الظرف الأسود على الطاولة واقتربت مني أكثر.

- لقد قمنا بتكبير الصور، فالنسخ الأصلية كانت أصغر من هذه بمرتين تقريباً.

استندت إلى الطاولة، وبدأت بفتح الظرف على مسافة قريبة جداً، لقد كانت قريبة بحيث إن كتفينا كانا يحتكان مع كل حركة منها، وكانت رائحة عطرها الممزوج برائحة عرقها الخفيف تكتسح أنفي وأغلب حواسي. بالطبع كان بإمكاني الابتعاد قليلاً، لكني لم أفعل حتى لا تسيء فهمي، واخترت البقاء كما أنا، من دون الإتيان بأي حركة، مستسلماً وسعيداً.

- لقد وصلتنا مئة وثلاث عشرة صورة، ولكننا قمنا باستبعاد الكثير منها، فالوحشية التي ارتكبت بها الجريمة والدماء المتناثرة في كل مكان، كانت أكثر من صادمة. كما أن بعض الضحايا كانوا مجرد أطفال صغار، وبعضهم الآخر كان عبارة عن جثث متفحمة. لقد كان مجرد النظر إليها تجربة مرعبة. لذا قمنا باختيار ست وستين صورة ملائمة لمشروعنا، وتركنا البقية.

وفيما كانت تحدّثني بكل طبيعية، كنت أحس أن كرة الجمر التي تشتعل من احتكاك كتفها بكتفي، تكبر أكثر وتحرقني معها، ولكن ما إن امتدت أناملها لفتح الظرف، وأخرجت أول صورة حتى زال عني كل ذلك التوتر، وتملكتني الصور التي بدأت تظهر تباعاً بفظاعتها، وغطى منظر الدماء والأشلاء على رائحتها الجميلة، ولم أعد أميّز إن كان كتفها لا يزال ملتصقاً بكتفي أم أنه ابتعد.

أول صورة تم التقاطها في مشرب صغير، كان الرجل جالساً إلى طاولة وقد استند إلى الحائط القريب منه، ولكن نظرة الدهشة ظلت معلّقة في عينيه على الرغم من رحيله. كانت بقعة قاتمة اللون تغطي عنقه وجزءا كبيراً من قميصه، وعلى الرغم من ذلك لم ألاحظ كأساً أو طبقاً مهشّماً على طاولة الموت الغريبة هذه. كانت زجاجة مشروب التي استهلك الكثير منها تتوسط المقبّلات الموجودة على المائدة، بطريقة تشعرك أن الجثة قد

وُضعت في المكان الخاطئ.

الصورة الثانية التقطت في أحد الشوارع، حيث كانت امرأة ملقاة على وجهها، ومغطاة بشرشف قد تكوّم كالمظلة فوق رأس المسكينة. لم يكن أي من وجهها أو شعرها ظاهراً في الصورة، ولكن تلك البقعة الرهيبة النابعة من جرح غير واضح في كتفها الأيسر، كانت قد لوّنت ثوبها الأزرق. كانت فردة حذائها اليسرى ملقاة بالقرب من رأسها، فيما كانت الفردة اليمنى في رجلها، ولم يكن هناك أي إشارة في الصورة توضح نوع السلاح الذي قتلت بواسطته.

الصورة الثالثة كانت لاثنين من المخنثين في المقعد الخلفي لسيارة ما، كان رأس أحدهما متكئاً على كتف الآخر، حيث انزاحت الباروكة التي كانت تغطي رأسه لتكشف عن صلعة لامعة تحتها. كانت الرصاصة قد اخترقت جبهته من جهة اليمين، وتركت فمه مفتوحاً، لكن يبدو أنه لم ينزف كثيراً، فوجهه الذي كانت تغطيه مساحيق التجميل بكثافة بقي على حاله دون آثار للدماء، سوى خيط نحيل قد غطى جزء من باروكته الطويلة، وانحدر نحو صدره.

صورة أخرى كانت لشابة في غرفة الجلوس، وسكين ضخمة قد اخترقت صدرها عند القلب تماماً، كانت جالسة على أريكة مهترئة، ونظرات الدهشة والاستغراب لا تزال معلقة بعينيها المفتوحتين على اتساعهما، فيما التلفاز لا يزال يبث ما كانت تشاهده قبل أن يباغتها الموت المفاجئ، كما تبدو بوضوح على أحد الجدران لوحة معلّقة، تصوّر أفعى ضخمة.

ومع مواصلة تقليب الصور، بدأت ألاحظ مدى الوحشية التي من الممكن أن يصل إليها المجرم أثناء ارتكاب جريمته، وكما قالت كاتيا لم يكن الخوف أو الاستغراب هو ما يسيطر عليك عند مشاهدة الصور، بل شعور بالضيق والحزن لا أكثر. ومع ذلك لم أستطع منع نفسي من مشاهدة الصور كلها حتى النهاية. لم يخطر لي من قبل أن مسرح الجريمة يمكن أن يشمل كل مكان تقريباً دون استثناء، بيوت النساء الرخيصات والمدارس والمنازل الفخمة والأكواخ البائسة، القصور، سطوح المنازل، محلات الحلاقة والتجميل، الحمامات العامة، معارض السيارات، المقاهي والمطاعم ودور السينما، عيادات الأطباء، أنفاق المترو، الحدائق العامة، حتى إن إحدى الجرائم وقعت أمام باب الجامع. واللافت للنظر أكثر هو تنوع أدوات ارتكاب الجريمة بقدر تنوّع الأمكنة، فمن المسدسات إلى بندقية الصيد، والسكاكين على مختلف أنواعها، والمقصات، وقطع الزجاج المهشّم، والمسامير،

والهراوات، والحبال والأسلاك الحديدية، وبالطبع الخنق باليد، فمن الواضح أن كل شيء من الممكن أن يتحول إلى أداة قتل بكل سهولة. وكثير من هذه الجرائم سيبقى لغزاً غامضاً لن تنكشف دوافعه الحقيقية، ومع استغراقي في مشاهدة تفاصيل كل صورة كان الفضول يتملكني أكثر فأكثر لمعرفة أسباب كل جريمة. ولكني لا أستطيع أن أحدد على وجه الدقة ما الدافع وراء هذا الفضول، أهو غرائبية الحدث الذي تخلّده الصورة، أم هذه الخصوصية التي تخوّلك مشاهدة الضحية في أكثر لحظاتها ضعفاً، أو ربما القدرة على سبر خبايا هذه الجرائم من دون أن يكون هناك خوف أو خطر، ربما كان فضولي نابعاً من كل هذه الدوافع وربما لم يكن أياً منها، حقاً لا أعلم... لكن الأهم هو هذا التحذير الذي تحمله الصورة، فلا فرق إن كنت رجلاً أم امرأة، كهلاً أم شاباً، طفلاً أم عجوزاً، فمن الممكن أن تقعوا ضحايا لجرائم مماثلة في أي لحظة وفي كل مكان من دون استثناء، وأن تُخلّد مأساتكم بورقة مربعة الشكل كهذه الصورة. إن لم نكن حذرين بالقدر الكافي، فالقتل هو أولى الاحتمالات التي من الممكن أن نصبح ضحاياه. فمنطقة بيه أوغلو التي تعد من أكبر وأغنى المناطق ثراء من الناحية التاريخية والفنية، والقيمة الجمالية، والتي تجسد بأبنيتها التاريخية، ونمطها العمراني أحد المتاحف الطبيعية في العالم، قد تكون في الوقت ذاته غابة يسكن أبنيتها الجميلة أكثر الوحوش فتكاً وشراسة. والقانون الوحيد الذي يمكنك من البقاء حياً في الغابة هو القوة والحذر الدائم، وإلا فقد تتحول بكل بساطة إلى ضحية لكائن أقوى منك.

بينما كانت كاتيا تغلق الملف من جديد، وتبعد عن ناظري هذه الفظائع البشرية كنت أدمدم بذهول.

- الإنسان مخلوق بالغ القسوة والوحشية أليس كذلك؟
- للأسف معك حق.

رافقت تأكيدها بتنهيدة عميقة وحزينة وأكملت.

- ولكن في روسيا أيضاً كانت تحدث جرائم بهذه الفظاعة بل وأشد أحياناً، وأنا متأكدة من أنها تحصل في كل مكان في هذا العالم.
- للأسف...
- هذه هي حقيقة العالم...
- أجل، هذه هي الحقيقة.
- أتعتقد أنه من الصواب أن نعيد تجسيد هذه الجرائم وعرضها أمام أنظار الجميع في معرض فني؟

- لا أعرف، في البداية رفضت الفكرة وحاولت منعها، ولكنني مؤخراً بدأت أغيّر رأيي.
- لماذا غيّرت رأيك؟
- بدأت ألاحظ كم هي غريبة الفكرة.
- أيضاً؟
- هذا كل ما في الأمر، تبدو لي الفكرة غريبة وجديدة.

ابتسمت فجأة.

- لما تبتسمين؟
- لقد قلت العبارة نفسها في المرة السابقة التي التقينا فيها.

كنت أنتظر منها توضيحاً ما، لكنها بدأت تستلذ باللعبة، وتركتني أقلّب أفكاري حائراً، وأخذت الظرف لتعيده إلى مكانه.

- ما الرد الذي كنت تتوقعينه مني؟

سألتها في محاولة مني لكشف نواياها

- الحقيقة لا غير.

أحقاً تحاول التلاعب بي، أم أنني أتوهّم ذلك. في الحقيقة لم ألحظ ما يدل على عدم جديتها، فملامح وجهها كانت رصينة جداً وهي تحدّثني واختفت ابتسامتها السابقة، ولكن وميضاً ما في عينيها الجميلتين كان يزيدني حيرة كلما نظرت إليهما.

- أتمنى ألا تزعجك صراحتي، ولكني أعتقد أنك تخفي أفكارك الحقيقية وراء الجملة ذاتها في كل مرة.
- أي جملة تعنين؟
- أعني جملة فكرة غريبة، لقد اقتبست هذا المبرر منك، وبدأت أعتمد عليه لأبرّر موافقتي على الاشتراك في هذا المشروع.
- أحقاً، لم ألحظ الأمر، ولكن يبدو أن لديك ذاكرة قوية بالفعل.

لم تحاول إنكار المديح، بل أردفت بكل ثقة.

- إنها إحدى ميزات مهنتي، عليّ ألا أهمل أي كلمة أو أي تغيير، وأن أحاول الاحتفاظ به في ذاكرتي مهما كان صغيراً.

أحسست بتجدد رغبتي في شرب كأس آخر من الشراب، أخذت كأسي الفارغة واتجهت نحو الخزانة مرة أخرى.

- أريد احتساء كأس آخر، أتودين مشاركتي؟
- شكراً، لا أحب هذا النوع.

وبعد أن ملأت كأسي وعدت، بادرتني بالسؤال مرة أخرى:

- لكنك لم تعترف حتى الآن بحقيقة رأيك تجاه فكرة المعرض والصور التي شاهدتها.

حاولت التمهل هذه المرة في الإجابة، لذا ارتشفت كأسي ببطء واضح، وحاولت التملص من الرد المباشر.

- أنت عنيدة جداً.

جلست على المقعد الذي كنت أجلس عليه من قبل وأجابت بهدوء.

- أجل، ذلك لأنني أخاف كثيراً من ارتكاب الأخطاء.

أدركت حينها بأنها تبادلني الرأي ذاته حول هذا المشروع، أم أنها كانت تحاول الإيقاع بي؟

- يبدو أنك لست مقتنعة بفكرة المشروع!

- نعم، فهناك الكثير من علامات الاستفهام والكثير من القلق الذي يراودني كلما حاولت التعمق في الفكرة أكثر، ولا أستطيع التخلص منها.

- أظن بأنك لست مضطرة إلى الاقتناع بكل عمل يعرض عليك.

- في الحقيقة لست معتادة على قبول أي عمل ما لم أكن مقتنعة بالفكرة، فالفن يحتاج إلى قناعة كاملة ليُجسّد بشكل صحيح، ولكنني في الوقت الحالي بحاجة إلى النقود، لذا فقد...

- إذا أعتقد أنك لست مضطرة للاستمرار.

- لا أستطيع أن أترك كنعان بهذه البساطة.

إذاً فقد كان ظني في محله، فالحسناء قد أغرمت بصديقي ولم يمض على تعارفهما أكثر من شهر، وهي الآن مستعدة أن تعاكس كل قناعاتها، من أجل البقاء بالقرب منه والعمل معه.

- هل لي أن أعرف السبب إن لم يكن لديك مانع.

- بالطبع، لا مانع على الإطلاق.

أجابت بكل عفوية من دون أن يطرأ أي تغيير على وجهها أو صوتها وأردفت.

- كنعان متمسك جداً بهذه الفكرة، ولا بد أنك لاحظت الحماس الذي يعتريه وهو يتحدث عن الصور والشغف الذي يتابع به أبسط تفاصيل العمل. لكني أخشى أحياناً أن يصاب بخيبة أمل، وربما يحدث الأسوأ من ذلك.

ما الذي كانت تعنيه من كل هذا الكلام؟

- أتعنين بالأسوأ فشل المعرض، وعدم حصوله على الاهتمام والنجاح؟

- لا ليس هذا ما يخيفني، على الرغم من أن نجاح المعرض أمر

مهمّ، ولكن هناك الأهم، أنا أخاف من أن يغيّر هذا المشروع حياة كنعان بأسرها... بل أخاف...

- تخافين أن يتعرض لمشكلة ما بسبب هذه الصور أليس كذلك؟

- أجل، ولكن أخشى أن المشاكل لن تأتيه من أقرباء الضحايا أو سواهم، ما أخشاه هو أن المشكلة ستنبع من داخل كنعان، وستنبع الخطورة منه هو بالذات.

الفنانون أناس معقدون وغريبو الأطوار حقاً، وقد يحتاج المرء في حالات كهذه إلى الاستعانة بطبيب نفسي لفهم ما يرمون إليه من وراء كلماتهم، فعلى الرغم من كل هذا الحديث الدائر بيننا، لم أتمكّن من معرفة السبب اللعين الكامن وراء خوفها، لذا اختصرت الأمر على نفسي وسألتها بشكل مباشر:

- أتعنين بأن كنعان لو استمر في هذا المشروع فإن حياته ستصبح معرّضة للخطر؟

- أجل، هذا احتمال وارد.

- احتمال وارد؟ أعتذر إن لم أفهم ما تقصدينه، هلا توضّحين الأمر أكثر؟

- الفنانون في معظم الأحيان لا يميّزون الخط الرفيع بين الفن والحياة الحقيقية، وفي كثير من الأحيان عندما يتملكهم الشغف حول موضوع معيّن، يتوحّدون معه، وفي الوقت الذي يحاولون فيه إعادة تشكيل الفكرة وخلقها من جديد، تقوم الفكرة أيضاً بإعادة تشكيل شخصياتهم، وتؤثّر على تكوينهم النفسي بصورة كبيرة، ويكمن الخطر الحقيقي في أنهم لا يشعرون بالأمر. يستمرون في أداء فكرتهم، وفي معظم الأحيان تلقى أعمالهم النجاح المتوقع، ولكن العطب النفسي الذي أصابهم لا يمكن لأي نجاح أن يتداركه، ولأنهم لا يدركون السبب الخفي الكامن وراء هذا الخراب الذي ينهش أرواحهم، يصبح من الصعب إصلاحه أو إيقافه في الوقت المناسب، وهنا تحدث الفاجعة التي لا بد منها، ولعل ما حصل مع الفنانة ديانا أربوس مثال واضح على صحة ما أقوله.

- ديانا أربوس؟

- لقد كانت ديانا من أهم المصورين الضوئيين في أميركا، وبينما كان بقية زملائها يفضّلون التوجه نحو المواضيع البسيطة والهادئة، كانت تصوّر المشوّهين والمشرّدين والمرضى النفسيين، الذين يعانون من البهاق والبرص، العجائز الذين يجترّون وحدتهم في دور العجزة، الأقزام وضحايا

الحروب وبخاصة حرب فييتنام التي كان كثير من ضحاياها أطفالاً أطاحت الألغام بأجزاء من أجسادهم الصغيرة البائسة، والغريب في الآمر أن ديانا استطاعت أن تصوّر كل هؤلاء الأشخاص بصورة لا توحي بالشفقة نهائياً، فالمتابع لصورها لن يشعر بأي حزن أو ضيق، كان من الواضح أنها التقطت هذه الصور ببراعة تامة، وقد نجحت في إخفاء مشاعرها الحقيقية، ولم تظهر أياً منها في الصور التي التقطتها. ولكن هذا لا يعني مطلقاً أن كل ذلك البؤس لم يتسرب إلى روحها بصورة خفية، فربما تعمدت عدم إظهار مشاعرها أثناء التصوير حتى لا يلاحظ أحد مدى الأثر الذي تركته عليها تلك المعاناة البشرية. وقد اضطرت لحمل وزر كل تلك الآلام وحدها، وهذا ما دفعها في النهاية للانتحار ووضع حدّ لكل ذلك الألم الفظيع.

- أتعنين أنها انتحرت حقاً؟

- أجل فقد انتحرت في العام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين - تابعت وهي تنظر إليّ محدقة في عيني - هل تدرك سبب خوفي الحقيقي الآن؟

- أتخشين أن يقوم كنعان أيضاً بالانتحار مثل هذه المصوّرة الأمريكية؟

ظلت على سكوتها فيما خيّم حزن وقلق عميق على وجهها الجميل.

- لا أعتقد ذلك.

حاولت إبعاد الفكرة قدر الإمكان عن ذهني.

- كنعان ليس من هذا النوع، ومن المستحيل أن يفكر في الانتحار.

ظلت نظرة الحزن واضحة في عينيها، على الرغم من محاولتها رسم ابتسامة على وجهها.

- لا بد أن أصدقاء ديانا أيضاً كانوا يتكلمون عنها على هذا النحو قبل أن تفاجئهم بانتحارها.

هذا الإصرار على فكرة الموت سبّب لي الضيق.

- لا أعرف شيئاً عن ديانا، ولكنني أعرف صديقي جيداً، وأنا متأكد بأنه آخر شخص على وجه الأرض يمكن أن يفكر بالانتحار.

- ألهذه الدرجة أنت متأكد؟

- أجل، وما أن تتعرفي على كنعان بصورة أكبر، حتى تتأكدي من صدق كلامي.

- أتمنى أن تكون محقاً.

ظهرت بارقة أمل أخيراً في عينيها وهي تكمل.

- قد لا يؤثّر عليه المشروع إلى هذه الدرجة، ولكنني مع ذلك لا أستطيع التخلص من مخاوفي.
- أوافقك في هذه النقطة الأخيرة.

ارتشفت ما تبقى في كأسي دفعة واحدة وأكملت.

- فأنا أيضاً لدي مخاوفي من هذا المشروع، ولكن أسبابي تختلف عن أسبابك بشكل كلي.
- تعتقد أن الموت الذي قد يهدد كنعان، ربما تكون أسبابه خارجية أليس كذلك؟
- إني أقصد الموت بالمعنى الحرفي، ولكن أخاف عليه من أي سوء قد يصيبه جراء هذه الفكرة الطائشة.
- ولكنك غيّرت رأيك مؤخراً.
- لم يكن بيدي حيلة، ولو استطعت لقمت بثنيه عن هذه الفكرة على الفور.
- ولكنه لن يتركها أليس كذلك؟
- بالتأكيد.
- لقد حاولت أكثر من مرة أنا أيضاً، وتحدثت عن المخاطر التي قد تترتب جراء فكرة غريبة كهذه الفكرة، ولكنه لم يقتنع.
- هل ذكرت أمامه قصة الفنانة التي انتحرت؟
- في البداية بالطبع لا، حاولت أن أقنعه بأن غرابة الموضوع قد تطغى على موهبته، وقد تضيع جهوده الفنية خلف دهشة الناس إزاء هذه المشاهد الفظيعة، ومن ثم حدثته عن ديانا وما حصل معها بصورة غير مباشرة، ولكنه للأسف لم يقتنع بكلامي على الإطلاق. وقال لي ألا أقلق لأن المشروع سيحقق النجاح المرجو، وستسير الأمور على خير ما يرام، حاولت الاستعانة بنهاد ولكن لا فائدة، فكلاهما يفكران بالطريقة ذاتها، بل إن نهاد مصر على تنفيذ الفكرة أكثر منه. اعذرني على صراحتي، ولكني على الرغم من معرفتي بمحبتك أنت وكنعان لنهاد، وبأنه شخص طيب القلب، إلا أنه لا يملك أدنى فكرة عن فن التصوير، بل وعن الفن بشكل عام.
- صراحة أنا أيضاً لا أملك أية خبرة في مجال الفن، وبخاصة في مجال التصوير الضوئي، وقد يكون نهاد مطلعاً على الموضوع أكثر مني.
- أعتقد أنك مخطئ، فأنت قد درست هندسة العمارة، ولديك خبرة واسعة في مجال فن البناء، وهذا المجال فن قائم بذاته، ولكن أهم

ما يميّزك هو ذلك الحدس الذي يجعلك متقدماً على الآخرين بخطوات، ومستشعراً الخطر في مكامنه، كما أن لك بالغ الأثر على كنعان.

لم أتمالك نفسي من الضحك إزاء ملاحظتها الأخيرة.

- هذا ما يفترضه الآخرون، ولكن الحقيقة عكس ذلك تماماً، فأنا لا أملك أي تأثير على كنعان، بل هو من يستطيع التأثير علينا في النهاية.

- ولكن.

حاولت الاعتراض.

- صدقيني هذا هو الواقع، وكما ترين ففي النهاية اضطررت إلى مجاراته والانضمام إليه، وذلك لأنني لم أتمكن من إقناعه بالتخلي عن هذه الفكرة. وأعتقد أن محاولاتنا ستبوء بالفشل، فكما تلاحظين هو منغمس بكلّيته في العمل على تجسيد هذه الصور، ومن خلال معرفتي الطويلة به، أستطيع أن أؤكد لكي بأنني لم أره من قبل متمسكاً بفكرة ما إلى هذه الدرجة ومصرّاً على تنفيذها بكل هذا الشغف، ولكنني مع ذلك لن أركن إلى اليأس، وأظن بأنه سيغيّر رأيه مع مرور الوقت، وأنصحك بالاستمرار في محاولة إقناعه بالعدول عن تنفيذ المشروع، فبحسب ما لاحظته عندما شاهدتكما معاً قبل بضعة أيام، يبدو أن كنعان يوليك اهتماماً خاصاً، ويحترم رأيك كثيراً، لذلك لا ضرر من إعادة المحاولة متى سنحت لك الفرصة، وأنا أيضاً سأحاول بدوري، ربما لن نتمكن من إيقافه، ولكنني متأكد من أننا سنحدث بعض التغيير في وجهة نظره في النهاية، ومن يدري ما قد تحمله الأيام من مفاجآت لنا.

- أتظن أن بإمكاننا حقاً إقناعه برأينا؟

- أظن أن لا ضير من المحاولة، وحتى إن فشلنا، فمن المهم أن لا نتركه وحيداً، وأن نظل بجانبه وأن نسدي إليه النصح وقت الحاجة.

- أعتقد أننا لا نملك خياراً آخر.

قالت ذلك باستسلام، ولكن نظرة الخوف في عينيها الجميلتين ذكّرتني بخوف الشواطئ من الموج العاتي الذي سيجلدها وهي ترى البحر الذي بدأ يهتاج بفعل العاصفة القادمة.

## (7)

لم أتمكن من الجلوس مع كنعان كما كنت أنوي، فقد طال الاجتماع كثيراً، ويبدو أنه راكم الكثير من العمل - بسبب انشغاله بالتحضير للمعرض - والذي أصبح بحاجة إلى إنهائه. أخذ استراحتين قصيرتين، وأتى ليجلس معنا لدقائق معدودة، ولكنه كان مضطراً إلى العودة لإكمال اجتماعه، لذا قررت الرحيل من دون أن أسبّب له المزيد من الإرباك، ودّعت كاتيا وخرجت، ولكن ظل حديثها معلّقاً ببالي، وانتقلت إليّ مخاوفها رغماً عني. كنت أنزل الدرج الواسع للبناء الأثري الذي يقع فيه مكتب كنعان متمهلاً، وما إن خرجت وبدأت بالسير في شارع الاستقلال، حتى أخذت أتساءل مع كل خطوة، هل من الممكن أن تتحقق مخاوفها؟ أمن المعقول أن تؤثر الصور التي يلتقطها كنعان عليه وتسبب له خللاً نفسياً قد يدفعه إلى الانتحار؟ لا أظن.

فنحن لا نتحدث عن شخص عادي، إنه كنعان، أكثرنا تفاؤلاً وتمسّكاً بالحياة، تكفي نظرة واحدة إلى عينيه اللتين تفيضان حيوية وسماع صوت ضحكاته المجلجلة، وسماع حديثه ولو لدقائق حتى يتأكد المرء بأن هذا الرجل أبعد ما يكون عن فكرة الموت والانتحار. ولكن من وجهة نظر أخرى، لو قيل قبل خمس سنوات مثلاً، بأن كنعان سيترك حياة الصخب التي يحياها ويتخلى عن رحلاته السياحية، وعلاقاته الغرامية اللانهائية، وعن الحفلات والمغامرات من أجل معرض يصور فيه جرائم قتل بشعة ومخيفة، من أجل هوسه بفكرة الخلود وترّهات ما وراء الموت لما صدّقت نهائياً. ولكن هذا ما يحصل الآن، والأنكى أن هذه الفكرة باتت هاجسه الوحيد، لذا فلا أحكام مطلقة بإمكانها مطابقة طباع صديقي المتقلب الأهواء، فأنا أعلم مدى تعلّق صديقي بالحياة، ولكن من الأفضل وضع جميع الخيارات في الحسبان حتى لا يقع ما لا تحمد عقباه.

من جهة أخرى أظن أن كاتيا وعلى الرغم من غرابة وجه نظرها ومخاوفها، إلا أنها كانت صادقة في قلقها، والأهم من كل ذلك أنها تعارض فكرة هذا المعرض، وقد سرّني أن أجد من يفكر بالطريقة ذاتها التي أفكر فيها ولو اختلفت أسباب خوفنا وآراؤنا، فقد جعلتني أخرج من قوقعة العزلة التي وضعني فيها صديقاي. ومع ذلك كان يجب عليّ أن أعرف عنها المزيد من أجل أن أطمئن أكثر، فمن هي هذه المرأة الجميلة التي دخلت حياة صديقي في مرحلة بالغة التعقيد ومع فكرة مشروع جنوني

تسيطر عليه سيطرة تامة؟ صحيح أن نهاد قد أطلعني على بعض التفاصيل المتعلقة بها، ولكن عليّ معرفة المزيد. هذه الأفكار جعلتني أغيّر وجهتي، وأذهب إلى مكتبة نهاد.

بدأ الزحام يزداد في الشارع الاستقلال على الرغم من أن الشمس لم تغب بعد، ولكن ما هي ساعة إلا وتختفي خلف هذه الأبنية الجميلة، وتبدأ ليلة جديدة من ليالي بيه أوغلو. وقد اعتاد الناس هنا على هذا الطقس اليومي، فما أن تغرب الشمس حتى تجد الجميع قد بدأ بالنزول إلى شارع الاستقلال، الطلبة والفتيات الجميلات والشباب، الآباء والأمهات، الجميع يودّعون شمس النهار بصخب جميل يملأ هذا المكان.

لا أعلم إن كان هناك مكان آخر في العالم يستطيع أن يحتضن كل هذا التنوع؟ فالموسيقى التي تصدح بها محلات بيع الأسطوانات التي تنتشر في أرجاء هذا الشارع، ترضي كافة الأذواق الموسيقية، فمن موسيقى الأرابيسك، إلى موسيقى الجاز والبوب والموسيقى الكلاسيكية، ومن الموسيقى التركية الحديثة، إلى الطرب الأصيل، كل أنواع الموسيقى التي سمعت ولم تسمع بها ستجد ألحانها تمتزج في أجواء هذا الشارع مشكّلة سيمفونية فريدة. ولبقية حواسك أيضاً نصيب في هذا الشارع، فالروائح هنا تتدرج صعوداً وهبوطاً على سلم المتعة، من روائح العطور الفاخرة إلى العرق البشري، ومن روائح الطبخ إلى روائح الورود والأزهار المتنوعة بتنوّع الفصول والمواسم. أما رواد هذا الشارع فخليط بشري متنوع في حالاته وأشكاله وأمزجته، تجد هنا شخصاً يسير والسعادة تطفح من محياه، وعلى العكس قد تجد من أناخت الهموم ظهره، وحفرت طريقها في ملامح وجهه، كما تجد من يمشي وحيداً دون رفيق، وتجد بالمقابل زمراً مختلفة من البشر، هناك من يسير متمهلاً غارقاً في أفكاره، وهناك من يسير متسرعاً تكاد قدماه لا تسعف لهفته وتهوّره. إنه نهر كثير الروافد، غني المنابع، تجد فيه الصالح والطالح على حدّ سواء، موظف البنك والبائع المتجول، المعلم والتلميذ، الطبيب والمريض، المشرد، بائعي الصحف والمخدرات، الفارين من القانون، والفارون من الأناضول، والحالمين بالفرار إلى أوروبا وأميركا وأفريقيا، الفارين إلى حياة جديدة، والفارين من حياة قديمة، البيض والسود والشقر والسمر، إنه نهر يحتضن الجميع ويقودهم في تشعبات الحياة وروافدها اللامتوقعة.

دور العبادة بمختلف أشكالها تتناثر إلى جانب المقاهي والمطاعم، والحمامات العامة، والبنوك ومتاجر بيع الملابس، المراكز الثقافية، المسارح دور

السينما المعارض الفينة والمكتبات... والتي تشغل الأبنية القديمة والجميلة التي تقف بصمود في وجه الزمن، وتستوعب أجيالاً متعاقبة من البشر، محافظة على أناقتها، متناثرة في أزقة وحارات اختلفت تسميتها عبر العقود، فالبعض يسميها دون تحديد لشارع معيّن بيه أوغلو، البعض يسميها شارع الاستقلال أو الشارع الكبير أو غراند ريو دي بيرا، لكن كل ذلك لا يهم فبيه أوغلو تظل كما كانت على الدوام أجمل مسرح حياتي تجري مشاهده على مدار الأيام والشهور والسنين والعقود دون توقّف. وفي اللحظة التي تطأ فيها قدماك المكان، تتاح لك فرصة مشاهدة مختلف المشاهد الكوميدية التراجيدية الهزلية والجدية في آن، ولكن الشرط الوحيد الذي يخوّلك رفع الستار والمشاهدة هو أن تنضم إلى قافلة اللاعبين. فهذه المنطقة تمارس سلطانها على الجميع ولن تسمح لك أن تتفرج عليها من دون أن يجرفك تيارها إلى مشهد ما لتشارك فيه. وقد حاولت قدر الإمكان أن أبقى بعيداً عن الأحداث التي اختلقها صديقاي، ولكن بيه أوغلو أبت إلا أن ترغمني على المشاركة والانتقال من مقاعد المتفرجين الفارغة إلى الحشود المجتمعة على المسرح. فمجرد وجودي الآن في هذا الشارع هو خطوة جديدة على سطور قصة ما تحاك أحداثها في هذه الأزقة، ولكن لما العجلة فنحن لا نزال في البداية.

تقع مكتبة نهاد في منتصف منطقة سوق السمك الذائعة الصيت، والتي كانت في ما مضى مشهورة بالمقاهي المتناثرة في أرجائها، وهي تحتل الطابق الأرضي للمبنى المعروف باسم أصليهان باساج.

بدأ الزحام يخف ما إن دخلت منطقة سوق السمك، واستقبلتني رائحة البطاطا المشوية التي يعبق بها المكان، وما أن تقدمت قليلاً حتى بدأت رائحة أمعاء الغنم المشوية تشارك في هذه السمفونية، لتتداخل معها بعد عدة خطوات رائحة معدة الخراف المقلية، التوابل والمخللات والسمك والفواكه وغيرها من الروائح كانت تتقاسم جغرافية اللذة في هذا المكان.

وصلت إلى المبنى الذي كان يسمى قديماً بمبنى كريين المشهور بمشاربه حينها، لكنه الآن أصبح يسمى مبنى أصليهان وقد تحولت تلك الأمكنة إلى هذه المكتبات بواجهاتها المليئة بالكتب القديمة وأعداد المجلات والجرائد والصور وأشرطة الفيديو. نزلت الدرج فمكتبة نهاد هي أول مكتبة على جهة اليمين، نظرت ولكنني لم أجد صديقي في الداخل إلا أنني لسوء الحظ رأيت ملك جالسة وأحسست بالندم على مجيئي، كنت أخطط للعودة إلى الخلف والهرب بأقصى سرعة ممكنة، لكنها رأتني حينها، لذا اضطررت

لرسم ابتسامة على وجهي وتخليت عن فكرة الهرب.

- مرحباً ملك.

بادلتني ذات الابتسامة وذات الشعور المضمر وأجابت:

- أهلاً سليم، تفضل.

على الحائط خلفها كان هناك ملصق معلّق لفيلم آه يا اسطنبول الجميلة، كما أن بقية الجدران كانت مزيّنة أيضاً بملصقات دعائية لمختلف الأفلام، وصور لأغلفة الكتب والمجلات المتنوعة. كنت لا أزال وقفاً عند المدخل وأنا أسألها:

- نهاد ليس هنا؟
- سيعود بعد قليل.

ثم أشارت إلى كرسي وضعت عليه بعض الكتب بالقرب من الطاولة التي تجلس إليها.

- تفضل بالجلوس، تستطيع وضع هذه الكتب أرضاً.

ولكنها عندما رأت ترددي طمأنتني قائلة:

- لا تخف لن يتأخر كثيراً.

وأضافت موضحة.

- لقد ذهب لتوصيل بعض المعدات إلى استديو كنعان الجديد، إنه في البناء الذي تملكه أليس كذلك؟
- أجل.
- لقد ذهب إلى هناك، وأظن أنه لن يتأخر فقد خرج منذ وقت لا بأس به.

وافقت على عرضها ووضعت الكتب أرضاً وجلست، وذلك بسبب فكرة أخرى بدأت تدور في رأسي، وليس لأنها أخبرتني بأن نهاد قادم بعد قليل. ملك هي من عرّفت كاتيا على الجميع وكانت السبب المباشر لدخلوها في دائرتنا، لذا فهي أكثر من تتوافر لديه معلومات عنها.

سألتني وهي ترتب الأوراق المتناثرة أمامها على الطاولة.

- ماذا تحب أن تشرب؟
- شكراً، فلقد شربت الكثير من الشاي والقهوة في المكتب.

وقد لفتت انتباهي الأوراق التي كانت تقوم بترتيبها.

- أهي أشعار؟

رمقتني بنظرة فاحصة ومستغربة من عينيها، وكأنني سألتها عن أحد العجائب.

- إنها بعض الأشعار... بعض الأشعار التي ننوي ضمها إلى المجلة.

ولأنها تعتبرني رجل أعمال متخلف ثقافياً وبعيد عن عالم الفكر والفن، لم تجد من داع لتشرح لي الأمر أكثر من ذلك. ولكنها غيّرت رأيها فجأة وسألتني كمن تذكّر شيئاً منها، وتغيّرت تلك النظرة المستنكرة في عينيها:

- سليم.

وأكملت بنبرة جدية.

- ألديك مخصصات مالية في الشركة من أجل الإسهام في المشاريع الفنية؟

- لا، لماذا؟

من الواضح أنها أصيبت بخيبة أمل كبيرة، إلا أنها حاولت تجنب النظر إليّ وعادت إلى ترتيب الأوراق أمامها وقالت:

- لا لشيء.

- أرجوك أخبريني.

حاولت معرفة السبب.

- ليس لدينا مخصصات للأعمال الفنية، ولكن إن اقتضى الأمر نستطيع بالتأكيد تنفيذ الفكرة.

أضاءت عيناها السوداوان ببريق نادراً ما أراه فيهما، وتركت الأوراق من يدها ورفعت رأسها.

- أحقاً تستطيع تنفيذ الفكرة؟

- بالطبع، ولكن يجب أن أعرف ما هو السبب أولاً.

أشارت بيدها نحو الأوراق المتناثرة أمامها:

- نحن بحاجة إلى راعٍ مادي من أجل إصدار مجلتنا، لذا كنت استوضح فيما إذا كانت شركتك لديها مخصصات للمشاريع الفنية، فكما تعلم هناك الكثير من الشركات الهامة التي تدعم المشاريع والأعمال الفنية وتموّلها.

لن أبالغ أن قلت إنها المرة الأولى التي تتكلم فيها معي ملك بهذا اللطف وتبدي هذا الاهتمام في حديثها.

- لا مانع لدي بكل تأكيد، على العكس فأنا أرحب بفكرة كهذه، ولكن يجب أن ترسلي إلي جدولاً مالياً عن تكاليف المجلة، وسأعرضه بدوري على المحاسبة لنرى ما يمكننا فعله.

ولكن ما إن سمعت كلمة المحاسب حتى بدت خيبة الأمل واضحة على ملامحها التي تغيّرت على الفور، ربما كانت تعتقد بأنني أحاول التملّص

من طلبها بطريقة لبقة. وبدأت تحدق إليّ كمن يحاول اختراق أعماقي لاكتشاف ما يدور في خلدي، ولأكون صريحاً فقد أصابتني نظراتها بخوف غريب. كانت هذه المرأة تملك ثقة كبيرة بنفسها، وشراسة في التمسك برأيها والدفاع عن وجهة نظرها، وقد شهدت موقفاً بينها وبين كنعان في إحدى المرات، جعلني آخذ حذري، وأتجنب التورط في إثارة غضبها.

كنا حينها أنا وكنعان ونهاد في مكتبته القديمة، وكانت ملك معنا، وكنا نتبادل الحديث عن موضوع التصوير الفوتوغرافي، لم تكن هي من فتحت الحديث، ولكنها ما إن فتحت فمها، حتى بدأت بوادر الحرب تلوح في الأفق، فقد قالت وبنبرة جازمة.

- التصوير الفوتوغرافي لم ولن يعتبر فناً.
- أنت مخطئة تماماً، فالتصوير هو فن كغيره من الفنون.

على الرغم من معرفته الجيدة لطباعها، لكنه لم يستطع أن يتجاوز ملاحظتها، والمصيبة أنه تكلّم محتداً وبصوت مرتفع بعض الشيء. أعتقد بأنه ندم فيما ما بعد لكن ملك كانت قد بدأت حرباً شعواء ضده، وكانت نتيجتها أن صديقي جاهل بكل أنواع الفنون، وبالثقافة بشكل عام بحسب رأيها، حاول المسكين الدفاع عن نفسه بضع مرات، وعدم الانجرار إلى أسلوبها الهجومي ولكن عبثاً، فقد كانت اتهاماتها تتواصل دون هوادة.

- أتظن أنك تستطيع أن تصبح فناناً من خلال ثروتك ونقودك؟

كانت جملة جارحة حقاً، وقد بدا نهاد المسكين محرجاً، وحاول أكثر من مرة إسكات زوجته، والاعتذار من صديقه، ولكنه لم يتمكن من جعلها تخفف من حدتها ولو قليلاً، بل على العكس كانت ترفع صوتها أكثر وتزيد من جرعة السم في كلماتها قدر استطاعتها، وقد لاحظت أنها لم تعد قادرة على ضبط أعصابها، والتحكم بغضبها، وكنت على ثقة تامة أنها إن واصلت هجومها على هذا النحو فقد يتحول الأمر إلى شجار فعلي، خاصة أن كنعان بدأ يفقد أعصابه هو الآخر، وكان يستعد لشن هجوم بدوره.

- حسناً، كنعان. دعونا من هذه الأحاديث - تدخّلت قائلاً - تعلمون أني لا أميل إلى هذه المناقشات الثقافية التي لا أفقه منها شيئاً، دعونا نغيّر الموضوع لو سمحتم...

وقد أدرك كنعان ما أرمي إليه فجاراني في الحديث.

- أعتذر منك، ولكني اندمجت في الحديث ونسيت...

لكن ملك لم تشفِ غليلها على ما يبدو، وبدأت ترمقنا نحن الاثنين

بنظرات نارية وأكملت هجومها:

- بالطبع، فأنتما لا تفقهان شيئاً عن عالم الفن لذا ستشعران بالملل من الحديث عنه، وستجدان أي مبرر للتهرب. ولكن لو كان الحديث يدور حول إحدى المباريات السخيفة، فلن يصيبكما الملل من التحدث لساعات طويلة عن الموضوع، أنتما متعجرفان وجاهلان ليس لديكما أي حس فني.

كانت ستكمل سلسلة الشتائم والاتهامات لكن نهاد استجمع شجاعته وتدخّل أخيراً.

- حسناً، ملك هذا يكفي اهدئي قليلاً، فالجميع ليس مضطراً أن يشاركك اهتماماتك.

حدجته بنظرة تقطر سماً، فيما شفتاها ترتجفان حنقاً، وللحظة ظننت أنها ستنهال عليه بالضرب، أو تنهار باكية، لكنها وإزاء دهشتي نهضت عن كرسيها بكل شموخ وغادرت المكتب، ولكنه كان درساً واضحاً يبيّن مدى خطورة التعرض لها، أو إثارة غضبها. برأيي كانت ملك بحاجة عاجلة إلى مساعدة أخصائي نفسي يساعدها في السيطرة على انفعالاتها، وعلى الرغم من أنني لم أحدّث كنعان عن وجهة نظري، إلا أنني متأكد أنه يشاركني فيها. ولكن لم يحاول أي منا طرح الموضوع أمام نهاد، فهو بالتأكيد لن يتجرأ على إخبارها بأن تراجع طبيباً نفسياً، وحتى إن تجرأ وفعل ذلك، فسوف ينتهي الأمر بكارثة حقيقية بالنسبة إلى صديقي المسكين، كما أنها ستعتبر أننا نحن في حاجة إلى طبيب وليس هي.

لذا بادرت على الفور إلى تطمينها بأنني جدي في موضوع تبنّي تكاليف المجلة التي ستصدرها.

- لا تسيئي فهمي، بالتأكيد سأتبنّى مشروع المجلة بجميع الأحوال، ولكن إن استطعتِ تقديم كشف مالي فذلك سيسهّل الأمور على موظفي المحاسبة، وسيصبح باستطاعتهم تأمين المبلغ وإرساله في الوقت المحدد.

انقشعت غيوم الاستياء قليلاً عن ملامحها.

- شكراً لك.

لكنني أحسست بأنها تقولها من باب المجاملة لا أكثر. فهي تعتقد بأنني ملزم بدفع هذه النقود، ولا بد أنها ترى هذه المبادرة فرصة ذهبية لي لصعود درجة من سلم الرقي والفن الذي اجتازته هي وأصدقائها المستشعرين منذ زمن طويل، ولكنني بالطبع لم أحاول إشعارها بما أفكر فيه، وقلت لها بنبرة مسالمة وهادئة:

- يسرني أن تكون لي مساهمة في دعم الفن والشعر، وكلما أسرعت

في إرسال الكشف المالي، سيتمكن الموظفون من تزويدكم بالمبلغ بصورة أسرع.

- سأناقش الأمر مع بقية الأعضاء، وأخبرك بالنتيجة في أسرع وقت.

أجابت بالطريقة نفسها التي أخاطب بها أحد الموظفين عندي عندما أكلفه بمهمة ما، فلم أتمالك نفسي من الضحك بصوت خافت، ومن حسن الحظ أنها لم تنتبه، فقد عادت للاهتمام بالأوراق المبعثرة أمامها، ولكني لم أكن أنوي أن أتركها بسلام، وبما أنني نفّذت طلباتها، فقد حان دورها لتزودني بما جئت من أجله.

- هل ستشارك كاتيا أيضاً في هذه المجلة؟

رفعت رأسها ببطء وبدأت تتفحصني، وشعرت بوطأة نظراتها التي ترمقني بها.

- لماذا تسأل؟

- لقد التقيت بها أكثر من مرة، وأعتقد بأن لديها أفكار جريئة وغريبة، وتبدو على قدر كبير من الثقافة.

أعجبها أن مصدر اهتمامي بصديقتها لا يعود إلى جسدها كما يفعل معظم الرجال عادة، وأن ثقافتها هي ما لفتت انتباهي. وأردفت قائلة:

- كاتيا امرأة رائعة، وإنسانة قوية، لو أن أحداً آخر مرّ بالظروف التي مرت بها لكان قد انهار منذ البداية، لكنها رغم كل شيء ظلت متماسكة.

- ماذا تعنين بالظروف؟

- المسكينة فقدت أعز شخص في حياتها.

- هل لكي أن توضحي أكثر؟

- كان زوجها سيرميت متسلق جبال، وفي إحدى المرات وفيما كان يحاول تسلق جبال أغرى سقط في جرف عميق وتوفي على الفور.

- حقاً إنه حادث مؤسف، كان متسلق جبال إذاً؟

- أجل، كاتيا أيضاً كانت متسلقة مثله.

اختفت تلك النظرة الحادة من عينيها، وحلت محلها لمحة من الإنسانية والشفقة.

- كانت تجمعهما علاقة حب رائعة، ولكنها انتهت بمأساة فظيعة.

- نهاية فظيعة حقاً، لا بد وأنها كانت صدمة كبيرة لكاتيا.

- بالطبع، ولكن كما ترى فهي تحاول البقاء قوية قدر المستطاع.

- ولما لم تعد إلى روسيا بعد وفاة زوجها؟

- وما الذي ستفعله إن عادت، وكيف ستتمكن من العيش وظروف روسيا سيئة للغاية، فكما ترى مئات الفتيات الروسيات يأتين إلى هنا. لكن كاتيا بالطبع ليست من هذا النوع، فهي تعمل بين الحين والآخر في إخراج مشاريع فنية كعملها الآن مع كنعان، وهي تسكن في البيت الذي تركه لها زوجها، كما أنها تحب اسطنبول كثيراً.

- واضح أنها تحب اسطنبول، وإلا فما من سبب أقوى يبقيها بعيداً عن بلادها.

وبينما كنت أتكلم لاحظت أن ابتسامة كبيرة غطت وجهها وهي تنظر نحو الباب فظننت أن نهاد قد عاد.

- عم سليم أيضاً هنا.

قالت ديزى ذلك وهي تحيط عنقي بذراعيها.

- كيف حالك؟

- على خير ما يرام، وأنت كيف حالك؟

- كما تعلم دراسة ومحاضرات لا تنتهي.. كيف هو بورج؟

- إنه بخير، قبل يومين أخبرنا بأنه رآك في الحلم، كنتما تسبحان سوية في البحر.

- لقد اشتقت إليه كثيراً.

- لما لا تأتين لرؤيته؟

- بالطبع سآتي ما أن يخف ضغط الدراسة قليلاً.

التفت نحو أمها وخاطبتها مازحة.

- كيف حالك سيدة ملك؟

- بخير آنسة ديزى، ألا أستحق قبلة؟

قبّلت ديزى أمها فيما كنت أتابعهما بحسد خفي، ولكنني بالطبع أحب ديزى وكأنها ابنتي، كانت تكبر أمام ناظري لتتحول من فتاة صغيرة جميلة إلى شابة جميلة موفورة الصحة ونشيطة. كان شعرها الكستنائي القصير يعطيها براءة طفولية، وقد ورثت عن أمها تلك العينين السوداوين الجميلتين، ولكن لحسن الحظ لم تأخذ عنها النظرة نفسها، فقد كانت نظراتها بريئة على الدوام. في طفولتها كان شعرها طويلاً يميل لونه إلى الأشقر، وكانت تتخلله تموجات جميلة، وأذكر أن المرات التي كنت أزور فيها منزل نهاد، كانت فقط لرؤية ديزى. لذا رغبت أن تنجب زوجتي فتاة جميلة مثلها، ولكن للحياة اختيارات أخرى، وبعد أن جاء ابننا مصاباً بمتلازمة داون لم نتجرأ على التفكير في إنجاب طفل آخر. لم أفاتح كولريز

أبداً في رغبتي هذه، ولكني أعتبر أن ديزى هي ابنتي أيضاً.

كانت علاقتها مع بورج أكثر من رائعة، فقد كانت تحبه وتعامله وكأنها أخوها، إلا أن زوجتي ظلت على الدوام متحفظة إزاء هذه العلاقة، قد يعود السبب إلى المقارنة التي تعقدها بين ابننا وديزى، وكيف كانت هذه الطفلة الجميلة تتحول مع مرور الأيام إلى شابة موفورة الصحة، وتشعر اتجاهها بغيرة خفية، وقد يعود السبب إلى العفوية التي كانت تعاملنا بها ديزى، وكيف كانت تراقصنا وتشاركنا السهر والغناء في سهراتنا من دون أن تلاحظ أنها أصبحت شابة على قدر وافر من الجمال، فقد كانت تعاملنا جميعاً وكأننا امتداد لوالديها، لذا كنت وسأظل على الدوام اعتبرها ابنتي التي لم تشأ الحياة أن تمنحني إياها.

وفيما كانت تحتضن والدتها لفت انتباهي كتاب أرجواني الغلاف وضعته على الطاولة، حاولت قراءة الكتابة الموجودة على الغلاف، كان جزء من الكلمات الذهبية اللون التي طبعت على الغلاف قد انمحى، ولكني استطعت رؤية اسم الكاتب وهو نيكولاس فليمل، وتملّكني الفضول لمعرفة مضمونه، فتناولته وبدأت أتصفحه. كان مكتوباً باللغة الإنكليزية ويتحدث عن الخيمياء، وكان مزيّناً برسوم ونقوش ورموز تتحدث عن الذهب والفضة، الكبريت والزئبق، الشمس والقمر وعناصر الطبيعة الأربعة الماء والنار، الهواء والتراب. والغريب في الأمر أنني شاهدت منذ قليل لوحة مطابقة لأحد هذه الرموز، فعندما كنت أقلّب الصور مع كاتيا علقت بذهني لوحة لأفعى ملتفة حول شكل متصالب، وقد رأيت صورة تشبهها الآن في هذا الكتاب.

- من الذي رسم هذه اللوحة؟

سألت ديزى بفضول.

- خيميائي يدعى نيكولاس فليمل.

- خيميائي؟

وأكملت ممازحاً:

- هل تنوين العمل في استخلاص الذهب؟

كانت تضع حقيبتها جانباً وتخاطبني بكل جدية.

- لم يعد أمامي حل آخر من أجل إنقاذ هذه العائلة، عليّ إيجاد طريقة لاستخلاص الذهب، ربما هذا يحل مشاكلنا.

- أرجو أن تخبريني ما هي الطريقة إن استطعت اكتشافها.

- بكل تأكيد فأنت فرد من العائلة.

ولكنها ما إن جلست حتى شرحت لي حقيقة الأمر.

- لدينا محاضرة تتحدث عن العلوم الخفية والمعتقدات الماورائية، وهذا الكتاب يتحدث عن الموضوع، ولكن الطريف أن هناك الكثير ممن آمنوا بالفعل بأن نيكولاس فليمل قد اكتشف التركيبة الخاصة بتحويل بقية المعادن إلى ذهب كما اكتشف أكسير الخلود.

- الكل لديهم الحق في الاعتقاد بالسخافات بين الحين والآخر.

قلت ساخراً.

- لا أوافقك الرأي في هذا الموضوع.

يبدو أنها لم تفهم ما أرمي إليه، وأخذت تناقشني بكل جدية وتستعين بمبررات منطقية حسب رأيها.

- السحر أو الخيمياء أو المعتقدات السرية الأخرى والتي تختلف في تسمياتها ولكن مضمونها واحد، هي جزء من ثقافة الإنسان وكانت خطوة هامة على طريق تطوره وتحضّره، ولا يزال الكثيرون يعتقدون بهذه الأفكار في الوقت الحاضر، هل سمعت عن كتاب هاري بوتر؟ بيعت ملايين النسخ منه حول العالم، والمحور الأساسي لهذه السلسة هو السحر.

- هذا النوع من الكتب يوظّف جميع الأفكار من أجل المبيعات لا أكثر.

تدخلت ملك.

- وإذا باع الكتاب بشكل كبير فهذا لا يعني أن نعتقد بالسحر، السحر مجرد فكرة سخيفة. أما الخيمياء فينطبق على الفن فقط لا غير، فإذا نظرنا إلى الشعر نجد أنه تركيبة خيميائية، فنحن نخلط الكلمات ونمزجها بطريقة معيّنة لإنتاج تركيبة خاصة مليئة بالصور والأفكار والمشاعر تحلّق بالقارئ في عوالم مختلفة.

كان من الواضح أن ملك لا تريد لديزى أن تهتم بمواضيع من هذا النوع، ربما تخاف عليها من الانضمام إلى جماعات ذات معتقدات غريبة، وبالطبع معها حق في خوفها على ابنتها. كنت أنوي التدخل من أجل التأكيد على كلام ملك، ولكن الهاتف الموضوع أمامها على الطاولة بدأ بالرنين فجأة فقطعت حديثها ورفعت السماعة لكي تجيب.

- ألو.. ألو، كولريز أهذه أنت؟ أجل سليم هنا.. حسناً سأعطيه الهاتف...

تفاجأت عندما سمعت اسم زوجتي.

- إنها كولريز.

وقد ظهرت الضيق على وجهها.

- ألو كولريز.

أجبت بوجل.

- لقد اتصلت بك على المحمول كثيراً.

قالت بصوت قلق.

- في البداية لم يأتني رد، ومن ثم كان الهاتف مغلقاً.
- مغلق؟

وأخرجت المحمول من جيبي.

- لا توجد تغطية للشبكة في المكتبة.
- أوضحت لي ملك.
- لا يوجد تغطية هنا.

بدوري أوضحت لكولريز.

- ولكن ما الأمر تبدين مضطربة؟
- بورج.

ومن ثم سكتت.

- ما به بورج؟
- لقد أغمي عليه في المدرسة.

دمدمت بصوت بالكاد يسمع.

وهنا تحول القلق الذي انتابني إلى رعب.

- ماذا؟ متى؟
- لا أعلم... لا أعلم...

أجابتني بهلع واضح.

- لقد اتصلوا بي منذ نصف ساعة فقط.
- وكيف هو الآن؟
- يبدو أنه لم يسترد وعيه.
- لم يسترد وعيه بعد؟
- هذا ما أخبروني به.

لم تستطع أن تكمل كلامها وبدأت بالبكاء.

- لا تخافي يا عزيزتي.

حاولت تهدئتها.

- سيكون بخير.
- ولكنه لا يستفيق.

قالتها بيأس.

- سيفعل، صدقيني سيستفيق، ولكن أين هو الآن؟
- لقد أسعفوه إلى المشفى.

قالت وهي تشهق.

- إلى أي مشفى؟
- المشفى الألماني... لقد وصلت للتو، لا يزال أمام الباب.
- ليتك أخبرت الدكتور راغب أيضاً، يجب عليه أن يشرف على حالة بورج.
- لقد اتصلت به على الفور وهو الآن في المشفى.
- وما الذي قاله؟ ألم يخبرك عن سبب إغمائه؟
- لم يقل شيئاً، فعندما اتصلت به لم يكن على علم بما حصل، وقال إنه ذاهب على الفور لرؤية بورج.
- حسناً، أنا قادم إلى المشفى حالاً.

## (8)

لم تسنح لي الفرصة لأودّع ديزى وملك كما يجب، فقد خرجت مسرعاً وأنا أقول (تم إسعاف بورج إلى المشفى). وكنت أفكر في أخذ سيارة أجرة من أمام السفارة البريطانية، ولكن في هذا الوقت بالذات تكون زحمة السير على أشدها، وإن أخذت سيارة ودخلت شارع سراسلفيلار فلن أصل قبل ساعة إلى المشفى. اتجهت نحو شارع الاستقلال، ولاحظت أن الزحمة ازدادت أكثر، لذا اتجهت يميناً نحو شارع توريناجي باشي، اجتزت ثانوية زورافيون، ودلفت من على يسار حمام غلطة سراي، كنت أهرول تقريباً وأنا أجتاز السفارة اليونانية وأتجه نحو الأسفل، ومن ثم توجهت مباشرة نحو أحد الأزقة لأصل إلى شارع سراسلفيلار، وكما توقعت فزحمة السير كانت خانقة، ورائحة عوادم السيارات وأصوات أبواقها تضيف على الشارع جواً خانقاً، ولكني اجتزت كل ذلك خلال لحظات ووجدت نفسي أمام مدخل المشفى الألماني لاهث الأنفاس، ولكن وصلت بسرعة قياسية.

كان الطبيب راغب وهو المشرف على حالة ابني ينتظرني أمام باب المشفى، وما إن رأيته هناك حتى أحسست بأنني تلقيت طلقة في أعماق قلبي، هل حدث الأسوأ، بدأ الهلع يمنعني من التنفس ولكن راغب الذي لاحظ ما اعتراني حاول طمأنتي على الفور:

- لا تخف، فقد استرد بورج وعيه.

لقد كان راغب صديقي بالإضافة لكونه الطبيب المتابع لوضع ابني الصحي.

ولكنني أردت التأكد أكثر فسألته:

- حقاً؟... وكيف وضعه الآن؟

- إنه بخير... صدّقني هو بخير، ولكن لا بد لنا من انتظار نتائج بقية الفحوصات من أجل معرفة سبب المشكلة.

- أين هو الآن؟

- سآخذك إليه، فهم الآن يأخذون صوراً للقلب.

- صوراً لقلبه؟

توقفت للحظة، فنحن نعرف منذ البادية أن هناك ثقباً في قلب بورج عندما ولد، وهو عارض يعاني منه أكثر من خمسين بالمئة من الأطفال الذين أصيبوا بمتلازمة داون، للأسف فقد كان ابننا من بين هؤلاء اللا محظوظين، ولكن مع مرور الوقت وبعد أن تجاوز مرحلة عمرية

معيّنة، فقد التأم الثقب من تلقاء نفسه، أو على الأقل هذا ما أخبرنا به الأطباء، فما الذي حصل فجأة؟

- هوّن عليك، ولا تفكر بالأسوأ منذ الآن.

- كان يحاول مواساتي، ولكنني لم أكن بحاجة إلى مواساة بقدر حاجتي إلى الحقيقة.

- هل ترتاب بأن المشكلة مصدرها القلب؟

- لقد ازرقت شفتاه وكان يتنفس بصعوبة - أكمل وهو ينظر في عينيّ مباشرة - هذه الأعراض لا تعني أن المشكلة حتماً هي من القلب، ولكن يجب أن نأخذ كل الاحتمالات بالحسبان، لذا استشرت طبيباً أخصائياً بأمراض القلب، وهو من اقترح أن نصوّر القلب من أجل التأكد، وقد يكون هذا الإغماء نتيجة سبب بسيط لا أكثر.

لقد كان راغب شخصاً لطيفاً إلى أبعد حدّ، ولكن عيبه الوحيد أنه كان متفائلاً إلى درجة مبالغ فيها، وكان لا يرى سوى الناحية الإيجابية من الأمور، على الرغم من أن الحياة لها جانب سلبي أيضاً. كان يغذي الأمل لدى الآخرين، وهذا ما يدفعهم إلى الإحساس بأمن زائف ينهار بشكل قاسٍ عندما تقع الكارثة، لذا كنت حذراً على الدوام من كل توقعاته وآرائه.

- ما الذي حصل بالضبط؟

- كان يلعب بالكرة في المدرسة ويبدو أنه أتعب نفسه أكثر مما يجب.

- لا أحد يتعب نفسه من أجل لعبة.

- أنت مخطئ يا صديقي، ولو كنت في مكانه وتحب لعب الكرة لأتعبت نفسك، وبقيت تلعب إلى أن تنقطع أنفاسك، وكما تعلم فإن بنية بورج الجسدية أضعف من بنية زملائه.

- وما سبب الزرقة التي اعترت شفتيه؟

- إنها نتيجة لعدم قدرته على التنفس بصورة طبيعية. ولمعلوماتك فليس كل شخص يقع مغشياً عليه يعاني بالضرورة من مشكلة في قلبه، فأمراض القلب تترافق مع عوارض أخرى كثيرة.

- ولكنك تعلم أن قلب بورج...

- أعلم ذلك، ولهذا السبب فقد استشرت أخصائياً بأمراض القلب، وقد كان رأي الطبيب مماثلاً لرأي بعد الفحص الأولي الذي أجراه. ولكنه عندما عرف بأن بورج لديه ثقب في القلب، طلب إجراء المزيد من الفحوصات والصور من أجل التأكد لا أكثر. ولكني متأكد بأن ما حصل هو

نتيجة التعب لا أكثر.

- يا له من غبي - دمدمت بحنق - لقد حذرته أكثر من مرة بألا يبذل مجهوداً يفوق طاقته...

- لكنه يظل طفلاً... لا تتوقع منه أن يظل جالساً في مكانه بينما بقية زملائه يلعبون.

- يجب أن ينتبه على صحته أكثر، فلن نبقى أنا ووالدته بجانبه إلى الأبد... حسناً دعنا من هذا الكلام ولندخل، أين هو الآن؟

أشار بيده نحو اليسار وهو يقول:

- في نهاية الممر.

- وكولريز كيف أصبحت؟

سألته ونحن نسير سوية.

- بخير بخير... وقد هدأت كثيراً عندما رأت أن بورج قد استرد وعيه، أرجو أن تكون نتائج الفحوصات كما أتوقع، حتى تطمئن بشكل كامل.

- ومتى ستظهر النتائج؟

- لن تأخذ الكثير من الوقت، فبعد قليل ستكون جاهزة.

في نهاية الممر لمحت ظل كولريز النحيف والطويل، كانت واقفة أمام الباب على الرغم من وجود مقاعد للجلوس، ويبدو أن راغب قد بالغ كالعادة، فالقلق والاضطراب كانا واضحين عليها بشكل كبير، ولكنها ما إن رأتني حتى أومضت عينيها ببريق خفي، وأدركت حينها كم كانت بحاجة إليّ. ولكن الوميض الذي ظهر للحظات اختفى من جديد خلف سحب الخوف.

- إنهم يصوّرون القلب.

لم تنه عبارتها بسبب امتلاء عينيها بالدموع.

- الثقب الذي في قلبه...

ولكن الجملة ظلت معلقة على حبال الخوف من دون أن تتمّها.

- لا تخافي، إنه مجرد إجراء احترازي.

قلت مطمئناً.

- لم يسبق له أن أصيب بالدوار أو فقد وعيه من قبل.

هذه المرة أيضاً عجزت عن إتمام كلامها.

- صدّقيني لا مبرّر لكل هذا الخوف والقلق.

حاول راغب أن يهدئها، ولكن كولريز لم تكن قادرة على سماعها،

فدموعها كانت تتسابق في الانحدار.

- سليم أنا خائفة جداً.

قالت ذلك وهي تقترب مني أكثر.

- لا تخافي، بورج سيتعافى.

قلت ذلك وأنا أحتضنها. لم تستطع السيطرة على نفسها أكثر وبدأت تنشج وتبكي بحرقة، حاول راغب التدخل مرة أخرى وطمأنتها، لكني أسكته بإشارة مني. وفيما كنت أحتضنها انفتح الباب وظهر طبيب بدين يضع نظارة، أطل برأسه وهو يقول:

- راغب، تعال من فضلك.

كان وجهه خالياً من أي تعبير يشير إلى ما يحصل في الداخل، كما أن صوته أيضاً كان خالياً من أية مشاعر تدلّ على القلق أو التفاؤل. حاول كلانا تمالك نفسه، فيما التفت راغب نحوي قبل أن يدخل وهو يقول:

- لن أطيل البقاء.

من جديد أغلق الباب في وجهنا، نظرت كولريز إلى الباب ثم استدارت نحوي، هذه المرة لم أمتلك الشجاعة من أجل تهدئتها. فتلك اللامبالاة الواضحة على وجه الطبيب البدين قد أخافتني كثيراً، وبدأت ثقتي بالترنّح مرة أخرى، ولكن كان عليّ أن أقول شيئاً ما.

- هل رأيت بورج؟

- أجل رأيته.

قالت ذلك وهي تمسح دموعها.

- كيف بدا؟

- كان بخير، وقد تحدّث معي بشكل طبيعي، ولكنه لا يزال طفلاً ولا يدرك ما الذي يدور من حوله.

مسحت أنفها.

- ربما كنا مخطئين.

- ما الذي تقصدينه؟

- ما كان علينا إرساله إلى مدرسة عادية، فهو يظن نفسه طفلاً طبيعياً ويتصرف كبقية زملائه، يلعب ويركض مثلهم تماماً.

كلامها هذا أشعرني بالضيق.

- ابننا بخير ولا يعاني من أي شيء، ومن الطبيعي أن يمرض الأطفال بين الحين والآخر.

لكنها رمقتني بنظرة حادة من خلال رموشها المبللة.

- ابننا يعاني من متلازمة داون، ابننا ليس كبقية الأطفال ونحن نثقل كاهله بإنكارنا الحقيقة.

لا أعلم أي شيء دفعها لإعادة هذه الحقيقة أمامي في هذه الظروف ورميها في وجهي بهذا الشكل الفج.

- أعلم ذلك جيداً.

أجبتها بعصبية واضحة، ولكني حاولت تمالك نفسي وأكملت.

ولكنه يستطيع أن يعيش حياة طبيعية كبقية الأطفال، بل من حقه أن يحيا هذه الحياة، يجب أن يتعرف على الحياة بصورة سليمة.

لم أتمكن من إتمام كلامي فقد انفتح الباب وخرج راغب وهو يبتسم مطمئناً.

- الأخبار جيدة.

قال ذلك بنبرة حذرة.

- وكما توقّعت، فالصورة لم تبيّن وجود أية مشكلة.

- حقاً؟ أجابته فرحة وقد نسيت شجارنا قبل قليل، وقد عاد الأمل يتراقص في عينيها البنيتين الجميلتين وأردفت.

- أنت لا تقول هذا الكلام فقط لكي تطمئننا أليس كذلك؟

- وهل سبق وأن كذبت عليكما؟

- إذا ما سبب الدوار الذي أصابه؟

تدخّلت بدوري.

- من التعب، يبدو أنه اجهد نفسه كثيراً في اللعب.

- شكراً جزيلاً.

قلت ذلك وأنا أصافحه من كل قلبي.

- ولكن الطبيب يريد عرض الصورة على البروفيسور... هوّن عليك، لا داعي لأن تخافا مجدداً، نحن فقط نريد التأكد من جميع الاحتمالات، ولكن المشكلة أن البروفيسور قد غادر المشفى ولن يعود إلا في الغد. لذا يفضل أن يبقى بورج هنا الليلة، ليأخذ قسطاً من الراحة وليتمكن البروفيسور من فحصه غداً حالما يصل.

بدأت الظنون تتلاعب بي مرة أخرى.

- أرجوك راغب إن كان هناك ما تخفيه عنا...

ولكنه لم يدعني أكمل جملتي.

- صدقني أنا لا أخفي شيئاً، أيعقل أن أتحمّل مسؤولية الأمر

لوحدي وأخفي حالته عنكما؟

أخيراً، استطعت أن أتنفس بعمق.

- متى نستطيع رؤية بورج؟
- على الفور، تعالا لندخل سوية.

في الداخل كانت الممرضة تلبسه القميص وهي تبتسم معه، وكان حقاً يبدو بخير، ولا شيء يشير إلى أنه متعب أو مريض، كان يحاول التخلص منها ولكنها لم تتركه ليذهب.

- تمهّل يا عزيزي، عليك أن ترتدي قميصك أولاً.
- لقد استطعت أن أسجل هدفاً في مرمى فريق متين اليوم يا أبي.

قال ذلك حين رآني وهو يستسلم لتعليمات الممرضة- لقد كانت ضربة ركنية- كان يرفع أكثر صوته ليسمعني.

رغبت في أن أقول له لقد كانت كارثة ولم يكن هدفاً، ولكني بالطبع قلت عكس ما أضمر:

- أحسنت، ولكنك بعد ذلك أصبت بالدوار وأغمي عليك.
- لأنني كنت عطشاً جداً.
- ولما لم تشرب؟
- لو تركت اللعبة وذهبت لشرب الماء، كانوا سيأتون بلاعب آخر ليحل مكاني، فقد كانوا يتذرعون بأنني لا أركض بشكل جيد.

لكن يبدو أن كولريز لم تستطع منع نفسها من التدخل فقالت له:

- حسناً، دعهم يفعلوا ما يشاؤون، ألهذه الدرجة تهمّك هذه اللعبة؟

بالطبع كانت ستكمل حوارها بهذه الطريقة مع بورج، ولكنني شعرت بأنه ليس المكان المناسب، لذا أومأت لها أن تسكت، والتفت لأخاطب راغب.

- هل الغرفة التي سيمكث فيها بورج جاهزة؟
- أجل إنها جاهزة.
- أنا أيضاً سأبقى معه.

تدخلت كولريز على الفور، فعلى الرغم من كل تطمينات راغب، بقيت قلقة وخائفة.

- بالطبع، يجب أن يظل أحدكما معه، كما أن الغرفة فيها سرير ثانٍ.

تمّ إحضار كرسي مدولب من أجل إيصال بورج إلى غرفته، ولكن ابني

كان يظن أن الكرسي هو إحدى الألعاب التي تشبه تلك الموجودة في مدينة الملاهي، وكان طوال الطريق إلى غرفته مبتهجاً، فيما كنا جميعاً نتبعه.

- ما رأيك أن أبقى أنا مع بورج هذه الليلة؟

قلت لكولريز.

- لا أنا سأبقى، وأظن أن هذا ما يريده بورج.
- إذاً فلنبقى نحن الاثنين.

قلت معقباً.

- لا داعي لذلك، فعليك الذهاب إلى المكتب غداً ويجب أن تنام وترتاح، وإن طرأ أي شيء جديد فسوف اتصل بك على الفور.
- هل أنت متأكدة؟
- بالطبع يا عزيزي - ثم أضافت بودّ أكبر - ولا تنسى أننا في المشفى، والأطباء موجودون على مدار الساعة.

أحطتها بذراعي في محاولة للتعبير لها عن حبي، وهي أيضاً قابلتني بابتسامة رائعة، ولكنني كنت أتابع بورج وهو يقنع الممرضة من أجل أن تسرع أكثر وهي تقود الكرسي، أحسست حينها بأن قلبي يفيض بحبهما معاً.

- ما الأمر سليم؟

خاطبني صوت من الخلف، وعندما التفت رأيت نهاد وكنعان واقفين وأمارات القلق والخوف بادية عليهما.

- لقد اتصلت ملك وأخبرتني بأنهم أسعفوا بورج إلى المشفى، وقد خفنا كثيراً. كيف هو الآن؟
- إنه بخير.

وأشرت نحوه وهو لا يزال يحاول إقناع الممرضة من أجل أن تسرع أكثر.

- ألا تريان، إنه يحاول استغلال كل لحظة في اللعب.

وهنا اختفى القلق من وجهيهما، وأكملت موضحاً.

- وقد أخبرنا الأطباء بأنه ما من داعٍ للخوف.

وفيما كنت أكلّمهما، كنت أبحث عن كاتيا في الأرجاء، ولكن للأسف لم أجدها، وبعد لحظات أدركت أن غيابها الآن أفضل من حضورها، فلا أريد أن تلتقي زوجتي مع كاتيا وتتعرف عليها، وذلك على الرغم من إدراكي التام بأن كل ما يدور في ذهني الآن مجرد سخافات، فكاتيا ليست

عشيقتي حتى أخفيها عن زوجتي. ولكني في الوقت ذاته لم أكن راغباً في أن تتعرف كاتيا على زوجتي وأسرتي.

- لم يكن من الضروري أن تتكلّفا عناء المجيء.

عدت من جديد إلى ما يدور حولي.

- فأنا أعلم تماماً مدى انشغالكما.

- لا تقل هذا الكلام، يمكننا تأجيل العمل - تدخّل كنعان - المهم أن بورج بخير وصحته على ما يرام - ثم خاطب كولريز بكلامه - حمداً لله على سلامته.

- شكراً لك كنعان، الأطباء يقولون إنه بخير، ولكن يجب أن يبقى اليوم في المشفى.

- صديقي شينول أيضاً بروفيسور في هذا المشفى - بادر كنعان وهو ينتقل بنظراته بيننا أنا وزوجتي - إن كنتما ترغبان فيمكننا أن نطلب مشورته أيضاً.

صراحة لقد استغربت من تصرّف كنعان واهتمامه الزائد بالموضوع، فهذه ليست المرة الأولى التي نضطر فيها لنقل بورج إلى المشفى، ولكن صديقي كان يكتفي من قبل بمجرد اتصال هاتفي لا أكثر، أما الآن فقد جاء بنفسه على الرغم من انشغاله الكبير بالعمل والمعرض على حدّ سواء، وها هو يعرض المساعدة أيضاً.

- شكراً يا صديقي، ولكن حالياً ما من داع للأمر.

كنت أتحدث مع كنعان فيما اتجه نهاد نحو بورج الذي لم يره بعد.

- يا لك من محظوظ، أنا أيضاً أرغب في الجلوس معك. هل من متسع لي؟

وما إن رآه بورج حتى جن جنونه وصاح فرحاً:

- عمي نهاد؟ أتعلم بأنني سجلت هدفاً اليوم في المدرسة؟

وقد جاراه نهاد في الابتهاج وهو يقول كمن لا يصدق.

- أحقاً ما تقول؟ وضد من كنت تلعب؟

- الصف المجاور لنا، إنهم فريق متين، كانوا يفوزون على الدوام، ولكننا اليوم اكتسحنا الملعب اكتساحاً.

- أحسنتم فعلاً.

وكان سيستمر في مجاراة بورج، لكن كولريز تدخلت وأنهت هذا الحماس بمعلومة هامة.

- لكنه أصيب بالدوار وفقد الوعي لأنه أتعب نفسه كثيراً في

اللعب يا نهاد.

وعلى الفور انتقل نهاد إلى الجهة الأخرى.

- ما هكذا اتفقنا يا صديقي، فاللاعب الذكي يحافظ على صحته ولا يتعب نفسه، فقط اللاعبون قليلو الخبرة هم من يستمرون في اللعب حتى الإنهاك.

- معك حق يا عمي، كنت أشعر بالعطش الشديد ولكنني خفت أن أترك اللعبة ويحل زيا البدين مكاني.

- وما المشكلة في أن يحل مكانك أليس صديقك في الفريق؟

- أجل هو صديقي ولكنه لا يتقن اللعب، فهو لا يعرف كيف يسدد الكرة، وإن نزل إلى الملعب فسنخسر بكل تأكيد.

وكعادتها فقد تدخلت كولريز مرة أخرى.

- وما المشكلة إن خسرت، لا شيء أهم من صحتك.

ما إن أحس بنبرة الغضب الواضحة في كلام أمه، حتى سكت وبدأ ينظر إليها بحذر في البداية، ولكنه تجاوز حذره بعد لحظات، وبدأ يتكلم مجدداً وينتقل من موضوع إلى آخر دون توقف، والجيّد في الأمر أنه لم يعاود الحديث عن الكرة.

- عم نهاد ألم تعدني بأن تزورنا لكي نلعب سوية بالبزل؟

- بالطبع سآتي، ولكني مشغول قليلاً هذه الفترة، أعدك بأنني حين أنهي عملي سأزوركم فوراً.

كان كنعان أيضاً يراقبهما مثلي، وقد أبدى إعجابه بعلاقتهما.

- يبدو أنه ونهاد يتفقان بشكل رائع.

ربما يشعر بالغيرة منهما، وربما هو وخز الضمير بسبب عدم تمكنه من إقامة أي نوع من التواصل الحقيقي مع بورج، وربما - وهذا هو الأهم - أنه بدأ يتغير بالفعل، وبدأت فكرة الخلود التي سيطرت على عقله، تغير من روحه أيضاً.

ولكنه أكمل حديثه قائلاً:

- صحيح أنني لا أتحدث في الموضوع كثيراً ولكنني راغب في أن يكون لي ابن.

وكانت نظراته تزال تراقب ابني على مقعده المتحرك.

- ولكن المفارقة تكمن في أنني لم أحلم بزوجة مطلقاً، فقط أريد ابناً.

- وكيف ستتمكن من تطبيق هذا الحلم من دون زوجة؟

- بالطبع لن أستطيع، إنه مجرد حلم.

- إنه حلم جميل، وكل رجل يحلم بأن يصبح أباً وأن يقوم بتربية ابنه، وينقل إليه خبراته وتجاربه في الحياة.

- أجل، ولكن لرغبتي هذه أسباب مختلفة فأنا أريد أن أفهم طفولتي أكثر من خلال رؤية ابني وهو يكبر أمام ناظري، فحين نكون أطفالاً لا نفهم ما يجري حولنا بصورة صحيحة. لذلك لا نستطيع إدراك الشر بشكل واضح، وقد يكون هذا هو السبب في أننا نتذكر طفولتنا على أنها مجرد لحظات جميلة وسعيدة، ونشتاق إلى تلك المرحلة الهانئة. أظن أننا عندما نصبح آباءً حينها ندرك حقيقة الطفولة، وكيف يحلل الطفل المواقف التي يمر بها. ونصبح أكثر واقعية تجاه الحياة بمختلف مراحها. هذا هو السبب في رغبتي أن أصبح أباً.

- أليس مبرراً أنانياً؟

- أعلم ذلك، ولكن الجميع أنانيون، وأكثر جوانبنا أنانية هو رغبتنا العارمة في إنجاب الأطفال، والزج بكائن جديد إلى معترك حياة لا يفقه عنها شيئاً، هل تستطيع أن تضمن أن هذا الطفل سيحيا سعيداً، من دون مشاكل، من دون مرض، وسيعيش حياة طويلة؟ بالطبع لا، وعلى الرغم من ذلك نستمر في الإنجاب وفق متوالية غير موزونة، أو نستمر في الرغبة والحلم كما أفعل أنا الآن.

كانت نظراته تتابع تحركات بورج وهو يتكلم، هل كان صديقي يتهمني بالأنانية لأنني كنت السبب في إحضار طفل معاق إلى هذا العالم، لا يجب أن أسيء الظن بصديقي إلى هذه الدرجة، وكأنه أدرك ما يجول في رأسي.

- أنا لا أتّهم أحداً، فأنا كالجميع أريد إنجاب طفل وأعتقد أن هذا شيء موجود في جيناتنا كبشر. وربما لو أصبح لديّ طفل سأتمنى أن تكون فتاة، ألا ترى نهاد فبالرغم من وجود ديزى إلا أنه شغف بابنك لدرجة كبيرة، وقد يعود السبب إلى رغبته في أن يكون له ولد- ضحك قليلاً- ولكنه لا يجرؤ على أن يبوح برغبته أمام ملك.

- بالطبع لن يجرؤ، فصديقنا المسكين جبان كبير.

كان يراقب نهاد وقد خف ضحكه.

- أنت تظلمه بهذا الكلام، لا أعتقد أنه جبان إلى هذا الحد.

كانت نبرته واضحة السخرية.

وما إن سمع نهاد اسمه توقّف عن اللعب مع بورج وانضم إلينا.

- لا نتحدث عنك - أكمل ضاحكاً - استمر في لعبك مع بورج.
أعتقد أن الوقت حان لتغيير هذا الحديث.

- كيف كان الاجتماع؟

سألت كنعان.

- كنا على وشك الانتهاء عندما علمنا بالخبر، ظلوا يتكلمون لساعات متواصلة، حتى تحوّل رأسي إلى طبل مليء بترّهاتهم وأحاديثهم السمجة - نظر إلى كولريز وهو يكمل - هل ستبقى أنت أيضاً في المشفى؟
- لا سأذهب إلى البيت، لما تسأل؟
- كاتيا تنتظرنا، ما رأيك أن ترافقنا بدل الذهاب إلى البيت والبقاء بمفردك؟
- أين ستلتقي بها؟

أخفض صوته وكأنه لا يرغب في أن تسمعه كولريز وأجاب بإيجاز:

- في مشرب يدعى بركة يملكه أحد أصدقاء كاتيا في شارع بالو.
- بركة؟ اسم غريب، أتمنى ألا يكون أحد الأماكن المعتمة التي يرتادها أولئك غريبو الأطوار.

اعتلت وجهه الجميل نظرة استنكار وأجاب مدافعاً:

- على العكس، هناك فيلم وثائقي اسمه بركة، ربما سمعت عنه، إنه يتحدث عن الثقافات والطبيعة واختلافات البشر بطريقة رائعة ومن خلال مشاهد آسرة، وقد تأثّر أصحاب المشرب بهذا الفيلم، وأطلقوا اسمه على المكان. إنه مكان يرتاده المصورون ومتسلقو الجبال، وقد تعرفت كاتيا على المكان كونها متسلقة سابقة. كما أنني أخطط لالتقاط الصورة التي تصوّر الجريمة المرتبكة في أحد المشارب هناك بالذات، وأود أن ترى المكان لتعطيني رأيك.
- حسناً ولكن يجب أن أبقى مع كولريز وبورج لبعض الوقت، لا أريد ترك كولريز بمفردها منذ الآن، اذهبا وسأوافيكما لاحقاً.

## (9)

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة ليلاً عندما تركت بورج وكولريز في المشفى وذهبت للقاء صديقاي، فلم تكن بي رغبة بتركهما باكراً والذهاب للسهر فيما ابني يرقد مريضاً، ولو لم ينم بورج لكنت بقيت هناك. ولكنه كان بحاجة إلى النوم والراحة، كذلك زوجتي التي أرهقها الخوف والتوتر طيلة النهار. ولكنني عندما خرجت من باب المشفى لم أعلم ما أفعله، فلست متأكداً من أن كنعان لا يزال ساهراً في مشرب بركة الذي حدثني عنه. هل أذهب إلى البيت؟ إنه احتمال مقبول فأنا أيضاً أحس بالتعب، ولكنني كنت أرغب برؤية كنعان والتحدث معه، كما أن البيت من دون بورج وكولريز سيكون موحشاً بكل تأكيد. وطوال الوقت الذي أمضيته أثناء سيري من المشفى حتى وصولي إلى شارع سراسلفيلار لم أستطع تحديد وجهتي. ولكني ما إن وصلت إلى الطريق عدلت عن فكرة الذهاب إلى البيت، وقررت لقاء كنعان، ومن أجل ألا أضطر إلى العودة خائباً إلى المنزل، اتصلت به على المحمول لأتأكد من أنه لا يزال في ذلك المشرب.

- ألو..
- ألو سليم.. أين أنت؟
- أنا آت.. آت.. أما زلتما في بركة؟
- أجل، في شارع بالو، البناء رقم واحد الطابق الثاني.
- حسناً لا تقلق سأعرف كيف أصل.

زرّرت المعطف، وبدأت أتجه نحو ساحة تقسيم بخطى واسعة. لن أتبجح وأظهر شجاعة حمقاء، فأنا أخاف صراحة السير في الشوارع الفرعية في هذا الوقت من الليل. لذا اخترت السير عبر بيه أوغلو حتى وإن كان الطريق أطول. لم يكن هذا ليحدث قبل ثلاثين سنة من الآن، فحينها كان صديقنا المتهور يقودنا نحو بيوت الرخيصات المتناثرة في شارع أبانوز، وكنا من أجل الوصول إليها نجتاز متاهة الأزقة والحارات في أبانوز وتارلي باشي بجرأة بت افتقدها. ربما كان الخطر حينها أقل حدة من الآن، ففي البارحة بحسب ما رواه لي سائقي أورهان، قتل اثنان نتيجة اطلاق نار على بعد مئتي متر من هنا، وذلك في شارع بارماكابي الكبير. وبالطبع فقد هرب القاتل بكل بساطة. صحيح أنني لا أحمل الكثير من النقود في جيبي ولكن لا ضير من الحذر. فهذه الأزقة التي تحيط بأضوائها هالة قمرية شاحبة في ليالي الشتاء الضبابية كانت تخفي بين ثناياها المدمنين على

اختلاف أنواعهم، اللصوص وقطاعي طرق المعاصرين، المجانين، والمجرمين، وكل من يجد في الليل غطاءً.

اجتزت شارع سراسلفيلار الذي حولتها السيارات المصطفة على الأرصفة بشكل عشوائي إلى متاهة، ومررت بجانب دار عبادة آيا تريادا ببنائها الجميل، والذي- للأسف- شوهته مطاعم الشاورما التي احتلت واجهت الشارع بلا تناسق، والتي تثمل الجياع نهاراً بروائحها، ووصلت إلى بداية شارع الاستقلال. كعادته كان الشارع يضج بالمارين والعابرين في كافة الاتجاهات ولمختلف الأسباب، فالبعض قد أنهى سهرته ويتجه نحو منزله، والبعض الآخر قد نزل للتو وهو يتجه إلى حيث سيقضي الليل بأكمله، فيما البعض الآخر ومعظمهم من السواح كانوا يتلفتون حولهم منذهلين بجمال المكان الذي يضم هذا النهر البشري الذي لا يكف عن التدفق. وأنا أيضا أسلمت نفسي لهذا النهر متجهاً نحو شارع بالو، ولم أجد أي صعوبة في الوصول إلى بركة. كان المشرب يقع في الطابق الثاني لأحد الأبنية الجميلة والتي صممها أحد المعماريين الإيطاليين منذ ما يزيد عن مئة عام، بين مجموعة أبنية أخرى تشكل جزيرة معمارية على امتداد شارع بالو الواقع بين شارع تارلي باشي الطويل، وشارع صولاك زاده العريض. كان المصعد المضعضع والضيق ينتظرني في مدخل البناء، ولكني فضّلت عليه الدرج المرمري الواسع وبدأت بالصعود. كانت أصوات موسيقى الجاز تتناهى إلى مسامعي مع صعودي ولكنها ضاعت فجأة وسط صخب الموسيقى التركية التي صدحت، والتي وصلت على أنغامها إلى الباب الذي يحمل لافتة المكان. كانت الموسيقى التركية الصادرة من الطابق العلوي لا تزال صاخبة ولكنني بدأت أسمع مجدداً نغمات الجاز من بركة. دفعت الباب ودخلت، استقبلتني رنة لطيفة لأجراس معدنية معلقة فوق الباب، كان الممر مظلماً نوعاً ما، وكان الضوء القادم من الداخل يضفي عليه بعداً ضبابياً، اجتزته وجلست على أول كرسي شاغر وجدته، كانت الجدران التي طليت بأخضر داكن تزينها صور المتسلقين، يقفون على قمم ثلجية، على منحدرات تطل على أودية سحيقة فاغرة الفم توحي بأنها ستبلع الجميع من دون رحمة، حتى إن زوجاً من أحذية التزلج كان معلقاً بين تلك الصور. حاولت البحث عن صديقاي في ظل تلك الإضارة الخافتة ولكنني لم أتمكن من إيجادهما، فاتجهت نحو الشاب خلف الطاولة الكبيرة.

- لو سمحت، أبحث عن السيدة كاتيا ورفاقها.

عند ذكر اسمها لاحت على وجهه ابتسامة لطيفة وأشار بيده نحو

مكانهم.

- لا بد وأنك السيد سليم، إنهم جالسون وراء ذلك العمود على اليسار.

- شكراً لك، أنت صاحب هذا المشرب؟

- أجل، واسمي إرهان - مد يده مصافحاً - أنا وأخي ندير هذا المكان معاً.

صافحته وأنا أقول:

- سررت بمعرفتك، بالإذن.

اتجهت نحو المكان الذي أشار إليه، لم يكن المشرب قد ازدحم بعد، فقط ست أو سبع فقط من الطاولات الخمس عشر التي تتوزع في الأرجاء كان يشغلها الندماء، وكان أصدقائي جالسين إلى طاولة في وسط المكان تقريباً، ومعهم شاب أسمر في مقتبل العمر لم يسبق لي أن رأيته من قبل. كانوا مندمجين في الحديث حيث لم يلحظ قدومي أحد سوى كاتيا. وكعادتها أشعّت بابتسامتها الجميلة، وقد احترت في لون عينيها الذي يتراقص على درجات الأزرق والأخضر، أي لون منهما فاز بشرف المثول فيهما يا ترى؟ هل كانت تعتقد حقاً أنني لن ألحظ هذا الجمال كله حتى تلوّح لي بيدها وكأنها تدلّني على مكانها؟ وحين رفعت يدها انتبه صديقاي إلى مجيئي، ووقف كنعان ليستقبلني.

- أهلاً سليم، تفضل بالجلوس هنا.

وهو يشير لي بالجلوس في مكانه، فيما وقف الشاب الغريب أيضاً.

- لا سيد كنعان - واتجه نحوي وهو يشير إلى الكرسي الذي نهض عنه - تفضل بالجلوس مكاني.

- لا داعي لأن تزعج نفسك.

خاطبته شاكراً.

- لا بأس فقد كنت أهم بالمغادرة.

- لم أنت مستعجل إردينج، سليم صديقنا وليس غريباً - قالت كاتيا - ولم تنتظر رد إردينج وهي تتجه نحوي مخاطبة.

- إردينج هو صاحب هذا المشرب.

لم يكن يشبه الشاب الذي رأيته خلف الطاولة الكبيرة في شيء، وعلى خلاف شقيقه الأشقر، فقد كان يميل إلى السمرة ذي عينين بنيتين وشعر كستنائي اللون كما أنه كان أطول منه. ربما لو دققت أكثر في ملامح وجهه لوجدت بعض الشبه بينهما، لكنها كانت مهمة صعبة تحت هذه الأضواء

الخافتة. وقبل أن أجلس مددت يدي نحوه مصافحاً.

- تسرني معرفتك، أنا سليم، وقد تعرفت على أخيك أيضاً منذ قليل.

- أنا أيضاً سرني التعرف إليك - قال وهو يمد يده - حدثتني كاتيا عنك مطولاً، وعلى ما يبدو فنحن جيران، لذا يسرني أنا أراك هنا وأن نلتقي مجدداً.

كان إردينج شاباً لطيفاً ذا شخصية تفيض بهجة على الجوار.

- بالتأكيد، فالمكان هنا جميل جداً.

- شكراً لك - والتفت نحو البقية وهو يقول - سأحضر كرسياً - كان يهم بالذهاب حين التفت فجأة - نسيت أن أسألك، ماذا تحب أن تشرب؟

نظرت إلى الطاولة وأنا أقول:

- ما الذي يشربونه؟

- شراب فرنسي الصنع - أجاب نهاد - إنه شراب خاص أحضره إردينج معه من تراقيا مؤخراً.

ترددت قليلاً، فكلما احتسيت الشراب أعاني صداعاً متعباً في الصباح التالي، لذا حاولت إيجاد بديل آخر:

- ولكنني احتسيت بعض الشراب ظهراً عندما كنت في مكتب كنعان...

إلا أن كنعان لم يمنحني فرصة للهرب بل قرّر نيابة عني.

- لقد انقضى الظهر منذ عصر سحيق يا صديقي، ستحتسي من المشروب الذي نحتسيه كلنا.

كانوا يحدقون النظر فيّ بانتظار الجواب، لذا استسلمت.

- حسناً - وخاطبت إردينج - سأشارك صديقاي فيما يشربانه.

- إذاً سأحضر زجاجة جديدة.

- شكراً لك - شكرته كاتيا واتجهت بعينيها الجميلتين نحوي - حمداً على سلامتك ابنك، لقد أخبراني أنه كان مريضاً.

- شكراً - وقد عاودني الضيق عندما ذكّرتني بابني، وبدأت أسأل نفسي ماذا كان شعورها تجاهي عندما علمت أن ابني يعاني من متلازمة داون.

- لقد تحسّن أليس كذلك؟

سألني كنعان.

لم أشأ أن يلاحظ أحد الضيق الذي انتابني لذا أجبته وأنا أرسم ابتسامة مطمئنة على وجهي:

- إنه بخير، تركته ينام بعمق قبل أن أغادر المشفى.
- الحمد لله أنه قد تحسّن.

قال نهاد ذلك وهو يدق بيده على خشب الطاولة.

- هل عادة الطرق على الخشب موجودة لديكم.

سأل كنعان الشابة التي احمرت عيناها قليلاً بفعل الشراب.

- بالطبع موجودة، كما أننا بعد الطرق ندير رؤوسنا ونبصق ثلاث مرات.
- هناك الكثير من العادات المشتركة بين الروس والأتراك - أضاف نهاد - فهما شعبان متجاوران منذ مئات السنين.
- أجل جاران تحاربا حتى ملّ كل منهما الحرب.

أجابته كاتيا بنبرة ماكرة.

- وهل هناك شعب لم يحارب جاره عبر التاريخ - تدخّل كنعان في الحديث - وخاصة في هذه المنطقة.

وضعت كاتيا يدها بمودة على يد كنعان، إلا أن صديقي لم يشأ أن يتنكر لصفة زير النساء التي اشتهر بها ولم يتح لها سحب يدها بل تركها حبيسة بين أصابعه التي كانت تتجول مداعبة أناملها الجميلة.

- لم يكن هذا ما قصدته - حاولت كاتيا أن توضح كلامها السابق - فأنا لم أكن...

لكن اللغة لم تسعفها لكي تكمل.

- لم تقصدي تأنيبه.

أوضح نهاد.

- أجل.

أجابت وهي تخلّص يدها من قبضة كنعان، وقد سرّها أن نهاد وجد الكلمة المناسبة.

- أجل لم أكن أقصد التأنيب، فنحن أيضا ارتكبنا في حقكم الكثير، كما أن قسماً من الشعب الروسي يكن مودة كبيرة للأتراك.
- لماذا؟

سألها كنعان وهو يضع يديه على الطاولة وينتظر بهدوء الصياد الذي يراقب فريسته وهي تقترب من الفخ.

- في العام 1918 التجأ الآلاف منا إلى اسطنبول - أوضحت له -

وقد عاملهم الشعب التركي بمنتهى اللطف.

لكن نهاد اعترض قائلاً:

- ولكنني متأكد أن آلاف الروس بالمقابل شعروا بالعداء تجاه تركيا لأنها انضمت إلى حلف الناتو.

- لا - أجابت كاتيا بنبرة واثقة - في روسيا القديمة، أعني في الاتحاد السوفياتي لم تكن ثقافة كره الشعوب الأخرى منتشرة بيننا، ربما لم تكن سياسة حكومتكم حينها تلقى القبول لدى البعض، ولكن لم يكن هناك أي عداء نحو الشعب التركي. العنصرية كانت ممنوعة فقد تعلّمنا في المدارس بأن النظرة العنصرية والتعالي على بقية الشعوب هو تصرّف خاطئ.

هذا الحديث جعلني أعود بالذاكرة إلى أولئك الأشخاص الذين هاجروا إلى تركيا في العام 1918.

- هل هاجر أحد من أقربائك إلى تركيا بعد اندلاع الثورة البلشفية؟

سألتها بفضول. في البداية نظرت إليّ وقد علت الدهشة وجهها، ربما لم تفهم السؤال بالضبط، وربما تسأل نفسها من أين خطر له هذا السؤال بحق الجحيم، ظلت صامتة للحظات ثم هزت رأسها نافية.

- لا أظن أن أحداً من أقربائنا قد غادر البلاد حينها. فجدي انضم إلى الشيوعيين قبل اندلاع الثورة، وأصبح الانتساب إلى الحزب تقليداً متوارثاً في العائلة، ولكن أحد أعمام جدي كان ضابطاً في جيش القيصر، ويقال إنه هرب إلى اسطنبول حينها.

- وهل بقي مقيماً في اسطنبول؟

- أعتقد أنه سافر إلى باريس فيما بعد، وعند انقضاء الحقبة الستالينية حاول العودة إلى البلاد وقد طلب مساعدة من والدي.

- وهل قام والدك بمساعدته؟

- لا أذكر ما حصل، ولكنني متأكدة من أنه لم يساعده.

- ولما أنت متأكدة من الأمر؟

كان كنعان هو من يسألها الآن.

- لأن والدي لم يتخل عن مبادئه مطلقاً، ولم يتنازل عنها من أجل أي كان.

- لقد كان شيوعياً حقيقياً إذاً.

دمدم صديقي بنبرة ساخرة قليلاً.

وهنا لاحظت اختفاء الابتسامة التي كانت تضيء وجهها الجميل على

الفور، حملت كأسها وأخذت ترتشف رشفات صغيرة، وقد حل عليها الصمت. ولم يلحظ صديقي الثمل ما اقترفت كلماته.

- لقد تعرفت على أحد الشيوعيين القدماء في كوبا - أكمل كنعان الحديث - وذلك قبل خمس سنوات على ما أظن، كانت أحوال البلاد مزرية، وكانت السيارات التي تجوب الشوارع مجرد خردة معدنية مهلهلة يعود معظمها إلى حقبة الثورة وغالبية الشعب يرزح تحت الفقر فيما انتشر الفسق بنسب جنونية، ولكن العجوز لم يكن يرى كل تلك الفظائع من حوله، وكان يدافع عن الثورة العظيمة التي ستغيّر العالم بحماسة شاب في العشرين من عمره، إلا أن طيبة قلبه جعلتني أحتار فيما إذا كان يجب عليّ أن أضحك ساخراً، أم أحزن من أجله. في الحقيقة نحن أيضاً كنا يساريين فيما مضى، إلا أن تلك الأفكار قد ولى زمانها، لكن المسكين لم يكن يعلم أن معتقداته السياسية قد اندثرت منذ عقود، لذا ظل مستمراً في التمسك بأحلامه.

- ولهذا السبب فهو أكثر سعادة منا جميعاً.

أجابت بنبرة تحدٍّ واضحة أطاحت بالجو اللطيف الذي كان يحيط بنا.

نظر إليها كنعان مستغرباً هذه الحدة، لكنها لم تكلّف نفسها عناء النظر إليه.

- لو أن الجميع كان متفائلاً مثله، لتحوّل العالم إلى مكان أجمل بكثير.

- معك حق، ولكن المشاكل الواقعية لا يحلها التفاؤل والمعتقدات يا عزيزتي.

أجابها كنعان هذه المرة بجدية وصدق.

- كما تعلمين فهتلر وستالين كان لهما معتقدات من هذا النوع، وأستطيع أن أذكر لك مئات الأسماء الأخرى، ولكن لا أحد منهم استطاع تغيير العالم ليصبح أفضل مما هو عليه، بل على العكس.

لكن كاتيا لم تتأخر في الرد عليه:

- أنتم توردون على الدوام الأمثلة السيئة فقط، وبالمقابل أستطيع أن أذكر لك آلاف الأشخاص الذين استطاعوا من خلال معتقداتهم وأحلامهم تحويل العالم وتغييره نحو الأفضل، هم الفلاسفة والفنانون، رجال السياسة، العلماء، رجال الدين، الرحالة والمستكشفون. إن لم نملك أحلاماً ونعتقد بها بشدة سيضيع سحر العالم ويتحول إلى مكان موحش.

كان إردينج قادماً نحونا وهو يحمل زجاجة الشراب وكأساً فارغة

وصحناً يفيض بالبسكويت وقد أدرك ما يحصل على الطاولة فعلّق قائلاً وهو يخاطب كاتيا:

- يبدو أن الحديث محتدم.

كانت الجميلة الروسية ستواصل الجدل بعنف لو لم يقاطعها إردينج لحسن الحظ، ومن ثم اتجه نحونا ليكمل.

- أحذركم من الحديث معها والنقاش حول الشيوعية، فمن المستحيل إقناعها بتغيير وجهة نظرها، فقد حاولت كثيراً ولم أستطع، ولقد توقفت خوفاً من أن تتمكن هي من إقناعي.

- أصبح العالم مكاناً موبوءاً يستحيل العيش فيه - تدخّل نهاد - حسناً لنعترف أن ستالين كان ديكتاتوراً فظيعاً، ولكن ما الذي تغيّر بعد رحيله؟ لاشيء سوى أن البؤس والفقر قد ازدادا أكثر، حتى بات الأغنياء يشعرون بالتعاسة، أتستطيع أن تنكر ذلك؟ لقد غرق البعض في أحضان التشدّد الديني، فيما الآخرون غرقوا في أحضان المخدرات. هل من بؤس أكبر مما نعانيه؟

بدأت بالضحك وأنا أقول:

- ألا تلاحظون ما يحصل؟ فبعد كأسين عدتم إلى محاولة إنقاذ العالم.

- سنرى ما سيصيبك أنت بعد أن تشرب.

علّق كنعان وهو يملأ كأسي من الزجاجة التي أحضرها إدرينج للتو.

- أتمنى للجميع بعد هذا الكأس أن تنجحوا في مهامكم، فالعامل الذي لا يعمل بإتقان لن أدفع له شيئاً، هذا ما يبدأ به الرأسماليون خطابهم.

اتجه نحو كاتيا وقد ارتسمت تكشيرة ماكرة على وجهه الجميل.

- صديقي سليم رأسمالي متعطش للمال، لا يغرّك هدوءه الظاهري ففي أعماقه يكمن وحش فاشي.

إنها عادة قديمة لدى كنعان في أن يحوّلني إلى كبش الفداء لينجو هو بفعلته، لكن كاتيا الجميلة نست عبوسها وبادلتني ابتسامة عذبة، على الرغم من أنها لم تكن تنوي الاستسلام بسهولة.

- أعلم أن السيد سليم بعيد عن هذا الوصف تماماً- واتجهت نحوي- قد يكون رأسمالياً ولكنه شخص لطيف.

- شكرا لك.

أجبتها.

- حسناً، فلنشرب نخب صديقنا الذي يطبّق شرور الرأسمالية بطريقة لطيفة.

توجّه كنعان بالكلام إلى الجميع وهو يرفع كأسه ليضع بذلك حداً للتوتر الذي خيّم على الجلسة. رفعنا كؤوسنا جميعاً وطرقناها بلطف وشربنا نخبي، وقد أعجبني كثيراً مذاق الشراب المنحدر نحو أعماقي.

- إنه رائع.

علقت.

- من الجيد أنني اقتنعت بفكرة الشرب.

قابل إردينج هذا المديح بابتسامة صغيرة قبل أن يغادر طاولتنا وهو يقول:

- اشربوا قد ما تشاؤون فقد أحضرت الكثير منه معي.
- أرجوك دعنا وشأننا.

أجابته كاتيا مازحة.

- ألا ترى أننا بدأنا بالترنح منذ الآن؟
- تكلّمي عن نفسك يا عزيزتي - أسكتها كنعان - فنحن مستمتعون جداً.
- أجل ولكن علينا الاستيقاظ باكراً، فأمامنا الكثير من العمل غداً.

كشّر عندما تحدّث عن العمل وقال بنبرة تأكيد:

- لا تقلقي كاتيوشتي، سأستيقظ في الوقت الذي تشائين - ثم التفت نحونا - لم نجتمع ثلاثتنا منذ فترة طويلة، لذا لا داعي لأن نفسد سهرتنا بالقلق حول العمل، أليس كذلك يا أصحاب؟

في الحقيقة أنا أيضاً لم تكن بي رغبة في أن أثقل في الشرب، ولكن نظرات المحبة التي غمرني بها كنعان وهو يتحدث حسمت الأمر لصالحه.

- بالطبع يا صديقي - رفعت كأسي مجدداً - نخب الصحة.

انضمت كاتيا إلينا على الرغم من معارضتها، ورفعنا كؤوسنا التي أفرغناها جميعاً في الوقت ذاته. لا أعلم إن كانوا مستمتعين بالشرب، لكن من جهتي أحسست بأن هذا الشراب أفضل ما يمكن الإحساس به بعد كل ما مررت به اليوم.

كان إردينج الذي تركنا منذ قليل وقفاً وراء جهاز الموسيقى، وقد خفت أن يغيّرها، لكن ولحسن الحظ ظل الجاز يصدح في الأجواء بلطف.

- هل الجاز هي الموسيقى الوحيدة هنا؟

سألت كاتيا.

- لا، إن لم تعجبك...

- لا على العكس، أحب الجاز ولكنني سألت من باب الفضول لا غير.

- يضعون أحياناً موسيقى راقصة أيضاً وتجد الجميع يرقصون بصخب وجنون، كما أنهم ينظمون حفلات لموسيقى البوب التركية القديمة العائدة إلى أربعينيات القرن الماضي، لم أستسغ كثيراً هذه الأجواء، ولكنني أعتقد أنها ستروق لكم.

- بالطبع تروق لنا - علّق كنعان - فنحن كبرنا على أنغام تلك الموسيقى، وسنحضر إحدى هذه الحفلات بكل تأكيد.

- الموسيقى التي تُعزف الآن جميلة أيضاً.

أضفت.

- سليم يعشق الجاز.

أوضح كنعان.

- والروايات البوليسية.

أضاف نهاد.

- حقاً؟

سألتني كاتيا، وقد دهشتُ لاهتمامها بأمر كهذا، ولكنها أوضحت لي قائلة:

لم أقرأ الكثير من الروايات البوليسية، ففي الاتحاد السوفياتي كانت الروايات التي تصف مغامرات رجال الكي جي بي هي الأكثر انتشاراً، لكن أستاذ مادة الأدب كان يعتبر أن روايات دوستويفسكي أيضاً تصنّف ضمن الروايات البوليسية، وعند قراءتها بدأت أهتم بالأمر.

- دوستويفسكي؟

سألت متعجباً.

- بالطبع - تدخّل كنعان - فقد قرأت رواية الجريمة والعقاب متلهفاً لمعرفة المزيد من أحداثها، لقد كان أستاذك محقاً فيما قاله.

- الأخوة كارامازوف أيضاً تنحدر ضمن هذا الإطار أليس كذلك - أضاف نهاد مؤيداً وجهة نظر كنعان - فالأحداث تتمحور حول جريمة قتل الأب على ما أظن.

- لم أفكّر بالأمر على هذا النحو، ولكنني سأعيد قراءة الجريمة والعقاب مرة أخرى، ومع ذلك أفضل النمط الكلاسيكي من الروايات البوليسية، كروايات أجاتا كريستي وجورج سايمون... كما أنني أحب أعمال

داشييل هاميت ورايمون تشاندلر العائدة إلى ثلاثينيات القرن الماضي والتي تصف مغامرات محققي الشرطة في أميركا.

أشعت عيناها الجميلتان ببريق من الفضول والاهتمام وابتسمت.

- ما الأمر؟

سألتها.

- لا شيء.

أجابت ضاحكة.

- أعتقد العكس.

أجبتها.

- كنت أراقبك اليوم وأنت تشاهد صور الجرائم في مكتب كنعان.

وضعتُ الكأس التي أحملها على الطاولة وأصغيت بانتباه.

- ولّدت نظراتك لدي انطباعاً غريباً بعض الشيء، فقد أحسست بأنك تنظر إلى الصور بحرفية كبيرة، وكأنك محقّق متمرّس في هذا العمل منذ سنين، وليس مجرد شخص عادي.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أن ظني كان في محله، فالشخص الذي يهتم بالروايات البوليسية إلى هذه الدرجة يكتسب رؤية بوليسية مع الوقت.

ضحكت وقد راقني مديحها.

- معك حق، فهذه الروايات جعلتني أتقمّص دور المحقق، وعندما تقع عينيّ على هذا النوع من الصور، أدقق في تفاصيلها بشكل كبير، ولكني لم أتقصّد الاهتمام بهذه الصور على هذا النحو... يبدو أن الأمر أصبح عادة.

- وتصفونني أنا بالجنون؟ - أضاف كنعان بصخب - يبدو أن سليم الذي ملأت الروايات البوليسية رأسه بالترّهات ليس أفضل حالاً مني.

- بالطبع.

أضاف نهاد وهو يرمقني بنظراته مؤنّباً، كمن أمسك بي متلبّساً.

- لما كنت تحاول ثنينا عن المضي في مشروع المعرض فيما تشكّل متابعة الجرائم أهم هواياتك؟

- الموضوع مختلف. فالروايات البوليسية يظل الخطر فيها حبيساً بين السطور وبعيداً عن القارئ، لكن ما تفعلونه مختلف تماماً.

أجبته بنبرة تحذيرية باردة، لم أكن أنوي التحدث بهذه الصيغة مرة أخرى، ولكن ما باليد حيلة، فشراب إردينج جعل الكلمات تخرج من فمي

من دون أن أستطيع السيطرة عليها.

تململ كنعان في جلسته، وأصبحت حركاته أكثر تحفّظاً من ذي قبل.

- ألم تقل بأنك قد غيّرت رأيك حول هذا الموضوع؟

تجنّبت الخوض في حديث قد يفقدنا المتعة، ويحوّل جلستنا إلى مقت.

- بالطبع غيّرت رأيي.

كنت لا أزل في بداية محاولتي لتدارك الأمر عندما تدخّلت كاتيا.

- أنا أؤيد السيد سليم في رأيه.

قطعت بكلامها هذا سبل السلام، وقد زايلتها نشوة الشرب، ولم يبق أحد على حاله سوى نهاد الذي ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، وظل يتابع كلماتنا التي لم تكن تصل إليه بوضوح على يبدو.

- هل أنت جادة؟

سألها كنعان وقد استردّ وعيه بصورة نهائية.

- لما لم تخبريني بالأمر من قبل؟

بدأ الحوار يقودنا نحو وجهة خاطئة، وقد خشيت أن يفسّر كنعان تقارب وجهات النظر بيننا أنا وكاتيا على نحو آخر، فقد كانت نظراته الحادة ونبرة صوته التي داخلها التوتر، تنذر بعاصفة قريبة.

- حاولت أن أخبرك - أوضحت كاتيا - لكنك كنت متعلّقاً بالفكرة لدرجة كبيرة جعلتني أحجم عن مصارحتك وإزعاجك.

كان صوتها الهادئ ونظراتها الحانية توحي بتوسّل خفي، لتجنّب إثارة غضبه، ومع ذلك كان من الواضح أنها ستظل متمسكة برأيها حتى النهاية.

بدأت نظرات كنعان تنتقل بيننا أنا وكاتيا.

- سبق وأن تحدثتما في هذا الموضوع أليس كذلك؟

- أجل تحدّثنا - أجبته - فكلانا خائف عليك، ولا نريد أن يصيبك مكروه بسبب هذه الفكرة.

- أي مكروه؟

سألنا نهاد، وقد لاحظ أخيراً التوتر الذي ساد الأجواء.

- أنا خائفة عليك كنعان.

خاطبته كاتيا.

كانت تغمره بنظراتها الراجية، فيما عيناها الجميلتان تتراقصان تحت الضوء الخافت على تموّجات اللون الفيروزي، وقد بدا من الواضح أنها متيّمة به.

- كما أن مخاوفي تختلف تماماً عن مخاوف السيد سليم - أكملت

توضيحها - فأنا لا أخاف عليك من خطر خارجي، ولكنني أخشى أن تؤثر الفكرة سلباً على نفسيتك وتؤذيك.

حاول كنعان التركيز قدر الإمكان ليفهم ما تعنيه، وهو يضيّق عينيه وعندما باءت محاولته بالفشل طلب منها التوضيح.

- عذراً، ولكن ما الذي تعنينه بالتأثير النفسي السلبي؟

أعادت كاتيا على مسامعه القصة التي أخبرتني بها اليوم، عن المصورة الأمريكية المشهورة ديانا أربوس، وكيف دفعها شغفها بتصوير بؤس البشرية إلى الانتحار في نهاية المطاف. لقد استمع إليها بانتباه شديد حتى النهاية دون أن يحاول مقاطعتها مطلقاً، كما زايله توتره السابق وحل مكانه هدوء عميق، ومع استمرارها بالحديث بدت ترتسم على وجهه ابتسامة خفية.

- لا داعي لكل هذا القلق - وأضاف بنبرة ودودة - لقد أخبرت نهاد أيضاً من قبل وتحدّثنا في الأمر، إنه مجرّد معرض فني ولن يؤثر عليّ بأي شكل من الأشكال. كما أنني أعرف قصة ديانا أربوس من قبل، ولكن هذا لا يعني أن نهاية كل مصوّر ستكون مماثلة لنهايتها. سأعطيك مثالاً عن مصور آخر، آرثر فيلينغ ويغي هل سمعتم باسمه؟

- لم أسمع به.

أجابته كاتيا، فيما اكتفينا أنا ونهاد بمجرد الإيماء بالنفي.

- كان آرثر فيلينغ من أهم المصورين الأمريكان، وقد اشتهر بوصوله الفوري إلى مكان الحدث قبل الجميع، ولم تكن هذه الأماكن تقتصر على مسارح الجرائم بطبيعة الحال، بل كانت تشمل الحوادث المرورية، والأبنية التي ينشب فيها الحريق، لقد صوّر آرثر عشرات الصور عن الجرائم والفظائع التي حلت بالبشر. ولكنه لم يفكر بالانتحار، ولم تسيطر عليه أية وساوس من هذا القبيل، بل أكمل حياته بصورة طبيعية وتوفي في العقد السابع من عمره وفاة طبيعية. كما أن فكرة المعرض تشبه أعمال آرثر أكثر من شبهها بأعمال ديانا. وأعود لأقول لكما إنه عاش حياة طبيعية، وقد نشرت صوره في الكثير من المجلات الهامة كمجلة Life .

وهنا توجه إليّ.

- أي أنه ما من مبرّر لكل هذا القلق، أنا لست مجرد شخص غني أخرق ملّ من الحياة وملذاتها ويبحث عن الغرابة، على العكس تماماً فأنا أدرك أن الحياة قد تكون قاسية جداً في الكثير من الأحيان، وعلى الرغم من ذلك أعشقها بقدر ما تعشقانها، وأرغب في أن أحيا حياة طويلة وأن أستمتع بالمزايا التي منحتني إياها لآخر لحظة. وإن أحسست بأي

خطر فسأتخلى عن الفكرة قبل الجميع، كل ما أفعله هو أنني ألتقط مجموعة من الصور بغضّ النظر عن الموضوع سواء كان الموضوع عن الجرائم، أو الأزهار أو حتى المطارات ربما...

- ولكنك تصوّر الجثث - تدخّلت كاتيا - ولن تستطيع منع الأثر النفسي التي ستتركه عليك مع مرور الوقت.

يبدو أن كنعان لم يكن ينوي التراجع عن موقفه.

- أؤكد لكي أنني أستطيع، ولكنني في الوقت ذاته لن أنكر أنني شعرت ببعض القلق بعد ما سمعته منك، فلست وحدي من يعمل على هذا المشروع، أنت ونهاد معي أيضاً.

- الجثث والموت لن يؤثرا عليّ - أجابه نهاد - فأثناء عملي في الجريدة التقطت صوراً تضاهي في فظاعتها وعددها ما التقطه هذا الأميركي.

كان كنعان يراقب كاتيا بنظراته، كمن يسألها إن كانت ستستمر معه أم أنها ستتخلى عن الفكرة، وربما هذا ما بدا لي.

- أنت صاحب الفكرة، وأنت من يلتقط الصور - أوضحت له كاتيا - لذا فلن يطالني التأثير بقدرك، وإلا لما رضيت بالعمل معك، فليس لدي أي نية في التوجه نحو الجنون والانتحار.

من الواضح أنها لم تقتنع بكلام كنعان، ولكنها حاولت مجاراته، وقد شعّت عينا صديقي بالرضا، فاتجه نحوي ليتأكد من رأيي أنا أيضاً وهو يقول:

- حسناً، هذا جيد، ولكن لدي رجاء أخير، لا أريد أن نفتح هذا الموضوع مجدداً.

كان يحدّثني، ولكن الكلام كان موجّهاً إلى الجميع.

- اتفقنا؟

- سيكون ذلك رائعاً - سانده نهاد كعادته - دعونا نبدأ بالعمل، فالاستديو أصبح جاهزاً ونستطيع التصوير ابتداء من الغد - ووقف مترنحاً - فلنشرب نخب بدء العمل.

- نخب البدايات.

رفعنا نحن الأربعة كؤوسنا معاً، ولكن الرنات الجذلة التي صدرت عن طرق كؤوسنا ببعضها لم تستطع أن تغطي على صوت المرأة الحزين وهي تغني على أنغام الجاز أغنية غارقة في الكآبة كجدران بركة الغارقة في ظلام شاحب.

## (10)

كان مشرب بركة يغلق أبوابه فيما نغادر، ولكن كنعان لم يكن قد ارتوى بعد، وقد طلب من إردينج زجاجة أخرى قبل أن ننزل على الدرج المرمري، على الرغم من أننا كنا نترنح وبالكاد نستطيع الوقوف. كان كنعان يمسك بيد كاتيا وينزلان في المقدمة فيما أنا ونهاد نسير خلفهما، وكنت بالكاد أستطيع التحكم في خطواتي، وبين الحين والآخر استند إلى الحائط لأستجمع قواي ولم يكن نهاد أفضل حالاً مني، بل لقد بدأ يفقد التوازن ولو لم أمسك به لوقع، لذا تأبطت ذراعه فيما ننزل.

- لقد أفرطنا بالشرب يا صديقي.

قلت له.

- لا أظن، لم نشرب الكثير.

أجاب بكل صلف من دون أن يلاحظ خطواته المترنحة.

انتابتني رغبة شريرة في ترك ذراعه، والتمتع بمشاهدته يتدحرج كالكرة إلى الأسفل...

- حقاً لم نشرب الكثير؟

أجبته ساخراً.

- أجل، فقبل أسبوع...

لكنه لم يستطع أن يكمل فقد عصف به الدوار، ولم تعد ذراعي كافية لإسناده فتمسك بالدرابزين بيده اليمنى.

- لم تكن معنا حينها - وأومأ برأسه نحو كاتيا وكنعان - اجتمعنا نحن الثلاثة في بيت كنعان، وشربنا كمية هائلة من مشروبنا المعتاد... أتصدق أننا أفرغنا زجاجتين كبيرتين وكانت الثالثة في طريقها إلى الانتهاء... هل تفهم ما أعني...قضينا على زجاجتين كبيرتين... هل تدرك ماذا الذي يعنيه ذلك، هذا ما أسميه... لذا، فبضع زجاجات لا تعني شيئاً.. أليس كذلك؟

- بالطبع لا تعني شيئاً - أجبته وأنا أحاول جره نحو الأسفل - فخمس ست زجاجات لن تؤثر علينا بكل تأكيد.

ولكنه سحب ذراعه من يدي فجأة وتمسّك بالدرابزين بكلتا يديه، وبدأ يحدّق بي وعيناه تقدحان شرراً.

- سليم أتسخر من كلامي؟

أعتقد أنه تلبّس دور الضحية مرة أخرى، وكل كلمة أتفوه بها الآن

ستزيد من حدة توتره، وبالطبع سينهي هذه المأساة بأن يحتضنني باكياً وهو يقول إن ما من أحد يحس به في هذا العالم سواي، وحتى أكون منصفاً فإن هذه التراجيديا لا تتكرر دائماً، ولكنها تطفو إلى السطح عندما يمر بظرف سيئ أو يشعر بأن أحدهم تقصد إهانته. وبالطبع فلم يكن هناك من كتف يبكي عليها سوى كتفي أنا أو المسكين كنعان الذي استطاع النجاة وابتعد عنا وهو يمسك بيد حبيبته، وكان عليّ أن أتحمّل هذا الإعصار وحدي، لكنني لم أكن في مزاج يسمح لي بتحمّل نُواح صديقي اليوم، لذا استبقت الأحداث، واتبعت استراتيجية جديدة، لأقطع عليه الطريق منذ البداية.

- بل أنت من يسخر مني.

أجبته.

فاجأه أسلوبي على ما أظن، لذا بدأ يرمقني بنظرات موغلة بالدهشة.

- أنا؟... ولكن ما الذي فعلته لك؟

استطاع أن يجد جواباً في النهاية.

- تسهر معهم دون أن تكلّف نفسك عناء إخباري، وتأتي الآن لتتبجح أمامي بالأمر وكأنني شخص غريب لا يحق له التواجد معكم في هكذا سهرة.

ارتسمت ابتسامة غبية على وجهه في البداية، ولكنه عاد للحديث بجدية ملحوظة.

- أقسم لك يا سليم - أغلق عينيه مركّزاً ليجد الكلمة المناسبة - لقد اتّصلنا بك حينها - لكنه لم يكن متأكداً مما يقول - أيعقل أننا لم نتصل؟ - بحث عن كنعان، لكنهما كانا قد وصلا إلى الطابق الأرضي- أعتقد بأننا اتصلنا... ولكن إن لم نكن قد اتصلنا فمن حقك أن تغضب.

وتأبط ذراعي من جديد.

- لم يتّصل بي أحد، ألا تصدّقني؟ حسناً دعنا من هذا الآن ولننزل فكنعان وكاتيا ينتظران في الأسفل.

لم يعترض على الأمر وأخذ ينزل متمهلاً وهو يمسك الدرابزين ويكمل حديثه:

- لا أظن أننا قد ننسى أمراً كهذا، لا بد وأننا اتصلنا بك، على كل حال سأتأكد من كنعان ما إن نصل.

وعندما وصلنا إلى الطابق الأول، أفلت ذراعه من يدي مرة أخرى.

- انتظر فقد تذكرت... لقد اتصلنا بك، فكاتيا هي التي طلبت منا

أن نتصل بك حينها، لقد تذكرت، كنا نتحدث عنك طوال الوقت لذا قالت لما لا نتصل به الآن، أقسم لك إن هذا ما حدث بالضبط... وبعد ذلك...

نظر إلي كمن يطلب مساعدتي لتذكّر ما حدث.

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

وبدأ رأسه يميل إلى الأمام، فخفت أن ينام وهو واقف، ولكنه رفع رأسه فجأة وسألني.

- أحقاً لم نتصل بك؟

- لم يتصل أحد بي، وإن لم تصدّقني فلنسأل كنعان حين نصل إلى الأسفل.

- حسناً فلنسأل كنعان، لا لا لن يتذكر، من الأفضل أن نسأل كاتيا.

- هل تظن أن كاتيا أفضل حالاً منه؟

- أنت مخطئ، إنها قوية، وقادرة على احتساء كميات هائلة من الشراب من دون أن تتأثر، هؤلاء الروس غريبو الأطوار حقاً - وبدأ يضحك قبل أن يتابع - قبل بضعة أيام كنا نتحدث وكنت أشتكي من حدة طباع ملك، ومن تذمّرها الذي لا ينتهي وافتعالها الشجار لأتفه الأسباب، وقلت بما معناه لو كانت جميلة بعض الشيء لهان الأمر عليّ قليلاً، لكنها أوردت مثلاً روسياً أعجبني، فقد قالت إنه ليس هناك من امرأة بشعة عندما تكون كمية شرابنا البارد كافية، مثلٌ جميل أليس كذلك؟

- أعتقد أنها قالت شيئاً آخر غير شرابنا، فكما تعلم الروس يشربون شيئاً آخر بكثرة وليس شرابنا.

- معك حق، أجل أظن أنها قالت شيئاً آخر، أقالت ذلك حقاً؟

وصلنا إلى مدخل البناء حيث كان كنعان وكاتيا بانتظارنا في الجهة المقابلة، وعلى الرغم من أننا تجاوزنا منتصف الليل، إلا أن شارع بالو كان لا يزال صاخباً، دون اعتبار للوقت. عشاق يسيرون متلاصقين، وآخرون لا يزالون محافظين على مسافة صغيرة يراوحون بين الصداقة والعشق مراوحة لم تنضج بعد لتتحول إلى احتضان، أشخاص يسيرون بمفردهم أو زمراً كحالنا نحن الأربعة، كانوا يسيرون في مختلف الاتجاهات تحت الأضواء الخافتة للطريق. وجدنا كنعان وكاتيا مستندين إلى حائط البنك المقابل للبناء ينتظران وصولنا. كان جميع الرجال المارين من هناك يتمهلون عندما يرون كاتيا، البعض كان يلقي نظرة إعجاب ويكمل سيره، فيما البعض كان ينظر إليها دون ارتواء ويتلفت خلفه عدة مرات ليشبع ناظريه. لكن صديقي لم

يلحظ ما يجري حوله فقد كان مستنداً إلى الحائط وهو ينهل من فم الزجاجة مباشرة، ولم يخطر له ما قد يحصل إن رآه أحد معارفه وهو بهذا المنظر المزري.

لم يكن حال كاتيا مختلفاً عن حال صديقها، فقد احتمت بحضنه دون أن تلاحظ ما يدور حولها، وهي تنتظر دورها في الحصول على الزجاجة والارتشاف منها، ولم يطل انتظارها فبعد رشفة طويلة مد لها كنعان الزجاجة، وبدأت ترشف منها. لم أستغرب هذا التصرف من صديقي لأنني أعرفه جيداً، ولكنني في المقابل لم أستسغ مجاراة امرأة جميلة مثل كاتيا لهذا التصرف وفي هذا الوقت المتأخر من الليل، إلا أن نهاد على ما يبدو لم يكن يشاركني هذا الرأي.

- لقد أفرغتما الزجاجة، على رسلكما اتركا لي شيئاً.

علّق نهاد، وقد اضطرت كاتيا إلى التخلي عن الزجاجة قبل أن ترتوي منها، وقدّمتها إلى نهاد وهي تبتسم كطفلة تشارك الآخرين لعبة خطرة وممنوعة، وقد تلقّفها نهاد على الفور وكأنها حرز عالي القيمة.

- أعتقد أنكم لا تنوون الوقوف بهذه الحالة المزرية هنا حتى الصباح أليس كذلك؟

لم أستطع كبح الاستياء الذي ألمّ بي.

حاول كنعان تمالك نفسه.

- لا بالطبع سنذهب... ولكننا كنا ننتظر مجيئكما.

كانت الأحرف تتعثر في خروجها من فمه.

- لقد أسرف نهاد في الشرب كثيراً - قلت له هامساً - ويفضل أن نوصله إلى البيت بسرعة.

توجّه كنعان نحو نهاد الذي ينهل من الزجاجة دون توقّف.

- هو هو... لا تحاول فنهاد لا ينوي أن يتركنا مطلقاً... لن يتركنا حتى وإن قضى نحبه الآن ثملاً..

- ما الحل؟

- دعنا نأخذه إلى الاستديو - نظر إلى ساعته - الساعة تجاوزت الواحدة، سننام هناك نحن أيضاً، ففي الصباح سنبدأ بالتصوير.

- وهل من مكان لتناموا فيه كلكم؟

- بالطبع، فالشقة واسعة ورحبة - سكت للحظات كمن تذكّر شيئاً، ومن ثم طوّقني بذراعه - أود احتضانك يا صديقي، فأنت رجل كريم حقاً، لو لم تعطني هذه الشقة لكنا تأخرنا في إنجاز العمل لمدة شهر

إضافي على الأقل.

- حسناً - أجبته وأنا أحاول التخلص منه - ماذا ستفعلون الآن؟

- كما قلت لك سنذهب إلى الاستديو. فهناك غرف للنوم، وحمام أيضاً. أظن أنك لم تشاهد الشقة بعد التعديلات التي أدخلناها عليها أليس كذلك؟

- لا.

- إذاً، فلنذهب سوية إلى هناك، لتتمكن من مشاهدة ما قمنا به من تعديلات.

- أفضّل الذهاب إلى المنزل، فقد بدأت أشعر بدوار بسيط.

- كلنا نشاركك هذا الشعور يا صديقي.. هل تظن أن حالتي أفضل من حالتك؟ كما أنك ستكون وحيداً في المنزل، تعال معنا فهناك متسع للجميع، كما أنه منزلك ولست بحاجة إلى من يدعوك إليه.

لا أدري لما راقت لي الفكرة أكثر من فكرة الذهاب إلى المنزل بمفردي وقررت مرافقتهم، قد تكون رغبتي في مشاهدة التحولات التي أدخلوها على المنزل وقد تكون الرغبة في عدم تركهم والبقاء وحيداً، وقد يكون مجرد تشويش ناتج عن تأثير الشراب. بدأنا نسير وقد أخذ كنعان زجاجة الشراب من نهاد، فيما تأبطت ذراعه من جديد.

- أين طارت زجاجتي.

حاول الاعتراض ساخطاً.

- لقد أنهيتها ولم تبقِ لنا قطرة واحدة أم أنك نسيت؟

تدخّلت كاتيا.

- أحقاً أنهيتها؟

ضحك بصخب، ولكنه تخلى عن ضحكته فجأة ونظر إليّ.

- سليم، عن أي شيء كنا سنسأل كاتيا؟

وقد انتابني الخوف أن يعود بي إلى الحديث السابق نفسه فحاولت التهرّب.

- لا أتذكّر، ألا ترى حالتي؟ هيا فلنكمل السير.

لم يعترض وأنا أجرّه جراً، ولكنه استمر في الثرثرة بشكل متواصل.

- أنت تثمل بسرعة يا صديقي.. بسرعة كبيرة... لكن لا عليك فسأتمكن من التذكّر...

هذه المرة كنا نسير في المقدمة فيما كاتيا وكنعان يسيران خلفنا، كنا نترنّح في سيرنا لكن الجيد في الأمر أننا لم نكن الوحيدين، فالثمالة كانت

تبدو واضحة على الكثير من الذين يسيرون حولنا، وبالتالي لم نكن لنلفت انتباه أحد ومع ذلك كان ينتابني شعور سيئ. كنت خائفاً أن يرانا أحد من معارفنا ونحن نسير مترنّحين على هذا النحو، وماذا لو شاهد أحد زجاجة الشراب وهي في يد كنعان. وبدأت ألوم نفسي لأنني وافقت على السير معهم ولم أذهب إلى منزلي بعد خروجنا من بركة، محض غباء. وفيما أحاول أن أساعد نهاد على التوازن لفت انتباهي رجل عجوز اختلط شعره الأشعث بلحيته لتشكّل كتلة واحدة. توقّف أمامنا بصورة ذليلة وهو يقول:

- أرجوك ساعدني، فأنا مفلس تماماً، ولن أخفيك القول برغبتي في احتساء كأس صغيرة، أكرمني ببعض النقود يا سيدي.

كان يستجدي النقود من أجل الشراب.

ولقد تعرفت عليه على الفور، فهو واحد من مجموعة من المشردين الذين يتجولون في أزقة بيه أوغلو وحاراتها. وليست المرة الأولى التي يستجدي مني النقود، ولكنني هذه المرة فرحت بلقائه، والتفت نحو كنعان وكاتيا الذين كنا نسبقهما ببضع خطوات، وأنا أقول:

- أعطني الزجاجة التي معك.

مدّ يده دون أن يعلم ما يحدث، وما أن رآها نهاد حتى حاول الحصول عليها، لكنني تداركت الأمر وأعطيت الزجاجة للعجوز بأسرع ما يمكن.

- أعطني الزجاجة.

كان نهاد يستجدي هو الآخر، لكن الزجاجة أصبحت الآن في يد لن تتخلى عنها مهما حدث.

- لماذا تركته يأخذها؟

سألني بحنق، وهو يبحث عن العجوز الذي اختفى مع زجاجته بلمح البصر، وغاص في ظلمة أزقة بيه أوغلو المتشعبة.

- يا إلهي - حاولت التغطية على ما حدث - أرأيتم كيف سحب هذا المتشرد الزجاجة من يدي وهرب بها؟

رفع كنعان يده بلا مبالاة، والسعادة تطفح من وجهه

- لا عليك، يبدو أنها كانت من نصيبه، سنشتري زجاجة غيرها لا تقلق.

ستشتري غيرها؟... أدركت أنني لن أستطيع السيطرة عليهم مهما حاولت، لذا قررت الابتعاد عن الشارع الرئيس قدر الإمكان تجنّباً للفضائح

والسخرية التي قد تطالنا لو رآنا أحد الآن والتوجه نحو شارع فرعي. كانت تفصلنا عن شارع أيهان إشك حوالي الخمسين متراً تقريباً، لكن لحسن الحظ فقد كان شارع هافا قريباً منا، وفيما كنت أجرّ نهاد باتجاه مدخل الشارع، كانت لديه مشاكل مختلفة.

- توقّف قليلاً، لقد تذكّرت ما الذي يجب أن أسأل كاتيا عنه.

وحاول التوقّف بانتظار كاتيا، لكنني لم أكن أنوي أن أتركه يفعل ما يشاء. واصلت جرّه خلفي وأنا أسأله حول ما يود معرفته من كاتيا.

- ما الذي تذكّرته؟

- كف عن جرّي وراءك بهذا الشكل - وقد سحب ذراعه للمرة التي لا أتذكر عددها، وبدأ ينظر إلي بحنق - اتركني، لما تجرّني هكذا، أستطيع السير بمفردي.

وما إن تخلص مني حتى بدأ بالترنح مجدداً.

- ستقع.

- دعني وشأني، لا يهمني إن وقعت أم لا.

يقال إننا نقع ضحية ما نخشاه عادة، لقد أدركت صدق هذه المقولة حين بدأ الناس يتجمعون حولنا معتقدين بأن شجاراً نشب بيني وبين نهاد، وبذلك فقد تضاعفت فرصة الفضيحة التي تنتظرنا مئات المرات، ولكن لحسن الحظ فقد هرعت كاتيا لمساعدتنا وتركت كنعان لتتأبط ذراع نهاد على الفور.

- هيا فلنكمل سيرنا، لماذا توقفت نهاد؟

- لم أتوقف.

نظر إليها حائراً ولم يستوعب ما جرى من حولنا.

- كنت أريد أن أسألك سؤالاً، ولكن ما هو؟...

- حسناً، ستخبرني ما هو ونحن نسير.

- قالت ذلك وبدأت تحاول السيطرة على خطوات صديقي المترنّحة قدر المستطاع، لقد كان نهاد محقاً، فلديها قدرة كبيرة على التحكّم بنفسها بالرغم من كل ما شربته.

أخيراً، يبدو أن نهاد تذكّر السؤال المشؤوم الذي كاد يتسبب لنا بفضيحة.

- هل تتذكرين عندما التقينا في منزل كنعان قبل بضعة أيام، وكنا نحتسي شرابنا المعتاد البارد حينها وقد حدثتك عن ملك، فأوردت شيئاً... مثلاً، أوردت مثلاً روسياً يقول إن ليس هناك من امرأة بشعة ما دامت

كمية الشراب البارد كافية.
- أعتقد أنني قلت شيئاً كهذا.
- كنت أود سؤالك عن هذا الأمر.
- لم أفهم، ما الذي تريد أن تسألني عنه؟
توقّف نهاد مجدداً، وقد أضاع سؤاله في تفاصيل الحديث مرة أخرى.
- أووف.. لقد التبس عليّ الأمر... لا عليك فلنكمل السير، سأتذكّره بعد قليل بجميع الأحوال.
وصلنا إلى مدخل الشارع الذي كنا نتوجه نحوه، حين توقف سائلاً:
- أين الشراب؟
- لقد أفرغت الزجاجة كلها يا أحمق.
ردّ كنعان.
- حقاً أنا؟
- أجل أنت، ولن تتذكر بالطبع، فقد شربت معظمها ولم تترك لنا شيئاً.
بدأ يضحك جذلاً فيما أكمل سيره مع كاتيا.
- أنتم لا تعرفون الطريقة الصحيحة لاحتساء الشراب، أما أنا فأعرف كيف أشرب وكيف استمتع، أتعلمون لما؟... ليس هناك من امرأة بشعة عندما تكون كمية الشراب البارد كافية.. أهو شرابنا البارد أم شراب آخر؟
وتوقّف للمرة الألف في منتصف الطريق، سحب ذراعه هذه المرة من يد كاتيا، وضرب كفيه ببعضهما منتصراً.
- لقد تذكرت.. لقد تذكرت. كاتيا عندما ذكرت المثل أمامي، مثل المرأة البشعة والمشروب الكافي، هل كان هذا المشروب هو الشراب الروسي أم شرابنا البارد؟
- كان الشراب الروسي بالطبع.
تطلّب فهم الجملة منه بعض اللحظات من الصمت والتوقف.
- حظٌ عاثر.
قال ذلك أخيراً، وقد بدا أن التعب تمكّن منه بصورة واضحة وكان يقف بصعوبة، إلا أنه تمكن من الاستدارة نحوي وهو يقول:
- لقد كانت تتحدث عن الشراب الروسي، كنت محقاً يا صديقي، يبدو أن الذاكرة تخونني كثيراً..
- لا عليك، فلا فرق بين شرابنا البارد والشراب الروسي، كلاهما

يقودنا إلى طريق واحد.

أكمل سيره مرة أخرى، وهو يدمدم آسفاً- يبدو أنني ثملت حقاً- عليّ أن أصل إلى البيت بأسرع ما يمكن، من أجل أن أنام.

أخيراً، سحبت نفساً عميقاً وشعرت بالأمان، فقد اعترف بحالته، وعدّل عن فكرة شراء زجاجة جديدة، لذا أسرعت إلى تأبط ذراعه مجدداً قبل أن يغيّر رأيه، وأكملنا سيرنا متمهّلين كعجوزين.

وصلنا إلى زاوية البناء، حين توقّف كنعان فجأة.

- هل تريدون شيئاً ما من المتجر، سأذهب لشراء زجاجة.

لم يعترض أحد على الفكرة، حتى أنا آثرت الصمت على الرغم من رغبتي الكبيرة في أن يتوقف الجميع عن الشرب، فقد كنت مدركاً أن ما من آذان صاغية لصوت العقل، كما أن العمل باكراً ينتظرهم ولا ينتظرني أنا، فليشربوا ما طاب لهم، لا شأن لي.

وصلنا إلى أمام المبنى الذي قضيت فيه معظم أيام طفولتي، لقد كنت أحس بأنه رابض هنا بجماله وقِدمه وكآبته منذ الأزل، متضعضعاً نوعاً ما، ولكنه ثابت بالرغم من ذلك. كانت رؤيته على الدوام تخلّف لدي مزيجاً غريباً من الإلفة والحزن، وعلى الرغم من كل الهرج الذي قمنا به طوال السهرة، إلا أنني ما إن وصلت إلى حضن منزلي القديم حتى تملّكني ذلك الإحساس بالحنين والخسران لشيء لا أدري كنهه، ولكنه كان كافياً ليملأ عينيّ بالدموع. وبدأت صورة والدي بوجهه العابس، ووالدتي التي هدّها المرض تعود لتحيا بوضوح في ذاكرتي. لحظات الألم والحزن التي عشتها في هذا البناء، كلها بدأت تحيا، وفيما كنت أحاول دفع أشباح الماضي بعيداً عن ذاكرتي جاءني صوت كاتيا لينقذني ويعيدني إلى أرض الواقع.

- لقد قمنا بتغيير قفل باب البناء - قالت ذلك وهي تخرج المفتاح من جيبها لفتح الباب - غيّرنا قفل الشقة وقفل باب المبنى أيضاً، ولم يبق سوى قفل القبو، ولكنه خال على كل حال.

خطر لي والدي على الفور، فقد كان متشدداً جداً بشأن أي تغيير صغير يدخل على البناء، ولم يكن مسموحاً تعديل أي شيء من دون موافقته، وبعد وفاته لم أوافق على العروض التي قدّمت لي بشأن هدم البناء وإنشاء بناء عصري مكانه، وذلك بناء على وصيته. الحياة والموت ترنيمة لا تتوقف عن تغيير العالم، كانت هذه الأفكار تعود بي إلى شبح والدي واللحظات التي كنت أحاول التهرب منها قبل قليل، ويبدو أن

وجهي كان يعكس هذا الانفعال الداخلي.

- لقد أعطينا نسخة للسيد حليم الذي يقوم بحراسة المستودع في الطابق العلوي - حاولت كاتيا أن تتدارك الأمر عندما شاهدت آثار الضيق على وجهي، ولكنها أخطأت في تفسير السبب الحقيقي.

- أحسنتم صنعاً.. لقد كانت الأقفال قديمة.

كان نهاد يراقبنا صامتاً بانتظار أن يفتح الباب وقد دخل قبلنا بعد أن تخلّص من يدي، بخطى مترنحة وهو يستند على الحائط، بت متأكداً من أنه سيتجه إلى النوم على الفور. حاولت مساعدته خوفاً من أن يقع، وتبعته حين اتجه نحو الشقة الكائنة في الطابق الأرضي، لم أرغب في أن أتركه قبل أن أراه مستلقياً على السرير، كنا نقف أمام باب الشقة بانتظار كاتيا التي تقدمت بخطى ثابتة لا توحي بأنها احتست أي قطرة شراب، وفتحت الباب بسهولة، لكنها وجدت بعض الصعوبة في العثور على أزرار الكهرباء.

- لم أعتد بعد على مكان هذه الأزرار - قالت ذلك فيما تتجول يدها على الجدار باحثة - لقد وجدتها - قالت ذلك فرحة، وأضيء المكان بنور ابتسامتها والكهرباء معاً. وما أن تمكنا من الرؤية حتى دخلنا ثلاثتنا المنزل على الفور، لاحظت أن جدرانه طليت باللون الأزرق الفاتح، وما إن دخلنا حتى صرخ نهاد مستنجداً - عليّ الذهاب إلى الحمام فوراً - واتجه دون تردد نحو الحمام التقليدي الواقع على جهة اليمين. لقد توقفنا عن استعمال ذلك الحمام منذ عقود طويلة وتحولنا إلى استخدام الآخر الذي تم تجديده بصورة عصرية، لذا فقد أوضحت له - ذلك الحمام غير صالح للاستعمال.

- نحن نستعمل الآن الحمام الصغير - قالت لي كاتيا - وقد حولنا الآخر إلى غرفة تحميض الصور.

وفيما نتحدث كان نهاد قد أغلق باب الحمام خلفه.

- لون جميل.

- قلت وأناً أشير إلى لون الجدران.

- هل أعجبك؟

- أجل أعجبني كثيراً، كما أن اللون الأزرق الباستيلي هو السائد هذا العام.

- لا تتضايق من كلامي ولكن في المرة الأولى التي دخلت فيها هذا البناء شعرت بكآبة خفية تطفو في الأجواء وتلفّ المكان كله، صحيح

أن البناء قديم كثيراً، ولكن يبدو أن المصمم قد حرص قدر استطاعته على جعل المكان أكثر عتمة، فالغرف واسعة جداً فيما النوافذ صغيرة بالمقابل.

- أوافقك الرأي، لكنني لا أعلم من الذي صمم البناء ويبدو جلياً بأنه لم يتقن العمل كما يجب.

- لم يبق سوى بناء أو اثنين في الجوار يشبهان هذا البناء، فيما تحولت البقية إلى أبنية عصرية ذات طراز حديث، لما لا تقوم بهدم البناء.

- في الحقيقة فكرت في الأمر من قبل، وعندما فاتحت والدي بذلك غضب كثيراً وثار في وجهي، متذرعاً بذكريات أمي المنتشرة في أرجاء المنزل، كان يعارض أي تغيير يدخل على البناء، وقد أوصاني ألا أهدم البناء مطلقاً. وبعد أن توفي والدي لم أرغب في الإخلال بوصيته، وتركت البناء على حاله، وللحقيقة فأنا أيضاً أحبه ولديّ هنا الكثير من الذكريات، لذا بت أستعمله كمستودع للشركة.

انتقلت كاتيا إلى سؤال آخر.

- أنت أيضاً درست في مدرسة داخلية؟

- أجل، ثلاثتنا كنا في المدرسة نفسها.

- على الرغم من أن منزلك قريب جداً من المدرسة.

- كانت أمي مريضة على الدوام، وأعتقد أن والدي حاول إبعادي عن هذا الجو الكئيب، في البداية كان الابتعاد عن البيت يشعرني بالوحدة والحزن، ولكن ما إن تعرفت على نهاد وكنعان حتى تحوّل الأمر إلى متعة رائعة.

- أعتقد أن والدك فعل الصواب، فالمنزل كئيب بشكل عام، وفي حال ترافق ذلك مع وجود مريض... - توقفت للحظات - أعتذر، فأنا أعلم أن المريضة هي والدتك، ولكن بالنسبة إلى الطفل..

- لا عليك، أعلم ما تعنين.

- أعتذر مرة أخرى على صراحتي ولكن المنزل مظلم بشكل كبير، وعلى الرغم من أنه أنسب مكان لتحويله إلى استديو تصوير، إلا أننا قررنا إضفاء بعض البهجة عليه، وقمنا بطلاء الجدران بألوان مختلفة ومشرقة. فجميع الألوان تدرجاتها فاتحة، تعال لأريك الصالون.

كان مطلياً باللون الوردي الفاتح، إلا أنني لا أميل إلى هذه الدرجة من اللون كثيراً، ولكن ما فاجأني حقاً هو التغيير الذي طرأ على الصالون بسقفه العالي - الذي تجاوزه الزمن - واتساع مساحته، حيث غابت ملامحه وتحوّل إلى استديو احترافي حقيقي، وقد تدلى من السقف بعض القضبان

الحديدية وسكة صغيرة متحركة معلّقة بهذه القضبان، أعتقد أنهم يستعملونها من أجل التصوير من فوق. وقد كانت هناك مظلتان كبيرتان - تستخدم في تخفيف حدة الضوء أثناء التصوير على ما يبدو - تنتصبان في المكان، كما كان هناك مسند ثلاثي القوائم من أجل وضع الكاميرا عليه في اللقطات الثابتة، على اليسار كانت هناك خزانتان حديديتان تحويان بقية معدات التصوير، وبجانب إحدى الخزانتين طاولة ملونة وضع عليها بعض العلب والمجلات والصور المختلفة. ولكن أكثر ما أثار حيرتي هو الجهة اليمنى من الصالون والتي تمّ تحويلها إلى غرفة منفصلة بدا لي شكلها مألوفاً، وما إن استدرت نحو كاتيا لأستوضح منها حتى لمحت صورة الأفعى التي التفت حول الشكل المتصالب، وهنا بدأت الصورة تكتمل في ذهني، لقد رأيت هذه اللوحة في منزل تلك الفتاة التي كانت جالسة في صالون منزلها ساندة ظهرها إلى المقعد المهلهل، وقد اخترقت سكين كبيرة صدرها، لقد تم تحويل هذه الزاوية من الصالون لتصبح نسخة قريبة جداً من منزل القتيلة، ولم يكن ينقص سوى وجود الفتاة ليكتمل المشهد، إلا أنها بدأت تستكمل حضورها في ذاكرتي المشوشة بتأثير الشراب، فاختلط عليّ الأمر وظننت أنني أراها جالسة أمامي بسكين في صدرها، وشعرت برعب كبير تحول إلى دوار مفاجئ فاضطررت إلى الانحناء والاستناد على ركبتي قليلاً حتى أستعيد توازني.

- هل أنت بخير؟

سألتني كاتيا.

- أجل بخير.

وقد زايلني الدوار بالسرعة التي جاء بها.

- لقد أبدعتم في تجهيز المكان- قلت فيما أحاول استجماع قواي- إنها نسخة مطابقة للغرفة الحقيقية في الصورة.

- إذاً، فأنت تتذكر الصورة، يبدو أن ذاكرتك قوية بالفعل.

- يصعب على المرء نسيان منظر مخيف كهذا.

سمعت صوت صفير خفيف فالتفت حولي مستغرباً فيما اتجهت كاتيا نحو الباب وهي تقول:

- لا بد وأنه كنعان.

كان الصفير صوت الجرس الجديد الذي تم تركيبه مؤخراً، وما أن أجلت ناظري مرة أخرى في أرجاء الاستديو حتى عاد إلي الدوار السابق، وإن كان بشكل أخف هذه المرة. يبدو أنني لم أكن أحسن حالاً من نهاد

الذي كنت أظنه الوحيد الذي أفرط في الشرب. أحسست بثقل الهواء من حولي، لذا اتجهت نحو النافذة وفتحتها، وبدأت أتنفس بعمق متمنياً أن تنعشني برودة المساء في الخارج وتجعلني أستعيد بعضاً من توازني. وبالفعل فقد شعرت بتحسن، أغمضت عيني وأنا أنوي البقاء هنا لأطول فترة ممكنة، لكن صوت كنعان القادم من خلفي لم يتح لي فرصة التمتع أكثر من ذلك.

- كيف وجدت الاستديو؟

- إنه رائع بالفعل، لقد استطاعت كاتيا تجسيد المكان الأصلي بشكل مذهل.

قلت ذلك وأنا ألتفت نحوه متوقعاً أن أرى كاتيا أيضاً، لكنها لم تكن هنا.

- أين كاتيا؟

سألته.

- إنها في المطبخ - أشار برأسه نحو الخلف - تجهّز المقبلات التي أحضرتها معي.. هل رأيت بقية الغرف؟

- لا لم أرها بعد.

- تعال معي لأريك ما الذي فعلناه.

على الرغم من الوهن الذي بدا يغزو جسدي والدوار الذي لم أتخلص منه بشكل نهائي، لم يكن لديّ مهرب أمام دعوة كنعان.

وفيما كنا نسير في الممر الطويل صادفنا نهاد الذي خرج من الحمام للتو. المسكين لم تكن لديه القدرة حتى على مبادلتنا الابتسام.

- لم أعد أستطيع الوقوف على قدمي لحظة أخرى، أرجوكم خذوني إلى مكان أنام فيه.

- تعال معي، تعال أيها الأحمق الكبير - قال ذلك بنبرة ودٍّ واضحة تجاه صديقه، وحاول الإمساك به من ذراعه ليقوده.

- أرجوك لا تجرني وراءك أنت أيضاً - اعترض نهاد وقد بدا التعب واضحاً عليه، يبدو أن مزحة كنعان لم ترق له كثيراً - لقد قام الجميع بجرّي خلفه اليوم منذ أن غادرنا المشرب، حسناً أنا بحالة يرثى لها، ولكنني لست مجنوناً، قل أين سأنام وسأذهب بمفردي لا داعي لأن يرافقني أحد.

لم ينزعج كنعان من حدته المفاجئة.

- حسناً كما تشاء.

سار كنعان في المقدمة ليدله على الغرفة فيما تبعه نهاد على مهل،

وبقيت بمفردي حائراً بين اللحاق بهما، أو إكمال جولتي في أرجاء المنزل. كانت الغرفة التي دخلناها مطلية بالأخضر الفاتح، وقد علّقت على النوافذ ستائر وردية اللون من لون الأريكتين اللتين تم وضعهما بشكل متقابل، فيما الخزانة الخشبية تستند إلى الحائط بينهما. لقد قامت كاتيا باختيار الألوان بدقة لتناسب كل غرفة وتضفي عليها رونقاً مميزاً. وفيما كنت أتفرّج على الغرفة، وأمدح ذوق الجميلة كاتيا في ذهني، كان كنعان يفتح الخزانة ليخرج بعض الشراشف والأغطية من أجل نهاد الذي لم يستطع الانتظار لحظة واحدة وخرّ على الأريكة القريبة من النافذة صريعاً، وغطّ في نوم عميق على الفور.

## (11)

بدأ نهاد بالشخير بعد ثوانٍ معدودة من استلقائه على الأريكة، وقد غطاه كنعان بإحدى البطانيات الصوفية التي أخرجها من الخزانة، خرجنا من الغرفة بعد أن تأكدنا من أنه بخير. قادني كنعان في البداية نحو الحمام الذي تم تحويله إلى غرفة للتحميض، وقد طليت جدرانه باللون الرمادي، وتم تثبيت رفّين على الحائط، من أجل وضع الصور عليها، وعلى الجانبين الآخرين كانت هناك مكبرتان معلقتان، إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة بعض الشيء، وفي الأسفل كان هناك حوض كبير كتلك الأحواض التي توضع في زرائب الحيوانات لتشرب منها الماء.

- دعني أشعل الضوء الخاص لتتمكن من رؤية المكان على حقيقته.

وما أن كبس على زر الكهرباء حتى غرق المكان في الظلام للحظة قصيرة، ومن ثم أُضيء المكان بلون أحمر كالدم، وبدأت تتوضح الأشياء من حولي مجدداً. ولكن ما أثار دهشتي هو أن المكان بكل محتوياته بما فيها نحن الاثنين قد اصطبغ بلون الدم، معدات التصوير، وجوهنا وعيوننا، الجدران وحوض الماء، كلها اكتست باللون الأحمر، لقد أحسست بأنني في أحد مشاهد أفلام الرعب، وبدأ الصمت يزيد من رهبة المشهد من حولي لذا سألت كنعان في محاولة لكسر الصمت والخوف المحيطين بي.

- ألا يضر هذا الضوء الأحمر بالصور؟

- إنه يناسب الصور غير الملونة، ولكن الصور الملونة تتأذى، فعندما يتم وضع الصور في حوض الماء يجب أن يكون الضوء شبه معدوم، في بعض الأحيان تتم إضاءة الغرفة بلون العنبري القاتم، ولكن الكثر لا يلحظون وجود هذا الضوء في الغرفة عندما يدخلون إليها أول الأمر.

- وما هذا الحوض الذي يشبه مشرب الزرائب؟

- مشرب الزرائب؟ - تساءل ضاحكاً - معك حق، لم يخطر لي هذا التشبيه من قبل، هنا نضع الصور في الماء أثناء عملية تحميضها.

- أليس كبيراً بعض الشيء.

- أجل، ولكننا مضطرون لتحميض الصور بالحجم الكبير من أجل المعرض.

وفيما كانت الأسئلة تتزاحم في رأسي سمعنا طرقاً خفيفاً على الباب.

- هل أستطيع الدخول؟

إنها كاتيا.

- أجل تفضلي.

خاطبها من الداخل ومن جديد ضغط على زر الكهرباء، وما أن عاد النور ليغمرنا التفت نحوي وهو يكمل مشيراً للحوض.

- كما قلت لك إنه للصور الكبيرة.

فُتح الباب قليلا وأطل وجه كاتيا الباسم علينا.

- الطاولة أصبحت جاهزة ولكن على أحدكما فتح الزجاجة.

يا إلهي زجاجة أخرى، ألا ينوي هذان النوم، يبدو أنهما سيظلان جالسين مع هذه الزجاجة إلى صباح الغد، وأنا لا أستطيع مجاراتهما في الأمر فعلي الاستيقاظ باكراً من أجل الذهاب إلى المشفى لرؤية بورج، والاطمئنان عليه. راودني الندم مجدداً وعدت إلى إغداق اللعنات على نفسي لأنني لم أذهب إلى منزلي بعد انتهاء السهرة، وأطعت هؤلاء المعربدين، لكن لا فائدة الآن من الندم بعد أوقعت نفسي في هذا المأزق، وبدأت أفكر في إيجاد طريقة ما تجعلني أتجه نحو الغرفة التي استسلم فيها صديقي نهاد لسلطان النوم، ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فمن غير المعقول أن أظهر رغبتي في النوم، بينما كنعان يحاول أن يشرح لي بحماس التغيّرات التي أدخلها على المنزل، وخاصة أننا لم نكن وحدنا، فكاتيا أيضاً كانت معنا في هذه الجولة الإجبارية.

لقد قامت بتحضير طاولة الطعام وهي تنتظر انتهائنا لنجلس جميعاً إلى المائدة. بعد غرفة التحميض شاهدنا غرفة أخرى تم تحويلها إلى مستودع صغير من أجل معدات التصوير وقطع الديكور الضرورية، كانت جدرانها مطلية باللون الأزرق الجليدي، هذا ما ارتأته الحسناء الروسية، ولكن ما لفت نظري في الغرفة هو الخزانة المفتوحة الباب، حيث علقت داخلها مختلف أنواع الثياب الرجالية والنسائية على حدّ سواء، وما أن أدرت رأسي حتى واجهتني مرآة هائلة الحجم تظهرنا نحن الثلاثة بالإضافة إلى جزء من الخزانة، وأمام المرآة وضعت طاولة، وقد ارتصفت على هذه الطاولة مختلف مساحيق التجميل، من علب البودرة وحمرة الخدود إلى الماسكرا على اختلاف أنواعها، أقلام الحمرة بجميع الألوان وأقلام الكحل، بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من الأمشاط وفراشي الشعر، وعلب العطور، أي أنها كانت تشكيلة واسعة من مختلف مستلزمات التجميل، ولكن رأس المرأة البلاستيكي الموضوع على الطاولة، والذي وضعت عليه باروكات شعر بمختلف الألوان، بنظراتها الخاوية المتجهة نحو الفراغ زادني ضيقاً.

- إنها أشبه بغرف الممثلين في المسارح الكبيرة.

- النتائج الجيدة تتطلب عملاً جيداً يا صديقي.

أجابني كنعان بغرور واضح لم يحرص على إخفائه أبداً. في الحقيقة أنا أوفقه في هذا الرأي، فعندما تحب عملاً ما تبذل فيه قدر استطاعتك لتحصل على نتائج مرضية.

بعد خروجنا من غرفة التجميل هذه توجهنا نحو غرفة أخرى، كانت أكثر غرف المنزل اتساعاً، وإن لم تكن تضاهي الصالون لكنها كانت واسعة على نحو كبير، وقد تم تحويل هذه الغرفة إلى غرفة للجلوس، وتم طلي جدرانها بلون ذهبي، وكما في الغرفة التي نام فيها نهاد، فقد وضعت أريكتان كبيرتان بشكل متقابل، وبلون أصفر ومقعدان آخران من اللون نفسه، وبين الأريكتين الكبيرتين كانت توجد طاولة قوائمها الطويلة مصنوعة من خشب أسود اللون، فيما السطح عبارة عن لوح زجاجي. كانت الزجاجة التي لم تفتح بعد، وإبريق الماء مع ثلاث كؤوس زجاجية شفافة للماء وثلاثة من الكريستال البراق للشراب تتموضع عليها، بالإضافة إلى صحن من الجبنة وآخر من الزيتون الأخضر، لقد جهزت كاتيا هذه المقبلات البسيطة بانتظار الحفلة التي ينوي صديقاي البدء بها تواً، وعلى الرغم من معرفتي بأن كلامي لن يغيّر شيئاً لكنني حاولت الاعتراض.

- ما رأيكما بأن نتوقف عن الشرب؟

- إنها مجرد زجاجة واحدة يا صديقي، ستكفي لملء كأسين لكل منا لا أكثر.

أجاب كنعان.

- أنا أيضاً لم أكن راغبة في احتساء المزيد، ولكن كنعان قد أحضر الزجاجة، كما أنها من النوع الأحمر... أضافت كاتيا.

استسلمت للأمر بعد إصرار كاتيا، وجلست على الأريكة، لكنني لم أتمالك نفسي من التعليق.

- ألم تخبرني بأن لديكما جلسة تصوير في الصباح الباكر، كيف ستتمكنان من العمل بعد شرب كل هذا؟

- أنت بهذا تقلّل من شأني يا صديقي - رد كنعان وهو يجلس على المقعد المواجه لي - أهي المرة الأولى التي نفرط فيها؟ ألا تذكر سهراتي التي كانت تمتد حتى الصباح، حيث كنت أستحم على الفور وأذهب لحضور اجتماع مهم من اجتماعات العمل، وأجزم بأنك كنت نديمي في الكثير منها.

كان صوته يتراوح بين الجد والهزل، ولكنني بهذا الفكر الغائم لم

أستطع التمييز، لذا اخترت الاحتمال الأول وأجبته بجدية بدوري:

- ولكن لا أعتقد أن جلوسي معكما الآن سيشكل فارقاً.

- ما الذي أصابك فجأة؟ ألم تقل لي في بداية لقائنا أنك لا تنوي الذهاب إلى العمل في الغد، لهذا أردت أن نسهر معاً حتى وقت متأخر.

توجهت إلى كاتيا التي جلست إلى جانب كنعان، وقد أعياني صديقي بلا مبالاته اتجاه مشكلتي، وحاولت طلب العون منها.

- أصدقيني القول، أيهما أفضل برأيك العمل بذهن صاح، أم بذهن مشوّش؟

- طبعاً بذهن صاحٍ.

أجابت كاتيا، وقد حاول كنعان الاعتراض لكنها لم تعطه الفرصة وأكملت - لكننا لن نقوم بالكثير من العمل غداً، أنه مجرد خطوة أولى على هذا الطريق... فالمشروع يتطلب حوالي الشهرين حتى يتم إنجازه بالكامل، وغداً سنخطو خطوتنا الأولى، ولا ضير أن يكون ذهننا غائماً بعض الشيء في اليوم الأول، كما أنني لم أفرط مثلكم، لذا لا تقلق عليّ، سأنهض غداً بذهن صاف، ولن أجعل الأمور تخرج عن نطاق سيطرتي.

الآن أدرك السبب الحقيقي وراء بقائها طيلة الوقت متوازنة على عكسنا نحن الثلاثة، كما أنني عندما اجتمعت بهم في بركة أوضحت بأنها لا تنوي الإفراط في الشراب. لقد نسيت هذه الملاحظة في غمار بقية الأحداث والأحاديث التي خضناها الليلة، وعلى عكس توقعات نهاد، فكاتيا لم تكن امرأة معتادة على الشراب، بل كانت امرأة متزنة.

مدت يدها وتناولت الزجاجة وهي تنظر إلينا متسائلة.

- حسناً من سيتطوع لفتحها؟

أومأ كنعان برأسه نحوي، وقد زيلته الرغبة في إتمام الحديث.

- سليم هو أكثرنا قوة، فليفتحها.

مدت كاتيا الزجاجة نحوي، ولم يكن من اللائق رفض الأمر، فتناولت الزجاجة منها مستسلماً، وأخذت المفتاح المعدني الموضوع على الطاولة أمامنا، وبدأت بفتح الزجاجة وإخراج الفلين.

- طالما أنك فتحت الزجاجة، ستكون الساقي أيضاً.

خاطبني كنعان وهو يمد الكأس نحوي.

لم أحاول التملص من المهمة بل على العكس، بدأت بملء الكؤوس بالسائل حتى النهاية، ومن ثم أدرت الزجاجة بهدوء حتى لا تنسكب منها قطرة.

- أووو... ما هذه الحرفية - علّقت كاتيا بإعجاب - ملأت الكأس دون أن تندلق قطرة واحدة.

- الفضل يعود لوالدي. فقد كان لديه قوانين صارمة فيما يتعلق بهذا الأمر، فعند ملء الكأس يجب أن ينتبه المرء وأن يعيد الزجاجة نظيفة ولا يسمح لقطرات الشراب أن تلوث الطاولة أو أطراف الكأس.

- رائع.

علّقت فيما لاحت نظرة غريبة في عينيها، لم أستطع أن أحدد فيما إذا كانت إعجاباً أم مجرد دهشة، وقد اختفت تلك النظرة على الفور حين انتقلت إلى سؤالي مرة أخرى.

- هل كان والدك مفرطاً في الشرب؟

- لا أبداً، فقط في المناسبات الخاصة.

- وهل تعتبر هذا شرباً؟

- بالطبع، كان والدي يشرب ولكن ليس مثلي، كان يخشى كثيراً أن يفقد وعيه، فقد كان يقول باستمرار على الإنسان أن يظل حذراً وواعياً، فلا أحد يعلم ما تخبئه الأيام. أعتقد أنني أشبهه كثيراً من هذه الناحية، فلا أذكر أنني أثقلت في الشرب لدرجة تفقدني الوعي مطلقاً.

أعطى كنعان الكأس الذي ملأتها لكاتيا، فيما هو يناقشني في الأمر.

- أوافقك الرأي في هذه النقطة بالذات، فأنت تشبه العم علي رضا رحمه الله في كل شيء يا صديقي - تناول الكأس الثانية من على الطاولة وهو يخاطب كاتيا هذه المرة - لم يصدف أن رأيته يفقد وعيه سواء أكان صاحياً أم ثملاً، فسليم هو أكثر اتزاناً على الدوام. فحتى عندما كنا صغاراً كان يعرف كيف يجد وسيلة تخلّصنا من المتاعب التي كنا نقع فيها في كثير من الأحيان.

- كفّ عن الثرثرة وأعطني كأسك.

حقيقة كان يروقني مديحه لي، وقد أكمل حديثه دون أن يصغي لتوبيخي.

- أتنكر أنك تظل محافظاً على توازنك حتى في أصعب الظروف؟

- تعني أنه شخص قاسٍ وبارد.

- على العكس تماماً، بل يمكن أن تعتبريه شخصاً لطيفاً لكن عذره الوحيد أنه يبقى جاداً على الدوام، لو تمكّن من التخلص من هذه الخصلة... - سكت للحظات وأخذ الكأس التي ملأتها للتو - لا تغضب مني يا صديقي، ولكنني في الكثير من الأحيان أعجز عن فهمك، ما الفائدة من

إصرارك على الالتزام بكل هذه الجدية والعقلانية في مواجهة حياة أكثر ما يقال عنها أنها مليئة بالسخافات ولا تستحق كل هذا العناء؟

ملأت الكأس الثالثة، وارتسمت على وجهي ابتسامة توحي بمدى ثقتي بنفسي، وضعت الزجاجة على الطاولة وأجبته بهدوء ورصانة.

- بوجود مجنونين كنهاد وكنعان في حياتي فأنا مضطر للتمسك بحبائل العقل قدر الإمكان.

- أسمعتِ؟ - قال بنبرة يمتزج فيها الغضب بالمزاح - أسمعتِ ما قاله، لقد نعتنا بالجنون صراحةً... - وبدأ يدمدم كمن لا يصدق - لقد نعتنا بالجنون حقاً - ضحك قليلاً ثم رفع رأسه وكأسه في آن - كما تشاء، نحن أكبر مجنونين في حياتك... فلنشرب نخب الجنون إذاً.

وقد أطعنا رغبته.

- ليس الشراب بجودة الذي احتسيناه في بركة، ولكنه ليس سيئاً بالمقابل.

قالت كاتيا ذلك بعد أن ارتشفت رشفة صغيرة من كأسها، كانت مصرة على ألا تفرط في الشرب اليوم.

- أجل - أجابها كنعان وهو يحيط كتفها بذراعه دون حرج من وجودي - لقد كان رائعاً.

لم يبدُ على كاتيا أنها تضايقت من حركة صديقي على الإطلاق، بل على العكس تماماً، فقد مالت بجسدها الجميل نحو كنعان، الذي ظلت عبارتي السابقة معلّقة بذهنه وقد حدّق بي وهو يقول:

- إذاً فنحن مجنونان، أهذا ما ترانا عليه مجرد مجنونين؟

كان من الواضح أن الثمالة بدأت ترخي بظلالها على ذهنه مرة أخرى، لذا لم أكلّف نفسي عناء الرد على ترّهاته والتفت نحو كاتيا.

- يقال إن كل فنان فيه خيط رفيع من الجنون، وطالما أن معظم عملك معهما فهل أنت مقتنعة بهذه المقولة؟

- مجنونان؟ بل قل إنهم أحمقان أيضاً...

تدخّل كنعان دون أن يهمل كاتيا فرصة الجواب، وقد بدا ينحى بالحديث نحو الهزل. سحب يده من على كتفها وصالبهما على صدره، ولكن كاتيا لم تبالِ لا بكلامه ولا بحركته تلك.

- أعتقد أنها مبالغة كبيرة، لكن الطريف أن الفنانين لا يشتكون من هذا الوصف مطلقاً.

- تقصدين مثل صديقنا؟

بدأ كنعان يتململ متذمراً، ولكن كاتيا جارتني في مناكفته.

- أجل مثل كنعان، ولكنني لا أستغرب الأمر فهما يرغبان في أن يكونا أقرب إلى جوهر الأمور بعيداً عن الزيف والمظاهر.

- أجل، ولكنني أظن أن المهم ليس كيف تحيا حياتك الشخصية بل ما تخلقه من فن - أجبت.

بادلتني نظرة متواطئة من عينيها الجميلتين وهي تقول:

- الحق معك، الفكرة تكمن في الفن الذي يبدعونه، ولكن هناك الكثير من الفنانين يعتقدون أن الحياة الخارجة عن المألوف هي السبيل لخلق فن حقيقي ومميز.

- ليس صحيحاً.

- ولكن هناك الكثير من الفنانين الذين يعيشون حياة غريبة الأطوار.

- وهناك الكثير على النقيض تماماً.

- بالطبع يجب ألا نعمّم وجهة النظر هذه على الجميع، وأنا أعتقد بأن الجنون وغرابة الأطوار ليسا هما ما يميّزا الفنان بقدر ما تميّزه حكمته وثقافته.

- حكمته؟

كان هذا السؤال القصير هو تعليق كنعان على حديثنا الذي لم يأخذه على محمل الجد.

- أجل، فالفن الحقيقي هو مزيج من الفلسفة والشعر.

- هذا يعني أن كل ما قمت به هو مجرد هراء، فأنا والشعر نقيضان لا يجتمعان مطلقاً.

قال ذلك وضرب على رأسه متصنعاً الصدمة، فيما يده الأخرى تتجوّل بسعادة على ركبة كاتيا، التي دفعت يده وهي تقول له ممازحة:

- إذاً فلن أعمل معك من الآن فصاعداً، فرجل لا يحب الشعر، هو رجل لم يكتمل نموه الذهني والعاطفي بالنسبة إليّ.

- ارحميني أرجوك - قال ذلك مازحاً - أرجوك ساعديني، ساعديني لأتمكن من الاهتمام بالشعر علَّ نموّي العاطفي يكتمل حينها. امنحيني فرصة أخرى.

- ألا تستطيع أن تكون جدياً ولو للحظة واحدة - تدخّلتُ معنّفاً

- كف عن السخرية ودعنا نكمل حديثنا فأنا حقاً راغب في فهم الأمر على حقيقته.

- حسناً حسناً سأتوقّف.
- كنت تتحدثين عن الحكمة.

توجهت بكلامي نحو كاتيا.

- أجل فالفنان يجب أن يكون شخصاً يتّسم الحكمة - أجابتني بجدية تامة - الحكمة هي احتواء لكل الحالات البشرية، إنها مرحلة أشمل وأكثر تطوراً من الوعي والجنون، إنها قمة ما يمكن أن نصل إليه.

كانت تتحدث بوعي تام دون أن يظهر عليها أثر للشرب مطلقاً، ومع تدفّق حديثها بدأت أحس أنني أسترد وعيي شيئاً فشيئاً وتزايلني الثمالة.

- تعنين أولئك الذين يعتبرون الحياة مزيجاً متآلفاً من جميع الحالات أليس كذلك؟
- ليست الأفكار التي يعتقدون بها هي ما يهمني بقدر طريقة عيشهم وتطبيقهم لها وعلاقتهم مع مختلف مكونات الحياة ومراحلها، كما أن وجهات نظر الفنان ومعتقداته والطريقة التي يعيش بها ستنعكس بصورة لا إرادية على أعماله ولوحاته.
- فهمت ما تعنين.

أجبتها.

- ما الأمر، هل قررت أنت أيضاً أن تصبح فناناً؟

علّق كنعان وهو يحاول العودة إلى السخرية مرة أخرى.

- كن مطمئناً فلا رغبة لي مطلقاً أن أتجه نحو الفن وأنافسك. ولكن باعتقادي أنك أكثرنا حاجة إلى حوار من هذا النوع، وسأسديك نصيحة، عليك الجلوس لساعات طويلة مع هذه المرأة لتتمكن من فهم الحياة والفن بصورة أفضل. هذا ما أنت بحاجة إليه حقاً.
- لا تقلق فنحن نتناقش في هذه المواضيع دائماً، وليست هذه المرة الأولى التي نتكلم فيها عن الفن بهذه الطريقة - وبدا كأن السخرية فارقته وبدأ يصطنع الجدية، وقد غمز حبيبته ممازحاً قبل أن يكمل - وبعد أن أنهي المشروع سأسافر إلى التيبت وأظل هناك خمس سنوات، أريد أن أقضي الوقت مع البوذيين، وأتلقى على أيديهم الحكمة الحقيقية وأكتسب السكينة.
- أتسخر مني - أبعدت كأسي من أمامي - ستذهب إلى التيبت؟ بدل أن تقضي خمس سنوات في تلك الأماكن القصيّة وتتكبّد كل تلك المشقات، حاول أن تتعلّم الحكمة من المرأة الجالسة إلى جوارك واسمع ما تقوله لك.

كان ينظر إليها بشغف واضح وهو يقول:

- أنا أستمتع بسماع صوتها طوال الوقت.

كانت هذه الجملة تختصر كل اعترافات الحب والرغبة التي يشعر بها عاشق تجاه محبوبته، وقد بادلته كاتيا أعذب ابتسامة لديها، كانا يتبادلان النظرات وقد أبحر بهما الحب إلى عالم آخر، وساد الهدوء لبضع لحظات جعلتني أشعر أنهما نسيا وجودي هنا. في البداية استغربت، وشعرت ببعض الحرج، ولكن الغيرة ما لبثت أن انسلت إلى قلبي، تاركة في فمي طعماً مراً وفي ذهني أفكاراً سوداء وقاتمة. ولم أعلم ما عليّ فعله فعدت أدراجي إلى كأسي، أغمضت عينيّ واحتسيت ما تبقّى فيه دفعة واحدة. ولكي أتجنب النظر إليهما، أخذت الزجاجة لأملأ كأسي من جديد وقد انتابني حنق شديد لا أدري إن كان على نفسي أم على صديقي.

أعادني صوت كنعان إلى الواقع مرة أخرى وهو يقول مازحاً:

- انظري إلى هذا، ألم تقل بأنك لا تحبّذ الإفراط في الشرب، ما الذي حصل، أعتقد أن كل من يدّعي إنكار شيء هو أكثر الناس تمسّكاً به.

رمقتني كاتيا بعينيها الناعستين للحظات معيّنة، وكأن كلمات كنعان أعادتها أيضاً إلى الواقع، ولكنها لم تعلّق بشيء، وكذلك أنا بقيت صامتاً فما الذي يمكن قوله في موقف كهذا، هل أخبره بأن نظراتهما العاشقة التي أثارت الغيرة في قلبي هي السبب، أم أن الحرج من وجودي مع عاشقين مثلهما؟

ولكن كان عليّ أن أجد مبرراً يخرجني من هذا المأزق.

- في الحقيقة، أردت أن ننتهي من هذه الزجاجة بسرعة حتى نتمكن من الذهاب إلى النوم.

- ألهذه الدرجة شعرت بالملل من الجلوس معنا؟

كانت كاتيا هي من تعاتبني هذه المرة.

لقد كانت بريئة ونقية لدرجة أنها لم تلحظ أبداً الحرب الدائرة داخلي، والذي أشعلت فتيله بنظراتها، وأخذت ألوم نفسي لأن روحي الشقية لا تعرف الراحة مطلقاً.

- بالطبع لا، على العكس تماماً، ولكن علي النهوض باكراً من أجل الذهاب إلى المشفى كما تعلمين...

أحست بالخجل من ملاحظتها السابقة ونسيان ما ألمّ بابني.

- لم يخطر لي الأمر، إذاً إن شئت...

لكن كنعان لم يمهل كاتيا فرصة إتمام كلامها وتدخّل معترضاً الفكرة.

- لن يشاء شيئاً، سنظل معاً حتى ننهي الزجاجة كما اتفقنا منذ البداية، وبعد ذلك سنخلد جميعاً إلى النوم.

بعيداً عن كل مشاعر الغيرة التي انتابتني، لن أمنع نفسي من الاعتراف بأن صديقي أكبر أحمق. لما يصر على بقائي معهما وإلى جانبه تجلس امرأة من أجمل نساء الأرض، أحقاً هو غبي إلى هذا الحدّ. لم أصارحه برأيي هذا، ولكنني بالمقابل لم أتمكن من إخفاء التعبير الذي ارتسم على وجهي بوضوح والذي أدرك صديقي مغزاه على ما يبدو.

- لما تنظر إليّ هكذا وكأنك تنظر إلى شخص معتوه.

أردت أن أقول له وهل تنكر أنك معتوه.

- أنت تتوهم أشياء لا وجود لها، هات كأسك لأملأها.

نظر إلى الكأس للحظات وهو متفاجئ نوعاً ما.

- حقاً إنها فارغة، ولكن منذ متى؟

ومدّ لي الكأس الفارغة، فيما اكتفت كاتيا التي لم تنه كأسها الأول بعد بمراقبتنا.

- حسناً، نخب الصداقة.

قال ذلك وهو يرفع كأسه.

- نخب الصداقة.

احتسيت نصف الكأس دفعة واحدة، وبدأت أشعر بأن الدوار قد تمكّن مني هذه المرة بصورة أقوى من ذي قبل، لذا بدأت أردد لنفسي بأنني يجب أن أكف عن الشرب.

- فكرة جنون الفنانين هذه تثير حيرتي أنا أيضاً في الكثير من الأحيان - أعاد كنعان طرح الفكرة السابقة، وظننت أنه يفعل ذلك من باب السخرية مجدداً، ولكن يبدو أنه يتكلم بجدية كبيرة هذه المرة - وبغض النظر على التميز والفرادة التي يتّسم بها بعض الفنانين، إلا أن الوسط الفني بمعظمه يفيض بالكثير من المدعين الذين يحاولون فعل المستحيل من أجل لفت الأنظار إليهم دون وجود موهبة حقيقية. تجدهم بثياب غريبة وتسريحات شعر مريخيّة الشكل، وبالمقابل لن تجد في كل تاريخهم المهني عملاً واحداً يضعهم في مصاف الفنانين، ورغم ذلك فإن الغرور الذي يتّسمون به يجعلك تحس بالاشمئزاز منهم - وضع يده على فخذ المرأة وهو يسألها - أتذكرين اسم ذلك المخرج المدّعي الذين التقينا به قبل أيام يا عزيزتي؟

قطبت حاجبيها في محاولة للتذكّر ولكن يبدو أنها لم تنجح.

- ذلك الذي غرز أقراطاً معدنية في حاجبيه، ذلك الصلف الذي لا يميّز المرء حقيقته، أهو ذكر أم أنثى أم شيء حائر بينهما...

هكذا تحدّث عن صديق حبيبته.بدا واضحاً وهي تستمع إليه أنها لم تستسغ كلماته.

- هل تقصد تومر بكلامك؟

- أجل أجل هو، اسمه تومر؟

- لا تتحدث عنه بهذه الطريقة، فتومر ليس شخصاً سيئاً.

- وأنا لم أقل بأنه شخص سيئ. ولكن على الرغم من أنه لم يقم سوى بإخراج عمل واحد، ما إن يتكلم حتى يطال عالم السينما بكل من فيه وما فيه بالذم والشتائم، من مخرجين وممثلين وفنيين... لم أسمع منه كلمة مدح واحدة بحق أي شخص من الوسط الفني، فهو يعتبرهم جميعاً فاشلين لا يمتلكون الموهبة، ويقلّدون الغرب، وبالمناسبة هو ليس شاباً في مقتبل العمر بل هو في عداد الكهول، وهنا تكمن المفارقة، فخلال كل هذه السنين لم يقم بإنتاج عمل يدل على موهبته التي يتبجح بها، ومع ذلك لا يجد ضيراً في تحقير الآخرين وتقزيم مواهبهم. ويتذرع بألف عذر ليغطي على فشله، فتارة يدّعي أن دور السينما لدينا لا تكفي وهي غير مجهزة بشكل جيد، وأن ثقافة السينما معدومة لدينا، وتارة يقول إن فنانينا لا يملكون القدر الكافي من الجرأة والجنون...

- أعتقد بأنك تبالغ قليلاً يا عزيزي، فتومر هو أحد القلائل الذين لديهم رؤية حقيقية لفن السينما في تركيا، وقد درس الإخراج في بريطانيا، وعمل مخرجاً مساعداً مع العديد من المخرجين المبدعين هنا، ولديه ثقافة فنية لا يستهان بها. ولكن المشكلة أنه لا يعرف ما الذي يريده من السينما، وأعتقد بأنه يمكن أن يكون ناقداً فنياً ناجحاً ومهماً. إلا أنه يريد أن يعمل في الإخراج وهذا ليس بالعمل السهل طبعاً.

- لو رأيت الثياب التي كان يرتديها - كان كنعان يخاطبني - كان يضع قبعة رعاة البقر على رأسه، والسيجار معلّق بين أسنانه.. وينتعل جزمة طويلة، لما تضحك؟ صدّقني هذا ما كان يرتديه، وكانت تعابير الغرور والصلف التي تعلو وجهه توحي بأن هذا الكون كله قد خلق من أجله. لقد انتابتني رغبة شديدة في سحله وضربه حتى الإنهاك.

- ولما تريد ضرب الرجل - كان الغضب واضحاً في صوته وبدا أنه انزعج - هل على الجميع أن يكونوا مثلك لتحبّهم؟

أحسست بأن الأمور يمكن أن تتطور نحو الأسوأ، خاصة مع كل هذا الشرب، لذا حاولت التدخل كي أمنع المشكلة قبل أن تبدأ، ولكن كنعان كان قد بدأ الجولة الأولى.

- لم أقل بأنّ على الجميع أن يكونوا مثلي، ولكن إن كان البعض يظن أن هذه الثياب الغريبة، والتطرف في المظهر، والإسراف في نقد الآخرين وتحجيم مواهبهم سيجعل منه فناناً فهو واهم - والتفت نحوي - ألست محقاً فيما أقول؟

حاولت عدم تفويت هذه الفرصة من أجل تهدئة روعهما.

- أنا أيضاً لا أستلطف هذه النماذج، ولكنكم بالمقابل تتعاملون مع الوسط الفني، أعني أن الفن بحدّ ذاته وفي كثير من الأحيان هو عبارة عن جموح في الخيال وغرابة تفصلك عن الواقع الاعتيادي... أتفق معك أن هناك الكثير من المدّعين والمتصنّعين في هذا الوسط، ولكن هناك أيضاً الكثير من المميزين الذي تضفي غرابة أطوارهم سحراً خاصاً على كل ما ينتجونه من أعمال. وطالما أن هناك فناً حقيقياً وجميلاً يقدّمه لنا الشخص، فلا داعي للتوقف كثيراً عند شكله ومظهره الخارجي.

اتخذت نظراته استياء واضحاً، فلم يرق له أن أقف إلى جانب كاتيا وأفنّد رأيه، لكن كاتيا لم يهن عليها أن تراه منزعجاً على هذا النحو، فنظرت إليه بحنان واضح، ومع ذلك ظلت متمسكة برأيها وإن حاولت طرح الأمر بلطف هذه المرة.

- سليم معه حق فيما يقوله، ألا ترى هذا المشروع الجنوني الذي نزمع العمل عليه، إنه أكثر...

- عدنا إلى الموضوع نفسه، علّق كنعان بضيق.

- لِمَ ترفض نقاش الفكرة، برأيك هل ما نقوم به هو فكرة عادية مثلاً؟

- بالطبع فكرة عادية، فالناس يمارسون فن التصوير الضوئي منذ أكثر من مئتي عام.

- ولكنهم يصورون المواقف واللحظات السعيدة والجميلة في الحياة لتخليدها. وما من أحد سيرغب في تصوير لحظة ألم أو حزن مرّ بها، فالناس تريد أن تنسى هذه اللحظات وأن تبعدها عن ذاكرتها عادة. برأيك هل الشخص الذي يرغب في إعادة تجسيد جرائم القتل بكل وحشيتها وفظاعتها، وتصوير هذه المشاهد من أجل معرض فني هو شخص عادي بعيد عن الجنون؟

لم يجد كنعان حجة منطقية يدافع بها عن نفسه لذا بادر إلى الهجوم.

- ما الذي تقصدينه من هذا القول - سألها غاضباً وقد ارتفع صوته رغماً عنه - أتعنين بأنني مجنون؟

لكن كاتيا قابلته بنظرة هادئة من عينيها اللتين توحي لي زرقتهما بأن آلاف الأمواج تتراقص هناك ولا أستطيع الاقتراب منها.

- ليس هذا ما كنت أعنيه بالطبع، كل ما أحاول قوله لك أن جميع الفنانين يتصرفون بغرابة وجنون أحياناً، سواء في شكلهم أو في أفكارهم.

- ما أقوم به ليس جنوناً، إنه شيء مختلف تماماً.

- هذه الحجة قد يستخدمها كل الذين كنت تدينهم قبل قليل، فهم أيضاً يعتقدون أن ما يقومون به شيء مختلف عن الجنون، والحق معهم في ذلك، فالفن هو شرعنة الجنون.

نظر إليها والغضب لم يغادره بعد فخشيت أن يعاود الشجار، وأن يطول هذه النقاش العقيم إلى ما لا نهاية، ولكنه طأطأ رأسه بصمت ورفع الكأس ليحتسي منه ببطء. في الحقيقة، كنعان ليس من أولئك الأشخاص الذين يغضبون بسهولة، ولكن هذا المعرض قد حوّله إلى شخص متوتر وقلق بشكل ملحوظ. وضع كأسه على الطاولة وقال دون أن يكلّف نفسه عناء النظر إلينا بنبرة تحدٍّ واضحة.

- أنا لست مجنوناً... أنا مجرد مصوّر يريد أن يتقن عمله وأن يقدّم شيئاً مميزاً.

وواصل الشرب عله يخفف من حدة غضبه قليلاً، واستمرت كاتيا في محاولة إقناعه بكل هدوء وروية.

- مهما حاولت أن تنكر الأمر فكل من يعمل في الفن تخالطه لوثة من الجنون والغرابة.

- لست مجنوناً على الإطلاق، ولست أشبه ذلك الأحمق الصلف تومر في أي شيء. ولو فكرتما في الأمر قليلاً لن تجدا أي غرابة في العمل الذي أقوم به - توقّف للحظات وهو يحدّق إلينا بعينيه التي يتطاير منهما الشرر - أنا واثق مما أقول، ففكرة المعرض هي فكرة عادية جداً، وليست جنونية أبداً كما ترجيان. أعترف أنني أبحث بطريقة أو أخرى عن الخلود ولكن الفكرة في حدّ ذاتها مألوفة جداً ومتجذرة في عقول الفنانين منذ الأزل. وجميع الفنانين دون استثناء يمتلكون هذه النزعة حتى لو

أنكروا بعضهم. وكلما استطاع العمل الفني الحفاظ على قيمته عبر الزمن، كلما دل ذلك على تميز الموهبة وفرادتها. وكلما تحدّث الناس عن اسم الفنان كلما استمر خلوده أكثر، أم أنني مخطأ؟

- لحظة لو سمحتما، نحن نتبادل وجهات النظر في موضوع يتعلق بالفن والإبداع، فما من داع أن نحتد وأن نرفع أصواتنا.

تدخّلت لأضع حداً لهذا النقاش البيزنطي الذي كاد أن يتحول إلى شجار.

- من الذي يحتد؟

- أنت تفعل ذلك - اتهمته بوضوح دون مواربة هذه المرة - لم يبق سوى أن تصرخ في وجهينا.

يبدو أن تحذيري أثمر هذه المرة.

- أحقاً كنت أرفع صوتي يا عزيزتي؟

ابتسمت في وجهه ابتسامة عذبة وكأنها تقول بأنها تسامحه على كل خطاياه التي ارتكبها ولم يرتكبها بعد.

- حسناً، أعترف بأنني انفعلت نوعاً ما، لكنني لم أرفع صوتي على أحد منكما... هل فعلت ذلك؟ أعتذر حقاً إن كنت قد أزعجت أحدكما، صدّقاني لم أكن أنوي أن أتكلّم بطريقة تسيء إليكما، فكلاكما يعلم مدى حبي لكما، أنتما أعز وأقرب الناس إلى قلبي.

- لا عليك يا عزيزي - أجابته كاتيا - فكل نقاش تتخلله هكذا لحظات أحياناً، لنعد إلى حديثنا، كنت تتحدث عن الخلود.

- الخلود؟ أجل لقد تذكرت، كنا أقصد أن أقول إن جميع الفنانين من ممثلين ورسامين، ومصورين، وموسيقيين، وأدباء، الجميع دون استثناء لديهم شغف خاص بالخلود، وخاصة المصورين الفوتوغرافيين، فالتصوير هو أهم وسيلة ابتدعها الفن من أجل الحفاظ على لحظة معيّنة تتجاوز مفهوم تعاقب الزمن وتظل خالدة كما هي. فكل صورة نقوم بالتقاطها هي خلود اللحظة وفناء الموضوع، لأن كل الأشياء والمخلوقات والمواضيع التي نلتقط صورها فانية، ولكن الصورة واللحظة التي تجسدت فيها ستبقى خالدة. الصورة هي إنتاج الخلود من الفناء.

لم أتمكن من الإمساك بالفكرة التي كان صديقي يناقشنا حولها، ولم أوافقه الرأي في أن الفنانين وحدهم تعنيهم فكرة الخلود دون بقية البشر.

- ليس الفنانون وحدهم من يبحثون عن الخلود يا صديقي، فالبشر عبر آلاف السنين كانت معظم أعمالهم على اختلاف أنواعها تتمركز

حول فكرة الخلود، وقهر الموت حتى وإن كان بصورة رمزية، فرغبة الخلود متأصلة لدى الجميع، ولهذا السبب فنحن ننجب الأطفال، ولهذا السبب أيضاً منحتنا الطبيعة القدرة على إنتاج ملايين النطاف، ومنحت المرأة القدرة على الإخصاب مرة كل شهر.

- لن تكفّ عن تحليلاتك المنطقية والرياضية أليس كذلك يا صديقي؟

حاول كنعان التقليل من شأن أفكاري لكنني لم أعره انتباهاً وأكملت الحديث.

- وماذا عن آلاف العلماء والمستكشفين عبر التاريخ البشري؟ كغاغارين وجاك كوستو ولويس باستور، والكثير سواهم، هؤلاء ستظل ذكراهم باقية بقاء البشرية، ألا زلت مصراً على أن فكرة الخلود محصورة بالفنانين فقط؟

- ولكنهم لم يقوموا بهذه الاكتشافات والاختراعات من أجل الخلود، هم فقط كانوا يحاولون تسهيل حياة الآخرين ومساعدتهم.

- وماذا تقول بشأن ملوك مصر القديمة.

أدركت من نظراته واتساع عينيه أنه لم يفهم ما أرمي إليه، فأكملت.

- أقصد فراعنة مصر، لماذا بنوا هذه الأهرامات الرائعة برأيك؟ لقد تم التحقّق من خلال الوثائق والكتابات التي تركوها أن كل ما قاموا به كان من أجل تخليدهم عبر الزمن.

- لا داعي للابتعاد والذهاب إلى مصر - تدخّلت كاتيا مؤيدة وجهة نظري - فأول شخص عُرف عنه أنه كان يبحث عن الخلود عاش على هذه الأرض نحو الجنوب قليلاً، في ميزوبوتاميا.

هذه المرة كلانا لم يفهم من تقصد بكلامها.

- إنه جلجامش ملك أورك - أوضحت لنا - أنا متأكدة من أنكما سمعتما بأسطورة جلجامش.

- أعرف أسطورة جلجامش، ولكن هناك فرقاً كبيراً بين ما نتحدث عنه، لأن الفنانين لا يسعون وراء الشيء ذاته. فجلجامش وفراعنة مصر كانوا يبحثون عن الخلود الفعلي، أي أن يظلوا أحياء، وألا يفني الموت أجسادهم مهما تقدّم بهم العمر. وقد كان جلجامش يبحث عن نبتة الخلود من أجل هذا السبب، أما فراعنة مصر فكانوا يعتقدون أن مملكة الخلود تقع في السماء، وقد بنوا هذه الأهرامات لتكون وسيلة نقلهم إلى هذه المملكة. وكلاهما لم يستخدم الفن من أجل الحصول على الخلود.

- حقاً؟

علّقت كاتيا.

- ما الذي تقصدينه من سؤالك؟ أعتقد أنك لن تدّعي أن جلجامش وفراعنة مصر كانوا فنانين.

- لم أقصد قول ذلك، ولكنهم بالطبع قد استعملوا الفن واستغلوه أثناء بحثهم عن الخلود - وهنا التفتت نحوي - ربما لم يكن الموضوع مقصوداً، ولكنهم اختاروا الطريق ذاته الذي اتبعه الفنانون للوصول إلى الغاية ذاتها، ماذا يمكن أن نقول عن أسطورة جلجامش، أو عن تلك الرسوم الرائعة التي تزيّن جدران الأهرامات وقبور الفراعنة، ذلك النمط المعماري الرائع... لو لم تكن هذه الأعمال كلها فناً، هل كنا سنتذكر اسم جلجامش من بين أسماء آلاف الملوك الذين مروا عبر التاريخ؟ هل من طريقة أخرى تجعلهم خالدين عبر الزمن سوى الفن الذي تركوه؟

- ولكنهم لم يكونوا فنانين.

علّق كنعان.

- لم يكونوا فنانين، ولكنهم استخدموا الوسيلة نفسها التي نستخدمها نحن الآن، استخدموا سحر الفن وقوته من أجل الخلود، وإذا عدنا إلى بداية نقاشنا، سنجد أن الفن لا يستمد قوته من العقل وحده، بل من الجنون والتطرف والفرادة في الكثير من الأحيان. هذا ما كنت أقصده منذ البداية.

ران علينا الصمت للحظات.

- اعترف يا صديقي - كسرت الصمت بنبرة مازحة - اعترف بأنك تشعر بالغيرة من تومر.

لكن كاتيا لم تفهم ما أعنيه.

- تومر؟ - وأضافت مستغربة - مستحيل...

بالطبع لم أكن أقصد أبداً أي تلميح عن شكل تومر، أو مظهره، أنا كنت أتحدث عن حكمته، حين قالت لنا كاتيا إن الفنان الحقيقي يجب أن يتّصف بالحكمة.

وطوال نقاشنا لاحظت كيف كانت تنظر إليه حين تتحدث والحب يفيض رغماً عنها من أي حركة تقوم بها، ولكي لا أعطي الفرصة لأفاعي الغيرة بالتسلل إلى قلبي مجدداً قلت:

- أعتذر، حقاً اعتذر. يبدو أنني أفرطت كثيراً في الشرب، واعتقد أنه حان الوقت لكي أنام.

- مستحيل - قال كنعان - لن أسمح لأحد بالذهاب قبل أن ننهي الزجاجة - نظر إلى الزجاجة وأكمل - انظرا لم يبق فيها سوى القليل، هيا فنشرب نخب الخلود.

رفعنا كؤوسنا مرة أخرى، أفرغت الكأس كلها، وعندما أعدتها إلى الطاولة كان الدوار تمكّن مني بصورة أقوى هذه المرة.

فدمدمت.

- يبدو أنني أفرطت حقاً في الشراب.

- أنا وكاتيا أيضاً، ولكن لا تحاول التهرب، لن يخرج أحد من هذه الغرفة قبل أن تنتهي الزجاجة.

لم يصدّقني كنعان ولكنني كنت في حالة سيئة جداً، يبدو أن التوتر الذي ساد قبل قليل قد أثر فيّ سلباً، وبالتالي فإن أي قطرة أخرى ستزيد الحال سوءاً، وأخشى حينها أن أبدأ بالتقيؤ، لذا استنجدت بكاتيا.

- يبدو أنه لا يصدّقني، ولكنني حقاً أشعر بأن رأسي يدور بشكل فظيع، وأود أن أستلقي على الأريكة إن لم يكن في الأمر ما يزعجك.

نظرت إليّ بإشفاق.

- من الأفضل أن تذهب إلى غرفة نهاد وتنام، فالشحوب واضح على وجهك.

لكن صديقي لم يرأف بي بعد كل توسلاتي.

- أنت رجل قوي، ولن يؤثر عليك بعض الشراب، تمدّد هنا على الأريكة وبعد قليل ستتحسن وستعاود إكمال السهرة وأنت على خير ما يرام.

بالطبع، كنت أستطيع الذهاب للنوم في الغرفة الأخرى حتى وإن اعترض كنعان، ولكن لا أدري ما الذي جعلني أذعن لرغبته في البقاء. ربما لأنني لم أكن أرغب في ترك كنعان، وربما شعوري بالحرج من كاتيا، وعدم رغبتي في تركهما... ربما كل ذلك معاً... أخيراً، استطعت خلع الجاكيت والتمدد، أدرت وجهي ولكن الدوار كان فظيعاً جداً، لذا أغمضت عينيّ.

- لما تصرّ على بقائه معنا، ألا ترى أن المسكين شاحب ومتعب جداً، دعه يذهب وينام في الغرفة الأخرى.

كان صوت كاتيا يصلني.

- لن يخرج أحد من هنا قبل أن تنتهي الزجاجة، ولن أتراجع عن قراري.

كان النقاش مستمراً، ولكن الأصوات بدأت تبتعد، أحسست بأني أفضل

حالاً مع إغماض عينيّ، فأنا أحب الظلام، أحب الأصوات التي تأتيني من بعيد، أحب هذه الأريكة التي احتوتني في حضنها، فقد منحتني إحساساً لطيفاً بالراحة.

## (12)

كانت أصواتهما تصلني بشكل مبهم، همسات وكلمات تتباعد وتتقارب وأحاديث تصلني مستقطعة لا أعلم من أين بدأت وما الذي يقال فيها، اقتربت الأصوات فيما الظلام يحيط بي من كل جهة، وكلما اقتربت باتت مفهومة أكثر.

- توقّف سيرانا.

أحد الصوتين كان يقول معترضاً.

- لن يستيقظ حتى لو انفجر المكان - دمدم الصوت الآخر - ألا ترين إنه غارق في النوم.

- وإن استيقظ فجأة؟

عاد الصوت للاعتراض.

كان صوتاً ناعماً دافئاً ومألوفاً.

- فليستيقظ، لا مشكلة لدي وأعتقد أنه أدرك الحقيقة، وقد توقّع حدوث هذا الأمر بيننا.

كان هذا الصوت أكثر جرأة وثقة بنفسه كما كان مألوفاً هو الآخر، وأخيراً، استطعت أن أفتح عينيّ قليلاً. صدمني الجسدان اللذان استلقيا على الأريكة، وتذكرت أنني لا أزال في الاستديو، لقد غفوت لبعض الوقت فاستغل كنعان الفرصة لمداعبتها، خفت أن يراني أحدهما ويدرك أنني استيقظت. لذا، أطبقت جفوني قدر الإمكان مضيّقاً على نفسي مجال الرؤية. كان كنعان يغمر عنقها الجميل بقبلاته بينما تتجول أناملها العاجية في خصلات شعره الأجعد.

- أين الماء؟

لو لم يُسمع هذا الصوت الخشن فجأة لكانت أصوات تنهدات كاتيا هي ما يُسمع الآن. أظن أنكم أدركتم أن صاحب هذا الصوت الفظ هو صديقي الأخرق نهاد. نهض الاثنان على عجلة.

- لم يبق ماء للشرب في المطبخ - قال متذمراً وهو يقترب - هل لديكم ماء؟

كان صوته طبيعياً، وأعتقد أنه لم يتمكن من رؤية صديقاي على الأريكة لأن النور كان شحيحاً جداً، كنت أجاهد لحبس رغبتي في الضحك قدر المستطاع، فأن يأتي نهاد على غفلة وأن أضحك فيما يعتقدان بأنني نائم، كان ذلك ليتسبب بمشكلة حقيقية لا تحمد عقباها. كنت أفكر في

التظاهر بالاستيقاظ على صوت نهاد، ولكني أيقنت بأن الموقف لن يكون مقنعاً لذا تخليت عن الفكرة وبقيت متظاهراً بالنوم بانتظار ما سيحدث. يبدو أنهما تمكنا من السيطرة على الوضع في الوقت المناسب.

- تعال نهاد، يوجد ماء هنا في الغرفة تعال.

- كان صوته لاهثاً بشكل واضح، لكن من المستحيل أن يدرك نهاد الأمر وهو لا زال ثملاً وآثار النوم بادية على صوته.

- سليم أيضاً نائم هنا، لقد شرب كثيراً اليوم على غير عادته.

علّق نهاد.

أدركت أنه دخل الغرفة لأن صوته أصبح قريباً جداً وأكثر وضوحاً.

- فلنوقظه - أضاف كنعان - دعه ينام على الأريكة التي في غرفتك فهي أكبر والنوم عليها أكثر راحة، إن بقي نائماً هنا للغد سيؤلمه ظهره.

كان نهاد يشرب الماء ليروي ظمأه الذي أيقظه وأفسد كل شيء، وبدأت أنتظر كنعان لكي يوقظني ولم يستمر انتظاري طويلاً.

- سليم... سليم.. استيقظ يا صديقي.. استيقظ لتنام في الغرفة الأخرى، فالأريكة هناك أكثر راحة.

لم أفتح عينيّ على الفور بل انتظرت بضع لحظات، وكنت أتساءل هل سيعاود المحاولة أم يتركني وشأني.

- سليم... سليم...

عاد ليوقظني وهو يهزني برفق. بدأت أتململ قليلاً قبل أن أردّ عليه.

- ما الأمر؟

- انهض لتنام في الغرفة الأخرى إن بقيت على هذه الأريكة سيؤلمك ظهرك في الصباح.

جلست وأنا أفرك عينيّ، ولكني لم أمتلك الجرأة للنظر إلى كاتيا وحاولت قول شيء خطر ببالي.

- نهاد أيضاً هنا؟

- كنت سأموت من العطش، الشراب يسبب لي ظمأً شديداً.

مسح فمه بيده وقد كان منظره مزرياً، فالقميص قد خرج نصفه من تحت حزام بنطاله، فيما معظم أزرار قميصه مفتوحة وعيناه منتفختين ومحمرّتين بصورة مخيفة، وقد عاد أدراجه بعد أن شرب دون أن يضيف شيئاً آخر وأنا أيضاً نهضت لأتبعه إلى الغرفة. وأخيراً، تجرأت على النظر إلى كاتيا وكنعان، ولكن هذه المرة هما من تهرّبا من نظراتي. هل أدركا بأنني

كنت مستيقظاً؟ لا أظن ذلك ربما كان السبب هو إحساسهما بأنهما يخططان للتخلص مني، حاولت أن أطمئنهما وأن أخفّف من قلقي وشعوري بالذنب وأنا أقول:

- لقد غفوت بعمق، هل مضى الكثير من الوقت على نومي هنا؟

قلت ذلك بأكثر نبرة عادية تمكنت من استحضارها، وكان كنعان أول من ابتلع الطعم فرد عليّ:

- لا، ليس الكثير.

وهنا لمحت الزجاجة وقد بقي فيها مقدار لا بأس به.

- وكيف سأخرج من الغرفة والزجاجة لم تنته بعد؟

سألته متصنّعاً البراءة، ارتسمت ملامح القلق على وجه كاتيا التي اصطبغت شفتاها بلون الدم بفعل قبلات صديقي.

- لقد تركناها لك.

علّقت قائلة.

لكن صديقي قطع طريق على احتمال بقائي، وأخذ الزجاجة وبدأ يشرب منها بنهم مصرّاً على عدم ترك أي قطرة وأعادها فارغة إلى الطاولة ونظر إلي وهو يبتسم.

- أرجو ألا تنسى هذه اللفتة الكريمة مني، فقد أنقذتك من مأزق كبير.

- شكراً لك يا صديقي، فالصديق الوفي تظهر حقيقته في هذه اللحظات الحرجة. وطالما أننا التزمنا بالاتفاق حتى النهاية، أستطيع أن أخلد للنوم وضميري مرتاح.

نهضت بهدوء عن الأريكة حتى لا يعاودني الدوار مرة أخرى.

- تصبح على خير.

قالت كاتيا.

- تصبحين على خير - والتفتّ إلى كنعان - الأغطية والشراشف موجودة في خزانة الغرفة أليس كذلك؟

- أجل، دعني أرافقك إن شئت؟

- لا داعي لذلك، أستطيع تدبر الأمر.

اجتزت الممر، ودخلت الغرفة حيث عاود نهاد النوم بعمق، لم أعلم إن كان عليّ إشعال الضوء أو التصرّف وسط هذا الظلام، جلست على الأريكة من دون أن أصل إلى قرار. كنت أشعر بتحسن كبير، وبدا ذهني صافياً ويعمل بدقة كساعة سويسرية وقد فارقني النعاس. الشيء الوحيد

الذي بدأ يكدر عليّ هو شخير نهاد الذي بدأ يرتفع أكثر فأكثر، كان يصدر أصواتاً مختلفة وغريبة مع كل نفس جديد، فأتذكّر ما كان يقوله لنا أستاذ الموسيقى بأن جسم الإنسان هو سمفونية متكاملة، أكان يشخر عندما كنا ننام في المدرسة معاً؟ لا أظن ذلك لأن بقية الطلاب كانوا سيهزأون منه لو سمعه أحدهم وهو يشخر أثناء نومه. كان معنا فتى يدعى نظام أدابزالي على ما أعتقد، ولكن بقية الطلاب أطلقوا عليه لقب نظام البوق. المسكين كان يعاني من زوائد لحمية في أنفه وما إن يغلق عينيه حتى يبدأ بالشخير على الفور، ولكن المشكلة أنه لم يكن شخيراً عادياً، كان صخباً متواصلاً تستطيع تردداته تحطيم زجاج نوافذ اسطنبول كلها، وينافس في قوة صفيره أشد العواصف فتكاً، وكان بعض الطلاب يدّعون أن باب غرفة النوم في المدرسة الداخلية كان يفتح ويغلق مع كل نغمة شخير جديدة يطلقها البوق أثناء نومه، وقد ظل هذا اللقب يلازمه حتى بعد أن أنهينا الدراسة، وأعتقد أن الناس نسيت كنيته الحقيقية. وفي إحدى الليالي قرر رفاقه الذين يشاركونه النوم في الغرفة نفسها بعد أن ضاقوا ذرعاً به، القيام بمزحة ستخلّد اسم نظام البوق في مدرسة غلطة سراي، فبعد أن استسلم صاحبنا لسلطان النوم وبدأ بالشخير، تسلل رفاقه إلى غرفة معدات الكشافة، وأحضروا بوقاً حقيقياً ووضعوه في فم نظام، ولأن نومه كان ثقيلاً جداً لم يستيقظ بل واصل الشخير الذي ضاعف البوق الموضوع على فمه من حدته وقوته، وبذلك استمعت المدرسة كلها إلى تلك السمفونية المرتجلة التي أداها نظام لساعات متواصلة مكّنته من استحقاق لقب البوق بجدارة مطلقة.

شعرت بالملل من الجلوس وسط هذا الظلام وسماع معزوفة نهاد الليلية وكان من الواضح أنه لن يستيقظ حتى لو انهار السقف على رأسه لذا قمت وأشعلت الضوء ولم يبدِ أي حركة تدل على أنه أحس بشيء. أخرجت شرشفاً ووسادة وبطانية من الخزانة، وأخفضت ظهر الأريكة لتتحول إلى سرير وعلى الرغم من إدراكي بأنني لن أتمكن من النوم، استلقيت وسحبت البطانية حتى قمة رأسي. لا أعلم كم من الوقت مضى عندما رأيت ضوءاً أحمر يغمر المكان بأكمله، ذكّرني بالضوء الأحمر الدموي الموجود في غرفة التحميض، وكما حدث في تلك الغرفة فقد اصطبغ الممر والسقف والأريكة والبطانية وكل شيء بلون الدماء مجدداً.

نهضت جالساً ولكني لم أجد نهاد، وما إن هممت بالاستلقاء مجدداً حتى سمت صوتاً يشبه البكاء قادماً من الداخل. هل تشاجرت كاتيا معه

أم أنه صوت ما كانا يقومان به بحضوري؟ حاولت عدم التدخّل في مشاكل هذين العاشقين ولكن الصوت بدأ يرتفع أكثر فأكثر. لم أستطع كبح فضولي أكثر من ذلك، فخرجت لأرى ما الذي يحدث، اتجهت إلى الممر الذي كان غارقاً بلون الدماء، وتبعت مصدر الضوء، وكلما اقتربت أكثر كان الضوء الأحمر يزداد قتامة والأنين يرتفع، وعندما اقتربت من الصالون كان بابه مفتوحاً والضوء يتسرب منه، توقفت للحظات، ومن ثم دفعت الباب بهدوء ودخلت.

في البداية رأيت كنعان الذي كان واقفاً خلف الكاميرا.

- أدر وجهك باتجاهي - كان يوجّه ملاحظاته - حسناً هذا جيد...

كان نهاد وكاتيا أيضاً هناك، وقد جلس في حضن نهاد طفل لم أستطع معرفته لأنه كان يدير وجهه، وكانت كاتيا تقف جانبياً وتمسك بيدها سكيناً كبيرة، أصابتني القشعريرة من هذا المنظر المخيف، واقتربت من كنعان.

- ما الذي تفعلونه هنا؟

لاحت ابتسامة خبيثة على فمه ووضع إبهامه على شفتيه وهو يطلب مني السكوت.

- هششش.

ولكني لم أكن أنوي السكوت.

- ما هذا بحق الجحيم، هل تصورون في هذا الوقت المتأخر؟

كنت منفعلاً جداً.

- أجل، ولكن هذه الصورة مميّزة.

لم يكن هذا الصوت يشبه صوت صديقي قدر ما يشبه فحيح أفعى سامة.

- ما الذي تعنيه؟

صوب إليّ نظرة باردة.

- ستكون أكثر واقعية هذه المرة أكثر واقعية هذه المرة، لا يوجد ممثلون ولا ديكورات... سنقوم بقتل الطفل.

- ستقتلونه؟ كيف؟

شرح لي الأمر بهدوء جليدي.

- بشكل طبيعي؟ كما تعلم فنحن نقوم بإعادة تمثيل الجرائم وتصويرها، لكننا أردنا أن تكون الصورة هذه المرة أكثر واقعية لذا سنقوم بتنفيذ الجريمة بأنفسنا.

بدا أنها مزحة ثقيلة من مزحات كنعان، فمن المستحيل أن يقوموا بجريمة قتل، والأنكى أن الضحية مجرد طفل. وهنا تساءلت عمن يكون هذا الطفل المسكين، فالتفت نحو كاتيا ونهاد الذي بدا وكأنه قرأ أفكاري، فقال لي:

- أنت حقاً شخص ساذج يا صديقي.

كان الضوء الأحمر يضفي على وجهه منظراً غريباً ومنفراً فيما ظل يحدق إليّ بعينيه اللتين بلون الدم.

- ألم تتعرف إلى ابنك؟

وعندما رأيت وجه الطفل تسمرت في مكاني، لم أصدق ما أراه.. إنه بورج ابني، وقد قاموا بربط يديه وقدميه، ووضعوا غطاء أسود اللون على عينيه، وكان المسكين يرتجف خوفاً، وعندما سمع صوتي تعرف إليّ على الفور.

- أبي أهذا أنت؟ هل أنت هنا؟ أرجوك أنقذني يداي تؤلمانني جداً.

كان يستغيث بي.

- اتركوا ابني.

صرخت وأنا أهاجم كاتيا. لكن كنعان تمكّن من الإمساك بي بإحكام.

- لا تحاول فلن تستطيع منعنا، سنخّلد ابنك بهذه الصورة، إنه طفل مريض ومعاق ومن الممكن أن يموت في أي لحظة، ولكن هذه الصورة الرائعة ستضمن له الخلود.

- هل جننتم؟ - صرخت - إنه ابني يا كنعان ابني هل نسيت، إنه بورج؟

كانت نظراته الباردة خالية من الشفقة والإنسانية.

- أيعقل أن أنسى، نحن أيضاً نحبه كثيراً، ولأننا نحبه نقوم بما نقوم به.

- عن أي خلود تتحدث وأنت تنوي قتل ابني؟

بدأ بورج بالبكاء مجدداً.

- اتركوا ابني.

كنت أصرخ، وأحاول التملص من قبضة كنعان، ولكنني لم أنجح فقد تضاعفت قوته بشكل هائل، وتحوّلت يداه فجأة إلى مخالب كبيرة منعتني من الوصول إلى ابني. لم يبالِ بصرخاتي وبكاء ابني وهو يقول مخاطباً نهاد.

- أعط الطفل لكاتيا وتعال لتمسك سليم... فلننهي الأمر، ما زال لدينا الكثير من العمل.

- أتدركون فظاعة ما تقومون به؟

صرخت في وجه كنعان.

إلا أنه لم يبالِ.

- ربما لن تدرك قيمة ما نفعله الآن، لكنك ستفعل مع الوقت.

استلم نهاد مكان كنعان، وبدا لي أقوى من كنعان بكثير، وأحاط بي كوحش كاسر منعني من إتيان أي حركة، على الرغم من أنه كان أول من يهرب أثناء نشوب شجار ما. وعاد كنعان مرة أخرى ليقف خلف الكاميرا.

- هل أنت جاهزة؟

كان يخاطب كاتيا التي أومأت برأسها موافقة على قتل ابني الذي عاد للبكاء والصراخ مجدداً.

- أرجوكم أرجوكم لا تقتلوا ابني.

إلا أن كنعان بدا وكأنه لم يسمعني.

- باشري العمل عندما أطلب منك ذلك، وكما نوّهت سابقاً وجّهي السكين نحو القلب مباشرة ولكن ببطء، أريد أن أرى تدفّق الدم، وأتمكّن من تصوير اندفاعه.

كان يتحدث عن الأمر، وكأنه أحد الأشياء التي يقوم بها بشكل اعتيادي فيما تسمع كاتيا بصمت وهدوء، وقد وضعت رأس بورج على ذراعها اليسرى فيما أمسكت السكين بيدها اليمنى باحترافية واضحة. لم أرها من قبل بهذا الجمال، فالقسوة قد أضافت على وجهها جاذبية لا تقاوم.

- أرجوك كاتيا - بدأت أرجوها - أرجوك لا تفعلي ذلك.

كانت تنظر إلي وكأنها لا تراني، ولكن بريق المتعة واضح في نظراتها، لمحت رجفة صغيرة انتابت يدها قبل أن تنزل السكين وتغرزها في جسد ابني.

- لاااا - استيقظت من النوم وأنا أصرخ.

كان جسمي مبلّلاً بالعرق، لا بد وأن نهاد سمع صوتي لذا بدأ يتململ في مكانه ولكنه لم يستيقظ، جلست، وأنا أرتجف بشدة من هول ذلك المشهد، وبقيت جالساً لفترة على هذه الحال، رويداً رويداً عدت إلى الوقع، وخفّت ضربات قلبي، وبدأ الذعر يغادرني. لقد كان هذا الكابوس نتيجة طبيعية للاضطراب الذي عانيت منه والذي ختمته بكميات كبيرة من الشراب والمناقشات الغريبة حتى وقت متأخر.

كان نهاد لا يزال نائماً، وقد وضع يده اليسرى تحت رأسه وهو يواصل عزف سمفونيته المزعجة وقد انزلقت البطانية عن جسده، قمت

لأغطيه خوفاً عليه من البرد، وللحظات توقف عن الشخير. سررت للأمر، ولكنه جلس في سريره وهو لا يزال نائماً وهو يقول:

- لم نقم بقتل أحد - كان يتكلم موضحاً لأحدهم دون خوف أو تردد - أجل نحن من يصوّر الجرائم، ولكننا لم نقم بقتلهم.

- عمن تتحدث نهاد، من هؤلاء الذين تصورهم؟

نظر باتجاهي ولكنه بدأ وكأنه لم يرن، ظل يحدق إليّ بعمق وبالنظرة الجوفاء نفسها التي شاهدتها في حلمي. أصابتني قشعريرة مفاجئة، وأنا أقارن بين الكابوس والحقيقة، وبت أتساءل إن كان الكابوس لا يزال مستمراً، أردت أن أوقظه واستدركت وأنا أفكر ربما عليّ إيقاظ نفسي، لكن نهاد تصرف قبلي وعاد للاستلقاء على الأريكة، ولم تمضِ ثوان حتى بدأ الشخير مجدداً. لقد كان كابوساً مضاعفاً، فهو أيضاً تأثر بتلك الصور الفظيعة مثلي. ولكنني عندما فكرت في الأمر ملياً لم أستغرب، فمن عادة نهاد أن يجارينا أنا وكنعان في كل ما نفعل دون أن يصرح عن رأيه أمامنا، ومن الواضح أنه يخاف من هذه الصور ومن مجمل الفكرة وقد تجلى هذا الخوف في كوابيسه. هذه الأفكار زادتني ضيقاً، فنهضت واتجهت نحو النافذة وأزحت الستارة، كان الشارع الخلفي الذي تطل عليه النافذة هادئاً جداً على عكس الشوارع الرئيسة في بيه أوغلو، وكانت حمرة الشفق لم تتوضح بعد فيما الظلام ظل يلف المكان بأكمله.

## (13)

بقيت واقفاً أمام النافذة لبعض الوقت، وأنا أتفرج على هذا الحي الذي كبرت وترعرعت فيه، إلى الأمام قليلاً كان يوجد مخبز مدام إيريفيلي للحلويات، والذي تبيع فيه ألذ حلوى سويسرول بنكهة المسكة في اسطنبول كلها، وكانت شغف الأطفال الذي لا ينتهي وخاصة كنعان، كان بناء جميلاً جداً مؤلفاً من طابقين بشرفات واسعة، وتزيّن نقوش معدنية رهيفة الصنع الباب الكبير، وقد احتل مكانه الآن بناء كئيب مؤلف من ستة طوابق يحجب النور عما حوله، أحسست بالضيق يتزايد في نفسي، وتساءلت عما أفعله في هذا المنزل وهذا الحي الذي لم يعد لي فيه أحد، قمت بجمع أغراضي وأنا أسير على رؤوس أصابعي كيلا أوقظ أحداً وخرجت من المنزل بكل هدوء.

ما إن غادرت البناء حتى شعرت بالراحة وزال الضيق عني قليلاً، كان المكان خالياً إلا من أشخاص معدودين يعودون إلى منازلهم بعد انتهاء عملهم الليلي. رفعت ياقة المعطف، وسرت بهدوء نحو الشارع الرئيس، وقبل أن ينتهي شارع أيهان إشك بنحو خمسة أمتار سمعت صوتاً يقول - أنت. أدرت وجهي لأرى من يناديني وعندها واجهني بناء قديم الطراز ذكّرني مجدداً بمنزل مدام إيريفيلي، ويبدو أنه أُخلي استعداداً لهدمه ليحل مكانه بناء عصري الطراز يحوي شققاً كثيرة. عند مدخل البناء رأيت كتلة بشرية غير واضحة المعالم قد افترشت الأرض، مجموعة من الأذرع والأرجل والرؤوس قد تداخلت بصورة تعذّر معها معرفة أشكالهم بوضوح، جلس أحدهم وهو ينظر نحوي، وكانت هناك كدمة واضحة على جبينه.

- أرجوك أعطني ثمن صحن حساء.

استيقظ الباقون على صوته، وبدأوا بالتحرك والتململ، كان الصوت بشرياً ولكن العتمة جعلتني أرى عيون ذئبية جائعة ترمقني بحدة من الداخل، كانت الأجساد نحيلة والثياب رثة توحي بأنهم مخلوقات من عالم لا يمت لعالمنا بِصلة، توقفت أتأملهم، ويبدو أن صاحب الصوت قد تشجع من توقفي وبدأ يتحرك نحو الأمام وهو يجر جسده المريض.

- أرجوك، لا أطلب الكثير، فقط ثمن صحن حساء، سنموت جوعاً أرجوك.

لم أتمكن من رؤية وجه المتكلم بشكل واضح، وقد بدا الآخرون في استيقاظهم كجثث بعثت من بين القبور، بدا واضحاً أنهم أربعة أشخاص،

لكنني لم أميّز إن كانوا رجالاً أم نساء، أطفالاً أم شيوخاً، وفجأة امتدت نحوي مجموعة من الأذرع جعلتني أتراجع بضع خطوات إلى الوراء خوفاً. خفت أن ينهضوا ويقتربوا مني أكثر لذا مددت يدي إلى جيبي وأخرجت كل الفكّة التي معي ورميتها نحوهم وابتعدت بسرعة، كنت أهرول تقريباً وأنا ألتفت بين الحين والآخر نحو الخلف لأرى إن كانوا يلحقون بي، وبعد لحظات أدركت أنه ما داع للخوف فقد انشغلت عني المجموعة بالهجوم على النقود التي رميتها وبدأوا يتشاجرون عليها.

وجدت نفسي أمام الرواق الفني العائد لبنك غارانتي، والذي كان سابقاً مخبز نيسواز الشهر للمعجنات، والذي كان يجتمع فيه ثلة من الفنانين والشعراء حينها كنجيب فاضل، جالي إبراهيم، بيماني صافا، سعيد فايق، صلاح بيرسل، فردي تيفور، صباح الدين قدرت وسواهم من عمالقة ذلك الزمن، وما إن بلغت شارع الاستقلال حتى شعرت بالأمان.

لم يبق أثر للازدحام، كانت المطاعم ومتاجر الثياب والمقاهي ودور السينما والمسارح مغلقة، ولكنها تنبض بالحياة من خلال الأضواء الخافتة التي بقيت تضيئها، ولم يكن الشارع خالياً تماماً، فكان بعض الأشخاص يتجولون هنا وهناك، حراس المخازن والنواطير واللصوص ومروّجو المخدرات والنساء الرخيصات والفنانون والندّل.

لم أقرّر بعد وجهتي، كنت أريد فقط الخروج من ذلك المنزل، كنت أفكّر في أخذ سيارة أجرة والتوجه إلى المنزل، فقد قاربت الساعة الخامسة فجراً، ولكنني بدّلت رأيي وقررت الذهاب إلى المكتب فهو أقرب، سآخذ حماماً وأبدّل ثيابي وارتاح لبضع ساعات، لذا اتجهت نحو ساحة تقسيم، وبعد خطوات قليلة جاء صوت بوق يدوي خلفي جعلني أقفز في مكاني، وعندما التفت رأيت سيارة تنظيف كبيرة قد بدأت بتنظيف الشارع، لقد كان الصوت مخيفاً في هدوء الصباح، ولم أكن وحدي من ارتعب لسماعه، فالرجل الذي يسير أمامي كان فزعه أوضح بكثير، حتى إنه هرول بضع خطوات خوفاً، وعندما التفت ورأى السيارة لم يتمالك نفسه وخرجت من بينه شفتيه شتيمة قذرة. وعندما رأى أن الشتيمة لن توقف الشاحنة عن عملها اتجه نحوي مخاطباً:

- أرأيت ما فعل ابن الرخيصة هذا، ما الداعي للبوق العالي في هذا الوقت؟

نظرت خلفه مستوضحاً عن سبب هذا الإزعاج، فوجد اثنين من العشاق يسيران متمهلين في منتصف الطريق ومن الواضح أنهما في حالة

يرثى لها لدرجة أنهما لم يلحظا سير الشاحنة خلفهما، وعلى الرغم من أنها كانت تسير ببطء شديد وكانت هناك مسافة كافية بينها وبين العاشقين، لكن يبدو أن سائق الشاحنة أراد أن يلهو قليلاً، ويعبث مع هذا الثنائي، أو ربما الاستيقاظ في هذا الوقت الباكر قد عكّر مزاجه فصبّ حام غضبه عليهما، ابتعد الرجل الغاضب بعد أن أطلق المزيد من الشتائم تجاه كل ما يحيط به، فيما استدار العاشقان ونظرا بحنق وتحدٍ إلى سائق الشاحنة الذي أزعجهما بهذه الطريقة، وتنحّيا جانباً ولكن على مهل.

أما أنا فبعد التوقّف للحظات قصيرة عدت إلى متابعة السير، ولكنني بدأت أسرع قدر الإمكان قبل أن يدركني السائق الغاضب ويرعبني مجدداً.

وصلت إلى أمام سينما الكازار والتي تعود إلى العام 1923، وقد كانت تسمى حينها صالون جينى إلكترا، وبدأ صوت مؤذن جامع الآغا الجهور يصدح في الأجواء، وعلى الرغم من أنني أقيم هنا وأسمع صوت المؤذن على الدوام، لكن سماع صوته في وسط هذا الهدوء جعل القشعريرة تتسلل إلى جسدي. لست رجلاً متديّناً وكذلك لم يكن أبي، لكنه كان يصوم شهر رمضان، ويؤدي صلاة العيد مع المصلّين في الجامع. أنا أؤمن بالله وقد كنت أصوم مع والدي عندما كنت صغيراً وأرافقه لأداء الصلاة في الجامع، إلا أنني لا أتذكر بأنني أديت أي شعائر دينية بعد أن بلغت الرشد. لا أدري ما السبب، ربما يعزى الأمر لانشغالي بالعمل طيلة الوقت، كان عليّ أن أقوم بتوسيع العمل وهذا يتطلب بالطبع الكثير من العمل في عالم لا يسير سوى وفق قانون واحد هو المنافسة، حيث الأقوياء فقط يستطيعون الخروج ظافرين فيما يُسحق الضعفاء دون أن يعيرهم أحد أي انتباه، وهذا كان نتيجة انتشار ما يسمى باقتصاد السوق الكبير، لذا تطلّب الأمر مزيداً من الإصرار وفيما حاول الكثيرون ركوب الموجة وزيادة الإنتاج على حساب النوعية ومد أذرعهم الأخطبوطية لالتهام كل ما يجدونه في طريقهم، بقيت ملتزماً بمبادئي في العمل وإن تطلّب الأمر جهداً مضاعفاً، وحاولت استباق الأحداث وإيجاد شركاء من خارج البلاد للتعاقد معهم وتصدير منتجاتنا إليهم حتى أتمكن من تثبيت موقعي ولا تبتلعني بقية حيتان المال. وبالطبع أنا لا أزال ألهث من أجل البقاء على قيد العمل والحياة؛ أي أن تفاصيل الحياة اليومية بين المنزل والعمل والأصدقاء أخذتني بعيداً، وشغلتني عن التفكير في الدين. ابتسمت هازئاً وأنا أراقب أفكاري التي بدأت تتدفق، وأدركت أنها لم تكن سوى تبريرات واهية لا أكثر، فالعلاقة بين الله والإنسان يجب أن تكون قوية ومتواصلة، وليست رهينة

تقلّب الظروف، لقد كان والدي أيضاً على ما أذكر يتذرع كما أفعل الآن بعمله ويخطط كما أخطط أنا للتفرغ للعبادة بعد التقاعد من العمل، وبالطبع فإن السبب الحقيقي وراء ذلك هو اقتراب الموت، ورغبتنا في السعي وراء مكان مناسب في الآخرة، إن تفكير التاجر لا يتغيّر، فالفائدة أقوى من المبدأ وتتقدّم عليه.

ربما لو التجأت الآن لهذا المؤذن وطرحت عليه الأسئلة التي تدور في ذهني لأعطاني جواباً مرضياً وأراحني قليلاً، ولكن لا مظهري ولا حالتي النفسية كانت تؤهلني للقيام بمبادرة من هذا النوع، خاصة وأن رائحة الكحول تفوح مني بشكل ملحوظ.

وفيما أنا أسير وأفكر وقعت عيناي على جامع غلطة سراي الشهير، جامع الشيخ حسن آغا، وصرت أتساءل ما الذي يفعله هذا البناء الذي يعود إلى أكثر من أربعمئة عام وسط هذا الشارع الذي يمور بالرذيلة والخطيئة على مختلف أنواعها، كان يشبه أحد الدراويش بصفائه وطيبة قلبه، كان يحاول التواري عن أنظار الناس، ولكن إن بحثت عنه بقلبك ستجده هناك ينتظرك برحابة صدر على الدوام.

وصلت إلى المتجر في الوقت الذي انتهى فيه الآذان، ضغطت على القفل الأوتوماتيكي، كان السكون يخيّم على المكان الذي سيزدحم بعد قليل بالموظفين، وبالتأكيد سيستغربون عندما يكتشفون أن أحداً ما سبقهم إلى الداخل. رفعت الباب الحديدي حوالي المتر، وفتحت الباب الداخلي للمتجر وعندما دخلت أقفلته مجدداً.

وما إن دخلت حتى استقبلني ذلك العطر الشذي المألوف والذي صنع من مزج روائح مختلف الأزهار، والذي يتغلغل في كل موجودات المتجر من ثياب نسائية وحلي وسواها. ولأن الباب بقي مغلقاً طوال الليل فقد تكثفت الرائحة بشكل يبعث على الدوار. حاولت الاعتياد على الظلام وبدأت أشق طريقي وأنا أمد يدي تجنّباً للارتطام، وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من رؤية أي شيء من حولي فقد أكملت سيري بخطى ثابتة وأنا أعرف وجهتي. فهذا المكان يخصني وأنا أعرف كل زواياه وأجزائه، وأحسّه أقرب إليّ من المنزل، فالمنزل يخصنا نحن الثلاثة، أنا وكولريز وبورج وأحسه أحياناً يعود إلى كولريز أكثر مني، لكن هذا المكان هو مملكتي وحدي، لم أشعر بهذا الانتماء تجاه المعمل، ربما لوجود عدد كبير من العمال والموظفين فيه، وربما لأني لا أملك مكتباً خاصاً هناك، لقد كان المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالراحة والفخر وأنا أشاهد نتيجة تصاميمنا ومجهوداتنا لشهور متواصلة

تُعرض هنا بكل أناقة وجاذبية، إنها المرحلة الأخيرة في سلسلة من المهمات التي تبدأ بفكرة مُتَخيلة لتصميم ما، لتنتقل منها إلى الورقة التي تنتقل بدورها إلى المعمل وتتحول على أيدي العمال هناك إلى تحفة فنية جميلة. عندما وصلت إلى المصعد كانت عيناي قد اعتادت الظلمة، ضغطت على الزر ودخلت صاعداً إلى الطابق الرابع حيث يقع مكتبي. شعرت بالأمان ما إن دخلت، وأحسست بأن كل ذلك القلق والتوتر قد ذابا فجأة، كنت أخطط لأخذ حمام ومن ثم شرب فنجان قهوة والاستلقاء لبعض الوقت، وبذلك سأكون مستعداً لاستقبال مهامي أثناء النهار، إلا أنني لم أتمكن من تنفيذ ما كنت أخطط، فبعد أن أنهيت الحمام شعرت بنعاس شديد لم أتمكن من التغلب عليه وتمددت على الأريكة الواسعة واستسلمت لسلطان النوم وأنا بثوب الحمام.

- سليم... سليم استيقظ.

كانت كولريز تقف فوق رأسي وبورج يقف وراءها وهما يراقباني بدهشة تامة، بدأت أستعيد الوعي قليلاً وأدركت خجلاً أن النوم منعني من الذهاب إلى المشفى.

- هل أنت بخير؟ ما الذي حصل لك؟

كان القلق يعتري صوتها فهي لم تعتد على رؤيتي على هذه الحالة أبداً، خاصة في ظرف كان يستوجب مني التصرف على نحو مغاير تماماً.

- لا تقلقي أنا بخير.

نهضت جالساً. كان عليّ أن أعتذر لها، وأوضح ما حصل، ولكن دهشتي من رؤيتها فجأة هي وبورج والإحساس بالذنب تجاههما منعني من تركيب أي جملة مفيدة.

- لقد خفنا عليك كثيراً، جوالك كان مقفلاً ولم أعلم ما الذي أصابك.

كانت البطارية على وشك النفاد البارحة لذا أقفلته قبل أن أنام. أخيراً استطعت أن أجيب وأنا أنظر إليها مستجدياً.

- أرجوك سامحيني لأنني لم أتمكن من الذهاب إلى المشفى، ولكنني سهرت مع كنعان والبقية حتى وقت متأخر، وأصر أن نذهب لننام في الاستديو، وأنت تعلمين بأنني لا أستطيع النوم في مكان غريب، لذا خرجت من هناك في وقت متأخر جداً، وأتيت إلى المكتب ولم أتمكن من الاستيقاظ باكراً، أعتذر مرة أخرى.

- أثقلت في الشرب؟

- ليس كثيراً... ما كان علي الذهاب معهم، ولكن هذا ما حصل - التفت نحو بورج - ألن تحضن والدك وتقول له صباح الخير؟

وما إن سمع هذه الجملة حتى فارقه القلق، وتوجّه نحوي بسرعة كبيرة، وارتمى في حضني بقوة جعلتني أميل إلى الخلف.

- ما كل هذه القوة؟... يبدو أنا أكلت طعاماً شهياً في المشفى؟

- لا على العكس، لم يكن هناك من شيء شهي على الإطلاق سوى البودينغ بالشوكولا.

فيما كنت أداعب شعر بورج الجالس في حضني، سألت كولريز.

- هل تمكنت من رؤية البروفيسور؟

لاحت على وجهها نظرة مطمئنة وهي تجيب:

- أجل والحمد لله لا داعي للخوف والقلق.

- أي أن ما قاله لنا راغب كان صحيحاً.

أضفت مبتهجاً.

- أجل وقد جاء منذ الصباح الباكر إلى المشفى، وذهبنا سوية لرؤية البروفيسور.

كانت تلومني على غيابي، ولكن لم أستطع أن أدافع عن نفسي سوى بمعاودة الاعتذار.

- أعتذر كثيراً، كنت أود الحضور ولكن.. أنا آسف حقاً.

ولكنها لم تكن تنوي أن تغفر لي بسهولة.

- حسناً، لا بأس، قلقت عليك واتصلت بالسكرتيرة وقد أخبرتني بأنها أتت في الصباح ورأتك نائماً في المكتب ولم تجرؤ على إيقاظك، يبدو أنها اعتقدت بأن شجاراً نشب بيننا وجعلك تنام هنا، ولكنها سرّت عندما علمت بالحقيقة.

- ماذا قلت لها؟

- أخبرتها بما حصل، لما لم تقل لي البارحة قبل أن تغادر بأنك لن تذهب إلى المنزل؟

- لم أكن قد قررت حينها - أجبتها بصوت ضعيف لأستجدي عطفها - ولكني غيّرت رأيي في آخر لحظة وذهبت، وكنت أنوي عندما أتيت هنا صباحاً أن أوافيك إلى المشفى بعد قليل، ولكن... أرجوك سامحيني، لن أكرر هذا التصرف مرة أخرى.

في مثل هذه الحالات أتجنب قدر الإمكان استثارة غضبها، وأحاول التملص من المشكلة بأقل الخسائر.

وما إن خفّت حدة نظراتها قليلاً حتى قمت باستلام المبادرة للتخلص من هذا الموضوع.

- حسناً يا بورج يبدو أنك اليوم أيضاً لن تذهب إلى المدرسة.

لاح الضيق على وجهه الصغير.

- ولم أتمكن من كتابة وظيفة اللغة.

- لا عليك تستطيع كتابتها لاحقاً، كما أن المعلمة تعلم أنك مريض ولن تعاقبك.

- اليوم لدينا حصة رسم، ستعلّمنا الآنسة شكران رسم الفاكهة.

الرسم هو أحب الأشياء إلى قلب بورج، واللعب بالألوان هوايته المفضلة.

- وهل أنت حزين لهذا السبب؟.. ماذا كان اسم صديقك؟

- تقصد تونا؟

- ها.. تونا، ستتصل به بعد قليل وسيخبرك ما هي الفاكهة التي طلبت منكم المعلمة أن ترسموها، وسنطلب من أمك أن تضع أمامك صحناً مليئاً منها، لترسمها على مهلك.

نظر إلى أمه مستفسراً.

- والدك معه حق - أجابته كولريز وقد عاد إليها هدوءها - ما إن نصل إلى البيت سنتصل بتونا.

ارتسمت على وجه ابني ابتسامة نقية وسعيدة جعلتني أنسى كل قلقي ومخاوفي وغمرتني بالسكينة مرة أخرى.

- حسناً فقد حلّ الأمر - ووقفت - عليّ أن أرتدي ثيابي فمن الممكن أن يدخل أحد الآن ويراني بثوب الحمام.

واتجهت نحو الغرفة الصغيرة التي تحوي على ثيابي وأغراضي الشخصية.

- لم تفطر بعد أليس كذلك؟ - سألتني كولريز - سأطلب من يشيم أن تحضر بعض الفطائر.

- سيكون ذلك جيداً، هل تناولتم الفطور؟

- أجل لقد فطرنا في المشفى.

- أنا أيضاً أريد أن آكل مع أبي.

استغربت كولريز من طلبه - ألم تقل لي في المشفى بأنك شبعت.

- شبعت حينها، ولكنني جائع الآن، أريد أن آكل مع أبي.

- وما الضير في ذلك؟ دعيه يأكل مرة أخرى - تدخّلت - لو سمحت عزيزتي اطلبي من يشيم أن ترسل أحد الموظفين إلى فرن الحاج

محمد.

- أنا أريد حلوى اللوز - صاح بورج وقد كشف أخيراً عن سبب طلبه للأكل، وكالعادة لم تتأخر كولريز عن التدخل.

- ما الذي تريده بالضبط، حلوى أم فطائر؟ لن تحصل على الاثنين معاً؟

كانت كولريز تحاول على الدوام قمع أي بادرة من بوادر الإسراف والتبذير مهما كانت صغيرة، وترفض شراء الشيء عندما ترى عدم حاجتنا إليه، وهذه أكثر صفة أحبذها فيها. والدي أيضاً كان يتصرف معنا بهذه الطريقة، كان يشتري كل ما نحتاج إليه ولا يبخل علينا مطلقاً، ولكن ما إن يعلم بأننا اشترينا أشياء ليست ضرورية أو أسرفنا في هدر شيء كان يعتريه غضب شديد وهو يقول - أتعلمون أن هذه الأشياء وهذا الطعام الذي تقومون بهدره، هو حلم بالنسبة إلى الكثيرين؟ - وأكثر ما كان يخيفه هو أن أتأثر بكنعان ووالده، فقد كان يعتبرهما شخصين مبذّرين لا يعرفان كيف يحافظان على قيمة الشركة والأموال التي يمتلكانها، وفي كل مناسبة من هذا النوع كان يقول لي واثقاً - صديقك هذا لن يكتفي بأن يبيع شركة التأمين بعد سنوات قليلة، بل سيبيع البيت وكل ما يملكه إن ظل يحيا هذه الحياة الباذخة، ويصرف بلا حسيب أو رقيب. سيجد نفسه يستجدي في الشارع كأحد المشردين. لحسن الحظ، لم تتحقق توقعات والدي، بل على العكس فبالرغم من كل ذلك البذخ فإن ثروة صديقي كانت تزداد بدل أن تتناقص، وتمكّن من الحفاظ على شركة والده وتوسيعها أيضاً. ومن جهة أخرى فإن نصائح والدي لم تذهب سدى لقد تعلمت منها الحفاظ على ما أملك، والابتعاد عن الهدر والتبذير قدر الإمكان، ولهذا السبب كنت أسرّ عندما أرى كولريز تنشئ بورج على الأفكار والتعاليم ذاتها التي رباني والدي عليها. وكان بورج يعلم جيداً عاقبة الاعتراض على رغبة والدته. لذا، فلم يحاول مواجهتها مطلقاً بل أجابها باستسلام:

- الحلوى.

- هذا جيد، عليك أن تعرف ما تريد وأن تخبرنا بوضوح.

ذهبت زوجتي لتخبر يشيم كي تطلب الطعام، وكنت قد انتهيت من ارتداء ثيابي فيما كان ابني وزوجتي يتجادلان، وعلى الرغم من أنني أكره أن أراها تعنّف بورج إلا أنني في هذه الحالات أؤيدها تماماً.

عادت كولريز وهي تقول لي:

- يشيم تريد التحدث معك.

- فلتتمهل قليلاً، لا أريد الانشغال بالعمل منذ الآن، سأرى ما الأمر بعد أن نتناول الفطور.

- كما تشاء، ولكن من الواضح أنها قلقة نوعاً ما.

كانت يشيم تعلم جيداً بأنني أكره الانشغال بالعمل عندما تكون كولريز وبورج هنا، لذا لا بد وأن يكون الأمر هاماً حتى تطلب رؤيتي.

- حسناً، سأرى ما المشكلة.

رفعت سماعة الهاتف وطلبت الرقم الخاص بالسكرتيرة

- صباح الخير سيد سليم.

قالت بلطف.

- صباح النور يشيم، ما الأمر؟

- أعتذر على الإزعاج سيد سليم.. ولكن السيد بيير دوغو اتصل من باريس ويريد التحدث معك بأسرع وقت.

- بأسرع وقت؟

- أجل يا سيدي هذا ما قاله بالضبط.

- فهمت، حوّلي الاتصال لنرى ما الذي يريده.

بيير دوغو هو الوسيط التجاري الذي تعرّفت من خلاله على الشركة الفرنسية التي سأشاركها في المشروع الجديد، وفي آخر اتصال لنا اتفقنا أن أسافر إلى باريس بعد عشرة أيام من أجل توقيع عقد الشراكة. ما الذي جعله يتصل الآن؟ هل من مشكلة ما في العمل؟ بدأت الأفكار تدور في رأسي بقلق، ويبدو أن كولريز لاحظت الأمر.

- ما الأمر سليم، هل من مشكلة؟

- لا أعلم، إنه اتصال من فرنسا...

وفيما كنت أشرح لها سمعت صوت بيير من سماعة الهاتف.

- مرحباً.

وصلني صوته الجهور. وبعد تبادل بعض عبارات المجاملة والتحية أخبرني عن سبب اتصاله، يجب عليّ السفر إلى باريس لأن بعض الشركاء الفرنسيين بدأوا بافتعال المشاكل.

- متى يجب أن أكون هناك؟

- إن استطعت المجيء غداً سيكون ذلك جيداً، أعلم أن الأمر فاجأك ولكن لا وقت لدينا لنضيّعه، لأنهم يدرسون خيارات بديلة.

## (14)

سافرت في صباح اليوم التالي إلى باريس، ولكنني لم أتمكن من رؤية أصحاب الشركة التي كنت أنوي أن أشاركها على الرغم من كل محاولات بيير، وفي النهاية أرسلوا لي موظفاً من الدرجة الثالثة لمحادثتي، والذي لم يكن يملك أي صلاحيات حقيقية، وكل ما استطاع أن يقوله لي هو الانتظار أكثر لنرى ما يمكن أن يحدث، وبحسب معلومات بيير فإنهم قد تعرّفوا على شركة أخرى في الشرق الأقصى، ويفكرون في مشاركتها وفق شروط وتسهيلات أفضل بكثير. وهم حريصون جداً على إبقاء اسم البلد طي الكتمان حتى إبرام العقد. ويبدو أن المباحثات مستمرة مع أكثر من جهة، وشركتي هي أحد هذه الخيارات التي يتلاعبون بها، وبالتأكيد فإنهم سيهددون الآخرين ويضغطون عليهم قائلين: إن لم توافقوا على شروطنا، فالأتراك جاهزون لكي نبرم العقد معهم.

أحسست بأن في الأمر إهانة لي، عندما أتحوّل من شريك إلى مجرد خيار ووسيلة للضغط على الآخرين، لذا قررت التخلي عن الفكرة كلها والعودة حالاً إلى اسطنبول، وعندما صارحت بيير بالفكرة، طلب مني التمهل قليلاً فهو يدرك تماماً وضع شركتي، ومدى حاجتي الملحة إلى إيجاد شريك أوروبي. بالإضافة إلى صعوبة إيجاد شريك جيد خاصة وأن المحادثات التي أجريناها قبل أسبوع كانت مثمرة جداً، كما أن عالم الأعمال بعيد جداً عن العواطف والحسابات الشخصية، ولا يوجد قانون ثابت، وإن كنا نحن نقبع بانتظارهم الآن، من الممكن أن تتغيّر الظروف ويصبحوا هم المنتظرين.

كان كلام بيير صحيحاً تماماً، فهذا هو القانون الساري في هذا العالم، وإذا كنتَ راغباً في النجاح والتقدّم عليك أن تفهم هذه القوانين جيداً وترضخ لها عند الحاجة، وإلا فلا مكان لك هنا. لم يركن بيير إلى اليأس والانتظار بل باشر على الفور في البحث عن خيارات وشركات أخرى من أجل التعاقد معها. بقيت خمسة أيام في باريس قضيتها في الذهاب والإياب بين مكتب بيير والفندق في جولات مكوكية لا تنتهي.

لم أجد ضمن خيارات بيير أي شركة تستحق أن نعقد معها الاتفاق ونبرم عقد الشراكة، لقد كانت الشركة الأساسية هي أفضل الخيارات، لذا فقد قررت المكوث هنا بانتظار القرار النهائي للشركة، وبالطبع لم يكن الأمر سهلاً عليّ، فقد كنت راغباً في التواجد مع ابني في هذه الظروف، وعلى الرغم من كل تطمينات الأطباء إلا أن القلق والخوف لم يفارقاني. وكنت

أتحدث مع كولريز عدة مرات في اليوم، ولكنها كانت تطمئنني دائماً وتخبرني بأن صحة بورج على خير ما يرام. ومع أنني لا أحب التحدث عن أعمالي مع زوجتي، إلا أنها أدركت أن هناك مشكلة ما، وأن أمور الشركة لا تسير كما يجب. لذا لم تطلب مني العودة، ولكنها لم تكن تستطيع منع نفسها من السؤال عن تاريخ عودتي. لقد علقت هنا، وأريد العودة بأسرع وقت ممكن، ولكنني مضطر إلى الانتظار، وبالرغم من عدم وجود أي مشاكل في المتجر أو المعمل، حيث إنني أتواصل معهم باستمرار، كما كنت راغباً في معرفة أخبار كنعان والبقية، فمنذ أن غادرت الاستديو ذلك الصباح لم تصلني أي أخبار عنهم، ترى ما الذي خطر لهم عندما استيقظوا ولم يجدوني، أم أنهم لم يلاحظوا غيابي. أيعقل أنهم لم يشعروا بالقلق من غيابي، لما لم يتصل بي أحدهم حتى الآن، ولكن من جهة أخرى فقد بدأوا بالعمل الآن ولا أظن بأن لديهم الوقت الكافي للتفكير فيّ، لا بد وأنهم يعملون ليل نهار... لا أعتقد أن كنعان يتحمل ضغط العمل إلى هذه الدرجة، فهو ملول، إلا أن كاتيا ملتزمة في عملها وتحب الانضباط وبالتأكيد فإنها ستؤثر عليه.. هل أتصل بهم أم أنتظر؟ من الأفضل ألاّ أتصل وأريهم مدى فضولي لمعرفة أخبارهم، كما أنني ما إن أعود سأراهم مجدداً، فلن أظل حبيس هذه الغرفة إلى الأبد، في النهاية سيتصل الفرنسيون ويبلغوننا بقرارهم.

في النهاية قاموا باستدعائي من أجل عقد اجتماع، لم يكن اجتماعاً بقدر ما هو جلسة لإبلاغي بالقرار الذي توصلوا إليه، ومن دون إضاعة الكثير من الوقت أخبروني بأنهم غير موافقين على إبرام العقد معي، كنت قد وضعت هذا الاحتمال نصب عيني منذ البداية، ومع ذلك شعرت بضيق عند سماعه.

كنت أود الصراخ في وجههم وشتمهم جميعاً بسبب تركي حبيساً في غرفة فندق طيلة هذه المدة، يتقاذفني الأمل والقلق، لكني بالطبع لم أفعل شيئاً من هذا القبيل بل رسمت ابتسامة على وجهي وصافحتهم بكل هدوء واحداً تلو الآخر، وخرجت وأنا أقول - ربما نتمكن من العمل في وقت آخر - هذه هي الاحترافية بنظر بيير الذي لا يركن لليأس مطلقاً، وكان بحثه جارياً عن شركات أخرى، وقد طلب مني البقاء عدة أيام أخرى لنرى ما يمكننا فعله، فقد شعر بالإحراج بسبب الموقف الذي حصل، لكنني رفضت الفكرة، وتوجهت إلى الفندق مزمعاً السفر على أول طائرة، وفيما كنت أضع ثيابي في الحقيبة تذكرت ما كان يقوله لي والدي على الدوام:

«إن كنت بصدد اتخاذ قرار هام، عليك التفكير بشكل جيد، ولا تقرر شيئاً في اليوم نفسه بل أتركه لليوم التالي، وستعرف حينها ما يجب عليك فعله».

تركت سماعة الهاتف من يدي قبل أن أطلب المطار، وتمددت على السرير الرحب. كانت نظراتي معلّقة على السقف فيما أفكر، حسناً ما الضير من بقائي عدة أيام أخرى فالعمل في المتجر والمعمل يسير بشكل جيد، كما أن صحة بورج على خير ما يرام، ولا أخبار سيئة عن كنعان ونهاد، سأمنح بيير بعض الوقت فربما تمكّن من إيجاد شركة مناسبة لعقد الاتفاق معها، وطالما أنني تكبدت مشقة السفر فسأحاول الاستفادة من الفرصة قدر الإمكان. اتصلت به، وأبلغته قراري، وقد سر كثيراً واتفقنا على عقد لقاء في صباح اليوم التالي مع إحدى الشركات التي تواصل معها. لكن اللقاء لم يكن مثمراً فهم كانوا يبحثون عن شركة تصنع لهم ما يحتاجون إليه بأسعار بخسة من دون الاهتمام بالجودة أو الاسم وليس عن شراكة حقيقية، وكان من الطبيعي أن أرفض الفكرة كلها، في اليوم التالي عقدت اجتماعاً مع شركة أخرى، وقد أبدت اهتماماً بالمشروع إلا أنها كانت تفتقر للتمويل وكان علينا الانتظار سنة كاملة بعد عقد الاتفاق للتمكن من تنفيذ أولى خطوات المشروع، فلم يناسبني العرض، أما أهم جهة استطعنا التواصل معها فقد كانت شركة سويدية، وقد لاقى المشروع ترحيباً لديهم، ولكن كان لا بد من عرض الفكرة على جميع الشركاء، وقد أعطيناهم ملفات كاملة عن أعمالنا وشركتنا، وأخبرهم بيير بأنهم يستطيعون التواصل معه في باريس أو التواصل معي مباشرة، وأكدوا بأنهم سيفعلون ذلك بأسرع وقت وسيبلغوننا قرارهم سواء بالنفي أو الإيجاب.

بعد ثمانية أيام من القلق والتعب في باريس عدت إلى اسطنبول، وقد اشتريت العطور ومساحيق التجميل التي طلبتها مني زوجتي، ومجموعة كاملة من ألوان الرسم من أجل بورج. وما إن دخلت إلى بيتي حتى شعرت براحة لا توصف، اشتقت لزوجتي وابني وهما أيضاً كانا متلهّفين لرؤيتي، أدركت حينها مدى حبي لهما، فهما أغلى وأحب ما في حياتي، وبينما كنت أمسّد شعر الجالس في حضني بحنان، كان يروي لي كل الأحداث التي مر بها في هذا الأسبوع. وبعد أن فرغ طلب مني أن أحدّثه عن باريس.

- حدّثني عن باريس بابا.

لم تكن المرة الأولى التي أحدّثه فيها عن هذه المدينة، ولكنني لم

أستطع أن أرفض طلبه، وأعدت على مسامعه ما كنت قد قلته في المرات السابقة. في البداية، كنت أظن بأنه ينسى لذلك يكرر السؤال ذاته عدة مرات، ولكني مع الوقت أدركت أنه يطلب ذلك للتواجد معي وسماعي وأنا أحدّثه باهتمام، وأعتقد أنها رغبة موجودة لدينا جميعاً صغاراً وكباراً، أن نقضي الوقت مع شخص نحبّه ونراه يحدّثنا باهتمام، وربما كان بورج بحاجة إلى هذا الاهتمام أكثر من بقية الأطفال، فقد كان بهذه الطريقة يرغب مشاركتي الأحداث التي مررت بها وأن أشاركه بدوري، أدركت حينها كم هو طفل حساس ومميّز، لذا قمت بسرد كل ما فعلته من أحداث مملّة في باريس، وحاولت أن أجعل منها حكاية مسلّية، لكنني فشلت بسبب الأفكار التي كان تسيطر عليّ وتمنعني من التركيز، وأعتقد أن قصتي كانت مملة جداً لدرجة أن بورج لم يعد يود سماع المزيد فتركني وشأني.

كانت كولريز قد جهّزت مائدة العشاء وطبخت الكباب بالفرن خصيصاً من أجلي، وبعد أن شبعت، ذهبت للجلوس في الشرفة الواسعة كما أفعل عادة بعد الطعام، حيث أشرب فنجان قهوتي وأنا أتأمل القناديل المضيئة على الجانب الآخر من البوسفور، والأضواء الصغيرة للسفن التي تتهادى وسط مياهه.

حاولت الاستمتاع قدر الإمكان بعودتي، ولكني لم أتمكن من طرد الوساوس والمخاوف التي كانت تنهشني طوال الوقت، وكنت أعلم علم اليقين أنني في حال لم أجد شركة أجنبية للتعاقد معها، فسأضطر لإغلاق المتجر والمعمل بعد سنوات قليلة من الآن. وبصراحة فقد فكرت أكثر من مرة في بيع كل شيء وفتح رصيد في البنك وتمضية وقتي مع عائلتي وفي منزلي، هذا الرصيد سيمكّنني أنا وزوجتي وسيمكّن بورج وأولاده أيضاً من العيش في رخاء مدى الحياة.

ألحّت عليّ هذه الأفكار بصورة أكبر في الطائرة أثناء عودتي، فقد اضطررت بسبب العمل لترك ابني وزوجتي وبلدي، والمكوث لأيام متوصلة مرهق الأعصاب بانتظار كلمة من مجموعة رجال لا تعنيهم مشاعري في شيء. وفي النهاية، عدت أدراجي خائباً. كنت أراقب الشمس التي صبغت الغيوم بحمرة الغسق، والتي جعلتني أتساءل لماذا نصرّ على اللهاث وراء العمل طوال الوقت، ونترك هذه المناظر الجميلة تمر دون أن نلتفت إليها. في النهاية، عندما أموت ماذا سيحصل لهذه الشركة وهذا الاسم الذي أُحرق أيامي من أجل الحفاظ عليه؟ سيندثر كل شيء ببساطة. عليّ أن أودّع هذه الحياة المرهقة، وأقضي بقية حياتي في هدوء مع أسرتي. لكنني كنت

أفكر في الجانب الآخر للمسألة، فعلى الرغم من أنه ليس لدي طموح جامح في بلوغ المجد، لكنني أحب عملي كثيراً، فهو سجل نجاحاتي وأحلامي، وهو المكان الذي أقضي فيه معظم وقتي من دون أن أحس بالملل مطلقاً، وقد استطعت أن أجعل من اسم أزاي علامة تجارية هامة في عالم الأزياء والموضة، بالطبع لا أتحدث عن فكرة الخلود التي تعلّق بها كنعان، فأنا رجل واقعي أرغب في أن أحيا يومي، ولا يهمّني مطلقاً ما سيحصل بعد موتي. وقرار ترك العمل لا يتعلّق بي وحدي، فأنا كما والدي من قبل أصبحنا جزءاً من عالم الأعمال هذا، وعلينا أن نستمر في الهرولة في أروقة هذه المنظومة الكبيرة، وأن لا نسمح لها بأن تلفظنا خارجها طالما نحن قادرون على التنفس. أعلم أن هذا التفكير خاطئ وأنه يفتقد إلى الإنسانية وقد كتب المئات من الفلاسفة، واليساريين، ورجال العلم والسياسة عن مساوئ هذا النظام المالي. ولكنه ظل مستمراً بكل زخم، وهذا إن دل على شيء فهو يدل بأننا كبشر نميل إلى هذا النوع من الحياة، ومن ناحية أخرى فلست أنا من خلق هذه المنظومة وخروجي منها لن ينهيها بالطبع، وإن كان شخص مثلي متعلق بأسرته إلى درجة لا توصف، وافق على البقاء في باريس وترك ابنه الذي خرج من المشفى للتو، من اجل مغامرة تجارية ومالية، فلا بد من وجود دافع قوي وراء هذه الرغبة.

ولكن ما يثير دهشتي هو موقف زوجتي فانشغالي الدائم في العمل قد منعني في معظم الوقت من مساعدتها في الاهتمام ببورج - والذي يتطلب بسبب مرضه اهتماماً فائقاً وجهداً كبيراً - ومع ذلك لم تبدِ أي رغبة في أن أترك العمل، وأتفرّغ لرعاية ابننا، وبالطبع لا يعود السبب لتعلّقها الزائد بالمال، فأنا متأكد بأنها لن تتخلى عني مهما ساءت أحوالنا كما أنها تستطيع تدبّر أمورها والتأقلم مع أصعب الظروف. وأعتقد أن ذلك يعود إلى طريقة تنشئتها، فأنا لم أتعرّف على والدها الذي كان قد توفّي، لكن والدتها امرأة متزنة وهادئة تعرف حدودها جيدا ولم يسبق لها أن تدخلت في أي شأن بيني وبين ابنتها، والأهم من ذلك أنها كانت امرأة حكيمة وقد نقلت هذه المبادئ إلى كولريز. لذا لا تتدخل زوجتي في حياتي العملية مطلقاً فهي تعرف أن هذه الحياة تقع خارق نطاق حدودها، وقد يكون هذا هو السبب في عدم رغبتها أن أبقى معها في المنزل الذي تعتبره مجال سيادتها الخاص. ففي حال بعت كل شيء، وجلست معها في المنزل سأبدأ بالتدخل في كل شيء ابتداء من الخدم والبستاني وليس انتهاء بشؤون ابننا بورج وطريقة تنشئته، وفي هذه الحال

ما الذي سيتبقى لها لتقوم به، هل يستطيع زواجنا الذي تمكن كل هذه السنوات من الاستمرار في جو من الاحترام والتوازن أن يتقبّل هذا التغيير الذي سيقلب الكثير من الموازين.

- ستبرد يا عزيزي - قطعت عليّ سلسلة أفكاري - الرياح أصبحت قوية، وأعتقد أن هناك عاصفة قادمة.

كانت تقف مستندة إلى زجاج الشرفة وقد لاحت على وجهها تعابير بت أعرفها جيداً، فقد غبت عنها ثمانية أيام ونام كل منا لوحده في السرير، صحيح أن استقبالها لي عندما عدت كان رزيناً تخللته قبلتان خاطفتان على وجنتي إلا أنني أدركت من نظرة عينيها وهي ترنو إلي الآن مدى رغبتها وشوقها لي.

بالرغم من مرور كل هذه السنوات على زواجنا فقد ظلت زوجتي محافظة على خجلها، وأذكر أنها بعد ولادة بورج ازدادت خجلاً، وتطلّب الأمر مرور عدة أشهر لتتخلص من هذا الشعور، لا أقصد أنها امرأة باردة، ولكنها بالمقابل لم تفصح ولو لمرة واحدة عن رغبتها، بل كانت تلمّح من خلال إشارات معيّنة أصبحت أعرف كيف ألتقطها، كابتسامة معيّنة ترتسم على شفتيها أو وميض يظهر في عينيها. صحيح أنني اشتقت لرؤيتها، ولكنني كنت مرهقاً لدرجة كبيرة كما أن الأفكار كانت تتلاطم في رأسي صاخبة، ولكن لم تكن بي رغبة لفعل شيء سوى الجلوس هكذا إلى ما لانهاية. لذا فقد قررت تجاهل رغبتها وقلت معقّباً على كلامها:

- معك حق، إنها تتجه نحونا وكأنها تحاول الدخول إلى المنزل.
- وربما تفعل ذلك من أجل أن تدخل أنت.

قالت ذلك كأقصى تصريح يمكن أن تقدّمه عن رغبتها. ولكني بقيت مصراً على تجاهل الأمر.

- كم الساعة؟
- قاربت الحادية عشرة.
- أريد البقاء هنا لبعض الوقت.

أجبت وأنا أرسم ابتسامة على شفتيّ ولكنني لم أتمكن من مواجهة نظراتها.

- لم تسر الأمور على ما يرام في فرنسا لذا فأنا قلق مما سيحدث.

على الفور تغيّرت تعابير وجهها ونحت نحو الإذعان.

- سأحضر لك بطانية، فالجو بادر وقد تمرض إن بقيت هكذا.
- شكراً لك.

ذهبت لإحضار البطانية وهي تحاول إخفاء خيبتها، وبعد أن غطتني دمدمت قائلة:

- أنت غاضب مني أليس كذلك؟

كانت تنظر إليّ والشفقة تبدو واضحة في عينيها، وكأنها تنظر إلى ابنها وليس زوجها.

- لما سأغضب منك؟

ضممت يديها بين راحتي وقد كانتا باردتين جداً، وطبعت قبلة حانية على شفتيها.

- شكراً لك، شكراً يا عزيزتي.

سحبت يديها بلطف، وبدأت تمسّد شعري بحنان.

- هل أحضر لك كأساً من الحليب أو الشاي؟
- شكراً لا أريد، اذهبي للنوم...
- حسناً، لا تتأخر كثيراً في الجلوس هنا، الجو بارد ويبدو أن المطر بدأ بالهطول.

عندما غادرت كولريز شعرت بالندم لأنني تجاهلت رغبتها، وكان من الممكن أن ألحق بها وأصلح الموقف لكن لم تكن بي رغبة، عليهم اللعنة أولئك الفرنسيين فَهُمْ السبب. بعد لحظات سمعت صوت إغلاق أحد الأبواب. لقد دخلت إلى الحمام لتنظف أسنانها، لا بد وأنها مكتئبة ولكني لم أفعل ذلك عن عمد. هناك مقولة يرددها البعض بأن لا ننقل مشاكل العمل إلى المنزل، ولكنني لا أعتقد بهذه المقولة، فمن المستحيل تحقيق ذلك، إلا إن تركنا رؤوسنا في مكان العمل وعدنا من دونها إلى المنزل. كما أن كولريز لم تبدِ أي إصرار أو تمسّك برغبتها، فقد استسلمت على الفور وغادرت. إلا أنني أدركت بأنها لا تستطيع تجاوز ما نشأت عليه. لو كانت كاتيا... أجل لو كانت هي كيف ستتصرف، هل ستتركني أم أنها ستظل مصرّة على رغبتها حتى تقنعني؟ أظن أنها ما كانت لتتركني وتستسلم بهذه البساطة أم لعلّي مخطئ، فعندما رأيتها مع كنعان كانت توحي بأنها امرأة صريحة في إبداء رغباتها، كما أنها امرأة جريئة بشكل عام، ولكن بالمقابل هناك الكثير من النساء اللواتي يتصرفن بحرية مطلقة مع الآخرين وفي هذه النقطة بالذات يعانين الخجل، هذا على الأقل ما يقوله الأصدقاء، وخاصة كنعان صاحب الخبرات الواسعة في مجال العلاقات النسائية، ولكن إن كانت كاتيا خجولة ما الذي يجعل كنعان يتعلق بها إلى هذا الحد، قد يكون الحب. أظن أن علاقتهما ناجحة على جميع الأصعدة، كما أن كاتيا امرأة

روسية والنساء الروسيات... سحقاً لهذه الأفكار التي يتداولها الناس فالنساء الروسيات اضطررن للقيام بما يشاع عنهن بسبب الأحوال الاقتصادية المزرية التي مرت بها بلادهن وهذا ظرف قد تتعرّض له النساء أينما كنّ سواء في تركيا أو بريطانيا أو سواها... ولكن من الواضح أن كاتيا تستمتع مع كنعان، ربما لو كانت على علاقة بسواه لما أظهرت كل هذه الرغبة والشغف.

فجأة أضاءت القمم على الطرف المقابل وبعد ثوان معدودة ضجّت السماء بدويٌ هائل، وتلتها أصوات متقطعة أقل صخباً، ولكن من الواضح أن العاصفة قد بدأت وأخذ المطر ينهمر بغزارة ويرسم خطوطاً رهيفة على الزجاج فيما عويل الرياح الصاخبة يهز نوافذ الشرفة فكانت إيذاناً لي كي أدخل فقد بدأ البرد يتغلغل إلى عظامي، وفجأة انشطرت السماء ونزل عمودان من البرق على القمم المقابلة تلاهما رعد عنيف جعل سطح الشرفة يرتج، لا بد وأنهما نزلا في مكان قريب. وعندما نهضت للدخول التقيت بكولريز عند الباب.

- بورج يريدك أن تذهب إليه.
- لقد خاف أليس كذلك؟
- أجل، فالصوت كان قريباً جداً.
- أين هو الآن؟
- في غرفته.

توجهنا سويّة إلى غرفته، حيث كان مستلقياً على سريره وقد غطى رأسه بالوسادة، أزحتها قليلاً وأنا أقول له:

- ما الأمر يا بني أتبحث عن الصاعقة التي نزلت قبل قليل؟
- هااا؟
- الصاعقة ليست تحت وسادتك، لقد نزلت في مكان بعيد، هيا أخرج رأسك ولنتحدث قليلاً.

اختلس نظرات حائرة وعاد لإخفاء رأسه.

- هيا بني، أتخاف من الصواعق؟

رفع رأسه قليلا ًوهو يقول:

- لا أخافها.
- أنا أيضاً لا أخاف منها، فالصواعق لن تضرب بيتنا.

نظر إليّ وهو راغب في المزيد ليصدّق.

- لن تضربه؟

- بالطبع - وأبعدت الوسادة عن رأسه - لأننا وضعنا مانع صواعقٍ فوق سطح المنزل. أتعلم ما هو مانع الصواعق؟

لم يكن الخوف قد زايله تماماً ولكنه انشغل عنه قليلاً بالاستماع إليّ.

- لا أعلم.

- لا أصدّق - التفت إلى زوجتي - كيف لم تخبرهم المعلمة ما هو مانع الصواعق؟ - ثم توجهت نحو ابني مرة أخرى - مانع الصواعق هو جهاز يمتص الصاعقة ويبطل مفعولها. وعندما نضعه على سطح المنزل لا تستطيع الصواعق أن تؤثر عليه. هل فهمت الآن؟

- أتعني أن مانع الصواعق لن يسمح للصاعقة أن تؤذينا؟

- بالطبع، هل رأيت من قبل صاعقة تضرب منزلنا؟

- لا.

- ولن تضربه صاعقة طالما لدينا هذا الجهاز.

- لن تضربه أبداً؟

تساءل محاولاً التأكد أكثر.

- أبداً، ولكن هل رأيت مانع الصواعق من قبل؟

- كلا لم أره.

قال وهو يحرّك يديه نافياً، حينها أدرك بأنه بدأ بالتغلب على خوفه وينسجم مع حديثي.

- غداً صباحاً ما أن نستفيق سنخرج لأريك إياه.

- حسناً.

ولكن القلق عاد يرتسم على وجهه البريء.

اقتربت مني كولريز هامسة.

- أظن أنه يريد أن ينام في غرفتنا هذه الليلة.

- أتعلم بأنني أحب التفرج على العواصف عندما أكون في المنزل، هل تابعت عاصفة من قبل؟

كان ينظر إليّ باستغراب وهو يومئ برأسه نافياً. فأشرت نحو النافذة وأنا أقول:

- معك حق فلا يمكن مشاهدتها من هذه النافذة الصغيرة، ما رأيك أن تأتي معي إلى غرفتنا ونتفرج عليها سوية؟

كما يفعل في كل مرة فقد نظر إلى والدته طالباً الموافقة قبل أن يقرّر.

- حسناً ستنام معنا الليلة فقط، ولكن لا تفكر في جعل الأمر

عادة.

حذّرته كولريز.

أشرق وجهه وهو يقول:

- حسناً أعدك.

انتقلنا إلى غرفتنا، وأنا أحمله على ذراعي فيما تأبطت زوجتي ذراعي الأخرى. وجلسنا أمام النافذة الكبيرة نشاهد العاصفة حيث كانت السماء تضيء بين كل لحظة وأخرى ببُروقٍ تفضح التشققات التي تظهر بين كتل الغيوم هنا وهناك، ولكن ما إن جلس بورج في حضني حتى غفا، ولم يتمكن من مشاهدة العرض.

- هل نعيده إلى غرفته.

- لا - أجابتني - فقد وعدناه أن ينام معنا.

كان صوتها خالياً من العتب أو الضيق، كان واثقاً وحنوناً ودافئاً كهذا المنزل الذي يضمنا جميعاً ويحمينا من العواصف.

# (15)

استيقظت صباحاً على صوت كولريز وبورج وهما يتجادلان كما في كل صباح، فبورج يحاول إيجاد الأعذار لينام بضع دقائق إضافية، وهي تثور لكسله الصباحي المزمن. كانت أصوات هذه المماحكات بين ابني وزوجتي أكثر الأشياء التي كنت أفتقدها في تلك الصباحات الكئيبة لفنادق باريس.

نظرت إلى الساعة، وكانت تشير إلى السابعة والنصف والمطر لا يزال يهطل بغزارة منذ الأمس. فكرت في النهوض وأخذ حمام سريع ومن ثم تناول الفطور كي لا أتأخر على المكتب، ولكن جسدي ظل ملتصقاً بالفراش الدافئ لا يريد مفارقته، لذا استسلمت إلى رغبته، يبدو أن بورج يودّع والدته التي كانت تخاطبه بحنان وقد نسيا ما حدث قبل قليل، ولا بد أنها ستأتي لكي توقظني الآن، خططت لتعويضها عن ليلة أمس فما أن تقترب مني سأحتضنها و... لكن صوت رنين الهاتف قطع عليّ أحلامي. كان الجهاز فوق الطاولة الصغيرة بجانب السرير، رفعت السماعة.

- ألو.
- ألو السيد سليم؟

سألني صوت متردد.

- أجل.
- أعتذر على إزعاجك في هذا الوقت.
- لا عليك. تفضّل.

أدرك صاحب الصوت بأنني لم أتعرف إليه.

- أنا ممدوح سيدي.

إنه مدير المعمل.

- أهلاً ممدوح. ما الأمر؟
- في الحقيقة هناك مشكلة. لقد فاض نهر كارليديرى مجدداً، وتسربت المياه إلى المستودع، وابتلت بعض الأقمشة والخيوط.
- سحقاً. إنها المرة الألف.

ألن تنتهي هذه المشكلة، فبعد كل عاصفة يفيض هذا النهر، ويُغرق مستودعات جميع المعامل في تلك المنطقة، وقد تحدّثنا مع رئيس البلدية عشرات المرات، حتى إننا قمنا بكتابة شكوى رسمية وقّع عليها جميع أصحاب المعامل والمستودعات وقدّمناها للبلدية وعلى إثر ذلك قابلنا الوزير الذي ترك لدينا انطباعاً يوحي بالثقة وهو يقول:

- إن المدينة تتسع يوماً بعد الآخر والعشوائيات تغزو أطرافها بسرعة جنونية، ونحن نحاول قدر الإمكان أن نلبي جميع المطالب، ولكننا نعجز عن ذلك في بعض الأحيان، فميزانية البلديات لا تتناسب مع نموها المتسارع، وإذا لم تسهموا في تقديم التكاليف فلن نستطيع حل المشكلة لوحدنا.

وعلى الرغم من اعتراض البعض فقد استطعنا جمع التكاليف كاملة، وقدّمناها للبلدية التي بعثت العمال لحل المشكلة، وظلوا يعملون لشهرين متواصلين، ولكن النتيجة أن النهر عاد يفيض منذ أول عاصفة.

- وهل تضررت البضائع؟

سألته بضيق.

- لا أظن ذلك سيدي، فقد انتبه أمين المستودع للمشكلة باكراً واستطعنا تدارك الأمر، كما قمنا بنقل الأقمشة والخيوط إلى صالة الطعام، لكن قسماً منها كان قد ابتلّ.

- وهل تلفت الأقمشة التي تعرضت للبلل؟

- لا نستطيع أن نعرف قبل أن تنشف، سترى الأمر بنفسك عندما تأتي.

- حسناً سأوافيكم بعد ساعة.

لم أتمكن من الوصول بعد ساعة على الرغم من أنني غادرت المنزل حتى دون أن أتناول الفطور، فبالرغم من مهارة السائق أورهان وخبرته في الطرقات الفرعية إلا أننا لم نتمكن من التغلب على أزمة السير الصباحية الخانقة في شوارع اسطنبول، وخاصة في يوم ماطر كهذا، لذا تأخرت حوالي الساعتين، ولكن ممدوح اتخذ كل التدابير اللازمة من أجل تلافي الأضرار، ولم يكن تأخّري ليشكّل فارقاً كبيراً، وقد اتصل بشركة التأمين أيضاً من أجل تعويضنا عن الضرر الحاصل، والتي أرسلت بدورها أحد موظفيها على الفور.

- اقترح أن تتصل بالسيد كنعان وتخبره بالمشكلة، وسيحرص هو على سير الأمور بسرعة.

كان سبب اقتراحه أنني اعتمدت في موضوع تأمين أموالي ومعملي على شركة كنعان. فممدوح رجل ضليع في عمله ويعرف كيف يتصرف، وقد كان يحدثني فيما كنا نجتاز الباب سوية إلى الداخل. وعندما رأيت الوضع، أدركت أن الخسائر ليست كبيرة جداً، ويمكن تلافيها إلا أنني عندما دخلت المستودع ورأيت الأرض غارقة في الماء شعرت بالضيق، وقد حاول عارف أمين المستودع التخفيف عني.

- هوّن عليك سيدي، فقد مرّ الأمر بسلام، والأضرار كما ترى ليست كبيرة جداً.

- صحيح أننا استطعنا الإفلات هذه المرة ولكن الشتاء قد بدأ للتو، ولن تكون هذه العاصفة الأخيرة.

- لقد أخطأنا باعتمادنا على البلدية، كان يجب أن نتصرّف بأنفسنا ونحلّ المشكلة - علّق ممدوح.

- وما الذي نستطيع فعله هل نوقف النهر؟ - وبدا صوتي غاضباً رغماً عني - لقد اتصلت ببقية أصحاب المعامل أكثر من مرة ولكنهم لم يساعدوني.

ممدوح رجل صريح ولا يعرف المداهنة، فهو يجاهر بآرائه عندما يكون مقتنعاً بصحتها دون اعتبار لأي شيء، ولهذا السبب فأنا أحترمه كثيراً، لذا فقد استمر في طرح فكرته دون اكتراث لغضبي.

- بالطبع لا يمكن إيقاف النهر لذا علينا إيجاد حل آخر، واقترح أن نقوم ببناء مستودع جديد بعيداً عن مجرى النهر، قد يكون الأمر مكلفاً، ولكن ما من حل آخر وسنبقي جميع الأقمشة في صالة الطعام حالياً.

كان اقتراحاً جيداً، ولكنني أعاني من أزمة مالية حالياً ومن غير الوارد أن أتحمل تكاليف بناء مستودع جديد. احتفظت بهذه الأفكار لنفسي ولم أعطهم قراراً حاسماً.

- حسناً سنرى، ولكن دعونا نذهب إلى صالة الطعام أولاً.

كانت الصالة في وضع مزرٍ وتفوح منها رائحة العفونة، وقد أزيحت الطاولات والكراسي ووضعت الأقمشة وصناديق الخيوط في كل مكان مشكّلة فوضى عارمة.

- سأكلّف ورشة البناء لكي تباشر في بناء المستودع، ولكن في الوقت الحاضر اتركوا الأقمشة هنا، وأحضروا بعض الألواح الخشبية لفصلها عن طاولاتكم.

بدا الضيق على ممدوح.

- عذراً سيدي، ولكن المكان لن يتسع لكل العمال.

- فليأكلوا على دفعتين بالتناوب - قلت ذلك مركّزاً في عينيه - أجمع العمال وأوضح لهم المشكلة، وإن اقتضى الأمر فزد لهم مدة استراحة الغداء ولكن دون أن يؤثر الأمر على كمية الإنتاج.

وعندما أدرك أن ما من جدوى للنقاش أذعن موافقاً.

- كما تشاء سيدي، سنعمل على تطبيق الفكرة منذ اليوم.
- ليس لدينا حل آخر حالياً لنتدبّر أمرنا لحين إيجاد حل مناسب.
وقد وضعت بذلك نهاية للنقاش.
تدخّل عارف مؤيداً الفكرة:
- لا مشكلة لدينا لو تأخرنا نصف ساعة عن تناول غدائنا، المهم أن يستمر عملنا ولا نصبح مثل معامل الحكومة التي تغلق أبوابها الواحد تلو الآخر ويخسر آلاف العمال مورد رزقهم.
شعرت ببعض الراحة وأنا أغادر المعمل فشركة التأمين ستغطي الأضرار، وقد تم إيجاد حل مؤقت لمشكلة المستودع أيضاً، اتصلت على جوال كنعان ولكنه كان مغلقاً، فاتصلت بسكرتيرته التي أخبرتني أنه لم يأت إلى العمل منذ ثلاثة أيام ولكنه في كل صباح يتصل ليطمئن على سير الأمور، وقد طلبت منها أن تخبره أنني بحاجة للتحدث إليه في أمر هام، لم أكد أغلق الهاتف حتى اتصل بي بيير.
- أهلاً بيير ما أخبارك؟
- أنا بخير لدي أخبارك ستفرحك.
- حقاً؟ هل وافقت الشركة السويدية على توقيع العقد معنا؟
- لا ولكن الروس يريدون أن يشاركونا العمل.
- الروس؟
دمدمت مستغرباً.
- أجل وهم متحمسون للفكرة.
- تعني أنهم يريدون أن نصبح شركاء؟
- لا أعلم ما هي الصيغة التي ستجمعكم، فقد عرضت عليهم الموضوع ويبدو أنهم متحمسون، وعلى الرغم من أنهم لا يعملون في مجال الصناعة النسيجية لكنهم يريدون التوسع في كافة المجالات، ويريدون اللقاء معك من أجل مناقشة الفكرة.
كنت أتوقع أن يتصل بي من أجل الشركة السويدية لكن اقتراحه هذا خيّب لي أملي، فقلت بضيق:
- لقد جعلتني أنتظر في باريس ثمانية أيام وعدت في النهاية خائباً، والآن تريدني أن أسافر إلى موسكو من أجل احتمال يمكن ألا يتحقق؟
- ومن قال بأن عليك أن تسافر؟ السيد ميخائيلوف موجود الآن في فندق ريتشموند في اسطنبول وأظن أنه قريب من متجرك.
- أجل قريب جداً - أجبته مستغرباً - إنه ملاصق للسفارة الروسية

في بيه أوغلو، ولكن ما الذي يفعله في اسطنبول؟

- يبحث عن شركاء من أجل الدخول معهم في مشاريع جديدة. إنه أحد حيتان المال الجدد في روسيا، ولكن المشكلة أن هذا الرجل لا يتقن سوى الروسية، على كل اتصل بالفندق واطلب الغرفة 505 فابنه سيرغي ينتظر اتصالك، وتستطيع التحدث معه بالإنكليزية، ولكن عليك إيجاد مترجم روسي إن اتفقتم على اللقاء فيما بعد.

- متى يتعين عليّ الاتصال بهما؟
- اتصل على الفور، فهما الآن في الفندق.
- حسناً سأتصل وأبلغك بالنتائج، شكراً على كل حال.
- سأكون بانتظار أخبار سارة منك. إلى اللقاء.

سرّني هذا الاتصال فبعد تلك الرحلة وكل ذلك الانتظار الطويل أجد من يبحث عني ويريد مشاركتي هنا في عقر داري. لذا اتصلت بيشيم على الفور، وطلبت منها أن ترسل لي رقم الفندق وبعدها اتصلت بسيرغي الذي رد عليّ بكل لباقة وأخبرني بأنه كان يتوقع اتصالي، واتفقنا أن نلتقي في الخامسة مساء في المتجر. كان عليّ أن أجد مترجماً بسرعة لكي أتمكن من التواصل معهم وبطبيعة الحال فأول من خطر ببالي هي كاتيا. حاولت الاتصال بكنعان مجدداً فرنّ محموله وقد سر لسماع صوتي. وبدأ يعاتبني لأنني لم أتصل به كل هذه الفترة، لكن لم يكن لديّ وقت أضيّعه لذا أخبرته بمشكلة المعمل، وقد وعدني أن يتصل بالموظفين على الفور من أجل أن يتصرفوا بسرعة، ومن ثم أخبرته عن حاجتي لمترجم روسي من أجل اجتماع اليوم فقال لي بأسى:

- كاتيا ليست هنا لقد ذهبت.
- إلى أين ذهبت؟ هل تشاجرتما؟
- لم نتشاجر لكنها تركت الاستديو وخرجت.
- لماذا؟
- مجرد سوء تفاهم، أتذكر شيرمين تلك الفنانة الشقراء الطويلة التي ذهبنا العام الماضي إلى حفل افتتاح معرضها؟ والتي أخبرتك بأنها تشتري معظم ثيابها من متجرك.
- أتقصد تلك المرأة التي أغرقت وجهها بمساحيق التجميل؟
- أجل أتت البارحة لزيارتي في الاستديو، وكانت تتصرف معي بحميمية زائدة، حاولت تدارك الأمر لكنها لم تتركني وشأني ويبدو أن كاتيا قد أحست بوجود شيء خاص بيننا فخرجت غاضبة. وقد اتصلت قبل قليل

وأخبرتني بأنها لن تعمل اليوم.

- ولما لم تشرح لها حقيقة الموقف؟

- لقد فعلت يا صديقي، وبذلت كل جهدي ولكنك تعرف جنون النساء، لذا تركتها حتى تهدأ قليلاً، كما أنني مشغول جداً اليوم ولدي لقاءات هامة، صدّقني إن هذا المعرض سيكون حدثاً فنياً هائلاً.

كان صديقي كعادته يسرف في التفاؤل ويحاول استباق الأحداث دون التأكد، ولكنني لم أكن في مزاج يسمح لي بمجاراته فقد كنت أفكر في كاتيا.

- إذاً فمن الأفضل ألا أتصل بها فقد ترفض مساعدتي.

- وما شأنك بالخلاف الحاصل بيننا، بالطبع ستساعدك، اتصل بها الآن وقد تكون فرصة من أجل أن تقنعها في ما بعد لكي تصالحني.

- أمتأكد من أنها سترد عليّ؟

- أجل متأكد. وإن شئت لا تحدّثها عني وانتظر حتى تخبرك هي بالمشكلة.

- حسناً أعطني رقم هاتفها.

كنت متردداً بشأن الاتصال بها وخائفاً من رد فعلها، على الرغم من أنها في كل مرة نلتقي فيها تعاملني بمنتهى الاحترام والرقة. وأخيراً استجمعت شجاعتي واتصلت وبينما كان هاتفها يرن كان القلق يرن في داخلي.

- أهلاً سيد سليم.

ردّت عليّ بصوتها اللطيف.

- مرحباً كاتيا كيف حالك؟

- شكراً أنا بخير، وأنت كيف حالك لقد سمعت بأنك سافرت إلى فرنسا.

- أجل وقد عدت البارحة.

وبعد صمت قصير قلت.

- اتصلت من أجل طلب المساعدة، اليوم لدي اجتماع مع بعض الأشخاص الروس وأنا بحاجة إلى مترجم فهل تعرفين أحداً من أصدقائك يمكن أن يقوم بهذه المهمة؟

- لا داعي لأن أطلب مساعدة أحد، أنا سأقوم بالأمر.

أجابتني على الفور وبنبرة صادقة.

- لا أريد أن أتعبك وأن أقطع عليك إجازتك اليوم.

- كنعان أخبرك بأنني في إجازة؟
- أجل، اتصلت به من أجل الحصول على رقم هاتفك وقد أخبرني بأنك متعبة ولن تذهبي إلى الاستديو اليوم.
- اتركنا منه الآن وقل متى موعد الاجتماع.
- الخامسة مساءً في المتجر، أعتقد بأنك تعرفين مكانه.
- سأكون هناك في تمام الخامسة.

شعرت براحة كبيرة فأخيراً سأتمكن من الخروج من هذا المأزق، ولكن مهلاً لا أريد استباق الأمور، فمن المبكر معرفة ما سيحصل، ومع ذلك فقد شعرت بالتفاؤل.

- أين تريد أن تنزل سيدي؟

أعادني صوت السائق إلى الواقع وانتبهت بأننا وصلنا إلى تارلي باشي.

- أنزلني في شارع ميس، لا أريد أن أطيل طريقي اليوم.

نزلت في مقدمة الشارع، وبدأت أسير تحت رحمة الرياح العاتية والرذاذ البارد الذي تنثره على وجهي على الرغم من توقّف المطر.

شارع ميس هو شارع قصير محصور بين شارعي تارلي باشي والشارع الكبير، ويمكن بسهولة إحصاء المتاجر الموجودة على جانبيه، فهناك صيدليتان ومتجر أحذية ومحلا حلاقة ومحل لبيع الشعر المستعار وبقاليتان ومقهيان ومحل لبيع الساعات بالإضافة لبعض المطاعم. وبالرغم من أنه شارع قصير إلا أنه من أكثر المناطق ازدحاماً في بيه أوغلو، خاصة في الصيف عندما تخف وطأة شمس الظهيرة، وتبدأ المطاعم باستقبال زوارها الذين يفضلون الجلوس على الطاولات التي اصطفت خارجاً، كما أنه يحتل المرتبة الثانية بعد شارع ثانوية غلطة سراي في استقطاب التجمعات والتظاهرات السياسية على اختلاف توجهاتها، فقد تجد هنا اليساريين والمحافظين وكل التصنيفات السياسية الأخرى، لذا أتجنب السير في هذا الشارع في الأوقات العادية، ولكن انهمار المطر قد خفّف من وطأة الزحمة.

وصلت شارع الاستقلال الذي أكسبه المطر لوناً فضياً يتلألأ ببهاء عند انعكاس الأضواء عليه، وقد أخذتني الأفكار ولم أستفق إلا على صوت الترام الأحمر اللطيف فتنحيت جانباً لكي يمر. كان الترام يتهادى في سيره ليتمكن ركابه من مشاهدة معالم بيه أوغلو التاريخية الجميلة. وبسبب المطر لم يكن الأطفال يتدلون من بابه كما يفعلون عادة، وبعد خطوات قليلة وجدت نفسي أمام واجهة متجري الفخم. كانت الدمى الموضوعة في واجهته بحرفية توحي بأنها ستكتسب الحياة فجأة وتخرج من هناك لتبادلني

الحديث. معاطف أنيقة، فساتين، وقبعات، وبناطيل جينز، وكنزات صوفية صنعت بدقة وبراعة... إنها نخبة تصاميمنا لفصل الشتاء لهذا العام والتي تعرضها هذه الدمى الجميلة. لم أغب سوى ثمانية أيام ومع ذلك أحسست بأنني اشتقت للمكان، ونظرت بإعجاب إلى اسم أزاي المكتوب بحروف كبيرة على حائط المبنى، وأنا أفكر فيما سيقوله والدي لو كان حياً الآن وشاهد ما استطعت تحقيقه من نجاح. إلا أن بقعة من الرطوبة التي صبغت الحائط باللون الأخضر قد لفتت نظري وأصابتني بضيق شديد. وما إن دخلت إلى مكتبي حتى طلبت جيهان - مدير المتجر - وأمرته أن يذهب إلى أمام المحل ويرى هذا التشويه الذي أصاب الحائط.

- أنا أيضاً رأيته من قبل سيدي وكنت أفكر في طلاء الحائط ولكن كما تعلم علينا انتظار انقضاء الشتاء.

- لا أريد مسوغات من هذا القبيل وهذه البقعة يجب أن تختفي، جد طلاء مقاوماً للمطر أو اخترعه إن شئت، المهم أن يتم طلاء الحائط. كيف سنقنع زبائننا بأننا نروّج للأناقة والجمال عندما يرون واجهة المتجر مشوّهة بهذا الشكل.

- معك حق سيدي.

- وأرجو أن يتم الأمر على الفور قبل موعد الاجتماع مع الروس، ولا أريد لعمّال الطلاء أن ينشروا الفوضى هنا وهناك.

- حسناً سيدي سأتصرف على الفور.

وما إن خرج حتى دخلت السكرتيرة ومعها مجموعة كبيرة من الملفات والأضابير وهي تقول:

- هل تريد تناول الفطور سيدي أم ستنتظر حتى موعد الغداء؟

- اطلبي لي بعض الشطائر.

- على الفور.

- ضعي هذه الملفات على الطاولة وسأقوم بمراجعتها بعد قليل.

عادت لوضع الملفات أمامي وقد نوّهت قبل أن تخرج:

- لكن هناك بعض الأمور التي يجب أن أوضحها لك سيدي.

نظرت إلى الملفات فوجدت أنها بحاجة إلى عدة أيام متواصلة من العمل قبل أن انتهي منها، مواعيد وتقارير وعشرات الأمور الأخرى، وأدركت أن أمامي أياماً حافلة من العمل لكنني لم أنزعج بل على العكس كنت متفائلاً رغم كل ما حصل. وعلى ورقة قائمة المتصلين وجدت اسم نهاد لذا قررت الاتصال به فقد اشتقت إليه كما أنني لن أباشر بالعمل قبل الانتهاء

من تناول الفطور.

سرّ كثيراً لسماع صوتي، وسألني عن رحلتي وعن صحة بورج ومع ذلك أحسست بأنه ليس على ما يرام، ولكنه لم يستطع كتمان الأمر كثيراً.

- يجب أن أراك لنتحدّث في أمر هام.

لا بد وأنه بحاجة إلى النقود كعادته، إما من أجل جامعة ديزى أو من أجل مصروفه أو أنها ديون مؤجلة حان وقت سدادها. على كل حال لم أشغل نفسي بالتفكير كثيراً لأنني سأعرف السبب عندما أراه.

- لا مانع لدي، ولكنني مشغول جداً هذه الفترة.

وبعد صمت قصير أجاب:

- أعلم ذلك، فقد عدت للتو من باريس ولا بد أن الضغط ازداد أكثر بعد توسّع أعمالك، ومع ذلك عليّ أن أراك بأسرع وقت.

- سأراك بعد يومين، ما رأيك؟

تمهل للحظات ظننت خلالها بأنه سيعترض ولكنه لم يفعل.

- حسناً، ولكن لا تتأخر أكثر من ذلك.

يبدو أنه بقي ثلاثة أيام على موعد سداد الدين لذا فقد ناسبه اقتراحي.

- لا تقلق سأتّصل بك ما أن تخفّ وطأة العمل قليلاً.

أغلقت سماعة الهاتف، وأنا أتساءل من الذي ساعده آخر مرة أنا أم كنعان؟ أظن أنه كنعان لذا كان دوري الآن في مدن يد العون لصديقي.

# (16)

أخبرتني السكرتيرة بأن امرأة تدعى كاتيا تود رؤيتي، لقد كنت غارقاً في العمل ولم أنجز بعد ما يتوجب عليّ إنهاؤه اليوم ومع ذلك طلبت منها أن تدخلها فوراً، وبدأت بترتيب الأوراق المتناثرة على طاولة المكتب.

- مرحباً.

جاءني صوتها العذب، وعندما رفعت رأسي قابلتني عيناها الجميلتان بذلك اللون الذي يسحرني في كل مرة أراهما فيها. لمحت ابتسامة صغيرة على شفتيها تلاشت على الفور.

- أهلاً - ومددت يدي لأصافحها بحرارة - كيف حالك؟

للمرة الثانية، حاولت رسم ابتسامة لكنها لم تنجح.

- بخير.

أجابت بصوت مضطرب.

- وأنت كيف حالك؟

- أنا أيضاً بخير، تفضلي بالجلوس.

بدأت بخلع معطفها فتقدّمت لأساعدها.

- دعيني أساعدك.

لم تعترض مطلقاً، كانت ترتدي التنورة السوداء التي ارتدتها في حفل افتتاح معرض كنعان وبلوزة رمادية اللون، كل الثياب والألوان تليق لها وتبدو أجمل عليها. وبعد أن علّقتُ معطفها واستدرت وجدتها جالسة على المقعد المواجه لطاولتي، صحيح أنها بعيدة عني قليلاً ولكن المهم أنني أستطيع النظر إليها قدر ما أشاء.

- يبدو أنني أبكرت في المجيء.

- لا - نظرت إلى ساعتي كانت الخامسة إلا ربع - لقد أتيت في الوقت المناسب، عليّ أن أعطيك بعض المعلومات قبل أن يحين موعد الاجتماع.

- أعتقد أنه اجتماع عمل.

- أجل - قلت وأنا أجلس - أظن أنك سمعتي عن رغبتي في إنشاء معمل جديد، وقد أبدى الروس رغبتهم في الإطلاع على المشروع، وسنلتقيهم اليوم.

- من أي مدينة هم؟

- صدّقيني لا أعلم فهذه هي المرة الأولى التي سألتقيهم فيها، وإن

لم يكن لديك مانع فعندي طلب إضافي.

نظرت إلي بفضول.

- بما أنكِ روسية الأصل مثلهم أريد منك أن تراقبي حركاتهم وأسلوب تعاملهم وتشرحي الانطباع الذي كوّنته عنهم بعد انتهاء الاجتماع، طبعاً إن لم يكن لديك مانع.

- لا مانع بالتأكيد، ولكني أحذّرك بأنني لا أفهم أي شيء عن عالم المال والأعمال. صحيح أن سرمت... أقصد زوجي كان خريج كلية الاقتصاد لكنه لم ينقل إليه خبرته في هذا المجال.

- الموضوع لا يتطلب منك معرفة شيء عن العمل - أجبت وأنا أتأمل عينيها - ولكني أثق بحدسك وسأعتمد عليه.

بدت نظرة ساخرة في عينيها وهي تقول:

- لكنك لا تعرفني كما يجب.

- ما أعرفه حتى الآن يكفيني.

لم تقل شيئاً واكتفت بوضع قدم فوق الأخرى فانحسرت تنورتها عن ساقيها، حاولت التهرب بنظراتي وأنا أكمل:

- ماذا تودين أن تشربي؟

- كأس ماءٍ لو سمحت.

- ما رأيك بفنجان قهوة تركية بالرغوة إلى جانب كأس الماء؟

اختفى الضيق من وجهها وهي تسأل بدهشة:

- ماذا؟

- إنه تعبير نستخدمه لوصف القهوة التي تصنع بمهارة وإتقان وتطفو الرغوة على وجهها. ألم تسمعيه من قبل؟

- لا.

وأخيراً ظهرت ابتسامة صغيرة على وجهها.

- أنا أعرف القهوة الحلوة أو الوسط أو من دون سكر وأفضّل الوسط منها.

- إذاً سأطلب لك فنجان قهوة وسط بالرغوة.

- حسناً. أنا متشوقة لرؤية شكل هذه القهوة بالرغوة.

طلبت من السكرتيرة أن تحضر لنا القهوة وعندما التفت إليها كان وجهها قد اكتسى مجدداً بالحزن. لم استطع كبح نفسي من السؤال على الرغم من معرفتي للسبب.

- تبدين شاحبة، هل أنت مريضة لا سمح الله.

بدا الشك على وجهها، فأكملت لأبعد الشبهة عني - لقد تغيّر الجو بسرعة والكثيرون يصابون بالزكام في هذه الفترة من السنة - لا أريد أن تعرف بأن كنعان أخبرني بما حصل.

- لا لست مريضة - بدا واضحاً أنها صدقتني - إنه التعب غالباً، فنحن نعمل منذ عشرة أيام بشكل متواصل في الاستديو.

- وكيف يسير العمل؟

- جيد - ردت ببطء - راسين، أعني مهندس الديكور شخص محترف جداً، ففي عشرة أيام تمكّنا من تصوير سبعة عشر صورة، لقد فاق الأمر توقعاتنا.

كانت ستكمل لو أن يشيم لم تصل وتخبرني بأن ضيفينا هما أيضاً أبكرا في الوصول، أهو تقليد روسي يا ترى؟ ولكنني لن أسألها سؤالاً كهذا بالطبع.

نزلنا لنستقبل ضيفينا، كان ميخائيلوف رجلاً أصلعاً بينما ابنه قد رفع شعره وثبّته على شكل عرف يتوج رأسه، كلاهما كان طويل القامة بشكل ملفت ولهما لون العينين نفسه، لون رمادي كلون السماء في يوم ماطر، الفرق الوحيد أن عروق الدماء كانت أوضح في عيني الأب وهذا يدل على أن شريكي المستقبلي كمعظم الروس شغف بالشراب. وبعد لحظات قليلة من جلوسنا بدا الارتياح عليهما، وتصرّفا بطريقة ودية بعيداً عن التكلّف، قد يعود السبب لوجود كاتيا أو أن بيير قد بالغ في مدحي لهما، من جهتي حاولت البقاء متحفّظاً قدر المستطاع، وقد قامت كاتيا بترجمة ما أقوله ونقلت إليهما فكرة مختصرة عن تاريخ المعمل الذي ورثته عن والدي وقمت بتوسيعه، وعن متجر أزاي ومدى نجاح تصاميمنا، في هذه الأثناء كان اهتمام الأب مركزاً على ساقيّ كاتيا أكثر من حديثها فيما كان الابن يتابع كل كلمة بدقة متناهية، لم يضايقني الأمر كثيراً، وأدركت أن التعامل سيكون مع الابن على الرغم من أن الأموال من الأب.

أوضحا لي بأنهما يعملان في مجال صناعة النفط وأنهما من مدينة تومان في سيبيريا الغنية بآبار البترول، لكنهما يودان توسيع أعمالهما واهتماماتهما والعمل في أكثر من مجال. وبعد أن توسعت أعمالهما قاما بفتح فرع لشركتهما في موسكو، وهما يريدان فتح شركات تعمل في مجالات أخرى هنا وفي باريس وفي لندن ونيويورك، فاقتصاد العولمة فرض واقعاً جديداً والكل يحاول احتلال موطئ قدم في هذه المعمعة، وفيما كانت كاتيا تكمل ترجمة ما يقولان كنت أقول في نفسي بأن عليه في البداية أن يضع

حجر الأساس لمعملنا الجديد ومن ثم فليطلق العنان لأحلامه في غزو أسواق العالم كما يشاء.

وبعد ذلك قمنا بجولة في أنحاء المتجر، ولم يتغير الوضع عما قبل فظل اهتمام الأب منصباً على الموظفات في المتجر فيما فحص الابن كل شيء بدقة، وكان ينظر إلى الثياب قطعة قطعة، ويسأل عن القماش والأسعار وتفاصيل العمل، وقد تطرّق للسؤال عن المعمل أيضاً، فأجبته وأنا خائف من أن يطلب الذهاب لرؤيته، فلن يكون من المشجع مطلقاً أن يريا المعمل غارقاً في تلك الفوضى العارمة، ولحسن الحظ لم يتحقق هذا الاحتمال، فقد توجّب عليهما السفر في اليوم نفسه، وسيعودان بعد أسبوعين لنتّفق حينها على صيغة نهائية للمشروع. وما إن غادرا حتى توجهت نحو كاتيا بالسؤال:

- ما رأيك؟ هل هما جادان في الموضوع؟
- هذا ما يبدو.
- مصادفة غريبة حقاً، يبدو أنني سأسير على خطى والدي في مشاركة الروسِ العمل.

لم تعر ملاحظتي الأخيرة أي اهتمام وأضافت.

- لا أستطيع الجزم بشأن الأب، ولكن ابنه كان يبدي اهتماماً حقيقياً بكل التفاصيل ويسألني عنها، حتى إنه سألني إن كنت أشتري ثيابي من هنا.
- وماذا أجبتِ؟
- قلت بأنني أفعل ذلك.
- شكراً جزيلاً لك، فمساعدتك لي اليوم لا تقدّر بثمن.
- يسرني أني استطعت المساعدة.
- لقد ساعدتني بالفعل...

وتمهّلت قليلاً، وأنا أفكر في الثمن الذي سأقدّمه لها مقابل هذه الخدمة، فلو كانت مترجمة عادية لأعطيتها أجرتها بكل بساطة، ولكنني خائف من رد فعلها إن طرحت عليها الأمر بشكل مباشر، ومن يدري فقد تكون بانتظار أن أفاتحها بالموضوع.

- لا أعرف كيف أوضح لك الأمر، وأرجو ألا يزعجك كلامي ولكن هذه الخدمة...

كنت أتكلم بحرج واضح وقد عبس وجهها وهي تستمع إليّ.

- بالطبع يزعجني هذا الكلام، فأنا أعتبرك صديقي، وأحاول تقديم

خدمة صغيرة لن آخذ عنها مقابلاً.

كان صوتها يضاهي حدة نظراتها وهي تتحدث.

لقد أدركت ما أعنيه على الفور، ولم تمهلني وقتاً للإفصاح أكثر، وعلى الرغم من أنني أتجنب النساء اللواتي يتميزن بحد ذكائهن إلا أن كاتيا تعجبني بجميع حالاتها وصفاتها. أحسست بأنني يجب أن أظهر بعض الإصرار لذا حاولت من جديد.

- ولكن...
- أرجوك ألا نتكلم في الموضوع
- ولكنني لن أشعر بالراحة ما لم توافقي على مقابل لخدمتك.

نظرت إلي للحظات قليلة ثم أشرق وجهها بابتسامة جميلة وهي تقول:

- لدي اقتراح، هل لا يزال لديك الكثير من العمل؟

كان لديّ عمل يتطلب ثلاثة أيام لإنجازه ومع ذلك فقد اعتراني الفضول لمعرفة ما ستقوله، وإن كنت أخمّن ما يدور في ذهنها فأجبت:

- لا، ليس لديّ الكثير فقد أنهيت معظمه اليوم.
- إذا ما رأيك أن تدعوني على الغداء وبذلك نكون قد تعادلنا.

كنت أتوقّع أن تطلب مني الذهاب لاحتساء كأس، ولكنها ولحسن الحظ عرضت ما يفوق توقعاتي.

- وأنا موافق.
- ولدي طلب آخر، توقّف عن مخاطبتي بهذه الطريقة الرسمية المتكلفة، فنحن صديقان وأرجو أن نتعامل معاً بأريحية وبساطة.

ازداد خجلي واضطرابي.

- أجل معك حق.. ولكن ما رأيك بهدية...

قاطعتني وقد بدا الحزم في صوتها.

- أرجوك سليم دعنا من هذا الموضوع، إنها مجرد ترجمة...

لم أحاول الإصرار أكثر، وقد راقني اقتراحها، فمن جهة سأعرف آخر تطورات عملهما، ومن جهة أخرى سأعرف السبب الحقيقي وراء خلافها مع كنعان هذا إذا رغبت في محادثتي بالأمر. وقد شعرت بأنها تميل إلى مكاشفتي، فربما تريد معرفة المزيد عن صديقي وعن رأيي فيما يحصل بينهما، ومن جهة أخرى أنا أيضاً بحاجة إلى التحدث معها حول الكثير من الأمور، أحقاً أنا بحاجة إليها أم أنها مجرد ذريعة للبقاء مع هذه المرأة الجميلة وتمضية الوقت بقربها، ولكن المفارقة أنني لا أشعر بأن هذا

التصرف هو خيانة لصديقي، فما الضير من الجلوس معها في مكان عام، والتحدث لساعة أو اثنتين، كما أنني ملزم بأن أرد لها الجميل.

- حسناً كما تشائين - حاولت جهدي أن أخفي انفعالي- ما رأيك بالذهاب إلى مطعم ريجانس؟

- أتقصد ذلك ذلك المطعم الروسي الموجود بالقرب من مركز أوليفيو التجاري؟ لا أريد الذهاب إلى هناك.

- لما ألا تحبين طعامه؟

- على العكس تماماً، فشوربة الخضار وفطيرة بيروشكي ودجاج كيفسكي الذين يقدّمهم لذيذ جداً، ولكننا كنا هناك منذ ثلاثة أيام، فقد خرجنا أنا وكنعان بعد يوم طويل من العمل وتعشينا في ذلك المطعم، أريد مطعماً يقدم الشواء، أشتهي تناول الكباب والشراب البارد، ألا يوجد مطعم كهذا في الجوار؟

- مطعم الشيف موسى قريب جداً، يقع في شارع كوتشوك بارماك كابي، كما أن مقبلاته التي يقدّمها مع الطعام لذيذة جداً.

- لم أذهب إليه من قبل، ولكن بما أنه يعجبك...

- أجل إنه مطعم رائع.

وبعد قليل كنا نسير في شوارع بيه أوغلو التي غسلتها الأمطار التي توقفت حالياً، وقد ظهرت شمس الشتاء الخجولة من وراء الغيوم، فيما النهر البشري المتدفق يسير مضطرباً في كافة الاتجاهات.

استغربت السكرتيرة مغادرتي المكتب في هذا الوقت المبكر، فقد اعتادت على البقاء معي لوقت متأخر في الحالات التي أعود فيها من السفر، وذلك لتدارك ما فاتني من أعمال، وأظن بأنها سرّت لمغادرتي على هذا النحو الباكر اليوم. كما أنني اتصلت مع كولريز وأخبرتها بأن لدي عشاء عمل وقد يستمر إلى وقت متأخر، كانت المرة الأولى التي أكذب فيها على زوجتي من أجل امرأة أخرى، لكنني لم أعتبر أن الأمر ينطوي على خيانة من أي نوع. لا أنكر أنّ كاتيا امرأة جميلة جداً وذات شخصية مميّزة، ولكن ما يشدني إليها شيء آخر لا أستطيع تحديد ماهيته.

ما إن خرجنا حتى فاحت رائحة عطرة في الجوار فاستنشقتها بعمق وأحسست بالراحة والنشاط يغمرانني بعد يوم شاق من العمل، تساءلت كاتيا عن مصدر الرائحة فأشرت نحو السيدة كولدن التي اعتادت الجلوس في زاوية الشارع وهي تبيع الكولونيا وأنا أقول:

- إنها رائحة الكولونيا التي تبيعها هذه السيدة.

ويبدو أن كولدن قد خمّنت أننا نتحدث عنها، لذا أخرجت علبة من سلتها وهي تمدها نحو كاتيا وتخاطبها بلكنتها الغجرية المحببة:

- اقبلي هذه الهدية سيدتي الجميلة.

سرّت كاتيا من الأمر كثيراً، وأخذت العلبة وقمت بتقديم النقود للسيدة التي رفضت بلطف:

- لا أريد نقوداً أنها هدية، فأنت ولي نعمتنا يا سيدي.

إنها محقة فقد أوصاني والدي بالاهتمام بها، ولو عاد الأمر لي لما تركتها تجلس في زاوية المتجر وقد حاولت طردها في إحدى المرات لكن والدي منعني.

- لا تقم بطردها يا بني، فهناك مقولة تقول بأن دعاء الغجر مستجاب على الدوام، كما أن جلوسها هنا لا يسيء للمتجر في شيء، على العكس فأنا أتفاءل بسماع دعواتها.

وقد تمركزت كولدن في زاوية المحل مع كرسيها الصغير وسلتها الحصيرية التي تضع فيها علب الكولونيا العطرة. رغم اعتراضها فقد وضعت مقداراً من النقود في سلتها، وقد شكرتني بابتسامتها المعهودة التي تضيء وجهها على الدوام، وعندما لاحظتُ نظرات كاتيا التي كانت ترقبني بإعجاب فاضت روحي بالسعادة وأحسست بزهو كبير، وقد أغدقت عليّ المزيد وهي تقول:

- أنت رجل كريم جداً -. وتأبطت ذراعي.

سررت كثيراً، ولكن من جهة أخرى انتابني الإحساس ذاته الذي شعرت به ونحن نخرج من بركة الأسبوع المنصرم وعاد ليكدر عليّ مرة أخرى، وصرت أفكّر ماذا لو رآنا أحد الآن وأنا مع امرأة بهذا الجمال، وهي متأبطة ذراعي، وللمرة الثانية لم أجد حلاً سوى بالتوجه نحو شارع فرعي والابتعاد عن زحمة الناس والطرق، كان شارع بيوك بارماك كابي يبعد حوالي الخمسين متراً ولم يكن أمامي من حل سوى أن أكمل السير مخاطراً حتى نصل إليه، فليس من المعقول أن أطلب منها أن تترك يدي، لذا حاولت ألا أشعرها بقلقي ونظرت إليها مبتسماً. كان الحزن بادياً على وجهها وعندما لاحظت نظراتي قالت لي بود:

- أنت شخص طيب القلب، وتذكّرني بوالدي في كثير من الأحيان.

بالطبع سأذكّرها بوالدها مع وجود هذا الفارق الكبير في السن بيننا، وفي الوقت ذاته لم تشعر بهذا الإحساس تجاه كنعان؛ إنه رجل محظوظ حقاً، فهو يأخذ دور الحبيب وأنا لا أحصل سوى على دور الأب، وفيما

استمرت هذه المقارنات في ذهني أكملت كاتيا حديثها:

- أنت مثله هادئ وقوي والتواجد معك يمنح شعوراً بالأمان.

عدت لأقارن نفسي بكنعان، وكيف يجعلها تضج رغبة فيما أشعرها بالسكون فقط وارتسمت على شفتي ابتسامة ساخرة.

- لما تبتسم؟

- لا شيء، ولكن كلامك هذا أسعدني.

- صدّقني أنت تشبهه في كثير من الصفات.

وفيما نتحدث وصلنا إلى شارع بيوك بارماك كابي، لذا حاولت عدم إضاعة الفرصة.

- فلنذهب من هذا الشارع، كما أنني أريد أن أريك الخان الأفريقي، إنه بناء غريب جداً.

وافقت على اقتراحي دون أن تعلم حقيقة مقاصدي وبعد حوالى الثلاثين متراً وصلنا إلى النزل ودخلناه.

- أهذا هو خان أفريقيا؟

- أجل.

- لماذا سمي بهذا الاسم؟

- إنه ليس الوحيد الذي سمي بهذه الطريقة، ففي عهد السلطان عبد الحميد الثاني قام حاجبه راغب باشا ببناء سلسلة من الخانات تحمل اسم المناطق التي تخضع لحكم السلطنة العثمانية، فهناك الخان الرومي، وخان الأناضول...

- فهمت، إنها مثل المراكز التجارية الحديثة.

- كان يحوي بالإضافة للمحال التجارية نحو خمسين منزلاً، كانت تشغلها عائلات مرموقة معظمها من الأقليات.

أشرت بيدي نحو السماء وأنا أقول لها:

- ما الذي ترينه؟

- السماء.

- انظري جيداً فالأبنية قد اتخذت شكلاً محدداً.

أعادت النظر مجدداً لكنها لم تميّز شيئاً واضحاً.

- ألا ترين رمزاً دينياً هناك؟

- رمز ديني.

ونظرت بتركيز أكبر هذه المرة.

- أجل معك حق يبدو أن المعماري تعمّد تصميم الأبنية بشكل

معيّن ليشكل الفارغ بينها شكل هذا الرمز الديني، لقد زرت هذا المكان من قبل ولكنني لم ألاحظ الأمر.

- الكثير من الناس لا يلاحظونه، فنحن لا نسير مرفوعي الرؤوس عادة.

- ولكنك لاحظته.

عدنا إلى السير مجدداً.

- لأنني درست هندسة العمارة في الجامعة، ومنطقة بيه أوغلو تقع ضمن نطاق اهتماماتي.

- لما لا تمارس مهنتك؟

- لأن الحياة قدمت لي اختيارات أكثر جاذبية.

خرجنا من شارع بيوك بارماك كابي وعلى الطرف المقابل من الطريق كان يسير رجلان يتمايلان وقد غلّفا زجاجتي شراب كان يحملها كل منهما بأوراق الجرائد، رغم أن الوقت لا يزال مبكراً إلا أن الموسيقى الصادحة من المشارب كانت تملأ الجوار صخباً، وأمام أحد المشارب كانت تقف ثلاث شابات بملابس ذات ألون فاقعة جداً، كن يتحدثن ويدخنّ بشراهة. أشرت بيدي نحو مطعم الشيف موسى وأنا أقول:

- هذا هو المكان الذي نتوجه إليه، ولكن دعيني أولا أريك دار عبادة آيا تريادا، سنلقي نظرة على المكان ونعود.

لم تعترض على اقتراحي هذه المرة أيضاً، واتجهنا نحو دار العبادة التي تقف منتصبة بجلال في شارع إيبك، أوضحت ونحن نقترب منها - إنها للروم، بناء رائع وما أن تدخلي إليه تشعرين بأنك أصبحت في عالم آخر، أنت من الروم أليس كذلك؟

- أنا؟ لا ولكن إن كنت تسأل عن دور عبادة الروس فإنها مختلفة عن دور عبادة الروم. وهناك دار عبادة في كارا كوي أعتقد أنها آيا أندريا للروس.

- هل قام ببنائها الروس الذي هربوا أثناء الثورة الاشتراكية؟

- لا أعلم.

- أظن بأنك حدّثتنا عن أحد أقربائك الذي لجأ إلى تركيا أثناء قيام الثورة.

نظرت إليّ مندهشة.

- أجل أعتقد أنني ذكرت الأمر، ولكن كيف استطعت تذكّره، لديك ذاكرة قوية جداً.

- لا ولكنني أولي اهتماماً بالقصص والأحداث التراجيدية، باللاجئين والأطفال المشرّدين... ماذا كان اسمه؟

- ألم أخبرك عن اسمه؟

- لا أذكر، فذاكرتي لن تسعفني في تذكّر اسم روسي.

- ولكنها قوية بشكل عام - نظرت إليّ بطريقة غريبة وهي تتساءل - وهل يشدّك الماضي؟ ربما كان عليك أن تصبح مؤرخاً أو روائياً، فالعملان يتطلبان ذاكرة قوية.

- أنت تبالغين في تقدير الأمر، ولكن احتمال أن أصبح كاتب روايات بوليسية هو الأقرب، وذلك لأنني وكما أخبرتك من قبل شغوف بهذا النوع من القصص.

- زوجي سرمت كان يحب هذا النوع من الروايات كثيراً.

- يبدو أنه كان رجلاً مميّزاً، ماذا كان يعمل؟

انتظرت للحظات قبل أن تجيب.

- كان خبيراً اقتصادياً، وكان يعمل في الجامعة - عادت إلى الصمت مجدداً وهي تخفض رأسها وعندما نظرت كانت ابتسامة غريبة تلوح على وجهها - كان يعمل على أطروحة تتحدث عن أضرار النمو الاقتصادي المتسارع على المجتمع وكانت تنطوي على وجهة نظر غير مألوفة، كان يستمر في العمل عليها رغم أنه فقد حماسه تجاهها.

بدأ صوتها يرتجف وهي تتحدث عنه، لذا شعرت بالندم لأنني أعدتها إلى الماضي، ولم تبد أي اهتمام بدار العبادة لذا اقترحت عليها أن نعود.

- ما رأيك أن نعود.

- حسناً.

بقيت تسير صامتة وبعد لحظات سألتني:

- هل تعتقد بالحب من أول نظرة؟

- كيف؟

- الحب من أول نظرة أو كما تسمّونه أنتم الحب الصاعق، هل تعتقد به؟

- لا أعتقد ذلك - أوضحت لها السبب - فأنا رجل أحب وأميل إلى التفكير المنطقي.

- ولكن هناك سبباً منطقياً لهذا النوع من الحب، حتى إن لم يكن مقنعاً كثيراً إلا أنه موجود.

كان وجهها هادئاً لكن حزناً عميقاً كان يظهر في كلماتها وهي

تحدّثني.

- صدّقني هناك سبب منطقي، وإلا كيف نبرّر اختيارنا لشخص محدّد من بين مئات الخيارات الأخرى لو لم يكن هناك من دافع أو شخص معيّن يلفت انتباهك دون الجميع ويجعلك تفكر فيه بطريقة مغايرة هو شخص يمتلك صفات تجذبك ومميّزات أنت بحاجة إليها، أعتقد أنه سبب منطقي كافٍ.

- قد تكونين محقة، ولكنني بصراحة لا أفهم كثيراً طبيعة العلاقات العاطفية.

- لا أحد يستطيع فهمها.

وعندما لم تجد لديّ توضيحاً حول الأمر أكملت حديثها.

- حتى أكثر الأشخاص خبرة قد يمرون بتجربة مماثلة وحينها لا تستطيع كل خبراتهم وتجاربهم أن تنقذهم. أتمنى لو استطعت التفكير بطريقة منطقية مثلك.

- ما الذي تعنيه؟

- أن أختار علاقاتي بعقلانية لا تسمح لي بالتورط في مغامرة غير معروفة النتائج، قد أخرج منها خاسرة.

يبدو أنها تريد أن تبوح لي بمكنونات صدرها، لذا حاولت أن اظهر الاهتمام بحديثها.

- هل كانت علاقتك مع سرمت حباً من أول نظرة؟

نظرت إلي للحظات وابتسامة حالمة تبدو على وجهها، من الواضح أنها أحبته من أول نظرة، وقد غامرتُ أكثر عندما بقيتْ صامتة وسألتها:

- وكنعان؟

أحسست بأنني تجاوزت حدود اللباقة بهذا السؤال ولكني لم أستطع كبح فضولي.

اختفت ابتسامتها هذه المرة وأوضحت لي بعد لحظات:

- أجل أحبب سرمت من أول نظرة، ولكنني لا أعتقد بأنني أحب كنعان، فمشاعري تجاهه مختلفة كلياً عن مشاعري تجاه زوجي، الحب يجعلنا نحن النساء نتصرف بحمق وبطريقة خرقاء تماماً، إنه يشتت روحنا ويضيع العقل في زخم عاطفتنا.

أحسست بأنها تبالغ في القسوة على نفسها بهذا الكلام.

- أعتقد أن الحب لا يميّز بين رجل وامرأة، فهو يحوّل الجميع إلى حمقى.

- ولكنه يؤثّر بصورة أكبر على النساء.

لا أميل إلى هذا النوع من الأحاديث المضمرة لذا سألت مجازفاً:

- أتقصدين بهذا الكلام علاقتك بكنعان؟
- هل أخبرك كنعان بخلافنا؟

سألتني بلهجة الواثق من الجواب حتى إنها لم تنظر إلي لتتأكد.

- لا، لم يخبرني بشيء، ولكنني لاحظت حدوث مشكلة ما من حديثك.

نظرت إليّ نظرات اتهامية هذه المرة وكأنها تقول لما الكذب.

- فهمت، ولكنني لا أريد التحدث عنه أكثر.
- أعتذر لأن سؤالي أزعجك، ولكنني أحسست أنك لست على ما يرام لذا...
- لا عليك - ضغطت بيدها على ذراعي وهي تكمل - لنتحدث عنه في وقت آخر.
- حسناً إذاً لننسى كنعان اليوم.

ولكننا لم نستطع تنفيذ هذا الاتفاق.

## (17)

كان مطعم الشواء يتوسط الطرف الأيمن لشارع كوتشوك بارماك كابي، ويتميز بصفي الطاولات المتوازية التي ترتصف في بهو المطعم، وفي نهاية الممر كان يتموضع منقل الشواء الطويل المغطى بما يشبه الغطاء الأمامي لمحرك سيارة. هذا المطعم هو ملاذي في السنوات العشر الأخيرة بعد الحظر الذي فرضته علي كولريز بقرارها التخفيف من تناول اللحوم الحمراء. استقبلنا النادل البدين الثرثار أمام الباب كعادته، وعلى الرغم من اللباقة التي أظهرها في استقبالنا، إلا أن نظراته المتفحصة لكاتيا وطريقة تفتيل شاربيه وهو يتمعّن في تفاصيل جسدها أزعجتني، لذا فقد حاولت قدر الإمكان اختصار الحديث معه، وذهبنا للجلوس إلى طاولة قصيّة.

- أترغبان في شرب شيء؟

قال البدين وهو ينتصب فوق رؤوسنا.

- شراب بارد أليس كذلك؟

توجهت بسؤالي نحو كاتيا التي كانت لا تزال تحت سطوة انفعالاتها جراء حديثنا السابق، ولم تكن تتابع حديث الطعام.

- ماذا قلت؟
- أتودين الشراب البارد؟

كررت سؤالي.

- بالطبع الشراب البارد، فلا شيء ألذ منه مع وجبة الكباب.
- لدينا شراب فرنسي إن كنت ترغبين.

أضاف النادل.

- شكراً لك ولكني أفضّل الشراب البارد.

ردّت عليه.

- كما تشائين سيدتي - أجابها - وقد ذهل أمام إتقانها اللغة التركية بعد أن ظنّها بأنها إحدى الرخيصات الروسيات (ناتاشا كما يسمونها)، وأنا متأكد لو أنه وجد الجرأة الكافية لكان سألها إن كانت تركية الأصل، ولكنه عندما شاهد تعابير وجهي الصارمة، فضّل الاهتمام بعمله.

- هل تودّان زجاجة كبيرة؟
- أحضر لنا الآن كأسين صغيرين، وسنطلب المزيد إن شئنا - أجبته.

سجّل ملاحظة على دفتر الطلبات في يده وعاد للسؤال:

- هل تودان بعض المقبّلات قبل وجبة الكباب؟

كانت التكشيرة التي ظهرت على وجه كاتيا محقّة، فهذه المطاعم تقدم تشكيلة شهية من أنواع المقبّلات تجعل المرء ينغمس في ملذاتها وبالتالي لا تترك متسعاً لوجبة الكباب التي تليها.

- لا نريد الكثير، ولكن لا بأس بصحن من السلطة الإفرنجية وبعض أقراص اللحم بالعجين بالصنوبر وبعض الأجبان.

أجبته.

- وما نوع الكباب الذي ترغبونه؟

نظرت إلى كاتيا مستفسراً ولكنها بادلتني نظرة تخوّلني اتخاذ القرار.

- أحضر لنا تشكيلة من كل نوع - سألت ضيفتي التي لا تزال تتابعني باهتمام - ما رأيك؟

- اختيار موفّق.

- حسناً كباب وشقف مشوية من لحم الضأن والدجاج وبعض من الكباب بالفستق والكباب بالثوم.

أنهى النادل تدوين طلباتنا، وذهب فيما عقّبت كاتيا على الأمر بهمهمة:

- أنت أيضاً تبالغ في كرمك مثل كنعان.

- أني مخطئة فكنعان يفوقني في كرمه بل يصل به إلى الإسراف معظم الأحيان، أما كرمي فهو مدروس.

أجبتها وأنا أهز رأسي نافياً كلامها.

- لماذا تنسحب دوماً إلى الوراء عند ذكر كنعان؟ - كانت ترمقني باهتمام واضح - أظنك لا تقل عنه كرماً، ولكن الفرق أنك لا تحب التحدث عن نفسك، أهذا ما تفعله على الدوام؟

إنها محقة بكل تأكيد، ولكن كيف استطاعت ربط الأمور ببعضها بهذه الطريقة، ومع ذلك لم أشأ أن أتورط في إجابة من دون أن أعرف حقيقة نواياها لذا فقد اختصرت.

- ليس صحيحاً، فأنا لا نية لي في الانسحاب، ولكن هذا أنا وهذا ما كنت عليه دوماً.

أمعنت النظر غير مصدّقة.

- لا أظن ذلك، وأعذرني على صراحتي ولكنني أعتبر انسحابك هذا درعاً نفسية لتخفي عنا حقيقة سليم الداخلية، على الأقل أنت تفعل هذا معي، وبالطبع مع نهاد وكنعان أيضاً.

لقد بدأت أشك بأنها تحاول لفت انتباهي لأتعلّق بها في محاولة

لإيقاد غيرة كنعان. لا لا. فهي تعلم تماماً أنني لن أنجر إلى خدعة كهذه. ولكني لم أشعر بالضيق من تخميناتها بل على العكس فقد سرني محاولتها الولوج إلى أغوار نفسي، إلا أنه لم تكن بي رغبة للتحدث عني أو عن كنعان في هذه الجلسة، ومع ذلك فإزاء هذا الرأي القوي لم أستطع أن أقف صامتاً. وفيما أفكّر في مخرج من هذا الإحراج أتى البدين لنجدتي وهو يحمل إبريق الماء وزجاجة الشاب البارد الصغيرة مع قدحين، وضع الصينية على الطاولة وهمّ بملء القدحين فبادرته على الفور.

- دع عنك سأملؤها أنا.

ابتعد النادل بحركة رشيقة واتجه مجدداً نحو المطبخ ليحضر صحون المقبّلات. ملأت ثلث قدح كاتيا وأنا أسألها:

- يكفي؟

لقد تملكتني احترافية توحي بأنني أعمل نادلاً منذ الأزل.

- زده قليلاً.

- لقد تعلّمتِ الكمية المناسبة بدقة.

نوّهت وأنا أزيد الشراب البارد امتثالاً لرغبتها.

- أجل فبعد كل هذه السنوات... كما أنني أتردد كثيراً على صديقي في بركة

- معك حق - أجبت وأنا أملأ قدحي - ذلك المشرب يمتاز بأجواء حميمية وخاصة.

- نستطيع الذهاب مرة أخرى إن شئت.

سرّني أن حديثها السابق قد تشتت على وقع القدحين وأنا أضيف الماء إليهما.

- فكرة رائعة، أرغب أن نذهب جميعاً في أقرب وقت.

بالطبع كنت أقصد كنعان بكلامي، لقد حان دورها الآن لتجيب عن أمر تتجنّب الخوض فيه، ولكنها بدل الرد رفعت قدحها.

- فلنشرب نخب شراكتك مع الروس.

جاريتها في رفع القدح وأنا أقول - لا يزال الوقت مبكراً لنحتفل بشراكة لم تتحقق بعد، فلنشرب نخب الصداقة.

- حسناً، نخب الصداقة.

وقبل أن نعيد القدحين إلى الطاولة كان النادل قد صفّ صحون المقبلات على الطاولة بأناقة مع رغيف من خبز خرج للتو من الفرن.

لم تتريث كاتيا فعلى الفور وضعت بعضاً من السلطة في صحنها،

بدوري أخذت قطعة من الخبز وحشوتها ببعض الجبن، مذاق الخبز الطازج مع الجبن أشعرني بمتعة كبيرة، لكن النادل البدين كان لا يزال واقفاً فوق رأسينا كمن يريد قياس متعتنا.

- هل أعجبك مذاق السلطة سيدتي؟

كان سؤالاً عادياً لو لم تظهر نبرة ملغّزة في صوته وهو يسأل كاتيا التي لم تجبه على الفور فقد كانت منشغلة بالاستمتاع بمذاق السلطة المنعش.

وبعد أن أنهت اللقمة ردت على سؤاله:

- لذيذة - لكنها أضافت - في الحقيقة لا خبرة لديّ بهذه الأنواع من المقبلات.

كان النادل يتهيأ لسؤال جديد لكنني استبقته بالقول:

- السلطة شهية، هل يمكن أن تحضر لنا وجبة الكباب بعد نصف ساعة من الآن؟

- حسناً سيدي.

وأجاب بخيبة من فاتت عليه متعة مرتقبة فتركنا وشأننا مبتعداً..

ضحكت كاتيا.

- لما تضحكين؟

- لقد أزعجك النادل؟

- طبعاً أزعجني، فقد تسمّر فوق رأسينا. ألا تعتبرينه أمراً مزعجاً؟

- لا ألقي لهم بالاً، فالإزعاجات كثيرة، كما أنني أترك مهمة الانزعاج للرجال الذين يرافقونني، سيرمت أيضاً كان ينزعج من هذه التصرفات.

لقد كانت تقارنني بزوجها المتوفى لكنني تغافلت عن الأمر.

- هل يضايقك الأمر؟

- لا على العكس، إنه يروق لي - كانت تضع الجبن في صحنها وأكملت - فالشبان الروس لا يعيرون الأمر أهمية، كانت تتناول طعامها ببطء وتلذّذ فيما نظراتها لا تزال مركّزة عليّ، ما الذي كانت تحاول الوصول إليه، مجدداً حاولت التغافل وسألت:

- هل يعرف الروس الكباب؟

- لدينا أكلة أخرى تسمى شاشينك ولكنها بالتأكيد لا تنافس لذة الكباب. هذه القطع الصغيرة من اللحم التي تختزن أشهى مذاق دون أي سوائل أو نكهات إضافية، إنها رائعة، لقد كان سيرمت شخصاً غريب

الأطوار.

- لماذا؟

- كان نباتياً - ففي بلادٍ تحترف طهو اللحم بكل هذه الروعة - كيف يمكن للمرء أن يكون نباتياً؟

لقد تكرّر اسم سيرمت أكثر من مرة خلال وقتٍ قصير، وهذا ما أثار قلقي عليها، مع أننا اتفقنا على عدم التحدث عن كنعان ولكن لم يخطر لي إضافة اسم زوجها السابق إلى لائحة المحظورات.

- سيرمت؟ سألتها.

توقفت عن تناول طعامها ونظرت إليّ محاولة فهم سؤالي.

- أعتقد أنه يحتل مكانة هامة في حياتك.

- أنت محق، فقد كان شخصاً مميّزاً.

- كيف تعرّفتِ عليه؟

- لماذا تسأل؟

لم يكن صوتها يحمل نبرة انزعاج، ولكن الشك كان واضحاً، أتظن بأنني سأنقل هذا الحديث إلى كنعان؟ حاولت إبعاد الشكوك عني وأجبت بأقصى ما أستطيع من لامبالاة.

- لا شيء محدد، ولكنك تطرّقتِ كثيراً إلى ذكره اليوم، لذا انتابني الفضول، هل تعرّفتِ عليه في اسطنبول؟

اختفى الشك من وجهها.

- أجل في اسطنبول - بدأت غمامة الحزن تجتاح وجهها، ونظرت إليّ كمن يوشك الخوض في غمار أمر جلل، وضعت كأسها على الطاولة بعد أن ارتشفت منه كمية لا بأس بها - لكننا التقينا أول مرة في الاتحاد السوفياتي قبل أن ينهار، كنا نتسلق القمة الشيوعية.

- القمة الشيوعية؟ أتقصدين أنه اسم جبل ما؟

- أجل ألم تسمع به، إنه يقع على الحدود بين طاجكستان وقرغيزيا.

- القمة الشيوعية، إنها تترك لدى سامعها انطباعاً سياسياً.

- معك حق، فقد أطلق الاسم عليه عند قيام الاتحاد السوفياتي، وهي من أعلى القمم حيث يبلغ ارتفاعها على ما أظن حوالي (7500) متر.

- وهل تعارفتما هناك؟

- كنا نتسلق الجبل محاولين الوصول إلى القمة، لكن الطقس تغيّر فجأة، واشتدت العواصف وبقينا محاصرين لمدة ثلاثة أيام بانتظار المساعدة

فيما تفصلنا بضعة مئات من الأمتار عن بلوغ القمة.

- ثلاثة أيام؟ إنها مخاطرة كبيرة جداً.

- بالفعل كانت مخاطرة كبيرة، أتذكر أنني مررت بلحظات فقدت فيها الأمل بالنجاة، واتجهت نحو القمة وأنا أظن بأنني سأموت في ذلك المكان. كان هذا الإحساس ينتاب الجميع، باستثناء صديقنا إيليا الذي كان يحوّل الأمر إلى سخرية وكان يخاطبنا مازحاً:

«حتى لو لم يتمكنوا من العثور علينا أحياء ومتنا هنا، ستبقى جثثنا محافظة على حالها وكأنها محنّطة كجثمان لينين المحنط في الساحة الحمراء. سنبقى هنا بجثث شابة راقدين إلى الأبد بالقرب من القمة الشيوعية، إنه موت جميل».

ولكن لم تتحقق سخرية إيليا، فقد تمكّن فريق دولي من المنقذين والذي كان سيرمت أحد أفراد طاقمه، من العثور علينا وهناك رأيته للمرة الأولى. الريح العاصفة كانت تحول دون رؤيتنا بعضنا بعضاً بشكل واضح، أمسك بيدي فيما كانت عباراته تضيع وسط صخب الرياح. تمسّكنا ببعضنا، وحاولنا النزول ملتفين بحبل واحد، بالرغم من كل ذلك البرد شعرت بدفء يديه حالما أمسكت بهما، عندها حاولت التمعّن في وجهه قليلاً فقابلني بنظرة تفيض وهجاً من عينيه السوداوين، لا بد أنه كان يحاول الابتسام لي من تحت القناع الذي يغطي معظم وجهه، عندها تشبّثت به، وأدركت حينها أن هذا الوهج كفيل بأن لا يدعنا نموت من البرد.

كانت تتحدث كمن يروي حلماً جميلاً، وكان صوتها يبدو بعيداً بعد الذاكرة، سكتت وتناولت رشفة أخرى من قدحها.

- ستنهين قدحك بسرعة إذا ما بقيت تشربين بهذا المعدل، وحينها لن أجد أحداً يشاركني طعامي.

توقفت للحظات، ولكنها عادت إلى القدح مرة أخرى وهي تقول:

- هل أنت متأكد من رغبتك في سماع هذه القصة التي تفيض ألماً؟

- إذا كان الأمر يؤلمك...

- إنه يؤلمني كلما تذكرته أو حاولت التحدّث عنه، أنت أول شخص سأخبره بتفاصيل القصة، ولكني أشعر برغبة في البوح لك - حاولت تصنّع اللامبالاة لكن صوتها بدا يخونها وهو يرتجف.

- حسناً، أود سماع القصة ولكن، أظنك تفهمين ما أود قوله.

- لا تقلق أفهمك تماماً - كانت دموع حبيسة تزيد لمعان عينيها

أو أن هذا ما خيّل لي، حاولت التهرّب من نظرتي وهي تشغل نفسها بالقدح الذي أنهت أكثر من نصفه ثم حاولت رسم ابتسامة على شفتيها، ولكنها فشلت فالحزن في عينيها كان طاغياً.

- لقد أخبرتك سابقاً بأنك تشعرني بالراحة والأمان.

يستهويني المديح، ولكن حين أسمعه من امرأة مثلها ينتابني خجل شديد فأعجز عن الرد، وهذا ما يجعلني أبقى صامتاً دون حتى كلمة شكر، في الحقيقة كنت متلهفاً لسماع قصتها ومتابعة تفاصيلها، وقد اعتبرت صمتي دلالة على جهوزيتي للسماع.

- لم يكن سرمت بوسامة كنعان وملامح الجمال، اللافت فيه كان يكمن في تلك النظرة العميقة الحزن لعينيه السوداوين، وحتى في أكثر اللحظات سعادة كانت تلك النظرة تبدو واضحة في عينيه، وكأنه كان مدركاً للفاجعة والموت اللذين كانا يتربصان به. كانت عيناه تراقبني بحزن وهي تدركان ما ستؤول إليه هذه السعادة في الغد القريب.

لا بد وأنها كانت تستعيد صورة تلك العينين في مخيّلة حزنها. لذا، سكتت للحظات وهي تخفض رأسها. كنت على وشك أن اقترح عليها أن تكفّ عن الحديث عن الماضي، ولكنها رفعت رأسها لتكمل مشوارها في دروب الذكرى.

- ربما لم يكن سرمت يفكّر بهذه الطريقة، قد أكون مخطئة في تفسير نظرة عينيه. ربما تكون إضافة من ذاكرة الألم بعد ذلك المصير التراجيدي الذي تعرّض له.

كان صوتها عميقاً وتتكلم بتمهّل لتزن كل كلمة وفق مقاييس منطقها قبل أن تنطق بها.

- المهم أننا بعد أن تمكّنا من النجاة، ظل سيرمت وبقية أفراد طاقم المساعدة معنا، وقد تم إرسال اثنين من أصدقائنا إلى المشفى، حيث كانت حالتهما الصحية سيئة. أما أنا فقد بقيت في المخيم، وما إن استعدت عافيتي حتى قمت بالبحث عن أعضاء الفريق الذي أنقذنا لأشكرهم. كان فريقاً مكوّناً من خمسة أشخاص، فرنسيان وروسي وكازخستاني، وكان سيرمت التركي الوحيد بينهم. ومع ذلك أحسست أنه أكثرهم قرباً إليّ، وعلى عكس المعتقد السائد فالشعبان الروسي والتركي يتشابهان في الكثير من النواحي أهمها تلك الحميمية التي يعاملان بها أي شخص عند اللقاء به. لم تكن تلك الصفة الوحيدة التي جعلتني أتعلّق به. فمنذ اللحظة التي أمسك فيها يدي، ونحن غائصان في ثلوج القمة، شعرت نحوه بشعور

غريب. لاحقاً أدركت أن هذا هو الحب من أول نظرة، وفي اليوم نفسه وبعد عدة ساعات جاء لزيارتنا بحجة الاطمئنان على رفاقنا، وأدركت حينها أنه مهتم بي، بعدها بليلة كنا سوية.

تريّثت للحظات، كمن يتوقّع اعتراضاً أو سؤالاً وعندما استمر صمتي أردفت موضحة

- لدينا مفهوم أكثر انفتاحاً عن العلاقات، وقد أقمت علاقات من هذا النوع مع رجال فقط لأنهم كانوا يروقون لي، ولكنني أحببت سيرمت حقاً، إلا أننا وللأسف لم نكن نملك الكثير من الوقت فقد كان عليه أن يسافر بعد بضعة أيام إلى اسطنبول وأنا إلى موسكو، لذا حاولنا استغلال الوقت قدر استطاعتنا. أتذكر تلك الليالي حيث كنا نسير معاً على الثلج والسماء تبدو قريبة جداً وكأنها تريدنا أن نمسك بنجومها التي كانت تتدلى كقطع الكريستال فوق رؤوسنا، كنت أحدّثه عن موسكو وكان يسمعني باهتمام، كانت السعادة تغمرني وتحيط بي كما لم تحط بي من قبل ولا من بعد. وعلى الرغم من معرفتي التامة بأن رغبتي لن تتحقق، فقد طلبت منه المجيء إلى موسكو لنلتقي مجدداً، ولكنه فاجأني حين قال لي بأنه سيأتي.

كنت متأكدة بأنه مثلي تماماً مرّ بالكثير من المغامرات المماثلة مع نساء أخريات في هكذا رحلات، ولكن ما أن تنتهي الرحلة حتى يذهب كل في طريقه، ليصبح الأمر مجرد ذكرى، وهذا ما كان يجب أن يحصل مع علاقتي بسيرمت، ولكنه لم يحصل. بعد عودتي إلى موسكو وعلى الرغم من أنني كنت أفكر فيه باستمرار، تخليت عن فكرة الاتصال به، لأنني كنت أظن بأنه نسيني حال مغادرته، ولكن بعد ثلاثة أسابيع رن الهاتف، وبدا الصوت على الطرف الآخر مألوفاً وهو يسألني عن حالي بإنكليزية متلعثمة، وعندما عجزت عن معرفته عاتبني غاضباً لأنني نسيته، حينها أدركت بأنه سيرمت، وأحسست بأن الانفعال اجتاحني فارتج كل كياني، أعتقد بأنني أدركت في تلك اللحظة أنني أغرمت به.

وسألني قائلاً: ألا زالت دعوتك مستمرة؟

وحينها ومن دون أن أفكر ولو للحظة واحدة أجبته على الفور: نعم.

- سآتي غداً.

فاجأني قائلاً.

- ما الذي تعنيه؟ وماذا عن جواز السفر والقبول؟

سألته بلهفة.

- كل شيء جاهز، كنت أنتظر منذ أيام أن تتصلي بي، ولكن عندما لاحظت أنك تأخرت عليّ بادرت بالاتصال.

- أنا حمقاء، لقد أحسنت صنعاً حين اتصلت بي.

في اليوم التالي أصر على البقاء معي في شقتي التي كنت أتقاسمها مع عائلتين سواي ورفض أن نخرج لتناول العشاء سوية في الخارج، وأخبرني بأنه جاء لرؤيتي ولا يريد حتى لموسكو أن تشغله عني.

بقي أسبوعاً في موسكو، وقد أخذت إجازة من العمل في ذلك الأسبوع وبقينا سوية نستمتع بكل لحظة نقضيها معاً، ولكن الزمن يسير كمياه نهر لا تتوقف عن الجريان ولا أحد يستطيع الإمساك به، وقد مضى هذا الأسبوع كغمضة عين. وخلال هذا الأسبوع لم نتكلم عن المستقبل، ولم نخطط له، أظن بأننا كنا خائفين من الغد. فالحب يزدهر في ظلال المجهول، ولكن سيرمت غيّر كل ذلك، وبالطبع أنا لا ألومه فقد كان من الممكن أن أتصرف أنا بهذه الطريقة لو لم يبادر هو. فحين كنت أحتضنه مودعة إياه في المطار فاجئني قائلاً:

- أتقبلين الزواج بي؟

للحظات لم أعِ ما يقوله لي، وطلبت منه أن يعيد ما قاله حتى أتأكد مما سمعت، فأعاد عرضه مجدداً، كانت السعادة تحملني بعيداً عن كل منطق أو واقع، لذا بدل التريث فيما سأقدم عليه، وافقت على الفور، وبعد موافقتي بخمس دقائق سافر إلى اسطنبول. وما إن سافر حتى شعرت بفراغ رهيب، وحاول كلانا ملء هذا الفراغ بالمكالمات الهاتفية والرسائل، وبعد شهر تقريباً سافرت إلى اسطنبول لمدة ثلاثة أيام وعلى الفور أسرتني بجمالها، بالطبع لم أمض زيارتي في المنزل كما فعل سيرمت، فعلى الرغم من أن لا علاقة لي بالتديّن إلا أنني طلبت منه الذهاب لرؤية آيا صوفيا التي كنت أسمع عنها منذ كنت صغيرة، وقمت بنزهة على متن قارب في مضيق البوسفور، وحين وصلنا إلى منطقة بيبيك التي تمتد على طول البوسفور والتي أذهلتني بروعتها كان إعجابي بهذه المدينة واضحاً فلم يضيّع سيرمت هذه الفرصة.

عرض عليّ الانتقال إلى اسطنبول وجدّد عرضه بالزواج، في الحقيقة كنت موافقة على الزواج بكل تأكيد، ولكنه لم يكن قراراً يتحقق بهذه السهولة، فهذا يعني الانتقال من المدينة التي نشأت وترعرعت فيها، كان القبول ينضوي على تغيير ثقافة ولغة وبلد اعتدت عليهم. كان ردي الأول «لما لا تنتقل إلى موسكو؟» ولكن رفضه كان منطقياً فهو لا يستطيع

العمل في موسكو كما أن راتبي لن يكفي كلينا، في حين أننا في اسطنبول نستطيع العيش براحة تامة، فقد كان سيرمت ينحدر من عائلة غنية، فوالده يعمل في تجارة الحديد، وكان يملك منزلاً في تشانكير، وبالتالي إذا وافقت على عرضه فسنعيش في ذلك المنزل كما أن عائلته ستسانده هنا، أما لو انتقلنا إلى موسكو فمن الصعب طلب المساعدة من العائلة، وكان إصراري على التمسك برأيي لا مبرر له.

كان البقاء في اسطنبول عرضاً مغرياً، فالوضع في روسيا كان مضطربا ًجداً، والشعب يتجه نحو الفقر بخطوات متسارعة، وهذا ما كنت أعايشه من خلال راتبي الذي كان يتناقص شهراً بعد شهر. كان مجيء سيرمت إلى موسكو يعني عيش حياة صعبة على عكس اسطنبول، وعلى الرغم من ذلك لم تكن الموافقة على اقتراحه أمراً سهلاً.

بعد عودتي إلى موسكو فكّرت ملياً في الأمر، وكنت مترددة في اتخاذ القرار، وقد أخبرت والدي أيضاً فدهش لدى سماعه الأمر، ولم يقل شيئاً، ولكنه اتصل بي بعد عدة أيام وسألني: - أتحبين هذا الرجل، أتحبينه حقاً؟

- أجل، أنا مغرمة به.

- إذاً عليك الذهاب، لو كنت مكانك لما ترددت للحظة بالذهاب إلى اسطنبول.

ومع ذلك كنت لا أزال مترددة، ولكن شوقي لسيرمت حسم الأمر لصالحه، فبدأت بترتيب شؤون السفر. عندما سمع سيرمت بالخبر كاد يطير فرحاً، بدوري كنت سعيدة ولكن الشكوك كانت تتقاذفني وتفتح في قلبي أبواب الحيرة والقلق، سأترك بلدي وحياتي التي اعتدت عليها من أجل رجل، بالطبع ليس أي رجلٍ، فهو الشخص الذي أحب. ولكن، ماذا سيكون مصيري لو تركني في أحد الأيام. بالرغم من كل هذه المخاوف تزوجنا بعد شهرين في اسطنبول. ساندتنا عائلة سيرمت بكل محبة، لكن حماتي وبسبب تعلّقها الشديد بابنها كانت تظهر بعض المعارضة أحياناً، إلا أن الأمر لم يتجاوز أبداً حدود الاحتمال. وكان والده من أطيب الناس قلباً، وقد استمر في مساندتي بعد وفاة سيرمت.

لم أعانِ أية صعوبة في التأقلم مع الحياة هنا، كما أنني تابعت دورة لتعلّم اللغة التركية، وقد ساعدني سيرمت كثيراً لأتمكّن من اللغة وأتقنها بهذا القدر. كان زواجنا سعيداً وقد تعرفت على أصدقاء سيرمت من الجامعة ومن نادي التسلق، وما إن تمكنت من اللغة حتى أفصحت لسيرمت عن رغبتي في العمل، وقد وافق على الفور، وأبدى مساندته للأمر،

ولكن كان من الصعب عليّ إيجاد عمل في مجال اختصاصي. فعملت في أكثر من مجال وكنت أضطر إلى ترك عملي لأن أصحاب العمل كانوا يهتمون بي أكثر من اهتمامهم بعملي، وكان الموضوع يثير بعض الخلافات بيننا، ولكننا كنا نعيش بالعموم سعادة غامرة إلى اليوم الذي تسلق فيه قمة ألاداغ.

سكتت للحظات، وأخذت قدحها لتخفي دموع عينيها، فاحترمت صمتها ورفعت قدحي بدوري وقبل أن أرتشف منه اقترحت نخباً.

- نخب الأيام الجميلة.
- نخب الأيام الجميلة

رددت ورائي وبعد أن وضعت قدحها وقد أفرغته، أردفت قائلة:

- حقاً كانت أياماً جميلة - ولكنها علّقت بعد لحظات - ولكن ما من سعادة تستمر إلى الأبد.
- ولكن الحزن أيضاً لا يستمر إلى الأبد.

أضفت بدوري.

- لا يستمر أليس كذلك؟ - كانت تسأل كمن يريد تأكيد يقينه - ولكنه يأخذ شيئاً من روحنا معه حين يغادرنا.

وضعت قدحها الفارغ، فأخذتُ الزجاجة وملأت القدحين مجدداً، وعندما أنهيت مهمتي أكملت حديثها.

- اتفقنا في ذلك الأسبوع على تسلق قمة ألاداغ، كنا اثني عشر شخصاً، انطلق الجميع بواسطة الحافلة، فيما انطلقنا نحن بواسطة سيارة سيرمت الرباعية الدفع. لا تذهب بك الظنون بعيداً فتتخيّلها سيارة فارهة، على العكس كانت من طراز قديم ولكن سيرمت غيّر الكثير من الأشياء فيها ومن ضمنها المحرّك فتحسنت حالتها، وفي رحلاتنا خارج المدينة وبخاصة حين كنا نتجه نحو الجبال كان يستقلّها. على الرغم من أنها لم تكن سيارة مريحة مطلقاً، وهذا ما دفع ببقية أعضاء الفريق لاختيار الحافلة. وكما تعلم فإن جبل ألاداغ يقع في عمق الأناضول ممتداً في كايسري وأضنة ويبعد عن اسطنبول قرابة الثمان ساعات تقريباً. كنا نسير في المقدمة فيما تسير الحافلة خلفنا، وقد أخذنا استراحة عندما وصلنا إلى بحيرة الملح بمنظرها الأبيض الرائع، ومكثنا في الوادي الذي تقع فيه البحيرة لبعض الوقت. كانت تفصلنا عن القرية التي سنتوجه إليها من أجل التسلق فقط مئة كيلومتر حين تعطل الجيب الذي يقلنا، وقد حاول سيرمت وأتيلا فحص المحرك، ولكن من دون جدوى، وتوجب علينا المسير فوراً لأننا إن

تأخرنا أكثر من ذلك سيحل الظلام، ولن نتمكن من التسلق يومها، لذا طلب منا أتيلا وهو المسؤول عن فريق التسلق أن نستقل الحافلة معهم، لكن سيرمت لم يوافق.

حاول بقية أعضاء الفريق إقناع سيرمت بالذهاب معهم، ولكنهم وإزاء إصرار سيرمت على البقاء أذعنوا وذهبوا وقد أوصانا أتيلا أن نمكث ليلتنا في القرية في حال تأخرنا لنؤجل التسلق إلى الغد.

انطلق الجميع فيما بقينا نحن نحاول إصلاح السيارة، وقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً ولو لم يمر ميكانيكي صدفة من المكان ويساعدنا في إصلاح السيارة لما استطعنا إكمال الرحلة.

حاولنا قدر الإمكان أن نسرع من أجل اللحاق بالآخرين، بعد أن أهدرنا ثلاث ساعات من وقتنا، وقد كان سيرمت يقود بأقصى سرعة ممكنة، لكننا عندما بلغنا مشارف القرية كانت الشمس تقترب من خط الأفق الممتد على السهل الواسع، لذا اقترحت عليه أن نمضي ليلتنا في القرية.

ولكنه أصر على اللحاق بالبقية بأقصى سرعة ولا مبرر لهدر الوقت في القرية، أعلم أنه كان علينا المكوث في القرية إلى الصباح، ولكنني لم أصر بدوري لإقناع سيرمت، واكتفيت بإخباره بأن علينا إبلاغ أتيلا بأننا وصلنا إلى القرية وسنلحق بهم. طلب منا أتيلا المبيت في القرية فمن الصعب اللحاق بهم في هذا الوقت المتأخر، ولكننا لم نلتزم بنصيحته، وأخذنا عدة التسلق، وبدأنا السير نحو الجبل الذي كانت ظلاله تمتد لتغمر السهل. صادفنا أحد القرويين وقد عرض علينا أن نبيت ليلتنا عنده خوفاً من حدوث انزلاق لا سمح الله ونحن نحاول التسلق في الظلام، وقد كان محقاً فبسبب الفروقات بين درجات الحرارة في الليل والنهار كانت الصخور تصاب بتشققات في الليل وتنحدر نحو الأسفل، ومجدداً لم نستمع لنصيحة العجوز وأكملنا المسير. كان أمامنا ساعة ونصف على غروب الشمس ومع ذلك فكلما تقدمنا في السير كانت الرؤية تصبح أكثر صعوبة من ذي قبل، وكنا نبعد عن المخيم مسافة لا بأس بها. بعد أربعين دقيقة اختفت حمرة الغسق الأخيرة في الأفق، وحل الظلام، وأخذت الرياح الباردة تلفح وجهينا وعلى الرغم من أن سيرمت كان قد تسلّق الجبل عشرات المرات وكان يعرف تضاريس المنطقة بصورة ممتازة؛ إلا أن مشكلة الانزلاقات كانت تثير مخاوفنا ولكننا لم نحاول التطرق إلى الموضوع، وصلنا إلى هضبة صغيرة أثناء تسلقنا وعندما رأينا النيران المشتعلة من بعيد سألت بفرح:

- هل وصلنا إلى المخيم؟

- ليس بعد.

فقد كان مكاناً صغيراً يستعمله المتسلقون كاستراحة لهم وهناك نبع ماء بالقرب منه ومياهه تظل شديدة البرودة على الدوام.

- ولكن ما تلك النيران؟

- لا بد وأنهم الرعيان فهم أيضاً يلجؤون إلى هذا المكان عند الحاجة.

اقتربنا ونحن نتوقع رؤية أحد الرعيان، وبدأت الكلاب تنبح علينا بقوة، نظرنا حولنا ولم نرَ أحداً في المكان ولكننا تلقّينا تهديداً من الخلف.

- قفا مكانكما.

كان صوتاً قوياً ومعادياً.

- من أنتما وما الذي تفعلانه في هذا المكان؟

- نحن متسلقا جبال، ونريد الوصول إلى المخيم الموجود في الأعلى.

أجابه سيرمت من دون أن نتمكن من رؤية وجه الرجل الذي يخاطبنا.

- وما الذي يؤكد لي بأنكما متسلقان حقاً؟

سألنا الرجل بصوت يعتريه الشك والعداء.

- تستطيع أن تتحقق من المعدات الموجودة في حقائبنا، ولكن من أنت؟

- دعك مني وأنزلا حقائبكما لنرى حقاً من تكونا.

أطعنا الأمر فاقترب الرجل منا، كان ملتحياً ضخماً يرتدي شروالاً ومعطفاً قصيراً من الفراء.

- ابتعدا عن حقائبكما.

ابتعدنا بضع خطوات عن الحقائب، وبدأ بتفتيشها وهو يدمدم:

- ألم يكن من الممكن أن تنتظرا حتى الصباح بدل المغامرة في هذا الظلام.

كان يتكلم وهو يحدّق إليّ وقد اعتراني خوف شديد، فقد كان من الواضح أنه أدرك حقيقتنا ومع ذلك لم يتركنا نذهب في حال سبيلنا.

- نحاول اللحاق ببقية أصدقائنا.

كان سيرمت يلمّح له بأننا لسنا لوحدنا.

- تعال يا غياث وفتش هذين.

صرخ بصوت ملغز، خرج أربعة آخرون من وسط الظلمة لم يكونوا بضخامة الأول، ولكنهم كانوا يملكون التعابير السيئة نفسها على وجوههم،

وهنا بدأت أخمّن ما سيحصل.

- إنكم ترتكبون خطأً فادحاً نحن لسنا إرهابيين أو ما شابه، نحن مجرد متسلّقي جبال نحاول اللحاق ببقية زملائنا.

كان سيرمت يحاول توضيح الأمر أملاً في النجاة.

وفيما كان سيرمت يحاول إقناعهم، كنت أخرج السكين من جيب معطفي لأمسك بها في يدي، كان سلاحاً بدائياً، ولكني لم أكن أملك وسيلة أخرى لأدافع بها عن نفسي.

- نحن سنقرر متى ستذهبان.

صرخ أحد الأربعة، كان يتكلم مع سيرمت، ولكنه يحدق إليّ مثل البقية، وقد علت شفاههم الابتسامة القذرة نفسها. وكان يقتربون منا خطوة خطوة.

- لما تقتربون منا؟

سألهم سيرمت فيما بدأ صوته يرتجف.

- لا تقلق يا صديقي، تأكد بأنك ستستمتع وسنستمتع نحن أيضاً.

رد الرجل الضخم.

لم أتمالك نفسي حين بدأت المسافة بيننا تتقلص بصورة مخيفة، وصرخت قدر استطاعتي

- أيها القذرون. وأنا أخرج السكين، تراجعوا قليلاً لأن الوضع قد فاجئهم، ولكن سيرمت تصرّف بطريقة فاجأتني أنا أيضاً وهو يصرخ.

- ما الذي تفعلينه، نحن نحاول أن نصل إلى اتفاق هنا.

نظرت إلى زوجي والحيرة تمتلكني، كما أن موقفه قد أثار حيرتهم أيضاً وبدأوا يتبادلون النظرات من دون أن يقرروا ما الذي يجب عليهم فعله.

- معك حق فإن اتفقنا وتم الأمر بالتراضي من دون أن نؤذي أحداً فهذا أفضل لنا جميعاً. أجاب الرجل الضخم وقد زايلت صوته تلك النبرة العدائية، وأصبح يتكلم بطريقة أكثر مرونة.

- أرجوكم دعونا وشأننا فنحن ضيوف ولا يجوز أن تعاملونا بهذه الطريقة.

كان سيرمت يرجوهم.

- لست ضيفاً أيها المتحذلق، ثم لما تصطحبون معكم نساء جميلات فيما لا نجد هنا سوى الحيوانات لنعاشرها؟

صرخ أحدهم بازدراء وحنق.

- الأمر ليس بهذه البساطة، فالشرطة ستتدخل إن فعلتم أي شيء وستدفعون ثمن ما ترتكبونه.

تدخّل أحدهم ممن لم يسمعنا صوته من قبل.

- لا تقلق فالشرطة لن تتدخل في الأمر، وإن كنت تتساءل عن السبب فذلك لأن ما من أحد أبلغ عنا سابقاً وإن كنت تتساءل مرة أخرى عن السبب فالجواب أنهم استمتعوا بما حصل كما ستستمتعان أيضاً.

بدؤوا يقتربون منا مجدداً مما جعل سيرمت يرتجف بشدة، كان كل جسمه يهتز خوفاً وهلعاً كورقة في مهب ريحٍ عاتية، كان يرجوهم بكل الوسائل حتى إنه انكب على أقدامهم متوسلاً أن يتركونا وشأننا، لم أشعر مطلقاً بالسوء كما شعرت في تلك اللحظات، كنت عاجزة كما لم أكن من قبل ولا أعرف كيف أحمي نفسي أو زوجي، ولكنني لمست كتفه برفق وأنا أقول: - انهض يا عزيزي، أرجوك انهض وكف عن توسل هؤلاء الأوغاد.

ولكن سيرمت التفت نحوي بغضب بالغ وهو يقول:

- دعيني وشأني، دعيني.

كان الشرر يتطاير من عينيه فازدادت حيرتي وخوفي. استغل الضخم هذه الفرصة وحاول التهجم عليّ فوجدت نفسي انتفض خوفاً وهلعاً، كانت لحظات كابوسية لا أدري كيف استجمعت قواي فيها، واستطعت سحب السكين والدفاع عن نفسي، وللحظة لم أصدق ما حصل فقد تمكنت من إصابته بجرح بليغ في وجهه دفعه إلى الصراخ والشتم:

- أيتها الرخيصة لقد جرحتي وجهي.. أيتها الرخيصة...

حينها أيقنت بأنني سأموت حتماً.

- أمك هي الرخيصة انهالت على رأسه ضربة قوية بعصا كان يمسكها أتيلا بيده وفي الظلام رأيت بقية الرفاق يحملون العصي ويهاجمون اللصوص، ونشب عراك شديد بينهم أدى إلى إصابة الضخم ورجل آخر منهم وانسحاب الباقين بأقصى سرعة ممكنة.

لا أعرف ما الذي حصل حينها، ولكنني وجدت نفسي وأنا أركل الضخم على وجهه، كنت أركله بكل ما أملك من قوة، وكل ما ازدادت ضرباتي قوة ازداد غضبي حدةً، أظن أن وجهه تشوّه، ولكنني لم أبالِ مطلقاً كنت أركله من دون هوادة ولو لم يوقفني أتيلا كنت سأقتله بكل تأكيد، في حين ظل سيرمت تحت تأثير الصدمة راكعاً كما كان قبل وصول البقية وهو يراقب ما يحصل حوله بذهول تام. تركنا ثلاثة منهم في وضع

يرثى له على الأرض فيما هرب اثنان وقد رأى أتيلا أن نغادر المكان بسرعة فقد يعود الاثنان ومعهما سلاح وحينها ستسوء الأمور أكثر، وكان علينا أن نصل إلى المخيم بأسرع وقت، ولكنني لم أستطع الاقتراب من سيرمت في تلك اللحظات، ساعده أتيلا على النهوض فيما استجاب هو بشكل آلي لما يُملى عليه من أوامر، أخذنا حقائبنا وبدأنا بالتسلق مرة أخرى.

بقي سيرمت صامتاً طوال فترة تسلّقنا، قد يكون الخجل أو تأثير الصدمة الذي لم يزل بعد، ولم تكن بي رغبة للحديث معه أو الاطمئنان عليه، وكما أسلفت سابقاً فقد كان أتيلا متسلقاً ماهراً ذا خبرة واسعة، واستطاع إيصالنا جميعاً إلى المخيم بسلام، وهناك قمنا بالاتصال بالشرطة عبر جهاز اللاسلكي، وأبلغناهم بما حدث، كان الجميع يسألنا عن تفاصيل الحادثة وقد كانوا محقّين في فضولهم هذا، بقي سيرمت على صمته وكان يكتفي بالإجابة نفياً أو إيجاباً من دون أي تعليق، لذا توجب عليّ أن أشرح لهم ما حصل معنا ولكن من دون التطرّق إلى موقف سيرمت المخزي وركوعه أمامهم مترجياً، فيما بعد توجه كل منا إلى نصب خيمته، وعندما دخلت وسيرمت إلى داخل الخيمة استطعت أخيراً أن أخاطبه.

- كيف أصبحت؟
- لا بأس.. لا بأس ولكنني أريد مغادرة هذا المكان.
- حسناً سنغادر في الغد.

لم يحاول أي منا إطالة الحديث، فقد أدار ظهره لي وهو يتظاهر بالنوم، كنت متأكدة أنه مثلي لم يستطع أن يغفو ولو للحظة واحدة، في صباح اليوم التالي اتصلت الشرطة لتخبرنا أنه تم إلقاء القبض على المشتبهين الخمسة، وعلينا الذهاب من أجل التأكد من هويتهم، وكان هذا مبرراً جيداً لترك المخيم. عندما وصلنا إلى القرية كانت الشرطة تحيط بالرجال الخمسة وكانت الجروح تغطي وجه الرجل الضخم الذي تهجمت عليه، ولم يتجاسر على النظر إليّ فقد كان هو ورفاقه الخمسة - الذين كانوا يعملون في رعي ماشية القرى المجاورة للجبل - يخفضون رؤوسهم، لكن من أثار شفقتي هو زوجي الذي كان يشاطرهم شعور العار نفسه لذا كان يخفض رأسه مثلهم، أردت أن أقول له بأن يرفع رأسه، فقد سامحته على ما حصل، أردت أن أمسك يده وأن أحتضنه، وأقول له دعنا نحاول نسيان الأمر وتجاوز ما حصل، ولكنني لم أفعل. بعد انتهاء الإجراءات الرسمية اتصلنا بأتيلا لنخبره بأننا ننوي العودة إلى اسطنبول، لم يعلّق على الأمر

مطلقاً، وأظنه خمّن ما قد حصل البارحة.

كانت رحلة العودة طويلة ومملّة لم ينطق أحد منا بحرف واحد فيما كان مونولوج صاخب يدور في داخلنا، وعندما مررنا بوادي قونيا تذكرت القمة الشيوعية التي بدأت قصتنا فيها والتي انتهت في أحضان الأناضول على سفوح ألاداغ، كنت أحاول تجنب التفكير في هذه الحقيقة، ولكن أحداث الأمس جعلت شيئاً عميقاً في داخلي يهتز. كنت أظنه عارضاً يزول مع الوقت ولكنني اكتشفت أنني كنت مخطئة فبعد عودتنا إلى اسطنبول بدأ البرود الذي ساد علاقتنا يتسع أكثر ليسيطر على مجمل حياتنا، لم تعد علاقتنا كما كانت في السابق ولم نتمكن من تجاوز ما حصل تلك الليلة، على الرغم من أنني كنت أحاول إيجاد مبررات لتصرّفه على هذا النحو المذل والجبان بخوفه عليّ وليس فقط على نفسه، قد يكون الأمر عائداً إلى كونه ولداً وحيداً لعائلته التي أفرطت في العناية به، كما أن الخوف سمة طبيعية في البشر، ومن المتوقع أن تخذلنا الشجاعة عندما يحيط الخطر بنا أو بمن نحب، أسباب كثيرة كنت أحاول بها تبرير ما حدث تلك الليلة وفي معظم الأحيان كنت أحاول إبعاد كل الأسباب من رأسي ونسيان الأمر برمته، فعليّ تقبّل الشخص الذي أحب بقوته وضعفه وأخطائه. كنت أعلم أن هذا هو الصواب، ولكنني لم أتمكن من ردم الهوة التي بدأت تتسع في أعماق روحي وتبتلع مشاعري اتجاهه، ومن جهة أخرى لم يحاول سيرمت بدوره القيام بأي خطوة إيجابية لتدارك الأمر، وكأنه كان موافقاً على انتهاء علاقتنا وقد يأس منها.

في هذه الفترة، تلقيت عرضاً لإخراج فيلم في أنقرة، فاعتبرت الأمر فرصة للابتعاد عن سيرمت، ونسيان ما حصل على منحدرات ألاداغ خاصة أن العمل سيستغرق شهراً، وبالطبع فقد وافق سيرمت على الفور من دون أي اعتراض على عكس ما كان يحصل قبل حادثة الجبل، وقد أظهر سروره من أجل حصولي على فرصة عمل مناسبة. خلال فترة العمل كانت تنتابي مختلف المشاعر تجاه سيرمت، ولكنني كنت اشتاق إليه كثيراً، وأود لو أستطيع أن أتصل به وأطلب منه الحضور، وعلى الرغم من كل أشواقي لم أجد في نفسي الرغبة الكافية في حمل سماعة الهاتف والاتصال به، بالمقابل لم يكلف نفسه عناء الاتصال بي كما كان يفعل عادة، فقد اقتصرت اتصالاته على مكالمات متباعدة يكلّمني فيها بنبرة رسمية لا رائحة للشوق فيها، كنت أبحث معظم الوقت عن حل لعلاقتنا، فما أن أعود سأكلّمه لنجد طريقة تعيد علاقتنا إلى سابق عهدها وإن لم نتمكن فعلينا أن

ننفصل من دون أن نسبب المزيد من الأذى العاطفي لبعضنا، ولكن قبل عودتي إلى اسطنبول بيومين اتصل بي وأخبرني بأن فريقاً للتسلق عرض عليه مرافقتهم في تسلق جبل آغرداغ ولن يكون في اسطنبول إذا عدت. كنت أستطيع أن أطلب منه البقاء من أجل انتظاري، من أجل أن نتكلم في علاقتنا الآيلة للانتهاء، ولكنني لم أطلب منه ذلك. فكرت حينها أن زوجي الذي غبت عنه شهراً بأكمله لن ينتظر وصولي بل سيذهب في رحلة لا ضرورة لها، وهذا يعني بكل تأكيد أن علاقتنا لا أمل لها بالنجاة، لذا قلت له بكل خيبة: حسناً. فيما بعد سأفكر كثيراً في كلمة حسناً التي قلتها في تلك اللحظة.

بعد شهر كانت العودة إلى المنزل أمراً مريحاً، خاصة أنه كان في ما مضى أجمل مكان في العالم، ولكنه الآن وفي غياب سيرمت يلفّه برود لا سبيل إلى إبعاده. كانت سيرمت قد انطلق مع رفاقه إلى قمة آغرداغ. وعلى الرغم من تعبي الشديد لم أتمكن من المكوث في المنزل حملت أغراضي وتوجهت نحو مكتبة نهاد لرؤية ملك التي بقيت عندها لبعض الوقت ومن ثم خرجت للتجول في أزقة بيه أوغلو دون وجهة محددة، ذهبت لمشاهدة لوحات فنان إيطالي كانت تعرض في صالة يابي كريدي للفنون، ومن ثم اتجهت نحو مشرب جيجك حيث كان من المزمع أن يجتمع فريق الفيلم الذي عملت معه سوية هناك، ولكن صاحب المشرب السيد عارف كسكينر أخبرني أن الحجز تم من أجل اليوم الذي يليه، حينها تذكرت أنه كان مصيباً فيما يقوله، لكن تشوّشي العاطفي قد أغرق ذاكرتي أيضاً في متاهاته، ومن هناك اتجهت نحو سينما إيميك وشاهدت فيلماً كوميدياً لروبيرت دي نيرو وبيللي كريستان ولكنه لم يتمكن من رسم أدنى ابتسامة على وجهي. بالطبع، لا ذنب للفيلم فقد كانت الصالة تضج بضحكات المشاهدين، فيما كانت مشاهد حياتي وزواجي الذي يوشك على الانهيار ترتسم أمام ناظري بدل مشاهد الفيلم، كانت كلها تتسلسل في ذهني بدءاً من لحظة تعارفنا وما تلاها من سعادة لتصل أخيراً إلى تلك اللحظات الحاسمة التي ستضع حداً لكل هذا الحب الكبير، كانت المشاهد تعصف بي من دون رحمة أو قطع أو مونتاج، بجمالها وبشاعتها بفرحها وألمها. وبدل أن نجلس ونحاول إصلاح ما فسد كان الفراق هو النهاية المحتومة لهذا الزواج الذي غامرت بكل شيء من أجله، وتركت بلادي لأحيا في بلد غريب، وعادت إلي مخاوفي التي انتابتني في بداية قراري بالاستقرار في اسطنبول، ومن المحتمل أن يطلب سيرمت الطلاق حال عودته، ما الذي

سأفعله لو طلب أمراً كهذا؟ هل أعود إلى روسيا التي كانت تتفكك وكانت البطالة والمشاكل الاقتصادية تعصف بها؟ كما أن الأمان الذي تعوّدنا على العيش في ظله في الفترة الشيوعية قد انهار الآن بعد انهيار الإتحاد السوفياتي. كنت أفكر في البقاء في تركيا وفي اسطنبول تحديداً، فقد كوّنت بعض العلاقات هنا، وأصبح لي بعض الأصدقاء ولا بد أنهم سيساعدونني في الحصول على عمل، في تلك اللحظات وفيما كنت أجلس في عتمة السينما أدركت للمرة الأولى بأنني أنوي الاستقرار في اسطنبول، وتأكدت من صحة كلام سيرمت الذي كان يردد على الدوام بأن اسطنبول تمتلك سحراً خاصاً يجعلها تتغلغل في دماء الإنسان دون أن يدري.

كان الظلام قد خيّم عند خروجي من السينما، أكملت سيري في أزقة بيه أوغلو مستصعبة الذهاب إلى المنزل وإعداد وجبة للعشاء. لذا، اتجهت نحو مطعم صغير في شارع صدري ألشيك، يعدّ وجبة دجاج شهية، كانت معظم الطاولات مشغولة، وقد رأيت مقعداً شاغراً بالقرب من جهاز التلفاز، فاتجهت للجلوس إليه، كانت فكرة الجلوس مع أشخاص غرباء غير مريحة أو مألوفة بالنسبة إليّ ولكنني جلست من دون تفكير مسبق، ولكي أتجنب النظر إلى الشاب الذي يجلس أمامي وهو يرتشف ملاعق متوالية من صحن الحساء أمامه بصوت مرتفع اتجهت نحو التلفاز. كانت المذيعة تتحدث عن حادث ما، وقد توقعت أن يكون حادثاً مرورياً كما يحصل على الدوام في تركيا، ولكنني فجأة سمعت كلمة آغرداغ أثناء حديثها، ومن ثم توالت كلمات مشابهة فاجعة، مأساوي، محزن، مؤسف... حينها أدركت بأنها تتحدث عن متسلق سقط في قعر أحد الوديان وهو يحاول تسلق القمة، وعندما ذكرت اسم سيرمت لم أفقد وعيي على الفور فعلى الرغم من إتقاني للتركية إلا أنني بقيت أتمسك بأمل أن أكون مخطئة في فهم حديثها، كنت أريد التأكد مما أسمعه لذا اتجهت إلى شخص ملتحٍ يجلس بجانبي وسألته:

- عذراً هل تتحدث المذيعة عن حادث ما؟

فأجابني بلامبالاة موضحاً:

- أجل إنها تتحدث عن حادث تعرض له أحد متسلقي جبل آغرداغ ويدعى سيرمت أردهان...

كنت أتابعه باهتمام بالغ أثناء حديثه حتى لا أفوّت كلمة واحدة مما يقوله، ولاحظت أن لامبالاته قد تغيّرت فجأة وهو يسألني:

- ما الأمر سيدتي هل أنت بخير؟

وعندما فتحت عينيّ مرة أخرى شاهدت رهطاً من زبائن المطعم مجتمعين حول رأسي وهم يتساءلون عن وضعي في قلق فيما يصرخ البعض طالبين الاتصال بالإسعاف على الفور.

صمتت للحظات، وهي تخفض رأسها لتخفي عينيها التي ملأتهما الدموع، وبعد لحظات مسحت أنفها وهي تقول:

- أنا آسفة.

كنت أنوي أن أخبرها بأنه ما من داعٍ للاعتذار، ولكنها أكملت قائلة:

- أكره البكاء أمام الآخرين.

أراحني كلامها من عناء إيجاد جمل مواسية لا أبرع في صياغتها، أعطيتها أحد المناديل الموجودة على الطاولة.

- شكراً لك.

عندما رأيت دموعها، انتقلت إليّ عدوى الغم الذي سيطر عليها. لذا، ارتشفت جرعة كبيرة من قدح الشراب، وعندما رأتني ألجأ إلى القدح حملت بدورها قدحها من دون أن تترك المنديل من يدها، وبدل أن تشرب رفعت القدح وهي تقترح نخباً.

- نخب أمواتنا.

حاولت الابتسام، ولكنها لم تفلح في ذلك، فقد انهمرت دموعها مجدداً، ولكنها لم تعرها اهتماماً هذه المرة وأكملت.

- نخب أحبّتنا الأموات.

رفعت قدحي لأشاركها النخب، ولكنني لم أرتشف منه هذه المرة فيما ارتشفت كاتيا بصمت وكأنها تتوسل القدح أن يأخذ معها بعضاً من أحزانها. ما كان عليّ أن أسأل، ولكن الفضول تغلب على إرادتي.

- هل كان حادثاً حقاً؟

أجابتني وقد ارتسم أسى عميق في خضرة عينيها الجميلتين:

- هذا ما قاله لي أصدقاؤه.

سكتت وهي تنظر في عيني مستفسرة عن جواب شافٍ، وكأنها هي من بادرت بالسؤال، ظلت لبضع لحظات تحدّق إلى عينيّ لذا ارتأيت أن أتولى دفة الحديث وقلت أول شيء خطر ببالي:

- وما رأيك؟

- أظن أنه انتحر.

نطقت الكلمات الثلاثة بحسم وثقة إلا أنني لم أسألها من أين أتت بكل هذه الثقة، فمن الممكن أن تكون مصيبة في ثقتها، ربما لم يتمكن

من التخلص من العار الذي شعر به نتيجة جبنه في الوقت الذي كانت تتوقع منه إبداء الشجاعة في الدفاع عنها. لذا، فقد ارتأى أن الموت هو الخيار الأفضل. وقد يكون الاحتمال الآخر الذي تحاول كاتيا تجنبه هو ما حصل، فكما بدأت مشاعرها تجاهه تتغيّر بعد تلك الليلة، قد يكون الأمر مماثلاً بالنسبة إليه أيضاً، وكان سيطلب منها الانفصال عند عودته لكن الحادثة أودت بحياته.

كان الاحتمال الذي تعتقد به كاتيا أكثر مأساوية لكنه بطريقة ما كان يقنعها أنه ظل يحبها لآخر لحظة، وقد امتلك الشجاعة الكافية - وهذا أمر غير وارد برأيي - لينتحر بعد الخزي الذي تعرّض له أمام زوجته، كان تبريرها للأمر على طريقتها يقنعها بأنها عاشت قصة حب حقيقية، وأن سيرمت كان يحبها، ويتمسك بها حتى آخر لحظة. كان هذا متوقعاً من امرأة تركت كل شيء خلفها لتلتحق بالرجل الذي أحبته، والذي رفضت تقبّل فكرة أنه تخلى عنها في لحظة الحقيقة، ولكنني بالطبع لم أصرّح لها برأيي فمن المستحيل إدراك ما حصل في آغرداغ.

- بعد أن توفي سيرمت، أحسست بأن مشاعري نحوه عادت إلى سابق عهدها، وأنني أحبه كما في الأيام الخوالي، ولم ألحظ بأنه كان مجرد إحساس بالذنب إلا بعد مضي عدة أشهر على وفاته. فقد انتهى حبي له في الليلة نفسها التي وقعت فيه الحادثة في ألاداغ، أعتقد أن الحب شعور هش جداً قد تستطيع أدنى الهفوات أن تترك آثارها عليه ليصبح من الصعب العودة إلى الخلف، صمتي كان عقابه على تخاذله، بالطبع كنت أستطيع أن أبرّر الأمر وأواسيه بأن الجميع قد يمرّ بلحظة ضعف ولكنني لم أفعل، بقيت صامتة وصمتي كان اتهاماً غير مباشر أودى به إلى الموت.

كانت تبكي بصمت، وتحاول أن تمسح دموعها بين الحين والآخر بالمنديل الذي بين يديها وهي تخفض رأسها حتى تخفي عني عينيها الدامعتين، ولكنني لم أتمالك نفسي من التعليق فقد خرجت الكلمات رغماً عني.

- الآن تلومين نفسك على ما حصل له؟ أعتقد وبغض النظر عن معتقداتك الدينية أن الأمر برمته هو قضاء وقدر، لعبة من القدر كنت طرفاً فيها كما كان سيرمت بالضبط، وقد ساقتكما الظروف نحو هذا المصير.

- كان باستطاعتي التدخّل وتغيير مسار الأحداث.

- ولكن هذا لم يحدث ولا فائدة من الندم والتباكي على الماضي الآن، عليك أن تتمسّكي بالحياة والأمل وترك الماضي يرقد بسلام.

مسحت دموعها ونظرت إليّ وقد زايلها الحزن قليلاً.

- وهذا ما أحاول فعله الآن، لذا فقد ارتبطت بصديقك أملاً في بداية جديدة.

- أنت تفعلين الصواب.

بدأ الجوال بالرنين ليقطع محادثتنا.

- عذراً.

نظرت إلى الشاشة لأجد اسم كنعان، لم تكن أكثر اللحظات ملاءمة لاتصاله، ولكن ما من مهرب، نظرت إلى كاتيا وأنا أحاول الابتسام.

- عندما تذكر الذئب فلتكن عصاك جاهزة.

- ماذا تعني؟

لم تكن تعرف مغزى المثل الذي ذكرته.

- كنعان يتصل.

كنت أود أن أعرف رأيها فيما عليّ فعله.

هزت كتفيها بلا مبالاة من دون أن تشير عمّا يجب أن أفعله، لذا لم يكن أمامي من خيار سوى الرد على الاتصال.

- مرحباً سليم، هل كاتيا معك؟

سألني صديقي بلهفة جعلتني أحس بالذنب لأنني خرجت مع حبيبته دون أن أخبره بالأمر.

- أجل معي.

- أريد التحدث إليها فقد حدثت تطورات هامة ويجب أن أكلّمها على الفور.

- يريد التحدث إليك.

أعطيتها الجوال ولكنها ظلت للحظات مترددة قبل أن تأخذه من يدي وأخيراً أذعنت وأخذته إلا أنها كلّمته ببرود واضح.

- ألو.. لا أريد المجيء.. فأنا أتناول العشاء مع سليم.. لا أعلم اسم المكان ولكننا في أحد مطاعم الكباب.. حسناً سأعطيه الجوال..

أعادت الجوال إلي مرة أخرى.

- صديقي - تكلّم راجياً - من الضروري أن أحدّث كاتيا فقد حصل سوء تفاهم كبير، كما أن هناك الكثير من المستجدات التي حصلت مؤخراً ويجب أن تطّلعا عليها، أخبرني أين أنتما لكي نأتي نحن أيضاً.

- أنتما؟

- أنا ونهاد. أعطني اسم المطعم لكي نوافيكما.

كان موقفاً محرجاً حقاً، فكنعان صديق العمر ولا أستطيع أن أرفض طلبه، ولكن في الوقت نفسه كاتيا حزينة وتحتاج إلى أن تبتعد عن كل ما يثير أحزانها ومشاعرها، وعلى الرغم من ذلك فقد اخترت أن أقف إلى جانب صديقي.

- نحن في مطعم موسى في شارع كوجوك بارماك، لقد أتينا إلى هنا من قبل وأعتقد أنك تذكر المكان.

- أجل أعرفه، حسناً سنوافيكما في غضون عشر دقائق.

نظرت إلى كاتيا محرجاً.

- لقد أصرّ كثيراً على المجيء ولم أستطع منعه، أظن أن المشكلة التي حصلت بينكما مجرد سوء تفاهم، وهو يرغب في رؤيتك ليوضح لك الأمر.

- المشكلة تكمن عندي، فما كان عليّ أن أرتبط بأي شخص بعد موت سيرمت.

- لا تقولي هذا الكلام، أنت تعلمين جيداً أنك قمت بالصواب، وأعتقد أن سيرمت أيضاً سيفكر بهذه الطريقة لو كان هنا - كانت تحاول الاعتراض ولكنني أكملت دون أن أفسح لها المجال لمقاطعتي - وبغضّ النظر عن المشكلة التي حصلت بينكما فكنعان شخص جيد وهو يحبّك بصدق، صحيح أنه متهوّر بعض الأحيان ولكنه طيب القلب.

- كما أن قلبه الطيّب هذا يتّسع لعشرات النساء الأخريات أليس كذلك؟

ضحكت رغماً عني من ملاحظة كاتيا التي ظلت تحدّق إلى وجهي منتظرة ردي.

- معك حق. كنعان يحب النساء وهذا شعور متبادل بين الطرفين، ولكن صدقيني فقد تغيّر كثيراً مؤخراً، شاهدت كنعان مع نساء غيرك وشاهدته معك، وهناك فرق واضح في طريقة تعامله وطريقة تصرّفه، من الواضح أنه يحبّك بصدق.

يبدو أن كلماتي لم تؤثّر فيها مطلقاً ومع ذلك كنت مصرّاً على متابعة دفاعي.

- لا أقول ذلك لأنه صديقي، ولكنني أعرفه منذ وقت طويل جداً، وأنا متأكد من أن مشاعره تجاهك جادة.

- ولكنني لا أشعر بأي شيء تجاه صديقك.

كنت متأكداً من أنها تكذب، فقبل قليل كانت عيناها تفيضان بالدمع

لذكر سيرمت، وها هما الآن تتلظيان غضباً عند ذكر صديقي، كانت عيناها مرآة روحها، ولكنني بالطبع لم أصارحها بحقيقة أفكاري، ولجأت إلى القدح مرة أخرى، وفيما أهمّ بارتشاف جرعة جديدة، وصل النادل البدين الفضولي وهو يحمل صحن المشاوي، كان صوته وهو يحدّثني حبل النجاة بالنسبة إلي.

- المشاوي أصبحت جاهزة سيدي.

وعندما التفت نحوه أحسست لأول مرة بأنه شخص ودود حقاً.

# (18)

لم أكن أرغب أن يقحمني أحد في قصة حب وخلاف بين عاشقين، ولو كنت أعلم بأن كنعان سينضم إلينا لما وافقت على اصطحاب كاتيا، صحيح أن جلسة اعترافاتها كانت غنية بالتفاصيل والتجارب الغريبة، وكانت ستستمر على هذا النحو لولا اقتحام كنعان لهذه اللحظات الخاصة. من الواضح أنه لن يستسلم، وسيحاول بكل الطرق إرضاء كاتيا وتسوية الخلاف الحاصل بينهما لتعود علاقتهما إلى سابق عهدها. ولكن ما الذي شعر به حين علم بأنني أجلس معها لوحدنا دون أن أخبره بالأمر؟ هل سيعتقد بأنني أحاول استغلال الفرصة للانفراد بحبيبته؟ لا أعتقد أن تصل به الظنون إلى هذا الحد، فهو يثق بي ويعلم جيداً أنني لن أقدم على سخافة كهذه، ولكن المشكلة أنني أخبرته بأنني أحتاج كاتيا في موضوع ترجمة يتعلّق بالعمل ولم أخبره بأننا سنخرج سوية، ومع ذلك فلست أنا من اقترح فكرة الغداء سوية بل هي، على كل حال لا أظن أنه سيعتقد بأن لي نية للتفريق بينهما.

تركت هذه الأفكار، وعدت إلى مراقبة ضيفتي الجميلة، فبعد الحماس الذي أبدته لفكرة تناول الكباب لاحظت أنها لم تأكل سوى قطعتين صغيرتين من اللحم، وبدأت تلهو بالشوكة التي في يدها وقد أخذتها الأفكار إلى حيث لا أعلم، ولم أكن أفضل حالاً منها، فلم تكن بي رغبة لتناول الكثير بعد حديثها الشجي الذي أثّر فيّ كثيراً، وبدأت أنظر لها بنظرة جديدة تختلف عما سبق.

كانت ترتشف من قدحها ببطء، إنه القدح الثالث ربما وإذا استمرت في الشرب بهذا الإسراف ستصاب بالدوار بعد قليل، حذّرتها أكثر من مرة لذا لم أشأ أن أثقل عليها بملاحظة جديدة، وما زادني طمأنينة هو رؤية كنعان ونهاد الذي يجرجر نفسه خلفه كما هي العادة وهما يدخلان المطعم تماماً بعد انقضاء عشر دقائق.

عندما رآنا كنعان أغدق علينا بابتسامة أبرزت صف أسنانه ببياضها الناصع والملفت للنظر، كان يمشي باعتداد وسعادة وثقة عالية بالنفس جعلتني أتساءل عن سرها الذي لا أتمكن من الوصول إليه مهما حاولت، فيما نهاد يلحقه ونظراته مهيضة كأعلام الهزيمة. اقترب منا كنعان وعلى الفور طبع قبلة صاخبة على خد كاتيا التي لم تتح لها المفاجأة التصرّف ومنعه ولكنها بالمقابل لم تبادله القبلة، وقد لاحظ كنعان الأمر ولكنه

تغاضى عن جفائها.

- كيف تتفاخر أمامنا على الدوام بأنك خبير في معالم بيه أوغلو ومع ذلك لم يكن اختيارك للمكان موفّقاً يا صديقي؟ أنسيت مطعم الحاج عبد الله، مطعم الحاج صالح، ومطعم الحاج بابا، رفيق يعقوب، كللافي، إيمروز، وإن كانت تعتقد أن هذه الأماكن مفرطة في تراثيتها لما لم تأخذها إلى بيرا بالاس، ذا مارمريس، أو أوتيل ريتشموند بلائحة الطعام الشهية وإطلالته الرائعة؟ كما أن هنالك أماكن تفضّلها كاتيا مثل دولجينا، زنجبيل، كاكتوس، أرا كافيه وغيرها من الأماكن العصرية...

ولكن كاتيا بادرت بالإجابة

- سليم لا علاقة له بالأمر فأنا اخترت المكان الذي سنجلس فيه.

استسلم كنعان على الفور بعد أن أدرك أن مبادرته أتت بنتائج عكسية ونحا نحو السلم.

- حسناً إن كان الأمر كما تقولين..

لم يكمل جملته وسحب الكرسي الذي بجانب كاتيا وجلس مهيض الجناح وهو يعلّق على طاولة الطعام.

- لكن اختياركما للطعام موفّق جداً.

جلس نهاد وهو يضع يده على كتفي دون أن يتفوه بأي كلمة، وعلى عكس الحماس الذي كان بدا على كنعان فقد كان نهاد قلقاً ويظهر التوجس على تصرّفاته وقسمات وجهه، هل يشاطرني الضيق نفسه من إقحامه في مشكلة خاصة بين عاشقين؟ ولكن كنعان أخبرني على الهاتف بحدوث تطورات جديدة، أعتقد أنني شاهدت هذا الحماس والتوقّد في عينيه حين حدّثه نهاد لأول مرة عن فكرة تصوير الجرائم عندما كنا مجتمعين معاً في إيمروز، وقد أبدى اللهفة ذاتها التي أراها الآن تحوطه كهالة مضيئة، وكان التوق يعتري نبرات صوته. لذا أدركت بأن هذه التعابير لم تكن تظاهراً منه من أجل إقناع كاتيا، بل كانت لهفة حقيقية لا تصنّع فيها.

- نحن الاثنان نمضي وقتنا في أقسام الشرطة وعند المحامين فيما تستمتعان بحياتكما هنا دون اكتراث.

بادرت إلى السؤال من أجل فتح حديث بعيد عن خلافهما.

- عما تتحدث، ما الذي حصل بالضبط؟

كان نهاد يهز رأسه بأسى استعداداً لإجابة تحمل الكثير من القلق على ما يبدو، ولكن كنعان لم يمهله وجاوب على الفور.

- لقد اكتشفت شيئاً رائعاً.

تنقّلت نظراته المتّقدة بيننا جميعاً بإمعان وتركيز، واستقرت عليّ وهو يردف.

- الموضوع يتعلّق بك أنت يا سليم.

ومن ثم توجّه بحديثه نحو كاتيا وكأن لا خلاف بينهما.

- أتذكرين اللوحات التي حدّثتك عنها؟ تلك اللوحات المعلقة على الحائط والتي تظهر فيها أفعى؟

لكن كاتيا لم تعلّق على الأمر وتوجهت نحو قدح الشراب تلوذ به كعادتها، فاتجه كنعان نحوي.

- إنها مصادفة غريبة، ففي اثنين من المواقع التي حدثت فيها الجرائم هناك لوحتان معلقتان للرسام نفسه، اللوحة الأولى تجسّد شكلاً متصالباً التفت حوله أفعى فيما تجسد الثانية اثنين من الأفاعي التفتا حول عمود خشبي على شكل رقم ثمانية، عند مشاهدتنا للصور للمرة الأولى لم ألاحظ الأمر ولكن عندما دققت في كل صورة على حدة أدركت ذلك، والغريب في الأمر أن اللوحتين تعودان للرسام نفسه.

كنت أرى بوادر مصيبة جديدة تلوح في الأفق، ومع ذلك أردت أن أعرف ما الذي سيلي كل هذه الترهات.

- حسناً وأين الغريب في الأمر؟

سألته.

- الغريب أن كلتا الضحيتين كانت تجمعهما معرفة سابقة.
- إذاً؟...
- هناك رابط بين الجريمتين.
- هذا ممكن.
- لكن الشرطة لا تعتقد ذلك.
- هل ذهبت إلى المخفر من أجل التحقّق من الأمر؟
- لم أكتفِ بالذهاب إلى الشرطة، ولكنني ذهبت للقاء محامي الدفاع اللذان توليا الدفاع عن كلا المتهمين بالجريمة، هما أيضاً يشاطرانني الرأي ذاته ويجزمان ببراءة موكّليهما.
- حسناً وما شأننا بما يقوله المحامون؟
- ألا تسمع ما أقوله لك، إن كان ظني في محله فهذا يعني أن الشخصين الذين تم إلقاء القبض عليهما بهذه التهمة بريئان، والقاتل في كلتا الجريمتين شخص واحد، وهناك أسلوب واحد في كلتا اللوحتين.

- أي أسلوب؟
- إنها تعود إلى شخص يدعى نيكولاس فليمل، وهو شخص عُرف بميوله الغريبة وإيمانه بالشعوذة.
- لم يكن مشعوذاً بل خيميائياً.
أجابت كاتيا ببرود.
لا بد أن الحديث قد شد انتباهها هي أيضاً، فلم تتمالك نفسها من التدخّل وأكملت موضحة:
- ولكنه ليس المجرم بكل تأكيد فقد مات منذ مئات السنين.
- لم أقل بأنه القاتل - أجابها كنعان - ولكن من أين سمعتِ عنه؟
فردّت عليه محتجة:
- أنسيت بأنني من عثر على تلك اللوحات من أجل تعليقها أثناء جلسات التصوير؟
- معك حق، فقد غاب الأمر عن ذهني تماماً، وكنت أجهد نفسي عناء إيجاد معلومات تتعلّق بهذا الرجل.
- لو سألتني عن الأمر لكنت أجبتك.
ردت كاتيا.
- كنت أنوي أن أسألك يا عزيزتي قبل أن تجتاحك موجة الغضب التي لا مبرر لها، والتي دفعتك إلى ترك الاستديو ولكن...
- لأنك لم تعد بحاجتي بعد أن حضرت السيدة شيرمين.
- لا تبالغي يا عزيزتي، إنها مجرد صديقة قديمة وقد جاءت لكي تراني وتطمئن عليّ، هل كان عليّ طردها مثلاً؟ ولا تنسي أنها مهندسة ديكور وكنت أود أن أريها الديكورات التي قمنا بصنعها.
- ولكنها كانت تهتم بك أكثر من الديكورات التي حولك- اتجهت بحديثها نحوي أنا ونهاد معتذرة- أعتذر حقاً لأنني تطرقت إلى أمر كهذا أمامكما ولكنه اضطرني لفعل ذلك.
- صدّقوني أنا بريء من هذه التهم- بدوره اتجه نحونا ليستمد العون- ربما تصرّفت هي على هذا النحو، ولكن لم تكن لدي أية نيّة للتقرّب منها أو التودّد إليها- عاد يخاطب حبيبته مجدّداً- أقسم لك إنني بريء تماماً من هذه الادعاءات، كما أنك تبالغين كثيراً وتهوّلين الأمر، فنحن نعمل معاً طيلة الوقت، ونبقى سوية بعد انتهاء العمل، ولا وقت لدي لأفكّر بهذه التفاهات، وأعتقد جازماً أن من يحب امرأة بجمالك سيكون

شديد الغباء إن فكّر بأخرى سواكِ.

نظرت إليه بعيني تفيضان شكاً واتهاماً.

- لا زلت مصرة على عدم تصديقي؟ إنك تبالغين في قسوتك يا عزيزتي.

اتجه نحونا طالباً المساعدة والعون.

- فليخبرها أحدكما بأنها تبالغ في جورها عليّ.

- أظنه صادقاً في كلامه، فكما ترين لقد استحوذت فكرة المعرض على كل اهتمامه وليس لديه الوقت الكافي ليفكّر بمغامرات عاطفية، وهو مشغول حالياً في توريطنا جميعاً في مشكلة لن نخرج منها سالمين.

فاجأني تحوّل نهاد عن موقفه السابق في دعم كنعان، فقد أدرك أخيراً أن ما يفعله كنعان سيورّطنا جميعاً في متاعب نحن بغنى عنها، وقد أكمل حديثه وهو يخاطبني:

- لقد أتيت لأتحدث معك حول هذا الموضوع.

كنت على وشك تعنيفه لأنه لم يشاطرني هذا الرأي منذ البداية، ولكنني أدركت أنه ما من فائدة للّوم بعد أن وقع المحظور، وبدلاً من ذلك حاولت الاستفسار عن حقيقة الأمر.

- عذراً يا أصدقاء ولكنني لم أفهم عما تتحدثون بالضبط- توجهت نحو كاتيا- ألديك فكرة عما يتحدثون عنه.

- لا أعلم، فحتى البارحة لم يحدث شيء.

- لأنني حتى البارحة لم ألاحظ الأمر فقد لاحظته هذا الصباح، ولو كنت معنا ولم تغادري الاستديو بتلك الطريقة النزقة لكنت أدركت غرابة المصادفة التي أتحدث عنها.

كنت خائفاً من أن يتجدد الخلاف مرة أخرى بينهما لذا تدخّلت متداركاً.

- هل لك أن تشرح لي ما حصل بشكل مفصّل؟

- سأشرح لك الأمر، ولكن دعني أرتشف بعض الشراب البارد، فقد أرهقتني الجولات بين الشرطة والمحامين منذ الصباح.

أخذ كنعان قدحين ليملأهما شراباً، بدوري استدعيت النادل -الذي كان يحوم حول طاولتنا منذ مدة، ولكنه يحجم عن التدخل وسؤالنا عن طلباتنا حتى لا يقطع المناقشة التي كانت محتدمة منذ قدوم صديقيّ- وطلبت منه أن يحضر صحوناً إضافية. أنهى كنعان صب القدحين وقدّم أحدهما إلى نهاد، وبما أنني صاحب الدعوة فكان من واجبي اقتراح النخب.

- أهلا بحضوركما.

- أهلاً بك - أجابني نهاد ولكن التعبير الذي ارتسم على وجهه كان يوحي بفاجعة حقيقية.

وبعد أن ارتشف كنعان جرعة كبيرة من قدحه بدا الانتعاش واضحاً عليه؛ وضع قدحه على الطاولة وهو يقول:

- هذا ما كنت أحتاج إليه بالضبط، فقد استعدت نشاطي.

ودون أدنى تردد أخذ الشوكة الموجودة أمام صحن كاتيا وتناول قطعة من الكباب بالفستق، فلم تعلّق على الأمر مطلقاً، يبدو أن الثلوج التي تفرّقهما بدأت تذوب رويداً رويداً، وبعد أن مضغ طعامه توجّه بالحديث نحوي.

- الموضوع يا صديقي أنني عندما لاحظت تشابه اللوحتين ذهبت لأستفسر من المحقق جونييت إن كانوا قد ألقوا القبض على المجرمين في تلك القضيتين.

- لما تسأل؟

رد عليّ جونييت، ويبدو أن الأمر قد أثار انتباهه أيضاً لذا فقد طلب من أحد عناصر الشرطة أن يحضر ملف الجريمة لكي يتأكد، وعندما أصبح الملف بين يديه فتحه بطريقة لا تمكنني من رؤية محتوياته وأخبرني بأنه قد تم إلقاء القبض على المجرمين، فسألته إن كانا الشخص نفسه، فنفى الأمر وقال إن المحاكمة لا تزال مستمرة ولم يتم البت في القضيتين حتى الآن ولكن الأدلة تثبت تورّط كل منهما فتساءلت حينها.

- هل أستطيع إلقاء نظرة على الملفات؟

- بالطبع لا، ثم ما الذي يجعلك مهتمّاً بالقضية على هذا النحو؟

- إن تمكّنت من الاطلاع على تفاصيل القضية ستكون الصور التي التقطها أكثر واقعية وتأثيراً.

ولا أدري إن كانت رغبته في مساعدتي أم تصديقه لحجتي التي اختلقتها للتو قد جعلته يقتنع، فأعطاني أرقام هواتف المحاميين اللذين يتوليان الدفاع عن المتهمين.

- حقاً لم أنت مهتم بالأمر على هذا النحو؟

- ألم تفهم حتى الآن؟ - صوّب نظراته الحادة المتقدة نحوي.

نفيت بإشارة من رأسي.

- أريد أن أضمن سلامتنا جميعاً، صحيح أنني بدأت بفكرة غريبة بعض الشيء، ولكن هذه اللوحات سيتم عرضها على الملأ، وسيشاهدها كل

من يرغب في ذلك، ولا أريد أن نصبح ضحية لتهوّر كان من الممكن تفاديه منذ البداية، كما أنني إن قمت بفك ألغاز هاتين الجريمتين ستصبح الصحافة حينها مرغمة على التحدّث عن المعرض حتى لو تعمّدت تجاهل الإبداع الذي أقدّمه، وبهذه الطريقة سأصل إلى الشهرة التي أبحث عنها والتي بنيت عليها فكرة المعرض.

كانت مبرراته شديدة الغرابة. لذا، لم أتمكن من إدراك ما يدور في ذهنه ولكن كاتيا بادرت إلى السؤال:

- وما علاقة كل ما ذكرته بالفن؟

- ربما لا علاقة بين الموضوع الذي ذكرته بالفن، ولكنه وثيق الصلة بالصحافة التي تحاول على الدوام أن تتجاهلني، فهذا الكشف سيجعلها تهتمّ بي رغماً عنها.

ولكن كاتيا كانت مصرة على انتقاده.

- ولكنه أمر ينافي الأخلاق، ومن الخطأ أن تستمر فيه.

- وهل تسمّين طريقتهم في تجاهلي أخلاقية؟

كانت المرة الأولى يرفع فيها صوته منذ أن جلس إلى المائدة.

- أتعلمين عدد المعارض التي أقمتها منذ أن بدأت أمارس التصوير ومع ذلك لم يكتبوا عني سطراً واحداً في صحافتهم، أليس هذا منافياً للأخلاق والضمير المهني؟ أتريدين مني أن أذعن لتجاهلهم لي، ومحاولاتهم طمس موهبتي؟ أليست تصرفاتهم معي غير أخلاقية؟

- لا أطلب منك أن تذعن، ولكن الحل لا يمكن في أن تتقمص دور المحقق الجنائي، عليك أن تحاول أن تبدع في عملك وتبذل قصارى جهدك، وبالتأكيد ستصادف من يقدر فنك حق قدره.

- أتعنين أن الصور التي كنت ألتقطها لم تكن بمستوى الإبداع المطلوب؟

- بالتأكيد ليس هذا ما تعنيه - تدخّل نهاد شارحاً - ولكنها تطلب منك أن تكفّ عن البحث في موضوع لا علاقة له بالفن مطلقاً، ألا تكفينا غرابة المشروع الذي نعمل عليه، حتى تضيف إليه البحث الجنائي أيضاً؟

أكاد لا أصدق أن نهاد قام بانتقاد كنعان، ولكن يبدو أن الوقت قد فات على إقناعه بالعدول عن الأمر.

- ماذا سأفعل إن قاموا بتجاهل صوري بعد افتتاح المعرض كما يفعلون على الدوام؟ كلا لن أخاطر هذه المرة، وسأفعل المستحيل من أجل

لفت الأنظار نحو هذه الصور التي أكرّس لها كل هذا الجهد، كما أنني لا أعتبر ما أفعله أمراً لا أخلاقياً على الإطلاق. إنه مجرد وسيلة لكي تُسلّط الأضواء على المعرض.

كانت كاتيا تستعد لتردّ عليها ولكنني سبقتها إلى الحديث.

- لا تعنيني مطلقاً الناحية الأخلاقية التي تتحدثون عنها، فالوسط الفني حافل بكل أشكال اللاأخلاقيات ومن حقه أن يروّج لمعرضه بالطريقة التي يشاء، ولكن أكثر ما يثير مخاوفي هو الخطر الذي من الممكن أن يتعرّض له وهو يتحرى عن أمر بهذه الخطورة.

توجهت نحو كنعان الذي اتّقد وجهه حنقاً.

- أتعلم حقيقة ما توشك على التورّط فيه يا صديقي؟

كان كنعان يهم بالإجابة ولكنني أكملت دون أن أتيح له الفرصة.

- نحن نتحدث عن مجرمين حقيقيين، طبعاً إذا افترضنا أن الأشخاص الذين تم إلقاء القبض عليهم أبرياء.

- إنهم كذلك وأنا متأكد مما أقوله، وهذا ليس رأيي وحدي فالمحاميان أيضاً يشاطرانني الرأي ذاته.

- وهذا ما أود أن أقوله لك، الأمر ينطوي على مخاطرة كبيرة جداً، وأنت على حد علمي لا تملك حتى مجرد مسدس صغير.

حاول أن يبعد مخاوفنا بالسخرية.

- هذا أمر سهل، فأنت لا تزال تملك الرخصة القانونية والمسدس أليس كذلك؟ أستطيع أن أستعير منك المسدس لحل هذه المشكلة.

- أجل لا يزال المسدس بحوزتي، ولكنني كنت أمزح فحسب، فلندع المزاح جانباً لأن ما تود إقحام نفسك فيه أمر على غاية الخطورة.

- أرجوك يا سليم كف عن الحديث بطريقة توحي بأنني شخص غبي أو أبله.

كان صوته جدياً هذه المرة.

- أنا أحاول أن أنبّهك.

- أعلم ما أنا مقبل عليه، فالأمر يتعلق بجرائم حقيقية، لذا ما من داع لأن تعاملوني وكأنني أحمق. ولكن من وجهتي نظري فإن المعرض يستحق مخاطرة من هذا النوع، وقد فكرت بالأمر ملياً ولن أتراجع عن قراري. أدرك أنني قد أُضطر لمواجهة المجرمين والشرطة أيضاً، لذا لن أقحم أياً منكم في الموضوع، ولكن رجاءً كفوا عن محاولة ثنيي عما أنا مقدم عليه.

كانت كاتيا تراقبه بذهول تام وقد اتسعت عيناها دهشة وخوفاً، فيما هز نهاد رأسه يائساً، أما أنا فلم أتمالك نفسي وبدأت أضحك بطريقة عصبية.

- لما تضحك؟

سألني كنعان بغضب واضح، فقد كان متأهباً يحفّزه الحنق وتستفزّه أدنى إشارة أو انطباع أو كلمة يسمعها منا نحن الثلاثة.

- أضحك لأن توقعاتي كانت في محلها، وحدث ما كنت أتخوّف منه. فقبل عدة أشهر حين اجتمعنا في مشرب إيمروز وحدّثك نهاد أول مرة عن فكرة المعرض، أخبرتكم أن الأمور ستصل بنا إلى هذه النقطة، حاولت أن أثنيكم عن الفكرة ولكن كل تحذيراتي ذهبت هباءً، وحصل ما توقّعته.

وكان أول من حاول التدخّل هو نهاد كعادته.

- أنا أعتذر منك يا سليم، فقد كنت محقاً في مخاوفك، ولكنني لم أدرك حقيقة الأمر حينها.

- ما الذي تتحدثون عنه؟

كان محتداً جداً هذه المرة.

- أنا حر في ما أقرره وما أفعله، حر في مواجهة الخطر والموت إن اقتضى الأمر، ولن أطلب منكم المساعدة وسأشكّل فريقاً يساعدني دون أن أحتاج مساندتكم.

بدأ يفقد السيطرة على نفسه وهو يتحدث، فقد كان يتوقع أن يفاجئنا لنتحمس جميعاً للفكرة التي طرحها، ولكننا على العكس قمنا بانتقاده، لذا لم أشأ أن أنجر إلى دوامة الغضب التي كانت تستحوذ عليه، ولكن أكثر ما أثار دهشتي هو الرد الذي أبداه نهاد.

- إن فكرت بهذه الطريقة فأنت حقاً أحمق، كيف تتوقع منا أن نتخلى عن مساعدتك في أمر بالغ الخطورة، أنا أتحدث عن نفسي الآن، وسأظل معك في هذا الموضوع حتى النهاية، فكل ما يحدث هو بسبب اقتراح غبي مني.

- لا أريد أن يساعدني أحد..

ردّ كنعان بغضب.

- اصمت يا كنعان، فأنت تعرف حق المعرفة بأنني لن أتخلى عنك. لذا، كف عن الحديث بهذه الطريقة لأنك تثير غضبي.

كانت نبرته جدية وصوته مرتفعاً وحاسماً.

- لم تصر على مساعدتي وأنت تعتبر الفكرة برمتها خاطئة وتنصحني بالتخلي عنها، دعني وشأني.

كان الجدال سيطول أكثر لو لم يسعفني النادل للمرة الثالثة وهو يضع الأطباق والملاعق أمامهما، وفيما هو يقوم بعمله استغليت فرصة الصمت هذه من أجل أن أخفّف من حدة التوتر السائد وأنا أسألهما

- ماذا تودان أن تأكلا؟

- لا رغبة لي في تناول أي شيء.

رد كنعان.

- كنعان أرجوك، دعونا نأكل طعامنا من دون مشاكل وشجارات لا طائل منها.

علّقتُ على كلامه.

أذعن كنعان لرغبتي.

- حسناً اطلب ما تشاء، لا مشكلة لدي.

نظرت إلى نهاد الذي هز رأسه موافقاً على كلامي.

- حسناً أحضر مقبّلات جديدة كالتي على المائدة، ونصف كيلو من المشاوي التي طلبنا منها، أيضاً نريد زجاجة شراب جديدة فهذه على وشك النفاد.

خاطبت النادل.

- حسناً سيدي.

وابتعد نحو المطبخ.

- ما رأيكم أن نكفّ عن الحديث في هذا الموضوع، دعونا نتريّث ليومين حتى نهدأ جميعاً وعندها سنناقش الأمر بروية ومنطقية أكثر.

- لن نناقشه مطلقاً، الموضوع يعنيني وحدي، ولن أقحمكم فيه أو أسبّب لكم أية متاعب.

ردّ كنعان باستياء واضح.

نظرت إليه وأنا أعلم بأنه غير متأكد مما يقوله، ويدرك في قرارة نفسه بأنه لن يستطيع التخلي عنا.

- لا تنظر إليّ بهذه الطريقة فأنا جاد، كما أنني لا أقول ذلك لأنني حانق، بل لأنني حقاً لا أود أن أورّطكم في أي مشاكل.

- دعك من هذا الكلام يا كنعان - تدخّل نهاد - فنحن متورطون منذ اليوم الذي تعرّفنا فيه عليك - قال ذلك بنبرة مازحة وهو يرسم ابتسامة على وجهه- وفي كل مرة توشك فيها على توريطنا تقول العبارة

ذاتها.

- أنا أعني ما أقوله هذه المرة، فأنتما لديكما ولدين وعائلة، ولن أرضى أن يتدخل أحد منكما في الأمر.

- وماذا عن الاقتراح الذي عرضته عليكم قبل قليل، هل من آذان صاغية؟ أرجوكم دعونا من هذا الحديث، فلنؤجله إلى يوم آخر- تدخّلت مرة أخرى بعد أن عدنا إلى الدائرة ذاتها من النقاش البيزنطي.

- سليم معه حق - ساندتني كاتيا التي بقيت صامتة لوقت طويل ورفعت كأسها وهي تقول - دعونا نشرب نخباً.

- نخب الحب والصداقة - رفعت قدحي، بدا كنعان أكثر هدوءاً وقد زايله غضبه، رفعنا أقداحنا معاً وبعد أن ارتشفنا القليل وضعنا الأقداح فيما ران الصمت على الطاولة.

- أعتذر منكم جميعاً - كسر كنعان لحظات صمتنا وأردف - فمنذ اليوم الأول الذي عرفتكما فيه وأنا أقحمكما في مشاكل لا تخطر على بال، ولكن السيئ في الموضوع هو أنني لم أشعر بالندم ولو للحظة واحدة. هذه طبيعتي ولا أعتقد بأنني سأتغيّر بعد كل هذا السنين، فأنتما أقرب الناس إليّ وأظن بأنكما تعرفاني أكثر من أي شخص آخر حتى من نفسي، والمصيبة الأكبر هي ذلك العناد الذي يتملكني حين أنوي القيام بأمر ما أياً كانت طبيعته - توقّف للحظة ونظر إليّ قبل أن يكمل - أعلم بأنك ناقم عليّ لأنني عدت إلى الحديث نفسه، ولكنني لا أستطيع إبعاد الفكرة عن ذهني، فهذا التحقيق - ضحك قليلاً قبل أن يكمل - يطلقون عليه اسم التحقيق في الروايات البوليسية التي كنا نقرأها أليس كذلك؟ - أشرت برأسي موافقاً فيما أكمل حديثه - أنا حقاً مهتم جداً بالتحقيق في هذه الجرائم مهما كانت المخاوف، ومن جهة أخرى أنا جاد في عدم إقحامكما في ما أنوي القيام به - نظر إلى كاتيا أيضاً وهو يقول - حتى أنت يا حبيبتي ليس عليك التدخّل في الأمر مطلقاً، أعلم أنكم لو ساعدتموني سأصل إلى الحقيقة بصورة أسرع، وخاصة أنت يا سليم فآراؤك على الدوام تكون صائبة، ولكن هذه المرة سأتولى كل شيء بنفسي.

- قد تكون صاحب القضية برمتها، ولكنك لن تستطيع فرض رأيك علينا، فنحن جميعاً أشخاص بالغون أحرار فيما نتخذه من قرارات، وإن قررنا أن نساعدك ونتدخل في الأمر فلن تستطيع منعنا بكل تأكيد.

تدخّلت كاتيا.

- كلا...

كان كنعان يحاول الاعتراض.

- لا تعترض على الفور - ردت كاتيا بحزن فاجأني - فأنا أيضاً لم أقرّر بعد ما الذي سأفعله، فأفكاري مضطربة الآن، ولكن إن قررت المساعدة فلن يمنعني أحد.

- كاتيا محقة - تدخّل نهاد - فلا يحق لك أن تمنعنا إن قمنا بمساعدتك.

كانت الشكوك تحوم في ذهنه بشدة وهو يتنقّل بنظراته بين الاثنين

- هل تسخران مني؟

يبدو أننا سنعود إلى الشجار والجدال الذي لا طائل منهما مرة أخرى.

ولكنني لم أفهم ما كان يرمي إليه، ولا بد أن نهاد أيضاً كان يشاطرني الحيرة ذاتها لذا بادر بالسؤال:

- عما تتحدث يا كنعان، ولما سنسخر منك؟

- هذه التمثيلية عن رغبتكم في مساعدتي، ولكن بعد أن تفكروا ملياً في الأمر. أنتم تظنون بأنني مع مرور الوقت وإدراك حقيقة المخاطر سأعدل عن الفكرة وأتخلى عنها.

التفتت كاتيا نحو وهي تنظر إليه بتمعّن.

- كنعان أنت حقاً لا تعي ما تقوله، ومن الواضح أن أعصابك مرهقة جداً، افعل ما تشاء ولكن عليك أن ترتاح لبضعة أيام.

- أنا بخير - أجاب كنعان وقد ارتسم الحزن على وجهه - ولست بحاجة إلى الراحة، كل ما أحتاج إليه هو أن أتأكد بأنكم لن تتدخلوا في الأمر، فلو أصاب أحدكم مكروه لا سمح الله، لن أستطيع تحمّل تأنيب الضمير مدى الحياة.

- حسناً يا صديقي - تدخّلت قائلاً - أرجوك هدئ من روعك.

كان الإصرار واضحاً في نظراته وهو يرمق كاتيا ونهاد، وهذا ما كان يضفي إليه براءة محبّبة، كان يريد التأكد من أنهما لن يتورطا في هذه الفكرة الجنونية، ولكنهما حاولا التهرّب من دون أن يمنحاه إجابة شافية، فقد أخفضت كاتيا رأسها، فيما تشاغل نهاد بقدحه، كنت أتوقّع أن يكرر طلبه مرة أخرى بعدم تدخّلهما، ولكنه بقي صامتاً، رفع قدحه بمفرده هذه المرة وأفرغه في جوفه حتى آخر قطرة.

# (19)

عدت باكراً إلى البيت، وذلك على عكس ما كنت أتوقعه في بداية جلستنا، فبعد الجدال الذي حدث بيننا نحن الأربعة لم يرغب أحد في تناول شيء، أو إطالة الجلوس في المطعم، لذا اتصلت بسائقي أوهان من أجل أن يأتي ليقلّني إلى المنزل فيما اختار البقية أن يسيروا في أزقة بيه أوغلو، عندما وصلت إلى البيت كان بورج نائماً، فيما تشاهد كولريز التلفاز، وقد استغربت هي أيضاً من عودتي باكراً.

- ما الذي حصل، ألم يكن الاجتماع موفّقاً؟

تساءلت زوجتي المسكينة في قلق واضح على سير أعمال زوجها المخادع الذي أوهمها بأنه مضطر للتأخر من أجل العمل، وبالطبع كان على الزوج الكاذب أن يكمل لعبته.

- لا على العكس، ولكن اللقاء انتهى بسرعة.

على الرغم من تخوّفي أن هذه الكذبة قد تقود إلى مزيد من المتاعب، ولكنني كنت مضطراً إلى إكمال ما قد بدأته. المهم في الأمر أنها سرّت من عودتي إلى المنزل باكراً، حاولت الجلوس معها قليلاً لمشاهدة التلفاز، ولكنني لم أستطع أن أطيل المكوث، فقد كنت منشغلاً بمشكلة كنعان الجديدة، فمن الواضح أنه بات من المستحيل ثنيه عن الفكرة، ومن جهة أخرى كان من المستحيل أن أجاريه في لعبة المحقق التي ينوي أن يلعبها في حال تم عقد الاتفاق مع الشركاء الروس، وللحقيقة لم يطلب مني أن أساعده، ولكنني في الوقت نفسه لن أقف متفرّجاً وأنا أراه يقحم نفسه ويقحم كل من حوله بقصد أو دون قصد في مشاكل قد تودي بنا جميعاً إلى ما لا تُحمد عقباه. فمن الواضح أن نهاد حتى لو لم يكن راضياً عن الفكرة سيبقى إلى جانبه وسيسانده، كما أن كاتيا بالرغم من ترددها الحالي، إلا أنها في النهاية لن تترك حبيبها بمفرده في خضمّ هذه المغامرة الخطرة. وهناك سبب آخر يدفعها إلى مساعدة كنعان، وهو إحساسها بالذنب الذي لا تزال تشعر به اتجاه موت زوجها السابق. وأنا؟ هل سأتمكن من البقاء متفرّجاً وأنا أدعو بألا يصاب أحد منهم بمكروه؟ هل سأتابع تسلسل الأحداث من بعيد؟ كنت أعلم بأنني لن أتمكن من الصمود لوقت طويل. كنعان معه حق فاشتراكي معه في الأمر ضروري، ليس بسبب خبرتي النظرية التي اكتسبتها من قراءة الروايات البوليسية، ولكن لأنني أكثر هدوءاً منه عندما يتطلب الموقف التفكير والتروي، وأستطيع

اتخاذ القرارت الصائبة في المواقف الحاسمة والخطرة. ولكن هل سأتمكن حقاً هذه المرة من تقديم العون له كما أحاول أن أواسي نفسي.

- سليم ما بك؟

أعادني صوت كولريز القلق إلى الواقع، فقد تركت متابعة التلفاز وكانت تقف بالقرب منّي.

- أنا بخير... لما تسألين؟

- لاأعلم، ولكنني سألتك أكثر من مرة عن المسلسل الذي نتابعه وبقيت صامتاً لا تردّ عليّ.

- أنا متعب يا عزيزتي، كان يوماً شاقاً.

لم تقنعها حجّتي، لذا فقد أردفت.

- ولكنك على الرغم من تعبك لا تجلس قبل أن تلقي نظرة على بورج حتى لو كان نائماً.

كانت محقة في كلامها، فتوجب عليّ أن أسترد هدوئي.

- معك حق، أنا آسف فذهني مشغول على الدوام هذه الفترة. هذا العقد هام جداً في ظل هذه الظروف، فلو وافقوا سأتمكن من إنشاء المعمل الذي أطمح إليه... لم تخبريني كيف هو بورج؟

- إنه بخير والحمد لله، ولكنني أردت من حديثي أن أنبّهك إلى مقدار الإرهاق الذي يبدو عليك.

- أعلم يا عزيزتي، وشكراً لكِ.

- هل ننام؟

- أجل.

قبل أن أخلد للنوم، توجهت إلى غرفة بورج لأطمئن عليه، كان ينام بعمق وهدوء وقد وضع يده اليمنى على المخدة بالقرب من فمه. حين كان صغيراً كان يمص إبهامه على الدوام بمتعة فائقة، وقد اتبعنا كل السبل من أجل أن نجعله يتخلى عن هذه العادة. وفيما أنا أشاهد ابني وهو نائم دخلت كولريز لتغطيه جيداً باللحاف.

- كولريز، هل عاد بورج إلى مص إبهامه مرة أخرى؟

سألتها هامساً.

أقلقتها ملاحظتي فنظرت إليه كمن يريد التأكد

- لا - أجابتني بدورها هامسةً - إنها مجرد حركة غريزية، ولكنني لم ألحظ أنه عاد إلى مص إبهامه مجدداً.

بقينا نتفرج عليه لبعض الوقت وهو يغط في نومه، بعدها اقتربنا

منه لنطبع قبلة على جبينه، مسدت شعره البني الجميل قبل أن أطبع قبلة أخرى على خده المخملي الملمس، ومن ثم تركناه وخرجنا بهدوء تام.

تمددت على السرير دون أن أشعر بأي رغبة في النوم، وبقيت أتقلّب طوال الليل تتقاذفني الأفكار والمخاوف، ولحسن الحظ، نامت زوجتي على الفور ولم تشعر بتقلّبي كل خمس دقائق، لا بد وأنني غفوت بعد بزوغ الفجر، واستيقظت على صوت بورج وهو ينادي.

- بابا.. بابا.. انظر إلى هذا النورس الذي رسمته.

عندما فتحت عيني شاهدت كتلة طينية بنية اللون تشبه السمك أكثر من أي شيء آخر، لكن بورج كان يراها نورساً.

- انظر يا أبي إنه نورس، أهو جميل؟

كان يصرخ في أذني.

- أجل إنه جميل... جميل.

وافقت محاولاً أن أسكته.

دخلت كولريز الغرفة على وقع صرخات بورج وهي تسأله بقلق.

- بورج هل وضعت هذه الكتلة الطينية معك في السرير أثناء نومك؟

ما إن رأى والدته حتى هرع إلى السرير ليختبئ، ولكن هذا التصرف لم يرق لها.

- اذهب على الفور لتغسل يديك فالفطور جاهز، ولا أريدك أن تتأخر عن المدرسة.

مناكفات بورج ووالدته جعلتني أصحو، ولكنني لم أنهض على الفور، بقيت جالساً في السرير لبعض الوقت، فقد كنت مرهقاً، وأشعر بدوارٍ من أسرف في الشرب حتى الصباح، ولو أن الأمر بيدي لبقيت نائماً حتى المساء، ولكن الأعمال التي أجّلتها البارحة كانت بحاجة إلى الكثير من العمل ولا تحتمل المزيد من التأجيل.

لم تكن بي رغبة لتناول الفطور، ولكن إزاء إصرار كولريز التي ذكّرتني بأنني قد خرجت البارحة أيضاً دون أن آكل شيئاً، أذعنت وجلست لآكل قطعة خبز صغيرة وكأساً من الشاي، ومن ثم غادرت المنزل.

كان يوماً مشمساً ولكنه بارد في الوقت ذاته، وقد كانت رياح خفيفة محمّلة برطوبة أمطار الأمس، تهب لتنعش كل ما تمر به. لا بد وأن لون مياه البوسفور قد اكتسب زرقة خلابة في صباح مشرق كهذا.

كنت أود أن أطلب من أورهان أن يأخذنا من الطريق البحري

المحاذي للبوسفور لأتمتع بمنظره الرائع، ولكنني حين تذكرت الأعمال المتراكمة التي تنتظرني في المكتب وتذكرت مشكلة كنعان، زايلتني الرغبة في رؤية أي شيء.

سلكنا الطريق اليومي المعتاد، وبعد أن خنقتنا رائحة العوادم التي تغزو الأجواء نتيجة الزحام المروري الصباحي، وصلت إلى منطقة تقسيم، وقد ازداد توتري، وبدأت أشعر بصداع خفيف.

- أنزلني في الساحة.

وما إن أوقف أورهان السيارة حتى ألقيت نفسي خارجاً، كانت الرياح التي استقبلتني عند خروجي من المنزل تنتظرني هنا في تقسيم أيضاً. ولكنني مشيت بتمهل متّجهاً نحو مديرية المياه.

مررت أمام النصب التذكاري والذي صنعه النحات الإيطالي بيترو كانونيكا في إيطاليا تخليداً لذكرى حرب الاستقلال التي قام أتاتورك بها في الثلاثين من آب، وتم نقله قطعة فقطعة ليعاد تركيبه في اسطنبول، كان أتاتورك يقف متأملاً مما جعلني أتساءل عن الأفكار التي كانت تدور في ذهنه حينها، هل كان يفكّر في نهاية هذه الحرب، أم في تحويل هذه السلطنة المترامية الأطراف إلى دولة مدنيّة والصعاب التي ستعترض سبيله؟ وفيما أتأمله باحترام لفت نظري الشرطة التي كانت تتواجد أمام مديرية المياه. لم تكن الحمامات التي تطير في الساحة تعير أدنى اهتمام للحواجز التي نصبتها الشرطة هناك، بل كانت تطير بكل حرية من فوق الحاجز لتشرب من حوض المياه الملاصق للحائط القريب، وفجأة طار سرب منها فوق الحاجز واتجه نحوي، التفت حولي وحينها أدركت الأمر، فقد كانوا امرأتان ورجل يبدو واضحاً من ملابسهم أنهم سواح عرب، ينثرون بعض القمح في المكان والذي اشتروه خصيصاً للحمام وهذا ما دفع بها أن تتجه نحوهم، كانت كلتاهما ترتديان عباءة سوداء وبرقعاً يغطي وجهيهما عدا العينين، وتحمل إحداهما صحناً صغيراً تنثر منه القمح الذي جذب سرب الحمام، وفيما هي تنحني ناثرة القمح انفتحت عباءتها قليلاً وظهر زندها الذي كان مغطى بوشوم من الحناء تمثلاً طيوراً وأشكالاً متنوعة، أثارت هذه الحركة فضولي وأصبحت أرغب في رؤية وجهها المختبئ خلف البرقع، للحظة التقت عينانا فشاهدت الكحل الأسود وهو يزيد عينيها بريقاً وجمالاً، كانت عينان رائعتين، فابتسمت لها ليس فقط بسبب اللباقة ولكن لأنني رغبت حقاً أن ابتسم إزاء هذا الجمال الذي واجهني، لكنها فسرت ابتسامتي على نحو خاطئ مما دفعها للملمة عباءتها والابتعاد عني، سرت

بدوري باتجاه الشارع المؤدي إلى جادة الاستقلال. حوالي العام 1870 كان مقهى إبتالوفوس مقراً تجتمع فيه معظم الشخصيات الأدبية في ذلك العصر كسعيد فائق، بهجت نجاتيجيل، أديب جانسفار، أتيلا إيلهان وسواهم... ولكنها الآن تحولت إلى إحدى فروع مطاعم برغر كينغ، تذكّرت هذه التفاصيل وأنا أمر من أمام المطعم لكن رائحة كريهة أعادتني إلى الواقع، كانت تفوح من فتحة الصرف الصحي الموجودة أمام المطعم وفي الصيف تصبح الرائحة أشد فتكاً وزخماً.

أتذكر في إحدى ليالي الصيف وفي هذا المكان بالذات حدثت معركة ضارية بين فأر كان يعيش بسلام في عالمه السفلي، ولكنه نتيجة خطأ فادح خرج في ذلك الوقت، فبدأت النسوة يتراكضن نحو الحائط وصرخاتهن تملأ الشارع فيما توجيهات الرجال كانت تتضارب وتضيع وسط صيحات الفزع، وقد استغل بعض الفتيان الفرصة ليحوّلوها إلى مباراة، حيث كانت ركلاتهم تطارد الفأر المسكين الذي كان رأسه النازف يشي بحجم الأضرار التي أصابته، ولكنه على الرغم من كل ذلك لم يستسلم بسهولة وظل يأمل بالنجاة التي جاءته من خلال ركلة سدّدها أحد الفتيان جعلته يطير نحو حديقة السفارة الفرنسية وهناك اختفى بين الحشائش والشجيرات. انهالت صيحات الغضب والتعنيف على الفتى الذي أضاع عليهم فرصة قتله، ولكن لم يستمر ذلك سوى لحظات معدودة حيث عادت الحياة إلى سابق عهدها مجدداً، وعادت النسوة إلى السير بكل تيه في الشارع متناسيات تلك التعابير التي شوّهت وجوههنّ قبل لحظات، وعاد الفتية للاهتمام بما كان يفعلونه قبل ظهور الفأر. في الحقيقة، هذا ما يحصل في هذا الشارع وفي الحياة بشكل عام، فبعد كل جريمة أو حادثة سرقة أو اعتداء، وبعد أن تضطرب الأجواء لمدة قصيرة من الزمن وتجتاح مشاعر الناس موجة من الاضطراب، فإنها سرعان ما تعود إلى سابق عهدها، ويعود الناس إلى روتينهم القديم، ويتناسون ما حصل، وكأنه لم يكن.

ولكن شارع الاستقلال كان هادئاً هذا الصباح مقارنة مع الحركة التي تمور بها ساحة تقسيم، فقد كانت المطاعم ومحلات الخضار والحوانيت تفتح أبوابها للتو، وكانت سيارات الشحن الصغيرة تقف أمام البعض منها محمّلة بالبضائع حيث ينقل أصحابها بعضاً من بضاعتهم إلى داخل هذه المحلات، وكانت رائحة الصباح المنعشة تطغى على الأجواء بعيداً عن تلك الرائحة التي تنتشر فيها بقية الوقت والتي تكون مزيجاً من العطور ورائحة الطعام ودخان السيارات. لم تكن المشارب والمطاعم والملاهي الليلية قد فتحت

أبوابها بعد فلا يزال الوقت مبكراً، وأمامها بضع ساعات قبل أن تفور بالنشاط والزخم اليومي.

كانت سيارة الشحن الصغيرة القادمة من المعمل تقف أمام باب المتجر محمّلة بمجموعة جديدة من الثياب التي يجب أن تزيّن رفوف المتجر وأجساد العارضات المتموضعة في الواجهة، وكان المسؤول عنها هو السيد نامق والذي كان يعمل عند والدي منذ أيام متجر القماش الصغير الذي كان يملكه فيما مضى، وعندما رآني قادماً هش لمقابلتي.

- كيف حالك يا نامق؟
- على خير ما يرام سيد سليم.
- لقد كان الوضع في المستودع مزرياً، هل استطعتم تدارك المشكلة؟
- إنهم يقومون بإصلاح الأضرار وأظنهم سيعيدونه اليوم إلى سابق عهده.
- جيد، فعندما ذهبت الأمس كان الوضع مأساوياً.
- لا تقلق سيدي فممدوح يشرف على حل المشكلة بنفسه، كما أننا جميعاً نساعده، وبإذن الله سنتمكن اليوم من إنهاء كل شيء.
- شكرا لك نامق.

تابعت سيري ودخلت المتجر.

ما إن دخلت المتجر حتى ساد الهدوء وسكتت كل الأصوات. في الحقيقة لست شخصاً متسلطاً ولكن قد يعود السبب إلى كوني صاحب المتجر أو بسبب الطريقة الرسمية التي أعامل بها الآخرين، وهذا ما يدفع الموظفين إلى التعامل معي بحذر واحترام شديدين.

- صباح الخير- ألقيت التحية وأنا أتّجه نحو المصعد وطلبته وانتظرت لبعض الوقت، لكن جيهان مدير الصالة بادر إلى التصرّف.
- صباح النور سيدي، إن العمال يأخدون البضاعة إلى المخزن، ولكن المصعد سينزل بعد ثوان.
- لا داعي لأن أقطع عليهم عملهم، سأصعد الدرج.
- لكن المصعد على وشك الهبوط...
- شكراً، فأنا أود أن أصعد بواسطة الدرج.

أرفقت حديثي بابتسامة صغيرة ومن ثم اتجهت نحو الدرج.

ولكن الصعود إلى المكتب بواسطة الدرج أرهقني، وصلت إلى مكتب يشيم لاهثاً.

- صباح الخير سيد سليم- وبعد أن لاحظت لهاثي سألتني- هل المصعد معطّل؟

- كلا إنه يعمل- كان لدي الكثير لأحدّثها عنه بعيداً عن المصعد ولهاثي، فالأعمال قد تراكمت وكان لا بد من أن نرتّبها وفق تسلسل الأولويات لإنهائها، بعد أن أعطيتها كافة التعليمات اللازمة بخصوص العمل طلبت منها أهم ما يعينني على العمل الآن.

- أريد منك فنجاناً من القهوة تطفو الرغوة بكثافة على سطحه وكأس ماء بارد لكي أستطيع أن أبدأ نهاري بنشاط.

دخلت إلى مكتبي، كانت يشيم قد رتبت الطاولة ووضعت فوقها جميع الملفات التي يجب أن أعمل عليها، ولكن لم تكن بي رغبة للعمل، وبدل الجلوس إلى الطاولة اتجهت نحو النافذة لأتنشق الهواء النقي، وما إن فتحتها حتى اجتاحت الرياح الغرفة وتغلغلت البرودة المنعشة في أعماقي.

توجهت أنظاري نحو البناء المقابل والذي يزيد عمره عن مئة وخمسين عاماً، حيث بدأ سيرورة نشاطه اليومي منذ الصباح الباكر، فقد كان مكتب كاتب العدل الذي يقع في الطابق الأول قد بدأ عمله منذ وقت طويل حيث اصطف المراجعون أمام الباب منتظرين، وفي الطابق الثاني الذي يشغله أحد المحامين كان الفتى الذي يعمل هناك مستخدماً يمسح الغبار عن طاولة المكتب وينظّف المكان بهمّة صباحية عالية، الطابق الثالث كان عبارة عن ورشة للخياطة والتطريز وكانت أصوات الآلات التي بدأ العمل عليها تصل إليّ، فيما كان الطابقان الرابع والخامس شاغرين. كان هذا البناء كمعظم أبنية بيه أوغلو القديمة قد بدأ التآكل والعفن واضحاً في طوابقه العليا.

قد يعود السبب إلى عدم توفر الموارد المالية لدى مالكيها، وقد يعود إلى أحداث(6-7) أيلول الدامية والتي سافر على إثرها معظم أصحاب هذه الأبنية إلى الخارج تاركين بيوتهم نهبة للتقادم والتآكل، لذا فإن الإهمال والعفن يجتاحها ببطء ولكن بوضوح. وقد يعود السبب إلى رغبة أصحابها بعدم هدم هذه الأبنية، هذه الرغبة التي دفعت والدي ليطلب مني عدم هدم البناء الذي أورثني إياه في شارع إيهان إشك، ولكنني أعتقد بأنه احتمال غير وارد، فقد اختفى أولئك الأبناء الذين يظلّون ملتزمين بوصية آبائهم.

عندما أحضرت يشيم القهوة كنت لا أزال واقفاً أمام النافذة، عدت

إلى ما ينتظرني، وجلست إلى طاولتي فيما وقفت إلى جانب الطاولة وهي تقول:

- هل تريد أن تبدأ من المكالمات الهاتفية التي تنتظر رداً منك، أم تود أن تنهي قهوتك ومن ثم تباشر العمل؟

- سأبدأ الآن، وسأشرب قهوتي أثناء ذلك. وشكراً على القهوة فرائحتها رائعة حقاً.

ردت عليّ يشيم بابتسامة لطيفة وانسحبت بهدوء، فيما أحسست أن مذاق القهوة قد أعاد إليّ نشاطي ورغبتي في العمل، لقد كانت حقاً رائعة المذاق، فأنا لا أسمح لأحد أن يحضر لي القهوة سوى يشيم، وبعد ارتشاف ثانٍ من الفنجان باشرت بمراجعة المكالمات الهامة التي وردتني أثناء غيابي.

اتصلت بداية بممدوح الذي أخبرني أن صالة الطعام تم تجهيزها ليتحوّل نصفها إلى مستودع فيما النصف الثاني بقي مطعماً، وقد عارض العمال بادئ الأمر فكرة تغيير وقت وجبة الطعام وتقسيمهم إلى فريقين، ولكنهم أذعنوا لاحقاً، وبذلك تم إيجاد حل مؤقت للمشكلة، ولكن الحل النهائي يعتمد على الرد الذي سيبديه الروس من أجل فكرة الشراكة. انتهيت من الرد على كافة المكالمات عند الظهر، وعندما دخلت يشيم لتخبرني بأنها ستنزل من أجل استراحة الغداء شعرت بالجوع. ولكن بقي عليّ الاتصال مع بيير في فرنسا من أجل إخباره عن آخر التطورات مع الروس، لذا طلبت من يشيم أن تتصل به قبل أن تخرج.

وبعد لحظات كان يصلني صوت بيير القلق.

- كنت سأتصل بك اليوم.

قال لي.

- خيراً؟ هل من تطورات جديدة؟

- هؤلاء الروس...

- هل انسحبا من فكرة الشراكة هم أيضاً؟

- لم يتسن لهما الوقت للتفكير في الأمر، فقد تم إلقاء القبض عليهما ما إن وصلا إلى مطار موسكو.

- ماذا؟

شرح لي الأمر لكل برود.

- وُجّهت إليهما تهم بيع النفط بطرق غير نظامية.

- بيير هل أنت متأكد مما تقوله؟

- أجل، وكانا يريدان غسل وتبييض أموالهما من خلال العمل معك

في مجال الأزياء.

بقيت صامتاً للحظات لا أدري ما أقول.

- أعتذر منك، الخطأ خطئي، فقد عرّفتك عليهما من دون أن تتاح لي فرصة الحصول على القدر الكافي من المعلومات عنهما، وإن أردت فسخ العقد الذي بيننا وإنهاء العمل سأتفهّم الأمر وسأوافق على الفور.

- تمهّل قليلاً، ألا يمكن أن يكونا بريئين وقد تم إلقاء القبض عليهما دون وجه حق؟

- لقد تأكدت من الأمر بالاتصال مع أحد شركائي الموجودين في موسكو، وقد أخبرني أن الشرطة كانت تراقبهما منذ مدة طويلة، فالأب ميخائيلوف كان فيما مضى مديراً في إحدى شركات البترول الحكومية في مدينة تومن، وبعد أن تقاعد أخذ يعمل لحسابه الخاص وكان رصيده الشخصي يتجاوز ملايين الدولارات، والمثير في الأمر أنه لا يمكن أن يكون قد حصل على كل هذا الأموال من عمله في الشركة، وهذا ما دفع الشرطة لمراقبته وتبين أنه كان خلال عمله في الشركة يختلس الكثير من الأموال ويستغل منصبه من أجل منفعته الخاصة.

- اللعنة- كنت غاضباً حقاً- فقد ارتحت أخيراً بعد أن وجدت من يشاركني، ولكن يبدو أن سوء الحظ يلاحقني على الدوام.

- أعتقد أنك لست كذلك، فمن حسن الحظ أننا اكتشفنا الأمر قبل أن تبدأ العمل معهما، فلو تمّ توقيع العقد وبدأت العمل معهما دون أن نعلم الحقيقة، كنا حينها سنقع في مأزق كبير بمواجهة القضاء الروسي والتركي أيضاً.

كان محقّاً فيما يقوله، فهناك احتمال كبير أن يكونا يتبعان لشبكات المافيا الإجرامية، والتورط مع هؤلاء الناس كارثة.

- الحمد لله على كل حال- قلت في محاولة لمواساة نفسي- ولكن أرجوك يا بيير أن تكون حذراً في المرات القادمة، فمستقبل المعمل كله متوقف على هذه الخطوة.

- أعتذر، أعلم أن ما سأقوله ليس مبرّراً للتقصير الذي بدا مني، ولكن لهفتي للحصول على شركاء معتمدين دفعتني إلى التسرّع، ولكنني بالتأكيد سأكون أكثر حذراً في المرات القادمة.

- أعلم.. أعلم.. ولكن فلنتخلى عن التسرّع، فهناك مثل عندنا يقول الشيطان يكمن في العجلة والتسرّع، علينا أن نتمهّل حتى لا نندم فيما بعد.

- حسناً، سأواصل البحث عن الأمر وأبلغك بالنتائج.

بعد أن أغلقت الهاتف، تراخيت على الكرسي، وبدأت أضحك بصوت عالٍ، كانت ضحكاتي بكل تأكيد مسموعة من الخارج، ولكن لحسن الحظ أن يشيم لم تكن موجودة في مكتبها. كنت أضحك لأنني تذكرت حديثي مع كنعان. فقد كنت أنذره أن يبتعد عن فكرة التحقيق في الجرائم خوفاً من المخاطرة في الوقت الذي كنت أسير فيه بنفسي نحو التهلكة وأضع رأسي بين فكّي وحوش المافيات دون أن أعلم. إذاً لا مفر من القدر، وحين تحاول تجنب الخطر بكل قواك تجده يتربّص بك حيث لا تعلم، وقد تذكرت الجملة التي قالها لي كنعان.

«أنت تقرأ الروايات البوليسية رغبة في المتعة والإثارة التي تتركها لديك، ولكن هل جرّبت أن تخوض بنفسك إحدى هذه المغامرات وتدخل إلى قلب الحدث، صدّقني حينها ستحصل على متعة مضاعفة آلاف المرات».

كان محقّاً، كما أن كلماته لامست رغبة سرية في نفسي تولّد عند نهاية كل رواية بوليسية أقوم بقراءتها، فعندما أُغلق غلاف الكتاب تعتريني رغبة في خوض مغامرة شبيهة، وأتقمّص دون وعي مني دور المحقق الجنائي لفترة من الزمن باحثاً عن جريمة لفك لغزها.

وفي كثير من الأحيان عندما يسألني أحد الأصدقاء عن المهنة التي كنت أود ممارستها لو لم أعمل في مجال الأزياء، أجد صعوبة بالغة في كبت رغبتي الحقيقية للعمل كمحقق جنائي وأخفيها خجلاً، لأجيبهم بأنني كنت سأعمل مهندساً معمارياً.

عندما طرح كنعان الفكرة البارحة، كان أول ما خطر في ذهني هو رغبتي في أن أشاركه البحث، ولكنني لم أصارحه حتى لا يمضي أكثر في الأمر، كما أنني كنت متردداً حينها. فالمتعة التي سأحصل عليها تقف على النقيض منها تلك المخاطرة التي ينطوي عليها الأمر والتي ستودي بنا، ومن الممكن أن يمتد الخطر ليصيب أسرتي، في المقابل كنعان ليس لديه عائلة يخاف عليها، وعلى الرغم من علاقة الحب التي تجمعه مع كاتيا إلا أنه ليس من النوع الذي يفوّت على نفسه متعة من أجل شخص آخر، فهو يعيش ويستمتع بكل الفرص وقد رفض أن يتخلى عن فكرة المعرض وفكرة التحقيق على الرغم من إلحاحها، وقد يكون محقّاً فالحياة التي نحياها لن تتكرر مرة أخرى، ومن الصواب أن نستغل كل لحظة فيها من أجل متعتنا الخاصة.

من ناحية أخرى قد يكون هذا الفصل القاطع بين رغباتك وراحة

الآخرين مبالغة لا مبرر لها، فمن الممكن التوفيق بين الخطين، ولكن وفق شروط معيّنة، توفّر راحة غيرك، وتعطيك الفرصة للتمتع وعيش الحياة التي ترغب.

لذا فقد توقعت النتيجة منذ الآن، سأتبع كنعان كما في كل مرة، ففي البداية أثور وأعترض على المغامرة التي يوشك أن يورّطنا فيها، ولكنني فيما بعد أجد نفسي غائصاً حتى الرأس في أحداثها، هذا ما كان الوضع عليه منذ البداية، وأظنه سيستمر استمرار علاقتنا وصداقتنا، هناك مثل يقول إن ما تكون عليه في السابعة من عمرك ستكون عليه في السبعين، وعلى الرغم من أنني لم أبلغ السبعين بعد فمن الواضح ما سيؤول إليه الوضع حينها، وهذا المثل سيطبّق علينا بحذافيره، فكنعان على الدوام كان القائد الذي نسير خلفه طوعاً أو كرهاً. كنت أظن فيما سبق بأن هذه الحالة ستتبدل عندما نكبر وندخل معترك الحياة العملية، ولكن مجرى الأحداث كان يثبت العكس دائماً، وأظن بأنه قد حان الوقت لأتقبّل هذه الحقيقة وأتعايش معها، وأن أرضى مثل نهاد وكاتيا السير في ركاب جنونه، وأعتقد أنني لو انضممت إليهم سيخفّ الخطر قليلاً عن الجميع وسنتمكن من الانتهاء من هذه المشكلة بأقل الخسائر الممكنة. كما أن الشريكين الذين كنت أنوي أن أعمل معهما قد تبخّرا بين المطارات والسجون، وأظن أن أزاي ستتمكن من الصمود لفترة لابأس بها، وهذا ما سيمنحني الوقت للتفرّغ ومساعدة كنعان دون خوف على سير العمل. عندما وصلت إلى هذا القرار أحسست براحة داخلية، وقبل أن تجبرني حسابات الحياة والعمل على تغيير رأيي مرة أخرى حملت الجوال واتصلت بكنعان لأحسم الأمر لصالحه.

- ألو كنعان ماذا تفعل؟
- أهلا سليم، أنا أعمل.
- في الاستديو؟
- لا، فليس لدينا تصوير اليوم. أنا في البيت.
- هل تناولت غداءك؟
- ليس بعد، أنا مشغول قليلاً في مراجعة ملف الجرائم التي حدثتكم عنها البارحة.
- حسناً، أنت تحب البيتزا من دون فطر أليس كذلك؟

بعد لحظات من الصمت أجابني بصوت مرتبك

- لحظة، هل لي أن أعلم ما الذي يحدث؟

- سآتي لرؤيتك، ومعي الغداء.

وقبل أن يعترض على الأمر أنهيت المكالمة.

## (20)

كان منزل كنعان يقع في مبنى دوغان الذي يقع في شارع سردار أكرم في منطقة غالاتا في بيه أوغلو في الطابق العلوي. مبنى دوغان يعود إلى العام 1892 وقد بني وفق طراز خاص كان يطلق عليه هيلبينغ والأبنية التي بنيت وفق هذا النموذج متفردة في جمالها وطرازها المعماري الرائع، ولكن سبب اختيار كنعان لهذه الشقة ليس طرازها المعماري أو غرفها الواسعة وأسقفها العالية، إنما بسبب الإطلالة التي توفّرها الشقة على جامع السلطان أحمد وعلى آيا صوفيا بكل بهائها التاريخي، قصر توب كابي الذي تحوطه الأشجار ويبدو كجزيرة وسط بحر أخضر ومشهد البوسفور الذي يبهج الناظر إليه في كل الفصول، كانت هذه الإطلالة هي ما شجّعته لشراء هذا المنزل تحديداً. صحيح أن منزلي يطل على البوسفور أيضاً ويتيح للرائي مشهداً خلاباً للطبيعة، لكن نوافذ منزل كنعان كانت تطل على الطبيعة والتاريخ في آن واحد، وكانت تجمع بين اسطنبول بقسميها الأوروبي والآسيوي، لذا فقد كانت استثنائية في جمال إطلالتها.

كان يردد على الدوام أن من لا يمكنه رؤية هذا المنظر لن يصل إلى روح اسطنبول الحقيقية ولن يدرك جمالها المتفرد، وبالإضافة إلى المبلغ الطائل الذي دفعه ثمناً للمنزل فقد دفع مبلغاً يعادل النصف إن لم يكن أكثر في تجديده من الداخل وإعادة ترتيب ديكوراته الداخلية.

كانت جدران المنزل مزيّنة بالصور التي التقطها من كافة أرجاء المعمورة، والأقنعة الغريبة التي أحضرها من الهند وأفريقيا، أما الصالون فكانت النوافذ التي تتيح لك رؤية تلك المشاهد كفيلة بحبس أنفاسك دهشة. لذا كنت أؤيد كنعان وأجده موفّقاً في اختيار هذا المنزل

- هذه ميزة العيش في مدينة كاسطنبول.

كنت أردد هذه الجملة في كل زيارتي له.

ولكنني لم أملك الفرصة للتمتع بالمنظر كما في كل مرة، فقد استقبلني كنعان على الباب بنظرات دهشة يعتريها شك وفضول سلبيين حول السبب الذي دفعني لهذه الزيارة المفاجئة، بقيت للحظات واقفاً أمام الباب وعلبتي البيتزا في يدي.

- ألن تدعوني إلى الداخل يا صديقي؟
- تفضّل تفضّل - قال ذلك بارتباك- أيعقل أن نبقى هنا؟
- حين تسمرت أمامي الباب وأنت ترمقني بتلك النظرات أحسست

بأنني في زيارة لشخص غريب وليس لصديق العمر.
واصلت العتب وأنا أدخل.
- أعتذر حقاً، ولكنني كنت مستغرقاً في قراءة ملفات الجرائم محاولاً فهم حقيقة ما جرى لذا تفاجأت حين سمت صوت الباب.
حاولت تصنّع اللامبالاة ولكنني لم أتمكّن من كبح فضولي لذا سألته:
- وهل استطعت الوصول إلى أدلة جديدة؟
سألت بين الجد والمزح لكن كنعان أجابني بكل جدية.
- أعتقد أن هناك صلة بين الجريمتين، وقد بدأت أرجّح هذا الاحتمال كلما تعمّقت في قراءة مجريات ما حدث والتفاصيل التي تحيط بهما.
كان يتكلم وهو يقترب مني.
- أليس تسرّعاً منك أن تركن إلى هذا الاحتمال؟
قلت ذلك وأنا أقف عند مدخل الصالون.
- لم أحسم قراري بعد- قال ذلك وهو يقف بالقرب مني- غداً سأذهب لرؤية الرجلين وبعدها سوف...
- أتعني أنك ستذهب لمقابلة المجرمين؟
باغته سؤالي فصمت للحظات، ولكنه أجابني وهو يشير بسبابته مردداً الجملة التي يحفظها كلانا منذ زمن طويل.
- المتهم بريء حتى تثبت إدانته، وهناك بعض المتهمين تتم إدانتهم ظلماً كما تعلم.
أعتقد بأنه حسم أمره وخرج يطارد الحقيقة كصياد متمرّس، ولن يثنيه أي عائق كما لن يستطيع أحد إقناعه بالعدول.
- أنت محق، فالعدالة يجب أن تتحقق.
قلت ذلك وأنا أنهي النقاش، وأكملت وأنا أشير إلى علبتي البيتزا التي لا زلت أحملهما.
- هل سنتناول طعامنا في المطبخ؟
- لا في الصالون، أدخل وأنا سأذهب إلى المطبخ لإحضار بعض الشوك والسكاكين.
للحظات فقدت القدرة على رؤية أي شيء وأنا أدخل الصالون حيث شمس الظهيرة تطغى بوهجها على المكان من خلال النوافذ التي لا ستائر لها. كان المشهد الذي أتوق لرؤيته لايبدو ساحراً كما اختزنته مخيلتي، قد تكون خيبتي انعكاساً لحالتي النفسية وقد تكون أشعة الشمس التي

أفقدتني الرؤية لبعض اللحظات سرقت مني متعة الرؤية. بعد أن تمكنت من تبيّن معالم المكان وضعت البيتزا على الطاولة فيما وصلني صوت كنعان من المطبخ

- أتريد شرب العصير أم الكولا؟
- الكولا.

جلست على الأريكة الكرزية اللون والتي وضع عليها صديقي ملفّي الجريمة بغلافهما الأزرق، تملّكني الفضول ففتحت أحد الملفين حيث تلك الأوراق والمعلومات التي كتبت بطابع حكومي ممل رتيب، أقوال المتهمين، الدلائل التي تدينهما والتي تبرّئهما في آن، تقارير عما تم في جلسات المحكمة... صيغت كل هذه المعلومات بتعابير رسمية يصعب فهمها.

ولكن الخلاصة التي استطعت الوصول إليها تقول إن المدرّس يونس كولوكجو متهم بقتل زميلته في العمل أيسون كوفان طعناً بالسكين. وبينما كنت أقلّب الصفحات علني أعرف شيئاً هاماً وقعت صورة للضحية من بين الأوراق، كانت تبتسم فيها للكاميرا ابتسامة لطيفة بشفتيها الرقيقتين، ولكن عينيها كانت تحدّقان إلى الشخص الذي يقف وراء الكاميرا بطريقة غريبة، لم أطل النظر إلى هذه الفتاة ذات النظرات الغريبة والتي واراها الثرى إثر مصير مؤلم، بل أعدت الصورة إلى داخل الملف وأغلقته لأفتح الملف الآخر. كانت هذه القضية عن قتل رشاد جوبور الذي يعمل في أحد المقاهي لكارتال غوكر الذي يعمل عازفاً موسيقياً، وكما في الملف الأول فقد كان هذا الملف بدوره يحتوي على صورة للضحية كارتال والذي كان شعره أسود طويلاً، بوجه ناحل وعينين بنّيتين، كان قد أمال رأسه قليلاً في الصورة بطريقة توحي بالخنوع ولكن نظرة عينيه كانت توحي عكس ذلك، كانت نظرة حادة قوية، فيها تمرّد على ما لن يعرفه أحد بعد أن قتل المسكين.

كان شاباً جذاباً، وبحسب رواية الشرطة فقد ضُرب على رأسه بأداة قد تكون تمثالاً من البرونز أودت بحياته، هذا التفصيل الخاص بكيفية القتل جسّد فجأة أمام ناظري مشهد القاتل وهو يتعارك مع كارتال، وفجأة يلتفت إلى تمثال البرونز الموجود على طاولة بالقرب منه ليأخذه ويضرب به رأس الضحية الذي يترنح في البداية ثم يسقط جثة هامدة. وببطء يسيل خيط أحمر من رأسه ليشكّل بركة دم صغيرة بالقرب منه.

- هل تتفحص الملفات؟

تبخرت بركة الدم على صوت كنعان.

- أجل- عدت إلى الواقع وأنا أردف- ولكنني لم أفهم الكثير مما

دُوّن هنا.

- مع قليل من الجهد ستعتاد الأسلوب- أجابني كنعان، ولكنه كان يتكلم بهذه الثقة استنادا إلى دراسته للحقوق.

وضع الصحون والكاسات والشوك والملاعق التي أحضرها من المطبخ بالإضافة لزجاجة شراب وأخرى كولا على الطاولة، بدوري وضعت الملف جانباً والتفت نحو طاولة الطعام.

- الضحية الأولى كانت مدرّسة

- مدّرسة تاريخ.

أضفت على كلامه.

- أيسون كوفان، كانت باحثة في التاريخ.

- والقاتل- رمقني كنعان بنظرة حادة دفعتني لتغيير الكلمة على الفور- أعني المتهم أكان يدرّس معها في المدرسة؟

كان يهمّ أن يضع قنينة الكولا على الطاولة ولكنه توقّف فجأة ورمقني متسائلاً:

- هل لك أن تخبرني ما الذي تحاول الوصول إليه؟ لما أحضرت معك غداءك وبدأت تفحص الملفات حال وصولك؟

حاولت أن أبدي الانزعاج من ملاحظته.

- إن كان مجيئي قد أزعجك فأنا أعتذر.

- دعنا من الاعتذار وأخبرني حقيقة مقاصدك من هذه الزيارة.

كانت علبة الكولا لا تزال في يده، ومن الواضح أنه لا يزال منفعلاً وحانقاً من حديث الأمس. قبل أن أدلي بأي اعتراف أمام صديقي سحبت أحد الكراسي، وجلست إلى الطاولة، وأخذت العلبة من يده ووضعتها أمامي، بينما كان كنعان ينتظر توضيحاً وهو ينظر إليّ بإصرار واضح.

- برأيك ما الذي أحاول فعله؟- فاجأته نبرة الثقة في صوتي- إن كنت تظن بأنني سأتركك تخوض غمار هذه المخاطرة لوحدك وأتفرّج عليك من بعيد فأنت شخص أحمق.

- ولكن؟...

- لا حاجة لمزيد من الكلام، فنحن سنعمل سوية.

- لست موافقاً.

- ستوافق- أجبته بصوت ثابت- وأنت تعلم ذلك جيداً.

- اسمعتني يا صديقي- سحب كرسياً بدوره وجلس وهو يكمل- الأمر ينطوي على مخاطرة كبيرة وأنت لديك عائلة.

بدأت أقهقه ضاحكاً

- أتعيد على مسامعي ما كنت أخبرك إياه بالأمس؟ دعك من هذا الكلام، فكلانا يعلم أنك لن تتخلى عن هذه الفكرة، وبالتالي سأساندك كما فعل نهاد وكاتيا ولن أترككم بمفردكم.

يبدو أن قراري الجديد قد أزعجه ولكنه بقي صامتاً يحدّق إليّ ولا يدري ما يقول.

- أجل يا صديقي، الماضي يكرّر نفسه، فأنت كما في كل مرة تستهويك فكرة مجنونة فأعترض عليها، وأحاول في البداية أن أثنيك وعندما أفقد الأمل أستسلم للأمر الواقع وأتبعك.

لاحت على شفتيه شبه ابتسامة ربما زهواً واتقدت عيناه غروراً، ولكنه تمالك نفسه على الفور واعترض بجدية.

- ولكن الأمر في هذه المرة مختلف تماماً، وقد تتعرضون لخطر جدّي.

نظرت إليه بمزيد من الإصرار وأنا أقول:

- لا تحاول أن تنكر. فأنت لم تخض هذه المغامرة إلا وأنت على يقين تام بأننا سنشاركك الأمر.

بدا واضحاً أن كلامي قد أصاب بعض الحقيقة وباغتته صراحتي، فبدا الانفعال واضحاً عليه وحاول نفي الفكرة ولكنني لم أمهله فرصة للكلام:

- على رسلك- قلت محاولاً التخفيف من توتره- فقد صرحت البارحة بأن هذه هي طبيعتك، ولن تتغير حتى لو رغبت في ذلك، وأنا أيضاً لدي طبيعتي التي حاولت كثيراً تغييرها ولكن لم استطع، أنت تطلب مني ألا أتدخل، ولكنني لن أتمكن من ذلك، وحتى لو اخترت البقاء بعيداً، سأظل أفكر فيك أنت والبقية، وسينتابني الخوف لأنني تركتكم دون مساعدة.

تمهلت للحظة، فيما كانت شمس الظهيرة تنشر بأشعتها على المكان كله، لتزيد وضوح معالم القلق والتوتر على وجوهنا.

- لذا لا داعي للاعتراض على أمر محسوم، ولا تنسى أن مشاركتي لك ستخفّف من حدة المخاطر، وتجعلنا نصل إلى الحقيقة في وقت أسرع، كما أن خبرتي - ولو كانت نظرية - هي أوفر من خبرتك في هذا المجال.

- معك حق- كان من الواضح أنه أراد أن يقول شيئاً آخر ولكنه غير واثق من طريقة طرحه- لا أخفي عنك رغبتي القوية في مشاركتك لي الأمر، ولكن...

- أرجوك كف عن ترديد هذه الـ - لكن - ما من طريقة تمنعني عن مشاركتك هذه المغامرة سوى أن تغير رأيك وتتخلى عن الفكرة، وفي حال بقيت مصرّاً على السير في هذه الطريق فتأكد تماماً أننا سنبقى معك حتى النهاية.

بدا القلق الذي في عينيه يتحول إلى غضب

- ولكن ما تقوله مجحف.

- ليس إجحافاً يا صديقي، فهناك أشياء في الحياة لا نستطيع التهرب منها مهما حاولنا، ولكي أتخلى عن مساعدتك عليّ أن أتخلى عن صداقتي لك. أن أتخلى عن كل ما يجمعنا معاً وأنت تعلم بأنني لا أستطيع فعل أمر كهذا، ونهاد أيضاً لن يستطيع، ولكني لا أعلم ما الذي قد تقرره كاتيا... المهم إن لم تقتنع بالعدول عن الفكرة، فلا تضيّع وقتك في إقناعنا بالعدول عن مساعدتك.

وأشرت بيدي إلى علبتي البيتزا.

- هيا فلنبدأ طعامنا، فالبيتزا عندما تبرد تصبح مزرية.

لم تتمكن كلماتي من أن تلغي القلق من قلبه فيما كنت مرتاحاً تماماً من القرار الذي قمت باتخاذه، استجاب لطلبي، وقرّب إلي علبة البيتزا والتي فتحتها على الفور فاخترت أكبر القطع، وبدأت أكلها بشهية وبمزاج طيب، فيما بقي هو ثابتاً لا يتحرك.

- هيا ألن تأكل؟

استفاق من لجة الأفكار التي تعصف برأسه، وفتح العلبة ليأخذ قطعة من مثلثات البيتزا، وبدأ الأكل وإن لم يكن بالشهية التي أتناول بها طعامي، وبعد أن أنهيت أول قطعة وشربت نصف كأس الكولا الموضوعة أمامي سألته:

- ما الذي دفعك إلى التفكير بأن هناك صلة أو علاقة ما بين الجريمتين؟

تردّد قبل أن يجيب، وقد بذل آخر محاولاته من أجل أن يثنيني عن الأمر.

- هل أنت متأكد من أنك تريد التورط في هذه المسألة؟

- متأكد.

نظر إليّ بإمعان، ولكن الإصرار كان جلياً في نظراتي، ومع ذلك لم يستسلم ببساطة وأكمل.

- وماذا عن عملك؟ ألم تقل لي أنك بصدد عقد شراكة جديدة

لإنشاء المعمل؟

بدأت بالضحك

- اتضح أن شركيّ الروسيّين ينتمان إلى المافيا، وكنت على وشك التورط في مخاطرة أكبر من المخاطرة التي تزمع خوضها بما لا يقاس.

- أحقاً ما تقول؟

كانت الدهشة قد سيطرت عليه بالكامل.

- للأسف، فقد تبيّن أنهما يريدان تبييض الأموال التي حصلا عليها من بيع البترول بطرق غير شرعية، وكنتُ المطية التي ينويان امتطاءها من أجل تحقيق مآربهما، ولكن من حسن حظي أن الشرطة الروسية بادرت إلى التصرّف بسرعة وألقت القبض عليهما قبل أن أتورط.

- أمر يدعو للعجب حقاً، هل انقرض الشرفاء في هذا العالم؟

- هذا هو الواقع، لذا فإن فكرة إنشاء المعمل الجديد قد تأجلت إلى أمد غير معلوم، وبالتالي فأنا متفرّغ تماماً من أجل العمل معك.

- ستقتلني كولريز لو علمت بالأمر- قال ذلك وهو موقن أن ما يقوم به أمر منافٍ للمنطق ولكنه في الوقت نفسه قد استسلم لرغبته الجامحة في خوض هذا الأمر حتى النهاية، ولكني بالمقابل لم أكن أنوي التقليل من مخاوفه.

- إنها مشكلتك- وبالرغم من أنني لم أكن متفائلاً لكنني بذلت محاولة أخيرة- ولكنك لا زالت تملك الفرصة في تدارك الخطر، وإبعاده عنا جميعاً.

بقي صامتاً، وهو يحاول التهرّب من نظرات الاتهام التي أوجّهها نحوه، وهذا ما كنت أتوقّعه.

- ولكنك بالتأكيد لن تتراجع - تناولت قطعة أخرى من مثلثات البيتزا وأنا أكمل - حسناً دعنا من هذا الحديث، وأخبرني الآن ما الذي دفعك إلى افتراض وجود علاقة بين الجريمتين؟

بينما كنت أكمل طعامي ارتشف كنعان جرعة حسوة كبيرة من زجاجة الشراب، وبدأ يشرح لي الموضوع.

- كما ذكرت بالأمس فأول شيء لفت انتباهي هو الأفعى المشتركة بين الصورتين والتي تعود لذات الخيميائي الفرنسي، وبعد أن قرأت ملف الجريمتين اتضح أن كلتا الضحيتين كانا على علاقة حب.

توقّفت عن الأكل دهشة وسألته.

- هل أنت متأكد؟

- أجل فأيسون كانت تحب هذا الشاب ذي الشعر الأسود الطويل، وقد تخلت عن زميلها في الدراسة وحبيبها القديم يونس كولوكجو لهذا السبب.

بلعت اللقمة على عجل.

- هل هذه المعلومات مدوّنة في ملفات الجريمة؟

- كلا، ولكن محامي يونس كولوكجو أخبرني بهذه المعلومة، فقد كان يحبّها بجنون ولكنها عندما تركته من أجل كارتال غوكر لم يحتمل الصدمة. وقد ظل يلاحقها لأيام يرجوها العودة، كما أن بواب البناء الذي تسكن فيه أيسون أفاد بأنه رأى يونس يخرج من المبنى في يوم الجريمة وهذا كان السبب الرئيس في تثبيت التهمة عليه وسجنه، وقد أنكر يونس هذه التهمة أمام المحققين، وفي أثناء جلسات المحاكمة، ولكن بعد التحقيقات وفحص منزل أيسون، وجدت بصمات أصابعه في منزلها، وهذا ما عزز الرأي السائد بأنه المتهم الرئيس في هذه الجريمة.

- ولكنك غير مقتنع بأن يونس هو القاتل.

- طبعاً، فبرأي أن قاتل العشيقين هو الشخص أو الأشخاص ذاتهم، وقد قتل الطبال كارتال غوكر قبل مقتل أيسون بخمسة أيام، وفي تلك الأثناء كان يونس في أنقرة يحضر احتفالاً بمناسبة إحياء ذكرى الحريق الذي نشب في العام 1870 في منطقة بيرا وتأثيراته على ثقافة المكان وجغرافيته.

- ألا يحتمل أنه عاد خلسة إلى اسطنبول لتنفيذ جريمته وسافر إلى أنقرة مجدداً؟

- مستحيل، لأن الوقت الذي قتل فيه كارتال كان قرابة الثانية ظهراً تقريباً، وفي هذا الوقت بالذات كان يونس في قاعة المؤتمر الخاص بالاحتفال يلقي كلمة بهذه المناسبة.

كان يتكلم وقد ترك تناول الطعام.

- حسناً، ولكن ما رأيك أن تأكل طعامك؟- وفيما بدأ بالأكل مجدداً حاولت أن أرتب الأحداث والدلائل في ذهني.

- وقوع الجريمة الثانية بعد خمسة أيام تحمل في طياتها معنى خفياً بالطبع إن تخلينا عن فكرة أن الأمر كان محض صدفة غريبة وغير مقنعة. وقتل عشيقين في مدة قصيرة كهذه يوحي بكل تأكيد وجود علاقة خفية بين الجريمتين. وكما ذكرت لي سابقاً فإن المجرم الحقيقي أو المجرمين إن كانوا أكثر من شخص واحد هم الآن بكل تأكيد...

ابتلع لقمته على عجل وهو يشير برأسه موافقاً على كلامي.

- والمتهم في جريمة قتل كارتال، ماذا كان اسمه؟
سألته:
ارتشف من زجاجة الشراب رشفة طويلة قبل أن يجيبني.
- رشاد جوبور... كان كارتال مدمناً على المخدرات ورشاد هو من يؤمنها له. ويبدو أن كارتال كان مديناً لرشاد بمبلغ كبير من المال نتيجة ذلك، وقد نشب أكثر من خلاف بين الاثنين وفي إحدى المرات قام رشاد بتهديده في مكان عمله وأمام الجميع، والنقطة الأخرى أن رشاد قد اتُّهم من قبل بجرائم اعتداء، لذا فقد عزّز سجله الإجرامي الاتهامات الموجهة إليه.
وقبل أن آخذ قطعة جديدة من البيتزا سألته:
- ولما لا تفكر الشرطة بالطريقة التي تفكر فيها؟ لما لم تضع الاحتمال الذي يفيد بأن الجريمتين يقف خلفهما الشخص ذاته؟
- أعتقد أن الشرطة لم تهتم كثيراً بعلاقة الحب التي تجمع بين الضحيتين، كما أن وجود متهمين تتوفّر لديهما الكثير من الدوافع لارتكاب الجريمة قد دفعها لاختيار أسهل الطرق وإنهاء القضيتين بأسرع وقت ممكن.
- هل أدليت برأيك أمام المحقق جونييت؟
- لم أفعل ذلك، فقد خفت أن أخوض في قضيتين قد حسمت الشرطة أمرهما، فيستاء جونييت من الأمر.
وبعد لحظات من الصمت أردف
- ولا تنسى أن الصور لا تزال بحوزتي ولم أنتهِ بعد من تصويرها جميعاً.
- معك حق، فما من داعٍ لإثارة استيائه دون طائل.
ساد الصمت مجدداً، ونحن ننهي طعامنا وكل منا يفكر بأحداث الجريمتين، وبعد لحظات قطعت الصمت
- ولكن هناك احتمال أن يكون تتابع الجريمتين محض صدفة، وأن المتهمين هما حقاً من ارتكبا هاتين الجريمتين.
لم تزعجه ملاحظتي مطلقاً.
- احتمال ضعيف... ولكنني مع ذلك لن أجزم برأي حتى أقابل رشاد ويونس، فقد طلبت أن أراهما لهذا السبب بالذات.
كان كلاماً منطقياً، فلا بد من مقابلة المتهمين قبل البت برأي قاطع، رشفت جرعة من الكولا قبل أن أنهي آخر قطعة من البيتزا، ومن ثم عدت إلى طرح أسئلتي.

- وما هي توقعاتك؟ أعني هل هناك من متّهم آخر تحوم حوله الشكوك برأيك؟

- لا يزال الوقت مبكراً على البت بقرار نهائي، ولكن تلك اللوحتين اللتين تعودان للرسام والخيميائي نيكولاس فليمل تثيران شكوكي على الدوام، ومن المحتمل أن يكون القاتل أحد المعتقدين بأفكاره.

- وهل هناك مريدون وأتباع يسيرون على نهج فليمل؟

- لا أعلم... ولكنه احتمال وارد.

- ولكنه مات قبل بضع مئات من السنين.

- ليس بضع، فقد مات قبل ما يزيد عن الخمسمئة عام.

أوضح لي.

- المهم أنه مات منذ زمن طويل، وهذا يضعف احتمال وجود اتباع له.

- أخالفك الرأي في هذه النقطة، ذلك أن فليمل لم يكن مجرد خيميائي معني بتحويل المعادن إلى ذهب، بل إنه كان باحثاً عن الخلود.

- مثلك أنت؟

- بالطبع لا، فأنا لا أبحث عن الخلود بالمعنى الحرفي أي خلود الجسد والروح، ولكن فليمل كان يريد الوصول إلى هذا النوع من الخلود، وقد قام بالكثير من التجارب والأبحاث حول هذه الفكرة، والأهم أن الكثير يعتقدون بأن فليمل وصل إلى أكسير الخلود هذا، إنها أسطورة تشبه كل الأساطير التي يعتقد بها الناس على مر العصور، وخاصة الدجّالين والمشعوذين والمجموعة اكس والذين لا يزالون مقتنعين بفكرة الخيمياء كعلم يمكن تطبيقه، وسواهم ممن تستهويهم الأفكار والمعتقدات الغريبة. وقد كان كارتال شاباً تستهويه أنواع غريبة من الموسيقى.

- ما الذي تعنيه؟

- موسيقى المجموعة اكس... وموسيقى الميتالك وسواها من أنواع الموسيقى الغريبة وغير المألوفة.

وفيما يتحدث تذكّرت الكتاب الذي رأيته بحوزة ديزى في مكتبة والدها منذ فترة، وكانت أول مرة أسمع فيها باسم فليمل، كما أن الكتاب كان يحتوي على جميع رسوماته. وهناك رأيت اللوحتين اللتين رأيتهما فيما بعد تزيّنان منزلي الضحيتين.

- هل تحدثت مع ديزى حول هذا الخيميائي من قبل؟

استغرب كنعان سؤالي ونظر إلي محاولاً فهم مرادي من سؤال غريب

كهذا

- أتعني ديزى ابنة نهاد؟
- أجل فقد حدثتني منذ مدة عن هذا الشخص، كما أنها تقوم بإنشاء حلقة بحث حوله بالذات.
- أمتأكد مما تقول؟
- أجل، وهي ملمّة بكافة المعلومات المتعلقة به، وإن كان حقاً يملك أتباعاً يسيرون على نهجه ويعتقدون بأفكاره فمن المؤكد أن ديزى لديها الخبر اليقين، وإن استعنا بهذا في الأمر فستوفر علينا الكثير من الجهد
- فكرة معقولة، إذا يجب علينا أن نقابلها في أقرب فرصة.

تناولنا البيتزا حتى آخر قطعة وبعد تمتّعنا بشعور الراحة والاسترخاء الذي يوفره الشبع، قام كنعان بتنظيف الطاولة وإعادة الصحون إلى المطبخ فنهضت لأساعده ولكنه بادر على الفور:

- لا داعي أن تساعدني- وأشار بيده إلى الكرسي الذي يتموضع قرب الأريكة.
- إن كنت ترغب في تدخين سيجار فالعلبة هناك.

على الرغم من كوني غير مدخن، ولكنني أستمتع بالتدخين بعد وجبة الغداء، وبخاصة عندما تكون من ذلك النوع الفاخر الذي يدخّنه كنعان. أخذت سيجاراً من العلبة، وتناولت علبة الكبريت الفرنسية وأشعلته، وبدأت أستنشق الدخان الكثيف وأسحبه بمتعة ليتغلغل في أعماق صدري فيما أخذ كنعان الصحون والعلب الفارغة إلى المطبخ، وبعد أول نفس بدأ هاتفي الجوال يرن، نظرت إلى الشاشة فوجدت رقم هاتف المكتب، لا بد وأنها يشيم.

- ألو يشيم؟
- أنا نهاد..
- أهلا نهاد، أنت في المكتب الآن؟
- أجل، كولريز أيضاً هنا وهي جالسة تتبادل الحديث مع كاتيا.
- حقاً؟ كاتيا أيضاً جاءت معك؟ خيراً ما الأمر؟
- علينا أن نتحدّث حول الفكرة التي حدّثنا عنها كنعان البارحة، إنه يسير إلى التهلكة بقدميه.
- أنا الآن في منزل كنعان.
- حقاً أنت هناك؟

- أجل، وإن رغبتم يمكنكم المجيء.

صمت للحظات قبل أن يجيب.

- أفضل أن تعود أنت إلى المكتب، علينا التحدث نحن الثلاثة قبل أن نتخذ أي قرار.

- كما تشاء، ولكن كن حذراً فأنا لا أريد أن تعلم كولريز عن الأمر شيئاً حتى لا تخاف، ما رأيك أن نلتقي عندك في المكتبة ونتحدث بحرّية.

- لا مانع لدي، ديزى الآن جالسة في المكتبة، سأطلب منها أن تذهب حال وصولنا وبذلك نستطيع أن نتكلم بمنتهى الراحة.

- لا تطلب منها الذهاب، فأنا أود رؤيتها والتحدث معها.

- مع ديزى؟

- لا داعي لأن تقلق، سأخبرك بالأمر حالما أراك.

وما إن أنهيت حديثي حتى عاد كنعان من المطبخ وهو ينظر إلى الجوال الذي لا يزال في يدي، وقد كان واضحاً من نظراته أنه سمع الحديث الذي دار.

- إنه نهاد، يريد أن يتحدث معي بشأن ما حصل البارحة.

أبدى تعبيراً لطيفاً على وجهه وهو يقول:

- أعلم أنه يقلق عليّ، ويخاف من مغبّة الأمر، كما أنه يشعر بالذنب فهو من دفعني وأقنعني منذ البداية بفكرة المعرض، وقد اتصل هذا الصباح لكي يأتي ويكلمني ولكنني تدبرت حجة لكي أتخلص منه، وبالطبع فالمسكين لا يمتلك خبثك ودهاءك لذا لم يتبادر إلى ذهنه أن يأتي محمّلاً بعلب البيتزا ويطرق بابي.

ضحكنا ليس سخرية ولكن لأننا نمتلك وجهة النظر ذاتها حول صديقنا المشترك.

لم نتكلم عن الأمر صراحة، ولكننا كما في كل مرة تقاسمنا المهام بصمت وبدأنا العمل بإصرار، لذا اتجهت نحو المكتبة من أجل مقابلة كاتيا ونهاد وإقناعهما بوجهة نظري الجديدة، وأيضاً الحصول على معلومات عن نيكولاس فليمل من ديزى، فيما اتجه كنعان لمقابلة المحاميين الذين يتوليان الدفاع عن المتهمَين وذلك من أجل الاتفاق حول الاجراءات التي ستتم غداً أثناء توجّهه كنعان إلى السجن لمقابلة المتهمَين.

المصعد العجوز في مبنى دوغان بالكاد يتسع لثلاثة أشخاص، ويستغرق وقتاً أطول من غيره في الحركة، عندما فتح باب المصعد تنفست الصعداء واتجهت نحو شارع بستان شاه كولو لأصل إلى محطة المترو، هذه المنطقة هي التي تتداخل فيها غلاتا مع بيرا. في الحقيقة كنت على الدوام أتساءل عن صحة القرار بفصل منطقة غالاتا عن بيرا، ففي الوقت الذي شكلت فيه غالاتا بأسوراها التاريخية مركز الحياة التجارية في بيه أوغلو كانت بيرا بمقابرها وبساتينها الوجه الريفي المقابل لهذا التمدن، وقد كانت أول محاولة لتمدين المنطقة ببساتينها وحقولها من قبل الفرنسيين حيث تم بناء السفارة الفرنسية التي أطلق عليها اسم القصر الفرنسي وذلك في القرن السادس عشر، وقد قام الأوروبيون على التوالي مثل الطليان، البريطانيين، والهولنديين والروس وسفراء البندقية ببناء سفاراتهم هناك، ومع الوقت بدأ التجار ببناء منازلهم في المحيط القريب من هذه السفارات، وبالتالي كانت بيرا والتي أخطو عليها الآن هي الشريان الذي أمدّ بيه أوغلو الحديثة بالحياة.

هذه المنطقة التي يعود تاريخها إلى مئات السنين تحفل بكل أنواع المطاعم والكافيتريات والمقاهي والمطاعم الخاصة بتقديم المشاوي والمعجنات، كانت تحفل في هذا اليوم الخريفي الدافئ بمختلف أنواع العابرين الذي يعودون إلى مباشرة أعمالهم بعد أن تناولوا غداءهم في هذه المطاعم، كل بحسب رغبته وذوقه في الطعام. هؤلاء الناس لم تكن بيه أوغلو بمطاعمها وباراتها وملاهيها الليلية على مختلف أنواعها الشرقية والغربية المعاصرة والقديمة مكاناً للتنزه والسياحة بالنسبة لهم، إنما المكان الذي يشكّل مصدر رزقهم، ولهذا السبب كانوا يحترمون هذه المنطقة ويقدّرونها حق قدرها ويحافظون على كل معالمها.

كانت الشرطة بهراواتها وتروسها تشغل الرصيف الممتد على الجانب

الأيمن للباب التاريخي لمدرسة غلطة سراي العريقة، والتي تم بناؤها من قبل السلطان بيازيد الثاني في العام 1481 لتكون مدرسة تابعة للقصر السلطاني يتلقى فيها موظفوه تعليمهم، وقد بقيت صامدة في وجه الكثير من الحرائق التي حاولت التهامها دون طائل، والكثير من الأحداث السياسية التي زادت من مكانتها التاريخية وعزّزتها.

انعطفت عند ناصية الطريق نحو اليسار، وسرت في الشارع المواجه للسفارة البريطانية وبعد حوالي عشرة أمتار دخلت سوق أصليهان، وفيما كنت أهبط الدرج سمعت صوت نهاد يناديني من الخلف.

- سليم.. سليم انتظرني.

لم أجد كاتيا برفقته فسألته عنها

- ذهبت لشراء بعض الكعك.. تقول إنها ستتبع حمية غذائية.

- يبدو أنها أسرفت في الأكل البارحة.

- لا لم تسرف كثيراً ولكن.. صحيح ماذا عن كولريز؟ أعني ماذا أخبرتها حول اجتماع البارحة؟

لما أقحم كولريز فجأة في حديثنا؟

- ماذا؟

- أحسست بأنها انزعجت نوعاً ما عندما علمت بأننا كنا معاً البارحة مساءً.

لقد حدث ما لم أتوقعه مطلقاً.

- هل أخبرتها بأننا كنا معاً البارحة مساءً على العشاء؟

- لم أخبرها بشيء، كاتيا هي التي أخبرتها.

نظرت إليه مرتاعاً وأنا أخبط رأسي بكفيّ.

- لقد قُضي عليّ هذه المرة، ستقتلني كولريز لا شك في ذلك.

لم يعرف نهاد حقيقة الموقف، لذا استغرب من ردة فعلي

- ما بك؟ لما كل هذا الخوف؟

- لقد أخبرتها بأنه لدي عشاء عمل البارحة، فقد خفت أن تغار من كاتيا إذا علمت بأننا كنا سوية.

بدت أمارت الاستياء على وجهه، ونظر إليّ نظرات ملؤها الشك والريبة.

- لا تنظر إلي بهذه الطريقة، بالطبع لست مغرماً بها ولكن ما إن تعلم كولريز بأنها روسية لن تترك الأمر يمر بسلام مطلقاً.

حلّت السخرية محل الاستياء في وجهه، وبدا أن ضحكة استهزاء

تتخلل كلماته وهو يقول:

- إذاً لهذا السبب كانت كولريز تحدجها بنظرات عدائية طوال الوقت، أظن بأنك أوقعت نفسك في ورطة كبيرة.

- كف عن السخرية، فالورطة حقاً أكبر مما تظن.

وضع يده على كتفي مواسياً.

- أظنك تهوّل الأمر وتبالغ في خوفك، يمكنك بكل بساطة أن تخبرها بأن ضيفيك الروسيّين اعتذرا عن المجيء في آخر لحظة فبقيت معها، فكاتيا حقاً لعبت دور المترجمة بينك وبينهما أليس كذلك؟

- بالطبع.

- أخبرها أيضاً بأنك قمت بدعوتي أنا وكنعان عندما اعتذر الروسيان عن المجيء.

لقد قدّم لي ذريعة منطقية لا يرقى إليها الشك، أعتقد بأن صديقي يمتلك أحياناً بعض القدرات الذهنية على عكس توقّعاتي. وعلى الرغم من اقتناعي بصواب رأيه إلا أن الشكوك والقلق ظلا يراودنني طوال الطريق، فمهمة اقناع كولريز ليست بتلك السهولة التي تصوّرها صديقي، خاصة أن النساء على الدوام يكتشفن الرجل حين يحاول الكذب عليهن.

لحسن الحظ، كانت ديزى جالسة لوحدها في المكتبة، فلم أكن في مزاج يسمح لي برؤية ملك وتحمّل سماجتها، وقد لاحظت ديزى مدى اضطرابي.

- ما بك عم سليم، لما يبدو وجهك شاحباً إلى هذه الدرجة، هل أنت مريض لا سمح الله؟

- متعب قليلاً يا عزيزتي، شكراً على اهتمامك، أخبريني كيف حالك؟

سحبت أحد الكراسي وجلست فيما كنت أحدّثها.

- بخير.. بخير.. ولكن الدراسة تأخذ كل وقتي...

اتخذت نبرة جدية وهي تخاطب والدها بطريقة اتهامية.

- وأنت سيد نهاد كيف حالك؟ أين كنت البارحة؟ أظن بأنك لم تنم في البيت كعادتك.

ظهرت تقطيبة جدية على وجه صديقي وهو يجيب.

- تعلمين يا عزيزتي بأنني أساعد عمك كنعان في المعرض، ونحن نعمل بكثافة لكي نستطيع أن ننهي الصور في أسرع وقت ممكن، ولكن دعك مني وأخبريني ما أخبار الدراسة؟

- جتزت امتحان البارحة بنجاح، لا تقلق فلن أرسب هذه السنة

أيضاً يا father .

- الرسوب غير وارد يا عزيزتي، فلو رسبتي سيتدهور الوضع لدرجة لا يمكن تخيّلها، ومن الأفضل ألا تناديني بـ father مرة أخرى فلو سمعتك والدتك ستستاء كثيراً من خلطك لكلمات أجنبية مع اللغة التركية.

نظرت إلى والدها بتواطؤ هذه المرة وهي تقول:

- وهل سمعتني أتكلم بهذه الطريقة أثناء وجودها؟

كان الأب وابنته يتجاذبان أطراف الحديث بودّ، فيما تعلّقت نظراتي بأحد الكتب التي كانت مفتوحة أمام ديزى، اقتربت محاولاً التعرّف اكثر على موضوع الكتاب، فبادرت ديزى بالتوضيح

- إنه كتاب يحمل اسم **علم اجتماع المدن** وهو أحد مقرراتنا في الجامعة، وهو يتناول المشاكل المصاحبة لتمدّن المناطق الريفية، هل تهتمّ بهذه المواضيع؟

- في الحقيقة لا، ولكنني ظننته ذات الكتاب الذي رأيته بحوزتك قبل مدة.

- أي كتاب؟

- ذاك الذي يتحدث عن الخلود، أظن بأنه كان لخيميائي فرنسي.

- أتعني نيكولاس فليمل؟

- أجل إنه هو، فليمل، ألديك معلمات حول هذا الرجل؟

- بالطبع لديّ، فقد أجريت دراسة عنه.

- لحظة لحظة- تدخّل نهاد في حديثنا- أهو الشخص نفسه الذي تحدّث عنه كنعان وعن لوحاته المعلّقة في منازل الضحايا؟

- أجل هو.

نظر إليّ نهاد مستهجناً اهتمامي بأمر كنا مزمعين على إقناع كنعان بالتخلي عنه، وقد يكون سبب استهجانه أنني سألت ديزى عن موضوع فليمل وبالتالي أشركتها في الأمر دون موافقته.

حاول قدر الإمكان أن لا يثير انتباه ابنته حول موضوع الجرائم وبادر بالقول:

- دعونا الآن من الجرائم والضحايا وحدّثينا عن هذا المدعو فليمل فقد بت متشوقاً لمعرفة حقيقة هذا الخيميائي.

بدوري حاولت أن أمحو من ذهنها أي علاقة تربط بين الجرائم والخيميائي.

- أعني بأن عمك كنعان أيضاً مهتم هذه الفترة بفكرة الخلود.

كان من الواضح أن مبرّراتنا المرتبكة المتعجّلة زادت من شكوكها ولم تقنعها، لذا نظرت إلى والدها مستفهمة، فأجابها على الفور.

- عمك كنعان انتقل إلى أعتاب الجنون، ويبدو أن عمك سليم ينوي اللحاق به.

خفّ الفضول الذي اعترى نظراتها وحل مكانه الاستغراب وهي تسألني:

- هل بدأت تهتم بالروحانيات والماورائيات عم سليم؟

- شيء من هذا القبيل، ولكن دعك من اهتماماتي وحدثينا عن هذا الخيميائي الفرنسي، ما هي أبرز أفكاره، وما الذي دفعه إلى الاهتمام بهذا المجال؟

بدأت ديزى تسرد لنا أهم ما تعرفه عن هذا الرجل.

- إنه رجل غريب الأطوار، ولكنه تحول إلى أسطورة مع مرور الوقت كان يعيش في فرنسا في ضواحي باريس في القرن الرابع عشر ومثل والدي كان يملك حانوتاً لبيع الكتب في الطابق الأرضي من منزله وكان يعمل لديه مجموعة من المختصين في نسخ الكتب، وكما أنه كان يقوم بتدريس أبناء النبلاء وتعليمهم القراءة والكتابة. عاش مع زوجته حياة بسيطة بعيدة عن الترف والمظاهر، وقد كان شخصاً مثقّفاً ومن هنا نبع اهتمامه بالخيمياء، التي كانت في ذلك الوقت كشفاً هاماً في الأوساط العلمية، تماماً كأهمية اكتشاف سلسلة الـ DNA في وقتنا الحالي.

- هل يمكنك أن توضحي لنا ما الذي تعنينه بالخيمياء التي كانت تعتبر بمثابة العلم في ذاك الوقت؟

- كما تعلم عم السليم، فالمتعارف عليه أن الخيمياء هي تحويل المعادن إلى ذهب. ولكنه في الحقيقة مصطلح أعم وأشمل بكثير، ففي اليونان القديمة كانت الخيمياء تعني كيفية التقرّب من الأسياد المبجلين والقدرة على التحكم بمصائر الكون، لقد كانت الخيمياء حينها تحمل أبعاداً دينية وفلسفية وسياسية في الوقت ذاته، لذا فقد كانت تحتل مكانة مرموقة في ذلك العصر. وهو علم- إن صح استخدام هذا التعبير- ضارب بجذوره في عمق التاريخ فقبل اليونانيين كان الفراعنة يفكون طلاسمه، وكانوا يطلقون عليه الكيمياء الهرمسية نسبة إلى هرمس تريسميجيستوس والذي يربطونه بتوت أمون. وهرمس هو بحسب اليونانيين مبعوث السادة المبجلين في الأولمبية، أما تريسيميجيستوس فتعني ثلاث مرات مبجلة، وبالتالي فجمع الكلمتين يعني مبعوث المبجل ثلاث مرات.

أما توت فكان عند المصريين القدماء سيد العلم والزمن والأعداد وكانوا يعتقدون بأنه من أوجد العلم والهندسة وعلم الفلك، كان له جسم بشري ورأس طائر حاد المنقار ويصوّر على الدوام وهو يحمل بيده أوراق البردي والتي يعتقد أنه تمثّل كتاب الموتى للمصريين القدماء، وكانت الخيمياء بكل تأكيد جزءاً من العلوم التي يمتلك أسرارها هذا المصري.

يعتمد علم الخيمياء على أربعة عناصر بسيطة هي الهواء والماء والنار والتراب، ويعتبر الكبريت والملح والزئبق مواد أساسية بالنسبة إلى هذا العلم.

ويعد الهدف الرئيس لكل التجارب التي قام بها الخيميائيون وكل الأبحاث التي عملوا عليها لسنوات طوال، هو إيجاد حجر الفلاسفة أو حجر المعرفة. هذا الحجر الأسطوري بحسب زعمهم يحوّل كل المعادن إلى ذهب ويشفي المرضى كما أنه ينتج ماء يمنح كل من يشربه الخلود. وهذا الحجر يتكون من ثلاث مواد أساسية ويتشكل من امتزاج خصائصها المبجّلة وهي: الكبريت الذي يرمز إلى الروح والزئبق يرمز إلى قوة الحياة فيما الملح يرمز إلى جسد الإنسان.

وهناك أسطورة أخرى تفيد أنه هذا الحجر يسمى أحياناً بحجر المنفى.

وبالعودة إلى قصتنا فقد كان فليمل الذي يعمل في الخيمياء مهتماً بحجر الفلاسفة، حتى إن البعض يعتقد بأن فليمل تمكن من الحصول على هذا الحجر وقد دوّن ذلك في أحد كتبه، وقد دفعته إحدى الرؤى للبحث عن هذا الحجر المبجل.

فبينما كان نائماً في أحد الليالي شاهد في حلمه كائناً نورانياً يخاطبه وهو يمسك كتاباً بيده:

«تمعن في هذا الكتاب جيداً يا فليمل، إنه كتاب لن يستطيع أحد قراءة كلمة واحدة منه أو فهم سطر واحد من سطوره، ولكن سيأتي وقت وتتمكن فيه من قراءة ما لم يستطع أحد قراءته من قبل، وفهم ما لم يفهمه أحد، ورؤية ما لم يتمكن أحد من رؤيته قبلك».

وبعد انقضاء فترة قصيرة على هذا الحلم، جاء رجل إلى حانوته ومعه كتاب من واحدٍ وعشرين صفحة، مكتوبة بخط اليد وكان الرجل يريد بيع الكتاب. وما أن تفحصه فليمل أدرك على الفور أنه يماثل الكتاب الذي شاهده في يد الكائن في الحلم، كان كتاباً متقن الصنعة خُطت حوافه بالذهب له غلاف خشبي تتوزّع الصور الغريبة والرموز المختلفة بين طيات صفحاته، وفي الصفحة الأولى كتب بخط اليد أن هذا الكتاب يعود إلى

أبراهم اليهودي وهو عالم ومنجّم (أبراهام اليهودي كان أحد الأحبار اليهود وأحد معلّمي جماعة الكابالا الغامضة)

ظل فليمل يحاول لمدة واحد وعشرين سنة فك طلاسم هذا الكتاب ومعرفة الأسرار المدفونة بين صفحاته، ولكنها كانت مهمة شاقة لم تكلّل بالنجاح، لذا استنسخ عن الكتاب نسخ جديدة بخط اليد وأخذ يبحث عمن يستطيع أن يكشف أسراره. كان يعتقد أن الكتاب قد كتب باللغة العبرية القديمة، ولأن الكنيسة في فرنسا كانت تضطهد اليهود في تلك الفترة وتحاكمهم فقد غادر معظمهم البلاد، لذا قرر الذهاب إلى اسبانيا.

- لما؟

- كانت بعض الإمارات الإسلامية لا تزال قائمة في اسبانيا حينها، وكان اليهود فيها يتمتعون بحرّية دينية، لذا وفي العام 1378 توجه فليمل إلى اسبانيا، ولكي يحمي نفسه من مخاطر الهجمات أثناء الطريق ارتدى الزي والقبعة الخاصين بزوّار القدس وأخذ معه بعض الصفحات المنسوخة من كتابه، ولكنه مني بالفشل وذهبت جهوده التي استغرقت عاماً كاملاً للبحث عمن يمكنه فك شيفرة الكتاب سدى. وفيما كان يزمع العودة إلى دياره تعرّف على أحد التجار الذي أخبره بأنه يعرف أحد علماء اليهود الذين تحوّلوا من اليهودية إلى المسيحية، وقد تعرّف فليمل على هذا العالم الذي كان يدعى بالمعلم سانشيز، وعندما أخبره فليمل أن الكتاب قد كتب من قبل العالم أبراهام اليهودي وافق أن يسافر معه إلى باريس من أجل رؤية الكتاب كاملاً ومساعدته في فك طلاسمه، ولكنه كان مريضاً ولم يستطع أن يكمل الرحلة حيث توفي أثناء الطريق ودفنه فليمل بسرية تامة وأكمل رحلة العودة خالي الوفاض. ولكنه بالطبع لم يستسلم، وحال وصوله عاد للعمل في الكتاب واستمر في ذلك مدة ثلاث سنوات، وأخيراً تمكن وبمساعدة زوجته برينيل من تحويل الزئبق إلى ذهب، وتبرّع بمعظم ما جناه من أموال للفقراء والمحتاجين ودور العبادة، وقد يكون هذا هو سبب اعتباره أسطورة ورمزاً واكتسابه سمعة واسعة الانتشار، جعلته رمزاً من رموز علم الخيمياء على مر العصور.

- وما الذي حصل بعد ذلك؟

سألتها بفضول.

- استمر في العمل على علوم الخيمياء وقام بتأليف كتاب بهذا الخصوص وقد عاش حياة وادعة حتى وفاته، ولكن البعض يزعم بأنه استطاع الوصول إلى حجر الفلاسفة وبذلك استطاع امتلاك الخلود، وأنه قام

باستعمال هذا الحجر في سن الثمانين من أجل أن يعود شاباً هو وزوجته. وبالطبع فإن معظم هذه الافتراضات مجرد مزاعم لا أساس لها من الصحة، وللوقوف على حقيقة الأمر علينا العودة إلى ما قاله فليمل عن نفسه.

- وماذا قال فليمل؟

- لا أتذكّر كلماته تماماً- قالت ذلك وهي تأخذ حقيبتها وتخرج منها الكتاب ذاته الذي رأيته معها في المرة السابقة، وبدأت بتقليب صفحاته- حسناً لقد وجدتها، هذا ما يقوله بالضبط: أنا مجرد شخص عادي في هذه المدينة، أعيش في منزلي الواقع قرب دار عبادة دي لا بوج، ولكنني أمتلك أكبر كنز مُنِحَ.

رفعت رأسها عن الكتاب ونظرت إلي

- هذه هي كلماته، ولكنني لم أستطع الوصول إلى ما يرمي إليه من هذه الكلمات.

- أعتقد يا عزيزتي بأن الرجل يبدو نصرانياً ملتزماً.

أوضح نهاد

- لا يبدو يا أبي. كان بالفعل شخصاً ملتزماً - أدارت الكتاب نحونا وهي تشير إلى إحدى الرسوم الموجودة فيه وهي نفس لوحة الأفعى الملتفة حول الشكل المتصالب والتي شاهدناها معلّقة في منزل أحد الضحايا.

- هذه اللوحة بالذات قام فليمل برسمها، وهي تجسّد العلاقة بين النصرانية والخيمياء، وهذا يعني بأنه قام بالربط بين هذين الرمزين القديمين وهنا تتجلى عظمة تفكيره.

هذا التفسير الذي قدّمته ديزى أثار حيرتي.

- عظمة تفكيره؟ تتحدثين عنه وكأنه أحد العلماء.

- لم يكن عالماً، ولكنه كان أحد أهم الباحثين، وقد تبدو أبحاثه ودراسته منافية لمبادئ العلم الحديث إلا أنه وككل عالم كان يبحث عن الحقيقة، وإن كان قد استخدم في هذا السبيل طرقاً ووسائل غير مألوفة، ولكن ذلك لا يقلل من شأنه وتميّزه مطلقاً.

- أظنك مخطئة يا عزيزتي- انبرى نهاد للكلام وقد لوى شفتيه استنكاراً- أعتقد بأن الرجل كان مجرد هاوٍ أطارت فكرة الخلود صوابه تماماً مثل عمك كنعان.

- لا أستطيع أن أجزم إن كان عمي كنعان فقد صوابه أم لا، ولكني متأكدة من أن فليمل كان رجلاً موهوباً ذكياً، لا يزال الفرنسيون يجلّونه وقد أطلقوا اسمه على أحد أحياء باريس، كما أن الكثير من

الفقراء لا يزالون يعيشون في الأبنية التي أنشأها من أجلهم، كان الرجل أسطورة يتردد ذكرها حتى في الوقت الراهن، وتتناقل أخباره الأجيال ويدور حوله الكثير من الشائعات.

- ما هي هذه الشائعات؟

تدخلت لأوقف الجدل الذي نشأ بين الفتاة ووالدها.

- إحدى هذه الشائعات تفيد أنه بعد وفاته ببضع مئات من السنين قام ملك فرنسا لويس الثالث عشر بفتح قبره، ولكنه كان فارغاً حتى من العظام ولم يجد فيه أي شيء. وبعد ذلك وعلى مر السنين تمت رؤية الزوجين فليمل في أماكن متباينة وفي عصور مختلفة. ففي القرن الثامن عشر مثلا يروى أن لويس الرابع عشر أرسل عالم الآثار بول لوكاس إلى الشرق الأوسط، وفي منطقة الأناضول التقى بول بعالم تركي يتقن الكثير من اللغات، وقد أخبره الأخير بعد الكثير من النقاش الذي دار بينهما أنه التقى بفليمل وزوجته وتعرّف عليهما، وبحسب زعمه فقد كان الزوجان يعيشان حياة رغيدة هانئة.

- أحقاً كانا متواجدين في الأناضول حينها؟

- أجل، أعتقد أنهما كانا في مكان قرب بورصة، واللافت بأنه تكرر الأمر مرة أخرى بعد مرور فترة من الوقت، فقد زعم البعض أنهما عادا مرة أخرى إلى فرنسا، ففي العام 1761 شاهد البعض فليمل وبيرنيل في إحدى الأوبرات في باريس، ولكن هذه المرة كانت تنتظرهما مفاجأة سيئة، فقد تمت مهاجمتهما من قبل مجموعة تعمل في الخيمياء حيث استطاع فليمل أن ينجو بنفسه وبنسخة الكتاب التي بحوزته فيما تمكنت المجموعة من إلقاء القبض على زوجته التي قاموا بقتلها.

وصلت القصة إلى مرحلة التشويق بالنسبة إلي.

- وبرأيك أن هذه المجموعة التي قامت بقتل زوجته لا يزال لها أتباع حتى يومنا هذا؟

نظرت إليّ ديزى كمن لا يتوقع هذا السؤال من شخص مثلي، وبدأت ترمقني وقد اتسعت عيناها دهشة.

- إنها مجرد شائعات يا عم سليم، بالتأكيد لا يوجد في عصرنا من يعتقد بالخيمياء.

في الحقيقة أصابني هذا النفي القاطع بخيبة أمل، وأحسست أننا أضعت طرف الخيط الذي كنت أمسك به للوصل إلى نتيجة، ولكن نهاد هب لمساعدتي.

- وماذا عن المجموعة اكس؟

- وما علاقة المجموعة اكس بالخيميائيين يا أبي؟

- كيف لا علاقة لهم ببعض، ألم تخبرينا قبل قليل بأن حجر الفلاسفة قد سقط من تاج اكس؟

كان صديقي كما في الكثير من الأحيان يخلط الحابل بالنابل ويسير في وجهتين متناقضتين في الوقت ذاته، فعلى الرغم من أنه نعتنا قبل قليل بالجنون- أنا وكنعان- ها هو الآن يجادل ابنته ويحاول أن يثبت صحة الفرضية التي أتيت للبحث عنها.

- إنها إشاعات يا والدي، محض أقاويل وخرافات لا أساس لها من الصحة، وقد آمن الناس بها قبل اكتشاف مبادئ العلم الحديث.

- ولكنكم تقومون بدراسة هذه الخرافات في جامعاتكم الحديثة.

- ذلك لأن الخرافات والأساطير هي جزء من تراث الفكر البشري.

- معك حق عزيزتي- عدت للتدخل في حديثهما- ولكن على الرغم من كونها مجرد أساطير وخرافات، لا يزال الكثير يعتقدون بإكس ويمارسون القتل كجزء من طقوسهم لإرضائه، وبالتالي هذا يوفر إمكانية وجود أشخاص يعتقدون بتعاليم فليمل أيضاً في عصرنا الراهن.

وبعكس والدها كنت أتكلم بهدوء وثقة، لذا تمهلت قليلاً واعتقدت بأن رأيي بدا لها منطقياً وهي تحاول التفكير في الأمر بجدية، ولكنها رمقتني أنا ووالدها بنظرات ملؤها الشك وهي تسأل:

- لما أنتما مهتمان بنيكولاس فليمل إلى هذه الدرجة؟

أدركت حينها انني لم أكن مصيباً في اعتقادي، تبادلت ونهاد النظر ونحن نبحث عن جواب مناسب.

- لأن لوحات فليمل كانت موجودة في منزل اثنين من الضحايا.

فاجأتنا كاتيا بتدخّلها.

لم نتمكن أنا ونهاد من رؤيتها وهي تستمتع إلينا ذلك أننا كنا ندير ظهرنا للباب، وقد أكملت كاتيا موضحة وهي تدخل

- لقد تخلى عمك كنعان عن شغفه بالتصوير واتجه للعب دور المحقق الجنائي، وأظن أن صديقيه قد قررا خوض هذه المغامرة معه.

وضعت الكيس الذي في يدها على الطاولة وهي تنظر إليّ.

- أليس كذلك يا سليم؟

استغربتُ من حدة استيائها بعد أن أدركت بأنني سأشارك كنعان فكرته.

- أهلا ًكاتيا، كيف حالك؟

حاولت التهرب من الإجابة.

رمقتني طويلاً قبل أن تردّ بصوت هادئ موزون.

- شكرا أنا بخير وأنت كيف حالك.

وسحبت أحد الكراسي لتجلس عليه.

- شكراً، أنا أيضاً على خير ما يرام.

- كنت عند كنعان أليس كذلك؟ ما الذي أخبرك به؟

بدا لي سؤالها محاولة للتأكد من تحقّق مخاوفها وقد اختلط الشك والقنوط في صوتها. فيما كانت ديزى ترمقني باهتمام منتظرة ما سيبدر مني من جواب.

- سنتكلم في الأمر لاحقاً- وفتحت الكيس الذي وضعته على الطاولة- إذاً فقد قررتِ اتباع حمية كما قيل لي؟

لاحظت ديزى أنني أتهرب من الإجابة أمامها.

- أنت تحاول خداعي عم سليم، ولكنني لست طفلة، ففي الوقت الذي أقدّم لكم كل ما أملكه من معلومات حول الموضوع تقوم أنت بإخفاء الحقيقة عني.

- لا يا عزيزتي أنا لا أخفي عنك شيئاً.

نظرت إلى والدها معاتبة.

- ألم نتفق أن لا نخفي عن بعضنا أي شيء؟

يا الله ستتحول هذه المغامرة إلى مخاطرة يشترك فيها كل أفراد العائلة، وإلى أحد أبواب الشر الذي لن يستطيع أحد منا التوقع بما يمكن أن يأتي منه، فلو علمت ملك بما ينوي نهاد الخوض فيه، فعلى صديقي السلام. ران صمت قلق على الجميع وقد بدا من الواضح أن كاتيا شعرت بالندم لما بدر منها بوجود ديزى، ولكن الكلمات التي تخرج كالرصاصات التي تُطلق، لا يمكن إعادتها.

- أعتذر عما بدر مني، لم أقصد أن أتسبب في حدوث مشكلة.

- لا داعي لأن تعتذري فأنت لم تخطئي في شيء، ولكن من الواضح أن هناك من لا يثق بي ولا يزال يعتبرني طفلة صغيرة.

كنت أظنها شابة عاقلة تتحلى بتفكير منطقي، ولكنها بدأت تبالغ وتهوّل الأمر، وقد ذكّرني تصرّفها هذا بمواقف مماثلة لوالدتها.

نظر نهاد مطولاً إلى ابنته قبل أن يشرح لها بصوت تختلط فيه المحبة بالعتب والتأنيب.

- أنت تعلمين جيداً يا عزيزتي بأنك أكثر شخص أثق فيه وأأتمنه على أسراري دون أدنى ذرة شك، ولكن الوضع هذه المرة مقلق ومن الأفضل أن تظلي بعيدة عنه قدر المستطاع، حتى أنا لم أقرر بعد ما الذي سأفعله- وأشار برأسه نحوي وهو يكمل- وعمك سليم لم يصل إلى قرار حاسم في هذا الشأن، وهو يحاول من خلال كل هذه الأسئلة الاطلاع على كافة جوانب الموضوع قبل أن يقرّر.

- وأنا أيضاً لم أرسُ على بر حتى الآن ولا زلت مترددة يا عزيزتي.

بادرت كاتيا إلى مساندة نهاد وبالتالي فقد حان دوري أيضاً من أجل تأكيد ما سمعته الفتاة، والتي بدا جلياً أن الغضب الذي غزا وجهها بدأ ينجلي رويداً رويداً.

- هذه هي الحقيقة، فالأمر شائك جداً هذه المرة ويحمل بين طياته بعض الخطورة، لذا لم نشأ أن نقحمك فيه، وكما ترين فنحن لم نصل حتى الآن إلى قرار نهائي، ولكن هذا لا يعني مطلقاً أننا لا نثق بك، فلو كان الأمر كما تعتقدين لما كنت أول من نلجأ إليه من أجل الوقوف على حقيقة الفكرة، وأخذ معلومات وافية عن فليمل وأفكاره.

- أظنك محقاً. ولكنني...

- نحن لم نخْفِ عنك أي شيء، وقد أطلعناك على كل ما نعرفه عن الموضوع.

أردف والدها مؤكداً.

- حسناً، وما الذي سيحصل الآن؟ هل حقاً سيقوم العم كنعان بالتحقيق في هذه الجرائم التي حصلت؟

- للأسف هذا ما يبدو الأمر عليه يا عزيزتي- أجابها نهاد واليأس يقطر من نبرته وهو يكمل- وقد اجتمعنا البارحة في محاولة أخيرة من أجل إقناعه بالعدول عن الفكرة، ولكنه مصّر على خوضها بالرغم من جميع المخاطر، وقد زاره عمك سليم أيضاً اليوم، ولكن من الواضح أنه لم يتمكن من إقناعه مرة أخرى.

مجدداً توجهت أنظارهم نحوي لاستبطان حقيقة موقفي، وبما أن الكل طرح رأيه بصراحة مطلقة أمام الفتاة، لم أجد غضاضة من التكلم بصراحة وشرح وجهة نظري الجديدة.

- أنتم محقون، فكنعان مصّر على التمسك بقراره حتى إنني لم أقم بمحاولة إقناعه اليوم.

نظرت إلي كاتيا بلوم وغضب واضح وهي ترى اعترافي باستسلامي

السريع أمام عناد صديقي ولكنني أكملت وأنا أخاطبها.

- أنت لا تعرفين كنعان يا عزيزتي كما نعرفه نحن، فهو إن قرر المضي في أمر ما لن تستطيع أي قوة على الأرض ثنيه، وفي هذه الحالة ما من حل أمامنا سوى مساعدته بدل تركه وحيداً. لذا، اقترح أن نتقبل الفكرة والعمل سوية علّنا نستطيع تخفيف الخطر الذي قد ينجم عنها.

لم تعقّب كاتيا على كلامي، ولكن الخوف بدا واضحاً في عيني ديزى وهي تسمع تفاصيل الموضوع

- وأنا مضطر في هذا الحالة أن أسانده، ولكن ليس لدي نية للتورط في أي نوع من المشاكل.

- أكملت موضحاً.

التقت نظراتنا أنا ونهاد، وبدا واضحاً أنه يتفهم حقيقة موقفي.

- بالطبع لن نتورط في المشاكل، كل ما نحاول فعله هو أن نجنّب صديقنا الخطر ونساعده على إتمام الأمر بسلام.

أضاف صديقي وهو يحاول إبداء أقصى درجات التطمين في صوته.

ولكن كاتيا لم تدرك حتى الآن أن كل ما نبذله من محاولات وتطمينات هو لمجرد إبعاد الخوف عن ذهن الفتاة الصغيرة.

- لا أزال مترددة في شأن القرار الذي يجب عليّ اتخاذه، فأنا موقنة أن المغامرة التي ينوي الخوض فيها مجرّد حماقة لا مبرّر لها.

- ومع ذلك فلستِ مقتنعة بأن الحل هو تركه وحيداً؟

وبدل أن تجيب هزت رأسها موافقة.

- نحن أيضاً نشاطرك الرأي ذاته ولكن ما من حل آخر، لقد قلّبنا الأمر على كافة وجوهه وفي جميع الحالات تبدو فكرة التخلي عنه أكثر الأفكار ضرراً، لذا علينا أن نقف معه على الأقل لنخفّف من حدة المخاطر التي قد يجرّها على نفسه.

- أظن أنك محق يا أبي.

تدخلت ديزى وقد بدا الجد في صوتها

- فعمي كنعان بحاجة لمساعدتكم الآن أكثر من أي وقت مضى.

شعرت بالندم لتسرّعي قبل قليل في الحكم على ديزى وتشبيهها بوالدتها، ولكن كاتيا كانت تخالفها الرأي.

- وماذا لو اعتبر مساندتنا له تشجيعاً للمضي أكثر فأكثر دون اعتبار لأي رادع؟

- لا أظن ذلك- أوضحت لها- صحيح أن كنعان يقحم نفسه في

أمور غريبة وغير مألوفة ولكنه بالتأكيد ليس مجنوناً، وبالطبع هناك حدود سيلتزم بها لن يتخطاها، ودعونا لا ننسى غايته الحقيقية من وراء كل هذه المغامرة، فهو يريد لفت أنظار الصحافة والنقاد إلى المعرض الذي يزمع افتتاحه، أي إنها مجرد وسيلة لبلوغ غايته.

ولم يتأخر نهاد في مساندتي مرة أخرى.

- أنت محق، فكنعان عنيد وإن تمسّك بفكرة ما فلن يتراجع عنها ولن يغيّر رأيه مهما حاول الآخرون.

- إذاً فأنتما مقتنعان بمساعدته أليس كذلك؟

استوضحت كاتيا

- ما من حل آخر.

لكنها بقيت مترددة.

- أنا حقاً أشعر بالضياع، ولا أدري ما الذي يجب عليّ أن أقرره وكيف يجب أن أتصرّف.

ارتسمت ابتسامة رضا واضحة على شفتيّ نهاد.

- تستطيعين البدء بتناول القليل من الكعك والفطائر، فالجوع أكبر العوائق أمام التفكير الصحيح يا عزيزتي.

## (22)

عندما أنهينا اجتماعنا في مكتبة صديقي كانت وطأة شمس الظهيرة قد خفت، وبدأت نسائم عليلة تهب من جهة البحر على الشارع العجوز لتكنس عنه الحرارة، وبدأت أشعر براحة وسكينة عميقتين، قد يعود السبب إلى لقائي بأصدقائي والنقاش الذي دار بيننا والذي أعلنت فيه رغبتي بكل صراحة دون مواربة في مسألة كنعان، واستطعت أن أقنعهم بوجهة نظري نوعاً ما، وقد يعود إلى هذه النسائم العليلة التي تكنس معها كل غم وضيق في صدر الإنسان، لم أستطع تحديد السبب الحقيقي ولكنني كنت ممتناً لهذه السكينة التي غمرتني.

على اليسار كان المبنى الذي تحوّل إلى ورشات متنوعة للحرفيين والصنّاع والذي كان في ما مضى فندق توكاتليان المشهور والذي كان يقصده أسماء معروفة حينها مثل عبد الحق حميد ويحيى كمال وليف تورجكي، أما على اليمين فسوق أطلس المغلق الذي اجتزته لأصل إلى متجري وهناك رأيتها. كانت تقف أمام واجهة أحد المتاجر تنظر إلى الأحذية المعروضة فيه، وترتدي سترة مطرية سكرية اللون، نحيفة طويلة القامة وكانت خصلات شعرها البنية تتماوج بهدوء متناغم مع اتجاهات النسيم، كانت هذه الهيئة مألوفة بالنسبة إليّ ولكنني لم أتمكن من معرفتها على وجه التحديد، ولا بد أنها أحست بثقل نظراتي التي تراقبها من الخلف حتى استدارت... يا الله كيف لم أتمكن من معرفة زوجتي التي أعيش معها منذ سنين؟ أجل لقد كانت زوجتي كولريز.

- آه سليم...

وهي أيضاً استغربت مثلي

- مرحباً، كولريز.

- أهلاً... ما الأمر؟ لما تنظر إلي بهذه الطريقة؟

- قد تعتبرين الأمر حماقة- قلت وأنا لا أزال أمعن النظر فيها- ولكنني ظننتك شخصاً آخر، وبدأت أتساءل من تكون هذه المرأة الجميلة.

لم تصدق.

- مثل ذاك الرجل الذي يظهر في الإعلان؟

- لا أعلم عن أي إعلان تتحدثين، ولكنني عندما رأيتك لم أستطع أن أشيح بنظري عن جمالك وفجأة اكتشفت فرحاً أن هذه المرأة الجميلة هي زوجتي.

عبست في وجهي

- لا تبالغ.
- أقسم لك بأنني لم أتعرّف عليك.

يبدو أنها صدّقتني وبدأت كلماتي تروق لها ورغبت في سماع المزيد.

- أهذا يعني بأنك لم تعد قادراً على التعرّف على زوجتك؟

تأبطت ذراعي وبدأنا نسير سوية.

- الفكرة لا تكمن في عدم قدرتي على التعرف عليك، بل أن جمالك يفاجئني في كل مرة.

أدرات رأسها ونظرت في عينيّ ملياً.

- سليم هل أنت على ما يرام؟
- أنا بخير، بل في أحسن حالتي، ألم تلاحظي أنه أمر جيد حقاً؟
- ما هو هذا الأمر الجيد؟
- هذه الصدفة... وإعجابي بجمالك قبل أن أدرك أنك زوجتي.
- أهذه طريقة جديدة كي أغفر لك؟

تذكرت كاتيا وما دار بينهما من حديث نقله لي نهاد قبل قليل.

- وما الذنب الذي اقترفته؟
- بعد كل هذه السنوات لا تتمكن من التعرف على زوجتك، أليس ذنباً برأيك؟
- أغفري لي غبائي، ولكنني اعتبرها فرصة أخرى لرؤية ما لم ألحظه فيك من قبل، لقد رأيت أمامي امرأة أبهرني جمالها.
- شكرا لك.

بدا من الواضح أن هذا المديح راق لها.

- صدقيني لقد كانت مفاجأة سارة جداً.

كانت النسائم تتغلغل في خصلات شعرنا وزوايا روحنا لتبعث الانتعاش فيها، بقينا نسير لبعض الوقت صامتين نستمع لوقع أقدامنا على أرصفة الشارع العجوز.

- هل ستذهب إلى المتجر؟

سألتني كولريز.

- ليس بالضرورة، سنذهب إلى المكان الذي تختارين.
- أليس لديك عمل؟
- لا عليك، فلن يتوقف العمل لو تغيّبت عنه بعض الوقت.
- لن يتوقف عملك ولكن إن لم أذهب بعد ساعتين لأخذ بورج

من المدرسة واصطحابه إلى الأخصائي التربوي فبالتأكيد سيحدث خطب ما، لأن الرجل لن يرضى باستقبالنا مرة أخرى في عيادته إن خالفنا موعدنا مجدداً.

- حسناً، وماذا تقترحين أن نفعل حتى ذلك الوقت؟
- أتتذكر السينما التي كنا نرتداها قبل ولادة بورج؟
- بالطبع أذكر، وأذكر أيضاً الشجار الذي كان ينشب بيننا، فأنا كنت أرغب على الدوام مشاهدة فيلم بوليسي فيما كنت تفضلين الأفلام الرومانسية.
- ولكنني في النهاية كنت أذعن لرغبتك.
- حقاً؟ هل أنا رجل أناني إلى هذه الدرجة؟
- لا ليس هذا ما أعنيه، ولكنني كنت أستسلم بسهولة أمام إصرارك، كما أنني لا أنفر من الأفلام البوليسية قدر نفورك من الأفلام الرومانسية، حتى إنني كنت أستمتع بمشاهدتها بعض الأحيان.
- ولكنني أذكر أننا شاهدنا بعض الأفلام الرومانسية وأذكر على وجه التحديد فيلم **قصة حب** وكيف تورمت عيناك من البكاء بسبب تأثّرك بأحداثه.
- معك حق ولكننا في معظم الأحيان كنا نقف في صفوف المنتظرين أمام إحدى الصالات التي تعرض فيلماً بوليسياً، كانت أوقاتاً سعيدة، وأذكر أننا بعد انتهاء الفيلم كنا نذهب لتناول المحلبية بنكهة المستكة من عند (محلبية الخزامى)
- وفي الشتاء نشرب السحلب.
- متى كانت آخر مرة ذهبنا فيها لتناول المحلبية؟

حاولت التذكر ولكنني أخفقت.

- منذ وقت طويل.

دمدمت.

- ما رأيك أن نذهب الآن؟
- فلنذهب- وافقت على اقتراحها- فكرة رائعة.
- هل نذهب إليه؟

وأومأت برأسها نحو (قصر المحلبية) القريب منا

- حسناً.

لم يكن المكان مزدحماً وقد اخترنا طاولة توزعت حولها أربع كراسٍ في إحدى الزوايا، وبعد لحظات أقبل نحونا النادل بثيابه البيضاء وسألنا

بأدب جم عما نريد.

- ألديك محلبية بنكهة المستكة؟
- للأسف سيدي المحلبية لدينا بلا نكهات إضافية.

نظرت إلى كولريز بخيبة، ولكنها لم تكن تبدو مستاءة مثلي من الأمر.

- حسناً لا مشكلة، أحضر لنا المحلبية العادية.

وبعد أن سجّل النادل طلباتنا وابتعد، تطرقت كولريز إلى الموضوع الذي كنت أخاف الخوض فيه طوال هذا الوقت.

- جاء نهاد اليوم إلى المتجر.
- أعلم - قلت متصنعاً اللامبالاة- لقد حدّثني عبر الهاتف حول كنعان وفكرة المعرض التي أصبح مهووساً بها.
- كان برفقة امرأة روسية...
- أتعنين كاتيا؟
- أجل كاتيا
- إنها عشيقة كنعان.
- نهاد أخبرني بالأمر، إنها امرأة جميلة جداً.

حاولت ألا أولي كلامها أي أهمية

- ما رأيك بشرب فنجان قهوة تركية بعد أن ننتهي من المحلبية؟

أومأت برأسها موافقة واستمرت في الأسئلة

- وهل كنعان جاد؟

كان من الواضح أنها لن تتخلى عن هذا الاستجواب حتى تحصل على ما تريد

- في أي شيء؟
- في علاقته بكاتيا، أهي علاقة عابرة مثل بقية العلاقات في حياته، أم أنه ينوي الزواج بها؟

تناولت إحدى قناني المياه المعدنية الموضوعة على الطاولة

- لم نتحدث حول الموضوع- وأكملت وأنا أفتح غطاء القنينة- ولكن من الواضح أن علاقته بها لا تشبه علاقته ببقية النساء اللواتي تعرف عليهن من قبل، يبدو أنه مغرم حقاً بها هذه المرة.

ملأت كأْسَيْنا بالمياه متمنياً انتهاء هذا الاستجواب.

- وهل سيكون سعيداً معها؟
- وما أدراني يا حبيبتي؟ أنت تعلمين أن كنعان رجل لا يحب الاستقرار كثيراً. أما عن كاتيا فلا أستطيع قول شيء عنها لأنني لا أعرف

حولها الكثير، لم نلتقِ إلا مرتين أو ثلاث، وقد كانت معنا البارحة مساءً على العشاء.

وأخيراً تخلصت من عبء الاعتراف، وأخبرتها بطريقة أقل من عادية أنها كانت معي البارحة على العشاء، شربت كولريز القليل من كأسها.

- أعتقد أن علاقتهما لن تستمر.

وأخذت تناقش الموضوع، وتطرح آراءها فيما شربت بعضاً من المياه وأنا أستلذ بطعم النجاة من ذنبي.

- إنها امرأة جميلة جداً، ومن الواضح أنها ذكية أيضاً، ولا علاقة بينها وبين الرخيصات الروسيات اللواتي يتجولن هنا وهناك، ولكن المشكلة تكمن في الاختلاف الثقافي واختلاف العادات والتقاليد بيننا، فأنا لا أظن أن امرأة روسية ستتمكن من التأقلم مع عاداتنا.

بالطبع لم أكن موافقاً على الأفكار التي طرحتها زوجتي، وكنت موقناً من جهة أخرى أن غايتها الأساسية هي استنباط رأيي حول هذه العلاقة، ولكنني حاولت تجنّب الخوض في أي نقاش من هذا القبيل وقلت مهادناً.

- معك حق، من الصعب التأقلم.

كانت ترمقني باهتمام بالغ في محاولة لفهم حقيقة رأيي إن كنت أهادنها للتخلص من هذا النقاش، أم أنني حقاً مقتنع بهذا الرأي. ولكنني حاولت قدر المستطاع أن أبدي الهدوء وعدم الاكتراث.

- لكن كنعان مشغول خلال هذه الفترة بإنهاء المعرض، لذا أظن بأن فكرة الزواج غير واردة حالياً.

ظلت كولريز ترمقني لبعض الوقت وغيوم الحيرة تغطي سماء وجهها، ولكن بعد أن جاء صحنا المحلبية نسيت الموضوع أو حاولت تناسيه. كانت أهم العبر التي استخلصتها من هذه التجربة تجنب الكذب على زوجتي عندما يكون الموضوع متعلّقاً بامرأة أخرى، وبخاصة إن كانت هذه المراة جميلة، وفيما كنا نشرب القهوة بدأ الجوال بالرنين، إنه كنعان.

كان يخبرني بالمعلومات التي حصل عليها بعد لقائه مع محاميي المتهمين، وقد اتفق مع محامي يونس كولوكجو على زيارة السجن غداً صباحاً، ولكن تاجر المخدرات رشاد جوبور رفض اللقاء خوفاً من أن يكون كنعان يعمل لحساب الشرطة، إلا أن كنعان استطاع إقناع المحامي من أجل أن يقنع هو بدوره موكله رشاد. وقد عرض عليّ كنعان مرافقته إلى السجن إن كنت راغباً في الأمر، وسيتوجب أن ألقاه غداً في التاسعة صباحاً في ساحة تقسيم، حيث علينا التواجد في تمام العاشرة أمام سجن بايرام باشا،

ولم أكن أنوي أن تعرف زوجتي بالأمر.

- حسناً أراك غداً.

حاولت إنهاء المكالمة. ولكن كنعان كان مصراً على المتابعة والثرثرة.

- إن كنت تود المجيء فأنا في الاستديو حالياً برفقة نهاد وكاتيا، نعمل على إنهاء ديكورات مسرح الجريمة الثانية حيث انتهينا من الأولى، وسنبدأ في التصوير، فكما تعلم علينا الانتهاء من الصور في...

في الحقيقة كنت أتحرق شوقاً للتواجد معهم، ولكن كولريز التي أدركت أنني أتكلم مع كنعان بدأت غيوم الشك تغطي مرة أخرى صفحة وجهها، وبدأت نظراتها تراقبني مستوضحة.

- سأوافيكم في وقت آخر، ولكنني متعب وأود الذهاب باكراً إلى المنزل اليوم.

كنت أعلم أن رفضي سيفرح كولريز كثيراً، وبعد أن أغلقت الجوال أردفت.

- ألم نكن سوية منذ ساعات؟ ألا يمل هذا الرجل...

ولكن المحاولة لم تنطلي على زوجتي على ما يبدو

- أنت تحبهما كثيراً أليس كذلك؟

- بالطبع أحبهما، فهما صديقا الطفولة.

- صحيح أن كنعان شخص غريب الأطوار، ولكنهما بشكل عام طيبا القلب.

- أجل، كما أن كنعان وبالرغم من غرابة تصرفاته أحياناً لكنه شخص جيد.

كنت أدرك أن زوجتي لا تميل إلى كنعان كثيراً ولكنها لم تطل النقاش، إلا أنها لو علمت بحقيقة المخاطرة التي سنقبل عليها معاً فستثور ثائرتها بكل تأكيد، لذا كان عليّ فعل المستحيل حتى لا تعرف ما نحن مقبلون عليه.

بعد أن انتهينا من شرب القهوة غادرنا المكان، واتجهت زوجتي إلى مدرسة ابننا فيما توجهت نحو المتجر من أجل إتمام بعض الأعمال المستعجلة. طلبت من جيهان مدير الصالة أن نراجع سوية المبيعات والأرباح خلال الشهور الثلاثة المنصرمة، وبالرغم من الأزمة التي نمر بها فقد كانت المبيعات جيدة، وإن لم تكن أرباحها ستحل مشاكلنا المادية كلها، ولكنها استطاعت أن تشعرنا ببعض الطمأنينة والتشجيع، وبعد أن أنهيت اجتماعي به أخبرت السكرتيرة يشيم بأنني لن أحضر غداً باكراً

بسبب ارتباطي باجتماع عمل وقد أتأخر إلى ما بعد الظهر، وبذلك أصبحت مستعداً للذهاب مع كنعان إلى السجن.

في الصباح التقينا أنا وكنعان أمام ذا مارمريس، وقد حلت محل نسائم البارحة رياح قوية وكانت السماء الرمادية تضفي جواً من التجهّم على ساحة تقسيم، وما إن ركبت سيارة كنعان اللاند روفر السوداء حتى أحسست بضيق يجثم على صدري، على عكس كنعان الذي كان بادي الانشراح، وقد انتهى من تصوير بعض اللقطات البارحة، ولديه جلسة تصوير أخرى اليوم، حيث كانت كاتيا تشرف على تجهيز الديكور في الاستديو بمساعدة نهاد الذي أرغمه كنعان على البقاء مع كاتيا بحجة مساعدتها، على الرغم من رغبته الشديدة في مرافقتنا إلى السجن. كان يحدثني عن الصور التي انتهى منها وأنه سيتمكن من إنهاء الصور في الموعد المحدد في حال لم يواجههم أمر طارئ.

- وإن استطعنا معرفة الفاعل الحقيقي لهاتين الجريمتين إلى ذلك الحين سنكون قد حققنا ما نصبو إليه.

- لا تتسرّع فنحن لا نزال في بداية الطريق.

حاولت أن أنذره.

توقفنا عند أشارة المرور ونظر إلي وهو يقول:

- أنا أستبق النتائج أليس كذلك؟ عليّ أن أعترف لك بشيء، فلولا مساعدتكم لي لما كنت واثقاً إلى هذه الدرجة من أنني سأصل إلى الحقيقة في النهاية، صحيح أنني كنت أدعي عكس ذلك، وكنت أتبجح أمامكم بقدرتي على القيام بالأمر وحدي، ولكنني كنت أحس بخوف داخلي لم أشأ أن تلحظوه، أما الآن وبمساعدتكم أنتم الثلاثة فقد بت متفائلاً بالوصول إلى الحقيقة في أقرب وقت.

- لا تبالغ في التفاؤل حتى لا تكون خيبة أملك كبيرة، فنحن لا نعلم حتى الآن حقيقة ما نحن مقبلون عليه وما سنواجهه، هل أخبروك بما قالته لي ديزى البارحة؟

- أتعني حول نيكولاس فليمل؟

أومأت برأسي إيجاباً فيما انتقلت الإشارة إلى الضوء الأخضر وبدأت السيارة بالتحرك مجدداً.

- أجل فقد نقلوا إلي الحديث الذي دار بينكم بكل تفاصيله، من الواضح أن فليمل هذا كان رجلاً غريب الأطوار.

- وقد عاش حياة اكتنفها الغموض والأسرار، وقد قتلت زوجته على

يد جماعة من الخيميائيين كما يدعي البعض.

- ولكن ديزى غير مقتنعة بوجود جماعة تتبنى هذه الأفكار في الوقت الراهن.

كان كنعان كعادته على الدوام يعرف كيف يصل إلى جوهر المشكلة في كل موضوع.

- أجل وهي ترى أن لا علاقة بين هاتين الجريمتين والخيمياء.

- ربما كانوا من الجماعة اكس؟

- وأنا أيضاً أشاطرك الرأي ذاته، وأظن أن نهاد بدوره يشاركنا وجهة النظر هذه فقد سأل ابنته البارحة عن الرابط بين الجماعتين وحجر الفلاسفة، ولكن بحسب ديزى فلا علاقة تجمع بينهما.

- لنرى ما الذي سيخبرنا به يونس كولوكجو فقد كان على علاقة بالضحية أيسون كوفان، وبالتأكيد فهو يعلم إن كانت على صلة بهذه الجماعات.

- وقد يكون يونس هذا عضواً في إحدى هذه الجماعات.

- ربما.

اكتفى كنعان بهذا الرد، فهو أيضاً لم يكن يريد أن يبتّ في الأمر دون وجود دليل كافٍ.

تلا هذا الحوار بعض الصمت حيث انصب اهتمامنا على متابعة الطريق وبعد تحوّلنا إلى طريق جانبي سألته:

- ما اسم المحامي الذي يتولى الدفاع عن المتهم يونس كولوكجو؟

- جنار إغمان.

- ألم يمانع مقابلتنا لموكله؟

- بالطبع رفض في البداية، ولكن كما تعلم فأنا أيضا محامي بالرغم من عدم ممارستي المهنة، وقد طلبت من السيد جيزمي التدخل لصالحي، أنت تعرفه أليس كذلك فهو من غلطة سراي.

- أعرفه بالطبع.

- لقد كان صديقاً مقرّباً لوالدي وهو يحبني كثيراً، وعندما حدّثته عن الأمر وافق على مساعدتي واتصل بجنار لإقناعه، وعندما علم الأخير بأنني على استعداد لأن أدفع له كافة تكاليف القضية - ذلك أن يونس لم يعطه حتى الآن سوى مبلغ بسيط مما تم الاتفاق عليه بينهما - وافق على الفور.

- ألم يسألك عن سبب اهتمامك بهذه القضية ورغبتك في الخوض

فيها؟

- لم يدقق كثيراً عندما رأى النقود، كما أنه ارتاح عندما أخبرته بأنني أشاركه الرأي ذاته حول براءة موكله، وأن هناك رابطاً يجمع بين الجريمتين وأنهما حدثتا من قبل الشخص ذاته.

- أهذا ما نعتقده حقاً؟

- بالطبع وإلا لما سنتكلف عناء البحث عن الحقيقة؟

- أنا لدي شكوك لا أكثر.

نظر إليّ للحظات ثم عاد للانتباه إلى الطريق

أما أنا فأتوقّع أن تتحول هذه الشكوك إلى يقين، وستتأكد بنفسك عندما نقابل يونس ونحصل منه على معلومات جديدة.

- إن شاء الله- أجبته وعدت بدوري أتابع الشريط الأسفلتي الممتد أمامنا.

كان المحامي جنار ينتظرنا أمام باب سجن بايرام باشا، كان رجلاً قصير القامة يميل إلى البدانة، وكانت صلعة رأسه تشير إلى تصحّر مبكر على الرغم من أنه لم يكن متقدماً في السن. استقبلنا بودّ واحترام باديين، وقد سمح لنا الحراس المسلحون باجتياز البوابة الرئيسة وفُتحت الأبواب الداخلية للسجن.

كان ممر السجن بأضوائه الصفراء يوحي بقسوة أكثر بكثير من الرياح العاصفة في الخارج، ومع أول خطوة في ممر الآلام هذا انتابني شعور غريب، كان مزيجاً بين الخوف والانفعال. الألم والمعاناة والعجز، الجدران السميكة، الإضاءة الموحشة، الأسلاك الحديدية، أبراج الحراسة، الوجوه الكالحة، النظرات المتعبة للحرس وهم يتابعون تحركاتنا. التواجد في هذه المساحة الضيقة طوال أيام وشهور وسنوات وربما عمر بأكمله. فراق من نحبهم؛ بورج، كولريز... الانصهار ضمن هذه الكثافة الذكورية القاسية والتحول إلى مجرد رقم، وعدم القدرة على الخروج متى شئت، والانتظار المرير، انتظار الأحبة، انتظار الحرية، انتظار حياة كانت وربما لن تعود... كيف يمكنهم تحمّل كل هذه المعاناة؟ ولكن بالنظر إلى بقائهم أحياء، وقدرتهم على الاستمرار رغم كل هذا الألم فذلك يعني أنه وضع يستطيع البشر التكيّف معه، وبالرغم من ذلك يظل السجن أقسى العقوبات التي اخترعها البشر فقد شعرت في هذه اللحظات القصيرة بهول معاناتهم، وأتمنى ألا يضطر أحد إلى دخول هذا المكان الموحش أبداً، أتمنى ذلك من أعماق قلبي.

كنا نسير نحن الثلاثة، المحامي في المقدمة وأنا وكنعان نتبعه في

صمت مطبق حتى وصلنا إلى البوابة الإلكترونية حيث علينا اجتيازها، وقبل أن نجتازها إلى الطرف الآخر أخذ الحارس المشرف على البوابة هواتفنا النقالة ومفاتيحنا وأي شيء معدني آخر بحوزتنا، وعلى الرغم من ذلك ما إن اجتزنا البوابة حتى بدأت صافرة الإنذار تطلق متحسسة وجود معدن ما، طلب منا الشاب بنظراته الفاحصة المتجهمة أن نتراجع خطوات إلى الخلف حيث أخضعنا لفحص دقيق دون العثور على شيء، وعندما أعدنا الكرة مرة أخرى عادت البوابة للصفير، اضطررنا للتراجع مجدداً حيث طلب مني الحارس أن أفك حزام البنطال ذي الرأس المعدني وطلب من كنعان أن ينزع ساعته.

- عليكم خلع هذه الأشياء والعبور مجدداً.

أطعنا الأوامر وسلّمناه الساعة والحزام واستطاع كنعان العبور بسلام وحين حاولت العبور بدأت البوابة تولول مرة أخرى لسوء الحظ، رمقني الحارس بحدة وظننت حينها أنه سيقول لي إنك لن تستطيع اجتياز البوابة ولكنه بدل ذلك قال لي وسط دهشتي أنا وكنعان

- عليك خلع حذائك.
- عفواً.

أعاد جملته ولكن بضيق ونفاد صبر هذه الكرة

- أخلع حذاءك لتتمكن من العبور.

أجبرتني لهجته الآمرة على التنفيذ حتى لو أتمكن من فهم مقصده، ولكن المفارقة أن البوابة هذه المرة سمحت لي بالعبور دون أي مشاكل وبهدوء تام، وهنا بادر الشاب إلى شرح الأمر بجدية ووقار توحي للسامع بأنه على وشك البوح بمعلومة هامة وخطرة.

- إن جهاز الإنذار حساس إلى درجة كبيرة تمكّنه من استشعار المسامير الحديدية الموجودة في الأحذية.

تركنا الحارس وراءنا ودلفنا ممراً آخر طويلاً

- إن الإجراءات مشدّدة جداً هنا.

علقتُ على الأمر.

- كلها مجرّد مظاهر خادعة، فخلف هذه الجدران تجد كل ما لا يخطر لك على بال من أسلحة ومخدرات وأدوات للعمليات الجراحية وهواتف نقالة وكلها من أجود النوعيات.
- كيف يحدث هذا؟ ألسنا في سجن حكومي؟

تساءلت مصعوقاً.

- بالطبع سجن حكومي، ولكن هذا ما يحدث على أرض الواقع، إنها تركيا يا سيد سليم.

بادرني كنعان بابتسامة العارف ببواطن الأمور واستمرت مناقشتنا أنا والمحامي حتى وصولنا إلى البوابة التالية. خلف هذه البوابة تقع الغرفة التي سنتمكن فيها من رؤية يونس كولوكجو، حيث هناك جدار زجاجي سميك يفصل بيننا وبين السجناء، هناك انتظرنا وصول يونس. ولم يطل انتظارنا كثيراً، فبعد لحظات فتح الباب من الجهة الأخرى للجدار الزجاجي ودخل شاب قصير القامة نحيف بوجه طفولي الملامح، يضع نظارة طبية، قلّص عينيه ليتمكن من رؤية من يقع إلى الجهة الأخرى من الجدار وعندما رأى المحامي رفع يده محيياً.

مرحباً يونس كيف حالك.

بادره جنار بالسلام.

- بخير سيد جنار، وأنت كيف حالك؟

لم يطل المحامي الحديث ودخل في صلب الموضوع على الفور

- هذان هم السادة اللذان حدثتك عنهم وهم يريدون مساعدتنا لإثبات البراءة.

لاحت على وجهه ابتسامة خافتة ولكنها محفوفة بالأمل وهو ينظر إلينا.

- أهلا بكما.

لم أعرف على وجه التحديد ما الذي يجب عليّ قوله. لذا، دمدمت متعلثماً بأول عبارة خطرت ببالي.

- شكراً لك.

ولكن كنعان بالمقابل كان مطّلعاً على أصول التحية في السجن ويعرف ما يجب قوله في مثل هذه الحالات لذا فقد ردّ عليه بالقول.

- بالخلاص إن شاء الله.

من جديد بدت تتراقص على صفحة وجهه ابتسامة حزينة تشوبها سخرية خفية.

- شكراً لك، ولكنني لو اعتمدت عليه فسأمكث هنا طويلاً.

لم يفهم كنعان ما يرمي إليه الرجل

- هذا ما يقال بالعادة.

- أعلم أعلم..

أجاب يونس باستسلام وحزن هذه المرة.

- فنحن هنا ضحايا القدر كما يحلو للبعض أن يسمينا.

ردّ عليه كنعان بذات النبرة الحزينة هذه المرة.

- ولكن الأقدار تتغيّر، وقد نكون وسيلة أرسلتنا العناية الإلهية من أجل هذه المهمة وإظهار الحقيقة، ألا تظن ذلك؟

أجاب يونس بتأثر وإن بقيت ظلال السخرية مخيّمة على صوته.

- لما لا؟- وأردف بنبرة جدية- ولكن لما أنتما مهتمان بهذه القضية؟

وجّه نظر كنعان إلى المحامي نظرة من يقول ألم تخبره بالأمر، فلاحظ السجين وأدرك المقصود.

- لقد ألمح لي السيد جنار عن الموضوع بصورة عامة، ولكنني أود أن أسمع منك أيضاً.

- لنقل إن الأمر مزيج من الفضول والرغبة في الكشف عن الحقيقة. ولكن، ما أود التأكيد عليه هو أننا نقف معك على ذات الجهة.

كان الأمل يتجلى في عينيه هذه المرة أكثر من أي شيء آخر.

- كما قلت لك سابقاً، تستطيع الوثوق بهما.

تدخّل المحامي ليساند كنعان.

صمت يونس للحظات والامتنان يفيض من عينيه القابعتين خلف نظارته الشفافة.

- شكراً لك، فقد أخبرني السيد جنار أنك سددت تكاليف القضية كلها، ولكن ما إن أخرج من السجن سأسدد لك المبلغ كاملاً.

- لا عليك، ما يهمني الآن أن تظهر الحقيقة، وتأخذ العدالة مجراها، فأنا أيضاً محامٍ ولدي بعض المعلومات الضرورية حول هذا النوع من القضايا.

اتجهت نظرات يونس نحوي هذه المرة كمن يتساءل عن موقعي في هذه المعمعة القضائية، ولكن صديقي هبّ لمساعدتي.

- السيد سليم محقّق خاص، وقد أمضى سنوات طويلة في الخارج، ولديه خبرة واضطلاع واسعين على هذا النوع من القضايا والجرائم، وسيساعدنا بخبرته.

أحنى يونس رأسه باحترام هذه المرة وهو ينظر إليّ.

- لقد راجعنا ملف القضية بالكامل- أكمل كنعان- وكلانا نظن أنك بريء من هذه التهمة.

- لا تظنّا - صوّب نحونا نظرات واثقة وهو يكمل - أنا حقاً

بريء من هذه التهمة، لن أدّعي بأنني حمل وديع لم أقم بارتكاب أي إساءة طوال عمري، ولكنني بالتأكيد لم أقتل أيسون، فبالرغم من كل الغضب الذي شعرت به نحوها إلا أنني لم أفكر ولو لحظة واحدة في إيذائها...

ولأن كنعان كان واثقاً من براءة يونس لم يحاول أن يستجوبه مطلقاً، ولكنني لم أستطع البقاء صامتاً هذه المرة لذا بادرت بالسؤال:

- لماذا؟

أجابني على الفور

- لأنني كنت أحبها كثيراً.

بدا عليه التأثر وهو يحدّثني. ولكنه، في ذات الوقت أثار شكوكي من خلال رده المباشر.

- حبّك لها لا يعني مطلقاً البراءة من الجريمة. فقد اتضح في كثير من الجرائم أن الضحية قُتلت بدافع الغيرة على يد الشخص الذي كان يحبّها ويتعلّق بها بجنون مطلق.

لاحت في عينيها تكشيرة استنكار واضحة، ظننت معها للحظة أنه سيبادرني بالقول كيف تتجرأ أن تتهمني بهذه القسوة، ولكنه لم يفعل.

- معك حق فقد سمعت بالكثير من القضايا التي كانت الغيرة دافعها الأساسي، ولكن علاقتي بأيسون كانت مختلفة، فقد اتفقنا منذ البداية على ترك مساحة من الحرية وعدم تقييد علاقتنا بنهاية محتومة وذلك لكي نتمكن من الاستمرار في صداقتنا حتى لو اختفى الحب.

- هل تعني أن علاقتك بها قد انتهت؟

- لا.. ما أعنيه أننا تركنا هامشاً من حرية الاختيار في علاقتنا.

لم أتمكن من فهم ما يعنيه على وجه التحديد، لذا حاول المحامي أن يوضح لي وجهة النظر الغريبة هذه.

- لقد كان الاثنان على علاقة حب ببعضهما منذ أن كانا في المرحلة الثانوية.

- وفي الوقت ذاته كنا صديقين حميمين- أضاف يونس وقد غامت عيناه وبدا صوته يهتز انفعالا وهو يتحدث عن عشيقته القتيلة- في بعض الأحيان يخف زخم الحب مع الوقت، وهذا ما حصل بيننا.

- أهذا يعني أن هذا الإحساس بفقدان الزخم كان مشتركاً بينكما؟

اعترض يونس وقد بدا أنه ضاق ذرعاً بأسئلتي.

- لا- ردّ بجفاء واضح وهو يشير براسه نافياً- سأوضح لك ما

حصل، فقد كانت أيسون من تغيرت في البداية.

- ومن ثم تغيّرت أنت؟

كانت أسئلتي تتالى على مسامع المتهم ومحاميه الذي بدأ يتململ في البداية ولكنه لم يتمكن من إخفاء ضيقه كثيراً.

- سيد سليم لا أعلم ما الذي ترمي إليه من أسئلتك ولكن...

- لو سمحت سيد جنار- تدخّل يونس- أظن أن أسئلة السيد سليم منطقية ولا مانع لديّ من الإجابة. ويسرني أنكما مهتمان إلى هذه الدرجة بأدق التفاصيل، فهذا يشير إلى جدّيتكم في تناول القضية والوصول إلى الحقيقة.

كان من الصعب الجزم حول الحقيقة الكامنة وراء هذا الكلام، هل كانت مناورة أم الحقيقة البسيطة؟

- يسعدني أن يكون هذا رأيك- قلت مطمْئناً- لا نية لنا بمضايقتك أو الإساءة إليك، ولكننا نريد الحصول على أكبر قدر من المعلومات حتى يسهل علينا الوصول إلى الحقيقة.

وافق كنعان أيضاً على كلامي بإشارة من رأسه مؤكداً دعمه لي في هذا الاستجواب.

بدأ الشاب يسرد علينا خبايا قصة عشقه المأساوية. وكان صوته يرتعش من فرط الإثارة، فيما عيناه غابتا في غياهب ماضٍ ليس ببعيد.

- في الحقيقة لم تتغيّر مشاعري تجاه أيسون وكنت على الدوام أعيش رعب فقدانها في يوم من الأيام، هذا الخوف كان يبقي مشاعري متّقدة تجاهها. لذا عندما أخبرتني بأنها تحب كارتال لم أعترض على أمر كنت أتوقّعه، وقد أوضحت لها بأنني سأظل دوماً إلى جانبها أساندها متى احتاجتني بغض النظر عن الشخص الذي ارتبطت به، وعن مشاعرها تجاهي.

وبما أن الحديث بدأ يدور عن الحب والنساء فقد تدخّل كنعان نتيجة لخبرته الواسعة في هذا المجال.

- كم عمرك؟

- ثمانية وعشرون- أجاب الشاب- لماذا؟ هل أبدو أكبر من عمري الحقيقي؟

- على العكس تماماً، فمظهرك يعطي انطباعاً بأنك أصغر قليلاً، ولكن الملفت للانتباه أنك استطعت التصرف بعقلانية وهدوء يتطلبان نضجاً ووعياً عميقين.

- أوافقك الرأي فقد تصرّف يونس بطريقة هادئة سمحت باستمرار الصداقة بينه وبين أيسون بعيداً عن انفعالات الغيرة ومشاكلها الخرقاء.

أضفت بدوري.

- حقاً؟

تساءل بسخرية لم يحاول إخفائها.

- ولكن النتيجة كانت خسارتي للفتاة التي أحبها ولحريتي، ناهيك عن اتهامي بجريمة قتل لا علاقة لي بها.

لقد كان أذكى مما توقعته، ولكنني لضيق الوقت لم أحاول أن أناقشه أكثر من ذلك، فاستلم كنعان عني إكمال الأسئلة.

- قيل إنك كنت في منزلها يوم وقعت الجريمة.

- أجل كنت هناك، فبعد مقتل كارتال انهارت أيسون وجن جنونها، وكنت أحاول البقاء معها ومواساتها قدر استطاعتي، فقد كانت في باريس عند مقتل كارتال، لذا، توجب عليّ أن أنقل لها هذا الخبر بنفسي. ذهبت لاستقبالها في المطار، وأخذتها بعد ذلك إلى المقبرة أيضاً، لقد كانت مصدومة من هول الفاجعة، وفي يوم مقتلها أيضاً ذهبت لزيارتها والاطمئنان عليها. كانت قد تمالكت نفسها بعض الشيء، واستردت هدوءها قليلاً، وكانت تناقشني حول القاتل، وقد عقدت العزم على العثور عليه، بينما حاولت الترويح عنها وتهدئتها، وبعد ساعتين تقريباً تركتها وذهبت إلى المدرسة، وليتني لم أذهب لأنها قتلت بعد ذهابي بوقت قصير.

- أتعني أنها كانت تريد معرفة قاتل كارتال؟

سألته.

- لقد كانت مشوشة الذهن حينها، ولكنها تشك برشاد جوبور وبشخص آخر لم تفصح لي عن هويته وحين ألححت عليها بالسؤال أجابتني بأنها قد تكون مخطئة فمن المستبعد أن يكون هذا الشخص قاتلاً.

- أتعني أنك سألتها عن هوية الشخص الآخر ولم تخبرك عنه؟

- لم تخبرني.

يبدو أننا وصلنا إلى مرحلة مفصلية ومشوقة في الحوار، لذا سألته بفضول.

- أليس لديك فكرة عمن يكون هذا الشخص؟

أجابني على الفور

- للأسف لا، فعلى الرغم من رغبتي ومحاولتي التواجد معها باستمرار، لكن كان لها حياتها وعلاقاتها الخاصة بها، وأنا أيضاً كان لديّ

عملي وصداقاتي بالإضافة إلى أبحاثي المكثّفة في الجامعة، لذا لم تكن لديّ فكرة كافية عن الأشخاص الذي تعرفهم وتلتقي بهم أيسون.

لقد ضاع الأمل الذي لاح للحظات مع كلمات يونس ولكنني بالرغم من ذلك تابعت طرح الأسئلة

- كيف كانت علاقة أيسون بالآخرين، هل كانت ودودة أم عصبية تفتعل الشجار وتخلق الأعداء؟

- لم تكن أيسون فتاة تعير الآخرين اهتمامها، كما أن الجميع كان يعتبرها- وخاصة في الفترة الأخيرة- غريبة الأطوار حتى إن البعض اتهمها بالجنون، وكان من المقرر أن يفصلوها من العمل نهاية الفصل الدراسي، وهي بدورها لم تولِ هذه الشائعات أهمية ولم تبذل أي مجهود لتحسين صورتها، وكانت تقول إن لديها خططاً خاصة مع كارتال ستمكّنهما من بلوغ ثروة طائلة.

كنت أهمّ بالسؤال حين سبقني كنعان

- كيف تعرّف كارتال وأيسون إلى بعضهما؟

- كنت حاضراً حين تعرفت عليه فقد اصطحبتها إلى المشرب الأسود بمناسبة ذكرى ميلادها، كانت أيسون تهوى موسيقى الروك بكل أنواعها، وكان كارتال عازفاً في الفرقة التي تعزف في ذلك المشرب، وقد أحبت الفرقة بشكل كبير حتى إنها أغرمت بأحد أعضائها لدرجة أنها قد تكون ماتت جراء هذا الغرام.

ران صمت ثقيل للحظات على الجانب الآخر من الحاجز الزجاجي

- أتعتقد أن أيسون قتلت بسببه؟

كسرت الصمت بسؤالي.

- ما من احتمال آخر، فأيسون لم يكن لها أعداء يصل بهم الحقد إلى درجة قتلها، كما أن كارتال كان مدمن مخدرات، وكان منغمساً في أجواء مشبوهة وقد جعل أيسون أيضاً تشاركه هذه الأجواء.

- هل أنت متأكد مما تقوله؟

- بالطبع، فبعد أن تعرّفت عليه تغيّرت نحو الأسوأ، وبدأت تتعاطى كل أنواع المخدرات من الهيرويين إلى الحبوب المخدرة، وأظن أنها تورطت آخر فترة في بيعها أيضاً.

- تظن؟

- لقد أعلنت لي صراحة تعاطيها الخدرات. لكنها لم تحدثني عن المتاجرة بها، وقد استطاعت الحصول على منحة مجانية من جامعة

السوربون في فرنسا قبل سنة، وسافرت إلى هناك لتبقى مدة ستة أشهر، ولكنها لم تحتمل فراق كارتال. لذا، عادت بعد عدة أشهر، وبعد عودتها لاحظت أنها كانت تحمل مبالغ مالية كبيرة، وقامت باستئجار منزل في منطقة جيهان غير، وسددت أجرة سنة مسبقاً لصاحب المنزل، وعندما سألتها عن مصدر كل هذه النقود قالت لي أنها تعمل لصالح شركة فرنسية وتجري بعض الأبحاث، وقد كانت تسافر إلى هناك بين الحين والآخر، وأظن أنها كانت تقوم بتجارة المخدرات، وعلى الأرجح أن هذا هو السبب المباشر لقتلها أيضاً.

- أتعني أنك تتهم رشاد جوبور بالجريمة؟

- لا أعلم على وجه التحديد إن كان رشاد أو سواه، لكنني متأكد بأنها قتلت بسبب هذه المخدرات اللعينة.

- ألم تحذّرها؟

- بالطبع حذّرتها مراراً وتكراراً، حتى إننا تشاجرنا أكثر من مرة بسبب هذه المشكلة، وبقينا متخاصمين لفترة، ولكنها للأسف لم تعر تحذيراتي ومحاولاتي لردعها أي أهمية. وعندها أدركت أن انقطاعي عنها سيزيد الوضع سوءاً لذا اتصلت بها لأطمئن عليها، وقد كانت حالتها مزرية، فبذلت كل ما بوسعي لمساعدتها، وبالفعل تمكنت بعد مدة وجيزة من أن تخفف الجرعات التي كانت تتعاطها، وكان من الممكن أن تتوقف عن التعاطي بصورة نهائية، لكن كارتال بتأثيره المسموم عليها، كان يعيدها إلى الوراء، وقد كانت مستعدة للتخلي عن المخدرات. ولكنها لم تستطع التخلي عن كارتال- كان يتحدث كمن يكلّم نفسه وقد نسي وجودنا- يبدو أن النساء لا يحبذن الرجال الأسوياء، فكلما ساءت معاملة كارتال لها كلما تعلّقت به أكثر.

- أتعني أنه كان يضربها؟

- على الدوام وخاصة عند انتهاء جرعته من المخدرات، حينها كان يفقد السيطرة على نفسه ويضربها بقسوة متهماً إياها بأنها السبب وراء نفاد النقود.

- ولكنك أخبرتنا منذ قليل بأن أمورها المالية كانت في تحسن ملحوظ؟

- أجل ولكن إدمان المخدرات كما تعلم يستهلك مبالغ طائلة. ففي بعض الأيام كانا يسرفان في صرف النقود، وبعد فترة وجيزة كانت جيوبهما تغدو خاوية. وفي هذه اللحظات، كان كارتال يصب جام غضبه على أيسون.

وقد ذهبت أكثر من مرة لمساعدتها، ومن حسن الحظ أن أيسون أعطتني مسبقاً نسخة عن مفتاح باب شقتها.

- هل كانت تثق بك إلى هذا الحد؟

- لم يكن لديها أحد غيري لتثق به، سوى والدتها المسنة، والتي تقيم في إحدى دور العجزة في مدينة بورصا.

- ألم يمانع كارتال وجود نسخة من المفاتيح معك؟

- كان كارتال رجلاً غريب الأطوار، ففي لحظات صحوه كان دمث الخلق طيب القلب، كما أنه لم يكن غيوراً، وكانت علاقتنا جيدة جداً، فقد كان يعتبرني أخاه الصغير ويعاملني على هذا الأساس.

- هل كان يعيش مع أيسون في المنزل ذاته؟

- كان يعيش في منزله في منطقة تارلي باشي، وذلك حتى يتمكن من التمرن على العزف بمفرده، ولكنه في معظم الأحيان كان يقضي الليل في منزل أيسون.

- إذاً لم يكن شخصاً سيئاً؟- دمدم كنعان قبل أن يكمل- ألم تكن تغار منه؟

- بالطبع كنت أغار منه إلى حدّ الجنون، ولكن ما باليد حيلة، فقد اختارته أيسون وفضّلته عليّ.

- كان وضعاً صعباً بالنسبة لك.

- كان جحيماً لا يطاق في البدايات، ولكنني تعودت مع مرور الوقت، لن أدّعي أن غيرتي اختفت، ولكنني كنت متعلّقاً بأيسون تعلّق الكلب بصاحبه، وكنت مستعداً لتحمّل أي شيء في سبيل البقاء بالقرب منها.

زادت شحنة العواطف المتناقضة في هذه الحجرة التعيسة. لذا، حاولت أن إخراجنا من هذه الأجواء وتحوّلت إلى السؤال الذي ترتكز عليه معظم فرضيتنا.

- هل كان كارتال على علاقة بجماعات كالجماعة اكس أو ذات طقوس غريبة؟

لاحظت أن يونس- الذي كان حتى قبل لحظات متجاوباً معنا ومستعداً للإجابة عن أي سؤال- بدا متردداً.

- أهو سؤال بالغ الصعوبة إلى هذه الدرجة؟

سألته.

- ليس صعباً، ولكنني لا أريد أن يُساء فهمي.

- لا تقلق وقل لنا كل ما تعرفه، وتأكد بأننا لن نسيء فهمك بأي شكل.

طمأنه كنعان.

- لقد كان كارتال يتردد على نفق أكمار في كادى كوي، ربما سمعتما بهذا المكان حيث يجتمع أعضاء الجماعة اكس هناك، كما أنهم يتعاطون المخدرات أيضاً في جلساتهم، وهم يجتمعون في المشرب الأسود أحياناً ويستمعون إلى موسيقى بلاك ميتال.

- وما هو (البلاك ميتال)؟

- إنها نوع من الموسيقى يستمع إليها أعضاء الجماعة اكس، وقد حضرت بعض مناقشتهم عن كتاب المجموعة اكس الأهم هناك.

كانت المرة الأولى التي اسمع فيها بهذا الكتاب.

- أحقاً هناك كتاب مهم لديهم؟

سألته.

- أجل وقد دونه أمريكي يدعى أنطون لا فاي، وهو الكتاب الذي يعتقد به اتباع الجماعة اكس ويعتبرونه كتابهم... وهو يتضمن عشرة تعاليم تخص أتباعه.

- وهل شاهدت كيفية ممارستهم لطقوسهم؟

- إن كنت تعني طقوس الدم وما شابه، فلا وجود لهذا الطقس، ولكنهم يجتمعون معاً وقد كنت موجوداً في إحدى هذه الاجتماعات، كانوا يشعلون الشموع والبخور، ويعزفون أغاني فرقة (البلاك ميتال) ويقرأون من كتاب الجماعة الأهم، ولكن لا تتخلل الطقوس أية إراقة للدماء... ولا يقتلون القطط والعذراوات كما هو شائع عنهم، أعني أنني لم أحضر أياً من هذه الممارسات، ولو كان هناك شيء من هذا القبيل لكانت أيسون حدثتني عنه.

- هل سمعتهم يتحدثون عن شخص يدعى نيكولاس فليمل؟

حاول التركيز للحظات قبل أن يجيب

- يبدو الاسم مألوفاً، من يكون بالضبط؟

- إنه الشخص الذي رسم لوحة الأفعى التي علقتها أيسون في منزلها، وهناك لوحة أخرى له في منزل كارتال.

- أتعني الخيميائي الفرنسي؟ لقد أحضرت أيسون هذه اللوحات معها من فرنسا وكانت تقول بأنه تمكن من الوصول إلى سر الخلود وحجر الخيمياء وأشياء أخرى من هذا القبيل.

- تعني حجر الفلاسفة- صححت له- وماذا كان رأي أيسون حول نيكولاس فليمل هذا؟

- لا أعلم، فلم نتحدث في الأمر من قبل.

- ومن أين أحضرت اللوحات على وجه التحديد؟

- أعقتد أنها كانت هدية من امرأة مسنة من فرنسا، كانت هذه المرأة كاتبة وكانت تدعى كاثرين على ما أظن، لست متأكداً من الاسم، ولكنها على ما أذكر ألفت كتاباً عن سيرة نيكولاس فليمل.

- هل من الممكن أن تكون لها علاقة بالجماعة اكس؟

- لا أظن. أعتقد أنها مجرد هدية بسيطة لا أكثر، كما أنني لا أعتقد بوجود علاقة بين الخيميائيين والجماعة اكس -كانت نظراته تنتقل بيني أنا وكنعان وهو يكمل- أتظنون أن أيسون قتلت من قبل الجماعة اكس؟

- لم أقل شيئاً كهذا- أوضح كنعان- ولكننا نحاول فهم علاقاتهم وتفكيرهم، هل تعرف أحداً من أصدقاء كرتال ممن يتبعون الجماعة اكس بما أنك كنت تتردد معهم إلى اجتماعاتهم في بعض الأحيان؟

هز رأسه نافياً بيأس

- أعتقد أنكما مخطآن، فهؤلاء الأشخاص لا علاقة لهم بمقتل كارتال وأيسون.

- قد تكون مصيباً في هذا الرأي، ولكن ما من ضرر لو تعرّفنا إلى أحد من هؤلاء الأشخاص.

أجبته.

كان من الواضح أنه متردد في هذا الشأن

- لما تخاف؟

حاولت أن أعرف.

- لست خائفاً بالطبع، ولكنني لا أريد توريط أشخاص أبرياء في مشكلة كهذه.

- لن نورّط أحداً في أي شيء، فنحن لسنا من الشرطة، ولن نلقي القبض عليهم، كل ما نريده هو الحصول على بعض المعلومات لا أكثر

بعد لحظات من التردد بدا عليه الاقتناع

- حسناً، هناك شاب يدعى مرسل وهو من أصدقاء كارتال، وهو من كان يقرأ مقاطعاً من كتاب المجموعة الأهم أثناء لقائاتهم، وهو يملك صوتاً ذا تأثير خاص.

- وكيف سنتمكن من العثور عليه؟

- في منطقة بيه أوغلو وفي الطابق السفلي لسوق سوريا المغلق، يوجد متجر يدعى إنجل هيرت لبيع الاسطوانات والأشرطة الموسيقية والقمصان والملصقات الفنية وسواها، ستجدونه هناك.

بعد حصولنا على ما نريده من معلومات، نظر إلي كنعان نظرة توحي بوجوب مغادرتنا فوافقته بدوري، ولكنني وفي آخر لحظة تذكرت أمراً.

- منزل أيسون الذي حدثتنا عنه، ألايزال على حاله؟

- أجل، فقد أخبرتكما أنها دفعت أجرة سنة كاملة.

- هذا يعني أن المفاتيح أيضاً بحوزتك.

أومأ برأسه نحو المحامي.

- لقد سلمتها للسيد جنار.

- المفاتيح معي ويمكنني أخذكما حين تشاءان.

تلقى المحامي جنار اتصالاً من أحد موكليه يطلب منه المجيء على وجه السرعة، وبالرغم من رغبته الواضحة في مرافقتنا إلى منزل أيسون إلا أنه كان مضطراً للذهاب، وبالطبع لم نأسف كثيراً على هذه المصادفة، فبعد أن أعطانا المفاتيح وعنوان المنزل تركنا متجهاً نحو مكتبه، وبدورنا لم نجد صعوبة في العثور على المنزل.

كان المنزل يقع في منطقة جيهان غير في أحد الأزقة، في الطابق السفلي لبناء قديم، ولأن منطقة جيهان غير تختلف عن الكثير من مناطق اسطنبول فهي تتميز بعلوها فقد كانت الشقة تقع على ارتفاع لا بأس به، وفيما كنا نحاول فتح الباب الذي كان على ما يبدو يحتاج إلى الكثير من الجهد حتى يفتح، سمعنا وقع خطوات متثاقلة تتجه نحونا ببطء. وأخيراً، ظهر رجل كبير الرأس على نحو واضح، لا بد وأنه البواب.

- دعني أفتحه سيدي.

وأخذ المفاتيح من كنعان، وبحركة صغيرة واضحة الخبرة من يده فتح الباب على الفور وهبت علينا رائحة نتنة من الداخل.

- لم يدخل أحد الشقة منذ فترة لا بأس بها- أوضح لنا سبب الرائحة- ففي آخر مرة والتي كانت منذ شهرين تقريباً فتحنا الباب حيث جاء زملاء لكما من الشرطة لفحص الشقة ومعاينتها.

كان يظن بأننا من الشرطة ولم يبد كنعان أي نية في نفي اعتقاده.

- هل كنت هنا أثناء وقوع الحادثة؟

- أنا هنا كل يوم سيدي، فهذا عملي ومصدر رزقي.

- أحدث شيء يثير الريبة في يوم وقوع الجريمة؟ هل رأيت أحداً يدخل المنزل أو يخرج منه؟

- لقد رأيت ذلك الشاب، لا أعني ذاك طويل الشعر، بل الآخر ذلك الشاب الخلوق ذا الوجه المشرق آتياً لزيارتها.

- أتتذكر الوقت على وجه التحديد؟

كان كمن ينتظر هذا السؤال بالذات ليبدأ سرد الأحداث كلها بروح طيبة.

- لقد أخبرت زملاءكم الذين أتوا حال حصول الجريمة بكل ما جرى. لا أذكر كم كانت الساعة على وجه الدقة. ولكنه كان يوم جمعة، وكان شيخ الجامع قد بدأ بالخطبة، وكنت أستعد للذهاب إلى جامع فيروز

آغا لأداء صلاة الجمعة، أي أن الوقت كان قرابة منتصف النهار، وفيما كنت أخرج التقيت بالشاب أمام الباب، وقد بادرني بالسلام قبل أن يدخل، كما ذكرت لكما سابقاً كان شاباً دمث الخلق، على عكس الآخر ذي الشعر الطويل- فليرحمه الله- كان يمر متظاهراً بأنه لا يرى أحداً، ولم يكن من عادته إفشاء السلام، أما الشاب الذي رأيته يوم الحادثة كان مؤدباً وأظنه بريئاً من هذه التهمة، كما أن الفتاة- فليتغمدها الله برحمته وعفوه- كانت غريبة الأطوار، وقد أخبرت زوجتي بأن هذه الفتاة ستوقع نفسها في ورطة كبيرة، ولكنها لم تصدّقني. ولكنها كانت فتاة لطيفة وقد كانت في الكثير من الأحيان تساعد ابني وتشرح له دروس الرياضيات عندما يحتاج إلى ذلك، كانت نحيلة القوام توحي بأن ريح الشتاء العاصفة قادرة على حملها كورقة يابسة. وكانت تكثر من الشرب فشقتها كانت تفيض بالزجاجات الفارغة وبقية أنواع المشروبات، وقد كانت معظم الأوقات تعود إلى البيت في ساعة متأخرة، حتى إنني في البداية كنت أظن أن لصاً ما دخل البناء فأخرج للتأكد فإذا بها هي، وقد رغبت أكثر من مرة إسداء النصح لها، لكنني أحجمت عن الأمر خوف أن تسيء فهمي وتنهرني. صدقوني لقد أحزنني مصيرها وأتمنى أن يتم القبض على المجرم الحقيقي. ألم تقبضوا على القاتل الحقيقي حتى الآن؟

- سنلقي القبض عليه قريباً- أجابه كنعان بثقة مفرطة- وشكراً على المعلومات التي أدليت بها، سندخل لإلقاء نظرة.

سرّ البواب لوجود مستمعين مهتمين بقصته فبدا راغباً في سرد المزيد وهو يقول:

- هل يمكنني الدخول معكما؟

عالجه كنعان بنظرة جليدية

- شكراً، دعنا ننهي عملنا.

أدرك الرجل على الفور أنه حان وقت الذهاب.

- حسناً، سيدي كما تشاء، إن احتجتما شيئاً فأنا في الأسفل- ابتسم وهو يكمل- صوت واحد وسأكون هنا.

دخلنا الشقة، وأغلقنا الباب في وجه ابتسامته.

- يبدو أن تقمّص دور الشرطي قد راق لك- علّقت ساخراً- لما لا تنضم إلى سلك الشرطة فأنت تملك شهادة محاماة تتيح لك فرصة القبول.

- دعك من السخرية وإلا سيفتضح أمرنا- ضحك وهو يكمل- من حسن الحظ أنه ظننا من الشرطة، وإلا لما سمح لنا بالدخول، ألم تر كيف

أقبل على الفور عندما سمع وقع خطواتنا؟

وبينما كان كنعان يتحدث، بدأت أتفحص المنزل حيث الضوء المناسب من شقوق الستائر الرمادية يضفي جواً من الغموض على المكان، وكانت اللوحة المنسوخة عن لوحة فليمل الأصلية والتي رسمها منذ ما يقارب الخمسمئة عام والمعلّقة على الجدار، هي الشاهد الوحيد على الجريمة التي حصلت في هذا المنزل القديم، ولكنها كانت شاهداً صامتاً.

الشيء الآخر الذي لفت انتباهي هو الأريكة العتيقة والتي لا تزال تلك البقعة البنية الغامقة تلوّثها. تذكرت وجه الشابة وهي جالسة على هذه الأريكة وقد اخترقت صدرها سكينة المطبخ لتترك عينيها مفتوحتين على اتساعهما دهشة ورعباً. وسط كل هذه الدلائل كان من المستحيل تجنّب رائحة الموت التي تربض في المكان منذرة بالانقضاض علينا في أية لحظة.

- لقد قامت كاتيا بعمل رائع- دمدم كنعان وهو يبحث عن زر الكهرباء، وبعد أن أشعل الأضواء عاد ليؤكد فكرته- أجل لقد تمكنت من تجسيد نسخة مطابقة عن الغرفة.

- معك حق، فقد خيّل لي للحظات أنني أرى جسد الفتاة والسكين في صدرها.

يبدو أنه لم يدرك ما أعنيه بالضبط، وبدأ يتجوّل في الغرفة وهو يقول:

- حسناً، نبدأ البحث لنرى ما يمكننا العثور عليه.

- سأذهب لتفحّص بقية الغرف.

لم يكن المنزل بذلك الاتساع، فخلا غرفة المعيشة التي كنا نقف فيها كانت هناك غرفة نوم واسعة، ومطبخ صغير ضيق، وحمام أكثر صغراً، وضع فيه كرسي المرحاض أيضاً. دخلت غرفة النوم أولاً، كانت غرفة مرتبة، وضعت طاولة بجانب السرير عليها بعض الكتب وملخصات لمحاضرات الجامعة بالإضافة إلى آلة كاتبة قديمة، كانت معظم الكتب عن تاريخ منطقة بيه أوغلو، وعلى الجانب الأيسر مكتبة صغيرة من ثلاثة رفوف ثُبّتت على الحائط، تفحّصت الكتب الموجودة فيها، والتي لم تختلف عن سابقتها خلا بعض الكتب باللغة الفرنسية، ولكن الموضوع المشترك لمعظمها كان تاريخ بيه أوغلو، كما صُفَّت بعض المجلات والتي هي من إصدرات جامعة بوغاز إيجي، وفي الرف العلوي للمكتبة وجدت ألبوماً للصور، كان ألبوماً بلاستيكياً من ذلك النوع الرخيص الذي تقدمه استديوهات التصوير هدية لزبائنها أثناء تحميض فيلم ما، جلست على حافة السرير، وبدأت

بتفحّص الصور الموجودة فيه. أول صورة كانت لأيسون وهي تأكل قطعة بطيخ بشهية كبيرة، كان من الواضح أن الصورة قد التقطت بشكل عفوي، لا أدري لما خطر لي أن من التقط هذه الصورة هو يونس، صورة أخرى لأيسون وهي تقرأ، وصورة وهي جالسة مع كارتال أو بالأحرى جالسة في حضنه والسعادة تشع من عينيها، بينما اكتفى كارتال بالنظر إلى الكاميرا من دون أن يبدي أي انطباع يشي بحالته، بدا جلياً أنه كان صاحب شخصية قوية لا يظهر عواطفه بسهولة، وقد يكون هذا سبب تعلّق أيسون به إلى هذه الدرجة على عكس المسكين يونس الذي كان يلهث وراءها ويبالغ في الإجهار بحبه، على كل أظن أن خير من يحكم في هذه المسائل هو كنعان صاحب الخبرات الواسعة والتجارب العاطفية المتنوعة.

الصورة التالية كانت لأيسون وكارتال ورجل آخر برأس يشبه البطيخ، لم أتمكّن من التعرّف عليه، كانت نظراته تخفي نوعاً من الهلع، يبدو أن من التقط الصورة لم يشعل الفلاش. لذا، كانت الصورة معتمة بعض الشيء، ولكنها التقطت في متجر ما، وفي المرآة التي ظهرت خلفهم تمكّنت من قراءة اسم المتجر الذي ظهر بشكل مقلوب في المرآة ولكنه قابل للقراءة، كانت لافتة إنجل هيرت واضحة، لا بد أن يكون هذا الشخص هو مرسل الذي حدّثنا عنه يونس. حسناً، هذه خطوة جيدة ستسهّل علينا المهمة. تفحصت بقية الصور فلم أجد صورة أخرى لمرسل، كلها كانت صوراً لأيسون وكارتال باستثناء صورة يظهر فيها مجموعة من الشباب ذوي شعر طويل وقمصان سوداء، لا بد وأنهم أفراد الفرقة الموسيقية التي كان كارتال يعزف معها. كانت وجوههم مزينة بأصبغة غريبة وينظرون إلى الكاميرا بتكشيرة بالغوا في إظهارها لسبب لم أتمكن من فهمه. ولكن، أيسون لم تكن معهم. النقطة التي أثارت انتباهي في هذا الألبوم عدم وجود صور ليونس بالرغم من أنه أنه صديقها منذ زمن طويل وكانا متحابين فيما مضى، الصورة الوحيدة التي تظهره، كانت توحي ببؤس موقعه في حياة القتيلة، ففي المقدمة يظهر أيسون وكارتال فيما يبدو رأسه من الخلف كمتطفل على مكان لا يتسع له. تابعت تفحّص الكتب وتفتيش الأدراج حتى إنني رفعت الشراشف والمخدات علني أجد شيئاً تحتها دون طائل، خرجت من الغرفة، ومعي صورة الشخص الذي توقّعته مرسل وعدت إلى الصالون حيث وجدت كنعان جالساً على أريكة تحت لوحة فليمل وهو يقلب صفحات كتاب ما بتركيز شديد.

- ما هذا الكتاب؟

نظر إليّ باستغراب ورفع الكتاب ليريني غلافه الأسود الذي كتبت عليه بحروف كبيرة كتاب المجموعة الأهم.

- إنه كتاب المجموعة الأهم.

دمدمت متفاجأً

- الكتاب الذي حدّثنا عنه يونس، وهو يعود للأمريكي أنطون لا فاي، إنه مؤسس تيار المجموعة اكس.

- أهو باللغة الإنكليزية؟

- أجل..

أغلق الكتاب، ونهض واقفاً، وكأن أسئلتي أفقدته الرغبة في قراءة المزيد، نظر إلى الألبوم الذي معي.

- ما الذي حصلت عليه؟

- أظنني وجدت صورة لمرسل.

قلت وأنا أفتح الألبوم لأريه الصورة، لم يعلّق على الأمر وأشار بيده نحو الرف السفلي لطاولة التلفاز.

- توجد هناك اسطوانات موسيقية وبعض المجلات، أظن أن معظمها يعود إلى البلاك ميتال.

اتجهت نحو الطاولة، وبدأت بفحص الاسطوانات، كانت الكتابة التي على أغلفتها بالخط القوطي وقد تمكنت بصعوبة من قراءة الأسماء الموجودة عليها، ومن بعض الأسماء التي قرأتها: إيمورتال، إيمبيرور، ديمو بورجيك، كريدل أوف فيلث،بروزوم، مايهيم... كانت هذه الفرق الموسيقية التي ألهمت الكثير من الشباب في أوروبا وأميركا لا تعني لي أي شيء مطلقاً، وفيما بعد لاحظت أن جدران المنزل قد زينت بملصقات مشابهة لأغلفة هذه الاسطوانات الموسيقية، لكننا للأسف لم نتمكن من اكتشاف دليل يرشدنا نحو سبيل ما، أشار كنعان إلى الكتاب الذي بيده.

- سآخذه معي، دعنا نذهب فما من شيء لعين آخر في هذا المنزل.

- لا تيأس بهذه السرعة، فنحن لم نفتّش المطبخ بعد، قد نعثر في سلة المهملات على بعض الأوراق أو الدلائل، أو بقايا ملحوظة محترقة، أي شيء قد يساعدنا.

- أهذا ما يحدث في الروايات البوليسية التي تقرأها؟

علّق على كلامي ساخراً.

- أجل هذا ما يحدث بالضبط، دعك من السخرية الآن ولنحاول إيجاد ما يفيدنا.

أطاعني كنعان وذهبنا سوية، قلبنا المطبخ رأساً على عقب من دون الوصول إلى أي دليل، وانتقلت إلى الحمام علني أجد شيئاً.

- سليم- صاح بي من المطبخ- ألم تلحظ أن البيت لديه حديقة صغيرة.

كان واقفاً أمام نافذة المطبخ الصغيرة ينظر إلى الحديقة.

- إذاً؟

- إذاً فهناك باب ما يؤدي إلى الحديقة.

لم أكن متفائلاً جداً بهذا الإكتشاف الجديد، ولكنني أذعنت لرغبته أملاً في الوصول إلى شيء مفيد. عدنا مجدداً إلى الصالون، وبعد لحظات اكتشف صديقي باباً خشبياً خلف إحدى الستائر يؤدي إلى الحديقة، وقد تمكنا من فتحه بسهولة. كان الإهمال واضحاً على الحديقة ففي كل مكان انتشرت الحشائش بصورة فوضوية، وذبلت أصص الأزهار بعد موت الفتاة، كان باباً غير محكم الإغلاق ومن السهل الدخول عبره إلى المنزل، وأعتقد أن كنعان أيضاً خطرت له هذه الفكرة فعلّق على الأمر.

- هذا المنزل ليس آمناً على الإطلاق فبإمكان اللصوص الدخول من هذا الباب الصغير بكل سهولة.

- أتعني أن أحدهم اقتحم الباب؟

اقتربت من الباب لأفحصه، لكنني لم أجد أي أثر يوحي باستعمال القوة عليه أو على القفل ذاته.

- أظنها كانت تعرف القاتل وقد فتحت له الباب بنفسها وسمحت له بالدخول.

تمهّل كنعان مفكراً قبل أن يجيب.

- لست واثقاً من هذه الفكرة، فقد قُتل كارتال قبلها، لذا لا بد أنها شعرت بالخوف، وكانت تتصرف بحذر، كما أنها كانت تشك بشخص معيّن، لذا لا أظنها ساذجة لهذه الدرجة بحيث تسمح له بدخول منزلها.

- ربما اخطأت في ظنونها واتجهت شكوكها وجهة خاطئة.

- قد تكون محقّاً، ولكن دعنا نفترض أن نظريّتي عن الاقتحام صحيحة، وأن المجرم دخل من الحديقة، وحاول فتح الباب الخشبي، وحين رأته أيسون هدّدها بالمسدس الذي بحوزته فاضطرت الفتاة لفتح الباب وإدخاله.

- ولكنك نسيت نقطة هامة، فالفتاة لم تقتل بواسطة المسدس، بل بسكين.
- ذلك لأن المجرم لم يشأ أن يسمع أحد صوت المسدس.
- حسناً، وبِغَض النظر عن صحة الفرضية التي وضعتها، بما ستفيدنا كل هذه الاستنتاجات، إلى أين ستوصلنا؟
- ربما لا تفيدنا الآن، ولكن عندما نعثر على بقية الأدلة ونجمع بقية أجزاء القصة المفقودة، ستفيدنا بكل تأكيد.

مهما كانت الفرضيات وأياً كانت الحقيقة فلا بد أن مؤشراتها غير موجودة في منزل أيسون، لذا خرجنا من المنزل ومعنا كتاب المجموعة الأهم، وصورة الشاب الذي يفترض أن يكون مرسل، وقبل أن نخرج من ممر البناء استدار كنعان فجأة وهو يسألني

- لحظة، رقم المنزل هو اثنان أليس كذلك؟
- أجل

واتجه على الفور إلى علب البريد المعلقة على الحائط، كانت علباً قديمة توحي بِقَدم هذا البناء، وقد محيت أرقام معظمها، وتقشر طلاؤها منذ زمن بعيد.

- انظر إلى العلبة رقم اثنان هناك ظرف أزرق اللون داخلها.

استطاع كنعان بواسطة أصابعه الرفيعة أن يخرج الظرف من العلبة، وقد تملكتنا الإثارة ووصل بنا الفضول إلى أقصى درجاته، ونحن نقرأ الاسم الموجود على المغلف، كان مرسلاً لأيسون كوفان من باريس. أما المرسل فكانت كاثرين فيرجاند، وكان عنوانها عبارة عن رقم لعلبة بريد. نظرنا إلى بعضنا في اللحظة ذاتها، وقبل أن يفتح الظرف منعته.

- ليس الآن دعنا نقرؤها في السيارة.

خرجنا من البناء بسرعة متجهين نحو السيارة، وقد ازدادت سرعة الرياح، وبدأت تعصف بجنون، والسماء بدت مكفهرة غاضبة، فتمنيت أن تمطر الآن حتى تهدأ الرياح من غلوائها.

ركبنا السيارة، وبدأنا بقراءة الرسالة التي كتبت بالفرنسية، لم تكن رسالة بقدر ما هي ملحوظة قصيرة موجهة من كاثرين إلى أيسون وبصيغة أقرب ما تكون إلى الرسمية.

«لم أتلق منك أي اتصال حتى الآن، على الرغم من أننا اتفقنا أنك ستتصلين بي حالما تصلين، وبالنسبة إلى رقم الهاتف الذي تركته لي، فقد اتصلت به كثيراً من دون أن أتلقى أي رد، وكما أخبرتك في باريس هؤلاء

الناس الذين تحدثنا عنهم خطرون للغاية، لذا أتمنى أن تبتعدي أنت وحبيبك من هناك بأقصى سرعة. كان المرحوم والدي يردد مثلاً روسياً قديماً على الدوام، يقول بما معناه أن نترك الماضي مدفوناً تحت حجارته القديمة وأن لا نحاول العبث به. وهذا ما أتمناه منك، فقد بت أشعر بالندم لأنني حدثتك عن ذلك الموضوع، أتمنى أن تتصلي بي في أقرب وقت ممكن فقد بدأت أشعر بالقلق».

قرأنا الرسالة مرتين، وبدا واضحاً أن كلماتها قد أثارت كنعان إلى أقصى درجة فأخذ يلوّح بالرسالة وهو يقول:

- ما رأيك الآن؟ يبدو أننا وصلنا إلى دليل في غاية الأهمية.

حاولت الحفاظ على هدوئي وأنا أجيبه.

- معك حق، يبدو الأمر هاماً، ولكن من تكون كاثرين فيرجاند يا ترى؟

- ألا تذكر المرأة الفرنسية التي حدثنا عنها يونس اليوم، وقال إن أيسون تعرفت عليها في باريس، وأنها ألفت كتاباً حول نيكولاس فليمل؟

- أجل كان اسمها كاثرين.

- إنها المرأة نفسها- قال ذلك وهو يلوّح بالرسالة مرة أخرى- إنها هي بالتأكيد.

- ولكن ما علاقة هذه العجوز الفرنسية بأيسون؟

بالرغم من كل هذه التساؤلات وبالرغم من أن كل الطرق التي كنا نظنها ستفتح أمامنا، بدأت بالتداخل بين عدة بلدان، إلا أن صديقي كان متفائلاً ويتصرّف بطريقة توحي أنه قاب قوسين من اكتشاف الحقيقة، وكان يتكلم بثقة مفرطة

- صحيح أنها فرنسية، ولكن والدها روسي الأصل كما أشارت في رسالتها.

- لا تخلط الوقائع ببعضها البعض يا صديقي، فالمرأة لم تقل أن والدها روسي، بل قالت إن والدها كان يردد أحد الأمثال الروسية، وقد يكون فرنسياً يتقن اللغة الروسية لا أكثر.

بقيت ابتسامة الرضى مرتسمة على وجه صديقي الوسيم وهو يقول:

- بغض النظر، لكن هذه الرسالة قد تكون بالغة الأهمية.

- سنرى، هل هناك رقم هاتف مدون في الرسالة؟

- للأسف لا يوجد رقم لأي هاتف، لا يوجد لدينا شيء سوى رقم علبة البريد.

- إذاً علينا أن نراسلها على الفور علنا نعرف علاقتها بالضحية.

لم يرقه الاقتراح على ما يبدو فقد كان لديه حل آخر.

- سنرى ما يمكننا فعله... أفكر في السفر إلى باريس، فلدي تأشيرة على جواز سفري لمدة سنة، وأستطيع السفر على أساسها وقت ما أشاء.

- أنا أيضاً أستطيع السفر، ولكن دعنا نتريث قليلاً، لا يمكننا السفر بمجرد الاعتماد على هذه الرسالة، فنحن لا نملك عنواناً لهذه المرأة، كما أننا إن سافرنا الآن ستتوقف عمليات التحقيق هنا، وبذلك قد نضيع فرصاً هامة للوصل إلى أدلة جديدة.

- معك حق، علينا أن نتريث وأن نستشير نهاد وكاتيا أيضاً

وضع الرسالة في جيبه.

في الحقيقة كنت متلهفاً مثل كنعان إن لم يكن أكثر منه في الاستمرار في البحث - على الرغم من حرصي على عدم إظهار ذلك أمام كنعان- لذا تخليت عن فكرة الذهاب إلى المتجر وقررت البقاء معه لنذهب سوية إلى الاستديو.

فتح لنا نهاد الباب وقد بدا شديد القلق

- لما تأخرتما هكذا؟

- عليك أن تسألنا عن الأدلة التي تمكّننا من اكتشافها يا صديقي- تابع الحديث وهو يدخل فيما نتبعه.

- لقد علمنا بوجود صديق مشترك بين الضحيتين من المجموعة اكس يدعى مرسل وهو يعمل في متجر للأشرطة الموسيقية، كما أننا وجدنا نسخة من كتاب المجموعة الأهم في منزل أيسون، ورسالة في صندوق بريدها من امرأة فرنسية تحذرها من التورط في مشاكل على قدر كبير من الخطورة، وقد يستدعي الأمر سفرنا إلى فرنسا.

في الصالون كانت كاتيا تتحدث مع مهندس الديكور أرسين، لم تبالِ بمجيئنا، وظلت تتحدث معه، ولم تأتِ إلا بعد انتهائها من عملها. كنت أظنها متلهفة لمعرفة الحقائق التي توصلنا إليها، ولكنها بادرتني بابتسامة فاترة وهي تقول:

- مرحباً.

ثم التفتت نحو كنعان وهي تقول:

- أصبحت ديكورات الجريمة ذات الرمز دال جاهزة، هل تريد البدء بالتصوير؟

كانت تتحدث بنبرة رسمية توحي بأن ما من علاقة تربطها بكنعان

سوى علاقة العمل الذي أجبرت على القيام به.

- تريّثي قليلاً يا كاتيوشتي، وأمهلينا بعض الوقت لنرتاح، فقد نال منا التعب بعد هذا التجوال بين السجن ومسرح الجريمة- أجابها صديقي بودّ بالغ بعيداً عن التكلف الذي تحدثت به.

- عذراً، كنت أظن انغماسك في هذه المغامرة مجرد تسلية لتمضية الوقت.

من الواضح أنها لا زالت مترددة بشأن الانضمام إلينا.

- ليست لتمضية الوقت، على العكس من ذلك فالأمر يتطلب الكثير من الجهد- ثم نظر إليّ وهو يكمل- ألم تشعر بإحساس غريب يتملكك عندما كنا نتحدث مع يونس، وبعد ذلك عندما دخلنا منزل أيسون؟

لم تعِ كاتيا ما يقصده صديقي على وجه التحديد ولم تمنحه الفرصة ليوضح كلامه، بل تابعت هجومها.

- بالطبع سينتابك هذا الشعور، فهناك لا يوجد ممثلون وديكورات ستزال بعد الانتهاء منها، إنهم مجرمون حقيقيون، وضحايا من لحم ودم.

- أجل هناك تصدمك الحياة بكل قسوتها، ولكنني لم أصب بالذعر كما تظنين، بل على العكس زاد فضولي لمعرفة الحقيقة- وأوضح لي- الآن يمكنني فهم شغفك بالقصص البوليسية.

- تتحدث وكأنني أنا الذي أقنعتك بالانخراط في هذه المعمعة، أرجوك لا تحمّلني ما لا ذنب لي فيه.

- لم يعد يهمّ من يتحمل مسؤولية هذا الجنون، فالخطر محدق بكليكما الآن.

- عدنا إلى خوض هذا النقاش الذي لا طائل منه مجدداً؟ كنت أظن أننا حسمنا الأمر اعترض كنعان هذه المرة.

- لم نحسم شيئاً.

ردّت بحدّة، وقد بدأت شفتاها الناعمتان ترتجفان من شدة انفعالها فيما كانت عيناها الجميلتان تتلظيان غضباً، لم أتصوّر أن هذه الحسناء تستطيع الوصول إلى هذه المرحلة من الغضب، وأن يتشوه وجهها الجميل بكل هذا الحنق والغيظ، لكن نهاد أوضح لنا سبب كل هذه الثورة.

- لقد رأت كاتيا كابوساً سيئاً، وعندما استيقظت ولم تجدك بالقرب منها تعاظمت مخاوفها وما زاد الأمر سوءً أنها حاولت الاتصال بكليكما فكان هاتفاكما النقالين مغلقين.

- شعرت بهلع كبير، لما كان هاتفاكما مغلقين؟ لو حدث مكروه كيف كنا سنتمكن من التواصل معكما؟

حاول كنعان تهدئة الوضع.

- أعتذر حبيبتي، فقد كنا مجبرين على إغلاق هواتفنا عند دخول السجن، ونسيت أن أعيد تشغيله في خضم الأحداث والمفاجآت المتتالية التي صادفتنا بعد ذلك، لم يخطر ببالي أن الأمر سيسبّب لك كل هذا القلق والخوف.

- كان يجب أن يخطر لك، فالأمر بالغ الخطورة وأنتم تتعاملان مع المجرمين والقتلة- ثم صوبت نظراتها النارية نحوي وهي تكمل- لا فائدة من لوم كنعان فهو غير مبال على الدوام ولكن ماذا عنك ألم يخطر ببالك أن تعيد تشغيل هاتفك؟

- لم أشأ أن يتصلوا بي من المعمل فأضطر للذهاب، لذا أبقيته مغلقاً.

أوضحت لها.

لكن صديقي الذي أدرك جدية الموقف حاول أن يبتسم ليخفّف من حدة التوتر وهو يقول:

- حسناً، عزيزتي لقد قضي الأمر بسلام.

- لقد رأيت كابوساً فظيعاً، رأيتهم وهم يقتلونك، وعندما استيقظت لم أجدك بالقرب مني، حاولت الاتصال بك لكن هاتفك كان مغلقاً، ما الذي ستشعر به لو كنت مكاني؟

- حبيبتي أعتذر حقاً على ما سببته لك من رعب.

قال ذلك وهو يحتضن كاتيا.

قاومت كاتيا في البداية، ولكنها أذعنت بعد لحظات، ووضعت رأسها على صدر كنعان الذي طبع قبلة مدوية على شفتيها، مما جعلها تحمرّ خفراً وهي تلتفت إلينا، ولاحظت أن راسين ومساعده يتابعان المشهد العاطفي بين العاشقين مثلنا. جلست على أقرب أريكة فيما بقي نهاد واقفاً بالقرب منهما منغمساً في متابعة ما سيجري بينهما، ثم التفت نحوي وهو يستغرب لامبالاتي اتجاه كل هذا الدراما، ولأزيد استغرابه متعمداً واصلت لامبالاتي وأنا أقول:

- لما لا تجلس؟

وأشرت إلى الكرسي القريب مني، نظر إليّ في البداية متردداً وعندما أدرك أن وقوفه على هذه المسافة القريبة من العاشقين ليس من باب

اللياقة، أطاع وجلس بتثاقل، ولكنه ظل مصراً على الدفاع عن كاتيا وتأجيج النقاش الذي بدأ يخبو.

- المسكينة كاتيا كانت شديدة الجزع ولم تهدأ حتى لحظة دخولكما.

أعلم تماماً ما الذي دفعه إلى محاولة التحريض هذه، فلو اصطحبناه معنا لما أبدى كل هذا الحرص في الدفاع عنها بل على العكس، كان سيقف في الطرف الآخر بكل تأكيد.

- ولكنكم أنهيتم تجهيز الديكور.

- حاولنا أن نشغل أنفسنا بالعمل بدل الجلوس عاجزين والقلق ينهشنا، كما أن راسين وفريقه أتوا منذ الصباح من أجل البدء بالعمل.

وفيما نتحدث أدرك كنعان أن اجتماعنا هكذا وسط مكان العمل غير ملائم، لذا اصطحب كاتيا إلى الباب وهو يقول:

- هيا بنا يا حبيبتي- ثم اتجه نحونا- دعونا نذهب إلى الصالون الآخر.

لكن راسين ومساعده ظلا واقفين لا يعلمان بالضبط ما الذي عليهما فعله، هل يكملان العمل أم ينضمان إلينا، فبادر نهاد إلى التوضيح:

- ما رأيكم أن نكمل العمل بعد تناول الغداء؟

وهكذا اتجهنا جميعاً نحو الصالون فيما كاتيا التي هدأت كلمات كنعان من روعها بدأت بسرد الكابوس الذي رأته على مسامعنا.

- كنا في الاستديو نصور مشهد مقتل كارتال غوكر.

- لكننا انتهينا من تصوير هذه الجريمة.

- هذا ما رأيته، كنا قد أنهينا تجهيز الديكور، وكانت الإضاءة والكاميرات كلها جاهزة من أجل بدء التصوير، وكنا نستمع إلى معزوفة سيرغي بروكوفييف (رقصة الفرسان)، والتي استمعت إليها منذ أيام في منزلي وأعجبتك كثيراً، كنت واقفاً خلف الكاميرا وتصوّر لقطات متعددة من مختلف الزوايا وأضواء الفلاش تومض بشكل متواصل. وبعد لحظات، توقفت عن التصوير وأنت تقول: «حسناً، أظننا سنكتفي بهذا القدر»، ومن ثم اتجهت نحو الشاب الذي يجسد دور الضحية، وطلبت منه النهوض لانتهاء التصوير، وفي تلك اللحظات التفت نحو الشاب لأدرك وسط ذهولي أنه ليس ممثلاً، بل كان الضحية الحقيقية.

- تعنين كارتال غوكر؟

- أجل، كان الشاب الذي قتل بواسطة التمثال الذي هوى على

رأسه، وهو ذات الشخص الذي تحاولون كشف هوية المجرم الحقيقي في قضيته.

- ثم؟

- عندما عرفت أنه الضحية الحقيقية أصابني ذعر لا يوصف، ولكنك بقيت غير مدرك لغرابة الموقف، وأخذت تقترب منه وأنت تقول: «هيا انهض لقد انتهينا من التصوير». وأمسكتَ بذراعه من أجل مساعدته على النهوض، ولكن الجسد ظل جامداً لا يتحرك. اتجهت نحوي وأنت تسألني «ما به لا يتحرك؟»، حاولت أن أخبرك أنه ميت بالفعل، لكنني لم أتمكن من النطق بهذه الكلمات وتحذيرك، لذا التفتَ نحوه مرة أخرى، وأخذت تقترب منه، وفي تلك اللحظة تغيّرت ملامح وجهه بشكل مرعب، ونهض فجأة وحمل التمثال الذي قُتل به ورفعه بكل قوة وهوى به على رأسك، فسقطت من فورك على الأرض، وجلس الشاب على صدرك، وأخذ يهوي بالتمثال على رأسك من دون توقّف وسط رعبي وهلعي، حاولت أن أصرخ، ولكن صوتي لم يسعفني، حاولت التحرك أيضاً، ولكن جسدي بقي مسمّراً في مكانه وأنا أشاهد ما يفعله بك. بعد أن تأكد من أنه قام بقتلك، نظر إلى يديه اللتين كان الدم يقطر منهما، ثم مسح بهما شعره، ورفع رأسه يتطلع فيما حوله وحينها أدرك أنني واقفة هناك أراقب كل ما قام به، فنهض ببطء وبرود واضحين واتجه نحوي وبدأت عيناه تومضان تماماً كأضواء فلاشات الكاميرا، كان يقترب مني بهدوء، وأنا أراقبه وسط ذعري، ولا أتمكن من تحريك جسدي، ومع كل رفة جفن كانت الأضواء تغمر المكان وتختفي، تتناوب الظلمة والنور تبعاً لرمشة عينيه المخيفتين، حاولت أكثر من مرة أن أتحرّك أو أهرب لكن من دون طائل، لذا استسلمت لرعبي، وبقيت أنتظر نهايتي المحتومة مع كل خطوة تقترب مني، رفع التمثال مرة أخرى ليهوي به على رأسي، فأغمضت عينيّ، وعندما فتحتهما مجدداً استيقظت ولم أشاهدك بالقرب مني.

- حقاً إنه كابوس مرعب.

قال مواسياً وهو يضم يديها وسط كفيه محاولاً التخفيف عنها.

- لكنني لم أشأ أن أوقظك في هذا الوقت الباكر، لذا تركتك نائمة وخرجت.

وفيما هما يتحدثان كنت ونهاد نقف في وسط الغرفة، فانتبه كنعان للأمر وأشار إلينا بالجلوس.

- لما لا تجلسان؟ ما رأيكما أن نتناول وجبة لذيذة تذهب عنا

الكدر الذي أيقظه هذا الكابوس؟ ماذا ترغبان أن نأكل؟

لم تكن بي رغبة في الأكل بعد ما روته لنا كاتيا، لذا بقيت صامتاً وتركت الأمر لنهاد.

- هناك مطعم يقدم أطباقاً رائعة من الكفتة في شارع كورابية.
- لقد وصلنا للتو ولا رغبة لي في الخروج مجدداً من أجل الطعام.

اعترض كنعان.

- ومن قال لك إن علينا الخروج، سنرسل مساعد راسين ليحضر لنا الوجبات ويأتي.
- أنا موافق.

قال كنعان.

- وأنا أحب الكفتة.

أيدته كاتيا بدورها.

لم أعترض على ما اقترحه البقية فخرج نهاد ليرسل الشاب لإحضار الطعام، فيما اتجه كنعان إلى الحمام وبقيت أنا وكاتيا بمفردنا، ولكنني واصلت الصمت.

- تبدو شارداً.

علّقت كاتيا.

- أنا متعب قليلاً.

اعتقدتْ أنني انزعجت من حديثها السابق.

- اعتذر لأنني بالغت في ردة فعلي منذ قليل، ولكنني كنت خائفة جداً.
- أنت محقّة في خوفك، فنحن لا نعلم ما الذي قد نصادفه.
- إذاً لما وافقت على مساعدة كنعان؟

قالت ذلك وهي تحدق إليّ.

- لقد ناقشنا هذا الموضوع من قبل، وأخبرتك أن كنعان مصرّ على مواصلة هذا التحقيق سواء شئت أم أبيت.
- أعلم، ولكنني أعتقد بأنك استسلمت بسهولة لرأيه.
- لم استسلم لشيء.

بدا صوتي أكثر حدة مما رغبت.

- ولكنني لن أترك كنعان بمفرده بعد أن وصل الأمر إلى هذا الحد.

كانت عيناها الجميلتان تواصلان التحديق وهي تحدثني.

- هذا ما لا أستطيع فهمه، كيف تقبل أن تخوض أمراً تعلم أنه خاطئ.

- خوفاً على صديقي من الخطر.

- ولكن الخطر في هذه الحالة سيلحق بكما.

- أحياناً لا مفر من المخاطرة.

- أيتوجب عليّ أن أنضم إليكما أنا أيضاً؟

- لا أنت تفعلين الصواب ببقائك بعيدة، ولكنني أنا ونهاد لا نستطيع أن نتخذ القرار ذاته، لو كنت تركية الأصل لأدركت بصورة أوضح حقيقة هذا الالتزام، إنها مسألة مرتبطة بالثقافة الاجتماعية نوعاً ما.

اختفت الحدة من نظراتها.

- لا أريدك أن تسيء فهمي، ولكنني أحاول منعه خوفاً عليه، وعلى الرغم من ذلك يراودني إحساس ما بأنك لو بقيت مصراً على الرفض لما تجاسر كنعان على المضي في هذه المجازفة.

- أنت تبالغين في تصوّر قدرتي على التأثير عليه، فقد بدا كنعان بتنفيذ فكرة المعرض على الرغم من اعتراضي، كنعان شخص عنيد لا يثنيه شيء عن المضي فيما عقد العزم عليه.

- ما الذي سأمضي فيه؟

عقب كنعان على آخر جملة لي، وقد استعاد نشاطه وحيويته بعد أن عادت الأمور إلى مجراها بين العاشقين

- ألا زلت مصراً على تأليب حبيبتي عليّ؟

قال مازحاً.

لكن كاتيا لم تدرك أنه يمزح.

- لا يا عزيزي سليم لا دخل له، فأنا من بدأت الحديث عنك.

راقت لي سذاجتها المحببة هذه لذا، انضممت إلى صديقي في إتمام المزحة، وقلت بحدة مصطنعة.

- أجل لقد كنت أتحدث عنك، وأخبرها بأنك شخص عديم النفع والمسؤولية لا تبالي بأحد ممن حولك. أتستطيع أن تنكر ذلك؟

وللحال تنازل عن موقفه كمن خاف من الاصطدام بي وهو يقول:

- هوّن عليك يا صديقي، فأنا لا أريد أن افتعل شجاراً وأنت بهذا المزاج الحاد.

ولكن الحسناء أدركت أننا كنا نمزح لا أكثر لذا علّقت ضاحكة:

- ظننت للحظة أنكما ستتشاجران، أنتما مخادعان حقاً.

- هذا الاثنان لا يمكن أن يتشاجرا.

انضم إلينا نهاد أيضاً وبهذا اكتمل الرباعي المغامر، ولكنه انتقل فوراً إلى موضوع التحقيق الذي ظل يشغل ذهنه.

- حدّثوني عن هذا الذي يعمل في متجر الأشرطة.

قررنا الخوض مجدداً في الحديث على الرغم من أن كاتيا بدت منزعجة لمعاودة هذا النقاش.

- سنذهب لمقابلته والتحدث إليه قريباً، ولكن الأهم ما سيخبرنا به رشاد جوبور تاجر المخدرات المسجون. فخيوط الجريمة تشير إلى تورّطه في شيء لا ندري كنهه بعد، وقد يكون هذا سبب رفضه التحدث إلينا.

- لا عليك سأجد طريقة لإقناع محاميه، وبالتالي إقناعه هو أيضاً بالتحدث معنا، ولكن ماذا عن هذه المرأة الفرنسية؟

تساءل كنعان.

أجبت على الفور

- علينا أن نراسلها، وإن لم نتلق رداً حينها قد نضطر للسفر إلى فرنسا، ولكن لا ضير من المحاولة أولاً. وفي هذه الأثناء سنقوم بتقصي بقية الحقائق، علينا أن نقابل مرسل ونكتشف المزيد عن المجموعة اكس وعلاقتها بكارتال وأيسون، كما يتوجب علينا التحدث إلى رشاد أيضاً في أقرب فرصة.

ولكي أتجنب نظرات كاتيا الاتهامية، توجهت بنظري إلى نهاد وأنا أتحدث، ولكن صديقي الأرعن كان غاضباً من إبعادنا له منذ أول خطوة على هذا الطريق لذا عقب محتداً:

- لن أسمح لكم بالمضي خطوة أخرى من دوني هذه المرة.

لقد نسي نهاد خطورة الموقف، وظن أننا نبعده عن أحد الألعاب المرعبة التي نصادفها في مدينة الملاهي، لذا أراد أن يشارك في هذه التسلية.

- بالطبع سترافقنا، فإن أردنا مساعدة كنعان سيتوجب على كل منا الاضطلاع بمهمة معينة- قلت ذلك وأنا أنظر هذه المرة عامداً إلى كاتيا- عليك أن تتقصى عن هذا المدعو مرسل أولاً- بدأ نهاد بالاستماع إليّ بشغف وترقب وكأنه محارب كُلّف بأول مهمة عسكرية خطرة في ميدان معركة- عليك أن تعرف كل ما يتعلق به، من أين هو وما الذي يبيعه تحديداً ومن هم زبائنه وأصدقاؤه، ومن يتردد على المتجر عادة، ولما اختار ذلك المكان من أجل فتح متجره، فعلى حد علمي لا توجد متاجر من هذا النوع في ذلك السوق تحديداً.

- معك حق، ولكن لا تقلق ستكون هذه المعلومات جاهزة في أقرب وقت.

قال ذلك بكل جدية.

انضم إلينا كنعان في رسم الخطط

- وأنا سأزور محامي المتهم رشاد مرة أخرى، وسأحاول إقناعه من أجل تحديد لقاء قريب معه.

كانت كاتيا تتصنع اللامبالاة وهي تسمع هذا الحديث، وقد انتبه نهاد إلى الأمر.

ألن تساعدينا وتنضمي إلينا؟

- أنا سأستمر في التقاط الصور- كانت غاضبة وتتكلم بحدة واضحة- على أحدنا إتمام فكرة المعرض وإلا سينسى كنعان السبب الأساسي الذي دفعه إلى تبنّي هذه المغامرة المجنونة.

- صدقيني يا عزيزتي أن كل ما أفعله الآن هو من أجل أن ألفت الاهتمام إلى المعرض الذي أنوي افتتاحه.

ولكنه لم يشأ الاستمرار في سوق المبررات حين أدرك أن لا فائدة من ذلك، فحاول مجاراتها.

- ولكنك محقة، فعلى أحدنا إكمال المعرض منعاً لهدر الوقت.

بدا من الواضح أنها راغبة في العودة مجدداً إلى ذات النقاش العقيم لكنني تصدّيت لها.

- حسناً، وأنا سأقوم بكتابة رسالة إلى السيدة كاثرين فيرجاند، لنرى ما الذي ستخبرنا به.

## (24)

عندما عدت إلى المتجر كان الوقت قد تجاوز الثانية ظهراً، وقد وضعت السكرتيرة يشيم لائحة بأسماء المتصلين على طاولة المكتب. لحسن الحظ، لم يكن هناك اتصال هام يستدعي الاستعجال، سوى ملحوظة صغيرة تذكّرني باجتماع الغد صباحاً في المعمل، ولكن ما لفت انتباهي هي ورقة منفصلة دونت عليها أن السيدة ملك اتصلت بي، لذا طلبتها إلى مكتبي على الفور.

- هل جاءت السيدة ملك إلى هنا؟

- أجل سيدي، وكان معها رجل قصير القامة يعقد شعره الطويل في الخلف، وقد أرادت رؤيتك، ولكنني أخبرتها أنك قد تتأخر قليلاً في المجيء.

بعد أن خرجت يشيم بدأت أفكر في السبب الذي دفع ملك للمجيء، فبالتأكيد لن تأتي لأمر إلا وهي تجرّ خلفها مصيبة ما، أمن من المعقول أن تكون ديزى نقلت إليها الحديث الذي دار بيننا عن فيلمل ومعرض كنعان؟ إن حصل ما أتوقعه فسيجنّ جنونها، وستتهمنا بأننا نورّط زوجها في المتاعب بشكل متعمّد، ولكن من ناحية أخرى قد يكون ذلك لصالح نهاد الذي أتمنى أن يبتعد عن هذه المخاطرة ويهتم بشؤونه وبيته، ولكن المسكين لن يتخلى عنا بسهولة، وبذلك سيعاني الأمرين بين محاولات إرضاء زوجته، وسعيه من أجل الاستمرار معنا... يا ربي لا طاقة لي على الاصطدام بملك أيضاً، ألا يكفي أن كاتيا في كل مناسبة تصدّع رأسي بشكواها واتهاماتها لي، ولكنني لا أزال ممتناً أن كولريز لم تعلم بعد، فلو علمت بما نخطّط له حينها سيصبح الوضع كارثياً حقاً.

حاولت أن أبعد هذه الأفكار عن ذهني، لذا أخرجت رسالة كاثرين وقرأتها بتأنٍ لمرتين، ومن ثم كتبت لها رداً أوضحت فيه ما تعرضت له أيسون وكارتال، وأننا نعمل مع الشرطة من أجل الوصول إلى الحقيقة، وطلبت منها أن تشاركنا المعلومات التي تعرفها عن الموضوع، وتطلعنا على المخاطر التي تحدثت عنها في رسالتها، وبعد أن أنهيت الرسالة دخلت يشيم إلى المكتب.

- السيدة ملك وصديقها في الخارج يودان رؤيتك.

- هل أخبرتها أنني هنا؟

- لا سيدي لم أخبرها بشيء بعد.

- وهل عرفت ما الذي تريده مني؟

- كانت تتحدث عن مشروع ثقافي، وأنك ستقوم بدعم مجلة شعرية وأشياء من هذا القبيل

عندها تذكرت الحديث الذي دار بيننا حين رأيتها آخر مرة في المكتبة.

- بالطبع- أجبت بفرح- ولكن ما من داعٍ لأن تراني، سأتحدث مع السيدة فاطمة من قسم المحاسبة في المعمل من أجل أن تخصص مبلغاً مالياً لإصدار المجلة، أرجو أن تخبريهما بذلك.

اتصلت على الفور بفاطمة، وأخبرتها بأن السيدة ملك ستأتي لرؤيتها بعد قليل لكي يتم الاتفاق على المبلغ الذي يتوجب تخصيصه لتكاليف هذه المجلة، وبعد أن أنهيت هذه المهمة شعرت براحة عظيمة، كما شعرت بالأسف لأنني أسأت الظن بديزى، يبدو أن قراءة الروايات البوليسية أكسبتني عادة الشك بكل من حولي، وتوقّع الأسوأ باستمرار، وخاصة أنني الآن أخوض أوحال جرائم أفظع من كل ما قرأته.

بعد أن أدخلت بعد التعديلات على الرسالة وضعتها في ظرف، وحين خرجت من المتجر، ذهبت إلى مكتب البريد في ساحة تقسيم، وأرسلتها بنفسي وقد أخبروني بأنها لن تستغرق سوى بضعة أيام للوصول، بعد ذلك أكملت السير حتى المرآب الموجود بالقرب من مركز أتاتورك الثقافي.

بدأت نسائم منعشة تهب عوضاً عن الرياح العاتية التي كانت تعصف ظهراً، وبدل تلك السماء الرمادية المكفهرة كانت هناك بعض الغيوم التي لونتها شمس الغروب بتدرجات تتراوح بين الوردي وحتى الأرجواني، كان قرص الشمس يستعد للغوص في جوف البحر بهدوء يبعث الراحة والسلام في نفس كل من يشاهد هذه اللوحة الشتائية الجميلة.

في البيت كانت تنتظرني مائدة لا تقل روعة عن منظر السماء الذي ودّعته قبل قليل بجمال ألوانها وتناغمها، وما زاد رونقها تلك الروائح الشهية التي ترافقها.

في الحقيقة كولريز طباخة ماهرة، تتقن إعداد الطعام بصورة رائعة، وهذا ليس رأيي فحسب بل رأي كل من تذوق طعامها على مائدتنا، كما أنه تعدّ فنانة تعرف كيف تمزج الألوان والمذاقات المختلفة بصورة متناسقة، وهي تطبّق القانون الذي كان يعتقد به المرحوم والدي بأن العين تأكل قبل الفم أحياناً، ولكنها اليوم بالذات قد بذلت جهداً مميزاً في إضفاء لمسة خاصة على المائدة. فقد أعدت حساء الطماطم، وطبقاً من الأطباق

المفضلة لدي وهو الكباب يرافقه طبق من الأرز المتبل بطريقة رائعة، وكنوع من المقبلات هناك طبق من الفول المطبوخ بزيت الزيتون والثوم، وسلطة خيار باللبن والنعناع والثوم أيضاً. وكانت المفاجأة هي المحلبية بالمستكة التي لم نتناولها البارحة. يبدو أن صدفة التقائنا يوم أمس، ودخول كاتيا إلى أحداث حياتنا بطريقة ما، قد أجّج جذوة الشغف بيننا مجدداً. لكن لم يكن كل الجالسين إلى المائدة يشاطرني الرأي ذاته في الطعام، فبورج لم ترق له أي من هذه الأصناف، فقد كان يريد طبقاً من الكفتة والبطاطا المقلية، إلا أن زوجتي استطاعت بمهارتها أن ترضي ذوقه أيضاً بطبق صغير من شرائح اللحم المشوحة في المقلاة، وبدل البطاطا المقلية أعدت له البطاطا المهروسة، وقد أرضى هذا الطبق ذوق بورج الذي جلس معنا سعيداً بكأس الكولا التي بين يديه.

كانت كولريز وبورج يتبادلان المزاح والضحك، وأنا أراقبهما بسعادة غامرة، في هذه اللحظة قطعت عهداً على نفسي بألا أسمح لأي شيء أن يغيّر هذه السعادة وهذا السلام.

في اليوم التالي، وفيما كنت متوجهاً إلى المعمل من أجل الاجتماع، اتصل بي نهاد ليطلعني على المعلومات التي جمعها عن مرسل، فقد كان بالفعل المتجر الوحيد في المركز التجاري الذي يبيع هذا النوع من الأشرطة، ويتردد عليه باستمرار شبان تستهويهم هذه الموسيقى كما أنهم يطيلون المكوث عنده في المتجر لساعات طويلة، ولكن المتاجر القريبة منه لم تكن لديها أي شكوى على تصرفاته.

- حسناً وفي أي الأوقات تقل زحمة الزبائن في المتجر؟
- في ساعات المغيب حيث يقل عدد المشترين بصورة ملحوظة.
- يجب أن يكون المتجر فارغاً حين نذهب للتحدث إليه.
- إذاً علينا الذهاب عند المغيب، كما أن المتجر كبير وواسع، ولن نلفت انتباه أحد حين ندخل.
- هل رأيته من الداخل؟
- بالطبع رأيته، ألم تطلب مني معرفة كل شيء يتعلّق به؟
- ولكنك لم تثر شكوكه أليس كذلك؟
- ولما سيشكّ بي، فقد تصرّفت كأي زبون عادي.
- وهل تحدثت إليه؟
- كف عن الأسئلة، فستراه قريباً
- وهل تعتقد بأنه سيتجاوب معنا، ويعطينا ما نحتاج إليه من

معلومات؟

- لا أعلم، فقد بدا شخصاً مغروراً نوعاً ما، ومن الواضح أنه لا يهتم كثيراً بحركة البيع في المتجر، وكأن له مقاصد أخرى من العمل في هذا المكان.

- غريب، يبدو أنه يخفي الكثير من الأمور.

- هل سنذهب إليه مساءً؟

- بالطبع علينا الذهاب، دعني أخبر كنعان أيضاً، ولكنني أفضل ألا ترافقنا.

- وهل لي أن أعلم السبب؟

- السبب واضح يا صديقي فقد رآك اليوم، ونحن لا نريد أن نثير مخاوفه ونجعله يظن بأنه مراقب أو ما شابه.

- لا عليك فلن يثير حضوري أي مشاكل، كما أنني تحدثت إليه اليوم لذا لا تقلق من هذه الناحية.

من الواضح أنه لن يقتنع بكلامي الآن.

- حسناً، سأكلّمك لاحقاً ولكن عليك أن تخبر كنعان أيضاً لينهي أعماله، ويستعد من أجل الذهاب، وسأتصل بكما قبل ذلك الوقت.

- اتفقنا.

أغلقت الهاتف، وأنا أشعر بأنني بدأت استلم زمام الأمور، وأقود خطوات صديقيّ، وأملي عليهما التعليمات وهما ينفذانها عن طيب خاطر، في الحقيقة كانت هذه الطريقة التي تنتهي بها كل مغامراتنا، ففي البداية أرفض واعترض، ولكنني ما أن أشاركهما الأمر حتى تؤول إليّ مسؤولية اتخاذ القرارات وتنسيق الخطط، وكان كنعان أول من يشعر بالملل ويعزف عن المتابعة، ولكن الموضوع مختلف هذه المرة، فالخطورة التي ترافقه لا يستهان بها.

على الرغم من أنني لم أوافق كاتيا البارحة في رأيها حول تأثيري المبالغ فيه على قرارات كنعان، ولكن رأيها هذا قد أرضى غروري نوعاً ما وراقني أن أصدقائي يحترمون طريقة تفكيري وتهمّهم مواقفي.

لم يطل الاجتماع في المعمل كثيراً، فقد كان موضوعنا الأساسي هو حجم المبيعات وبالرغم من أنها لم تصل إلى التوقعات المرجوّة منها بسبب الأزمة الاقتصادية التي تعصف بالأسواق العالمية والتي أدت إلى تقليل الطلب على بضاعتنا، إلا أن مبيعاتنا كانت أفضل هذه السنة مقارنة بالعام الماضي وهذا ما دفعنا إلى التفاؤل بانحسار الأزمة نوعاً ما، والنقطة الثانية

التي كانت بحاجة إلى البحث هي المستودع الذي تغرقه فيضانات النهر بين الحين والآخر، وتسبّب تلفاً في البضاعة المخزنة فيه، لذا اقترحت بناء مستودع جديد بعيد عن خطر الفيضان، ولكننا يجب أن ننتظر حتى الربيع للبدء بالبناء. بعد الاجتماع انضممت إلى رؤساء العمال وبقية الموظفين من أجل تناول الغداء وهي عادة اكتسبتها من المرحوم والدي، الذي كان يبقي مسافة بينه وبين موظفيه على الدوام ولا يسمح لأحد بتخطي حدود الاحترام، ولكنه بين الحين والآخر كان ينضم إليهم في تناول الغداء ومشاركتهم بعض المناسبات، وهذا بحسب رأيه له تأثير إيجابي كبير على الموظفين والعمال، وقد واصلت التقيّد بهذا الطقس الموروث كما الكثير من العادات التي اكتسبتها منه وحافظت على استمراريتها.

وحال العودة من المعمل اتصلت بكنعان الذي اخبرني بأنه اتصل بمحامي رشاد، وقد أخبره هذا الأخير أن رشاد ينتظر جلسة المحكمة التي ستعقد خلال هذا الأسبوع، وسيقرّر اعتماداً على قرار المحكمة إن كان سيقابلنا أم لا.

- هل ينتظر قراراً بالإفراج عنه؟
- هذا وارد، فالأدلة التي تدينه في قضية مقتل كارتال ضعيفة وغير كافية.

أجابني كنعان.

- لا أظنه سَيُبَرّأ من التهمة بهذه البساطة، فكما تعلم الرجل له سوابق، ولكنني أظن أن رؤساءه الذين يعمل لحسابهم والذين أوكلوا المحامي للدفاع عنه غير راضين عن تدخّلنا في القضية والكشف عن الحقيقة بسبب تبعات المشكلة وارتباطها بالمخدرات.

لكن كنعان وبسبب اضطلاعه على سير هذا النوع من القضايا لم يؤيّد رأيي كثيراً.

- لا أعتقد أن رؤساءه مهتمون بمصير مروّج قليل الشأن مثله، كما أن لا علاقة لهم بالمحامي، فعائلة رشاد هي من أوكلت المحامي للدفاع عنه، وسبب رفض المحامي التعاون معنا هو خبرته القليلة في العمل، فهو قد تخرّج وبدأ ممارسة المهنة منذ سنتين لا أكثر، لكنني سأعاود الاتصال به مجدداً حال انتهاء جلسة المحكمة.

- هل اتصل بك نهاد؟
- أجل، وأخبرني عن وجوب ذهابنا لمقابلة مرسل اليوم مساءً.
- علينا أن نعمل بسرعة ولا نهدر المزيد من الوقت.

- حسناً أين سنلتقي بك؟

- عند مدخل مركز سوريا التجاري في السادسة والنصف، أيناسبك الأمر؟

- بالتأكيد، سأتوجه الآن إلى الاستديو، فكاتيا تجبرني على العمل طيلة الوقت كثور الحقل، فهي تظنني سأتخلى عن متابعة القضية إن نال مني التعب والإرهاق، لقد أصبحنا نصوّر ثلاث جرائم في اليوم الواحد تقريباً.

أنهيت المكالمة وأنا أتمنى أن تتحقق رغبة كاتيا لكي نرتاح كلنا من هذه المشكلة.

عندما التقيت بكنعان كانت أضواء شوارع بيه أوغلو قد أضيئت منذ بعض الوقت، ولكن هذه المنطقة كانت أقل زحمة مقارنة بمنطقة غلطة سراي وشارع الاستقلال. ولأنني أتيت قبل الموعد بنحو عشر دقائق فقد ذهبت إلى الطرف المقابل من الشارع لتفحّص الكتب المعروضة في واجهة مكتبة روبنسون كروزو.

- أتبحث عن روايات بوليسية جديدة يا صديقي؟

وصلني صوت كنعان من الخلف.

- عند الخوض في جرائم حقيقية فلا متعة في قراءة روايات عنها.

أجبته.

- يبدو أنك وصلت باكراً مثلي.

- في الحقيقة كنت متشوّقاً ولم استطع المكوث أكثر في المتجر، فالتحقيق والبحث في جريمة حقيقية فرصة لا تتاح لي كل مرة.

- لا تبالغ يا صديقي، كل ما في الأمر أننا سنتجاذب الحديث مع الشاب قليلاً.

- لا تنسى أنه أحد أتباع المجموعة اكس وصديق مقرّب للشخص الذي قُتل في ظروف غامضة.

كنت أحاول أن أبيّن له خطورة الموقف ولكنه لم يبالِ بكلامي مطلقاً.

- حسناً فلنذهب، اتصلت بنهاد قبل قليل وسيكون بانتظارنا أمام المركز.

وسرنا باتجاه المركز.

- هل اطلعت على كتاب المجموعة الأهم الذي بحوزتك؟

- لا يوجد فيه شيء مثير أو خارج عن المألوف، فهو يحتوي على مجموعة تعاليم، سأحاول قراءته بصورة مفصّلة حين تتاح لي الفرصة،

ولكنني لا أظنه سيفيدنا بشيء. ربما تكون المعلومات التي بحوزة مرسل أكثر نفعاً.

- أتمنى أن يكون بمفرده الآن، ولكنني لا أتوقّع أن يرحّب بمجيئنا.

- لا تبالغ يا صديقي، فلن نذهب للقبض عليه، كما أننا لن نجبره على الحديث إن لم يرغب

- ربما كان علينا اصطحاب سائقي أورهان معنا، لندخل بعض الخوف في قلبه ونجبره على الحديث.

- لماذا؟

- كان ملاكماً فيما مضى، وقد نال الكثير من الأوسمة والجوائز.

- أهذا هو سبب غروره؟ ولكنني لا أظنه قادراً على على تخويف أحد بذلك البطن الكبير الذي يتصدر جسمه الضخم، لذا لا تأسف على عدم مجيئه معنا يا صديقي.

- أنت مخطئ هذه المرة، ألا تذكر الشجار الذي نشب العام الماضي في المرآب القريب من متجري؟ اجتمع عليه أكثر من أربعة رجال ولكنه استطاع التغلب عليهم جميعاً، وكان سيقتل أحدهم بقوة ضرباته لو لم أتدخل وأوقفه.

- حقاً، لما بدأت المشكلة؟

سألني مستغرباً.

- كما تعلم فنحن نركن السيارة في مرآب يبعد عن المتجر مسافة لا بأس بها، ولكننا اضطررنا في ذلك اليوم أن نركنها في مرآب آخر قريب من المتجر لأننا كنا سننقل بعض الأغراض بواسطة السيارة، دخلنا معاً المتجر واستغرقنا حوالي عشر دقائق ونحن نقوم بحزم العلب والأكياس، وعندما عدنا إلى حيث ركنا السيارة لم نجدها، فاستغربنا الأمر، وسألته عن السيارة فأجابني المسكين مندهشاً: «لا أعلم سيدي فقد ركنتها هنا كما تعلم» وأخذ يتلفت حوله بحثاً عمن يساعده، وجدنا على باب المرآب شخصاً طويل القامة ذي لحية مشعّثة قذرة، فناداه أورهان

«ألديك فكرة عن السيارة التي ركناها هنا؟».

أجابه الطويل بلامبالاة واضحة.

«متى ركنتها وما نوع السيارة؟».

«منذ عشر دقائق لا أكثر وهي سيارة فولفو، إنها جيب سكرية اللون».

فردّ علينا بكل برود: «حسناً حسناً، عليك الانتظار قليلاً».

بدا أورهان متضايقاً جداً من نبرته في الحديث معنا فتوجه نحوه غاضباً

«لما علينا الانتظار، أخبرني أين السيارة؟

«لا تصرخ يا هذا، قلت لك بأنها ستأتي بعد قليل».

تدخّلت حينها وأنا أتكلم بهدوء «لقد ركنّا السيارة هنا منذ قليل وهي غير موجودة الآن، أحضر لنا السيارة ودعنا نذهب بسلام».

رمقني بنظرات متعالية، بعد لحظات ردّ عليّ كمن يتنازل بالتحدث إلينا

«المكان ضيّق هنا والمساحة لا تتسع لكل السيارات، لذا أرسلتها ليتم ركنها في ركن آخر، انتظر قليلاً حتى يعود الشاب وأرسله لإحضارها».

- ولكن الحقير أنهى كلامه بشتيمة بذيئة لم يحرص كثيراً على ألا يُسمعنا إياها.

«انتبه يا هذا وتحدّث باحترام» عنّفه أورهان.

«وما الذي تنوي فعله إن لم أتحدّث باحترام؟» كانت هذه آخر جملة في الحوار حيث بدأت اللكمات والركلات تتولى محاولة إتمامه، فقد اتجه الطويل نحو أورهان محتداً في محاولة لتخويفه، ولكنه ما إن اقترب من أورهان لمسافة لا بأس بها حتى تلقى لكمة قوية على وجهه جعلته يرتفع عن الأرض ويسقط ككيس مليء بالتبن لا غير وهو يمسك بأنفه الذي تهشّم وبدأ ينزف بغزارة، ولكن أحد زملائه خرج مسرعاً من حيث لا أعلم واتجه نحونا وهو يشتم ويصرخ متوعداً ولم يتمكن من إتمام جملته التي تحوّلت إلى صرخة مدوية إثر ضربتين تلقاهما، واحدة على حنكه والأخرى على معدته جعلتاه يتكوم بجانب صديقه الصريع متأوهاً، تنحّيت جانباً خوفاً مما قد يحدث وقد تولى أورهان مهمة حمايتي وضرب كل من يقترب، الضحية الثالثة كانت الشاب الذي ركن سيارتنا في طرف المرآب وترجّل مسرعاً بعد أن رأى صديقيه متكوّمين على الأرض بهذا الشكل المرعب، كان قصير القامة مربوعاً ممتلئ الجسم يبدو واثقاً من قدراته البدنية، ولكن ضربة واحدة من أورهان الذي بقي ينتظر اقترابه بكل هدوء، كانت كفيلة بانضمامه إلى البقية، في هذه الأثناء اقترب بعض أصحاب المتاجر القريبة في محاولة لتهدئة الوضع، فيما نهض الطويل مجدداً وهو يترنح والدماء تغطي وجهه وثيابه في محاولة لمعاودة الكرة، ولكنها كانت ادّعاء أجوف لردّ ماء الوجه أمام الآخرين، فقد ظلّ محافظاً على مسافة تسمح له بالهرب في حال حدوث شيء وإن بقي يشتم ويصرخ،

تدخلت مع البقية لإنهاء المشكلة واتجهنا أنا والملاكم الجبار نحو السيارة بكل ثقة وهدوء.

- حقاً؟- قالها كنعان بإعجاب واضح- يبدو أنه رجل يُعوَّل عليه.
- هو كذلك، كان عليّ أن احضره معنا احتياطاً.
- لا أظن أن المسألة قد تستدعي حضوره.

وصلنا إلى المركز ونحن نكمل حديثنا، بني هذا المركز في العام 1909، وهو يضم بعض المطابع التي تصدر جرائد وصحف بمختلف اللغات كجريدة الجمهورية التركية، جريدة ريبوبليك الفرنسية وغيرها.

نظرت إلى الداخل لكنني لم ألمح نهاد في الجوار.

- يبدو أنه لم يصل بعد.
- كان يجب أن يصل، فقد أخبرني أنه سيكون بانتظارنا أمام بوابة المركز.
- أيعقل أن يكون قد سبقنا إلى المتجر- قلت خائفاً- وذلك في محاولة لإثبات قدراته لكلينا.
- معك حق، ألهذا السبب اختار المجيء باكراً، هذا الأحمق ذهب دون أن ينتظرنا.

لن نضيّع الوقت في انتظاره وعلى الفور دخلنا، كانت معظم المتاجر قد أغلقت أبوابها باستثناء متجرين أو ثلاثة والتي بدورها كانت تطفئ أضواءها إيذاناً بالإغلاق ولكننا لم نجد متجر الأشرطة الذي نبحث عنه، فانتابني الشك في أن نكون أخطأنا في العنوان، وفيما نواصل البحث والتلفّت في كافة الاتجاهات سمعنا صراخاً.

- أخرج من هنا، أخرج على الفور.

كان الصوت يصيح في غضب وحدّة

- أرجوك سيد مرسل لا تسيء الفهم.

كان هذا صوت نهاد الذي يتخلل صرخات الرجل.

اتجهنا شبه راكضين نحو نهاية الممر حيث نهاد يقف أمام باب المتجر وهو يحاول تهدئة مرسل الغاضب.

- صدقني لا نية لي بإيذائك، أنا فقط أود الحصول على بعض المعلومات عن المرحوم كارتال.
- لا أعرف شخصاً بهذا الاسم- كان صوته يحتد مع كل كلمة.
- لا داعي لأن تنكر، فكارتال كان صديقك المقرّب.
- أي نوع من المجانين أنت يا هذا، ابتعد من هنا وإلا سأجعلك

تبتعد بطريقتي.

- لن أتحرّك من هنا قبل أن تجيب على كل أسئلتي.

بدأ هو أيضاً بالصراخ غاضباً. وهنا بدأت الأمور تخرج عن السيطرة

- لست مضطراً أن أجيب على أي شيء أيها المعتوه- وخرج برأسه الدائري الذي يشبه حبة القرع ودفع نهاد بحدة- اذهب وإلا سأهشّم وجهك.

لكن صديقنا المسكين على الرغم من أن تصرّف مرسل قد أثار غضبه لم يبادر بالهجوم، كان فقط يحاول الدفاع عن نفسه وهو يبعد يدي الرجل الغاضب عنه لعدم اتقانه فنون القتال، وعندما أدرك مرسل أن لا طاقة لصديقنا بالقتال أمسكه من ياقة قميصه وعالجه بضربة قوية من رأسه الكبير.

- أخخخ...

لم أعلم من كان صاحب صرخة الوجع هذه على وجه التحديد أهو أنا أم نهاد أم كنعان، بيد أن غليله لم يشفَ فبدأ يتوجه نحو نهاد المترنّح صارخاً.

- هل وجدت الآن أيها الأحمق ما كنت تبحث عنه؟

- ابتعد عنه، اتركه يا ابن الرخيصة- صرخ كنعان وهو يتّجه نحو مرسل الذي التفت على الفور نحوه، وسدد له ضربة قوية من يده، ولكن كنعان تمكن من الإمساك بيده، لم يستسلم مرسل بل بادر على الفور بالتصرّف وكان من الواضح أنه ذو مهارة عالية في فنون القتال، فأراد أن يعالجه بضربة رأسية كالتي هوى بها على رأس نهاد المسكين، لكن كنعان استطاع الابتعاد في آخر لحظة، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع تفادي ضربة أخرى وجّهها الرجل بسرعة خاطفة إلى معدة كنعان جعلته ينطوي ملتوياً من الألم، وكان مصيره يقارب مصير نهاد الذي سقط على الأرض متألماً، فتدخلت على الفور وأنا أشهر مسدس (سميث وسينسون) الذي أبقيه بحوزتي على الدوام.

- توقف وإلا سأهشّم رأسك الكبير.

حاول أن يلتفت نحوي.

- إياك أن تتحرك.

خيّم صمت مؤقت على المكان. كان نهاد يمسك بأنفه الدامي، بينما كنعان يحاول تمالك نفسه والسيطرة على الألم الذي رافق الضربة وهما ينظران إلى المسدس الذي أحمله نظرات لا تقل غرابة عن استغراب مرسل،

ومع ذلك فقد استدرك هذا الأخير واستطاع تمالك نفسه أسرع من الجميع وهو يسألني

- من أنتم؟
- خمّن من نكون.

اقترب منه كنعان وعالجه بضربة قوية على بطنه جعلته يتلوى من الألم ويسقط راكعاً، ولكنه بعد ثوان معدودة، عاد يخاطبنا بصوت ضعيف.

- لا نقود بحوزتي، اذهبوا وفتّشوا الدرج أيضاً، صدّقوني لا أملك أي نقود.
- انظر جيداً أيها الأحمق، هل نبدو لك كلصوص- ولم يتردد وهو يردف بكل ثقة- نحن شرطة أيها المعتوه.
- ششرطة؟

قالها متأتأً.

- أجل ونحن نحقّق في قضية مقتل كارتال غوكر.

بدا وكأنه يتوقع هذا الكلام، لذا كانت إجابته جاهزة.

- ولكنني قلت كل ما لدي للمحقق جونييت.

تشابكت الأمور بصورة جنونية، فكان عليّ أن أجد مخرجاً معقولاً، فقلت أول جملة خطرت لي.

- نحن لسنا من شرطة بيه أوغلو، نحن من قسم التحقيق الجنائي.
- حسناً لقد فهمت.

قالها وهو يتراجع نحو الخلف فحذّرته آمراً.

- انتبه لخطواتك.
- من الواضح أنكم لا تعملون في قسم الشرطة في بيه أوغلو، وإلا كنتم ستعرفونني بكل تأكيد.
- ومن تكون؟

سأله كنعان بصوت غاضب.

تلفّت مرسل حوله ثم خاطبنا.

- دعونا ندخل ونتكلّم، ما من داع أن يرانا أحد هنا.

كان محقاً فيما يقوله، فلو بقينا واقفين على هذا النحو فلا بد وأننا سنلفت الانتباه.

- حسناً، ولكن إياك أن ترتكب أي حماقة.
- صدّقني سيدي لا نية لي في فعل أي شيء، على العكس فعلاقتي مع الشرطة على خير ما يرام، وإن أردت التأكّد تستطيع أن تتحدث مع

المحقق جونييت.

دخل مرسل وتبعته، فيما لحق بنا كنعان الذي ظل يرمق الرجل بنظرات تقدح شرراً وهو يصطحب معه نهاد. كانت ملصقات الأشرطة التي شاهدنا بعضاً منها تزين جدران منزل أيسون موجودة بكثرة في كل أجراء المتجر، وكان هناك ملصقان متقابلان باللون الأحمر والأسود لسيّدهم المبجّل.

- تفضلوا بالجلوس سيدي.

قالها وهو يشير إلى الكراسي.

- أحضر الكرسي وضعه هنا.

بدا من الواضح أنه لم يفهم ما أعنيه فأردفت- ضعه قبالة الصورة.

أطاع الأمر وهو ينظر إلى نهاد الذي كان لا يزال يمسك بأنفه متألماً

- أعتذر سيدي- قالها متخوّفاً- أتريد أن أحضر لك بعض المناديل أو منشفة مبللة؟

- لا أريد شيئاً.

رفض طلبه وكان من الواضح أنه لا زال متألماً وكانت الدموع تطفر من عينيه.

- كنعان انظر إلى أنفي أخاف أن يكون قد انكسر.

تفحّص كنعان أنفه بتأنٍ واهتمام.

- لا توجد كسور ولكن النزف لا يتوقف.

وأخرج منديلاً من جيبه.

- سنضع قطعة منه في أنفك لتوقف النزيف.

وكان يرمق مرسل شزراً.

- أتعلم عواقب الاعتداء على الشرطة؟

نظر إليه مرسل خائفاً.

- ولكنكم لم تعرّفوا عن أنفسكم يا سيدي. ما أدراني أنكم من الشرطة، لو ذكرتم اسم المحقق جونييت أمامي لكنت أخبرتكم بكل ما تريدون.

كان ذكر جونييت يرعبني فقد كنت متأكداً من أن نهايتنا جميعاً ستكون خلف القبضان ما إن يعلم بما نفعله الآن.

- هل تعرف المحقق جونييت غيزمان؟

سأله كنعان وهو مستمر في لعب دور الشرطي.

لحسن الحظ، لم يشكّ مرسل حتى الآن بادعاءاتنا، ولم يخطر له أننا نكذب على الرغم من عدم وجود تشابه بيننا وبين الشرطة.

- أنا أعمل مخبراً سرياً لدى المحقق جونييت، وأعطيه معلومات وافية عن المجموعة اكس.

- ولما لم تعطنا معلومات كافية عن مقتل كارتال جوبور.

- لقد فعلت ذلك سيدي صدّقني، فأنا من دلّهم على رشاد جوبور.

بعد أن أتمّ جملته بدأ يتفحّصنا واحداً تلو الآخر، وأظنه بدأ يسيتقظ من أثر الصدمة.

- عذراً سيدي، لكن هل لي برؤية بطاقاتكم الأمنية.

قال ذلك وهو يحاول النهوض.

- إياك أن تتحرك- قلتها وأنا أوجّه المسدس نحوه فأطاع على الفور

توجهت نحو كنعان الذي كان يحاول وضع كرات من المنديل في أنف نهاد وأنا أقول له هازئاً.

- الأخ يريد أن يرى بطاقاتنا الأمنية.

- سيرى بطاقاتنا عندما نصطبحه الآن معنا إلى السجن بتهمة الاعتداء على الشرطة.

علّق كنعان.

لكن حديثنا لم يقنع مرسل على ما يبدو، لذا بقي مصرّاً على رأيه.

- دعوني أرى البطاقات سيدي، وإلا فلنتصل بالمحقق جونييت ونخبره بما يجري.

كان شخصاً ذكياً لذا بدا من الواضح أن هذه التمثيلية لن تنطلي عليه، ولم يكن من مفر سوى مصارحته بالأمر وكشف كل الأوراق.

- لقد اختلطت عليك الأمور، وهناك سؤال صعب يدور في ذهنك الآن، أنحن من الشرطة أم لا، لدي حل سهل سيريحك من هذا السؤال ومن كل الأسئلة الأخرى وسيزيل عنك الخوف، طلقة واحدة من هذا المسدس وسترقد في سلام أبدي.

أنهى كنعان مهمة معالجة نهاد، فأشرت إليه بماسورة المسدس وأنا أقول.

- أغلق أبواب المتجر.

- ما الذي تنوي فعله سيدي.

قالها وهو يتلفّت وجلاً.

- لا أريد أن يسمع أحد صوت المسدس وأنا أطلق النار عليك.

أجبته بكل هدوء.

ذهب كنعان على الفور لينفّذ الأمر وقد وصل خوف مرسل إلى أقصى

درجاته.

- أرجوك أخبرني من أنتم؟

- نحن من الشرطة السرية من الموساد أو السي أي إيه... أو من أي منظمة سرية تخطر ببالك، وقد اقترفت خطأً فادحاً باعتدائك علينا، وأنت على وشك ارتكاب الخطأ الثاني برفضك الإجابة عن أسئلتنا، هل تملك الجرأة في مواصلة ارتكاب الأخطاء والبقاء على صمتك؟

- ماذا تريدون مني، ما الذي اقترفته؟

- لقد قمت بالاعتداء علينا، وهذا أكبر ذنب تقترفه.

عاد كنعان بعد أن أوصد أبواب المتجر واستلم مهمة اتمام الأسئلة

- دعنا ندخل في صلب الموضوع، من الذي قتل كارتال غوكر؟

- وما أدراني.

- ولكنك ذكرت منذ قليل أنك أعطيت الشرطة اسم رشاد جوبور.

- أنا لم أقل بأنه من قتل كارتال، كل ما قلته للشرطة بأنه كان مديناً لرشاد بمبلغ كبير، لذا لم يوافق رشاد على إمداده بالمخدرات.

- من أجل التعاطي أم من أجل البيع؟

كان سؤالاً موفقاً وذكياً بحق.

- من أجل التعاطي طبعاً، فقد كان كارتال مدمناً على المخدرات.

- وأيسون؟

سألته بدوري.

- كانت تتعاطى ولكن بصورة أقل، ولم تصل إلى حدود الإدمان.

- حسناً فلنعد إلى كارتال، ما المبلغ الذي كان يدين به لرشاد؟

- حوالي ثلاثة آلاف دولار، وقد أتى إليّ قبل الجريمة بيوم واحد وطلب مني أن أعطيه المبلغ، ولكنني لا أملك مبلغاً كهذاً، والغريب في الأمر أن أحوالهما المادية كانت على خير ما يرام في الفترة الأخيرة، فقد استطاعت أيسون الحصول على عمل ذي مدخول عالٍ، لكنها كانت قد سافرت إلى فرنسا منذ عشرة أيام، ويبدو أن كارتال قد استهلك كل مدخراته من المال والمخدرات وكان بحاجة ماسة إلى دفعة جديدة، وقد طلب من رشاد أن يمدّه ببعض المخدرات. لكن الأخير رفض وذكّره بديونه السابقة، لذا أخذ كارتال يبحث عمن يعطيه النقود على وجه السرعة، وكما تعلمون فعندما يعاني المدمن من مضاعفات الانقطاع عن المخدر يتحوّل إلى شخص هائج ومن الممكن أن يرتكب كل الفظائع، وقد يكون أثناء أحد ثورات جنونه تهجم على رشاد وحاول الحصول على ما يريده بالقوة

فاضطر الأخير إلى ضربه بهذا التمثال الذي أرداه قتيلاً.
التمثال؟ وما أدراك أنه قتل بواسطة التمثال ونحن لم نحدثك عنه؟ سألته متشككاً.

- أرجوك سيدي لا تورّطني فيما لا علاقة لي به، لقد سمعت عن الأمر من المحقق جونييت على ما أظن.

كانت نظراته هلعة وصوته يرتجف.

- قد تكون أنت المجرم الذي نبحث عنه.

اتهمته هذه المرة بشكل صريح فازداد ذعره.

- أقسم لك إنني لم أقتله، فقد كان كارتال أعز أصدقائي.
- قد تكون متورطاً في قصة المخدرات.
- أنا لا أتعاطى هذه الأمور ولم يسبق لي التورط في مشاكل من هذا القبيل، وإن أردت التأكد من كلامي فاتصل بالمحقق جونييت وهو سيخبرك بالحقيقة، لدي رقم هاتفه وإن أردت نستطيع الاتصال على الفور.
- وأيسون- حاول كنعان أن يغيّر الحديث- من الذي قام بقتلها؟

ظل ساكتاً وهو ينظر إلينا وجلاً

- لما لا تجيب؟- نهره كنعان- قد تكون أنت الفاعل
- ولما سأقدم على قتل هذه الفتاة المسكينة سيدي؟
- فتاة مسكينة؟ أتشعر بالشفقة عليها.

سأله كنعان.

- بالطبع أشفق عليها، فذنبها الوحيد أنها أحبت هذا الأرعن كارتال.
- هل سمعته؟- كان كنعان يخاطبني وهو يشير برأسه نحو كنعان- أسمعت كيف يتحدث عن الشخص الذي كان أدّعى قبل قليل أنه كان من أعز أصدقائه؟
- أجل كان صديقي، ولكنه تسبب في موته وموت هذه الفتاة المسكينة بسبب تصرّفاته الحمقاء.
- فلنعد إلى سؤالنا السابق، من الذي قتل أيسون؟
- كيف لي أن أعرف سيدي؟
- ولكنك كنت تعلم من قتل كارتال.

علّق كنعان.

- كان مجرد تخمين ليس أكثر.
- ولكن رشاد سجن بسبب هذا التخمين

- أرجوكم لا تخبروا أحداً بالأمر، فالمحقق جونييت يوفّر لي الحماية مقابل الإدلاء بهذه المعلومات.

- ونحن أيضاً سنحميك إن اقتضى الأمر.

- بل سنحميك بصورة أفضل من جونييت - ثم أكملت وأنا أشير إلى نهاد الذي رفع رأسه ليوقف النزف - على الرغم من أنك تسببت في إيذاء صديقنا.

- والآن أخبرنا من الذي قتل أيسون.

أعاد كنعان الحوار إلى غايته.

- ولكنكم لن تقحموا اسمي في الأمر أليس كذلك؟

- لقد أخبرناك بأننا لن نفعل.

علّق كنعان.

- أحد أصدقاء جوبور.

- ولما فعل ذلك؟

سألته.

- حتى لا تقوم أيسون بالإبلاغ عنه.

- إذاً، فأنت تعتقد أن رشاد من قتل الاثنين؟

- ومن سواه؟

تدخل كنعان هذه المرة.

- هل صارحتك أيسون بشكوكها؟

- لا، فلم تتح لي الفرصة لرؤية أيسون بعد مقتل كارتال.

أشار كنعان نحو الصور وهو يسأل الشاب.

- وقد يكون أصدقائك من المجموعة اكس هم من يقفون وراء مقتل كارتال.

- المجموعة اكس؟ هذا محال.

- ولكن تعاليم كتاب المجموعة الأهم تفيد بوجوب التضحية من أجل سيدكم.

- معلوماتك خاطئة سيدي.

- أتنكر أن مجموعة من الشباب قاموا بقتل بعض من أصدقائهم قبل عدة سنوات وكانوا من المجموعة اكس؟

- ولكن الشباب على مختلف مجموعاتهم ومذاهبهم يقومون بالقتل وفي كل مكان، كما أن هذين الشخصين -أقصد كارتال وأيسون- لم تكن لهما أي ميول غريبة كالتي تتكلمون عنها، وكنت على الدوام أبلغ المحقق

جونييت بكل ما يتعلق بهؤلاء الشباب- تمهل للحظات قبل أن يكمل- وإن كنتم تعرفونه كما تدعون فسيبلغكم بكل التفاصيل، صدقوني إنهم مجرد شباب يحبون التغيير وتحدي الأعراف السائدة، يستمعون إلى موسيقى الميتالك وسواها ويعلّقون نجوماً على جدران منازلهم وملصقات الأشرطة الموسيقية وسواها، ولا تتعدى تصرفاتهم حدود المنطق.

- وماذا عن المخدرات والهيروين؟

- لا يتردد مدمنو الهيروين على متجري إلا نادراً، لا أنكر أن الكثير منهم يتعاطون المخدرات وبعض أنواع الحبوب المهدئة، ولكن هذا كل ما في الأمر.

- ولكن كارتال كان مدمناً على الهيروين.

- معك حق، ولكن لا علاقة لإدمانه بالمجموعة اكس، فهو مدمن على هذه الآفة منذ وقت طويل، حينها كان يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية، كما أن هناك أشخاصاً يدمنون الهيروين وتستهويهم الموسيقى التركية أو الشرقية أو سواها، لذا فكل ما يروّج عن هذه الجماعة مجرد إشاعات لا أكثر.

- وما الذي يدفع هؤلاء الشباب لاعتناق هذه المعتقدات الغريبة؟

- لقد أخبرتكم أنها مجرد نزوات وأفكار تستهوي الشباب، إنها نوع من التحدي لكل ما يحصل حولهم، تحدٍّ للعادات والتقاليد، للأسرة أو الجيران أو المعلمين أو أي شخص أو جهة تقف في وجه طموحاتهم ولا تقدّر ثورة الشباب التي تدفعهم نحو تبني اللا مألوف. وبالطبع لا نستطيع لومهم فكل ما في هذا المجتمع يدفع الشباب نحو الجنون. حسناً، ما أود قوله أن انضمامهم لهذه المجموعات الغريبة واعتناق هذه الأفكار يقتصر فقط على بعض المظاهر، كإطالة الشعر وارتداء ثياب سوداء، الاستماع إلى موسيقى البلاك ميتالك أو تزيين أجسادهم بوشوم غريبة، والطريف أن معظمهم ينحدر من عائلات ميسورة وأحياناً فاحشة الثراء. إنها مجرد طريقة أخرى يتبنّاها الشباب لإظهار اختلافهم واثبات قوة شخصيتهم كما يظنون، ولكن لا وجود للطقوس الدموية الغريبة في معتقاداتهم، إنها شائعات ترددها الصحافة الصفراء من باب المبالغة والتهويل وشد القراء لا أكثر.

- هل سمعت بشخص يدعى نيكولاس فليمل؟

لم يستغرب سؤالي ورد على الفور.

- أتعني ذلك الخيميائي؟ لا علاقة تربطه بالمجموعة اكس، لكن أيسون بدت في الفترة الأخيرة مولعة به، وقد أحضرت بعض لوحاته معها

من فرنسا وعلّقتها في منزلها ومنزل كارتال أيضاً، رسوم لأفاعٍ وأشياء من هذا القبيل.

- أتعلم سبب اهتمامها به؟

- أيسون كانت فتاة لطيفة، ولكنها كانت غريبة الأطوار أحياناً، كما أنها كانت خائفة من فكرة الموت.

- ألا تخاف من الموت أنت أيضاً؟

سأله كنعان.

- ليس خوفاً كالذي ينتابنا جميعاً، فقد كانت تعتقد بأنه توصّل إلى سر الخلود، وكانت تناقشنا في الأمر، لقد استحوذت فكرة الخلود على تفكيرها وتحوّل الأمر إلى هوس مرضي

لم أتمالك نفسي وأن أقارن بينها وبين كنعان، وبدأت أضحك بصمت، لكن كنعان لم يلحظ الأمر واستمر في استجواب الشاب.

- وهل هناك مجموعات تتبنى أفكار فليمل هنا أو في فرنسا مثلاً؟

- لا أعلم، ولكنها تعرفت على امرأة روسية الأصل في فرنسا ومن هنا بدأ اهتمامها بفليمل هذا، وعلى ما أظن فإنها قد عاشت في اسطنبول لفترة مؤقتة، اعتقد أنها تنحدر من الروس الذين هربوا من الثورة الشيوعية واسمها كاثرين على ما أذكر.

- كاثرين؟

- أجل هذا ما أذكره ولكن أيسون كانت تسميها كاتيا في بعض الأحيان حين تتحدث عنها.

أثارت هذه المصادفة الغريبة اهتمامنا نحن الثلاثة.

- كاتيا؟

دمدم كنعان باسمها

- أجل وقد تأثرت أيسون بأفكارها وكانت تأتي على ذكرها باستمرار.

- وهل كانت هذه المرأة كاتبة؟

كنت أود التأكد من المعلومات التي بحوزتنا.

- أجل، ولكنها كانت مختصة بكتابة سير الشخصيات المشهورة والهامة.

- أتعني أنها كانت كاتبة سيرة وليست مؤلفة روايات؟

- أجل وكانت قد ألّفت كتاباً عن فيلمل هذا، وكانت أيسون مهتمة جداً بما تكتبه المرأة.

كانت المعلومات التي ذكرها تتقاطع بصورة كبيرة مع المعلومات التي

أخبرنا عنها يونس، وهذا يدل على صدقه، ولكننا كنا بحاجة إلى مزيد من المعلومات.

- ألا يمكن أن تكون هذه المرأة منتمية إلى إحدى المجموعات التي سألتك عنها؟

- أتعني كاتيا؟ محال فقد كانت كاتبة ولا شأن لها بهذه المجموعات الغريبة المتطرفة.

- ألا يمكن أن يكون المؤلف عضواً في مجموعة ما؟ هناك الكثير من الكتّاب الذين ينتمون إلى أغرب المجموعات ويتبنّون أكثر الأفكار شذوذاً.

- قد تكون محقاً ولكن هذه المرأة بالذات كانت مثقّفة وتحترم نفسها، هذا ما كانت تخبرني به أيسون، وإن كانت تنتمي إلى أية مجموعة لكنت اطلعت على الأمر من أيسون أو كارتال

- أكانت أيسون تعمل لصالح هذه المرأة؟

- هذا ممكن، فقد كانت تراسلها باستمرار، كما أن أحوالها المادية تحسنت بصورة ملحوظة. لم يصرحا لي بالأمر، ولكن من الواضح أن المرأة الفرنسية كانت ترسل إليها المال بين الحين والآخر.

- ولكنك أخبرتنا منذ قليل أن كارتال كان مديناً لرشاد بمبلغ من المال.

- أجل فقد كانت أيسون تتقصد عدم إيفاء هذه الديون حتى لا يفرط كارتال في تعاطي المخدرات، وعلى الرغم من غرابة أطوارها إلا أنها كانت فتاة خلوقة وأنا متأكد من أنهما لو بقيا على قيد الحياة لتمكنت من إقناع كارتال بالإقلاع عن تعاطي المخدرات.

إن لم يكن مرسل كاذباً محترفاً، فقد أدلى بكل ما لديه من معلومات، وحان الوقت لإنهاء هذه اللعبة الخطرة.

- حسناً أيها الشاب- خاطبته وأنا أوجّه المسدس نحوه مرة أخرى- سنقوم بالتأكد من هذه المعلومات، وإن كنت تحاول خداعنا...

- صدّقني لقد أخبرتكم بكل ما أعرفه- ثم نظر إليّ متوسّلاً وهو يكمل- لكنك وعدتني بألا تذكر اسمي أمام أي شخص.

- إن كان ما قلته صحيحاً فسنلتزم بتنفيذ الوعد لا تقلق.

أجبته مطَمئناً.

خرجنا من المتجر، وقد أغلقت جميع المتاجر الأخرى أبوابها، وعندما أصبحنا مجدّداً في الشارع تنفست الصعداء، وأخذت أفكر في كل ما جرى لنا مع مرسل الذي شهرت المسدس في وجهه بكل بساطة ومن دون تفكير، وأعدت تذكّر ما قاله وعن كونه مخبراً وبائع أشرطة وأحد أتباع المجموعة اكس في الوقت ذاته... انتابني شعور غريب أعاد إلي ذكريات المدرسة والجامعة ومغامراتنا الصبيانية والتي كان يقحمنا فيها كنعان كعادته، ولكن الفارق هذه المرة أنني توليت زمام القيادة بشكل واضح وصريح، وبدأت أقود طريقة الحوار، وألقي الأوامر ليتمّ تنفيذها بكل طواعية، ولكن ما رأي كنعان في ما يجري؟ أهو موافق على تسلّمي الزعامة بكل بساطة؟ كنت متوجساً من الأمر ولكنني عندما شاهدت الرضا على وجهه بل والبريق الناتج عن الإثارة في عينيه، أدركت أنه مقتنع تماماً بسير الأحداث، بل ويبدو مستمتعاً مثلي، ومنفعلاً من غرابة الموقف. كنا نسير في المقدمة، ويتبعنا نهاد الذي لا يزال الألم واضحاً على محياه ويجهد في اللحاق بنا، وكان من الواضح أنه يرتجف قليلاً

- أنت بخير؟

سألته.

- أنا أرتجف وأشعر ببرد شديد، أظنني فقدت الكثير من الدماء.

- لا أظنك فقدت الكثير كما تتصور فالنزف لم يكن شديداً، قد يعود السبب لتأثرك بما حصل، لكن لا عليك سنذهب الآن إلى مستوصف كيزيلاي لتتم معالجتك.

كانت عيناه محتقنتين ووجهه شاحباً، ويكاد لا يستطيع الوقوف، وقد انضم إلينا كنعان بعد أن لاحظ توقّفنا.

- سليم معه حق، أنفك بخير ولا كسور فيه، ولكن لا ضير في أن يفحصك الطبيب لنتأكد. دعونا نذهب إلى مشفى تقسيم أليس أفضل؟

- هناك عناصر من الشرطة متواجدون في المشفى، وإن رأوا حالة نهاد سيصدعون رأسنا بالأسئلة حول ما حدث.

- لا أرجوك- تدخل نهاد الذي سمع باسم الشرطة - لا أريد التورط في المزيد من المشاكل، دعونا نذهب إلى المستوصف ولكن بسرعة لا أريد أن يراني أحد وأنا بهذه الحالة المزرية فأصبح مادة للسخرية والأقاويل.

إن كنت حريصاً حقاً على عدم تعرّضك للسخرية فما الذي دفعك للتبجّح والذهاب بمفردك أيها الأحمق، كانت الكلمات تدور في ذهني، ولكنني لم أتفوّه بشيء، وبقيت أرمقه صامتاً.

- دعونا نذهب بالتاكسي إذاً.

اقترح كنعان، وعلى الرغم من أن المستوصف لم يكن يبعد عنا سوى خمسمئة متر تقريباً، لكننا نظراً لحالة نهاد فضّلنا التاكسي. أشرنا لإحدى سيارات الأجرة الواقفة بالقرب من بيرا بالاس، والتي اعتادت أخذ السواح إلى مسافات بعيدة ومشاوير طويلة ومرتفعة الأجرة، ولكنه عندما علم بأن المكان الذي نقصده لن يدر عليه سوى مبلغ صغير التفت إلينا مكشراً وهو ينوي أن ينزلنا من السيارة، إلا أن كنعان أعطاه مبلغاً يفوق الرقم الذي سيسجله عدّاد السيارة.

- لا داعي لأن تشغل العداد، خذ هذه النقود ودعنا ننطلق.

- حسناً سيدي، سنكون هناك في غضون ثوانٍ.

كانت الشوارع هادئة نسبياً، فزحمة المساء في بيه أوغلو لم تكن قد بدأت بعد، لذا لم نتأخر إطلاقاً في الوصول، وهناك قام طبيب شاب بفحص نهاد، وأخرج لفافات المناديل من أنفه حيث كان النزف متوقفاً، وبدأ بفحصه بيديه أولاً ومن ثم بآلة صغيرة مضيئة، وبعد ذلك قام ببعض الحركات الروتينية لفحص رأسه أيضاً.

- أتشعر بالألم؟

- قليلاً، ولكنني أشعر ببرد شديد.

- سأحقنك بأبرة توقف الألم وتذهب عنك هذا البرد أيضاً- وبعد أن حقنه بالإبرة قال بلامبالاة- لا داعي للقلق ولكنه بحاجة إلى بعض الراحة ليستعيد عافيته.

ولكثرة الحوادث المشابهة التي تحدث في بيه أوغلو وكثرة ضحايا الشجارات المتكررة لم يسألنا الطبيب عن سبب الحادث ومجرياته، لذا خرجنا من المستوصف بعد وقت قصير دون مشاكل.

- لقد سمعت ما قاله الطبيب، عليك الذهاب إلى المنزل من أجل أن ترتاح وتنام بهدوء.

أشرت عليه.

ولكنه ذعر عندما سمع كلمة البيت وأجاب على الفور.

- هل جننت؟ كيف تطلب مني الذهاب إلى المنزل وأنا بهذه الحالة المزرية، ما الذي سأقوله لملك؟

- وما الذي تنوي فعله؟

تطوّع كنعان وأجاب عنه.

- ستأتي معي، وتأخذ حماماً سريعاً، ومن ثم نتعشى سوية لتنام بعدها حتى الصباح، ولكننا يجب أن نذهب لرؤية كاتيا أولاً، إنها تنتظرني الآن في بركة.

- معك حق- وأشار إلى قميصه المبقع بالدماء-ولكن دعونا أولاً نذهب إلى أحد متاجر الألبسة لشراء قميص جديد.

- لا داعي لذلك، سأعطيك قميصاً من عندي.

- قمصانك كبيرة على مقاسي، أتذكر حين ثملت آخر مرة وتقيأت على قميصي، وأخذت أحد قمصانك، بدوتُ كأحد المهرجين فيه.

- حسناً سأتصل بالمتجر ليحضروا لنا قميصاً يناسب مقاسك، ولكن ما الذي تفضّله سيد نهاد؟

- البني- حاول جاهداً ألا يضحك- وليكن مقاسه متوسطاً لو سمحت.

- أمرك سيدي، ولنأمل أن لا يكون المتجر قد أغلق.

حالفه الحظ هذه المرة، فعندما اتصلت بالمتجر كان أحد الموظفين لايزال موجوداً وقد استغرب من طلبي هذا ولكنه رد على الفور.

- حسناً سيدي، سأوافيك خلال عشر دقائق.

- لما لا ترافقني إلى بركة يا سليم؟

- حسناً، ولكنني لن أطيل المكوث، سأشرب قدحاً من الشراب البارد وأغادر بعدها.

على الجانب الأيسر من شارع بال الذي توجهنا نحوه كان ينتصب بناء قديم حيث تجلس ثلاث نسوة على مدخل البناء، كانت أصغرهن تكبرني بعشر سنوات على أقل تقدير، ولكن المفارقة ليست في أعمارهن بل في طريقة تزيين وجوههن بأصباغ لا أعتقد أن لها علاقة بالمكياج الذي تضعه النسوة نهائياً، ألوان فاقعة تظهر بجلاء حتى في عتمة الليل، وثياب تعود إلى عصر لم أولد فيه بعد، كانت هيئتهن لا توحي بأي نوع من الإثارة بل على العكس تماماً كانت توقظ شفقة على مصير من كان يفترض أن يكن ثلاث جدات بدل من جلوسهن كثلاث رخيصات بانتظار زبون عاثر الحظ، ولم يكن البناء الذي يجلسن على مدخله بأفضل حال، كان معتماً قديماً مهترئاً لا ضوء ينير جوفه سوى مصباح صغير أحمر اللون يبعث في النفس غماً وخوفاً مجهول المصدر. وعلى حين غرة وقف أمامنا قوّاد طويل

القامة لكنه عجوز مثل صديقاته الثلاث، وبدأ يمارس مهنته لاجتذابنا

- تفضلوا سادتي تفضلوا واختاروا.
- شكراً لك، لا نريد.

حاولت الابتعاد عنه قدر الإمكان.

بدأ كنعان يضحك فيما يلاحقني القوّاد الذي لم ييأس من محاولة إقناعنا.

- قد يوحي لك منظرهن بالكبر، ولكن صدّقني لا يهم العمر كثيراً مع وجود الخبرة، وإن جرّبت ستتأكد مما أقوله لك، فأي سيدة من هؤلاء الثلاثة تتحول إلى شابة في الثامنة عشرة حين...

انتابتني رغبة في الضحك من طريقة حديثه ومبرراته الهزيلة، ولكنني تمالكت نفسي حتى لا يتشجع أكثر، وابتعدت عنه قدر المستطاع فرفع يده ملوّحاً، فوسط دهشتي أدركت أنه يملك يداً واحدة والأخرى غير موجودة في مكانها، عندها انتابني شعور غريب، مزيج من الشفقة والدهشة إزاء غرائبية اللوحة التي تجسّدت أمامي، ثلاث رخيصات مسنات وقوّاد بيد واحدة، ولكنه على ما يبدو قد تآلف مع عاهته ولم يلحظ نظرتي المستغربة وظل يحاول تشجيعي على قبول عرضه.

- إنها نصيحة صديق، اغتنم هذه الفرصة ولا تجعلها تضيع منك ولن تندم.
- قلت لك إنني لا أريد، ابتعد عني- أجبته بحدة حتى أنهي هذا الحوار الذي بدأ يزعجني، ويبدو أنه أدرك ذلك فكفّ عن الاقتراب مني ومع ذلك ظل صوته يتردد وراءنا.
- لن تتاح لك فرصة كهذه مرة أخرى يا سيدي.

وما إن ابتعدت لمسافة كافية حتى بدأت بالضحك وبقي صوته يتردد في أرجاء الشارع المعتم وهو يقول:

- لك أن تختار النوع التي تشاء ونحن نضمن لك لحظات خيالية من المتعة، وإن غيّرت رأيك فنحن بالانتظار سيدي...

لم يستطع نهاد أيضاً رغم الألم أن يكبت ضحكاته وارتفعت قهقهة الاثنين وهما يستندان على بعضهما ويسيران جنباً إلى جنب، وقد بدأ كنعان يقلّد نبرة صوت القوّاد وطريقته في الكلام.

- لك أن تختار النوع التي تشاء ونحن نضمن لك لحظات خيالية من المتعة، وإن غيّرت رأيك فنحن بالانتظار سيدي...

بقينا طوال الطريق نتبادل التعليقات والضحك حول القوّاد والجدات

الثلاثة حتى وصلنا إلى باب بركة، ولو لم نشاهد ملك جالسة مع كاتيا، لكان كنعان صدّع رأسنا طيلة السهرة بتكرار التعليقات والسخرية. ولكن رؤية ملك كانت كفيلة بضياع كل رغبتنا في الضحك والسخرية ليحل مكانها شعور بالاستغراب والتوجس. ولسوء الحظ فقد رأتنا ملك وضاعت فرصة التراجع والهروب، وبدأت تنظر إلى زوجها الذي حاول الحفاظ على رباطة جأشه، ولكنه رغم ذلك اختار البقاء في المؤخرة ولم يتجاسر على الدخول قبلنا. لم تلحظ وجهه خلال عتمة المكان في البداية لذا استقبلتنا بابتسامة مشرقة تعود بالتأكيد إلى المبلغ الذي استطاعت الحصول عليه من أجل المجلة الشعرية التي تنوي إصدارها. وكما هو متوقع لم تستمر هذه الابتسامة طويلا عندما رأت أنف زوجها ووجهه المتورّمين، رمقتنا باستغراب في البداية وسرعان ما حل الغضب وسيطر عليها.

- ما الذي حصل لك؟

كان صوتها مرتفعاً وحاداً لدرجة أن الطاولة التي بجوارها والتي يجلس عليها شاب وشابة يتبادلان قبلاً صغيرة توقفا فجأة وتلفّتا حولهما بذعر يوحي بأن أحداً من ذوي الفتاة قد انقض عليها بعد مشاهدتهما متلبّسين، إلا أن ملك واصلت الأسئلة بذات الطريقة والحدة.

- أجبني ما الذي حصل، من الذي فعل بك هذا؟
- نشب شجار.

أجابها نهاد.

ولكنها بدأت تسأله بطريقة توحي بأنها على علم بما حدث.

- تعني أنك تعرّضت للضرب، أخبرني من الذي فعل هذا بك؟
- سأخبرك بكل شيء، ولكن هدّئي من روعك قليلاً.

كان يتصرّف بهدوء وتماسك على خلاف ما توقّعته، ولكن ملك لم تكن لتقتنع بسهولة.

- كيف تطلب مني أن أهدأ وقميصك غارق في الدم.

أجابت بغضب، وانتقلت نظراتها إليّ كمن يبحث عن السبب الحقيقي وراء ما حصل، فرمقتني للحظات قليلة جعلتني أشعر بالذعر، ولكن لحسن الحظ لم تتوقف عندي كثيراً بل انتقلت إلى كنعان ونظرات الاتهام واضحة في عينيها.

- ما الذي حصل، مع من تشاجر نهاد؟

حاول نهاد التدخل.

- أحد الزعران اعترض طريقي فلم يكن من مهرب سوى...

ولكنها رفعت يدها كمن تشيح عن أذنها حديثاً لا تود سماع تتمّته، وكانت هذه الحركة كفيلة بإخراسه، وأكملت اتهاماتها وهي تصيح معنّفة.

- لا تحاول الكذب عليّ، أتظنني لا أعرف بقصة هذا الخيميائي وبقية التفاهات التي تلهثون خلفها، وها هي النتيجة المتوقعة لهذه الحماقات التي ورّطت نفسك فيها.

على الفور اتجهت نظراتنا نحن الثلاثة نحو كاتيا التي بدا من الواضح أنها محرجة مما حصل، وكانت تهمّ بالكلام لكن ملك لم تتح لها الفرصة وأكملت.

- لا علاقة لكاتيا بالأمر، فقد اكتشفت الأمر بالصدفة عن طريق ابنتك الغبية مثلك والتي جمعت عشرات الكتب عن هذه التفاهات، وبدأت تجمع لك معلومات عن المشعوذين الذين تلهث خلف خزعبلاتهم، ألا تخجل من نفسك ومن توريط ابنتك معك في هذه الحماقة؟

- لا علاقة لديزى بالأمر.

أوضح نهاد.

- اصمت- صرخت بحدة وأردفت موبّخة- لا تحاول الدفاع عن أحد وأنت غارق في دمائك.

وأعادت النظر إلي ولكنها كما في المرة السابقة تجاوزتني بسرعة لتوجّه الاتهام نحو كنعان وهي تنظر إليه من رأسه حتى أخمص قدميه لتقول:

- حتى أصدقاؤك لم يكلّفوا نفسهم عناء الدفاع عنك، أو التورّط في الأمر، أنظر إلى السيد كنعان هل هناك خدش صغير في وجهه، وانظر إلى نفسك بالمقابل، فقد تورمت شفتاك وأنفك بحالة مزرية، وغداً عندما تستيقظ وتنظر إلى المرآة لن تجد سوى كتلة مزرقّة مهشّمة التضاريس بدل وجهك، حينها ما الذي ستقوله للجيران والأصدقاء، أستقول لهم أن زوجتي هي من ضربتني؟

لقد شهدت حوادث مماثلة لوقاحة ملك وتجاوزها حدود اللباقة والاحترام، ولكنها هذه المرة تفوّقت على نفسها في الصفاقة، وبدا الشحوب يكتسي وجه المسكين زوجها الذي شعر بالإحراج إزاء كل هذا الهجوم، لذا كان على أحدنا إيقافها قبل أن تكبر المشكلة، كنت أهمّ بالكلام ولكن كاتيا سبقتني.

- هدّئي من روعك، ألا ترين مدى شحوبه؟

- هذا لأنه أحمق، والحمقى لا يستحقّون الشفقة بل الازدراء.

- نهاد لم يرتكب أي حماقة- أجابها كنعان بحدة وغضب، وقد

بدأت بوادر الشجار تلوح في الأفق- كان يحاول أن يساعدني لا غير.

ولكن ملك لم تكن تنوي أن تستسلم مطلقاً، ولم تردعها نبرته الغاضبة.

- لست أفضل منه بأي حال- ردت عليه بحدة- ولكنك شخص أصابه البطر لا همّ لك سوى العبث واللهو وهدر المال، في الوقت الذي يبحث فيه الآلاف في هذا البلد عن عمل يضمن لهم لقمة العيش، على كل لا يعنيني ما تفعله، ولكن لا يحق لك أن تورّط الآخرّيْن في حماقاتك، وتسبّب لهما الأذى، فلديهم أُسر وبيوت بحاجة إليهما، وإن حصل لهما أي مكروه من سيتولى رعايتنا أتستطيع أن تخبرني؟

بدا الضيق على صديقي الذي لم يحر جواباً.

- أنت تبالغين- ردّ عليها نهاد، وقد بدا واضحاً أنه لم يعد يحتمل وقاحة زوجته- كنعان لا دخل له بالأمر فقد تطوّعت لمساعدته من دون طلب منه.

كان عليّ أن أساند صديقي.

- نهاد محق فيما يقول، فقد اخترنا المشاركة في الأمر بمحض إرادتنا.

- لأنكما أحمقان- نعتتني بالأحمق بكل صفاقة ومن دون أن يرفّ لها جفن، وواصلت تعنيفها دون تمهّل- كل الرجال حمقى، ولكن انظروا إلى كاتيا التي بقيت محافظة على رصانتها ولم تقحم نفسها في هذه التفاهات.

تململت كاتيا بضيق وهي تدمدم.

- أنت مخطئة فيما تقولين، فأنا أيضاً أشاركهم في الأمر.

- ولكنك لا تعرّضين نفسك للإيذاء والضرب، كما أنك تبقين في الاستديو طوال الوقت لإتمام عملك- لم تكلّف نفسها عناء الاستمرار في مناقشة كاتيا أكثر من ذلك وعادت للتهجّم على زوجها.

- أكثر النساء غباءً تتفوق عليكم بذكائها... ولكن أكثركم غباء هو زوجي.

- انتبهي لكلامك ملك، فأنت تبالغين في الإساءة.

قالها وهو يرمق زوجته بغضب واضح وقد وضع يديه على الطاولة في مواجهتها. استغربت ملك من الشجاعة التي تخللت صوته.

- ما الذي تقوله؟

- انتبهي لكلامك.

وعلى الرغم من وضعه المزري فقد كانت رغبته في تجديد الشجار

واضحة وبدا مستعدّاً لمواجهتها بعد أن طفح الكيل.

- وإن لم أفعل؟

- سأطلب منك مغادرة المكان.

صرخ في وجهها.

ساد صمت جليدي ليس على الطاولة فحسب بكل على المكان بأكمله، وبدا الكل يراقب هذه المشاجرة الزوجية، ولكن ما أثار دهشتنا هي الشجاعة التي أبداها نهاد في مواجهة زوجته، وأكاد أجزم أنها المرة الأولى التي يتجاسر فيها على مخاطبتها بهذه الطريقة.

- أتعي ما تقوله، أتعي حقاً ما تتفوّه به؟...

بدا أن صوتها فقد بعضاً من حدته.

- أنا أعي تماماً ما أقوله وأعني ما أقوله، ولن أسمح لك بمخاطبة صديقيّ بهذا الأسلوب مرة أخرى.

صمتت للحظات ظننت فيها أنها تبحث عن مخرج وطريق للعودة إلى الخلف لتجنب نتائج ما سيحصل إن بقيت متمسكة بعنادها، ولكنها ولترسّخ صورتها التقليدية في أذهاننا بقيت على موقفها ولم تكن تنوي الاستسلام بسهولة.

- أتعني بأنك تطردني؟

- لا أطردك، ولكنني لن أسمح لك بمزيد من الإهانة.

- ولكنهما سمحا بأن تهان وتُضرب على ما يبدو.

قالت وهي تشير إلى وجهه.

- لا تقلقي فقد نال عقابه ودفع ثمن غلطته- استمر نهاد في سرد الأكاذيب على مسامع زوجته- وقد تم إسعافه إلى المشفى جراء الضربات التي تلقاها من صديقيّ، صديقيّ اللذان لم يتخليا عني، ولن يفعلا مطلقاً، ويتعاملان معي بكل ود واحترام في جميع المواقف، على عكسك.

- لا أود سماع المزيد من الترهات.

أجابته بضيق.

- بالطبع، فسماع الحقيقة لا يروق لك.

- عن أي حقيقة تتحدث يا هذا، لستم سوى ثلاثة مجانين اجتمعوا سوية.

ثم نهضت عن الطاولة ووجّهت حديثها إلى كاتيا.

- لا تورّطي نفسك مع هؤلاء الحمقى، فلن يجرّوا عليك سوى البلاء، وإن أردتي نصيحة اتركي العمل في الاستديو أيضاً فهذا خير لك.

ثم توجهت نحو نهاد لتنهي هذه النقاش بطريقتها.

- أتمنى ألا أراك في البيت بهذا المنظر المزري.
- اهنئي بالاً فلا نية لدي بالعودة.
- ملك اجلسي ودعينا نناقش الأمر بهدوء، ودعكما من التصرّف بهذه الطريقة.
- أرجوك ألا تتدخل في الموضوع، إنها مشكلة بيني وبين زوجي.

ردت عليّ بحدة.

من الواضح أنها تحاملت على نفسها وهي تقول كلمة زوجي، ولكن المريح في الأمر أنها قررت المغادرة، وما إن خطت بضع خطوات، وتنفسنا الصعداء حتى التفت من جديد، ووجهت نحونا نحن الثلاثة نظرات نارية وهي تحذّرنا.

- إياكم وتوريط ابنتي في هذه الحماقات، وإلا أقسم إنني سأقتلكم.

وأخيراً، استدارت ورفعت رأسها، وخرجت بخطوات تعمّدت إبطاءها، وهذه المرة تنفّس كل من في المكان الصعداء وشعر بالراحة.

- كان الأمر مؤسفاً.

عقّبت بعد خروجها.

- بل من الجيد أنها غادرت- قالها نهاد غير نادم- لقد طفح الكيل، ولم أعد قادراً على تحمّل سفاهتها ووقاحتها.
- أعتذر حقاً عما حصل، لقد حذّرتكم منذ البداية من الاشتراك معي في هذا الموضوع، وها قد بدأت المشاكل كما توقّعت، أشعر بالأسف لأنني سبّبت لك المتاعب مع زوجتك؟

قالها كنعان والندم يقطر من صوته.

- وأنا أشعر بالندم لاصطحابها معي- علّقت كاتيا بدورها- صدّقوني لم أخبرها بكلمة واحدة عن الموضوع، فقد أتت إلى الاستديو، وسألتني عن نهاد فأخبرتها بأنكم ذهبتم لأمر غير ذي بال، ولم أذكر لها أي شيء عن نيكولاس فليمل بل هي من بادرت بالسؤال لأنها عرفت الحقيقة من ديزى التي اضطرت للاعتراف أمام إصرار والدتها، ومع ذلك بقيت على صمتي، ولكنها كانت منزعجة من أمر آخر، فقد خسرت جائزة لمسابقة شعر كانت تعقد الأمل عليها، واتهمت لجنة الحكم بأنها تقصدت إعطاء الجائزة لشاعر آخر، وهو شاب ينتمي إلى أحد الأحزاب اليسارية، لذا حاولت مواساتها قدر المستطاع وبعد أن شربنا القهوة أخبرتها بأن عليّ الخروج لملاقاة كنعان في بركة فطلبت المجيء معي، ولم أستطع أن أرفض، ولكنني لو كنت أعلم

بما حدث معكم لتجنّبت إحضارها بكل تأكيد.

- لا تعتذري يا عزيزتي، فاللوم لا يقع على أحد منكم، بل يقع عليّ لأنني تزوجت امرأة مثلها، وتحمّلت نزقها وجنونها كل هذه السنين، ولكنني لم أعد قادراً على التحمّل أكثر، لقد طفح الكيل- قالها وهو يلوّح بيديه كمن يشيح بوجهه عن أمر كريه.

كنت أود تصديق كلامه، ولكنني كنت أعرف صديقي حق المعرفة، وكنت متأكداً من أنه سيذهب في الغد ليطلب العفو منها والسماح بالعودة إلى المنزل، وهذا بطبيعة الحال سيدفع ملك إلى الاستشراس أكثر والتمادي في الإساءة إليه، ولكنني من جهة أخرى كنت مستغرباً من ردة فعله الشجاعة، وقدرته على مواجهتها لأول مرة بهذه الطريقة حيث استطاع طردها من المكان دون أن يرفّ له جفن، وقد يتطور الأمر إلى قطع كل علاقته بها، بالطبع هي ليست نهاية سعيدة، فذلك يعني انهيار العائلة، وستدفع ديزى الثمن بجميع الأحوال، وستتراجع في دراستها أكثر مما هي عليه... كيفما قلّبت الأمر في ذهني كانت النتائج تبدو وخيمة وغير سعيدة، وإن تمّ الطلاق بالفعل فسينهار نهاد، وستقع على عاتقي أنا وكنعان مهمة التخفيف عنه كما في كل مرة.

- مرحبا بك في مشربي المتواضع- أعادني صوت إردينج الباش إلى الطاولة مرة أخرى، من الواضح أنها محاولة منه لإعادة الأجواء إلى سابق عهدها.

- ألن تشربوا شيئاً؟

لم تتح لنا ملك فرصة لالتقاط نفسنا بهجومها الذي شنّته منذ اللحظة الأولى، ومع قدوم إردينج عدنا إلى الواقع وطلب كل منا قدحاً خلا نهاد الذي كان عليه الابتعاد عن الشراب حتى لا يتداخل مع مفعول الدواء الذي أعطاه إياه الطبيب في المستوصف، ولتلطيف الأجواء شغّل الشاب موسيقى الجاز التي يدرك أننا نفضّلها على سواها، ولكن لا الشراب ولا الموسيقى استطاعا أن يبعدا عنا الكدر الذي جثم على صدورنا كحمل ثقيل، وبعد انتهاء القدح الأول غادرتنا كاتيا قليلاً للتحدث مع أصدقاء لها متواجدين في المكان، فسألني كنعان على الفور وكأنه كان ينتظر هذه الفرصة.

- هناك سؤال يدور في ذهني منذ لحظة خروجنا من المتجر، ما الذي دفعك لإشهار مسدسك في وجه الشاب بهذه الطريقة؟

كانت المرة الأولى التي تطرّقنا فيها إلى ذكر المسدس بعد انتهاء

مغامرتنا، فعند خروجنا كنا منشغلين بمداواة نهاد، وبعد أن وصلنا إلى بركة عاجلتنا ملك بشجار جديد، وقد بدا بريق الاهتمام في عينيّ نهاد أيضاً الذي استيقظ من صدمته.

- لقد اتبعت مشورتك يا صديقي، فأنت من طلب مني إحضار المسدس.

- متى؟

- عندما كنا في مطعم الشواء، طلبت مني إعطاءك الرخصة لتحمل معك مسدساً.

- صحيح- تدخّل نهاد- أذكر تماماً ما قلته حينها.

سررت لأنه استعاد نشاطه القديم وشاركنا في الحديث.

- صدّقني لا أتذكّر، ولكنه ليس بالطلب الغريب عني.

- من الجيد أنك تعترف بجنونك، لذا فضّلت اصطحابه معي بدل أن أعطيك إياه، ولحسن الحظ أنه كان معنا، وإلا كان ذو الرأس الكبيرة سيردينا قتلى جميعاً ويكوّمنا في زاوية المتجر ككومة ثياب متسخة.

- وقد فعل- قالها نهاد وهو يشير إلى أنفه- لا زال الألم شديداً، أمتأكد من أنه لم يصب بالكسر؟

- كف عن التذمر، ألم تسمع ما قاله الطبيب؟

حاولت إسكاته.

- أنت محق، فلو لم تحضر معك المسدس لكان مصيرنا مماثلاً لمصير هذا المسكين، ولكن إن أردتم الحقيقة فقد كان مقاتلاً بارعاً.

اعترف كنعان.

- لقد باغتنا، كما أنه شاب في مقتبل العمر وليس مثلنا نحن- حاول نهاد أن يجد مبرراً ولكن دون طائل.

- لا تحاول التغطية على فشلنا، فحتى لو كنّا في عمره كنّا سنتعرّض لمصير مماثل، لذا كفّ عن التبرير يا صديقي.

لكن نهاد كان لا يزال تحت تأثير الخيلاء التي شعر بها إزاء موقفه البطولي مع زوجته أمامنا. لذا، فقد واصل التبجّح دون طائل.

- أجزم بأنني لو كنت في عمره لكنت أنا من كسر أنفه، ولا تنسى أنه باغتنا وإلا لكنت لقّنته درساً لا ينسى.

- لست واثقاً من مهاراتك القتالية يا صديقي، ولكنني نادم أشد الندم لأنني لم أصطحب معي أورهان.

لم يكن نهاد مطّلعاً على حادثة الشجار التي حدّثت كنعان عنها، لذا

رمقني مستفهماً وقبل أن أوضح له الأمر بدأ هاتفي النقال بالرنين، كان المتصل يتكلم الفرنسية، للحظات استغربت، ولكنني أدركت بعدها أنه بيير، وقد أخبرني أنه تناول العشاء مع اثنين من الإيطاليين، وهما موظفين مرموقين في شركة يقع مركزها في ميلانو، وقد حدّثهما عن فكرة المعمل الذي أزمع إنشاءه، وأبديا اهتماماً شديداً بالفكرة، ولكنهما سيعودان إلى إيطاليا في الغد، وفي حال قررت اللقاء بهما أستطيع السفر إلى ميلانو بعد الغد إلى هناك، وسيوافيني بيير أيضاً ليحضر اللقاء.

- لقد استطعنا النجاة من المافيا الروسية في آخر لحظة، أتودّ توريطي مع المافيا الإيطالية الآن؟

ضحك مقهقهاً.

- لا تقلق يا صديقي فأنا أضمن لك هذه المرة أنهما نزيهان، ولا علاقة تربطهما بالمافيا.

كان إنشاء المعمل هاماً بالنسبة إلي بكل تأكيد، ولكنني منغمس في موضوع التحقيق الآن، لذا احترت فيما يجب أن أقرره.

- سأتصل بك بعد خمس دقائق.

أغلقت الهاتف فيما يتابعني صديقاي بفضول.

- من المتصل؟

سألني كنعان.

شرحت لهما الأمر بصورة مختصرة.

- ولما لم تخبره بأنك موافق على السفر؟

عاد كنعان إلى السؤال.

- لأنني لا أود ترك القضية التي نعمل عليها.

- هل جننت؟ كيف تضيّع هذه الفرصة من يدك؟- ثم وضع يده بودّ على كتفي وهو يقول- أعلم أنك لا تريد أن تتركني بمفردي يا صديقي، ولكنك بالمقابل تحتاج وبشدة إلى شركاء من أجل إنشاء المعمل الذي تطمح إليه، كما أن كلمات ملك زادت من إحساسي بالذنب تجاهكما، أرجوك لا تضيّع هذه الفرصة.

- دعك من كلام هذه المجنونة.

علّق نهاد على كلامه.

- لا تقل هذا يا نهاد، صحيح أنها بالغت في ردة فعلها، ولكنها محقّة في مخاوفها بكل تأكيد، فلو أصابكما مكروه لا سمح الله، كيف سأواجه زوجتيكما ووالديكما، كيف سأبرر لهم الأمر حينها؟.. لقد كانت ملك

محقّة في كل ما قالته.

كان يتكلم والندم ينهشه.

للحظات تمنيت أن يقوده الندم نحو التخلي عن هذه الفكرة المجنونة لنعود لحياتنا المعتادة من دون خوف أو قلق، لذا سألته مستوضحاً.

- حسناً، وما الذي تنوي فعله الآن؟

- لا أعلم يا صديقي.. لا أعلم، المنطق والعقل يقولان أن أتخلى عن الأمر، ولكنني بعد أن تورطت إلى هذه الدرجة لا أظنني قادراً على العودة إلى الخلف وكأن شيئاً لم يكن.

كان يتحدث وهو يتهرب من مواجهة نظراتي.

- إذاً لا داعي لكل هذا القلق.

أجبته بابتسامة صادقة لأثبت له أنني سأؤيد قراره أياً كان.

- ولكن عليك السفر إلى إيطاليا، لقد تسببت في مشكلة كارثية بين الرجل وزوجته، ولا أريد أن أعرّضك للإفلاس أيضاً.

- لا تقلق يا صديقي، فأمور المتجر بخير ونحن أبعد ما يكون عن الإفلاس حالياً.

- ومع ذلك عليك أن تسافر وتهتم بعملك، وسنحاول أنا ونهاد أن نتدارك غيابك، وكما رأيت فقد طردته ملك من البيت. لذا، سيبقى معي طوال الوقت، كما أنك لن تغيب أكثر من بضعة أيام أليس كذلك؟

- لا أعلم قد يطول الأمر لأكثر من أسبوع.

- حسناً لا ضير من غيابك لأسبوع، كما أننا مضطرون حالياً لانتظار نتيجة المحاكمة لنعرف إن كان بإمكاننا التحدث إلى رشاد أم لا.

- كنعان معه حق- سانده نهاد- سنتولى نحن البحث حتى تعود، لذا تستطيع السفر وأنت مطمئن.

- ولكن عليك أن تعدنا بألا تقدم على أي شيء بمفردك كما فعلت اليوم مع مرسل.

كانت المرة الأولى التي أواجهه بالخطأ الذي ارتكبه والمشكلة التي تسبّب في حدوثها، ولم ينكر التهمة بدوره بل قال وهو يهز رأسه موافقاً.

- لا عليك، لن تتكرر هذه الغلطة.

- حسناً. يمكنني الآن معاودة الاتصال ببيير.

وقبل أن اضغط زر الاتصال أوقفني كنعان بحركة من يده وهو يقول:

- ما رأيك أن نطلب من بيير هذا أن يجمع بعض المعلومات عن

كاثرين فيرجاند، أم أنك لا تود أن تطلب منه أمراً كهذا؟

- على العكس تماماً فهو يتقاضى مني مبلغاً كبيراً لقاء خدماته، ولا أظنه سيرفض الأمر، ولكنني أظن أنه يحتاج إلى بعض الوقت حتى يتمكن من العثور عليها، فكما تعلمون نحن لا نعرف عنها شيئاً سوى رقم صندوق بريدها واسمها.

وبينما كنت أتحدث مع بيير أحضر لنا النادل الكيس الذي فيه قميص نهاد، أخرج كلاهما القميص ولاحت نظرات الرضا على وجه نهاد، وفي هذه الأثناء عادت كاتيا أيضاً إلى الطاولة.

أخبرته عن كاثرين، وكما توقّعت فلم يسمع باسمها من قبل ولا حتى باسم نيكولاس فليمل، ولكنه أخبرني بأنه سيبذل قصار جهده من أجل الحصول على عنوانها بأسرع وقت ممكن.

- ممتاز، فهو سيسهّل علينا المهمة.

نظرت إلينا كاتيا بفضول وهي تسأل:

- هل ستسافر إلى باريس؟

- ربما أفعل من أجل مواصلة التحقيق والبحث.

عاد العبوس يرتسم على ملامح وجهها الجميل عندما سمعت بكلمة التحقيق، لقد كانت مصرّة على عدم التورط معنا، ما دفعني إلى احترام إصرارها وتمسكها برأيها، لكن كنعان لم يبال بالأمر مطلقاً.

- نسيت أن أسألك من قبل يا عزيزتي، هل لك أقرباء في فرنسا من الروس الذين هربوا من الثورة ولجأوا إلى تركيا ومن ثم سافروا إلى باريس؟ أتتذكرين أن لك قريبة تدعى كاتيا تعيش هناك؟

لم تفهم كاتيا ما يرمي إليه صديقي من سؤاله، لذا رمشت بعينيها الجميلتين مستفهمة.

- لا تقلقي يا حبيبتي، ولكنه مجرد فضول لا أكثر.

أوضح لها كنعان.

- لا أقرباء لي بهذا الاسم.

نظرت إلي للحظة ومن ثم بدأت بالضحك.

- ما الأمر؟

سألتها.

- لا شيء ولكنني أشعر بأنني عشت هذه اللحظات من قبل.

- أتعنين ظاهرة الديفاجو؟

سألها نهاد هذه المرة.

- لا علاقة للديفاجو بالأمر يا صديقي- ونظر إليّ كنعان وهو يكمل- عندما أتينا هنا في المرة الماضية سألتها أنت السؤال ذاته عن أقرباء لها فروا من الثورة الشيوعية.

- أنا؟

سألته.

- بالطبع- كانت مسرورة لأن كنعان استطاع فهم الظاهرة- إذاً لم أكن مخطئة حين شعرت بأنني عشت موقفاً مماثلاً من قبل.

- ولكنني حينها لم أذكر لك أحداً باسم كاثرين فيرجاند.

أوضحت لها.

- أجل، ولكنك سألتني إن كان لي أقرباء في تركيا فروا من الثورة وبقيوا فيها.

- أجل لقد تذكرت الآن.

عقبت على كلامها.

لم يستطع نهاد أن يشاركنا احتساء الشراب لذا بدا يشعر بالملل من الجلوس في بركة، وأخذ يتذمر من إطالة مكوثنا.

- متى سنغادر، لقد مللت الجلوس هنا.

- فلنذهب - تدخّل كنعان- فأنا أشعر بجوع شديد.

- إلى أين سنذهب؟

سألته كاتيا.

- كنت أنوي إعداد الطعام في البيت، ولكن لا رغبة لي في ذلك الآن، هناك مطعم ياباني في تقسيم، ما رأيك بالذهاب إليه؟

- سنذهب مرة أخرى لتناول الطعام الياباني، ما رأيكم بالذهاب إلى مطعم يدعى ليلى، يقع عند تقاطع شارعي سوسلو وساكيز آجي، ذهبنا أنا وإردينج إلى هناك منذ عدة أيام، إنه مكان جميل، وصاحب المطعم شاب يدعى إركان وهو شخص لطيف جداً.

- وكيف هو هذا المكان؟

استوضح كنعان.

- يشبه المطاعم القديمة، ولكنه هادئ ومريح جداً كما أنه يقدّم طعاماً شهياً سيعجبكم بكل تأكيد.

- أنا موافق- قال كنعان ثم التفت نحونا- ما رأيكما؟

- عليّ الذهاب إلى المنزل، اذهبوا واستمتعوا بوقتكم.

علّقت على الأمر.

- كنت أرغب في أن نذهب سوية.

خاطبتني كاتيا.

- في وقت آخر، ولكنني يجب أن أعود إلى المنزل وأجهّز حقيبتي للسفر غداً.

## (26)

في اليوم التالي انطلقت من مطار يشيل كوي نحو ميلانو بناء على توصية بيير دوغو، ولكنني كنت أشعر بالضيق لأنني أُجبرت على ترك الأحداث في ذروتها لأبتعد آلاف الكيلومترات، ومع ذلك كان هذا اللقاء ضرورياً لمستقبلي المهني، كما أنني خلال اليومين المنصرمين كنت قد راكمت الكثير من الأعمال التي تحتاج التدقيق والمراجعة، إلا أنني كنت أود لو أن هذا اللقاء قد حصل قبل شروعنا في هذه المغامرة. كانت هذه الأفكار تشغلني أثناء صعود الطائرة وقد زادني منظر السماء الرمادية المكفهرّة ضيقاً، وحتى عندما غاصت الطائرة في بحر الغيوم الماطرة وارتفعت فوقها لتقابلنا زرقة السماء الرائعة لم أشعر بتغيّر يذكر، ويبدو أن المرأة العجوز الجالسة بقربي قد لاحظت الضيق البادي عليّ فعزته إلى خوفي من الطائرة، لذا أعطتني قطعة حلوى بطعم النعناع أخرجتها من حقيبتها، وهي تعدّد فوائد النعناع لي من أجل تهدئة النفس، ولأنني لم أكن راغباً في مناقشتها قبلت هديتها وأنا أشكرها. لكن النعناع لم يكن هو العلاج الناجع للقلق والهواجس التي تنتابني، كنت أتصوّر حصول أسوأ الأمور في غيابي وتطور الأحداث بشكل لن أتمكن معه من التدخّل وأنا على هذه المسافة البعيدة، وفي الوقت ذاته كان صوت عميق في داخلي يسخر من كل هذه الأفكار التي توحي بأن غيابي عن أصدقائي لبضعة أيام سيتسبب في إيقاف عجلة الزمن، فالأحداث ستسير في مجراها بوجودي أو بغيابي والزمن لن يتوقف بكل تأكيد حتى لو غبت إلى الأبد... أخيراً وصلنا إلى مطار ميلانو كان بيير في انتظاري هناك، وهذا ما خفّف عني وحشة الوصول إلى مكان جديد لا أعرف فيه أحداً، كان يستقبلني باشاً لكن سماء ميلانو كانت متضامنة مع سماء اسطنبول في اكفرارها وكانت الأمطار تهطل بغزارة.

أخبرني بيير بأنه حجز لنا في أحد أجمل الفنادق التي تقع في قلب المدينة بالقرب من جميع المعالم الأثرية، والتي كان يريد مني الذهاب لرؤيتها حالما نستطيع، وكأننا قدمنا إلى ميلانو في رحلة سياحية، فقد اقترح عليّ زيارة ثالث أكبر دار عبادة في أوروبا وأهم مسارح الأوبرا في العالم وهي دار لا سكالا، وأيضاً مشاهدة النسخة الأصلية للوحة ليوناردو دافنتشي الشهيرة وهي (العشاء الأخير)، بالطبع لولا الأفكار التي تشغلني عن الاستمتاع بكل شيء لما فوتت فرصة كهذه على نفسي، ولكن جلّ ما كان يشغل اهتمامي الآن هو اللقاء بهذين الإيطاليين وعقد الاتفاق والعودة

بأقصى سرعة ممكنة، لذا سألت بيير عن رأيه فيما ستؤول إليه الأمور.

- أعتقد أن الأمر سيتم هذه المرة- أجاب بثقة- فقد أعطيتهما معلومات وافية عنك وعن المتجر والموديلات التي تنتجونها، وعن الشركات الأجنبية التي ترسل في طلب البضاعة من عندك، كما أعطيتهما الفيلم القصير الذي يعطي صورة كافية عن المتجر والمعمل، وكافة التفاصيل الأخرى، وكانا مهتمين بالأمر يناقشان أدق التفاصيل، وبديا متفائلين جداً ومرحّبين بالفكرة، وأظن أننا سنوقّع هذا العقد خلال يومين على أكثر تقدير.

بالطبع، لم تصدق توقعات بيير فقد استمرت المحادثات بيننا لثلاثة أيام متواصلة، كانا ينظران إلى الموضوع بجدية بالغة ويناقشان أدق التفاصيل، وأخيراً بعد أن اتفقنا على إبرام العقد وتم التفاهم على كافة الشروط، أصيب الجد وهو صاحب الشركة ورئيس مجلس الإدارة بنوبة قلبية أدخلته المشفى فأطلعت بيير على مخاوفي.

- وماذا إن مات الرجل؟

غام وجه الفرنسي، ولاح القلق في عينيه وهو يقول متوجساً:

- لا أعلم ما الذي سيحصل حينها.

لحسن الحظ، نجا الجد من الموت، ولكنه كان بحاجة إلى أسبوعين على أقل تقدير ليستعيد عافيته ويصبح قادراً على مزاولة العمل والتوقيع على الاتفاقية، وهذا يعني عودتي إلى ميلانو مرة أخرى. لذا، خطرت ببالي فكرة أخرى وعرضتها قائلاً:

- ما رأيكما أن تقوما بزيارتي هذه المرة، فقد أتيت وتعرفت على مدينتكما الجميلة وحان دوركما للتعرّف على مدينتي، كما أننا ما إن نوقّع العقد سيتوجب علينا القيام بزيارات متبادلة على الدوام. لذا، فليتم توقيع العقد في اسطنبول إن لم يكن لديكما مانع.

استحسن الإيطاليان الفكرة، ولاحت على وجهيهما اللهفة في زيارة اسطنبول، ولكنهما كانا بحاجة للتشاور قبل اتخاذ أي قرار.

وعندما عدنا إلى الفندق اقترحت على بيير أن نعرض نص العقد على هارفي كارتيير.

- ما رأيك أن نعرض عليه نص الاتفاق، فلا ضير من الاطلاع على رأي المحامي؟

كان هارفي هو المحامي الموكل بتسيير معاملاتنا التجارية في الخارج.

- كنت أود أن أقترح عليك الأمر ذاته، ما رأيك أن نسافر معاً

إلى باريس وتتكلم معه وجهاً لوجه؟

- ألن يطول الأمر؟

- مجرد يوم لا أكثر، سنصل باريس اليوم وغداً ستقابل هارفي، وما إن ينتهي اللقاء سأحجز لك على أول طائرة متجهة إلى اسطنبول.

لن يتغيّر الكثير إن بقيت بعيداً عن اسطنبول ليوم آخر، فخلال هذه الأيام الثلاثة كنت أتصل مع كنعان كل يوم ليطلعني على مجريات الأحداث، لم يحصل شيء ذي بال بحسب ما أخبرني به، فهم ينتظرون صدور قرار المحكمة بحق رشاد، وكان يسألني بدوره إن استطعنا الوصول إلى أي معلومة حول كاثرين، وقد أخبرته بأنني حين أصل إلى باريس سأشرف على مهمة البحث بنفسي.

حين وصلنا إلى باريس كان الظلام يخيّم على شوارعها الجميلة التي أضيئت مصابيحها لتزيد من جمالها، وكان المطر هادئ يغسل أشجار الكستناء المرصوفة على جانبي طرقاتها. رفضت عرض بيير بالخروج وقضاء الليلة في أحد أماكن السهر العامة، كنت أفضّل البقاء في الفندق والاستعداد من أجل السفر في اليوم التالي، إلا أنني وبعد أن تناولت العشاء شعرت بضجر شديد، لذا نزلت إلى ردهة الفندق، وسألت موظف الاستقبال عن كاثرين فيرجاند وأخبرته عن رقم صندوق بريدها، فنظر إلي نظرة تعني أنه لا يعلم بالغيب ولكنه أجابني بكل لباقة بأنه لايعرف طريقة الوصول إلى امرأة لا معلومات محددة حولها، وعندما سألته عن نيكولاس فليمل قابلني بنظرات أشد استغراباً، فكففت عن المحاولة، كان المطر قد توقف في الخارج. لذا، قررت القيام بجولة طويلة سيراً على الأقدام. كانت نسائم باردة تهبّ، ولكنها منعشة تشي باقتراب الشتاء، حاولت ملء رئتي بهذا الهواء قدر استطاعتي، وعندما عدت إلى الفندق كان البرد والتعب قد نالا مني، فصعدت على الفور إلى غرفتي وأخذت حماماً ساخناً خلته سيمكنني من النوم على الفور، ولكنني كنت مخطئاً فقد بقيت أتقلّب في الفراش حتى بزوغ الفجر.

استيقظت في الصباح على رنين الهاتف، حيث أخبرني موظف الاستقبال أن صديقي ينتظرني في الردهة، لم أتمكن من النوم سوى ساعات قليلة، لذا استغرقت أكثر من نصف ساعة قبل أن أتمكن من النزول لملاقاة بيير، حيث ذهبنا سوية إلى مكتب المحامي هارفي، الذي يحتل الطابق الثاني في أحد الأبنية القديمة لشارع باليسا دي جوستيك، وعلى عكس دماثة بيير فقد كان شخصاً جامداً، وبعد أن ألقى نظرة على بنود العقد أوضح لي.

- لا يوجد ما يدعو للقلق في هذا العقد، ولكن لِما كلّفت نفسك عناء المجيء، لو أرسلت لي نسخة الكترونية عبر الإيميل لكنت اتصلت بك وأخبرتك برأيي.

ومع ذلك لم تذهب كل شكوكي، وبدأت أناقشه في بندين من العقدين يسبّبان لي القلق، أعاد هارفي قراءة العقد بتمعّن، وأنزل بعد ذلك كتابين من مكتبته القانونية، واستمر في قراءتهما حوالي العشر دقائق، ثم رفع رأسه وهو يطمئنني.

- اطمئن سيد سليم، بنود العقد منصفة في حق الطرفين، وقد تعامل معك الطليان بكل نزاهة

وبعد أن غادرنا مكتب المحامي، لم تكن لديّ وجهة محدّدة ولكن بيير اقترح وجهتنا.

- حتى الآن لم أتمكن من العثور على هذه السيدة التي تدعى كاثرين، ولكنني تمكنت من العثور على منزل نيكولاس فليمل الذي تم تحويله إلى متحف ومطعم في آن واحد، ما رأيك أن نذهب لرؤيته ونتناول طعام الغداء هناك معاً؟

توجهنا نحو منزل فليمل الذي يقع في شارع ماريس الأثري حيث تصطف على جانبي الطريق أبنية أثرية يزيد عمرها عن الثلاثمائة عام أو أكثر، كما أن منزل فليمل أيضاً كانت تقطنه إحدى العائلات النبيلة فيما مضى وكان أقدم المنازل في الحي كما يبدو من مظهره، كانت يتألف من ثلاث طوابق ينتهي بسطح هرمي. إذاً في هذا المنزل كان فيلمل يجري أبحاثه وتجاربه الخيميائية، وهنا اكتشف حجر الفلاسفة وسر الخلود، تمنيت حينها لو انتقل هوس البحث عن الخلود بهذه الطريقة إلى صديقي المجنون كنعان، عوضاً عن طريق الموت الذي يقودنا فيه والذي سينسف حياتنا جميعاً قبل أن يصل إلى أعتاب الخلود.

عندما دخلنا المنزل وعلى الباب الرئيس حيث الطابق الأول قد تحوّل إلى مطعم، استقبلنا نادل بشوش الوجه، ولكننا أخبرناه بأننا نريد القيام بجولة في المنزل، وطلبنا منه أن يرافقنا دليل يطلعنا على محتويات المنزل، في الحقيقة كان منزلاً عادياً بل ومتواضعاً لا يوجد فيه شيء مميّز، تفوح رائحة الزمن والقرون المتعاقبة من أثاثه الخشبي اليدوي الصنع، ولكن، ما لفت انتباهي هو الباب الذي يؤدي إلى القبو والذي رفض الدليل أن يفتحه لنا بحجة أن القبو كان المكان الذي يجري فيه فليمل أبحاثه، وقد منعت السلطات أن يقترب أحد من المكان، وتركته كما هو دون أي تغيير

منذ أن غادره فليمل، بالطبع لم أصدّق هذه الرواية التي هي مجرد شائعة من أجل إضفاء جو من الغموض على المكان وجلب المزيد من المرتادين إلى المكان. في طريق عودتنا إلى المطعم كانت الجدران مزيّنة بلوحات فليمل والتي أحضرت أيسون معها نسخاً عنها. وعند المدخل المؤدي إلى صالة الطعام كانت هناك زاوية عرضت فيها تذكارات عن فليمل بعض اللوحات الصغيرة وأشياء أخرى ولكن ما لفت انتباهي هو كتاب عن حياة فليمل، من تأليف كاثرين فيرجاند، اقتنيته على الفور مع بعض الأشياء الأخرى، سألت الدليل الذي يرافقنا إن كان يعرف عنها شيئاً، لكنه للأسف لم تكن لديه أي معلومات حتى أقدم النُدل هنا لم يكن يعرف عنها الكثير فقد أوضح لي:

- كانت تأتي إلى هنا منذ خمس عشرة سنة، وحتى في ذلك الوقت كانت عجوزاً، وأغلب الظن أنها ماتت الآن بعد مرور كل هذا الوقت.

بدأنا بتناول الطعام الذي كان شهياً وطُبخ بصورة ممتازة، شوربة البصل والسمك المفلطح، مع كأس من الشراب الفرنسي. كان شعور الشبع مريحاً حقاً.

بعد الانتهاء من الطعام أطلعني بيير على أمر يخصه.

- هناك أمر أود إطلاعك عليه- تمهّل للحظة- لقد أغرمت.
- إنه خبر رائع.
- ولكن عليّ الذهاب لرؤيتها، فكما تعلم لقد بقينا ثلاثة أيام في ميلانو.
- اذهب ما المانع.
- ألن تنزعج لأنني لن أبقى معك حتى موعد سفرك.
- بالطبع لا. ولكنك لن تتركني منذ الآن، أعني ستوصلني إلى الفندق قبل ذلك.
- بكل تأكيد، كما أن منزل كاميليا يقع بالقرب من الفندق، سأصطحبك للتعرف عليها وأوصلك إلى الفندق بعد ذلك.
- حسناً.
- شكراً لتفهّمك، ولكنني لم أتمكن حتى الآن من إيجاد عنوان كاثرين حتى الآن.
- لا عليك، ستجده في وقت لاحق.
- كاميليا فتاة رائعة وقد حدّثتها عن اسطنبول كثيراً لذا قررنا أن

نمضي الصيف المقبل في اسطنبول.

يا للروعة يا عزيزي بيير أن تصطاف في اسطنبول وأنا أدفع ثمن كل خطوة تخطوها، بالطبع لم أكاشفه بمونولوجي بل رسمت ابتسامة واسعة على وجهي، ولكنني لاحظت بأنني بدأت أحب هذا الرجل الفرنسي، وقد يكون هذا سبب فضولي للتعرّف على حبيبته، على الرغم من ثقتي أن بيير الوسيم لن يختار إلا فتاة جميلة، لكن اختياره فاق كل توقعاتي، كانت آية من الجمال الأسمر بقامتها الطويلة وخصرها الأهيف، وعيناها السوداوين الرائعتين، خلا دماثة خلقها ولطفها، كانت هذه المرأة أجمل ما شاهدته في باريس وكنت أتمنى لو أتيحت لي الفرصة للبقاء بقربها لوقت أطول، فقط لمجرد التمتع بهذه اللوحة الأفريقية الرائعة التكوين، وعندما ودعتها صافحتني بأصابعها الرقيقة الطويلة فوجهت لها دعوة قلبية لزيارة اسطنبول الصيف القادم.

عدت إلى الفندق، وعلى الفور اتصلت بكنعان الذي لم تكن لديه أخبار جديدة، بدوري أخبرته أننا لم نعثر على عنوان كاثرين بعد، بدا الضيق على صوته لكن ما من حل. بعد أن أخذت استراحة قليلة، ذهبت للتجول في الأماكن التي كنت أرتادها في صباي كشارع سان جيرمان، ثم توجهت إلى إحدى الكافيتريات المفضّلة لديّ حينها، واشتريت بعض الألعاب من محلات بون ميرسي لبورج، وبعض العطور لكولريز، كنت أود شراء هدية لكاتيا أيضاً لكنني تخليت عن الفكرة. عندما وصلت الطائرة إلى مطار يشيل كوي كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً، وعند وصولي إلى البيت قاربت الخامسة صباحاً. حاولت ألا أوقظ أحداً عند وصولي، ولكنني ما إن وضعت المفتاح في القفل حتى أنفتح الباب، كانت زوجتي الحبيبة تنتظرني وقد بقيت مستيقظة طوال الليل.

عدت إلى منزلي مرة أخرى، ودون أن أكلّف نفسي عناء الاستحمام غيّرت ثيابي ونمت على الفور، ولم استيقظ حتى اليوم التالي، وقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة ظهراً، توجهت نحو النافذة لأزيح الستائر، فاكتشفت مبتهجاً أن الطقس اليوم هو طقسي المفضل، سماء زرقاء صافية ونسائم منعشة تهب من جهة البحر، كان هذا أقصى ما أتمناه عندما أفتح النافذة كل صباح، استنشقت هذا الهواء العليل قدر استطاعتي، ونظرت نحو الحديقة حيث كولريز تسقي أزهارها وعندما رأتني لوّحت لي بيدها مبتسمة فبادلتها التحية، ومن ثم أخذت حماماً طويلاً لأزيل عني الإجهاد، وخرجت بعدها إلى الشرفة حيث كان الفطور جاهزاً وزوجتي بانتظاري

لتخبرني بأهم ما حصل في غيابي، كان الخبر الأساس هو مرض بورج، فقد انتابه صداع شديد ازداد مع الوقت لكن كولريز لم تعطه الدواء أملاً في أن يختفي الصداع مع الوقت، لكن حين بدأت حرارته بالارتفاع أيضاً اضطرت للاتصال بالطبيب راغب لاستشارته والذي أشار عليها أن تعطيه حبة أسبرين، لكن بورح ما أن أخذ الحبة حتى بدأ بالتقيؤ، فكان عليها الاتصال بالطبيب مرة أخرى والذي طلب منها هذه المرة أن تبقيه دافئاً، فتذكرت كولريز الإجراء الذي نتّبعه مع ابننا في حالات مماثلة وهي وضع منشفة ساخنة على بطنه لكي تهدأ معدته، وبالفعل بعد فترة قصيرة تحسنت صحة بورج بشكل ملحوظ، واستطاع تناول قطعة كعك صغيرة مع حبة أسبرين ليتماثل للشفاء، كانت كولريز تتحدث واللهفة والجزع يتخللان صوتها وكأن الأمر حدث للتو، فقد كان بورج وحالته الصحية أهم ما في حياتها على الإطلاق، ولكن المخيف في الأمر أنني لم أشعر بذات القلق على صحة ابني والذي كان ينتابني في حالات مماثلة، فقد كنت استمع إليها دون وجل وهذا ما أثار مخاوفي، وبدأت أبحث في ثنايا ذهني عن سبب لهذا الخشونة التي باتت تغلّف قلبي، قد يكون السبب هو مرض بورج الذي أصبح أمراً مألوفاً وروتينياً يتكرر باستمرار، وقد يكون السبب هو ثقتي المطلقة بزوجتي وقدرتها على التصرّف بصورة صحيحة في هذه الحالات، وقد يكون- وهذا ما أثار خوفي- بسبب انغماسي بهذه القضية واقترابي من عالم الجرائم والأموات لهذه الدرجة مما أبعدني عن عالم الأحياء، لا أدري على وجه التحديد ما السبب، ولكنني كنت آمل أن هذا التغيير سيزول مع انتهاء القضية، فبكل تأكيد لن تستمر إلى الأبد وحينها سأعود إلى ما كنت عليه، أو أنني سأتغيّر بصورة أخرى لأتأقلم مع الظروف الجديدة. لا أعلم ما الذي سيحصل عندها، ولكن ما أنا واثق منه هو القدرة التي نتحلى بها نحن البشر على التأقلم مع كل الظروف والمتغيرات وهذا هو سبب ارتقائنا قمة الهرم على سطح هذا الكوكب.

توجهت نحو المتجر لتطلعني يشيم على أهم التطورات التي حصلت في غيابي، وعقدت اجتماعاً مصغّراً مع مدير المتجر، واتصلت بعد ذلك مع ممدوح من المعمل والذي كان لديه مجموعة من الأخبار كتعطّل آلة معيّنة، ووصول القطعة الفلانية التي أرسلنا في طلبها من بلد المنشأ. ولكن كلا المديرين سألاني السؤال ذاته:

- ماذا حصل مع الطليان؟

وكان جوابي واحداً في الحالتين: لا زلنا ندرس الموضوع ولم نصل إلى

قرار محدد.

بعد أن أنهيت أهم الأعمال اتصلت بكنعان فلم يرد على هاتفه النقال، ولأنني أعلم بأنه لن يكون متواجداً في هذا الوقت في مكتبه، فكرت في الاتصال بكاتيا، لكنني غيّرت رأيي على الفور عندما تذكّرت الفتور الذي تبديه تجاهي في الفترة الأخيرة، لذا لم أجد سوى نهاد للاتصال به.

وقد سرّ لسماع صوتي

- هل عدت؟ أين أنت؟
- أنا في المتجر وأنتم؟
- أنا وكاتيا في الاستديو وقد ذهب كنعان إلى مكتب المحامي جيزمي من أجل الحصول على عنوان رشاد، وسيعود بعد قليل، لما لا تأتي.
- الطقس رائع اليوم ولا نية لي بتفويته وحبس نفسي داخل جدران الاستديو، ألديكما الكثير من العمل بعد؟
- لا أظن. ولكن، دعني أسأل كاتيا- بعد لحظات عاد ليقول لي- يلزمنا نحو نصف ساعة لنستطيع الخروج من الاستديو.
- حسناً دعونا نلتقي في مرجان، ما رأيكما؟ وسنتصل بكنعان أيضاً.

صمت نهاد للحظات.

- دعنا لا نذهب إلى مرجان.
- ما المشكلة؟
- المكان قريب من مكتبتي ولا أريد أن أصادف ملك في الجوار.

كان إصرار صديقي هذا المرة أمراً يدعو إلى الدهشة حقاً.

- ألم تتصالحا بعد؟
- لا أريد مصالحة هذه المجنونة، فلتذهب إلى الجحيم.
- ولما لا تذهب إلى المكتبة؟
- لقد تركت المكتبه لها حيث تجتمع مع أؤلئك المتثقّفين من أصدقائها لإصدار مجلة ما. على كل حال لا أريد التواصل معها بأي شكل، وسأبحث لنفسي عن عمل آخر.

كان يعلم بأنه لن يتمكن من الحصول على عمل ولكن لا فائدة من هذا النقاش الآن.

- حسناً، طالما لا تريد لقاء ملك إذا سنختار مكاناً آخر.

سمعت كاتيا وهي تقترح عليه اسم مكان ما وبعد التشاور معها للحظات سمعت اسم سوق الزهور (جيجك باساج)، فتذكرت المكان، لا بأس به كما أنني لم أذهب إلى هناك منذ عدة سنوات ولكن نهاد اعترض

مجدداً.

- لسوء الحظ هو أيضاً يقع بالقرب من المكتبة.
- لا تبالغ يا صديقي فلا أعتقد أن زوجتك سترتاد مكاناً كهذا.

وافق نهاد على اقتراحنا مرغماً، وقبل أن أخرج استدعيت السكرتيرة للإطلاع على برنامج الغد ومواعيده.

كان لدي اجتماع غداً عند الحادية عشر صباحاً مع مصممي الأزياء الذين يعملون معنا وكان المصمم الشهير هالوك زيا سينضم أيضاً للاجتماع من أجل مناقشة التصاميم التي تخص الصيف المقبل لبدء العمل عليها، لذا من المفيد عدم الإفراط في الشرب هذا المساء والتحضير مسبقاً للاجتماع بصورة جيدة. بعد الانتهاء من يشيم أخذت معي كتاب فليمل الذي أحضرته من باريس وبعض البروشورات الأخرى التي اقتنيتها من منزله وذهبت لملاقاة أصدقائي.

لقد بني هذا السوق اثر الحريق الكبير الذي نشب في مسرح نعوم، هذا المسرح الذي احتل مكانة مرموقة في تاريخ الفن، حيث كان أهم مغنّي الأوبرا يحضرون من أوروبا لتقديم عروضهم فيه بالإضافة إلى أهم المطربين والفرق المسرحية في العالم، وكان المسرح الذي يرتاده السلاطين لحضور هذه العروض، وفي الأيام التي يقرر فيها السلطان حضور عرض ما فإن الشارع الذي كان يسمى ذلك الحين غراند ريو دي بيرا يفرش بالسجادة الأحمر احتفاءً، وكلما ذكر اسم هذا المسرح أتخيل هذا المشهد السوريالي أمامي. ولكن الحريق الذي شب في العام 1870 التهم المسرح كما الكثير من الأبنية الأخرى وبعد مدة اشتراه المصرفي الشهير هريستاكي زاغرافوس وطلب من المعماري كليث زانو إنشاء هذا المبنى الذي انتهى في العام 1876، وقرابة العام 1930 كانت تقام في هذه المنطقة مزادات بيع الأزهار لذا أطلق عليه (سوق الأزهار)، كان هذا المبنى أحد شواهد بيه أوغلو في عصره الذهبي قبل التلوث والضجيج والازدحام، في الزمن الجميل حيث الأبنية النظيفة تقف متراصة في أناقة معمارية، ولكن التحوّل الذي أصابه كما أصاب كل ما هو جميل كان يذكّرني بعهد جميل مضى ولن يعود، ويمنعني من ارتياد المكان كثيراً خوفاً من تداعيات الذاكرة.

وصلت إلى سوق الزهور، وتجوّلت عينيّ في المكان بحثاً عنهم ولكنني لم أجد أحداً. لذا، اخترت الجلوس إلى طاولة من الطاولات الموضوعة أمام أبواب أحد المطاعم والكافيتريات المنتشرة بكثرة في هذا المكان والتي كان بعضها فيما مضى مشارب. كانت النسائم المنعشة لازالت تنعش المكان لذا

ولزيادة شعوري بهذا الانتعاش طلبت كأساً مع بعض المقبّلات والموالح وصحناً خفيفاً من سلطة الطماطم، وكان النادل نشيطاً فلم تمض دقائق معدودة حتى أحضر ما طلبته، مع أول حسوة أحسست بالامتنان لكل هذه الروعة التي تحيط بي وتغمر جسدي أيضاً، وتذكرت أنني البارحة وفي مثل هذا الوقت كنت في باريس تنتابني مخاوف وأفكار أخرى تماماً، وتزيد المدينة الغريبة من قلقي وهواجسي، ولكنني الآن في أحضان بيه أوغلو تغمرني الروائح وتتناهى إلى سمعي السمفونية المألوفة التي لا أمّل من سماعها، سمفونية بيه أوغلو التي تختلط فيها كل الأصوات لتتحول لنبض حي في قلبي.

كانت السكينة تغمرني، وقد شرّعت جميع نوافذ روحي لتنهل من جمال المكان، رأيت نهاد وكاتيا مقبلين نحوي، ورغم انشغالهما بالعمل منذ الصباح إلا أن كاتيا بدت مشرقة كما على الدوام، ونهاد بدوره بدا متآلفاً مع حالة وجهه وإن لم يخف الورم بشكل كبير، وضع يده بتحبب على كتفي وهو يقول

- أراك عدت إلى مكاننا القديم.

بدا الرضا على وجهه فالطاولة التي اخترتها لها إطلالة مميزة على مدخل طريق سوق السمك، وبالتالي إن حصل وأتت ملك فسيتمكن من مشاهدتها وسيتاح له الوقت للتصرّف، جلس نهاد مستنداً إلى الحائط فيما اختارت كاتيا الكرسي المواجه لي. ودون أن ينتظر قدوم النادل بدأ يأكل ما طاب له من الصحون الموضوعة على الطاولة وهو يسألني

- أخبرنا كيف كانت رحلتك، أين ذهبت وما الذي رأيته؟

- إلى أين سأذهب وسط اجتماعات العمل الروتينية التي لا تنتهي. كل ما تمكنت من رؤيته هو عدة مطاعم كنا نتناول فيها غداءنا والفندق الذي نزلت فيه إضافة إلى مقر الشركة التي كنا نعقد اجتماعاتنا فيها لا أكثر.

- أظنك ذهبت إلى باريس أيضاً.

سألتني كاتيا.

- أجل ولكنني لم أمكث فيها سوى ليوم واحد.

- باريس جميلة؟

- جميلة بالطبع، ولكن لا مدينة في العالم تماثل جمال اسطنبول في نظري.

- ربما تقول هذا لأنك لم تمكث فيها مدة طويلة.

- لا فقد مكثت في باريس من قبل سنة تقريباً، ولكن مدينة بلا بحر لا يعول على جمالها ولا تستطيع منافسة مدينة بحرية، لا أنكر أنها جميلة فيها الكثير من القصور والمعارض الفنية والتحف المعمارية ولكن ما من مدينة تقارب بهاء اسطنبول.

كانت تنظر إلي بطريقة تتّهمني فيها بالمبالغة.

- صدّقيني أنا لا أبالغ وأعلم تماماً كل عيوبها، إنها مدينة ملوّثة قديمة وأحياناً تكون خطرة ولكنها على الرغم من كل هذه العيوب استطاعت الحفاظ على جاذبيتها، وهذا برأيي سر تفرّدها بين مدن العالم وسر جمالها الذي لا ينضب، لا أعلم كيف أصف لك الأمر ولكن...

- يبدو أن السفر لبضعة أيام قد أيقظ فيك حنيناً وشاعرية لم أكن أعلم بوجودهما.

كان صوت كنعان الذي أقبل من الخلف يبدو مرحاً وقد جلس على الكرسي المجاور لنهاد وهو يسألني

- أما زالت نساء باريس جميلات؟

وفي الوقت ذاته غمز حبيبته الجميلة.

- لقد مكثت فيها يوماً واحداً فقط. ولم تتح لي الفرصة لمشاهدة الباريسيات الجميلات.

ومع مجيء النادل توقّف الحديث عن نساء باريس حيث طلبت منه أربع كؤوس من الشراب وبعد أن ذهب عاد كنعان إلى إتمام حديث

- اعترف يا صديقي ولا داعي لأن تشعر بالخجل من وجود كاتيا معنا، فأنا متأكد من أنك وبيير قضيتما كل الليل في الملاهي الليلية التي تشتهر بها المدينة.

- كنت سأذهب بكل تأكدي ولكنني لم أشأ أن أغيب عنكم لمدة أطول لذا أسرعت بالعودة، ولكن إن كنت مصراً على سماع كل ما رأيته هناك فسأخبرك، فقد عرّفني بيير على حبيبته الجديدة وهي آية من آيات الجمال الأفريقي.

أثارت جرأتي استغرابه وهو يقول:

- يبدو أن الجميلة السوداء قد أيقظت فيك مواهب الشعر يا صديقي- ثم التفت نحو نهاد- إن ذهب مرة أخرى لمشاهدتها فسيعود لينافس زوجتك في كتابة الشعر.

- لا أعلم إن كنت سأتحوّل إلى شاعر. ولكن، ما أنا متأكد منه هو أن باريس بكل جمالها وجميلاتها بما فيهن الجميلة الأفريقية لا

تستطيع الوصول إلى أعتاب العرش الذي تجلس عليه كاتيا يا صديقي.

شعّت عيناها عند سماع مديحي.

- شكراً لك، من الجميل أن أجالس رجلاً صاحب ذوق رفيع ومهذب.

مع قدوم النادل قُطع حديثنا مرة أخرى، وانتظرناه حتى وزع كؤوس الشراب أمام كل واحد وذهب مبتعداً.

- نخب الصداقة.

رفعنا كؤوسنا معاً، وكعادة قديمة مسحنا نحن الثلاثة فمنا بظهر أيدينا في الوقت ذاته ونحن نضع كؤوسنا على الطاولة.

- هل استطعت الوصول إلى كاثرين فيرجاند؟

سألني كنعان.

- للأسف لم أتمكن من الوصول إليها ولكنني تمكنت من العثور على منزل فليمل وزيارته، ولكن لا تيأس فبيير سيواصل البحث عنها حتى يجدها.

ولكن الاحباط بدا واضحاً على وجهه فقد كان يأمل أن أعثر على المرأة وأحدّثها علّنا نعرف حقيقة الأمر.

- وكيف هو هذا المنزل، أهو مكان غريب كصاحبه؟ سألني

- لم أجده كذلك، ولكنه بالنسبة للذين يعتقدون بأفكار فليمل فالأمر مختلف بكل تأكيد، وبخاصة بعد عرض أفلام هاري بوتر، حيث تضاعف عدد زائريه بصورة كبيرة- وفتحت الكيس الذي بحوزتي- وقد أحضرت هذه الأشياء من هناك- ووضعتها على الطاولة أمامهم.

تناول كنعان الكتاب وبدأ يتفحصه فيما أخذ نهاد وكاتيا البروشورات لإلقاء نظرة عليها، وواصلت بدوري الحديث والشرح.

- عندما رأيت المنزل تأكدت من كلام ديزى حول عدم وجود أتباع لفليمل، وأجزم أنه لولا ظهور أفلام هاري بوتر لما سمعت أيسون أو سواها باسم الخيميائي، لذا أعتقد أن لا علاقة لكاثرين بالجريمة مطلقاً.

- أظن من المبكّر أن نبتّ بالأمر- رفع رأسه عن الكتاب وهو يحدّثني- فنحن لم نتأكد بعد من نوع العلاقة التي كانت تربط أيسون بفليمل.

- لا داعي لأن نبتعد عن المنطق في تحليل العلاقة بينهما، فمن المرجّح أن كاثرين وكونها مؤلفة مختصة بسير الشخصيات التاريخية، قد تعرّفت على أيسون بطريقة ما، وطلبت منها مساعدتها في كتاب جديد

تنوي تأليفه ولهذا السبب كانت ترسل لها النقود أيضاً.

- لسنا متأكدين بعد إن كانت أيسون تأخذ النقود منها.

- ولكنني أرجح هذا الاحتمال، ألم ترسل كاثرين رداً بعد على رسالتنا؟

استغرب كنعان سؤالي هذا.

- وهل ستصل الرسالة إليّ؟

- أجل فقد دوّنت على المغلف عنوان الاستديو.

- لم يصل حتى الآن شيء إلى الاستديو- ثم أغلق الكتاب ووضعه جانباً

- لا بد أن تردّ علينا... حسناً لم تخبرني ما الذي فعلتموه في غيابي؟

سألته.

- لو تعلم ما حصل- كان نهاد يستعد بعد هذه المقدمة لسرد ما حصل بحماس وهو يضحك ولكن كنعان وبتربيتة خفية على كتفه بعيداً عن أنظار كاتيا جعله يلتزم الصمت، ليستلم هو دفة الحديث.

- لقد حصل ما لم نكن نتوقعه، فقد تم الإفراج عن رشاد جوبور.

أدركت أن نهاد كان سيقول شيئاً آخر، ولكن كنعان منعه من التحدّث أمام كاتيا لذا حاولت مجاراتهما.

- حقاً، إذاً فقد استطاع النجاة بجلده، وما الذي سيحصل الآن؟

- إن كنت تتحدث بخصوص القضية، فالمحكمة ستواصل البحث عن المجرم والقضية مفتوحة، أما بالنسبة لرشاد، فالمحامي الأخرق ظلّ على موقفه يرفض مساعدتنا، لذا طلبت المساعدة من الأستاذ جيزمي، وكما تعلم فله علاقات في كل الأوساط وقد استطاع أن يصل إلى ملف القضية بطريقة ما ومن هناك حصلنا على عنوان المقهى الذي يملكه رشاد ونستطيع الذهاب في الوقت الذي نشاء.

بقيت كاتيا تراقبنا بصمت ولم تحاول التدخّل أو التعليق، وبعد لحظات نهضت للذهاب إلى الحمام، وحينها انتهزت الفرصة وسألت على الفور.

- ما الذي حدث حتى أسكتت نهاد؟

لكن نهاد تنطّح للإجابة وهو يهز رأسه آسفاً.

- لقد علم المحقق جونييت بالأمر ووبّخنا بشدة.

- ولو علمت كاتيا بما حصل لن نسلم من توبيخها هي الأخرى-

علّق كنعان بدوره وهو يراقب باب المطعم الذي اختفت داخله كاتيا.

- أعتذر يا صديقي، أعدك ألا يتكرر الأمر.
- يجب ألا يتكرر طبعاً، فلا أريد الشجار مع امرأة أخرى، ألا يكفي ما حصل مع ملك؟
- هيا أخبروني ما الذي حصل بالتفصيل- قلت ذلك وقد تملّكني الفضول- ما الذي حدث؟
- لقد ذهب مرسل إلى جونييت وأخبره بكل ما حصل.
- ولكن كيف علم جونييت بأننا من ذهب إلى المتجر، فمرسل لا يعرف أسماءنا.
- ألا تذكر أننا بدأنا أولى خطوات البحث عن طريق جونييت، وأصبح يعلم أننا مهتمون بالموضوع- أوضح كنعان- وما إن أخبره مرسل بما حدث حتى أدرك على الفور من أكون.
- وماذا عن نهاد؟

نظر صديقي إلى نهاد شزراً وهو يقول:

- لم يكن من داعٍ أن يخبره أحد باسم نهاد بعد أن فعل ذلك بنفسه، فقبل وصولنا إلى المحل، قام صديقنا العبقري بإخبار مرسل أن لديه مكتبة لبيع الكتب القديمة في شارع أصليهان.
- كنت أود التعريف عن نفسي لأتحدث معه بصراحة ولكن لسوء الحظ تبيّن أنه وغد.
- أخبرني ما الذي فعله جونييت؟

سألت بفضول.

- قام بتوبيخي بشدة.. بطريقة لم أسمعها من قبل، وحذّرني من التورّط في الأمر مرة أخرى حتى إنه أجبرني على أن أعدّه بالأمر، وقد هددني بأنه يستطيع الآن سجني بتهمة الاعتداء ومحاولة القتل، لكنه لن يفعل هذه المرة ولن يفتعل مشكلة معي...
- وهل يعلم بأنني كنت معكما؟
- بالطبع يعلم، أخبرته بأنك شخص استأجرته من أجل حمايتي الشخصية ولكنه لم يصدّق القصة، على كل حال لقد مر الأمر بسلام وأنت محظوظ لأنك كنت مسافراً ولم تتعرّض للإذلال الذي تعرضنا له.
- ولكن إن تعرّضنا لموقف مماثل فسيقودنا نحو المخفر مرة أخرى فماذا سيكون مصيرنا؟
- يجب أن نحتاط وأن نمنع تكرار الأمر.

هذا الرجل كفيل بقتلي غيظاً.

- كيف سنتجنّب ذلك وقد أخبرتني منذ قليل بأننا سنذهب للقاء رشاد، أتضمن أن يستقبلنا بصورة مغايرة لمرسل ويخبرنا كل ما نريده بكل هدوء، ماذا لو اضطررنا للاصطدام به؟

- سنتراجع حينها.

أجابني بكل برود وهو يمعن النظر في وجهي كمن يقول، معك مطلق الحرية في التراجع وعدم الذهاب معنا لملاقاة رشاد- كما أننا نعرف الآن كيف نتصرف، لذا ما من داع للخوف والقلق فليس أمامنا حل آخر- أكمل وكأنه يتحدّث عن مشكلة عابرة لا تعنيه مطلقاً.

بالطبع أمامنا حل واضح وجليّ وهو التخلي عن كل هذا الجنون، والابتعاد عن هذه الوحول التي تنوي إغراقنا فيها، كنت أود الصراخ في وجهه بهذه الحقيقة البسيطة، ولكنني أحجمت لعدم رغبتي في الاصطدام معه دون طائل، وتنهدت بعمق وأنا أرفع كأسي، وقد لاحظ كنعان الضيق البادي على وجهي فرفع كأسه أيضاً وهو يقول:

- نخب الصداقة.

وكما في كل مرة فقد جاراه نهاد على الفور وهو يرفع الكأس ويكرر النخب

- نخب الصداقة.

دمدمت بدوري - نخب الصداقة- وأنا أفكر أن هذه الصداقة التي نشرب نخبها الآن قد تكون سبباً في دمارنا يوماً ما.

- لقد طلبت صحن بطاطا مقلية- قالت كاتيا وكان من الواضح أنها قامت بتجديد مكياجها.

- حقاً لما لم تطلب منه إحضار صحن من البطاطا؟

- لأنها مضرة، فنحن كهول يا صديقي ولسنا شباباً- أوضحت له بدوري

- ولكن الشراب لا متعة فيها دون وجود البطاطا- التفت نحو حبيبته وهو يكمل- كنا في الصف الحادي عشر حين كنا نرتاد هذه الأماكن- توقف للحظات مستذكراً زمناً آخر ومن ثم أكمل- كنا نتلذذ بشراب اللوز المحلى، حيث المدام أناهيد تعزف على الأوكورديون، وبقية الغجر يعزفون على مختلف الآلات وهم يجمعون الحشود حولهم في هذه الأحياء، أتذكرون ذلك الغجري الذي كان يحبس أنفاسنا بخدعه وألاعيبه؟ لقد اختفوا جميعاً.

- ربما لا يزالون موجودين حتى الآن، ولكننا لم نرتد هذا المكان منذ سنوات طويلة.

- أنت محق، فقد مر وقت طويل منذ آخر جولة لنا هنا- ثم تطلّع حوله وهو يراقب المكان والجالسين إلى الطاولات وأكمل بحيرة تتخللها خيبة خفية- لم يعد المكان يستهويني كما في السابق، اختفى السحر الذي يحوط كل الأمكنة، قد يكون السبب أننا تجاوزنا أيام المراهقة وقد يكون ضياع المتعة مع تكرار التجارب..

- اعترف بأننا كبرنا في العمر.

علّق نهاد.

- تكلّم عن نفسك أنا لن أكبر مطلقاً.

انتفض كنعان.

نظر نهاد إليّ مستلهماً المدد فلم أستطع أن أردّه خائباً وانبريت للدفاع عنه

- إن رفضت أن تكبر فعليك أن تموت منذ الآن.

- بالله عليك أليس لديك حل سوى الموت لكل مشاكلنا؟ كن متفائلاً ولو لمرة واحدة- وضرب الطاولة بيده متحدياً- ونكاية بك أنت وهذا العجوز فأنا سأظل شاباً ولن أكبر مطلقاً.

ولكن الضربة القاضية جاءته من حبيبته.

- عذراً حبيبي، لنفترض أنك ستخلّد ذكرك من خلال هذا المعرض، وستتمكن من حل لغز هذه الجرائم، ولكن كيف ستقف في وجه الزمن والطبيعة وتمنع عن نفسك أعراض الشيخوخة؟

نظر إليها متصنعاً الأسى كمن تلقّى طعنة غدر وهو يقول:

- حتى أنت يا حبيبتي؟ لما تصرّون على أن تصدموني بالواقع؟

- عليك أن تنصدم يا حبيبي لكي لا تنسى حقيقة الحياة.

ولكنه اعترف هذه المرة بأسى حقيقي.

- للأسف أنا أدرك حقيقة الحياة يا عزيزتي- ولكنه عاد إلى مزاجه الطيب بعد لحظات وأكمل- ما رأيك بعد الانتهاء من هذا المعرض أن نعمل على معرض جديد عن بيه أوغلو؟

لاح بريق الرضى على وجهها ووافقت على الفور.

- حسناً، فأنا منذ مدة أفكّر في العمل على مشروع كهذا وترك القتل والجرائم للشرطة.

لاحت في عينيه الخيبة وهو ينظر إليها لأنها حتى الآن لم تتمكن

من فهمه كما يريد، ولكنه تخلى عن الدفاع عن نفسه تجنباً لخوض هذا النقاش السفسطائي مرة أخرى وقال لها ببرود.

- لا تقلقي يا عزيزتي سينتهي الأمر في أقرب وقت- ثم حاول تغيير الموضوع وسألها- ماذا لدينا للتصوير غداً؟

- جريمة الطفل ماسح الأحذية الذي قُتِل من قبل أصدقائه، ولكننا لن نصوّرها في الاستديو بل في الخارج، لحسن الحظ الطقس ملائم.

- لقد قاموا بقتله في حديقة تقسيم أليس كذلك؟

- أجل، ولكننا لن نتمكن من التصوير في ذات الحديقة، فالمكان مزدحم وسيتجمع الناس حولنا إن قمنا بالتصوير هناك، لقد اخترت مكاناً أنسب، سنقوم بالتصوير في الحديقة المولوية في غالاتا.

في اليوم التالي، لم يعقد الاجتماع في الحادية عشرة صباحاً كما كنا مزمعين بل اضطررنا لانتظار المصمم هالوك زيا لمدة ساعة تقريباً لذا انعقد الاجتماع في الثانية عشرة، وقد ادعى أنه تأخر بسبب عدم اعتياده على تغيير التوقيت بعد أن بقي لمدة أسبوع في نيويورك لحضور أسبوع الموضة هناك ولم يصل سوى البارحة مساءً، وعلى الرغم من أنه اعتذر بأدب جم وحاول إبداء التواضع، إلا أنني متأكد من أنه كان يكذب ويحاول أن يضفي على نفسه قيمة ومكانة خاصة بهذه التصرفات، كما أن عجرفته وتباهيه لم يكونا بخافيين عليّ. تملكتني رغبة شديدة في ركله خارج المتجر، ولكن المشكلة أنه ما من مصممين معروفين سواه يقبلون بالتعامل معنا وذلك لأن أزاي ليست ماركة ثياب عالمية، وبالتالي علينا تحمل جلافته حتى أتمكن من توقيع العقد مع الطليان، وحينها سيتسابق هو وسواه لكي أقبل بالعمل على تصاميمهم وعرضها في متجري.

استمر الاجتماع لثلاث ساعات، ورغم محاولات هالوك إبراز عبقريته أمام البقية إلا أن سفره إلى نيويورك قد عاد علينا بالفائدة حيث استلهم من هناك أفكاراً كثيرة قام مصممونا بالاستفادة منها على الفور لتتحول فيما بعد إلى نماذج حقيقية تعرض في واجهات المتجر، وبالرغم من عدم موافقتي على كل مقترحاته حول الألوان وأنواع الأقمشة وسواها من التفاصيل الصغيرة إلا أننا توصلنا إلى الملامح العامة لمجموعتنا التي سنصدرها لصيف وخريف العام المقبل.

عندما انتهى الاجتماع كان أول شيء طلبته من يشيم هو أن تطلب لي الطعام ومن ثم اتصلت بكنعان، فبعد حديث البارحة أغلب الظن أنه لن يطلب مني الذهاب معه لرؤية رشاد والتحدث إليه، ولكن ما إن سمعت طريقة ترحيبه المعتادة بي حتى أدركت أنني أسأت الظن.

- نحن الآن في دار المولوية، هل نذهب اليوم لمقابلة رشاد؟
- لا مانع لدي.
- نحن على وشك الانتهاء، ما رأيك أن تأتي إلينا؟

يقع دار المولوية في مدخل شارع الجد غالب وقد بُني في عهد السلطان بيازيد الثاني حيث قام الوزير اسكندر باشا بتحويل هذه الأرض التي كانت حرشاً للصيد إلى دار للمولوية وذلك حوالي العام 1491، وقد تم تحويله فيما بعد إلى متحف يضم مخطوطات الدولة ووثائقها الرئيسية.

ما إن تدخل من باب الدار الحديدي المتواضع- على عكس بقية أبواب الأبنية التاريخية المبالغ في تزيينها- ستشعر بأنك عدت مئات السنين إلى الوراء، وبعد اجتياز الحديقة التي تنتشر فيها أضرحة الأولياء، والطابق الأول حيث مكتبة الدار ستصل إلى حديقة الأرواح التي تفتح لك أحضان السكينة. وهكذا تترك خلفك كل ما تمثّله بيه أوغلو من نشاط وازدحام وروعة وتلوّث وجمال لتغوص في رحم عالم آخر يجرّدك من كل همومك واحداً إثر آخر، يبتعد الضجيج والهموم والأفكار والمتاعب اليومية أمام الأشجار التي يربو عمرها على عدة قرون والقبور التي يرقد ساكنوها بسكينة منذ مئات السنين، لتذكّرنا بسخافة كل ما نعتبره هاماً أمام حقيقة النهاية المحتومة، إنها رحلة نحو أعماق الروح بعيداً عن الغرور والتفاهة، إنها واحة الحقيقة وسط صخب الزيف...

كلما اجتزت بوابة هذه الدار شعرت بأنني تحولت إلى شخص آخر، شخص غريب لا أعرفه، قد يكون حقيقتي التي أهرب منها والتي حاولت أن أغيّبها في أعماق نفسي الخفية لأُرضي الآخرين، وأتبع خطوات أبي ومن حولي، تخلّيت عن حلمي في ممارسة مهنة العمارة التي أعشق مرضاة لوالدي وبدأت كما الجميع أكتسي بذات العادات ذات الاهتمامات ونسيت الحقيقة الجوهرية التي توصّل إليها هؤلاء الراقدون هنا بسلام، أنه من شيء يدوم والكل إلى زوال... أحياناً أتخيّل نفسي وقد خلعت عني كل الرغبات والنزوات، كل العادات والغرور والأنانية التي أكسبني إياها المجتمع كقميص قذر، لأدخل هذا المكان طاهراً وخفيفاً مجرّداً من كل شيء إلا الحقيقة، حينها سأبلغ السلام الذي أنشد، وسيغدو كل ما ألهث خلفه الآن عوالق سيجرفها تيار النور الذي سيشع في روحي، قد يكون المكوث هنا لفترة ما، هو السبيل لي ولكنعان لنتخلص من كل هذه الأفكار والجنون الذي بدأ يعبث بحياتنا ومصائرنا مؤخراً، وأنا متأكد أننا إن دخلنا هذا الباب فلن يتردد نهاد في اللحاق بنا، ولكنه أمر يتطلب الكثير من الشجاعة والجسارة، الكثير من التصالح مع الذات... سيلفّنا هذا المكان ويغمرنا بالسكينة، وسينجينا من دائرة الرغبات والنزوات، ليصبح السلام هو الغاية والمبتغى المنشودين..

ولكن كنعان أوفر حظاً مني فهو مقتنع تماماً بما يقوم به، ولا تنهشه مجادلات الرغبات والمنطق على العكس مني، أنا الذي اخترت إرضاء الجميع وقمت بكل ما قمت به لمجاراتهم، أرغمت نفسي ولا أزال على السير في طرق لا تشبهني، والنتيجة هي رجل تعيس يبرّر كل ما يفعله

بمنطق سمج لا يقنع أحداً بما فيهم هو ذاته.

- مرحبا سليم- أعادني صوت الروسية الجميلة إلى الواقع وهي تقبل نحوي بعد أن أنهت مهمتها في التصوير على ما يبدو على عكس كنعان الذي بدا منغمساً في التصوير لدرجة أنه لم يلحظ قدومي، وكان يعطي التعليمات للطفل الذي يقوم بدور الضحية وقد تحوّل المكان إلى مسرح جريمة حقيقي كما في الصورة.

- أهلا ًكاتيا، هل بقي الكثير؟- أجبتها بصوت منخفض، وكأن صوتي قد يحوّل الثورة التي تتلاطم أمواجها في أعماقي إلى ريح ستعصف بكل ما حولي.

- نحن على وشك الانتهاء، ولولا حدوث عطل صغير أثناء التصوير لكنا انتهينا الآن- قالت ذلك وهي ترمقني كمن يسبر أغواري بعينيها الجميلين، فيما تتراقص على بشرتها الناعمة ظلال شجرة الرمان التي كنا نقف تحتها- مكان غريب أليس كذلك؟

جلت بناظري على المكان مرة أخرى لاسترجع ذلك الهدوء الذي غمرني حين دخلت وأنا أجيب.

- أجل.
- يبدو أنك أتيت إلى هنا من قبل؟
- بالطبع، ولكن لما تبدين مستغربة؟
- لا لست مستغربة، فقد أخبرني كنعان بأنك تعرف تاريخ كل بناء قديم بتفاصيله.
- لا أعتبر هذه الدار مجرد بناء أثري كبقية الأبنية، إنه مكان...
- مكان ساحر أليس كذلك؟- ساعدتني على التوضيح- حتى في روسيا توجد أماكن من هذا النوع، لا أتحدث عن دور العبادة التي يتربّع على عروشها رجال الدين، بل عن تلك الأماكن البسيطة والقصيّة التي ينزوي فيها من أدرك حقيقة الحياة وتفرّغ لبلوغ السلام الروحي العميق.

كما في كل مرة تفاجئني هذه الجميلة باختمار الحقيقة في روحها الفتية.

- ولكنك لست متديّنة، فكيف تتحدثين عن المؤمنين والمتصوّفين بهذه الطريقة؟
- ما يسحرني حقاً هو ذلك الجهد الخارق الذي بذله هؤلاء كما الفلاسفة في البحث عن حقيقة الكون وجوهره، البحث عن الغاية من هذا العالم، البحث عن جذور الفضيلة والخير والشر، هذا ما يدفعني إلى احترام

المتصوّفين والزاهدين كالمولوية وسواهم...

كانت تتكلّم بحماس لم ألحظه عليها من قبل.

- أنت شيوعية أليس كذلك؟

نظرت إليّ مستغربة السؤال، ولكنها حاولت أن توضح لي برحابة صدر.

- لست عضواً في الحزب، ولكنني بكل تأكيد أعتقد بأفكاره ومقتنعة بها، فقد نشأت على هذا الأفكار وباتت جزءاً من نظرتي إلى العالم، عالم يسوده السلام والعدل ولا وجود للحروب والجوع فيه، لا وجود للفقر والجشع، ولا فرق فيه بين أي كان من حيث العرق والمعتقد، الكل سواسية لأنهم بشر.

- لما لم تنتسبي إلى الحزب؟

- لأنه لم يكن يطبّق التعاليم التي ينادي بها.

ضحكت وأنا أقول:

- الساسة متشابهون في كل مكان.

- إنه موضوع شائك- وأشارت برأسها نحو الدار وهي تسأل- أهناك الكثير من هذه الأمكنة في بيه أوغلو؟

- أتعنين دور المولوية؟

- ليس بالضرورة، بل الأماكن التي كان يمارس فيها المسلمون شعائرهم ويتلقون فيها العلم.

- هناك الجوامع الكبيرة والتي تنتشر بكثرة في اسطنبول، خاصة الجوامع الأثرية الرائعة في بيه أوغلو وغالاتا وبيرا، والتي كانت فيما مضى دور عبادة للنصارى تم تحويلها فيما بعد إلى جوامع، مع ذلك بقيت هذه المدينة محافظة على الطابع المسيحي لها مقابل الطابع الإسلامي الذي اكتسبته مؤخراً، وعرفت عبر القرون كيف تحافظ على هذا التوازن وهذا ما أضفى عليها غناها وتنوّعها.

لم تقتنع برأيي كثيراً.

- حتى في الوقت الراهن؟

- أجل- أجبت وأنا غير متيقّن- وعلى الرغم من الحوادث المؤسفة التي حدثت في (6-7) أيلول حيث جرت أعمال عنف وتم تخريب ممتلكات النصارى والاعتداء عليهم، إلا أن الكثير من المؤرخين يؤكدون أن بيرا بقيت محافظة على روحها التعددية ومتمسكة بها على مر العصور، وأتمنى أن تظل هكذا إلى الأبد.

نظرت كاتيا إليّ بودّ وهو تقول:

- أتحب هذا المكان؟

- بالطبع أحبه، فأنا ولدت في المنزل الذي تقومون بالتصوير فيه، وهناك توفيت والدتي، ترعرعت في هذه الأزقة والأماكن، لذا اعتبر أن بيه أوغلو هي جزء من روحي وتكويني.

كانت تنظر إليّ كمن يقول أفهم تماماً ما تعنيه وقد تركت جزءاً من روحي في مكان قصي، ولكنها بعد لحظات سألتني بفضول:

- أعلم أن كلمة بيرا تعني باليونانية ما وراء الشيء أو المكان الآخر، وقد أطلق سكان اسطنبول الذين كانوا يقطنون داخل أسوارها هذا الاسم على ما يقع خارج السور، ولكن ليس لديّ أدنى فكرة عن سبب تسمية بيه أوغلو بهذا الاسم.

- إنها مسألة شائكة نوعاً ما، ولكن هناك روايتين تعترف بهما الأوساط التاريخية في هذا المجال، وأنا أميل إلى الرواية الأولى وأجدها أكثر قبولاً، والتي تعود إلى أندريا غريتي التاجر الغني الذي ينحدر من البندقية والذي سكن في اسطنبول وكان مبعوث بلاده إلى الباب العالي والمكلّف بتسيير أمورهم، وفي الوقت ذاته أحد أغنى التجار في عصره، لذا منحه السلطان العثماني لقب البيك، وقد ابتنى داراً كبيراً له في بيرا وسكنها مع أبنائه الثلاثة الذين حوّلوا المنزل مع مرور الوقت إلى قصر فخم وورثوا لقب البيك من والدهم، وبالتالي نسبت المنطقة إليهم والتي تعني حرفياً أولاد البيك.

- وما هي الرواية الثانية؟

سألتني بفضول.

- الرواية الثانية في غاية البساطة، وهي أن منطقة بيرا كانت مقصد السفراء والأجانب والذين يحملون لقب البيك، وبالتالي درج الناس على تسمية المكان بمنطقة أولاد البيك..

- إذا حتى اسم بيه أوغلو يعود بجذوره إلى وجود الأجانب هنا.

دمدمت كاتيا.

- أجل وهذا سر تميّز بيه أوغلو التي كان يقطنها أناس من جنسيات مختلفة من أقصى الغرب إلى مجاهل الشرق، روس وطليان وفرنسيون وبريطانيون ويونانيون وكورد وعرب وهنود وفرس وأرمن.

- كبابل العظيمة.

- تشبيه جميل حقاً- نظرت إليها ثم أرفدت موضحاً- ولكن هناك فرق بين بيه أوغلو وبابل فسكان بابل على اختلاف لغاتهم وأديانهم لم

يكونوا قادرين على فهم بعضهم البعض وهذا ما عجل في دمارها بذلك الشكل المفجع، على عكس الخليط الذي قطن بيه أوغلو وبيرا، فقد كانوا يستطيعون التواصل فيما بينهم، يفهمون اللغات المغايرة ويحترمون المعتقدات المختلفة، وقد يكون هذا هو سبب استمرارها حتى الآن. يحدث بين الحين والآخر أمر يهز هذا التوازن ويخل به كما حدث في (6-7) أيلول من العام 1995، ولكنها حوادث عابرة في التاريخ ولا أظن أنها ستتمكن من زعزعة هذا التنوع الذي تمتد جذوره إلى عمق التاريخ.

- لا أوافقك الرأي، فعلى الرغم من بقاء بيه أوغلو واستمراريتها كمكان لم يتعرض للتدمير كما حدث مع برج بابل، لكنها بدأت تفقد تنوّعها مع الوقت وتغيب الألوان عن لوحتها، فمنذ بضعة أيام كنت أتحدث مع أحد الجيران وهو من أصول يونانية وقد أخبرني أن معظمهم يهاجر إلى اليونان وبات من الصعب إيجاد طلاب في المدارس الخاصة بهم، وهذا الكلام ينطبق على اليهود والأرمن أيضاً، هذا خلا المشرقيين الذي اختفوا منذ مدة طويلة وغابوا عن مشهد المدينة...

- ولكن ما من جهة في الوقت الحاضر تجبرهم على الرحيل.

- عندما تقطع جذع شجرة ما، من الصعب أن تتوقع من الجذر أن يقدّم لك الثمر مجدداً.

- أظنك تبالغين في تصوير الواقع، فبيه أوغلو تحترم الجميع ويستطيع أن يعيش فيها الناس على اختلاف أصولهم ومعتقداتهم ولغاتهم من دون أن يضايقهم أحد.

- عن أي شيء تتحدثان بكل هذا الحماس؟

كنا مستغرقين في حرارة المناقشة ولم ننتبه إلى قدوم كنعان.

- كنا نتحدث عن بيه أوغلو- أوضحت له دون نية في متابعة الجدال- وقد أوضح لي سليم الكثير عن تاريخ المنطقة.

- إنه موسوعة تاريخية، وإن شئتِ فسيخبرك تاريخ كل قبر من هذه القبور ومن الذي يرقد فيه.

- لا تبالغ يا صديقي، فأنا أعرف أن الشاعر الشيخ غالب يرقد هنا، وابراهيم موتفيريكا الذي أدخل المطبعة لأول مرة إلى السلطنة العثمانية، كما أن الشاعرة ليلى خانوم ترقد هنا أيضاً..

ابتسم صديقي وهو ينظر إليّ زهواً، ثم خاطب كاتيا.

- ألم أخبرك أنه موسوعة متنقلة، أقسم إنك إن بذلت القليل من الجهد ستتذكر أسماء الجميع وتاريخاً مفصلاً عن كل أعمالهم..

- لا أنصحك بأن تستسهل القَسَم في أمر كهذا وتثق بقدراتي إلى هذه الدرجة يا صديقي، هل أنهيت التصوير؟

- أجل لقد انتهينا- والتفت نحو كاتيا- من الجيد أننا أعدنا التصوير مرة أخرى، فقد بدت الصور رائعة لا مشاكل في مقدار الإضاءة كما في السابق.

وفيما كنا نتحدث، نهض الطفل الذي يجسّد دور الضحية وقام مع راسين ومساعده بحزم معدات التصوير. ألقى كنعان نظر خاطفة على المكان ثم خاطب كاتيا.

- أتستطعين تولّي الأمر بمفردك الآن، فنحن سنغيب لبعض الوقت وسنعود إلى الاستديو ما إن ننهي مهمتنا.

عادت إلى وجهها ملامح القلق المعتادة بعد أن أدركت مقصدنا، لكن كنعان حاول استسهال الأمر وبعد أن طبع قبلة على وجنتها، ربّت على كتفها بودّ وثقة وهو يقول:

- لا تخافي يا عزيزتي فلن يصيبني أي مكروه ومعي صديق مثل سليم.

بقيت صامتاً لا أريد التأكيد على شيء لا أعرف خاتمته، وعندما وصلنا إلى بوابة الدار سمعنا صوتها ينادينا من الخلف.

- أرجوكما، توخّيا الحذر.

عندما خرجنا أوضح لي كنعان.

- يقع المقهى الذي يملكه رشاد في شارع (الدكان المظلم) في منطقة تارلي باشي.

- حتى اسم الشارع يوحي بالخوف.

- لا تخف يا صديقي، فلن يقدم الرجل على قتلنا إن طرحنا عليه بضعة أسئلة.

- لا تحاول، فهذه المرة أنا مصر على أن يرافقنا أورهان.

- ألم تحضر معك المسدس هذه المرة؟

- بالطبع أحضرته، ولكننا بحاجة لمن يمهّد لنا السبيل دون الاضطرار لاستخدامه.

بدا مقتنعاً باقتراحي لذا سألني- وهل سيوافق على المجيء؟

- سيوافق بكل تأكيد، كما أنني ألمحت له قبل أن أترك المتجر وقد وافق على الفور وهو بانتظار اتصال مني.

- حسناً، اتصل به إذاً.

- هل من داع أن يحضر السيارة؟
- لا أظن ذلك، أخبره بأننا سنلاقيه عند إشارة المرور التي تقع عند مدخل منطقة تارلي باشي.
فاتصلت به وأخبرته بمكان لقائنا.
- ولكن أين نهاد؟ ألم يرغب بالمجيء معنا؟
- بالطبع كان راغباً، لكنه ذهب للقاء ديزى التي مضى وقت طويل منذ أن رآها آخر مرة.
- برأيك ماذا ينبغي أن نفعل لحل مشكلته؟
- لا أعلم، وأظن ملك محقة حين حمّلتني مسؤولية ما حصل، ولكنني من جهة أخرى أشعر بأن انفصاله عنها أفضل بكثير من العيش مع جنونها.
- إن انفصل عنها سينهار.
- أنت محق... لا أعلم حقاً ما يتوجب علينا فعله.
أكملنا الطريق بصمت، وبعد قليل عاد كنعان إلى الموضوع الذي لا يدور في ذهنه سواه وهو يوضح لي.
- لم يصلنا رد من كاثرين بعد، هل أوضحت لها ضرورة مراسلتنا بشكل عاجل؟
- بالطبع، وأكدت لها حاجتنا إلى الرد من أجل معرفة الحقيقة، لكنها كما تعلم في التسعين من عمرها، وتحتاج إلى وقت طويل لتخطو أي خطوة.
- وما أدراك أنها في التسعين من عمرها- قالها وهو ينظر إلي متفحصاً؟
- ألم تطّلع على الكتاب الذي أحضرته معي البارحة، يوجد على لوحة الغلاف موجز عن حياتها.
- إذا فهي في التسعين من العمر؟
- وأظن أن هناك من يكتب الرسائل عنها.
- احتمال وارد، ألا تذكر الرسالة التي أرسلتها لأيسون، كانت مطبوعة على الكمبيوتر- ثم أكمل في قنوط- ولا بد أنها تحتاج إلى أسابيع لتفتح رسالة ما وتردّ عليها، وهذا يعني لسوء الحظ أن انتظارنا سيطول.
عدنا إلى الصمت مرة أخرى، وعندما وصلنا إلى السوق السوري شعرت بالقلق من مصادفة سيئة تجمعنا بمرسل ذي الرأس الكبيرة والعضو في المجموعة اكس والمخبر السري لجونييت. ولكننا لحسن الحظ، اجتزنا المكان

دون أن نراه. كنت أراقب كنعان بطرف خفي وقد بدا القلق واضحاً عليه، فبعد المشاكل التي تعرّض لها نهاد، وبعد التحذيرات الشديدة اللهجة التي تلقاها من جونييت ورفض كاتيا المتواصل للفكرة، كانت الهواجس تعصف به، وأظننا إن قوبلنا بالرفض من قبل رشاد جوبور أيضاً، سيستلم صديقي للأمر كما آمل وسيتخلى عن هذا الجنون.

واصلنا السير وكل منا يرجو عكس ما يرجوه الآخر من هذا اللقاء، وعندما وصلنا إلى أكثر الأماكن في بيه أوغلو نفوراً ورداءة وهو أوداكولي تناهت إلى أسماعنا أصوات عزف على الغيتار، وبعد خطوات قليلة رأينا شابين قد افترشا بعض الجرائد القديمة على الطريق وهما يعزفان على آلتي غيتار وقد وضعا أمامهما علبة فيها بعض النقود، كانا يأملان الحصول على ما يسدّ الرمق وقد تجمع حولهما بعض المراهقين الذين لا نية لديهم بدفع أي نقود، اجتزنا المكان وفجأة سألني كنعان.

- ما رأيك أن ينضم إلينا جونييت أيضاً في هذا البحث؟

أدركت حينها أنني كنت مخطئاً في تقدير الإصرار والاهتمام الذي يكنّه للأمر، ففي الوقت الذي كنت أظنه يراوح على شفير اليأس والرجوع، كان هو يفكر بوسيلة أكثر خطورة ليقحمنا في هذه المجازفة، انتابني شعور حينها بأن ذكاءه سيكون السبيل إلى حتفه أيضاً.

كان عليّ أن أنهره وأحذّره مما هو مقبل عليه، ولكنني لم أفعل بل سألته بكل جدية وأنا أكظم غيظي.

- وما الذي دفعك إلى التفكير في أمر كهذا؟

- كما تعلم فإن مرسل مخبر سري لجونييت وهو في الوقت ذاته صديق لكارتال وبقية الشباب الذين يتعاطون المخدرات، وبالتالي فهناك احتمال كبير أنه يعمل في بيع المخدرات وبكل تأكيد فإن جونييت على علم بذلك ولكنه لسبب ما يتغاضى عن الأمر.

- لكن مرسل ينقل إليه أخبار هؤلاء الشباب، أي أنه بطريقة ما يدله على هؤلاء المروّجين وبالتالي فهو ليس واحداً منهم كما تتصوّر.

- بالطبع فهذا احتمال وارد، ولكن ماذا لو كان الاحتمال الأول صائباً، وكان جونييت متورطاً؟

- ما الذي تعنيه بأنه متورط، إلى ما ترمي؟

- كما تعلم فرشاد تاجر مخدرات ولديه الكثير من العملاء في هذه المنطقة، ولكن إن كان جونييت أيضاً متورطاً في هذه التجارة فهو بالتأكيد سيعمل على إزاحة بقية المنافسين، وبالتالي فهناك احتمال كبير أنه طلب

من مرسل قتل كارتال وأيسون ليورّط رشاد وبالتالي يستولي على السوق بمفرده.

- حسناً، يمكنه قتل كارتال لهذا السبب، ولكن لما سيقوم بقتل أيسون؟

- بعد أن قتل كارتال، هناك احتمال أن أيسون قد شكّت في الأمر، وأدركت من هو القاتل الحقيقي لذا توجب عليه التخلص منها هي الأخرى.

في الحقيقة لم يخطر لي هذا الاحتمال من قبل، وبدلاً من التفكير في زجره، أعجبت بحدة ذكائه وتفكيره بطريقة مغايرة واستنباط نتائج لم أفكر بها مطلقاً.

- لنفترض أن جونييت متورط في هذه التجارة القذرة، وبالطبع هناك الكثير من رجال الشرطة ممن يقودهم الطمع إلى هذا السبيل، ولكن إن كان ما تقوله صحيحاً فلما سيوافق بكل بساطة على أن يعطيك الصور التي تجسّد جرائم هو متورط في ارتكابها، لما قد يفعل أمراً كهذا؟

كان سؤالي منطقياً ويبدو أنه زعزع الفكرة التي تدور في رأسه، لذا بقي صامتاً لمدة لا بأس بها حيث اجتزنا بوابة دار عبادة سان أنطوان والمبنى المصري الشهير دون أن ينبس بشفة.

- لكنه كان مطمئناً من أن المتهمين قد تم إلقاء القبض عليهما، وسيتم إغلاق القضيتين في وقت قريب.

- ومع ذلك فليس من صالحه أن يعرض هذه الصور، وتصبح متداولة في معرض فني أمام أنظار الجميع، لو أنك متورط في هذا الأمر هل ستتجاسر على فعل كهذا؟

- أعتقد أنني لن أفعل- تردّد للحظات وقد أدرك أنه يدكّ فكرته السابقة من أساسها ولكنه أكد الأمر مجدداً- لن أفعل.

- أعتقد أن جونييت لا علاقة له بالأمر، على الأقل هو ليس متورطاً في الجريمتين.

- وبرأيك من الفاعل؟

- يبدو يونس بريئاً، ولكن هناك احتمال كبير أن يكون رشاد أو أحد رجاله متورّطاً في الأمر.

- أتعني أنك تخليت عن فكرة وجود علاقة بين الجريمتين ونيكولاس فليمل؟

عندما أدرك أن النظرية التي طرحها ضعيفة اتجه على الفور إلى

الخرافة الأخرى ليتمسك بها، ويستمر في الهراء.

- لا أنكر أنها فكرة غريبة ولا أسس واقعية لها، لنحلّل الأمر ببساطة، هناك شاب مدمن على المخدرات قُتل وقُتلت بعده بفترة وجيزة الفتاة التي كانت على علاقة حب به، ونحن نحاول ربط الموضوع بشخص كان يبحث عن الخلود بطريقة غرائبية فحوّلته الأقاويل إلى أسطورة وقد مات منذ مئات السنين. شخص كهذا قد يكون مقنعاً بالنسبة إلى المراهقين الذي يتابعون أفلاماً كهاري بوتر وسواها، ولكننا الآن في مواجهة جرائم حقيقية. برأيك هل من منطق فيما نفكر فيه؟

- قد تكون محقاً، ولكنني أشعر بأن شخصاً مثل رشاد غير مؤهل لارتكاب جريمتين بهذا الغموض... هناك شيء ما في داخلي يخبرني بأن الأمر أكبر وأكثر تعقيداً من رشاد أو سواه.. ولكن لا تطلب مني أدلة فأنا لا أملكها حالياً...

بقي صامتاً حتى وصولنا إلى ثانوية غلطة سراي وهو يحاول على ما يبدو إعادة ترتيب أفكاره، ولكنني كسرت الصمت، وحاولت زعزعة قناعاته مجدداً.

- وقد يكون إحساسك هذا مخطئاً.

يبدو أن الأفكار كانت تعصف برأسه وتنقله من مكان إلى آخر حتى إنه نسي آخر حديث لنا.

- حول أي شيء؟

- حول اعتقادك أن هناك رابطاً أكثر تعقيداً بين هاتين الجريمتين.

نظر إليّ بإمعان وهو يحاول التركيز على ما سأقوله.

- أتذكّر قصص مصاصي الدماء، والروايات البوليسية التي كنا نقرأها في المدرسة؟

- أجل.

- كان حل معظم الجرائم يعتمد أسلوباً يشبه حل المعادلات الرياضية، فلكي تحل معادلة ما يجب أن تتبع طرقاً منطقية لتفضي إلى نتيجة مقبولة، والشيء الثاني أن تتمتّع بقدر مناسب من الذكاء يتيح لك فهم الرموز التي أمامك، ولكن الجرائم الحقيقية تختلف عنها بنقطة واحدة وهي أن الضحايا تحل مكان الأرقام والرموز، وأن من يقوم بحلّ هذه الجرائم هم بشر تؤثر وجهات نظرهم ومشاعرهم ومواقفهم على طريقة البحث، وعلى تحليل الدلائل الموجودة.

لم يعِ بالضبط ما كنت أرمي إليه لذا قال لي بصبر نافد.

- إذا؟

وقبل أن أوضح له كنا قد وصلنا إلى شارع سوق السمك لذا قلت له وأنا أقوده إلى اليسار:

- الطريق أقصر من هنا- وبعد أن سرنا بضع خطوات أكملت- أعني أننا نتأثر بوجهات نظرنا ونسقط مشاعرنا على الواقع بطريقة قد لا ندركها، لذا لا نستطيع حل الأمر بالحيادية التي نتبعها في الرياضيات، وبالعودة إلى موضوعنا، فأنت ومنذ سماعك بقصة نيكولاس فليمل بدأت تصر على وجود رابط بينه وبين الجرائم.

حاول اللحاق بي وأنا أغذي السير لنخرج من الزحمة بسرعة وأوضح بحدة وصوت عالٍ.

- أنا لم أقحم فليمل في الأمر، فلوحاته المعلّقة في منزل الضحيتين هي من أوحت لي بالفكرة، ولا تنسى أننا واعتماداً على هاتين اللوحتين علمنا بوجود علاقة بين أيسون وكارتال.

- أنت محق، ولكن لا تنكر أن إدمان كارتال على المخدرات ومشاكله المالية الأخرى تقودنا إلى الاحتمال الأكثر وروداً وهو ارتباط الجريمة بالمخدرات- وقد أكملت حديثي بكل هدوء على عكس الحدة التي أبداها- سأكون صريحاً معك يا صديقي وأوضح لك بالضبط ما أرمي إليه، فأنت على الدوام متعلّق بقصص البحث عن الخلود والخيمياء وتجدها أكثر جذباً.

- إذا فأنت تعتقد أنني مخطئ في طريقة تفسير هذه الجرائم.

- أجل هذا ما أريد قوله بالضبط- وأوضحت له مردفاً- ولكن هذا أمر متوقع وطبيعي، فنحن لا نعمل في التحقيق الجنائي ولا خبرة لدينا في هذا المجال، لذا سيكون تحليلنا لأي جريمة بعيداً عن الوسائل التي تتّبعها الشرطة، وبالتالي قد تقف وراء هذه الجرائم أسباب منطقية وأكثر بساطة مما نعتقد.

- أتعني المخدرات مثلاً؟

- إنه احتمال أقوى بكل تأكيد من اتهام المجموعة اكس.

أوضحت له ذلك ونحن نمر من أمام باب دار العبادة المسماة (الحواريون الثلاثة) للأرمن.

## (28)

كان السائق أورهان في انتظارنا عند الإشارة الضوئية التي تقع عند مدخل منطقة تارلي باشي، فاصطحبانه وسرنا سوية باتجاه دولابديري. لم أخبر أورهان تفاصيل القصة وبالطبع لم يسألني، فكل ما قلته له أن كنعان يواجه مشكلة ما مع بعض الأشخاص وسأرافقه لحل الأمر، وطلبت منه مرافقتي، فأبدى قبوله على الفور دون أن يطلب مزيداً من التوضيح وقد أخبرني أنه يملك مسدساً أيضاً، فوافقت على أن يحضره ولكن دون إن يحاول استعماله مهما حصل.

كان أورهان يكنّ لي احتراماً كبيراً، وقد يعود السبب إلى طبيعة الناس في هذه المنطقة، حيث يعزّز الجاه والنفوذ في أنفسهم ولاء تجاه أصحابه، ولا أنكر أن الراتب الكبير والمساعدات التي أقدّمها له بين الحين والآخر عززت هذا الشعور أكثر.

وباعتقادي فإن هذا الولاء يضرب جذوره بعيداً في عمق التاريخ، إلى عصور الامبراطورية الرومانية ومن بعدها السلطنة العثمانية حيث اعتاد الناس على الدوام الخضوع إلى قوى عظمى تتحكم في مصائرهم وتمنحهم في الوقت ذاته نوعاً من الأمان، وعلى الرغم من أن الأحزاب وسلطة أرباب العمل والدولة وسواها قد حلّت تدريجياً محل هذه الامبراطوريات، إلا أن الكثيرين ومن ضمنهم أورهان لم يستطيعوا التخلص ببساطة من هذا الشعور المتوارث، وظلوا يبحثون عن جهة قوية يعملون تحت لوائها بتبعية وإخلاص، ولا أنكر أن هؤلاء الأشخاص يكنون الحب والود تجاه من يعملون لحسابه ويعتبرون الدفاع عنه واجباً طبيعياً لا منّة فيه ولا فضل. ولكن، أياً كانت الأسباب فهي قد جعلت أورهان يرافقنا الآن وهو مستعد لفعل المستحيل من أجل حمايتنا.

شارع (الدكان المظلم) في منطقة تارلي باشي هو أحد مناطق اسطنبول التي ينطبق عليها الاسم تماماً، فأزقته الضيقة وبيوته المتداعية والمهترئة التي تربط بينها على جانبي الشارع حبال الغسيل التي علّقت عليها الثياب والتي تشي بفقر أصاحبها تشير بوضوح إلى نوعية قاطنيه. يعود تاريخ هذا الحي إلى العام 1850 وقد كان معظم قاطنيه من الروم والأرمن، وقد عاش فترته الذهبية في القرن التاسع عشر. وكان ساكنوه أصحاب حرف وتجار ذوي دخل جيد، ولكن الضرائب التي فرضت عليه في العام 1940 والأحداث الدامية التي حصلت في (6-7) أيلول من العام 1995، أفرغت

الحي من قاطنيه الأساسيين ودفعتهم للهجرة إلى الخارج، ليتركوا منازلهم ومحالهم دون عناية لتصبح شاهداً على ما تعرّض له أصحابها، وقد حلّت محلّهم مع مرور الوقت كتلة بشرية أكثر بؤساً من مصير الحي ذاته، فنانون أفل نجمهم، ملمعو الأحذية، قوادون ورخيصات عجائز يستجدين زبوناً عاثر الحظ، تناسبهم العتمة أكثر من ضوء النهار، مروجو المخدرات ومدمنوها على السواء، وأخيراً الكورد الهاربون من جحيم الأناضول وأحداثه الدامية على مر السنين.

ما إن دخلنا الحي حتى بدأت روائح الطعام الممزوجة ببقية الروائح المنبعثة تفوح، وعلى الرغم من أن الوقت كان لا يزال عصراً فإن نسوة الحي قد أنهين وضع القدور على النار وخرجن للجلوس أمام الأبواب لتبادل أطراف الحديث فيما الأطفال منتشرون بكثرة يلعبون بصخب يضفي بعض الحيوية على فقر المكان.

في شارع الدكان المظلم كانت توجد بقالية غير مظلمة أبداً، بالإضافة إلى ورشة نجارة صغيرة ومقهى لا بد أن تكون مقهى رشاد جوبور الذي نبحث عنه.

اتفقنا على الدخول أنا وكنعان ليلحق بنا أورهان فيما بعد ويجلس على طاولة أخرى، وفي حال سارت الأمور على ما يرام فلن يتدخل وسيبقى بعيداً بحيث لن يدرك رشاد أنه أتى معنا، وقد فكرت للحظة أن أعطيه مسدسي ولكنني لم أشأ توريطه أكثر وأبقيته في حوزتي.

وعلى عكس ما بدا عليه المقهى من الخارج فقد كان واسعاً من الداخل بجدران متسخة كانت فيما مضى مطلية باللون السكري على ما يبدو. وقد علّقت على الجدار صورة لأتاتورك بالزي المدني، وإلى جانبها صور لمطربين أمثال ابراهيم تاتليسيس ومهصون كرميزي غول، ومسلم غورسيس.

كان صوت إحدى مطربات الأرابيسك يصدح في أرجاء المقهى الذي لم يكن مزدحماً، فعلى إحدى الطاولات جلس شخصان يلعبان طاولة الزهر فيما الأربعة الباقون على طاولة أخرى يلعبون بأوراق اللعب، اللعبة المفضلة للرجال في المقاهي. وعلى الطاولة التي قرب موقد الشاي كان يجلس رجلان أحدهما في حدود الستين من العمر فيما الآخر لم يبلغ الثلاثين كما يوحي شكله. وكان هناك كهل ما خلف موقد الشاي يجهّز طلبات الزبائن وعلى ما يبدو كان المسؤول عن توزيعها أيضاً، وبما أن المقهى غير مزدحم فسننتهي من هذه المهمة بسرعة.

دخلت وكنعان وعلى الفور رفع الجميع أنظارهم لمعرفة الداخلين.

ولكنهم، سرعان ما عادوا للاهتمام بشؤونهم، لكن نظرات الرجلين الجالسين قرب الموقد ظلت تتابعنا بشك وارتياب، وقد اخترنا إحدى الطاولات التي قرب الجدار، وبعد لحظات قليلة جاء الكهل ليعرف ما نود شربه وهو يكلمنا بجدية وجلافة نوعاً ماً.

- ماذا تشربان؟
- أتوجد قهوة تركية؟

سأله كنعان.

- أجل.
- فنجانا قهوة تركية سادة- ثم نظر إلي- سادة أليس كذلك؟
- سادة.

وقبل أن يغادرنا الكهل دخل أورهان المقهى دون أن يلتفت نحونا مطلقاً وكأنه لم يرنا في حياته، وسار بين الطاولات التي رفع أصحابها رؤوسهم مجدداً لمعرفة الداخل الجديد الذي اختار طاولة تمكّنه من رؤية ما يحصل على طاولتنا، وقد اتجه الكهل نحوه ليلبي طلبه.

- هذا الاثنان مستمران في مراقباتنا- قال كنعان- ترى أيهما رشاد جوبور؟
- قد لا يكون أياً منهما، فهو قد خرج من السجن مجدداً ومن المحتمل أنه أخذ اجازة من العمل.
- أرجوك يا صديقي حاول أن ترى الأمور من زاوية أخرى، فرجل كرشاد لا يفكر في أخذ إجازة كما نفعل أنا وأنت، وأجزم أنه حال خروجه من السجن عاد إلى العمل فوراً.

كان محقاً فيما يقول فأنا بعيد عن هؤلاء، لا أعرف عنهم شيئاً، وأتمنى أن أظل بعيداً وأغادر هذا المكان بأسرع وقت. بعد لحظات أحضر الكهل قهوتنا فسأله كنعان بنبرة جاهد أن تشبه نبرته في التخاطب.

- نبحث عن رشاد جوبور؟ أتعلم أين يمكن أن نجده؟

نظر إلينا الرجل من رأسنا تحت أخمص قدمينا، وأطال النظر متعمداً قبل أن يسأل.

- ومن تكونان؟
- أنا محامٍ- أوضح كنعان- وقد كنت أنوي الدفاع عنه في القضية، لذا أود أن أقابله.
- دعني أسأل المعلم رستم.

أجاب الكهل وانصرف على مهل، فاتجه بداية نحو أورهان ومن ثم

نحو الرجلين الجالسين في زاوية أخرى. وعندما وصل إلى الطاولة الرئيسية تحدّث مع الرجل الملتحي الذي لا بد أن يكون المعلم رستم، والذي اتجه بدوره نحونا يرمقنا بنظرات عدائية توحي بالتهديد. نهض رستم واتجه نحو المسجلة وأوقف الشريط الموسيقي، ومن ثم تابع نحونا بالنظرات نفسها وبخطوات وئيدة فيما يتبعه الشاب، وبالطبع كان هذا الحدث كفيلاً بأن تتجه نحونا جميع الأنظار، حيث أوضح الكهل الأمر لأحد الجالسين الأربعة وهو يهمس في أذنه وقد كان شخصاً قصير القامة نحيفاً بصورة بارزة والذي نقل الحدث إلى بقية زملائه، ولكن السائق أورهان بقي جالساً إلى طاولته متحفزاً يراقب الأحداث بدقة. وفيما كنت أراقب ما يجري من حولي كان رستم والشاب قد وصلا الطاولة ووضع رستم علبة السجائر التي في يده على المنفضة الصغيرة الموضوعة على طاولتنا الخشبية الخضراء اللون، وقد حفر التدخين قنوات غائرة في وجهه على مر السنين.

- ماذا تريدان من رشاد؟- كانت نظرات عينيه وحركاته ونبرة صوته العدائية كلها تشي بتهديد مكشوف لا أعلم ما الذي سيفضي إليه.

- نريد التحدث إليه- قالها كنعان بكل برود ودون أن يتأثر نهائياً بمظاهر التهديد التي حرص رستم على ابدائها- أنا محام وأود التحدث معه بشأن القضية، هل تعرفه؟

- ما من قضية الآن، لقد حاولوا توريط ابني.

- هل رشاد ابنك؟

- أجل، أهذا يزعجك؟

بقي كنعان محافظاً على نغمة الهدوء في صوته ولم ينجر إلى مجابهة الرجل.

- حمداً لله على سلامته، أنا أيضاً كنت مقتنعاً ببرائته من التهمة.

ولكن هذه الكلمات لم تطمئن رستم ولم تخفف من وطأة نظراته.

- ما الذي تريدونه من ابني؟

- لقد تم توريط ابن خالتي في هذه القضية أيضاً، وأظن أن المتهم في القضيتين واحد، لذا أريد الوصول إلى الحقيقة، وهذا ما دفعنا إلى المجيء اليوم.

وبينما كان كنعان يتحدث اجتمع الرجال الأربعة الباقون حولنا يتفصحون كل حركة تبدر منا، فيما أورهان مستنفر على طاولته يستشعر أي حركة عدائية ليتدخل على الفور.

- إذاً فأنتما تريدان الوصول إلى الجناة الحقيقيين- قالها واستدار

نحو ابنه- ما رأيك فيما يقوله يا رشاد؟

عندما ذكر اسم رشاد نظرنا على الفور نحو الشاب، وأدركنا أنه رشاد الذي تكبدنا كل هذا العناء لرؤيته.

- سنتأكد الآن- والتفت إلى الرجل الضئيل وهو يأمره- شعبان فتّشهما لنرى ما يريدانه.

وعلى الفور التف حولنا الأربعة معاً قبل أن نقرّر ما علينا فعله، لكن أورهان لم يمهلهم الوقت فبادر إلى الهجوم على الفور وتمكن من وضع مسدسه على صدغ رشاد في لمح البصر وهو يصرخ مهدداً:

- لا تتحركوا.

تسمّر شعبان في مكانه وقد صعقته الصدمة.

- إن قمتم بأي حركة سأفرغ المسدس في رأسه.

ابتعد شعبان والبقية على الفور في وضعية استسلام وبحذر شديد، وكان أكثرهم جرأة هو رستم.

- أهكذا ستبحثان عن الحقيقة؟

حاول قدر الإمكان أن يجعل السخرية تطفو على الغضب الذي يكتسي ملامحه.

- أنتم من بدأ بهذا الأسلوب.

قال كنعان.

- كنا نحاول أن نفتّشكما ونتأكد لا أكثر.

- ولما تريدون تفتيشنا؟

تدخّلت في الحوار.

- لأننا لا نعرف صدق نواياكم، هل أنتما عدوان أم صديقان.

- لسنا أعداءً بكل تأكيد، وإن كان الأمر يقتصر على مجرد التفتيش للاطمئنان تفضلوا- التفت نحو أورهان- يمكنك العودة إلى طاولتك أورهان- وأخرجت المسدس من حزام البنطال ووضعته على الطاولة ثم رفعت يديّ للسماح بتفتيشي وكذلك فعل كنعان، وعاد شعبان ليكمل عملية التفتيش بدقة متناهية وخبرة لا بد وأنه اكتسبها من تردده المستمر على السجون.

- لا شيء بحوزتهما.

أخذ رستم مسدسي وأعطاه للكهل وهو يقول:

- نعيم دع المسدس عندك حتى ننهي حديثنا، ولا تحضره إلا إن طلبته منك.

حاولنا الاعتراض ولكن رستم زاد من اجراءاته الأمنية وهو يقول مشيراً نحو أورهان:

- هو أيضاً عليه أن يسلّمنا سلاحه.
- أنت حقاً تريد افتعال مشكلة- قالها بلهجة شوارعية أجادها وكأنه أمضى كل عمره بين هؤلاء الأشخاص وأكمل مدافعاً- كما أننا لم نقم بأخذ أسلحتكم، لذا فسلاحه سيبقى بحوزته.
- إذاً فلا مجال للنقاش.

قالها رستم.

ولكن كنعان لم يستسلم لتهديده.

- إذا أعطونا سلاحنا ودعونا ننصرف.
- اسمعني جيداً- تدخّلت محاولاً التخفيف من التوتر- نحن لم نأتِ من أجل افتعال مشكلة، كل ما نريده الوصول إلى تفاهم وبلوغ الحقيقة، كما أن محاميك يعرفنا جيداً وقد عرضنا عليه الموضوع من قبل، لذا ما من داعٍ لتأزيم الموقف ودعونا نتحدث بهدوء.

نظر رستم إلى ابنه مستفهماً.

- هل حدثك المحامي عنهما؟
- أجل حدّثني- أوضح لوالده بهدوء وقد بدا راغباً في الحوار معنا- كارتال كانت لديه صديقة وقد قتلت أيضاً وتم اتهام أحدهم في القضية، ولا بد أنهم يتولون الدفاع عنه، لكن عندما أخبرني المحامي عنهم لم أصدّق معتقداً أنها لعبة من الشرطة لتوريطي أكثر في القضية.
- لا تخف، نحن لسنا من الشرطة.

لم يرق التطمين لرستم الذي انتفض وهو يقول.

- نحن لا نخاف من أحد، ولكننا لا نريد التورط مع الشرطة بعد أن تم الاعتداء على ابني بالضرب من أجل أن يرغموه على الاعتراف بالجريمة.
- وهذا ما حصل مع يونس أيضاً فقد حاولت الشرطة إرغامه على الاعتراف بالجريمة، ولكنه لم يقبل أن يعترف بذنب لم يرتكبه، لذا فنحن لا نثق بالشرطة وأتينا من أجل أن توضح لنا بعض النقاط المتعلقة بالقضية.

يبدو أن توضيحات كنعان بعثت الطمأنينة في نفسه حيث أشار للبقية فابتعدوا على الفور، وأخذ علبة الدخان مجدداً من على الطاولة، ومدّها نحونا دلالة الثقة وقبول التحدث معنا، رفضت لكن كنعان أخذ سيجارة وأشعلها.

- تحدّثا أولاً- قالها وقد نفث دخان سيجارته لتخيّم حولنا غيمة رمادية اللون- ما هي الحقائق التي تريدان معرفتها، وما هي ملابسات قضية ابن خالتك هذا.

شرح له كنعان القضية باختصار، وأوضح له بأن يونس كان يحب أيسون ومن المستحيل أن يقدم على قتلها، وقد قام بدراسة ملفي الجريمتين بتمعّن، وهو متأكد من براءة المتهمين وأن الفاعل في كلتا الجريمتين قد يكون الشخص نفسه.

- ومن تظنه الفاعل؟

سأله رستم.

- هذا ما نبحث عنه- أجاب كنعان- قد تكون مجموعة أخرى تحاول السيطرة على مجال عملكم في بيه أوغلو.

نظر إلينا رستم وقد فاجأته صراحة كنعان.

- لا أعتقد ذلك. فنحن لا نقوم بشيء مخالف للقانون، ولا أعداء لنا كما تتصور.

- أعلم- أردف كنعان- ولكن قد يكون هناك من يريد أن يحل محلكم.

كان رستم الذي يراقب كنعان يستعد لنفي التهمة وقد أثار الحديث استياءه على ما يبدو. ولكن، رشاد تدخّل قبل أن يتكلم والده.

- قد يكون نوري العصفور وراء الجريمة، فقد أخبرني كارتال أنه كان يلتقي مع ابن أخيه مؤخراً.

نظر رستم إلى ابنه شزراً وقد بدا من الوضاح أن هذا القدر من الصراحة في الحديث مع شخصين غريبين أكثر مما يحتمله.

- لا تكن غبياً، لا علاقة لنا بهذا الشخص.

لكن كنعان انتهز الفرصة بعد أن أدرك أن رشاد يريد الافصاح عما بحوزته.

- لما تنهره فقد يكون محقاً فيما يقول؟ كما أن يونس أيضاً حدّثني عن هذا الشخص وأن كارتال وأيسون كانا يلتقيان به على الدوام، وقد يكون بالفعل متورطاً في الجريمتين.

بدا كنعان معتاداً على الارتجال واللجوء إلى الكذب بكل أريحية، فيونس لم يحدّثنا مطلقاً عن شخص كنوري أو سواه، لكن صديقي حاول استخدام هذا الطعم من أجل الحصول على المزيد من المعلومات، إلا أن رستم لم يكن بالشخص الغر.

- نحن لا مشاكل لدينا مع نوري أو سواه، كما أنه شخص ذكي ويحسن التصرف، ومن غير المعقول أن يورّط نفسه في جرائم كهذه، ولا أظنه وراء مقتل هذا المعتوه كارتال.

كان يتحدث وهو ينظر إلينا وإلى ابنه أيضاً. لذا، وقبل أن يهمّ كنعان أو رشاد بالتوضيح تدخّلت.

- ربما كان كارتال مديناً له بالمال كما حصل معك أنت- نظرت إلى رشاد الذي بدت سحنته تضطرب لدى سماع كلمة الديون- كما أن شجاراً نشب بينكما قبل أسبوع من مقتله، أليس هذا ما حصل وأعترفت به أثناء التحقيق؟

- أجل فقد كان كارتال صديقي، وعندما طلب مني مبلغاً من المال وافقت أن أقرضه إياه، وقد أخذت المبلغ من أرباح المقهى دون أن أخبر والدي، ولكنه عندما بدأ يماطل في الدفع، ثار غضبي وتشاجرنا، هذا كل ما في الأمر.

- بئس ما فعلت، لقد حذرتك مئة مرة من التورّط مع هؤلاء غريبي الأطوار- ثم التفت نحونا موضحاً- لقد كان يطيل شعره كالنساء، ويضع أقراطاً وأشك أنه...، وقد حذرت ابني كثيراً من التعامل مع هؤلاء الأشخاص خوفاً من توريطنا في مشكلة ما، وحدث ما كنت أخشاه، بل فاق ما حدث كل توقعاتي حيث تم اتهام ابني بجريمة قتل لا علاقة له بها.

قاطعته على الفور. لكي لا أعطيه فرصة لتغيير الحديث، وبقيت مصراً على التركيز على ملفات القضية.

- كما أن المدعي العام وكما ذكر في مرافعته، أوضح أنك كنت تبيع كارتال المخدرات.

- كذب، صدّقني إنها مجرد افتراءات لا أساس لها من الصحة، فنحن كما ترى بنفسك لا نقدّم لزبائننا سوى الشاي والقهوة.

- لكن كارتال كان مدمناً على المخدرات، وقد تم إثبات الأمر من خلال الفحوصات الطبية. تدخّل كنعان هذه المرة.

- لا أنكر أنه كان مدمناً وهذا كان أساس الاتهام الذي وجه إلي، وبما أنه كان مديناً لي بمبلغ كبير فقد أخبرته أن يعطيني النقود وسأقوم بتأمين كمية من المخدر له لقاء ذلك.

- وكيف كنت تنوي أن تؤمّن له المخدرات أيها المجنون، لقد أدخلت نفسك في ورطة أكبر من أجل بعض النقود.

لقد فعل ذلك ليسترد نقوده لا أكثر، ولكن ولسوء الحظ مقتل كارتال زاد الوضع تعقيداً. قال جملته الأخيرة وهو يخاطبنا موضحاً.

- أقسم إن هذا ما حدث، فقد جاء إليّ وهو في وضع يرثى له بسبب حاجته للمخدر، وبدأ يتوسلني لكي أقوم بتأمين القليل له، وبدوري حاولت الاستفادة من الأمر وادعيت أنني سأفعل إن استطاع إحضار النقود لي، فأخبرني حينها أنه وحبيبته أيسون يقومان بابتزاز شخص ما، لذا فهو قادر على تأمين النقود.

وعلى الفور تمسّك كنعان بهذا الخيط الجديد.

- ماذا تعني أنهما كانا يبتزان شخصاً ما؟
- كانا يبتزانه بأخذ النقود منه بين الحين والآخر.
- أهو رجل أم امرأة؟ وهل تعلم من أين هو؟

كان سؤالاً موفّقاً من صديقي يدل على ذكائه العميق.

تمهّل رشاد للحظات قليلة قبل أن يجيب.

- في الحقيقة لا أعلم، فهو لم يخبرني إن كان امرأة أم رجلاً- توقّف للحظات وأردف مؤكداً- أجل لم يخبرني سوى أنهما يقومان بابتزاز شخص ما دون مزيد من التفاصيل، ولكنني أعتقد أنه رجل.
- كارتال أخبرك بكل هذا؟
- أجل، فقد كان يرتجف وبدا بحاجة ماسة إلى المخدر، لذا اعترف لي بالأمر من أجل تشجيعي على تأمين المخدر له.
- ولم يخبرك من يكون؟
- لا لم يطلعني على الأمر.
- انتظروا لحظة.

تدخّل رستم في حماس وهو ينظر إلينا الواحد تلو الآخر كمن اكتشف حقيقة جوهرية لم يصل إليها سواه وقد تخلى عن حرصه السابق من الحديث أمامنا.

- لقد وجدنا المجرم الحقيقي، فهذان الاثنان كان يقومان بابتزاز شخص ويبدو أنهما كان يمصان دمه وثروته رويداً رويداً، والابتزاز ورطة لا نهاية لها ولا حل، ويبدو أن المسكين -أياً كان موضوع الابتزاز- لم يجد أمامه حلاً سوى قتلهما والتخلص من هذه المصيبة إلى الأبد.

تريّثت للحظة قبل أن أجيبه مدمدماً.

- معك حق.

وعلى الفور تدخّل كنعان مرة أخرى لمساندتي واستغلال هذه الفرصة.

- أجل، ولكن من الضروري الوصول إلى هوية هذا الشخص ومعرفة من يكون والسبب الذي قاما من أجله بابتزازه.

- أسباب الابتزاز معروفة عادة- أوضح رشاد- فإن كان رجلاً لا بد وأنه قام بارتكاب فاحشة وصلت بطريقة ما إلى هذين النصابين، وإن كانت امرأة فهي على الأغلب قد قامت بخيانة زوجها.

تلبّد وجه صديقي مجدداً بعد أن فقد بريق الأمل الذي بدا يلوح وسط كل هذه الألغاز.

- تعني أنك لا تعرف من يكون؟

سأل بيأس.

- لم يخبرني بالمزيد، وأنا متأكد أن الفتاة هي من تقف وراء قصة الابتزاز هذه، فقد كان كارتال متهوّراً لا يتحلى بالذكاء الكافي للإقدام على مغامرة من هذا النوع، لكنها بالمقابل كانت ذكية، كما أنها كانت متيّمة به ومستعدة لفعل المستحيل من أجل تخليصه من آفة الإدمان.

- وما علاقة الإدمان بالأمر؟

- كانت تريد جمع مبلغ ما من أجل تكاليف علاجه في إحدى المصحات، وقد استأجرت منزلاً في منطقة جيهان غير، ولكن كارتال لم يكن يتحلى بالإرادة الكافية، وكان في كل مرة يعدها بالتخلي عن الأمر، ويعود إليه مجدداً.

بدا رستم ممتنّاً للحديث الذي تحوّل فجأة لصالح براءة ابنه. لذا قام كنعان بمحاولة أخرى من أجل الحصول على معلومات جديدة.

- اسمعني جيداً يا رشاد، عليك أن تخبرني بكل ما لديك حتى أتمكن من الوصول إلى المجرم الحقيقي، عليك أن تساعدني لنحقّق ذلك، فأنا أعلم مثلاً أنك كنت قد اتفقت مع كارتال على لقاء في اليوم نفسه الذي وقعت فيه الجريمة.

- سأخبرك بالطبع، فأنا بريء من هذه التهمة وليس لدي ما أخشاه، فقد جاء إليّ كارتال صباحاً وأخبرني بأنه سيعطيني خمسة آلاف دولار إن أحضرت له بعض الهيرويين ولكنني بالطبع لم أصدّقه، وطردته قائلاً إنها كذبة جديدة من أكاذيبه، لكنه أقسم وأخبرني إنه وأيسون قد تمكنا من معرفة سر هام عن شخص ما يتعلق بسمعته وشرفه، وأنهما يستغلانه للحصول على المال، وبما أنني كنت أريد استرجاع مالي بأي طريقة فقد أخبرته أن يعود إلي عند الثانية ظهراً ويحضر النقود وسأعطيه ما يحتاج إليه. ولكن الجريمة وقعت قبل ذلك ولم يتمكن من الحضور، وقد

اعتقدت حينها أنه تخلّف عن موعده تهرّباً من دفع النقود، وعلمت فيما بعد أنه قُتل.

كان رستم يهز رأسه مؤكداً على كلمات ابنه وكأنه قد عايش تلك الأحداث بنفسه، وقد سره الوصول إلى دليل جديد يثبت براءة ابنه.

- وهل أخبرت الشرطة بهذه المعلومات؟

سأله كنعان.

- لم يعطني أحد الفرصة للتحدث، فقد كانت الشرطة تبحث عمن تتهمه بالجريمة دون اهتمام بالوصول إلى الحقيقة، وأظن أن هذا ما حدث مع المسكين ابن خالتك يونس.

إن كان رشاد صادقاً فيما يقوله فهذا يعني أن القضية قد اتجهت اتجاهاً آخر بعيداً تماماً عن كل ما كنا نتوقعه، وبالتالي برّأته من التهمة بطبيعة الحال، وقد بدا صادقاً بالفعل خلا قصة المخدرات التي حاول التملص منها، ولكن من جهة أخرى فهؤلاء الأشخاص بارعون في التمثيل على الشرطة وسواها وإنكار أي علاقة لهم بعملهم الأساسي.

ومع ذلك لم يعد هناك من مبرّر للبقاء أكثر بعد أن أفضى الشاب بكل ما لديه، لذا طلبت أن يعيدوا إليّ مسدسي من أجل أن نغادر.

أشار رستم لنعيم الذي أحضر المسدس وهو يضحك ساخراً.

- أنصحك بأن لا تعتمد كثيراً على هذا المسدس، فالزناد معطّل ولن يطلق رصاصة واحدة وقت الحاجة يا سيدي.

أذهلتني هذه المعلومة وصدمتني في الوقت ذاته، فهذا المسدس الذي كنت أعتمد عليه في النجاة من الأخطار التي يمكن أن نتعرض لها، والذي قمت بتهديد مرسل بواسطته متبجحاً كان مجرد خردة معدنية لا تعمل وقت الحاجة، لكن كنعان لم يبدُ متفاجئاً بقدري، وأخذ السلاح ليجرّبه، وبالفعل كان الزناد معطّلاً، وضعته مجدداً في حزام البنطال وخرجنا من المقهى ثلاثتنا وأنا أخاطب أورهان.

- أتعلم أنك قد أسديت لنا معروفاً كبيراً بإحضار مسدسك معك، فهذه الخردة لا تنفع في قتل ذبابة.

- الاحتياط واجب في أماكن كهذه سيدي، أرجو ألا أكون قد تسببت في تعقيد المشكلة عندما استخدمت سلاحي مهدداً.

- بالطبع لا، فكما ترى مسدسي لا يعمل.

كان كنعان مستغرقاً في استنتاجاته. ولكنه، كان يتابع حديثنا أيضاً، لذا تدخل معقّباً.

- شكراً جزيلاً يا أورهان، فقد عرّضت نفسك للخطر من أجل حمايتنا.

- هذا واجبي يا سيدي. وإن احتجتما لأي خدمة مماثلة فهذا من دواعي سروري.

- أسمعت ما قاله لك الكهل، المسدس لا يعمل، ولكن من حسن الحظ أن مرسل لم يدرك الأمر وإلا كنا سنواجه مصير نهاد إن لم يكن أسوأ. ما الحل الآن؟

- لا تقلق ففي لحظات كهذه لن يقوم أحد بفحص السلاح للتأكد من صلاحيته.

أجبته مطمئناً، لكن هذا الكلام لم يقنع أورهان الأكثر خبرة منا في هذه المواقف، فقد اقترح.

- ومع ذلك عليك أن تحتاط سيدي، فقد تتعرض لا سمح الله لموقف تضطر معه بالفعل لاستخدام السلاح، وحينها سيكون الآوان قد فات، من الأفضل أن تعطيني إياه، فلديّ صديقي بارع في تصليح الأسلحة، وبالمقابل سأعطيك مسدسي هذه الفترة ليبقى معك.

لو كانت الظروف مغايرة لما تجوّلت حاملاً المسدس ولما رضيت مطلقاً بالاحتفاظ بمسدس ليس لي، ولكنني وبسبب المفاجآت التي يقحمنا فيها صديقي كنت مضطراً إلى القبول.

وبعد أن خرجنا من الحي. طلبت من أورهان أن يغادر لعدم حاجتنا إلى مرافقته، فيما ابتلعتنا مجدداً زحمة بيه أوغلو الأبدية، وبعد المسير قليلاً سألني كنعان:

- ما رأيك فيما سمعته؟

- أتعني قصة الابتزاز؟

- أجل، فلم يخطر لنا احتمال كهذا من قبل.

- علينا أن نراجع كل الاحتمالات والخيارات السابقة، هذا إن كان رشاد صادقاً فيما يقوله.

- معك حق- أجاب كنعان وقد أقلقه الأمر- أتمنى أن يكون صادقاً.

عدنا إلى السير صامتين مرة أخرى ونحن نفكّر فيما قاله رشاد، وبعد قليل رفع كنعان رأسه ودمدم كمن يفكر بصوت عالٍ.

- لا أظنه كاذباً، فقد بدا كلامه مقنعاً لي.

لذا كان علي أن أبدي رأيي دون مواربة.

- لا أعلم، فلست متأكداً من أي شيء.

- أنت محق، فنحن لا نعرفه من قبل، ولكنني بالمقابل لا أظنه قادراً على اختلاق قصة بكل هذا التعقيد.

- لا تستهن بهؤلاء الناس، فهم أيضاً لديهم أساليبهم ووسائلهم الذكية التي تنجيهم وقت الحاجة.

- ولكن ما أخبرنا به يتوافق مع ما نعرفه عن أيسون- صمت قليلاً لترتيب أفكاره، ومن ثم أكمل شارحاً- فبهذه الطريقة عرفنا المصدر الذي كانت أيسون تحصل منه على كل هذه النقود- توقّف مجدّداً ليكمل بعدها- ولكن هناك شيء لم أفهمه، ففي الرواية التي أوردها رشاد لا وجود لكاثرين فيرجاند، ما دورها بالضبط فيما حصل؟

- الأمر واضح يا صديقي، إن كانت الرواية صحيحة فهذا يعني أن لا علاقة لكاثرين بموضوع الابتزاز وأنها لم تكن مصدر نقود أيسون، بل هناك شخص آخر كان الضحيتان يقومان بابتزازه.

وعلى الرغم من ذلك لم يبدُ كنعان مقتنعاً تماماً، لذا وبعد التريّث للحظات أعاد طرح اعتراضاته.

- ولكن فاتتك نقطة هامة، فأيسون لم تكن تملك المال قبل تعرّفها على كاثرين، وما إن تعرفت عليها حتى بدأ المال يتدفق في يدها.

- أتعني أن الشخص الذي قاما بابتزازه هو كاثرين؟

بدا سؤالي مفاجئاً له، حتى إنه توقّف في وسط الطريق ليشرح لي رأيه.

- هذا احتمال وارد. ولكنني أرجّح احتمالاً آخر أكثر منطقية وقبولاً، فقد تكون أيسون حصلت على بعض المعلومات المتعلقة بأحدهم عن طريق كاثرين، ومن هنا بدأت عملية الابتزاز.

- أي أن كاثرين شريكة أيسون في هذا الأمر؟

نظر إلي مرة أخرى والحيرة لم تتبدد بعد عن صفحة وجهه.

- لما لا نقاطع وجهات نظرنا يا صديقي، أعني أن كاثرين ليست شريكة أيسون في عملية الابتزاز، ولكنها قد أطلعت أيسون على سرّ هام يتعلق بشخص ما دون أي نوايا سيئة، فقامت أيسون باستغلال الأمر وحوّلته إلى ابتزاز للحصول على المال، أليس احتمالاً وارداً؟

- وهل كانت كاثرين تعلم بشأن الابتزاز؟

- ألا تذكر الرسالة التي بعثت بها العجوز إلى أيسون تحذرها فيها من مغبة التورط مع هؤلاء الأشخاص لأنهم خطرون للغاية، وقد نصحتها

بالتخلي عن الأمر برمته؟

- حسناً، أنا أرى أن كاثرين علمت بطريقة ما بتورّط أيسون مع هؤلاء الأشخاص أياً كانوا، ولكنها لم تكن على علم بعملية الابتزاز والتي لم تشر إليها بوضوح في الرسالة.

- لا تستطيع التغاضي عن أي تفصيل صغير- قالها مبتسماً، ولم أحدّد تماماً إن كانت ابتسامته تهكّمية أم إعجاباً حقيقياً من صديق- كما تشاء، سنفترض أن كاثرين لا علم لها بعملية الابتزاز، ومع ذلك فأنا متفائل بما حصلنا عليه من معلومات اليوم.

- ولما أنت متفائل وقد فتح أمامنا باب لا ندري إلى أي درب سيفضي؟

- ذلك أننا سنصل إلى المجرم الحقيقي إن استطعنا الوصول إلى الشخص الذي تم ابتزازه

- أتعني عن طريق كاثرين؟

- بالطبع- قالها مبتهجاً- ما رأيك دكتور واطسون هل بدأنا الآن نسير على طريق الحقيقة؟

أدركت أن صديقي المغرور يرمي من هذا اللقب الذي أسبغه عليّ أنه يعتبر نفسه شارلوك هولمز كما هو معروف.

- رأيي ألا تستبق الأحداث كعادتك. ثم لما أكون أنا واطسون؟

- لأن الكاتب أرثر كونان هو من أطلق على الشخصية هذا الاسم.

- ولكن الشخصية الأشهر هي لشارلوك هولمز.

اعترضت مازحاً.

- لم أكن أعلم باهتمامك المفاجئ للشهرة يا صديقي.

كنا نستعد لخوض مناكفة كالتي كنا نخوضها أيام المراهقة، ولكن هاتفه المحمول حال دون إتمام الأمر، كانت كاتيا هي المتصلة وقد أبلغته بحدثين حصلا في غيابنا، أولهما سار بكل تأكيد وهو وصول رسالة من العجوز الفرنسية كاثرين، أما الثاني فكان يتعلّق بنهاد الذي قام أحد أعضاء المجموعة اكس على ما يبدو برسم نجمة كبيرة على الواجهة الزجاجية لمكتبته.

## (29)

حال وصولنا إلى الاستديو سأل كنعان حبيبته التي فتحت لنا الباب دون حتى أن يبادر بالسلام عليها عن الرسالة، وعلى عكس الانفعال الذي كان يعتريه فقد قابلته بكل برود وهي تقول:

- إنها في الصالون.

لا بد أن نهاد متوتر إلى أقصى الحدود بسبب النجمة التي تصدّرت واجهة مكتبته هذا الصباح، وكان ينتظر اتصالنا لكي نبحث في المشكلة معاً، ونجد حلاً أو وسيلة تطمئنه وتزيل عنه القلق، ولكننا كنا متلهفين لقراءة الرسالة على وجه السرعة، ومع ذلك سأل كنعان عما حصل بشكل عابر.

- ماذا عن النجمة التي تم رسمها على واجهة المكتب، هل عرفتم عنها شيئاً؟

- لقد تلقّى هذا الصباح اتصالاً من ابنته التي أصابها رعب شديد عندما شاهدت الرسمة، وذهب على الفور من أجل معرفة حقيقة ما حصل- أوضحت له كاتيا- وأظن من الواجب عليك الاتصال به والاطمئنان عليه.

- حسناً، سنتصل، ولكن هل ملك هناك؟

- لقد ذهبت إلى بورصا من أجل مهرجان للشعر في أحد المراكز أو شيء من هذا القبيل، وديزى هي من تدير المكتبة الآن.

- وهل شاهد أحدهم الفاعل؟

- أحد جيرانه رأى شاباً يهرب من أمام المكتبة لكنه لم يتعرف عليه.

- لا بد وأنه أحد الصعاليك الذين يترددون على مكتبة هذا المعتوه مرسل، إنها محاولة من هذا الحقير لإخافتنا.

دمدم بحدة وهو يسير.

- ليست محاولة إنه تهديد مباشر- قالتها والقلق بادٍ في صوتها- ولا أستبعد أن يقوموا بمحاولة مماثلة على باب الاستديو إن لم يقوموا بأكثر من ذلك.

- لا تبالغي في القلق يا عزيزتي- أجابها بكل برود ولا مبالاة- كما أنهم يقصدون مجرد التخويف، ولا نية حقيقية لديهم بإيذائنا، والأهم أنهم لا يعرفون عنوان الاستديو.

- وهل من الصعب عليهم الوصول إلينا؟

- صدّقيني إنها مجرد محاولة سخيفة للرد على الهجوم الذي قمنا به على متجره، وإجباره على التحدث إلينا، ولا أعتقد أنهم يقومون بتعقّبنا، لا تبالغي ولا تشغلي بالك بهذه الأمور.

في الحقيقة لم أقتنع بالمسوغات التي كان يسوقها بكل لا مبالاة تجاه تهديد جدّي كالذي حصل مع نهاد، وهذا ما دفع كاتيا أيضاً إلى الوقوف في مواجهته وهي تقول بغضب:

- أنا التي أبالغ أم أنت الذي تتصرف بلامبالاة مطلقة إزاء المشكلة التي تعرّض لها أقرب أصدقائك بسببك؟

لم يبدر منه أي جواب على هذه الاتهامات، وبدل ذلك أخرج هاتفه النقال من جيبه، واتصل بنهاد بكل برود.

- ألو مرحباً نهاد... كيف الحال؟ هل أنت بخير؟... أخبرني ما الذي حصل... حسناً... أجل لقد فهمت، هل عادت ملك من بورصا؟... إذا ما رأيك أن تحضر ديزى أيضاً معك حتى لا تبقى بمفردها؟... ستذهب أنت، حسناً كما تشاء، لا على العكس قرار صائب... حسناً إن احتجت أي شيء فاتصل بنا على الفور... سليم أيضاً هنا. اتفقنا إلى اللقاء إذاً، مع السلامة.

وما إن أنهى المكالمة حتى التفت إليّ:

- أخبرني أنها مجرد مشكلة عابرة، وأنّ البواب سيكون أكثر حذراً من الآن فصاعداً، وستعود ملك غداً من بورصا. لذا، سيبقى اليوم في المنزل مع ديزى، وقد يعود بهذه الطريقة إلى منزله بشكل نهائي- ثم التفت نحو كاتيا وهو يقول- أرأيت أنه ما من داعٍ للقلق، فنهاد يقول إن أموره بخير، وليس علينا أن نخاف وأن نترك عملنا.

- وماذا تتوقع منه أن يقول وهو يعرف يقيناً أن التحقيق في هذه القضية أهم لديك من الاهتمام به.

- أنت تبالغين في قسوتك عليّ يا عزيزتي.

قالها معاتباً، ولكن من الواضح أنه كان يحاول ضبط نفسه قدر استطاعته حتى لا يتشاجر مع كاتيا.

- أنا لا أبالغ على الإطلاق، فبدل أن تسأل عن صديقك حال وصولك، كان كل اهتمامك منصباً على الرسالة.

بقي محافظاً على هدوئه الظاهري.

- لأن الرسالة قد تحوي معلومات تمكّننا من حل هذه القضية بأقرب وقت ممكن، وبالتالي سنتخلص من كل هذه المشاكل.

كان يتحدث مشدّداً على كل كلمة أملاً في الانتهاء من هذه المناقشة.

- أحقاً ستنتهي؟

قالت ذلك وهي تنظر إليّ طالبة التأييد.

- هذا ما نرجوه، فقد تفسّر هذه الرسالة اللغز الذي وراء القضية، وبالتالي سنعرف القاتل الحقيقي.

- حسناً.

قالتها بغضب، وقد أدارت لنا ظهرها، وأخذت تسير نحو الصالون. لحقنا بها متحرّقَيْن لقراءة الرسالة التي كانت في مغلّف أزرق موضوع على الطاولة. وقد أشارت نحوها وهي تقول:

- إنها هنا. ولكن، أرجو أن ننتهي عما قريب.

- سننتهي.

قال ذلك وهو يأخذ الرسالة وقد بلغ به الانفعال أقصى درجاته، وكان ينظر إلى المغلّف كمن ينظر إلى فريسة يتجهّز للإنقضاض عليها، ومن ثم التفت إلى كاتيا متوعداً.

- صدّقيني سألقن هذا الوغد درساً لن ينساه، ولن يتجرأ بعدها على الاقتراب من أي أحد يخصني.

- لا أريدك أن تتورط في مشاكل جديدة. كل ما أطلبه منك أن تبتعد عن المتاعب.

فتح المغلف من دون أن يعير اهتماماً بالعنوان المدوّن عليه، وكان في الوقت نفسه يحاول إرضاء حبيبته، لكي تنتهي هذه المناقشة التي بدت من دون أي فائدة؛ فكل منهما لن يقتنع بوجهة نظر الآخر.

- حسناً عزيزتي، أعدك أنني سأكلّم المحقق جونييت ليحل الموضوع من دون أن نورط أنفسنا في أي مشاكل جديدة.

قالها وقد أخرج الرسالة وبدأ بالقراءة.

- اقرأها بصوت عالٍ، فأنا أيضاً متشوّق مثلك لمعرفة ما جاء فيها. قلت له.

- لكنني لا أستطيع القراءة بصوت عالٍ وترجمة ما ورد فيها في الوقت ذاته.

وبدا يقرأ الرسالة بالفرنسية بصوت عالٍ.

- مسيو كنعان...

- لقد دوّنت الرسالة باسمك- قلت موضحاً حين نظر إلي مستغرباً- هل أخطأت؟

- لا ولكنني لم أكن أعلم، هذا كل ما في الأمر.

وعاد إلى الرسالة مجدداً.

مسيو كنعان لقد أحزنني خبر موت أيسون جداً، وخاصة أنها كانت شابة في مقتبل العمر، مليئة بالنشاط والحيوية، والأكثر إيلاماً هو موتها بهذه الطريقة المفجعة، ومع ذلك أشكرك لأنك كلّفت نفسك عناء إخباري بالأمر. وبالنسبة إلى الأسئلة التي طلبت مني توضيحاً حولها، فقد جاءت إليّ أيسون قبل سنة تقريباً من الآن وقد قرأت سيرة نيكولاس فليمل التي دوّنتها منذ بضعة أعوام، وكانت مهتمة بالعلوم التي عمل عليها فليمل وخاصة بعد ذكر اسمه في سلسلة هاري بوتر، وبالطبع هناك الكثير ممن حاول التواصل معي، لكنني كنت أرفض على الدوام، إلا أنني عندما علمت أنها قادمة من تركيا، وافقت لعدم رغبتي في ردها خائبة بعد قطع كل هذه المسافة، كما أن والدي قد مكث بضع سنين في استانبول إبان نشوب الثورة الشيوعية، فقد هرب إليها ملتجئاً كالكثير من الروس حينها، وكان يحدّثنا مطولاً عن هذه المدينة الأخاذة، لذا وبناء على ما وصفه لي والدي زرت استانبول لمرتين وقد سحرتني بالفعل، إنها مدينة رائعة يتجلى فيها سحر الشرق والغرب معاً، فقصر توب كابي، آيا صوفيا، جامع السلطان أحمد، وبقية الصروح التاريخية العائدة إلى الامبراطوية الرومانية والسلطنة العثمانية، ومضيق البوسفور، وأبنية بيه أوغلو الجميلة... كلها تشكّل مزيجاً لا يمكن سوى الانبهار به.

ومنذ ذلك الوقت خطرت لي فكرة تأليف كتاب عن اسطنبول، وعندما تعرّفت على أيسون تجدّدت رغبتي هذه مرة أخرى، وقد أحببت هذه الشابة كثيراً، وكنت أحس بوجود رابط مشترك بيننا، كانت تزورني مرتين في الأسبوع لأحدّثها عن فكرة الكتاب وأطرح عليها أسئلة عن اسطنبول وعن الروس الذين باتوا يعيشون بكثافة في منطقة بيه أوغلو، وهي كانت توضح لي كل ما كنت أود معرفته، وكانت إضافة إلى ذلك تحدّثني عن كارتال حبيبها.

كانت تخاف عليه كثيراً بسبب آفة الإدمان التي لم تستطع كل محاولاتها أن تجعله يتوقف عن ممارستها، وكنت على معرفة تامة بأن الأمل ضعيف جداً في العلاج النهائي، ولكن الحب كما تعلمون يغشي البصر والبصيرة، فقد كانت المسكينة متأكدة أنها ستتمكن من إقناعه بالعلاج والكف عن الإدمان، وما كان يثير مخاوفنا بشكل كبير هو لجوء مروّجي المخدرات إلى استغلال كارتال في الترويج والمتاجرة، وخاصة أنه كان مديناً لهم بمبالغ كبيرة كما ذكرت لي.

وعندما قررت العودة إلى تركيا نصحتها بأن تعطيه فرصة أخيرة، وإن لم يوقف إدمانه فعليها أن تتركه وتقطع علاقتها به على الفور. ولكنها بطبيعة الحال لم تعر تحذيراتي أية أهمية، وبقيت على علاقة به رغم أنه لم يبد أي نية للعلاج والتخلّص من هذه الآفة، وفي الوقت نفسه كانت مستمرة في إجراء الأبحاث التي طلبتها منها حول اسطنبول، كانت فتاة على قدر كبير من الذكاء، واستطاعت أن تمدّني بكمية كبيرة وهامة من المعلومات.

وكنت أرسل لها بين الحين والآخر النقود لقاء ما تجريه من أبحاث، وكنت أتمنى من كل قلبي أن تترك هذا الشاب الأرعن.

وللأسف، فقد تحققت كل مخاوفي مع الوقت، فتحوّل كارتال إلى ألعوبة بيد مروّجي المخدرات، كانت هذه المخاوف واضحة في الرسائل التي كانت تبعث بها إلي، وكنت بدوري أنصحها على الدوام بالتخلّص الفوري من أي رابط مع هذا الشاب وقطع علاقتها به وبكل ما يمتّ إليه بصلة.

لكن المسكينة لم تفقد الأمل بعد وكانت ترجو أنه تقنعه بالكف والخضوع للعلاج، على الرغم من أنه أصبح مجرّد دمية يتصرف بها المروجون كما يشاؤون وقد أثقلت الديون كاهله، كانت دائرة مغلقة لجحيم أودى بحياتها في النهاية.

كانت فتاة نشيطة مفعمة بالأمل وعنفوان الشباب وحيويته، وقد بت أشعر بالذنب لأنني لم أتمكن من الحؤول دون تعرّضها لهذا المصير.

ليتني أقنعتها بالبقاء في باريس، وعدم العودة إلى اسطنبول، ولكن الأمنيات لا تغيّر مجريات القدر، وقد ماتت المسكينة بطريقة مفجعة ولا نملك الآن سوى الدعاء لها بالرحمة والغفران».

أنهى كنعان الرسالة وقد تملّكه اليأس والقنوط، فالأمل المعلّق بالرسالة ضاع بين ثنايا كلمات العجوز التي لم تخبرنا أي شيء مفيد، بل على العكس فقد زادت من شكوكنا بأن الجريمة تم ارتكابها من قبل تجار المخدرات. أعاد قراءتها مرة أخرى، ولكن لا فائدة ترجى من إعادة كلمات بتنا نعرف ما تحويه.

- أهذا يعني أن رشاد كان يسخر منا؟

قالها وقد تملّكه حنق شديد.

- هذا ما توضحه الرسالة.

قلت معقّباً.

بدأ يسير دون وجهة محدّدة والرسالة بيده، ويتنقل بين الديكورات

التي تم تحضيرها من أجل الغد لتصوير الجريمة التي حصلت في المشرب، وقد أصبح الجو خانقاً وساد التوتر في المكان.

ولكن ما الذي يحصل، أيعقل أن تكون المرأة كاذبة؟ ولكن لما قد تُقْدِم على الكذب؟ لقد وصلنا إلى طريق لم نكن نتوقّعه من قبل، طريق قد يكون مسدوداً.

- معك حق فلا مبرر لكي تكذب علينا.

أوضحت بدوري.

إلا أن كاتيا التي ظلت جالسة طوال الوقت صامتة وهي تراقبنا لم تعد تستطيع الحفاظ على سكوتها.

- سأعود إلى منزلي.

قالت وهي تنهض.

نظر إليها كنعان دون أن يطلب منها البقاء كما كنت متوقعاً.

- حسناً عزيزتي، سأتصل بك فيما بعد.

اكتفى بهذا القول.

نظرت إليه والشرر يتطاير من عينيها الجميلتين، لكن كنعان لم يلحظ الأمر نهائياً، فقد كانت أفكاره تشكّل حاجزاً يفصله عن كل واقع ومنطق، وحتى إن لحظ مدى ضيقها، فهو لم يكن راغباً في بقائها معه حتى لا يسمع المزيد من التوبيخ والنقد.

- عمتم مساءً.

قالتها وخرجت.

بعد خروج كاتيا. عاد كنعان إلى التجوّل على غير هدى بين قطع الديكور كمن يبحث عن حقيقة ضائعة علها يجدها ملقاة أمامه، كان يدمدم أحياناً وهو يفكر بصوت عالٍ على ما يبدو، وبقي على هذه الحال لفترة من الوقت، وقد نسي وجودي تماماً. وأخيراً، استسلم وجلس واليأس يعتصر روحه ويشوّه ملامح وجهه الوسيم الذي كان يتغضن بخواطر توحي بأنه صاحبها يعاني ألماً شديداً. رفع رأسه وهو يسألني.

- ما رأيك أنت؟

كان من الواضح أنه يتوسل لديّ حلاً لهذه المعضلة المعقدة، ولكن لم تكن لدي أدنى فكرة.

- حقيقة بت لا أعلم شيئاً- نظرت إليه متردداً بعض الشيء قبل أن أكمل- ما رأيك لو ذهبنا للتحدث مع المحقق جونييت.

وجه إليّ نظرة اخترقت كل دفاعاتي التي أعددتها وقد تلبّد وجهه

وهو يسألني.

- لما علينا الذهاب إليه؟

- سنخبره بكل المعلومات التي حصلنا عليها، وحينها قد يقتنع بفتح ملف القضية مجدداً والبحث فيها مرة أخرى، وبالتالي سيعيد إلقاء القبض على رشاد وقد يعتقل رستم أيضاً، ومع قليل من الضغط والتخويف سيجبرهما على الاعتراف بالجريمة، وبكل ما أخبرنا عنه اليوم.

- لا أريد أن أقحم جونييت في الموضوع، كما أننا لسنا متأكدين من براءته حتى الآن- توقّف للحظات ثم سألني مجدداً- أتعتقد أن رشاد هو المجرم الحقيقي؟

- هو ورجاله والشخص الذي أخبرنا عنه.

- نوري العصفور؟

- من الواضح أن هذا الأخير ينافسهم في العمل، ولا بد أن كارتال كان ضحية الصراع والتنافس بينهم.

وعندما لاحظت أن الاهتمام بدا يلوح على وجهه وهو يتابع الاستماع إلي حاولت قدر الإمكان أن يكون كلامي مقنعاً.

- وأظن أن أطراف أقوى قد تدخّلت من أجل فرض الصلح على هاتين المجموعتين المتناحرتين في سوق ترويج المخدرات، وكان الخاسر الوحيد هو كارتال وحبيبته.

- إنك تقترب من الفكرة التي أبني عليها احتمالاتي، ولكن سأضيف نقطة واحدة وهي احتمال تورط جونييت أيضاً في القضية، وبالتالي قد يكون هو من أرغم الطرفين على التصالح، وهو من أوعز لمخبره مرسل ليبعث أحد صعاليكه لرسم هذه النجمة على مكتبة نهاد بغرض تخويفنا، وجعلنا نتخلى عن هذا البحث.

- لست متأكداً مما تقوله، ولكن إن صدقت توقّعاتك فهذا يوحي بصعوبة المهمة التي نعمل عليها.

عاد كل منا إلى التزام الصمت مرة أخرى بحثاً عما يمكن أن نقرّره، وقد أطال صديقي الصمت لذا انبريت قائلاً:

- وما الذي تنوي فعله الآن؟

- لا أعلم- عاد للوقوف مجدداً والرسالة لا تزال بيده- حقاً لا أعلم، قد يكون من الأفضل لنا جميعاً الانسحاب.

كانت مفاجأة لم أتوقّعها مطلقاً، وعلى الرغم من ذلك أردت التأكد من حقيقة نواياه.

- أنت محق، فنحن نستطيع التراجع وكأن شيئاً لم يكن، كما أننا لم نقم بإيذاء أحد، لذا فانسحابنا لن يؤدي إلى أية خسائر.

- أهذا ما تراه؟

قال هذا وقد أضاع اليأس كل الحماس الذي يتخلل صوته عند الحديث عن هذا الموضوع، وبدا مستسلماً كمن يريد مني أن أقرّر عنه لعدم قدرته على التفكير أكثر.

- هذا ما يقتضيه المنطق.

عدت إلى تأكيد كلامي.

- معك حق هذا ما يقتضيه المنطق- وارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة وهو يقول- وماذا عن ذلك المسكين يونس الذي تم اتهامه بجريمة قد يكون بريئاً منها؟

- العالم ليس مكاناً عادلاً.

ولكنه قاطعني ليكمل الجملة عني..

- وليس لزاماً علينا نحن نشر العدالة.

- تماماً، كما أننا لا نستطيع أن نفيد الموتى بشيء حتى إن وجدنا الحقيقة، وبالنسبة ليونس تستطيع أن توكل محامياً بارعاً ليتولى الدفاع عنه.

- أظن أن هذا ما يتوجب علينا فعله.

كان صوته يائساً حزيناً خالياً من أي أمل كان يتحدث بطريقة آلية كمن بدا مرغماً على التكلّم دون اقتناع.

- أظن أن الوضع ليس بهذا السوء يا صديقي- حاولت التخفيف عنه- فأنت تعمل في المعرض بوتيرة سريعة، وسينتهي في الموعد المحدد تماماً، وأنا متأكد من أنه سيجتذب اهتمام الكل، أليس هذا ما كنت تود الوصول إليه في نهاية المطاف؟

- أجل هذا ما كنت أريده، ولكن عندما تبدأ بخوض طريق الحقيقة، يصبح من الصعب عليك العودة والسير في طريق الخديعة والكذب مرة أخرى.

وضع الرسالة مجدداً في الظرف وهو يقول يائساً:

- هيا بنا نخرج من هنا.

عندما خرجنا كانت بيه أوغلو قد بدأت بإشعال أنوار الشوارع إيذاناً باستقبال ليلة جديدة من لياليها، وفيما نحن نسير خرج كلبان من زاوية أحد الشوارع واتجها نحونا مسرعين، كان أحدهما اسود اللون والثاني على عكسه تماماً يماثل بياضه بياض الثلج، تراجعت خائفاً لكن كنعان استقبلهما

بحرارة من رأى أصدقاء قدامى وهما أيضاً كانا مسرورين للقائه، اقترب منه الأسود في البداية فرحّب به صديقي وهو يقول:

- هل خرجت للتنزه يا شقي؟

وأخذ يربّت على ظهره مداعباً وقد سرّ الكلب وبدا كأنه معتاد على الأمر، وأخذت الكلبة البيضاء اللون تقترب بدورها وهي تشم رائحته-أهلا يوسما، هل خرجت معه للتنزه؟- وبدأ يداعبها هي أيضاً فيما أخذ الكلب يقترب مني ليتعرف على رائحتي ولكنني بدأت أتراجع نحو الخلف.

- لا تخف أنه يريد شم رائحتك والتعرّف عليك.

لكن كلماته لم تكن كافية لإبعاد الخوف عني.

- إنها كلاب شوارع، وقد تكون ناقلة للأمراض.

- لا تخف إنها أقل ساكني بيه أوغلو ضرراً، ومن الواضح أنه قد تم تلقيحها، انظر إلى الإشارة الموجودة على أذنيها.

ومع ذلك لم أسمح له بالاقتراب، وبعد أن أدرك أن لا أمل يرجى مني عاد مجدداً إلى كنعان الذي بقي يداعبهما لفترة من الوقت ومن ثم أكملنا السير مجدداً وقد توقف الكلبان للحظات وهما يتابعان صديقهما الذي بدأ يبتعد، وبعد لحظات سألني:

- أليس من الأفضل أن نحيا مثل هذه الحيوانات؟ دون تفكير في الغد والموت والخلود والقدر، أن نحيا اللحظة وكأنها الأبد وأن نلبي احتياجاتنا الجسدية فقط لا غير؟

- حينها سنكون أكثر سعادة بمرات مضاعفة.

التفت إليّ مستغرباً ليتأكد من مدى جدّيتي.

- لما استغربت؟

سألته.

- لم أتوقّع أن توافقني، فأنت على الدوام كنت رجلا منطقياً عقلانياً.

- إذاً؟

- لقد أخبرتك أننا يجب أن نعيش مثل الكلاب وأنت أبديت موافقتك.

- وما الغريب في الأمر؟

- الغريب أن سليم الذي أعرفه سيبدي اعتراضه على الفور، ويثبت لي بالأدلة والحجج المنطقية أن حياة الإنسان أفضل بما لايقاس بحياة الكلاب، وسأوافقه الرأي في نهاية النقاش.

- أنت لم تكن تتحدث عن الحياة مثل الكلاب، بل كنت تعني الابتعاد عن تهويل الأمور، والاستمتاع باللحظة، ولأنني أدرك وضعك النفسي جيداً وأكاد لا أختلف عنك حالياً، فقد وافقت على الفكرة لا أكثر.

- أي أنك لم تخرج عن منطقك المعهود.

- بالطبع.

وصلنا إلى شارع الصحفي إيرول ديرنك الذي تتوزع المقاهي على طرفيه ومعظم رواده فنانون من حقبة (يشيل جام) الزمن الجميل، ليعود كنعان إلى حديثنا السابق.

- لقد تغيّرت كثيراً يا صديقي، تغيّرت كثيراً.

- أتظن أنك لم تتغيّر؟

- أنا تغيّرت؟

- قبل هوس الخلود الذي سيطر على عقلك كنت رجلاً يعرف كيف يستمتع بحياته ولا يفوّت فرصة من أجل تذوّق ملذات الحياة المتنوعة.

- أتعني أنني كنت أعيش حينها حقاً مثل تلك الكلاب، وأطبّق فلسفتها في الحياة؟

- أعني أنك أكثر حظاً مما لا يقاس، فهذه الحيوانات المسكينة تقاسي الأمرين حتى يحنّ قلب أحدهم عليها ويطعمها القليل.

- أتعتقد أنني أختلف عنها كثيراً؟ لو تعلم الصعوبات التي أعانيها ومقدار التذلل الذي اضطر أن أبديه تجاه الجمارك من أجل الموافقة على أن تتولى شركتنا تأمين بضائع معيّنة.

- ولكن هذه الكلاب لن يخطر لها مطلقاً أن تقيم معرضاً لأبناء جنسها من القتلى والمذبوحين.

ضحك بصوت عالٍ وهو يقول:

- أنت محق في هذه النقطة.

بدأ مزاجه بالاعتدال وعادت إلى وجهه الابتسامة المعتادة مرة أخرى، وهذا ما سرّني أيضاً.

- لقد تغيّرنا بالفعل يا صديقي، فهذه المرة الأولى التي أقرر فيها ترك موضوع ما دون إتمامه حتى النهاية.

- قرارك صائب. فالتراجع من أهم الاستراتيجيات التي يتحلى بها عقلنا.

- ربما.

قالها بخفوت وعدم قناعة، وعاد للصمت مجدداً، ونحن نسير حتى وصلنا شارع الاستقلال، ولكنني لم أرغب في تركه وحيداً تتلاطمه أمواج الحيرة واليأس

- أتريد مني أن أذهب معك؟

سألته.

وضع يده بودّ على كتفي وهو يقول:

- شكرا لك يا صديقي فقد تعبت كثيراً معي اليوم، لذا عد إلى بيتك فلا بد أن كولريز وبورج بانتظارك الآن وأنا أيضاً سأتصل بكاتيا، فقد بدت غاضبة جداً عند خروجها، وأعتقد أنني أزعجتها.

- معك حق، عليك الاتصال بها.

تركت كنعان، واتجهت نحو شارع يشيل جام حيث أجمل أبنية بيه أوغلو (سيركل دي أورينت) الذي أنشأه المعماري المرهف الذوق الكسندر فالاوري والذي يحوي فرن إينجي الشهير وأجمل صالتي سينما وهو العمل (إيميك) والحرير، هذا المبنى الرائع للأسف تم إهمال قسم كبير منه وبقي دون استخدام، وعندما مررت أمام باب سينما العمل والتي تعتبر برأيي أجمل صالات السينما في بيه أوغلو رأيت ملصقاً لأحد أفلام ريتشارد غير ووينونا رايدر الرومانسية فتذكرت رغبة كولريز في حضور أحد هذه الأفلام عندما كنا هنا قبل عدة أيام وذهبنا لشرب المحلبية.

وبينما كنت أجتاز أزقة بيه أوغلو، شعرت بروعة المغامرة التي خضناها، اقترابنا من الخطر والموت إلى هذه الدرجة ولّد في نفسي شعوراً غريباً يشبه ما كنت أقرأ عنه في الروايات البوليسية التي كانت ولا تزال شغفي على الدوام. وفي الوقت ذاته شعرت براحة خفية لأن هذه المغامرة قد انتهت بسلام واقتنع صديقي بالتخلي عن البحث في النهاية.

عندما وصلت إلى البيت، اتجهت على الفور لوضع المسدس الذي معي في الخزنة الموجودة في غرفة المكتب، فلم أكن راغباً في أن تراه كولريز، وتبدأ سلسلة جديدة من الأسئلة والمشاحنات مع امرأة ثانية في يوم واحد. وبما أن العشاء لم يكن جاهزاً أخذت قدحاً من الشراب، واتجهت نحو الشرفة لأستمتع ببعض السكينة وأنا أتأمل روعة البوسفور، ولكن بورج أتى وجرني خلفه بكل صخب ليحرمني متعتي الصغيرة، كان لديه واجب مدرسي، وعليّ أن أساعده، ونتدرّب سوية في غرفته، ذلك أن كولريز لا تسمح له بالدراسة سوى في غرفته تحديداً، جلس وراء طاولته الصغير وأنا على طرف السرير، وأعطاني كتاب الرياضيات حيث كان عليه

حفظ جدول الضرب، فبدأت بالقراءة ليردد ورائي وهو يهز كرسيه إلى الأمام والخلف، وقد أعجبته الطريقة التي ألقي بها الأرقام على مسامعه، حيث أقوم بتلحينها بطريقة معيّنة ليردّدها ورائي باللحن نفسه، وبقينا فترة لا بأس بها ونحن مندمجان في جداول الضرب المتسلسة، ولو لم تدخل كولريز لتخبرنا أن العشاء أصبح جاهزاً لأبقاني بورج معه لساعات على هذه الحال.

ذهبنا سوية إلى الحمام لنغسل أيدينا، ولم تمض لحظات على جلوسي إلى المائدة حتى رنّ هاتفي النقال، وكان المتصل بيير الذي أخبرني أن الطليان موافقون على عقد الاتفاق وعلى عرضي بزيارة اسطنبول، وسيكونون هنا خلال عشرة أيام تقريباً. وقبل أن ينهي المكالمة قال مستدركاً:

- هناك أمر آخر، بالنسبة إلى المرأة الفرنسية التي كنت تبحث عنها

- أتقصد كاثرين فيرجاند؟

- أجل لقد عثرنا عليها.

- ممتاز، كيف عثرت عليها؟

- في الحقيقة لست من عثر عليها بل سكرتيرتي وبطريقة سهلة جداً، وذلك عن طريق دليل هواتف باريس، ولكن الأخبار لا تسرّ، فقد وجدت ميتة في شقتها قبل عدة أيام لسوء الحظ. وكما تعلم فهي كانت متقدمة في السن، ولكن إن احتجت لمعرفة أي شيء يمكنك أن تسأل سكرتيرتها حيث أخذت رقم هاتفها.

- حسناً فعلت، إن احتجنا لمعرفة شيء سأخبرك لتعطيني رقم هاتفها.

بعد أن أنهيت المكالمة فكّرت في إخبار كنعان، ولكنني تخليت عن الفكرة فموت كاثرين لم يعد يعنينا في شيء طالما أن صديقي قد تخلى عن الفكرة نهائياً.

## (30)

في اليوم التالي، كان الجو ماطراً وكان البيت غارقاً في سكون لذيذ لا يقطعه سوى صوت قطرات المطر وهي تضرب زجاج النافذة برفق، لقد استغرقت في النوم حتى إنني لم أنتبه لمشاحنات بورج الصباحية مع والدته قبل الذهاب إلى المدرسة. في الحقيقة لم أنم بهذا العمق منذ فترة طويلة، نهضت بهدوء وجلست في السرير، وفي تلك اللحظة فُتح الباب لتدخل كولريز وتنير الغرفة بابتسامتها اللطيفة.

- صباح الخير.

- صباح النور، لقد تركتني مستغرقاً في النوم.

اتجهت نحو النافذة لكي تزيح الستائر حيث دخل ضوء فضي شاحب إلى الغرفة.

- لقد كنت تنام بعمق. لذا، لم أشأ أن أوقظك وأفسد عليك نومك الهنيء، ألديك عمل هام هذا الصباح؟

- لا ليس هناك ما يهمّ - نهضت من السرير وأنا أقول- لقد أحسنت صنعاً بعدم إيقاظي فقد كنت متعباً ولم أنم بهذا العمق منذ فترة طويلة.

وقبل أن أتم جملتي بدأ هاتفي النقال بالرنين، وبما أن كولريز كانت أقرب إليه مني فقد ردّت عليه، فيما استولى القلق عليّ، وبدأت أتساءل عن هوية المتصل، أيكون كنعان؟ هل حدث شيء جديد؟.هل غيّر رأيه مرة أخرى؟ هل اجتاحت السيول المستودع مجدداً؟ إنه أسوأ ما يمكن أن أسمعه هذا الصباح. تزاحمت الهواجس في رأسي وأنا أسأل كولريز عن المتصل...

- أهو السيد ممدوح؟

- ألو- ردت كولريز وعندما سمعت صوت المتصل التفتت نحوي وهي تكمل- أهلا كنعان...

يا إلهي حدث ما كنت خائفاً منه، لا بد أنه غيّر رأيه وعاد لمتابعة هذه الجرائم مرة أخرى، أم أن هؤلاء المجانين عادوا لمضايقة نهاد مرة أخرى، كانت الأسئلة تـأخذني لكافة جهات القلق، فيما كولريز مستمرة في كلمات المجاملة المعتادة مع صديقي، ومع ذلك حاولت أن أخفي قلقي فلا أريد المزيد من التعكير الصباحي، وعندما تناولت الهاتف منها حدّثت صديقي بكل هدوء.

- أهلا كنعان كيف حالك؟
- سأسافر إلى باريس، وقد اتصلت لأعلمك بالأمر.

قالها وقد بدا لي صوته كمن يلهث للحاق بشيء لا يدري كهنه.

- إلى باريس؟

سألته وقد فاجأني قراره.

- أجل، عليّ أن أتحدث مع كاثرين فيرجاند، فأنا متأكد من أنها تخفي عنا معلومات هامة.

كان يتحدث هذه المرة بثقة مطلقة مما يقوله، وكأنه يملك الدليل في يده. ماذا يحاول أن يفعل هذا المجنون؟ ماذا عن اتفاقنا بالأمس بترك الموضوع وشأنه.

- تخفي عنا معلومات؟ من أين أتيت بهذه الأفكار؟
- لقد عثرت على كتاب آخر من تأليفها، وهو عبارة عن سيرة ذاتية لها.
- أين عثرت عليه؟
- في منزل أيسون.
- هل ذهبت إلى هناك؟
- أجل.
- ألم تخبرني أنك ذاهب لرؤية كاتيا؟
- أجل، ولكن هاتفها الجوال كان مغلقاً فقد أدمنت عادة إغلاقه كلما نشب شجار أو مشكلة بيننا، لذا توجهت إلى بركة متوقعاً أن أجدها هناك. ولكن، إردينج أخبرني أنها غادرت منذ قليل وقد أخبرته أنها متوجهة إلى المنزل، لذا اتجهت نحو منزلها، وفي الطريق التقيت بذلك العجوز الملتحي الذي يتجول في أزقة بيه أوغلو وهو يعظ الناس ويتوقّع بكوارث على الدوام.

لقد عرفته على الفور فهو يدعى داوود، وقد أطلق عليه أصحاب المتاجر في بيه أوغلو لقب داوود الدجال، كان رجلاً شبه مجنون يسير وهو يحدّث نفسه في الطرقات، وقد اعتاد الوقوف أمام متجري لبعض الوقت، ولكنني أبعدته من هناك، على الرغم من أنه لا يسبب الأذى لأي كان، وأكاد أجزم أنه أقل ضرراً وإيذاءً من صديقي كنعان بمراحل، ومع ذلك أردت أن أتأكد إن كان هو من يعنيه.

- أتعني داوود الدجال؟

خرجت كولريز من الغرفة وهي تشير لي بأنها ستقوم بتحضير الفطور

فهززت رأسي موافقاً.

- أجل هو بعينه، فقد كانت يقف على درج سينما لالي وهو يصيح بصوت عالٍ ويخاطب جموع المارين في الشارع قائلاً:

«أيها الباحثون عن الحقيقة، أيها الراغبون أن تنير الحقيقة دربكم المظلم، الحقيقة ليست في هذا الشارع، ليست في واجهة المتاجر التي تحدّقون فيها طوال الوقت... الحقيقة ليست مخبئة في عيون النساء وشفاههن وصدورهن، ليست بين...صدّقوني... ليست في صالات السينما.. الحقيقة تكمن في قلب البيوت، في المطابخ والحمامات وغرف النوم... إنها تحت السجاد المفروش في ردهاتكم، في البرادات وخلف اللوحات المعلّقة على جدرانكم، تحت الأسِرة والمخدات.. إنها في المكتبات التي تشغل زوايا منازلكم، بل هي داخل هذه الكتب تحديداً... لا يكفي البصر وحده للوصول إلى الحقيقة، بل يجب أن تمتلك البصيرة... أيها الباحثون عن الحقيقة، عودوا إلى منازلكم وابحثوا في الكتب، ابحثوا داخلها بإمعان، وعندها ستجدون الحقيقة المطلقة، ستجدون النور الذي ينير دروبكم ويمنحكم الخلود المطلق». هذا ما كان يقوله

- وبالتأكيد فقد أقنعك كلامه عندما سمعت كلمة الخلود؟

سألته وأنا أضحك.

- على العكس تماماً، ولكن المصادفة قد راقت لي بصراحة، وبت أتساءل إن كانت فكرة الخلود قد أودت بعقل المسكين كما فعلت بي.

- ومع ذلك فقد أقنعك كلامه حتى إنك ذهبت إلى منزل أيسون مرة أخرى.

- ليس كلامه ما أقنعني يا صديقي، ولكن تسلسل الأحداث والصدف هو ما أقنعني، فقد ذهبت إلى منزل كاتيا الذي يقع في جيهان غير كما تعلم، أي بالقرب من منزل أيسون ولكنها لم تكن في المنزل، أعتقدت للوهلة الأولى أنها كما في بعض الأحيان قد أطفأت أضواء المنزل لتستمع إلى الموسيقى على ضوء الشموع، ولكنني طرقت الباب كثيراً دون أن يفتح لي أحد، لذا خطر لي أنها ربما ذهبت لتناول العشاء في مكان ما، وعندما خرجت من المبنى وفي طريق العودة مررت بالقرب من الشارع الذي يفضي لبيت أيسون، في تلك اللحظة تذكّرت ما قاله داوود، وقررت الذهاب إلى منزلها، وقمت بتفتيش المكان بدقة كبيرة.

- ولكننا قمنا بتفتيش البيت كله المرة الماضية.

قاطعته.

- أعلم ذلك. ولكن هاجساً تملّكني وأنا أتذكّر كلمات الدجال، وبدأت أطبّقها بالحرف، فقد بحثت في المطبخ والحمام وتحت السجادة وفي الصالون وتحت السرير والمخدات وكل مكان خطر ببالي، لكنني لم أكتشف شيئاً. وبدأ اليأس يتملكني هذه المرة بالفعل، فجلست على السرير وأنا ألعن أيسون والدجال ونفسي على بلاهتي اللامتناهية، وفجأة لفتت نظري الكتب الموجودة في مكتبتها، فألقيت عليها نظرة عابرة، ورأيت كتاب كاثرين فيرجاند بينها، في البداية ظننته الكتاب المتعلق بنيكولاس فليمل، ولكن عندما اقتربت أدركت أنه كتاب آخر، كان عنوانه (الحياة ابتسامة عابرة) فألقيت عليه نظرة واكتشفت أنه عبارة عن سيرتها الذاتية فحملته معي وخرجت من المنزل.

- أي أن الدجال كان مصيباً في توقّعه؟

علّقت ساخراً.

- بالطبع هي محض صدفة، ولكنها أتت بنتيجة إيجابية.

قالها بكل جدية.

- وهل وصلت إلى الحقيقة التي كنت تبحث عنها؟

سألته وأنا أواصل السخرية.

- لا ولكنني اكتشفت جزءاً هاماً منها.

وهنا زايلتني السخرية، وبدأت أهتم بما سيقوله.

- اكتشفتها في الكتاب؟

- أجل فقد هربت عائلتها إلى تركيا في العام 1919.

- أهذه هي الحقيقة التي توصلت إليها؟ أنسيت أنها ذكرت الأمر في رسالتها؟

- لقد كان والدها جنرالاً اسمه ألكسندر كيريلوف، وكانت كاثرين واسمها الحقيقي هو ياكترينا ألكسندر كيريلوف هي الناجية الوحيدة من العائلة التي قُتلت كلها في اسطنبول.

- قتلتُ؟ متى؟

- في العام 1920.

- لقد مر قرن على هذه الجريمة... ولكن من القاتل؟

- لم تذكر ذلك في الكتاب، وأعتقد أنها تعرف القاتل ولكنها تحاشت ذكر اسمه لأنها لا تملك الأدلة الكافية التي تثبت أن العائلة تمّ قتلُها بالفعل، وربما خافت أن تلقى المصير ذاته لذا لم تقدم على اتهام أحد معيّن صراحة، كما أنني لم أنهِ الكتاب بعد، فهناك مئة وخمسون

صفحة لم أقرأها بعد.

اختلط عليّ الأمر هذه المرة.

- لحظة لحظة، أتعني أن عائلتها قُتلت وهي لم تستطع إثبات الأمر؟

- أجل، فقد أرسلها والدها وهي لاتزال طفلة إلى مدرسة داخلية في باريس وكان ينوي اللحاق بها بعد حين، ولكن فجأة اختفت العائلة ولم يعرف أحد المصير المجهول الذي تعرّضت له، ولأن المنطقة برمّتها في تلك الفترة كانت تمرّ بظروف استثنائية من حروب وثورات فقد كانت الفوضى تعمّ كل مكان، وكان من الصعب البحث في جريمة صغيرة كهذه والعثور على المجرم الحقيقي، وبعد أن كبرت جاءت لزيارة اسطنبول أكثر من مرة لمعرفة الحقيقة، ولكن لم يسعفها الحظ على ما يبدو بسبب قِدم الجريمة، وبحسب ما كتبت فقد قتل والدها ووالدتها وأخوها الذي كان يبلغ من العمر سنتين، ولكن كما أسلفت فهي لم تذكر اسم القاتل، ولم تخطرنا بالأمر عندما راسلتنا.

- وتعتقد أن هذا دليل مهمّ في الجريمة التي نبحث فيها؟

- بالطبع، فقد أتمكن من اقناعها بأن تقول لي الحقيقة إن ذهبت إلى باريس.

كان ما يحز في نفسي أنه يتحدث بذات الحماس القديم وقد عاد إليه مزاجه الطيّب، في الوقت الذي كنت أحضّر له صدمة قد تجعله يكرهني بسببها.

- لا أريد أن أسبّب لك خيبة ولكنك للأسف لن تتمكن من التحدث مع كاثرين فيرجاند يا صديقي.

- ما الذي تقوله؟ لما لا أستطيع التحدث إليها؟

سألني بصوت مرتفع وقد بدا واضح الضيق.

- لأن كاثرين ماتت.

- ماتت؟

- أجل، فقد أخبرني بيير بالأمر البارحة مساء، وجدت ميتة في سريرها.

ساد الصمت بيننا للحظات.

- أهي جريمة قتل؟

سألني كنعان.

- لا أعتقد ذلك فقد كانت في التسعين من عمرها، ويعتقد الأطباء

أن الوفاة كانت نتيجة ضيق تنفس.

- يعتقدون؟ أظن أنها جريمة قتل فقد حاول الجناة التخلص منها لكي تبقى صامتة إلى الأبد.

- على رسلك يا صديقي. لا تقرّر شيئاً قبل أن نلتقي ونتحدّث لنصل إلى نتيجة مقنعة.

- لا وقت للحديث، عليّ السفر إلى باريس.

كان قلقاً، وكأنه يلحق خيطاً من الرمل بدأ بالانسياب من بين أصابعه.

- ألم تسمع ما قلته لك منذ قليل؟ لقد ماتت كاثرين فيرجاند.

- بلى لقد سمعت ما قلته بوضوح، ومع ذلك عليّ أن أذهب فبالتأكيد لها أقرباء أو من يعرف عنها شيئاً، بالمناسبة هل نستطيع الاعتماد على بيير هذا من أجل أن يساعدنا؟

- بالطبع نستطيع، ولكن رقم هاتفه موجود في المكتب، دعنا نلتقي لأعطيك إياه ونتحدث وإن اقتضى الأمر فقد أسافر معك.

- لقد أخبرتك أن لا وقت لديّ، فعليّ التوجه إلى المطار على الفور.

- ماذا- تفاجأت من إصراره وتعجّله- أتعني أنك مسافر الآن؟

- أجل ستقلع الطائرة في الثانية عشرة.

- وهل حجزت التذكرة؟

- أجل لقد قمت بتجهيز كل شيء.

- حقاً أنت غريب الأطوار، لما كل هذه العجلة؟

- لقد بدأت أشعر بالضيق، وعليّ الانتهاء من هذه المشكلة بأية طريقة.

تخلّيت عن محاولة إقناعه بالبقاء لأنها لن تجدي.

- إذاً سأتصل مع بيير وأعطيه رقم هاتفك النقال؟ ستأخذه معك أليس كذلك؟

- أجل، سيكون من المفيد جداً أن يتصل بي ليساعدني هناك.

- أتعلم كاتيا بأنك مسافر؟

- لا، ولكن هل تستطيع إخبارها بالأمر؟

لقد تجاوز كل الحدود هذه المرة.

- ألا تلاحظ أنك توكلني بكل المهمات الوسخة؟

اعترضت بحدة هذه المرة.

- أعلم. ولكن، ليس لدي أحد ألجأ إليه سواكما أنت ونهاد، إن شئت أوكل نهاد بهذه المهمة.

- لا تورط نهاد في الأمر، فالمسكين لا يزال خائفاً من إخبار زوجته بما حصل على واجهة مكتبته. اتصل بها أنت وأخبرها بما تود أن تخبرها به.

- حسناً حسناً.

تمهّل قليلاً، أعْلِمني بكل المستجدات وإن احتجت لشيء فأخبرني على الفور، فليس لديّ الكثير من العمل هذه الفترة، وأستطيع اللحاق بك إن اقتضى الأمر.

- جيد، وسأحدّثك كل مساء لأطلعك على كافة التفاصيل.

كان المطر لا يزال يهطل بغزارة والهواء عاصفاً تميل معه الأشجار كيفما يميل. ابتسمت لسذاجتي حين تصوّرت أن شخصاً بهذا العناد يمكن أن يتخلى عن الفكرة ويستسلم بسهولة.

كيف لم ألحظ كتاب كاثرين عندما ذهبنا لنفتّش منزل أيسون، على الرغم من أنني تفحصت المكتبة بدقة، يا له من عنوان غريب (الحياة ابتسامة عابرة)، لكنه ليس أكثر غرابة مما أقحمنا أنفسنا فيه، لا بد أنني لم أعره اهتماماً لأنني لم أكن سمعت بكاثرين فيرجاند بعد.

ولكنني بعد لحظات شعرت بحنق على صديقي الذي لم يقنعه كل الحديث الذي دار بيننا بالأمس وضرب بكل شيء عرض الحائط فقط من أجل تحقيق رغبته وإشباع فضوله، والأكثر إيلاماً بالنسبة لي أنه قرّر السفر بمفرده دون أن يستشيرني قبلاً، ويناقش معي المستجدات التي توصّل إليها، ورفضه لعرضي بالسفر معه، كان عليّ أن أصارحه حين اتصل بي ولكن المفاجأة غيّبت عني الأمر، إلا أن الكلام لم يعد مفيداً الآن، فهو مزمع على السفر بعد قليل، وأرجو ألا تكون هذه السفرة رياحاً أخرى تعصف بتفاصيل حياتنا نحو المجهول.

حال وصولي إلى المكتب اتصلت ببيير وطلبت منه أن يساعد كنعان إن احتاج لشيء فوافق بطيب خاطر، ولأن كنعان محظوظ على الدوام فقد أخبرني بيير أنه متفرغ هذا اليوم بعد الظهر ولا عمل لديه ويستطيع الذهاب لرؤية كنعان إن شاء الأخير، ولكنه في المساء سيتركه لأنه ذاهب لرؤية حبيبته السمراء الجميلة.

كان عليّ الاستعداد لزيارة الطليان المزمعة إلى اسطنبول بعد بضعة أيام، ولكنني لم أكن أشعر بأي رغبة في العمل، ومع ذلك طلبت من

يشيم أن تحضر الملفات المتعلقة بالموضوع وبدأت بتدوين الملاحظات الأولية.

لم يكن عملاً بقدر ما هو محاولة لإبعاد ذهني عن التفكير فيما أقدم عليه صديقي المجنون، كانت تراودني فكرة لا تقل جنونية عن تصرّفه وهي اللحاق به على أول طائرة متجهة إلى باريس اليوم، ولكنني كنت أكْبت هذه الرغبة بصعوبة بالغة. ومع ذلك كنت أتحرّق شوقاً لمعرفة ما الذي سيتوصّل إليه كنعان بعد هذه الخطوة، فقد بدأت وتيرة الأحداث تتسارع بطريقة لم تكون متوقّعة وبدأت تأخذ وجهة جديدة لا أدري ما الذي يمكن أن تفضي إليه.

عندما دخلت السكرتيرة، وأخبرتني أن نهاد في الخارج يريد لقائي كانت الوقت قد تجاوز الظهر منذ فترة طويلة، وأدركت حينها مقدار تشتّت ذهني الذي غيّب عني الاتصال بنهاد للاطمئنان عليه. لذا، نهضت على الفور لاستقبال صديقي.

أهلاً نهاد كيف الحال، أعتذر لأنني لم أتصل بك يا صديقي.

وعلى عكس ما كنت أتوقّعه فقد بدا لي منشرحاً ومزاجه جيد، كما أن الجروح والكدمات التي على وجهه بدأت تتماثل للشفاء تقريباً، ولم تعد تظهر سوى كظلال داكنة متفرقة.

- أنا بخير بخير، لا تقلق عليَّ فأموري على خير ما يرام.

- وكيف هي ديزى، لا بد أنها خافت كثيراً.

- على العكس تماماً فقد وجدت الأمر ممتعاً، واتصلت بجميع أصدقائها الذين أتوا إلى المكتبة وبدأت تشرح لهم ما حدث بانفعال شديد انتقل إليهم جميعاً، وتطوّع بعضهم لحماية ديزى والمكتبة إن اقتضى الأمر.

- أظن أن على كنعان أن يتصل بالمحقق جونييت ويطلعه على ما فعله مرسل، وبذلك ننتهي من هذه المشكلة على الفور.

تغضّن وجه نهاد عندما سمع اسم جونييت ورفض الفكرة.

- أرجوك لا تقحم ذلك المعتوه في الموضوع، فلا طاقة لي مرة أخرى لرؤية عينيه اللتان تقدحان شرراً، نستطيع تدبّر الأمر بمفردنا دون تدخّله.

- أأصبحت تخاف منه إلى هذه الدرجة بعد كلمات التوبيخ؟

- لا. ولكنني لا أرغب في زيارة المخفر مرة أخرى، كما أنني واثق أن المشكلة لن تتكرر ثانية، فمرسل مخبر سري يعمل لدى جونييت وليس من صالحه التورّط في عملية تهديد واعتداء. كانت مجرد محاولة فاشلة لن تتكرر.

- ومع ذلك سأعرض الفكرة على كنعان أيضاً، كما أنك لست مضطراً في هذه الحالة للذهاب إلى المخفر مرة أخرى، ولكن ما يقلقني الآن ويثير مخاوفي هو ملك التي إن علمت بما حصل سيجن جنونها.

- لقد أخبرت ملك.

قالها بكل برود وكأنه يتحدث عن امرأة أخرى وليس عن زوجته الشمطاء

- ماذا؟ أخبرتها ما بما حصل؟

- كنت مجبراً لأنها عادت منتصف ليلة أمس إلى البيت.

- أليس من المفترض أن تمكث في بورصا اليوم أيضاً؟

- ألا تعرف ملك، لقد تشاجرت مع الشخص الذي قام بتنظيم المؤتمر الشعري الذي انضمت إليه بسبب اختلاف وجهات النظر، وتركت المؤتمر برمته وغادرت على الفور.

- ولا بد أنها أفرغت جام غضبها عليك أنت.

- لن تصدّق إن أخبرتك أنها فعلت العكس تماماً، فقد سرّت عندما شاهدتني عدت إلى المنزل.

- ماذا تعني، هل احتضنتك عندما رأتك وانهالت عليك بالقبل؟

- لا تهزأ يا صديقي، لكنها لم تسألني مطلقاً عن سبب عودتي، والأكثر غرابة أنها لم تحاول أن تطردني من غرفة النوم.

- وماذا قالت عن موضوع النجمة التي رُسمت على واجهة المكتب؟

- لم تبدِ أي رد فعل سلبي تجاهنا، على العكس تماماً فقد توعّدت أن تواجه مرسل بنفسها هذه المرة إن تكرّر شيء مماثل وأقسمت أن تذهب إلى متجره وتجعله حطاماً.

كنت أستمع إلى ما يقوله غير مصدّق أنه يتحدث عن المرأة نفسها.

- أظن أن هذه المرأة تحبك حقاً.

- هذا ما يبدو عليه الوضع، ولكن طريقة تعبيرها عن مشاعرها غريبة بعض الشيء.

كان من الواضح أن نهاد مسرور جداً لعودته للمنزل وأن المشكلة قد حُلّت بينه وبين زوجته التي نسي كل ما قاله عنها منذ عدة أيام عندما كنا في بركة، قد يكون حباً أم اعتياداً على وجود هذه المرأة في حياته ولكنه بالمحصلة لا يريد أن يتركها ويعيش بعيداً عنها بعد كل هذه السنين.

- أنا مسرور لعودتك إلى المنزل يا صديقي، ومهما حاولنا الإنكار فإن زوجتك معها حق في رد فعلها إزاء هذه المشكلة التي ورّطنا أنفسنا فيها، فأي امرأة أخرى ستبدي رد الفعل ذاته، ولا أريد أن أتخيّل ما قد تفعله كولريز إن علمت، فكنعان قد أقحم نفسه في مخاطرة كبيرة، ونحن الاثنان نتحمل وزر الانقياد لجنونه.

- وهل ترك لنا هذا المجنون خياراً آخر؟

على غير عادته أبدى تبرّمه من سلوك كنعان صراحة هذه المرة. كنا لانزال واقفين ونحن نتحدث، لذا أشرت له بالجلوس وأنا أقول:

- تفضّل بالجلوس هل سنبقى واقفين هكذا؟

جلس صديقي على أحد المقاعد وجلست قبالته.

- لا بد أنك تعلم أنه سافر إلى باريس اليوم.
- أجل لقد اتّصل بي صباحاً وأخبرني بالأمر.
- حقاً، وما الذي أراده منك؟
- لا شيء، فقط أراد الاطمئنان على وضعي.
- ألم يطلب منك أن تتصل بكاتيا وتخبرها؟
- لا لم يحدّثني عنها، ولكنه اعتذر مني بسبب ما أصابني جراء الأمر، ووعدني أنه سيقوم بوضع مصراع حديدي أمام المكتبة حال عودته وسيدفع هو التكلفة.
- ليت كل الأمور تحلّ بالنقود.

دمدمت.

لا أدري لما خطر ببال صديقي أنني أتحدث عن ابني بورج فسألني قلقاً.

- هل بورج بخير؟
- أجل بخير، البارحة كنت أدرّبه على جدول الضرب.

بدا عليه الارتياح.

- هل تناولت غداءك؟ فأنا منذ الصباح لم آكل شيئاً.

سألني.

أنا أيضاً كنت جائعاً فلم تكن بي رغبة لتناول الفطور هذا الصباح، وأحسست بجوع شديد عندما ذكر نهاد موضوع الأكل.

- لم آكل شيئاً، أين نذهب؟
- ما رأيك بمطعم الحاج صالح؟

مطعم الحاج صالح هو أحد أكثر المطاعم شهرة في سوق الأناضول

المغلق، حيث يعدّ طعاماً عثمانياً لن تجد أشهى منه في كل بيه أوغلو، لذا فقد راقت لي الفكرة.

- حسناً فلنذهب.

- كما تعلم فملك لا تحبّ أن تطبخ كثيراً، كما أنني لم أتناول هذا النوع من الطعام منذ فترة طويلة.

وفيما نحن نخرج سألني نهاد.

- ما رأيك أن نتصل بكاتيا لتأتي معنا هي أيضاً.

لم أكن راغباً في رؤيتها خاصة أنها لا تزال غاضبة من كنعان وستفرغ جام غضبها علينا نحن الاثنين.

- لا يا صديقي، دعنا نجلس بمفردنا دون منغّصات ونستمتع بالغداء بمفردنا.

# (31)

في المساء عندما خرجت من المتجر كان المطر يهطل بغزارة، وقد استطاع أورهان أن يقرّب السيارة قدر الإمكان حيث لم أضطر إلى السير سوى بضعة أمتار ولم يصبني البلل بفضل المظلة، ولكن هذا الهطول الغزير تسبّب بأزمة سير خانقة جعلتنا لا نتمكن من التقدّم سوى مئتي متر تقريباً خلال نصف ساعة. وفيما أنا جالس في سيارتي وقد تملكني السأم بدأ هاتفي النقال بالرنين، وعندما رأيت رقم بيير على الشاشة سررت كثيراً ظاناً أن كنعان هو من يتصل بي من عنده، ولكن صوت بيير خيّب أملي، ومع ذلك فرحت أنه أبلغني أن كنعان قد وصل وقد استقبله بيير في المطار، كما أنه اتصل مع غلوريا غراينفيلي سكرتيرة كاثرين فيرجاند واتفقا على اللقاء في الغد صباحاً وسيصطحبه بيير أيضاً.

بدا بيير منزعجاً بعض الشيء، ومن دون أن أسأله عن السبب بادر هو إلى الشرح.

- أحقاً هناك جريمة قتل؟
- ما الذي دفعك لتسأل سؤالاً كهذا؟

قلت له.

- لأن السيد كنعان سألني إن كانت الجثة قد فحصت قبل الدفن، وأخبرني أن هناك احتمالاً أن تكون كاثرين فيرجاند ضحية جريمة قتل.
- وماذا قلت له؟
- وما الذي سأقوله، أخبرته بالطبع أنه ليس لدي أدنى فكرة، واقترحت عليه أن يقابل المحامي
- أتعني هارفي كارتيير؟
- أجل، وقد قابلنا المحامي الذي أخبرنا أن فحص الجثة لا يمكن أن يتم دون إذن مسبق من الشرطة، وقد ساءه الأمر على ما يبدو.

من الواضح أنه لم يكن مسروراً لإقحامه في مسائل معقدة كهذه، خاصة أنه وكما أخبرني البارحة قد واعد جميلته السمراء لتمضية السهرة معها، لذا حاولت قدر الإمكان أن أهوّن الموضوع.

- السيد كنعان متحمس قليلاً، لذا لا تأخذه على محمل الجد
- لقد لاحظت ذلك، ولكن ما هو عمله الأساسي؟ أهو محقق سري؟
- كلا، لديه شركة تأمين، ولكن لما تسأل؟

- لأنني عندما ذهبت لاستقباله في المطار طلب أن يرى بطاقتي الشخصية.

يبدو أنه فعلاً قد تمادى كثيراً مع الرجل.

- أحقاً ما تقول؟

شعرت بالحرج من تصرّف كنعان.

- في الحقيقة لقد كان لبقاً جداً في سؤاله ولكن...

- ولكنه أساء التصرّف عندما طلب أمراً كهذا.

- لا عليك، فقد اكتشفت من الوهلة الأولى غرابة في تصرّفاته.

- أعتذر منك بشدة، أعلم أنك تحاول مساعدته ولكنه بالفعل لم يحسن التصرّف معك.

- صدّقني أنا لم ألقِ بالاً إلى ما قاله، وكما أخبرتك فقد أدركت وجود مشكلة منذ اللحظة الأولى، كما أنه يتصرّف بطريقة توحي أنه يلاحق مجرماً خطيراً.- سكت للحظات ولكنه لم يستطع كبت فضوله أكثر من ذلك فعاود السؤال مرة أخرى- ما الأمر؟ أهو تحقيق حول جريمة ما؟

سردت عليه موجزاً عن القضية لكي أخلّصه من هذا التشوش. وأخيراً، حاولت أن أريحه من مغبة تحمل أي مسؤولية.

- كما قلت لك فالأمر معقّد نوعاً ما، لذا لست مضطراً للذهاب معه غداً، فقد قمت بأكثر من واجبك تجاهه.

- لقد وعدته بأن أذهب معه، وسأفي بوعدي.

وبعد أن أقفلت الخط لعنت نفسي لأنني عرّفت كنعان على بيير، وبدأت أتساءل عن السبب الذي دفع هذا المجنون ليطلب من بيير إبراز هويته، أمن المعقول أن يكون قد توصّل إلى أدلة جديدة ولا يريد إطلاعي عليها؟

- يبدو أن السيد كنعان لازال يلاحق القضية؟

سألني أورهان.

- أجل.

قلت وأنا أجاهد رسم ابتسامة على وجهي.

- وقد سافر إلى باريس الآن، إنه مُصرّ على إكمال هذا الطريق حتى نهايته.

- السيد كنعان شخص لطيف وقد أحببته.

الكل يحبه ولكنني لا أرى مبرراً منطقياً لكل هذه المحبة التي تُغدق عليه.

- إنه مجنون قليلاً ولكنه شخص طيب القلب.

بدأ أورهان بالضحك لدى سماعه هذا الإعتراف مني.

- لا ضير من الجنون في بعض الأحيان يا سيدي.
- شرط ألا يسبّب هذا الجنون أذى لك ولأسرتك ولأصدقائك.

قلتها بطريقة متكلّفة بعض الشي وعلى الفور عاد أورهان إلى التزام حدوده وهو يقول بتأدب:

- معك حق سيدي.

بقينا لفترة طويلة عالِقَيْن في أزمة المرور ولم نستطع التقدم سوى بضع أمتار قليلة، وقد بدأ بعضهم بالتذمر وإطلاق أبواق سيارتهم بعدما سئموا من هذا الانتظار الطويل الخانق، وكان المطر لا يزال ينهمر بغزارة ليمنع عنا الرؤية بوضوح، وقد التفت نحوي السائق أورهان وهو يقول:

- يبدو أننا سننام هنا يا سيدي الليلة.

لم ألقِ بالاً للأزمة المرورية ولا إلى كلام أورهان ولا إلى المطر الغزير الذي يبدو وكأنه طوفان لا يتوقف، فقد كان ذهني هناك في باريس، يفكّر فيما يحاول كنعان الوصول إليه وفيما يخفيه عني. لم أحتمل البقاء في ظلال الحيرة أكثر من ذلك وقررت الاتصال به ومعرفة ما يجري، رن هاتفه النقال لوقت طويل جداً وقد كرّرت الاتصال عدة مرات قبل أن يجيب

ألو

- ألو كنعان، لما لا ترد على هاتفك؟
- كنت متعباً بعض الشيء- رد عليّ صوت متعب لا أثر فيه للألفة التي اعتدتها من صديقي- كما أنني كنت أكلّم المحامي من هاتف الفندق.
- المحامي؟ لقد قابلت المحامي هارفي كارتيير أيضاً.
- من أخبرك بالأمر؟
- من يكون؟ بالطبع بيير.
- معك حق، لا بد أن يخبرك.
- كنعان هل أنت بخير؟
- بخير بخير، لما تسأل؟
- لأنك تكلّمني بطريقة غريبة.
- أنا بخير، ولكنني بعد حادثة الطائرة بدأت أشعر بالضيق كلما سافرت بواسطتها.

- ألهذا السبب طلبت من بيير إبراز هويته؟
- هل أخبرك بهذا أيضاً؟
- هذا أمر طبيعي، فقد جاء ليسدي لك معروفاً ويساعدك، وإذا بك تقابله بهذه الطريقة وتشكّ بنواياه.
- أعلم أنني أسأت التصرف معه وأزعجته بهذا التصرف، ولكنني لم أكن أعرفه من قبل وأردت التأكد من شخصيته الحقيقية، وأعترف أنه كان شخصاً لطيفاً وقام بمساعدتي قدر استطاعته.
- أجل. هو شخص لطيف، ولكن ما قصة تشريح الجثة، هل وصلت إلى أدلة جديدة؟
- ليس بعد، ولكنني أنهيت كتابها عندما كنت في الطائرة، وقد لا تصدّق ولكن هناك احتمالاً قوياً أن تكون كاثرين فيرجاند ضحية جريمة قتل، لذا من الواجب فحص الجثة عن طريق طبيب شرعي.
- ولكن المحامي هارفي أخبرك أنه من الصعب القيام بذلك.
- إنه رجل مدّعي ومغرور ولا خبرة لديه في هذا النوع من القضايا على الإطلاق.
- وهل سيقوم المحامي الذي كلّمته الآن بتسهيل إجراء تشريح للجثة؟
- أخبرني أن الموضوع ليس سهلاً بالطبع. ولكن، من الممكن تحقيقه إن طلبت عائلة كاثرين أمراً كهذا، وسأقابل غداً سكرتيرتها لتصلني بأحد أفراد عائلتها، وقد أتمكن من إقناعهم بالموافقة على تشريح الجثة.
- أتمنى أن تتمكن من ذلك، أعلمني بما يحصل معك.

لكن صديقي أجابني بصراحة لم أتوقعها منه ولم أعرف سببها الحقيقي.
- أعتذر يا صديقي، لن أعدك بشيء الآن.

لقد صُدمت حقاً بهذا الكلام الذي أشعرني بهوة عميقة تفصلني عن صديقي، أحسست أنني خسرت شيئاً جوهرياً وأن الحياة أبعدتني عن الشخص الذي يعني لي الكثير بجفاء لا أستحقه على ما أظن، ومع ذلك حاولت مواساة نفسي وإرجاع سبب هذا التغيير الذي طرأ على صديقي لا إلى أنانيته، وإنما إلى مزاجه الذي بدأ بالتغيّر حقاً منذ أن أصبح يعمل على هذه القضية اللعينة، لذا لم أشأ أن أزيد الأمر تعقيداً وطلبت منه بكل هدوء أن يتصل بي حتى وإن لم يرغب بإطلاعي على أي شيء يتعلق بالقضية.

بدأت الهواجس تتقاذفني وأنا أفكر في السبب الذي جعله يكلّمني بهذا البرود، ماذا حصل معه في باريس حتى يخفيه عني؟ خطر لي أن أكلّم نهاد لأستفسر منه، عله يعرف شيئاً عن الموضوع، ومع أننا كنا سوية منذ بضعة ساعات وأن احتمال معرفته بما يكنّه صديقنا ضعيف، لكنني اتصلت به وقد ردّ عليّ بطريقة عادية وأخبرني أن كنعان لم يتصل به هو أيضاً منذ سفره، أنهيت المكالمة وأنا أفكر في الاتصال بكاتيا، ولكنها كانت خطوة محفوفة بالمخاطر، فإن كانت تشاجرت مع كنعان بسبب سفره المفاجئ، فلا بد وأنها ستضجرني بذات الحديث المملّ عن إقناعه بالعدول عن الخوض في هذه القضية والمبررات ذاتها التي لا فائدة من إيرادها كل مرة.

لم تخفّ الأزمة المرورية كما أزمتي النفسية، ففتحت نافذة السيارة رغبة في استنشاق بعض الهواء البارد، والتقت عيناي بعيني طفل في العاشرة من عمره يطل من نافذة سيارة مقابلة وكان بَرِماً مثلي على ما يبدو، وعندما شاهد الضيق المرتسم على وجهي أعرض بوجهه كمن لا يريد أن يزيد ضيقه ضيقاً، وبدوري أغلقت النافذة، ولم أعد قادراً على التحمّل أكثر فاتصلت بكاتيا رغم كل مخاوفي، وردت على الفور.

- أهلاً سليم.

كان صوتها على عكس ما توقعت لطيفاً لا أثر للضيق فيه.

- مرحباً كاتيا، كيف حالك؟ هل أنت بخير؟

- بخير.. بخير..

سكتت للحظات وكأنها بصمتها تسألني عن سبب اتصالي بها.

- لقد سافر كنعان إلى باريس، واتصلت لأطمئن إن كانت أمورك على ما يرام.

- أجل، وقد أخبرني أنها ستكون المحاولة الأخيرة، فإن لم يتمكن من معرفة الحقيقة سيترك القضية ولن يعاود العمل عليها مجدداً.

كانت تحاول إخفاء انزعاجها لكن صوتها كان يفضحها.

- أتمنى أن يفعل، وهل أخبرك شيئاً عن سير الأمور هناك؟

- لا أعلم، فقد اتصل بي حال وصوله ليطمئنني أنه وصل بالسلامة، ولم يتصل بعد ويطلعني على ما جرى معه، ولكنني أظنه سيتصل مساءً. ألم يتصل بك أنت أيضاً؟

اضطررت للكذب عليها.

- لم يتصل، وقد شعرت بالقلق عليه لذا سأتصل به بعد قليل.

- أرجوك إن اتصلت به اقنعه بترك هذا الجنون، فنحن قد أتممنا ديكورات الجرائم التي يجب تصويرها خلال هذا الأسبوع وننتظر عودته للبدء بالتصوير، أخبره أن يعود على الفور ليباشر العمل ويعود إلى حياته الطبيعية.

- ليته يقتنع؛ سأحاول معه أعدك بذلك.

أنهيت المكالمة، وأنا أفكّر في السبب الذي دفعه للانقطاع عن مكالمتنا جميعاً، أيعقل أنه يحاول الالتزام بوعده مع كاتيا ويستغل كل وقته للوصول إلى الحقيقة كونها المحاولة الأخيرة؟ لنرى ما الذي ستخبره به غلوريا سكرتيرة كاثرين.

لم يتحقق توقّع سائقي أورهان فقد وصلت إلى المنزل ولكن بعد ساعتين من التأخير، وكان بورج نائماً على غير عادته، وعندما دخلت غرفته للاطمئنان عليه وجدته يغط بنوم بعمق وصدره الصغير يعلو ويهبط بتسارع قليل، فسألت زوجتي قلقاً إن كانت حرارته مرتفعة، ولكنها طمأنتني قائلة:

- لا تخشى يا عزيزي، إنه بخير ولكنه على ما يبدو قد أسرف في التمارين الرياضية اليوم وقد أنهكه التعب.

- يجب التحدث مع معلمته حتى تنتبه إليه أكثر.

- تصادف ذكرى مولدها بداية الأسبوع القادم، سآخذ لها هدية صغيرة وأتحدّث معها.

- تعنين رشوة صغيرة- لكنني عندما رأيت الاستياء بادياً على وجهها أردفت على الفور- ولكن لا ضير في ذلك، المهم أن تهتم بابننا وتراعي وضعه الصحي، وأنا مستعد لمنحها كل ما تشاء.

كانت ليلة هادئة عادية كبقية الليالي ومن حسن الحظ أن أحد محطات التلفاز كانت تعرض فيلم (جريمة في قطار الشرق السريع) والمقتبس عن رواية أجاثا كريستي، وقد قام الممثلون بتجسيد أحداث الرواية بشكل رائع، وعلى الرغم من أنني كنت قد شاهدت هذا الفيلم من قبل إلا أنني عدت لمتابعته بكل متعة وشغف، فهذه المجموعة من الأشخاص والتي قامت بارتكاب الجريمة بإتقان فائق بحيث لن نكتشف هوية القتلة إلا في نهاية الفيلم وبجهود المحقق العبقري هيركل بوارو، وعندما انتهى الفيلم عدت للتفكير بالقضية وكنعان والحقائق التي توصّل إليها في باريس ورفض إخباري بها، هل سيتمكن صديقي الذكي مثل بوارو من كشف ملابسات هذه القضية ويعرف المجرم الحقيقي أم سيعود خالي

الوفاض، ويطلب مساعدتي مجدداً؟ صراحة كنت أتمنى أن يُخْفِق فقد كان على الدوام يصيب في توقّعاته ويستلم زمام القيادة في كل مغامراتنا، ولكنه هذه المرة لم يكتف بذلك بل حاول إبعادي عن القضية برمّتها، لذا تمنيت من كل قلبي أن يعود خائباً ليكف عن هذا الغرور، فقد حان الوقت ليعرف أنه ليس الذكي الوحيد، ومع ذلك كانت تراودني مخاوف من تمكّنه من فك لغز هذه القضية اللعينة، خاصة أنني لم أكن أعلم ما خطّته تلك العجوز في سيرتها الذاتية، فقد عاد كنعان إلى إصراره السابق والعمل على القضية بعد أن قرأ كتابها، لا بد أنه وجد دليلاً هاماً بحق. ولكن إلى أي مدى وصل في معرفة الحقيقة، أعتقد أنه لم يعرف الكثير لذا لا يزال يتخبط مع الفرنسيين هناك.

في اليوم التالي انتظرت حتى الظهر دون أن يتصل بي كنعان أو بيير لذا لم أتمكن من الانتظار أكثر من ذلك فاتصلت ببيير الذي كان أكثر اضطراباً مني.

- السيد كنعان رجل مجنون حقاً.
- ما الذي فعله مجدداً؟
- كان فظاً جداً مع السيدة غلوريا سكرتيرة السيدة كاثرين فيرجاند، وكاد أن يتشاجر معها حول مسألة مقتلها على الرغم من أنها كانت لطيفة جداً معنا، وقامت باستقبالنا بصدر رحب من دون وجود أي معرفة سابقة، وأجابت على كل أسئلته برحابة صدر، وتناقشا مطولاً حول رسالة معيّنة يبدو أن السيدة غلوريا لم تكن على علم بها. وقد سردت غلوريا على مسامعنا قصة حياة كاثرين بشكل كامل تقريباً رغم أن صديقك كان مطّلعاً على معظم أحداثها، كما تحدثا عن فتاة تركية الأصل تدعى أيسون والتي كانت على معرفة بالسيدة كاثرين وتجمع لها بعض المعلومات عن عائلتها التي قتلت في اسطنبول قرابة العام 1920، كما أن هذه الشابة كان لديها حبيب مدمن على المخدرات ومتورط مع عصابات الاتجار بالمخدرات، أي أنها قضية متشابكة كما أسلفت لي سابقاً. وقد صُدمت السيدة غلوريا أمام إصرار صديقك بأنها قُتِلت، وحاولت أن تشرح أنه ما من عاقل سيفكّر في قتل سيدة في التسعين من عمرها، لكن السيد كنعان ظل مصراً على رأيه، وطلب من غلوريا أن تعرّفه على عائلة العجوز المتوفاة ليقنعهم بإجراء تشريح للجثة.

وقد بقيت السيدة غلوريا محافظة على لباقتها وهدوء أعصابها حتى آخر لحظة، وأوضحت له أكثر من مرة أن السيدة كاثرين لم يكن لها أي

أقرباء، وكانت تعتبر غلوريا بمثابة ابنتها، لكن السيد كنعان لدى سماعه هذا الكلام منها،بدأ يشك فيها أيضاً، ويتهمها بإخفاء الحقيقة عنه، ولم يقتنع أنها ماتت نتيجة ضيق التنفس الذي تعاني منه منذ سنوات طوال، فهو مصرّ على حدوث جريمة قتل، وهذا ما كان يردده أمام السيدة غلوريا التي اضطرت أن تنهي المقابلة دون الوصول إلى نتيجة.

- وماذا فعل كنعان حينها؟

- ما الذي سيفعله أمام امرأة اصطحبتنا إلى الباب إيذانا بانتهاء الزيارة، كنا مضطرين للخروج بكل تأكيد. كان يبدو كمن تعرّض لخيبة أمل كبيرة، وكان يدمدم أثناء سيره في الطريق «يجب أن يتم تشريح الجثة... يجب أن يتم ذلك...»، كان في وضع مزرٍ، وقد اضطررت إلى مواساته على الرغم من الإحراج الذي سبّبه لنا بفظاظته مع السيدة غلوريا.

- وأين هو الآن؟

- لا أعرف، فقد قام بشكري وذهب، وأغلب الظن أنه سيعود إلى اسطنبول.

صراحة لن أخفي سروري من عودة كنعان بخفّي حنين، فبعد كل الجهد الذي بذلته من أجل مساعدته، وكل المخاطر التي تعرّضنا لها، حاول أن ينحّيني جانباً بكل بساطة، وبدأ يخفي عني الحقائق والأدلة التي توصّل إليها دون أي اعتذار أو مبرّر منطقي، وكما في كل مرة، كان غروره يمنعه من الاعتراف بمساعدتي له، ويظن أن بوسعه أن يحلّ أي معضلة تعترضه بمفرده، وحتى مسألة الخلود التي بدأت تسيطر عليه ما هي إلا نتيجة لغروره وغطرسته.

كل الذرائع التي يسوقها ليبرّر فشل معارضه وعدم اهتمام الصحافة به ما هي إلا حججاً واهية يخفي وراءها فشله، فالفن- أياً كان نوعه- هو بالنهاية جهد متواصل عبر السنين وخبرة متراكمة، وليس كما يتصوّر هو، فافتتاح بعض المعارض بين الفينة والأخرى من قبل هاوٍ غنيٍ يزجي أوقات فراغه في التصوير، ويطلب بالمقابل اهتماماً عالمياً بأعماله لا بل يطلب تخليد اسمه اسوة بعظماء الفنانين، لَهُوَ الغرور بعينه، بل هو نوع من تعاظم الأنا إلى حدود المرض، خاصة وأنه يتسبب في ضرر مباشر لأصدقائه ومن يحبونه. لكن الكبرياء هي حصة الحمقاء والفشل مآلهم وكما يقول المثل فحسابات المنزل والسوق لا تتطابق، وها هو يعود على متن الطائرة خائباً.

في الحقيقة، أنا ممتنّ من خاتمة المغامرة التي بدأها كنعان، فمن

جهة سنرتاح من مشاحنات ملك خاصة أن نهاد عاد إلى منزله بعد ذلك الشجار التاريخي دون أضرار تذكر، كما أنني سأتفرغ بالكامل لشركائي الطليان في بناء المعمل الجديد الذي أحلم به. وأخيراً، ستتفرغ كاتيا للتصوير دون أن يلازمها الخوف والقلق على حبيبها الذي وعدها بالتخلّي عن الموضوع إن لم يكتشف شيئاً جديداً في باريس، ومع ذلك لن أستغرب كثيراً إن لم يف بوعده، وفي ذات الوقت أظنه لن يطلب مني المساعدة مرة أخرى بعد الفظاظة التي أبدها معي في اليومين المنصرمين.

نهضت من على الكرسي، واتجهت نحو النافذة التي تطل على شارع الاستقلال، كان المطر قد توقّف منذ برهة، ولكن الهواء كان يعول في الشوارع كأرملة، كان المارة يحاولون الإسراع قدر المستطاع فهذا الهواء كان يحمل الكثير من الرطوبة لهم، والكثير من الكآبة إلى روحي التي أضاعت تفاؤلها السابق على الفور، فأنا أعرف صديقي جيداً، إنه يملك عناد بغل، وهذا ما أثار مخاوفي مجدداً، أحقاً سيعود إلى اسطنبول أم أن هذا ما ظنّه بيير؟ هل سيعود طالباً الصفح؟ لن يفعلها. أجل لن يطلب الصفح. كما أن غروره سيمنعه من الاعتراف بهزيمته بعد أن ذهب على جناح السرعة باحثاً عن نصر يحقّقه بمفرده. ومن جهة أخرى لا أنكر أن صديقي مهما تمادى في غروره فهو يعرف تمام المعرفة أنه تعامل معي بفظاظة، فلا يمكن لشخص ذكي مثله أن يغيب عنه تفصيل كهذا، وسيعتذر في نهاية المطاف. ولكن ها قد مرّ يومان دون أن يرد أي اتصال منه، أمن الممكن أنه لا يزال يبحث عمن يقنعه بإجراء تشريح لجثة كاثرين، ولكن من سيقتنع بكلام رجل آتٍ من بلد غريب يريد إجراء تشريح لجثة امرأة في التسعين من عمرها وتعاني من ضيق التنفس؟ كما أن بيير أخبرني أن تصرّفاته هناك توحي بغرابة أطوار لم أعهدها في صديقي من قبل.

عدت إلى طاولتي مرة أخرى، وأنا أنظر إلى الهاتف النقال، انتابتني للحظات رغبة في الاتصال به والاطمئنان عليه، وترك الغرور جانباً في ظرف كهذا، ولكنني تخليت عن الفكرة، سأتركه يختبر طعم الهزيمة، ذلك أنني واثق تمام الثقة أنه لن يصل إلى الحقيقة مهما حاول.

## (32)

صباح اليوم التالي كان مشمساً على الرغم من أن الغيوم الرمادية المتجهمة كانت تحوم حولها ككتل معادية تريد ابتلاعها، ولكن الشمس كانت مصرّة على إشراقها الصباحي البهي بعد ثلاثة أيام من المطر المتواصل، وبما أنه كان يوم سبت فلا مدرسة اليوم، لذا كنا نفطر ثلاثتنا سوية وكان ابني يستمتع على الدوام بهذا الاجتماع العائلي الباكر اللطيف، وإن كان المشوار الذي يليه ينغّص عليه فرحته، ففي كل سبت كانت لديه جلسة علاج فيزيائي، كانت هذه الجلسات في البداية تشكّل له مصدر عذاب نفسي وتذمّراً لا ينتهي خاصة أن السيد حكمت كان جدياً إلى درجة كبيرة ولا يتقن التعامل مع الأطفال، ولكن بعد استبداله بالسيد كلاوس زيمارمان البدين ذي الوجنتين الممتلئتين والعينين اللتين تفيضان حبوراً ولطفاً، أخذ بورج يتقبّل هذا الموعد الإلزامي ويعتاد عليه بعد أن تحوّلت الجلسات على يد كلاوس إلى نوع من اللعب والمرح وتزجية الوقت هناك بطريقة لا تسبب لابننا النفور من العلاج.

بعد ذهاب كولريز وبورج اتجهت إلى الحمام لأحلق ذقني، تناهى إلى مسامعي صوت رنين ما وعند الإصغاء بتمعّن أدركت أن هاتفي النقال الذي أوصلته بالشاحن في المطبخ يرن بتواصل، غسلت وجهي بسرعة واتجهت إلى المطبخ، لا بد أن الأمر هام جداً لأن الهاتف كان يرنّ بإصرار. عندما شاهدت اسم كنعان على شاشته أصابني انفعال عارم على الرغم من نقمتي عليه بسبب انقطاعه عن التواصل معي كل هذه الفترة.

- مرحباً سليم.
- أهلاً كنعان، وأخيراً تذكّرت صديقك وخطر على بالك الاتصال به.

ساد صمت بارد

- علينا الالتقاء بأسرع وقت ممكن.

كان التوتّر بادياً على صوته ولكنه حاسم في الوقت ذاته.

- هل عدت؟
- أجل وأنا في الاستديو الآن، لقد توصّلت إلى نتائج هامة ويجب أن أطلعك عليها.

كان يحدّثني ببرود لم أعهده فيه من قبل، حاولت التخفيف من حدة الجدية والتوتر بالمزاح وأنا أقول:

- إن رجوتني قد أوافق على المجيء.

لم ترق له المزحة على ما يبدو.

- لا مجال للمزاح يا سليم، يجب أن نلتقي على الفور.

- حسناً- أجبته بذات الجدية- سأكون في الاستديو بعد ساعة.

عندما أنهيت حلاقة ذقني، ارتديت ثيابي على عجل وفيما كنت ارتدي معطفي تذكرت المسدس الذي أعطاني إياه أورهان، تردّدت للحظات وأنا أفكر. أخيراً، حسمت أمري، وفتحت الخزنة وأخرجته، كان أورهان يترك السيارة عندي أيام العطل. لذا، استقليت الفولفو وكنت عند صديقي بعد نحو خمس وعشرين دقيقة لا أكثر وذلك لعدم وجود زحمة سير في هذا الوقت الباكر.

ركنت السيارة في المرآب الذي يقع في بداية شارع أيهان إشك، وبخطوات توازي لهفتي اتجهت نحو البناء القديم الذي أصر والدي على بقائه كما هو. فتح كنعان الباب واستقبلني بذات البرود الذي كلّمني به قبل قليل على الهاتف، ولكن نظرة غريبة كانت تلوح في عينيه، لا بد أنها بدايات الجنون الذي لاحظه عليه بيير، خاصة أن قلة النوم والإرهاق الباديين على وجهه قد زادا من غرابة نظراته التي صوّبها نحوي بعمق يهدّد بابتلاعي.

- ما بك يا صديقي؟

قلتها وأن أحتضنه.

- أنا متعب.

قالها من دون أن يردّ على حرارة احتضاني له بالمثل، وسار أمامي لأتبعه إلى الصالون وأنا أتساءل عن حقيقة ما جرى له هناك.

- هل عدت صباحاً؟

- لا، البارحة مساءً.

- لما لم تتصل بي؟

- كان هناك بعض الأعمال التي عليّ إنهاؤها.

كان يردّ على أسئلتي كمن يرغم نفسه على الحديث. لذا، فضلّت البقاء صامتاً حتى بلغنا الصالون الذي كان خالياً.

- كاتيا ليست هنا؟

سألته.

- فضّلت البقاء بمفردنا، فما من داعٍ أن يسمع الآخرون حديثنا هذا. علينا التحدث لوحدنا أولاً، وقد جاء نهاد هذا الصباح فأرسلته مع كاتيا إلى منطقة أرنافوت كوي لمقابلة أحد النجارين المهرة من أجل بعض

الديكورات الضرورية- أشار برأسه نحو الكرسي - تفضّل.

سألته وأنا أجلس

- أخبرني ما الذي يحدث.

صمت للحظات، وقد أناخ رأسه نحو الأسفل وعندما رفعه ليواجهني بنظراته كانت الخيبة ممزوجة بحقد كبير، كان ينظر إلي وكأنني طعنته في الظهر وأخذت منه أعز ما يملكه.

- لقد عرفت الحقيقة يا سليم.

كان يضغط على الحروف وكأنه يجبرها على الخروج من فمه وقد أشاح بوجهه عني، انتظرت للحظات أن يوضح لي بقية الحديث لكنه آثر الصمت.

دمدمت بهدوء.

- ما الذي عرفته؟

حدق إليّ مجدداً بذات النظرة الاتهامية.

- لا تحاول أن تتجاهل.

رسمت على وجهي نظرة تدلّ على عدم الفهم وأنا أسأله

- لما سأحاول التجاهل؟ ماذا تعني؟

- لا تفعل ذلك سليم- ارتفع صوته هذه المرة وكان يتكلم كمن يعاني من ألم في روحه- أنت تعلم تماماً ما الذي أعنيه.

فتحت كلتا يديّ مستسلماً خالي الوفاض من أي معلومة قد تفيده.

- أقسم إنني لا أعلم عما تتحدث، كيف لي أن أعلم؟

هزّ رأسه وهو يقول:

- لقد انتهت اللعبة يا سليم! لن تستطيع إخفاء جرائمك بعد الآن.

- أي جرائم وأي لعبة هذه التي تتحدث عنها؟ هل مسّك الجنون حقاً؟

- ليتني أصبت بالجنون- قالها وهو يتنهد من أعماق حزنه- ليتني كنت شخصاً أحمق، ليتني سمعت نصيحتك منذ البداية وتخليت عن خوض أوحال هذه القضية كما طلبت مني- نظر إلي كمن يطلب المساعدة- ما الذي سأفعله الآن؟

- أخبرني بما يحصل حتى أستطيع مساعدتك، فأنت ترشقني باتهاماتك منذ وصولي دون أن توضح لي عن أي شيء تتحدث بالتحديد.

خيّمت غمامة قاتمة على عينيه العسليتين وهو يعيد النظر إلي مجدداً.

- الإنكار لن يفيدك. ليتك أخبرتني منذ البداية لكنّا وجدنا حلاً

للمشكلة قبل حدوث هذه الجرائم كلها- كان يشعر بندم وحزن عميقين كمن أضاع فرصة النجاة الوحيدة لكلينا- كنا سنحلّ المشكلة قبل أن تتحول إلى مجرم.

لم أعد أطيق البقاء صامتاً.

- هذا يكفي- صرخت بصوت مرتفع- لا أعلم ما الذي يدور في رأسك وما الذي ترمي إليه من هذا الكلام ولكنني لن أسمح لك أن تتّهمني بالقتل.

بقي ينظر إليّ للحظات صمتاً، ولكنه بدا في الوقت ذاته واثقاً مما يقوله ولم تؤثر حدّتي عليه مطلقاً

- أنت المجرم يا سليم، وكلانا يعلم هذه الحقيقة الآن.

كل تعبير ارتسم على وجهه، كل نظرة لاحت في عينيه وكل حركة من يديه وهو يحدّثني، كانت تتهمني بإصرار وثقة لم أتمكن من زعزعتهما.

- إن بقيت مصرّاً على التحدث معي بهذه الطريقة سأتركك وأذهب.

قلتها مهدّداً.

- لن تذهب يا سليم، لن تذهب.

قالها وهو يجاهد رسم ابتسامة على وجه.

- لما؟ هل ستجبرني على البقاء؟

- لن أفعل بالطبع، لكن ضحاياك الثلاث لن يدعوك بسلام، ستظل صورهم تلاحقك أينما رحلت، ستظل وجوههم تطاردك في كل وجهاتك.

- من هم الضحايا الثلاث، عن أي هراء تتحدث؟

بدأ بالعد على أصابعه وهو يقول أسماء الضحايا الواحد تلو الآخر، ثلاث أصابع، ثلاث خناجر في قلبي.

- أيسون كوفان، كارتال غوكر، كاثرين فيرجاند أم تريد اسمها الحقيقي ياكترينا ألكسندر كريليوف؟ والتي كانت تسمّى كاتيا أيضاً، وهذا كان السبب الذي جعلك تحس بالقلق حال سماعك باسم كاتيا وأن تسألها إن كان لها أقرباء لجأوا إلى اسطنبول إبان الثورة الشيوعية.

- لا بد وأنّ مساً من الجنون أصابك وجعلك تهذي بهذه الكلمات، فأنا لم أشعر على الإطلاق بالقلق من اسمها، كما أنني لا أملك أي سبب يجعلني أقتل هؤلاء الأشخاص.

وعلى الفور بدأ يوضح لي وجهة نظره

- لتحمي سمعة عائلتك والشركة التي تركها لك والدك، لتحافظ

على اسم (أزاي) الذي أسسته بنفسك هل تريد أن أكمل لك؟

- وما علاقة والدي وعائلتي بهذه الجرائم؟

- إنهم أساس المشكلة، ولكنك على ما يبدو مصرّ على الإنكار لذا سأجاريك في لعبتك وأسرد عليك الأحداث منذ البداية.

لقد بدأت القصة عندما قام والدك العم رضا، والذي كنت أحبه وأحترمه على الدوام، بقتل والد ووالدة وشقيق كاثرين فيرجاند. لا تصطنع الدهشة وأنت تنظر إلي وكأنك تسمع هذه الحقيقة للمرة الأولى.

لقد ارتكب والدك جرائمه في خريف العام 1920 في هذا المبنى بالذات، كان حينها شاباً فقيراً ومجرد مستأجر في هذا البناء وهنا تعرّف على الجنرال ألكسندر كريليوف الذي فرّ مع زوجته ناتاليا وابنته ياكترينا وابنه إيفان واستأجر هذا البيت بالذات، كان حاله كحال الآلاف من الروس الذين فروا في تلك الفترة ولكنه في الوقت ذاته كان أكثر دهاء وذكاءً منهم، فخلال فترة خدمته في منطقة ياقوتيستان لم يكن فقط يخدم القيصر نيكولاس رومانوف، فقد عاد من خدمته هناك مع تسعة قطع صقيلة من الألماس ستضمن له ولعائلته عيشاً رغيداً مدى الحياة، وبسبب نشوب الثورة وما أعقبها من دمار وقتل فرّ من مدينة سيفاستبول متجهاً إلى اسطنبول دون أن يصرف أي شيء من ثروته الألماسية وقد تمكّن من إخفاء تلك القطع الثمينة بين ثنايا معطف ابنته المصنوع من الفراء الأحمر والذي كانت ترتديه أثناء رحلة الهروب. وبالطبع لم تكن ثروته الوحيدة هي تلك الألماسات فقد استطاع استئجار منزل في هذا البناء المتواضع بدل التشرد كبقية الآلاف المؤلفة من مواطنيه في شوارع وأزقة هذه المدينة وسواها.

ويبدو أن ثروته المتواضعة بدأت بالنفاد باكراً لذا اضطر إلى إيجاد طريقة لبيع الألماس، ولأنه كان غريباً فلم يثق بأحد سوى والدك الذي تعود أصوله إلى بلغاريا ويستطيع التكلم ببضع عبارات باللغة الروسية والذي كان يعامل هذه الأسرة بلطف واحترام، وهذا ما دفع الجنرال إلى أن يطلعه على سره. كان والدك في تلك الفترة يعمل لدى خياط في سوق الحاج بولو، وربما لم يكن لديه نية سيئة تجاههم في البداية، وكان ودوداً مع جاره الذي يعاني من إفراط في الشرب، ولكن بعد اطلاعه على السر ورؤيته للمعان الألماس وبريقه بدأ الطمع ينخر روحه وأخذ يفكر في الحصول على هذه الثروة الكبيرة لتكون طريق خلاصه الأبدي من العوز الذي كان يعيشه.

- وما أدراك ما حصل حينها بعد مرور كل هذه السنوات.

قاطعته.

ظل يرمقني بتلك النظرات التي تفيض ثقة واتهاماً في ذات الوقت وهو يقول:

- كل هذه المعلومات مدوّنة في سيرة كاثرين فيرجاند الذاتية، فقد تحدثت عن جارهم الشاب الخياط، والذي كان يخيط ألبسة لدماها الخشبية، ولكنها لم تذكر اسمه صراحة.

حسناً، دعنا نعود إلى حكايتنا.

كان الجنرال كريليوف كمعظم الروس الذين لجأوا إلى اسطنبول، أضاعت الحيرة والخوف بوصلة حياتهم. فمن جهة كان يفكّر بالسفر إلى باريس والاستقرار فيها مع عائلته ومن جهة أخرى كان يتمنى كما الغالبية من المهاجرين أن تخفق الثورة الشيوعية ويتمكن من العودة إلى بلاده مرة أخرى، ولأن اسطنبول أقرب إلى روسيا فقد آثر البقاء فيها ريثما تنجلي الأمور. ولكنه أرسل ابنته ياكترينا إلى باريس مع أحد زملائه في السلاح، ليقوم أحد أقربائه هناك بتسجيلها في إحدى المدارس الراقية لتحصل على تعليم ممتاز وذلك في خريف العام 1919، وبدأ يخطط هو الآخر للسفر إلى باريس دون أن يلفت الكثير من الانتباه حوله. وقد أرسل رسالة وحيدة لابنته ليخبرها فيها أنهم يزمعون القدوم إلى باريس في آذار العام 1920.

نظر إليّ كمن يقول أتريد المزيد.

- لا منطق فيما تقوله، أيعقل ألا يسأل أحد أقرباء الجنرال عنه إزاء اختفائه المفاجئ بهذه الطريقة؟

- ومن كان ليسأل عنه في تلك الظروف الرهيبة؟ ابنته التي لم تكمل التاسعة من عمرها؟ أم بقية أفراد الطبقة الأرستقراطية في روسيا والتي كانت مضطرة لبيع شرفها في بعض الأحيان لتتمكن من العيش؟ الكل كان يبحث عن سبيل ليتمكن من البقاء على قيد الحياة في ظل ذاك الطوفان الجحيمي، وأنت تعلم هذا علم اليقين.

- وأنت تتهم والدي بجريمة قتلهم؟

- لست الوحيد، في البداية كانت كاثرين هي من وجّهت أصابع الاتهام إليه ومن ثم أيسون كوفان.

- أيسون كوفان.

- أجل أيسون كوفان- قالها وهو يهز رأسه مؤكداً- وهذا كان السر الذي قرّب أيسون وكاثرين فيرجاند من بعضهما وليس كتاب الخيميائي

نيكولاس فليمل. فكونها تركية الأصل ومن اسطنبول والأهم أنها كانت باحثة تاريخية في تاريخ منطقة بيه أوغلو قد منح كاثرين الأمل بالكشف عن الحقيقة فهي رغم مرور كل هذه السنوات لم تنسَ اختفاء عائلتها الغامض والمؤلم.

وقد أعطتها كتابها المعنون الحياة ابتسامة عابرة كما حدّثتها مطوّلاً عن كل ما تعرفه، وقد زارت اسطنبول أكثر من مرة ولكنها بالتأكيد لن تتعرّف على ملامح الأمكنة بعد كل هذه السنوات، وفي ظل التغيّرات اللامتناهية التي تتعرّض لها بيه أوغلو مع مرور الوقت. فقد رحلت في ظل السلطنة العثمانية، ولكن الوضع تغيّر بعد سنوات وحلت الجمهورية الفتية مكان السلطنة العجوز وتغيرت أسماء الشوارع والمناطق، وبالرغم من ذلك تمكنت من معرفة البناء الذي كانوا يقطنونه، ولكنها لم تكن متأكدة بشأنه فقد كان بحسب ما تذكر مؤلفاً من طابقين، والبناء الذي وجدته أثناء زياراتها كان مؤلفاً من ثلاثة طوابق، ذلك لأن أباك الذي أصبح غنيّاً بين ليلة وضحاها قام بشراء البناء كله، وأضاف إليه طابقاً جديداً.

- أنت مخطئ، فأنا أذكر أن هذا البناء مؤلف من ثلاثة طوابق منذ البداية.

أوضحت له.

- لقد تزوج والدك متأخراً وبالتالي فقد وُلدت بعد مرور أكثر من عشرين عاماً على بناء الطابق الثالث، كما أن الأمر لا يتطلب خبرة ومهارة عظيمين لاكتشاف الحقيقة، فأي عامل لديه خبرة متواضعة في البناء سيدرك أن الطابق الثالث قد بني لاحقاً ولم يكن من أصل البناء. كما أنني متأكد أن أيسون قد أخبرتك بالأمر من قبل.

كما أن كاثرين فيرجاند تعطي دليلاً آخر يؤكد كلامي، فهي تتحدث في كتابها عن سيدة لطيفة يونانية الأصل- لم تذكر اسمها- كانت تقطن في الجهة المقابلة للبناء، وكانت هذه السيدة تعد حلوى السويسرول اللذيذ بنكهة المسكتة.

- وأنت ظننتها السيدة إيريلفيلي التي كانت تقطن قبالة منزلنا وتصنع ذات الحلوى أليس كذلك؟ وكأنها السيدة اليونانية الوحيدة التي كانت تزاول هذه المهنة حينها؟

- بالطبع لا، ولكن الجار الخياط والبناء ذي الطابقين والسيدة اليونانية التي تعد الحلوى، أيعقل أن تجتمع كلها مصادفة؟

- لنفترض أن ما تقوله صحيح، وأن كاثرين وعائلتها كانوا يقطنون

هذا المنزل، أهذا يثبت تورّط والدي في الجريمة؟

- بالطبع لا، ولكنها تشير بوضوح أن هذه العائلة التي اختفت في ظروف غامضة كانت تقطن هنا.

- وهذا يعني أنك غير متأكد من كل ما تقوله، وعلى الرغم من أنني لم أقرأ الكتاب لكنك اعترفت بنفسك منذ قليل أن كاثرين أيضاً لم تكن واثقة تمام الثقة من صحة هذه المعلومة.

- لو أنك قرأت هذا الكتاب لما تمكنت أنا من حل لغز الجريمة مطلقاً- علّق كنعان- ولأنها لم تكن واثقة من الأمر، فقد استعانت بأيسون لتؤكد لها شكوكها، وقد قضت المرأتان ساعات طوال أمام خرائط بيه أوغلو العائدة لمختلف الأزمة من أجل تحديد مكان البناء، وإن كنت تود معرفة كيفية حصولي على هذه المعلومات، فإن غلوريا سكرتيرة كاثرين هي من أخبرتني دون أن تكون لديها فكرة واضحة عن حقيقة وخطورة الأمر، كما لم تكن لديها فكرة عن سبب اهتمامي بالموضوع.

قمت باستغلال جملته الأخيرة لأفهم مراده.

- بيير أيضاً لم تكن لديه فكرة عما ترمي إليه، وإن شئت الصراحة يا صديقي فأنا أيضاً لا أعلم ما الذي تريده في النهاية.

ولكنه وكعادته حين يقتنع بفكرة ما يصرّ على إتمامها مهما كانت جارحة ومؤذية للآخرين.

- يمكنك أن تقنعني أن بيير لم يفهم الأمر، ولكن أنت؟ أحقاً لم تفهم ما أرمي إليه؟

أدركت أن النقاش معه لن يفيد لذا حاولت اللجوء إلى السخرية علّني أخرج هذه الأفكار من رأسه.

- أتعني أنني كنت أعلم بأن والدي شخص مجرم، وأنه كل مساء بدل أن يروي لي قصة قبل أن أنام ككل الآباء، كان يحدّثني عن الجرائم التي ارتكبها، أهذا ما تعنيه؟

- ليس والدك- قالها بثقة محقق لا يقل ذكاء وغروراً عن هيركل بوارو- كانت أيسون هي من أخبرتك، ومن المحتمل أنها اصطحبت معها كارتال وجاءا إلى مكتبك لطلب النقود، كانا في ذات عمر والدك حين ارتكابه للجريمة، وكانا يعيشان في ذات الظروف المادية، عوز وطمع، ويحلمان بحياة أفضل، بالطبع لم تكن كاثرين على علم بعملية الابتزاز، فكل ما طلبته من أيسون هو الوصول إلى الحقيقة لمعرفة الشخص الذي غير أقدار حياتها بهذه الطريقة المأساوية.

فبعد عودتها من باريس، قامت أيسون ببحث دقيق ومفصّل عن تاريخ المنطقة والأحداث التي جرت حينها واستطاعت التوصّل إلى هوية القاتل بشكل مؤكد، ولكنها بدل أن تخبر كاثرين بما حدث قامت باستغلال هذه المعلومات لصالحها، وجاءت إليك طالبة النقود دون أن تطلعك على حقيقة المصدر الذي زوّدها بالمعلومات، وهدّدتك إن لم تدفع لها ما تريد ستقوم بكشف الجريمة وبالتالي ستسبب لك فضيحة مروعة.

بدأت بالضحك

- وأنا بالطبع رضخت لهذه المهزلة، أليس كذلك؟

- ليتك لم تفعل، ولكنك رضخت حقاً، فحتى أنت لم تكن لديك فكرة واضحة عن الطريقة التي حصل بها والدك على هذه الثروة المفاجئة، وأذكر أنك ذكرت أكثر من مرة أمامنا أن والدك كان له شريك روسي الأصل فيما مضى، لم يكن شريكاً يا صديقي، كان الجنرال كريليوف الذي قام والدك بقتله هو وعائلته البائسة.

بالطبع فقد كشفت لك أيسون عن تفاصيل دقيقة جداً تتعلق بحياة والدك وماضيه، وهنا استسلمت لابتزازها ودفعت النقود- توقف للحظات وهو ينظر إليّ بعينيه اللتين تقطران حزناً- لقد ارتكبت حينها غلطة حياتك، ليتك أخبرتني أنا أو نهاد بحقيقة الأمر لنقوم بمساعدتك، ولكن الآوان قد فات الآن.

وفيما كان صديقي يسرد القصة بطريقة مأساوية كنت قد وضعت رجلاً على الأخرى وأنا أستمع إليه وقد بدوت مرتاحاً.

- حسناً... وبعدها قمت بتدبير خطة جهنمية للتخلص من الفتاة والشاب أليس كذلك؟

- كلا، لا أظن أنك كنت تفكّر بقتلهما منذ بداية المشكلة، ربما بدأت بالبحث في القضية من أجل التحقق من صحة ما يقولانه، لذا فقد وافقت على أن تدفع لهما بعض النقود لإسكاتهما حتى التثبت من الأمر. ولكن أمراً طارئاً غيّر مجرى الأحداث بصورة فظيعة، فقد انقطع كارتال من المخدرات وتعرض لنوبة سيئة وقد ذهب حينها لطلب المخدرات من رشاد جوبور الذي وعده أن يوفر له ما يشاء شرط أن يرد له نقوده، وعندها اتصل بك كارتال لطلب النقود دون انتظار الموعد المتفق عليه، وبما أن أيسون كانت مسافرة حينها فقد طلب منك أن توافيه إلى منزله.

عدتُ إلى الضحك بصورة عصبية وأنا اقول:

- أتعتقد أن كارتال أحمق إلى درجة أن يدعو الرجل الذي يقوم

بابتزازه إلى منزله؟

- ليس غبياً ولكنه كان مضطراً بسبب حاجته الماسة لجرعة مخدر في أقرب وقت، كما أنك بالنسبة له لم تكن ذاك الرجل الذي يشكّل خطراً أو يوحي بالخوف، بالطبع هناك احتمال آخر أيضاً إن بدا لك الاحتمال الأول سخيفاً، ربما التقيت به في مكان آخر ولكنك تبعته إلى منزله وقتلته.

- لما لا- قلتها وأنا أمعن في تحويل الحديث إلى مجرد سخرية- إن كان الأمر يرضيك فأنا أقبل كل الاحتمالات.

نظر إلي وهو يضيّق عينيه كمن يحاول الغوص إلى ما خلف قناع السخرية الذي اخترته.

- لا بد وأنك تريد معرفة ما الذي أعرفه وإلى أي حد أنا مطّلع على تفاصيل ما حدث- تمهّل للحظات قبل أن يصرّح- أنا أعرف كل شيء يا صديقي كل التفاصيل حتى النهاية، فبعد قتل كارتال ازداد الأمر سواءً على الرغم من أن أيسون لم تحدد وجهة شكها في البداية، وكانت الاحتمالات تتأرجح بينك أنت وبين رشاد جوبور، ولكنها فضّلت الاحتمال الأخير وهذا ما دفعها لتخبر مرسل بشكوكها والذي بدوره أخبر جونييت، ولكن الشك ظل قائماً في ذهنها وكان لا بد من وسيلة لتصل بها إلى الحقيقة وترتاح وهنا قمت بجريمتك الثانية، وتماماً كما حدث مع والدك حيث لم يشك أحد بارتباطه بجريمة قتل عائلة كريليوف، فإن أحداً لم يشك بارتباطك بهاتين الجريمتين حتى...

- حتى...

قلتها بسخرية وأنا أقلّد طريقة كلامه.

- أجل حتى اقترح عليّ نهاد فكرة المعرض- سكت وعاد يتفحصني بنظراته ثم أكمل- أتذكر اجتماعنا في مشرب إيمروز وكيف بدأت تثور على الفكرة منذ اللحظة الأولى وتقنعني بالتخلي عنها وكيف ابتعدت عنا لفترة طويلة؟..

- أجل لقد ثُرت على الفكرة لدرجة أنني أتيت إليك بنفسي لأعرض مساعدتي، وذلك لكي أمكّنك من القبض عليّ أليس كذلك؟

قلتها وأنا أفنّد رأيه ساخراً.

- أتتوقع حقاً أن أقتنع بهذا الكلام يا سليم؟ ألاعيبك هذه لم تعد تجدي يا صديقي، فعندما أتيت إلى منزلي لتعرض مساعدتك كنت واثقاً تمام الثقة بأنني لن أتخلى عن القضية حتى أصل إلى الحقيقة، وأعترف أنها كانت خطوة ذكية منك أن تشترك في قضية ارتكبتها بنفسك لتتمكن

من التحكّم بالأحداث والإطلاع على كل الأدلة وبالتالي التقدم علينا بخطوة على الدوام، وبهذه الطريقة تعرّفت على المرأة الوحيدة التي علمت بجرائم والدك كاثرين فيرجاند.

- أتتهمني بأنني سافرت إلى باريس من أجل قتلها؟
- أتنكر أنك فعلت؟
- كيف سأقتلها وأنا لم أتمكن من العثور على عنوانها؟
- بالطبع عثرت عليه وبأكثر الطرق بساطة، فقد اتبعت طريق سكرتيرة بيير ذاتها وأخذت رقمها من دليل الهاتف ووصلت إلى العنوان، ولكنك لم تطلعني على الأمر بل ذكرت لي أنك زرت منزل نيكولاس فليمل عوضاً عن ذلك.

اخترت الضحك بدل الرد على اتهاماته وتسفهيها لذا واصل الشرح وهو يقول:

- اعترف أنني ارتكبت خطأً فادحاً عندما كلّفتك بكتابة رسالة إلى كاثرين فيرجاند، ولكنني حينها لم أكن أشك ولو للحظة واحدة في علاقتك بالأمر، وبالطبع فأنت من كتب الرد عوضاً عنها وتقصدت أن توجّه انتباهنا وشكوكنا نحو المخدرات لتضيع الحقيقة في تفاصيل حياة كارتال القذرة.
- لديك خيال رائع يا صديقي.
- لا فائدة من الإنكار، فأنا متأكد من أنك أرسلت لنا الرد عندما كنت في باريس كما أن السكرتيرة غلوريا أخبرتني أنها لم تقم بكتابة هذه الرسالة.
- أليس من المحتمل أن كاثرين كتبتها بنفسها؟
- من الجيد أنك توقفت عن السخرية والضحك، صدّقني أنت في ورطة كبيرة وعليك البحث عن مخرج.
- دعك مني الآن وأجبني على سؤالي.
- الإجابة واضحة يا عزيزي، لما ستقوم امرأة بالتسعين من عمرها وبعد أن اعتادت لسنوات طوال أن تستلم غلوريا عنها هذه المهة، لما ستقوم الآن بتغيير هذه العادة؟ أيضاً نستطيع بكل سهولة مقارنة الرسائل التي تكتبها على كمبيوترك وهذه الرسالة عند أحد الخبراء لنكتشف أنها من المصدر ذاته، كما أنني متأكد أنه لو تم قبول طلب تشريح الجثة لكنّا توصّلنا إلى دليل يثبت تواجدك في منزلها قبل حدوث الجريمة.
- ولكنك لم تستطع تشريح الجثة ولا التوصّل إلى هذا الدليل المزعوم- قلتها وأنا أصرخ غاضباً فقد بدأت عفاريت الغضب تتراقص في

عقلي وقلبي على السواء- ولم يصدق أحد كلامك وهذه السخافات التي تتفوّه بها- بقينا للحظات نحدّق ببعضنا صامتين حانقين ولكنني تراجعت خطوة إلى الخلف وأخذت نفساً عميقاً قبل أن أقول - أعتقد أنك بحاجة لعلاج نفسي على الفور، فقد غيّرتك هذه الصور وبدأت تسيطر على ذهنك لدرجة أنك بدأت تشك بأقرب أصدقائك، وتتهمني بجريمة لا علاقة لي بها على الإطلاق. أتذكر المصورة الأمريكية ديانا أربوس التي حدّثتنا عنها كاتيا وكيف انتحرت بعد أن كانت تصوّر أشياء غريبة ومأساوية؟ أخاف عليك من المصير ذاته يا صديقي، ولكني من جهة أخرى أعترف أن قدرتك التخيلية على اختلاق الأحداث وربطها ببعض قد أذهلتني واقترح عليك البدء بكتابة روايات بوليسية.

- إنها ليست اختلاقات يا سليم- قالها وكأنه يحمل على ظهره وزراً ثقيلاً جعله ينحني تعباً- ليتها كانت كذلك، ولكنها الحقيقة للأسف.

- ولكنك لا تملك أي دليل على كلامك سوى القصة المشوّقة التي سردتها للتو.

- في الحقيقة هناك دليل- قالها كمن يعتذر عن شيء بات من الصعب تغييره أو أن هذا ما خُيّل إليّ، حاولت التمعن في قسمات وجهه علّني أصل إلى يقين ما، ولكن كان من الصعب عليّ أن أميّز بين الجد والهزء في تلك اللحظات.

- هناك دليل؟

- أجل، وبكل أسف.

وكلما انخفض صوته حزناً ارتفع صوتي غضباً.

- وما هو هذا الدليل وأين هو؟ قل لي على أي شيء تعتمد في سرد اتهاماتك.

توقّف للحظات قبل أن يشير بيده نحو الأرض وهو يقول.

- علينا النزول إلى الأسفل.

خرجنا سوية وأنا أفكر في كلامه.

- حسناً لنرى ما هذا الدليل الذي تتحدث عنه.

عندما وصلنا إلى باب الشقة أوضح لي.

- علينا النزول إلى القبو.

- إلى القبو؟ وماذا يوجد هناك؟

وبدل أن يجيبني حدجني بنظرة جليدية تقول ألم تفهم حتى الآن، ولكنني حاولت إبعاد الاحتمال الذي يشير إليه عن ذهني وواصلت أسئلتي.

- لا أفهم ما الذي تعينه، أيمكن أن تشرح لي؟

كان يسبقني في النزول وهو يشرح لي ما يرمي إليه.

- عندما بدأت الحقائق تتكشف أمام ناظري بقيت هناك مسألة وحيدة لم أتمكن من إيجاد حل لها، وهي أجساد الضحايا، أين ذهب بها والدك، ولكنني بعد الكثير من البحث والتفكير قررت أن هناك ما لا يحصى من الاحتمالات، وأسلمت باختفائها كما اختفى القاتل كل هذه السنوات، والبارحة عندما هبطت من الطائرة تذكرت أمراً هاماً وهو رغبة والدك بل إصراره على عدم هدم هذا البناء القديم على الرغم من أنه كان رجلاً غنياً يستطيع بناء ما هو أحدث بكثير، بل وإصراره على السكن هنا حتى إنه أوصاك قبل موته ألا تقوم بهدم هذا البناء، وبالطبع فكرت أنه عند ارتكاب الجرائم لم تكن لديه سيارة وبالتالي كانت مهمة نقل الجثث غاية في الصعوبة، إذا هناك احتمال كبير أن الضحايا لا زالوا في هذا البناء.

وبينما كان صديقي يتحدث وصلنا إلى باب القبو الحديدي الأسود الذي كان على أيام والدي يبقى مقفلاً على الدوام، ولكن دفعة بسيطة من صديقي جعلت الباب يصرّ وينفتح ببطء مريب لتستقبلنا رائحة العفن وقد امتزجت برائحة تراب رطب، وقد شعرت بالندم لأنني أعطيته مفاتيح كل مكان في هذا البناء، وعندما أشعل صديقي الضوء عدت لاكتشاف هذا العالم السفلي الغامض الذي كنت أبقى بعيداً عنه على الدوام، واكتشفت أن القبو واسع حقاً، ولكنه تُرك على حاله فلم يستثمره والدي في أي شيء، كانت الأرضية مشقّقة بشقوق واضحة وقد اختفى البلاط تحت طبقات الغبار المتراكم عبر العقود، وهناك بعض الخردة؛ قطع خشبية هنا وهناك بعض الأثاث القديم كمدفئتنا الحطبية، بعض أكياس الرمل والإسمنت ولكن بيوت العنكبوت التي نسجت في كل الزوايا تقريباً تشير إلى تفرّدها بسكن هذا المكان بعيداً عن زيارات البشر وتطفلهم، وفي أقصى زاوية على اليمين اكتشفت وجود حفرة في الأرض وقد أهيل التراب عنها ووضع جانباً.

وعاد كنعان لسرد القصة التي بدأها.

- نزلت إلى القبو لأتأكد من الأمر وبدأت بالبحث، ولم أتكبّد مشقة في اكتشاف هذه الزاوية التي غطيت ببعض قطع الإسمنت وبدت متشققة ومخلخلة أكثر من غيرها وعند إزاحة هذه القطع واجهني التراب بعريه - أشار بيده نحو الحفرة والأسف يقطر من كلماته- كان من الواضح أن هناك من قام بتكسير بلاطها القديم ومن ثم قام بتغطيتها

بالإسمنت ولكنه لم يكن خبيراً حيث بقيت البقعة مختلفة عما سواها، لذا صعدت وأحضرت معولاً وبدأت بالحفر طوال الليل.

كنا قد وصلنا إلى كومة التراب التي أخرجت حديثاً وقد بدت رائحتها قوية وكثيفة جداً، رائحة رطبة وغامضة تشي بعمق سحيق قد يبتلعنا جميعاً في لحظة واحدة.

أشار بيده نحو الحفرة وهو يقول:

- لم أكن مخطئاً.

في الأسفل كانت العظام المختلطة مع التراب تواجهني بعريها الأبيض، وكانت ثلاث جماجم قد صفت بالقرب من بعضها، اثنان كبيرتان والأخرى تشير إلى أنها عائدة لطفل صغير، كانت عائلة كريليوف هناك تحدّق إلينا بالرغم من مرور كل هذه السنوات.

لم يعد الإنكار مجدياً الآن، وقد اكتشف صديقي المخبأ الذي اختاره والدي، والذي لم يخطر لي التفكير فيه من قبل، هذا كان الفرق بيننا على الدوام، فذكاؤه كان يمنحه ميزة الوصول إلى مكان لا أستطيع بلوغه إلا بعد الكثير من الوقت والجهد وأحياناً تكون النتيجة كارثية كما الآن. لا بد وأنه فخور بذكائه وتفوقه كالمعتاد.

بدأت الدماء تتجمد في عروقي وأنا أواجه جريمة والدي التي أنجبت جريمتي، وبدأت أرمق صديقي والحقد يقطر من نظراتي، لكن وجهه الذي يفيض حزناً وعيناه التي تشي بالندم كانت تقول عكس ما أفكر فيه وهو يخاطبني.

- صدّقني لم أكن راغباً في العثور على العظام، كنت أتمنى من كل قلبي أن أكون مخطئاً وألا أجدها.

- لا أظنك تمنيت ذلك حقاً وإلا لما تابعت القضية حتى الوصل إلى هذه الهوة.

- لم أكن أعلم بأنني سأتعثّر بك في طريقي.

- والآن ما الذي سيحدث، ما الذي تنوي فعله؟

أشاح بنظراته متهرّباً.

- لا أعرف يا سليم.

- عليك أن تعرف، فمصير عائلتي على المحك.

- عليك اللعنة- صرخ يائساً- لم تورطت في هذه الجريمة، لما لم تخبرني بالأمر من قبل؟

- هذا النقاش لن يفيدنا الآن بعد أن وقع المحظور، كما أنني

أستطيع أن أواجهك بالمنطق نفسه وأسألك لم بقيت مصراً على متابعة القضية رغم جميع توسلاتي. ولكن الكلام لن يخفي هذه العظام الآن، أخبرني الآن ما الذي تنوي فعله؟

بدأ يمشّط بيده اليمنى خصلات شعره الأجعد كعادته حين يفكّر في أمر هام.

- صدقني لا أعلم كيف سنخرج من هذا المأزق.

كنا لا نزال واقفين على حافة الحفرة فيما نظرات كنعان تنتقل بيني وبين العظام القابعة أمامه.

- عليك أن تخبرني بما ستفعله، يجب أن أعرف.
- كُف عن الإصرار فأنا لا أعلم بعد، دعنا نخرج من هنا ونقفل الباب.
- دون أن نعيد ردم الحفرة؟
- لم أقرر بعد ما الذي عليّ فعله، يجب أن أفكر مليّاً.

قالها وهو يتجه نحو الباب.

- كنعان توقّف.

لم يبال بندائي.

- قلت لك توقّف.

توقّف وعاد إليّ.

- هناك ست جثث يا سليم، إنه أمر فظيع.
- أتعني أنك ستخبر الشرطة؟

نظر إلي بأسى.

- أنا آسف- قالها وهو يبتعد عني. كانت جهود والدي وجهودي وكل أحلامي وحياتي ومن أحب تبتعد معه...
- توقّف- صرخت مجدداً ولكنه أكمل سيره، وعلى نحو لا إرادي توجهت يداي نحو السلاح الذي أحمل.
- توقّف كنعان.

سحبت الزناد وعندها توقّف على الفور والتفت نحوي وقد وصله الصوت، نظر إليّ غير مصدق ولكنها كانت المرة الأولى التي تأكّد فيها من أن صديقه مجرم بالفعل.

- ما الذي تفعله؟- قالها مضطرباً وهلعاً- أتنوي قتلي أنا أيضاً؟
- ألا تستطيع نسيان ما عرفت؟- كنت اقترب منه والمسدس في يدي وأنا مقتنع تماماً من أنه لن يتغاضى عن الأمر- انسى ما رأيته هنا

واعتبره لم يحدث.

كان متردداً وهو ينظر إليّ.

- دعنا نتحدث ونفكّر سوية. ولكنني الآن لا أستطيع أن أقرّر شيئاً.

كنت أكثر حيرة واضطراباً منه، ولا أعرف ما يجب فعله كان صوته يصلني دون أن أعي حقيقة ما يقول، كنت راقداً في قعر تلك الحفرة والأصوات والأفكار تصلني من بعيد دون أن أتمكّن من فك طلاسمها، كانت أحد الكوابيس التي تتحقق بصورة مفجعة.

- لا أستطيع التعايش مع أمر كهذا وكأنه لم يكن، حتى أنت لن تستطيع ذلك. كما أن لديك دافعاً قوياً وهو الابتزاز والمحكمة ستراعي هذا الوضع بالإضافة إلى أن كارتال كان مدمناً وهذا سيساعدك ويخفّف من الحكم، وسأحرص على أن يتولى أفضل المحامين الدفاع عنك.

تقابلت نظراتنا وحينها أدركت أنه لن يتغاضى، وسيخبر الشرطة بكل شيء. ودون قرار مسبق ودون حتى أن أكون متأكداً من رغبتي في ذلك ضغطت يدي على الزناد.

تحولت آخر حروفه إلى آهة عميقة وهو يمسك بصدره حيث اخترقت رصاصة جهة القلب، ركع على ركبتيه متألماً.

- لقد أطلقت النار عليّ.

قالها بصعوبة ولكن دون غضب أو كره، دون لوم أو اتهام، فقط كانت الدهشة هي التعبير الوحيد الذي أبداه صديقي بين ثنايا الوجع.

- لقد قتلتني يا سليم.

قالها وهو ينظر إليّ بعينيه العسليتين الجميلتين وقد خمد بريقهما.

أنا أيضاً لم أصدّق ما فعلته، أجل لقد قتلت أقرب أصدقائي، قتلت كنعان ولكنني لم أعلم ما الذي يجب عليّ فعله، هل أجهز عليه برصاصة أخرى لأتأكد من موته أم عليّ أن أقوم بإسعافه علّه ينجو.

بعد لحظات سقط صديقي على الأرض مفارقاً الحياة، ولكنني بقيت في حيرتي وهلعي لا أتجاسر على الاقتراب منه، وهنا سمعت صرير باب القبو الحديدي وهو يُفتح.

دخلت كاتيا أولاً وما إن رأت المشهد حتى انتابها الفزع وبدأت الصراخ بجنون، وبعد ثوانٍ دخل نهاد الذي انتقلت نظراته بيني وبين وكنعان وكاتيا غير مصدق ما يرى.

ما الذي فعلته؟... ما الذي فعلته؟

أظنني كنت أدمدم بهذه الكلمات...

لا بد وأنكم أدركتم أنني أكتب هذه السطور وأنا في غرفتي في السجن. للأسف كانت رصاصتي قاتلة واخترقت قلب صديقي الذي فارق الحياة على الفور، تركت نهاد وكاتيا في القبو، وتوجهت نحو قسم الشرطة لأسلّم نفسي، وقد أبدى المحقق جونييت الأسف عند سماعه اعترافاتي، ولكنه كان في الحقيقة راضياً عن هذه النتيجة التي أبعدت المتطفلين عن دربه، ليتصرّف على هواه.

لقد مات كنعان ولكنه لسخرية القدر قد وصل إلى الحقيقة التي كان ينشدها، وبعد أن تجاوزت كاتيا الصدمة وتمالكت نفسها قليلاً قررت مع نهاد إتمام المعرض والتقاط بقية الصور وافتتاح المعرض كما كان مزمعاً ولكنها أضافت إليه صورة جثة كنعان أيضاً وبهذا بلغ صديقي الخلود الذي يريد وصفّت صورته إلى جانب صور الضحايا.

وبعد مرور شهرين على الجريمة تم افتتاح المعرض تحت اسم جرائم بيه أوغلو حيث نال اهتماماً كبيراً من الصحافة والنقاد، وللمرة الثانية بعد موته تحقّقت رغبته، وقد صوّرته الصحافة أنه المصور المبدع الحزين حتى إن أحد أهم النقاد كتب مقالة عنونها باسم (لبلوغ الخلود عليك أن تبلغ الموت) وقد نال المقال الكثير من الاهتمام وتلاه الكثير من المقالات المؤيدة، وبذلك كنت الجسر الذي حقّق لصديقي الخلود الذي بدأ ينشده بعد حادثة الطائرة التي تعرّض لها.

أما بالنسبة لنهاد فقد بقي لأشهر طويلة تحت تأثير الصدمة لذا لم يأتِ لزيارتي ولم يتصل بي، عكس كولريز التي كانت تتصل على الدوام لتطمئن عليّ وتخبرني بآخر مستجدات القضية، وفي أحد الأيام جاءت فجأة لرؤيتي دون سابق إنذار، ولكنها لم تتطرّق إلى ما حدث ولم توجّه إليّ أي لوم أو اتهام، بل على العكس كانت متضامنة في أعماقها معي كما خُيّل إليّ، كنا نتحدث عن كل شيء سوى كنعان، ويبدو أن علاقتها مع ملك تحسنت كثيراً فكانت تحدّثني عن ديزى ودراستها أيضاً، وبقيت تزورني على الدوام ولا تفوّت أي زيارة، وقد سقطت عني تهم قتل أيسون وكارتال لعدم كفاية الأدلة ولم تتبقَّ سوى تهمة قتل كنعان، والتي كانت تتأمل زوجتي أن أنجو منها سريعاً، بسبب قرارات العفو التي تصدر بين الحين والآخر.

كنت أتحدث مع بورج عبر الهاتف فقط، فطبيبه قد أبلغنا خطورة

رؤيته لي في هذا الوضع على حالته النفسية، وهذا يعني أنني سأبقى بعيداً عن ابني لفترة طويلة.

أما كاتيا فلم تأتِ لزيارتي مطلقاً وبالطبع لن ألومها، على العكس فقد سرّني كثيراً إصرارها على إتمام التصوير وافتتاح المعرض، وبعد ذلك باعت البيت الذي ورثته عن زوجها وعادت إلى بلدها، فما ستفعل في بلد سلب منها الرجلان اللذان أحبتهما.

كنت خائفاً على متجري أزاي بعد ما حصل، فمن سيرغب في الشراء من متجر اتضح أن صاحبه مجرم، وتداولت الصحف والمجلات اسمه لفترة طويلة، ولكن حدث عكس ما توقعته، فمع ازدياد اهتمام الصحافة بالجريمة كانت أعمال المتجر تزدهر بشكل ملحوظ. وهنا تذكرت مقولة والدي وهي أن منطق القوة هو الذي يطغى على منطق العدالة، فمهما كنت صادقاً ورحيماً وذا ضمير يقظ، فهذه الصفات لن تفيدك إن كنت فقيراً وضعيفاً، ولكن القوة النقود والثروة أمور تطغى على كل سلبياتك وتجذب الكل إليك كمغناطيس.

لقد استلمت كولريز مكاني في العمل وقامت بمساعدة من ممدوح مدير المعمل وجيهان مدير المتجر بتسيير الأمور، وكانت تبلي بلاء حسناً واستطاعت إيجاد مربّية جيدة لبورج لكي تتفرغ للعمل. بالطبع تخلى الطليان عن فكرة الشراكة، ولكن بيير بقي يعمل معنا واستطاع في النهاية إيجاد شركاء فرنسيين وتحقيق الحلم الذي جاهدت في سبيله، والذي تحقق على يد زوجتي. لم أكن أعلم أعليّ أن أفرح وأشعر بالفخر أم أحزن لأن حلمي حقّقه سواي، وعلى الرغم من ذلك واصلت دعمهم من السجن وإبداء النصح، مواسياً نفسي بأنني أساهم معهم في العمل.

كنت أمضي أيامي في السجن بكتابة هذه الرواية البوليسية التي اختلطت عليّ أحداثها ولم أعد أميّز بين الواقع وما أضافته مخيّلتي من أحداث وشخصيات، لم أكن بالطبع بذكاء كنعان وفطنته ولكن القراءة المتواصلة تكسب الإنسان أحياناً مهارة الكتابة أيضاً، وكما في الكثير من الروايات فإن الكاتب يكون قد عايش بعض أحداثها، ولكن أن يعايش أحداثها ويكون هو القاتل ويكتب الرواية أيضاً كانت مصادفة غريبة بعض الشيء، لذا كنت أحياناً اقرأ ما كتبت وأنا أتخيل المجرم شخصاً آخر صنعته مخيلتي.

ولكنني لم أكتب هذه الراوية بسبب شغفي بالروايات البوليسية أو بسبب موهبة أدّعي امتلاكها، وليس بالطبع رغبة في تزجية الوقت، كنت

أكتبها لأنه كان في كل مساء وعندما تطفئ الأضواء ويخلد الجميع إلى النوم ويخيّم الصمت العميق على السجن كان صديقي يأتي إليّ، كان كنعان يخرج من ثنايا الألم والذاكرة ويتجسد أمامي. كان يجلس على طرف السرير كل مساء كما كان يفعل حين كنا في الثانوية معاً ننام في الغرفة ذاتها، إذا أراد أن يحدّثني في أمر ما، ويسألني من دون حقد أو حزن، فقط كان يبدو مستغرباً وهو يقول لي:

- لما يا سليم؟.. لما فعلت ذلك؟

كان يجلس حتى الصباح وهو يرمقني بعينيه العسليتين متسائلاً بدهشة تؤلمني، دهشة تبحث عن إجابة لا أملكها، فكلما رأيته داخلاً أحس بتيبّس أطرافي، وينعقد لساني فلا أستطيع أن أجيبه بشيء، ويظل هو في مكانه بانتظار جواب ما يريحه، لذا قررت كتابة هذه الرواية علها تحوي إجابة عن سؤال صديقي.

لكنني لست متأكداً من أنني أجبت عن السؤال، أحقاً تكمن الإجابة هنا؟ أم من الممكن أن تكون بين هذه الصفحات والكلمات؟ أظنني كتبت هذه الراوية لأعرف أنا لما قمت بقتل صديقي، ولأجيب عن سؤال روحي المتألمة كل مساء.

# لمحة عن المؤلف

ولد أحمد أوميت في غازي عنتاب سنة 1960، أنهى دراسته الجامعية في جامعة مرمرة سنة 1938 قسم العلاقات العامة، ثم ذهب للدراسة في موسكو في الأعوام 1985-1986 في كلية العلوم الاجتماعية.

صدر أول ديوان شعري له في العام 1989 بعنوان: خفايا الأزقة. لم يلق هذا الديوان الاهتمام الكافي حتى أعادت دار إيفريست للطباعة والنشر نشره مجدداً في العام 2011. أول عمل روائي له كان رواية (ليلة حافية القدمين)، وقد صدرت عام 1992. وفي العام 1994 أصدر عمله الروائي الثاني (صوت غيّر صمت الليل). أما في العام 1999 فقد أصدر رواية (مفتاح أجاثا). كما أصدر رواية (الشيطان يكمن في التفاصيل) عام 2002، و(حكايا في قلب الحكاية) عام 1995؛ والتي كانت تستهدف القراء الصغار والكبار على حدّ سواء، بالإضافة إلى رواية (أرض غير موجودة) عام 2008، وقد تركت الروايتان الأخيرتان بصمة مميزة في عالم الأدب.

أما روايته البوليسية (الليل والضباب) التي أصدرها عام 1996فقد كانت بحسب النقاد من أهم الروايات البوليسية. توالت بعد ذلك رواياته (رائحة الثلج) عام 1988، وباتاسانا عام 2000، والدمية عام 2002.

ومن ثم رواية (خارطة لروح الإنسان)، و(الحب عبودية)، و(على أنغام أزقة بيه أوغلو)، و(باب الأسرار)، و(خارطة اسطنبول)، و(مقتل السلطان).

كما أصدر بالاشتراك مع إسماعيل كولكيج سلسلة من القصص المصورة التي قامت دار إيفريست بطباعتها.

انتهى